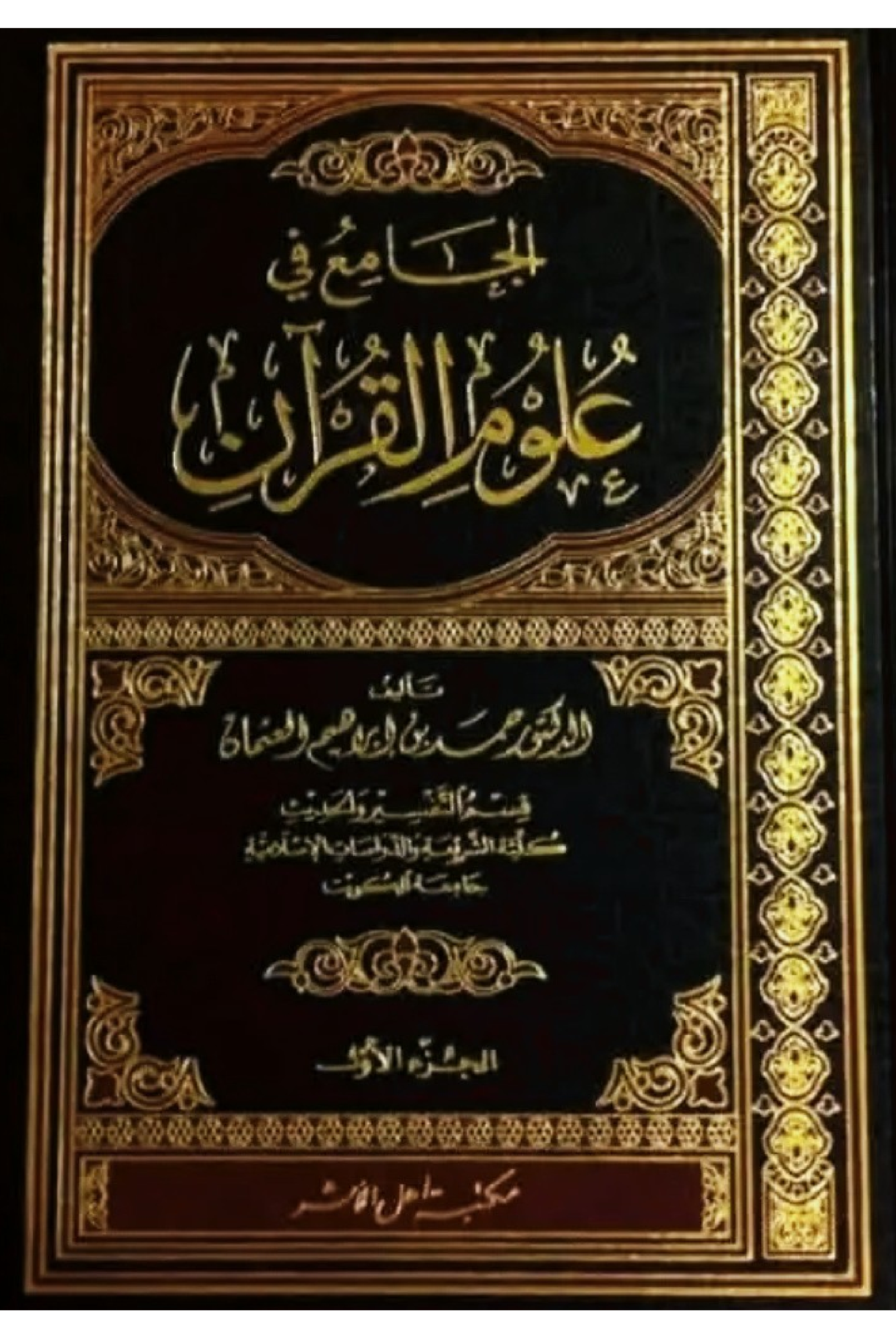

الجامع في
علوم القرآن
تأليف
الدكتور محمد بن إبراهيم العثمان
قسم التفسير والحديث
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة الكويت
الجزء الأول
مكتبة أهل الأثر



تأليف

الدكتور حمد بن إبراهيم العثمان

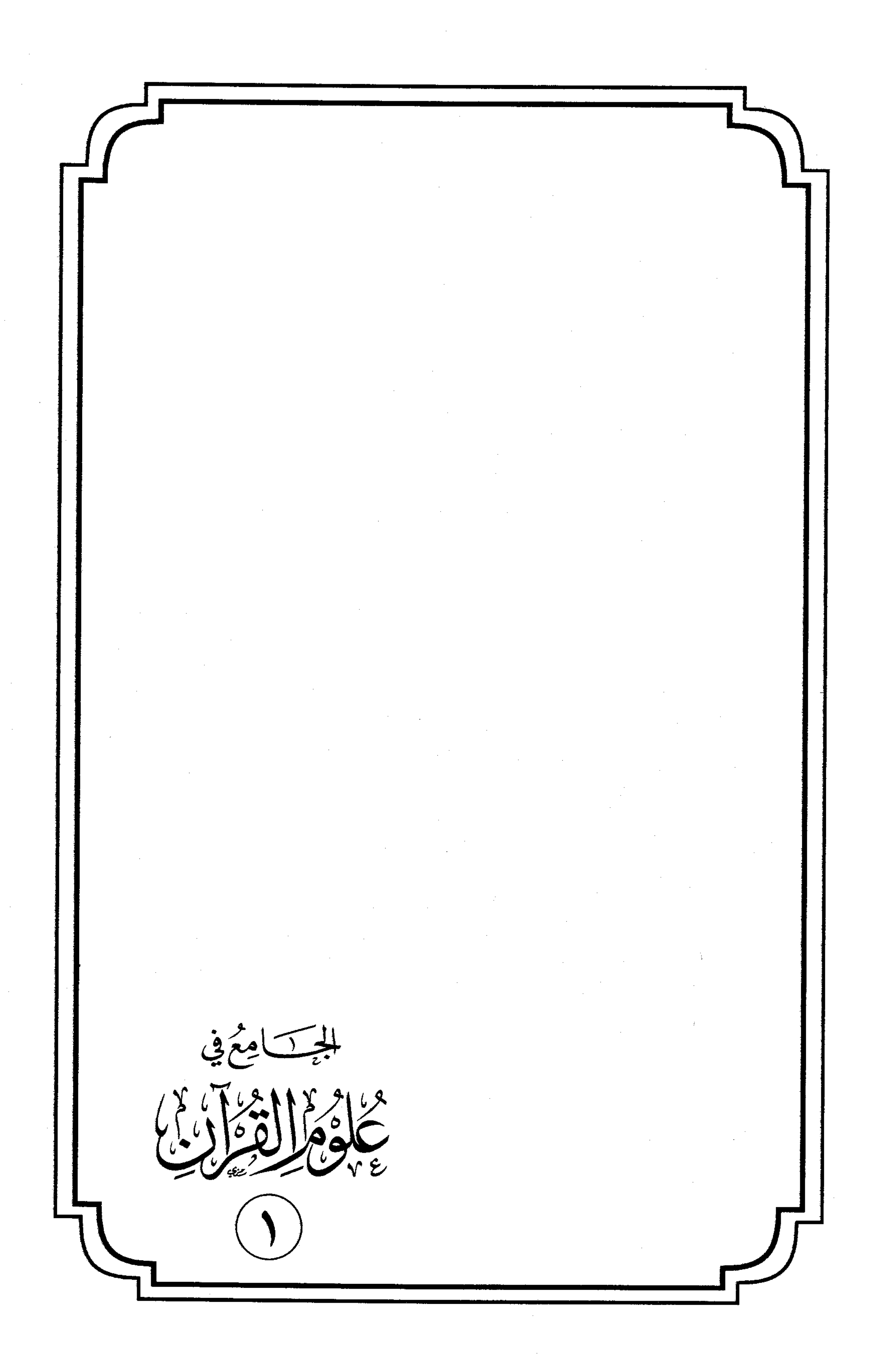
قسم التفسير والحديث
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة الكويت

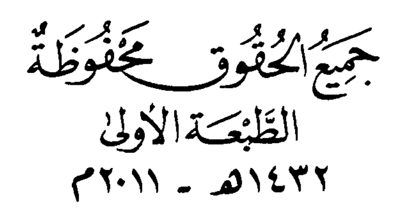
الجزء الأول

مكتبة أهل الأثر



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة


الجامع في
علوم القرآن
١



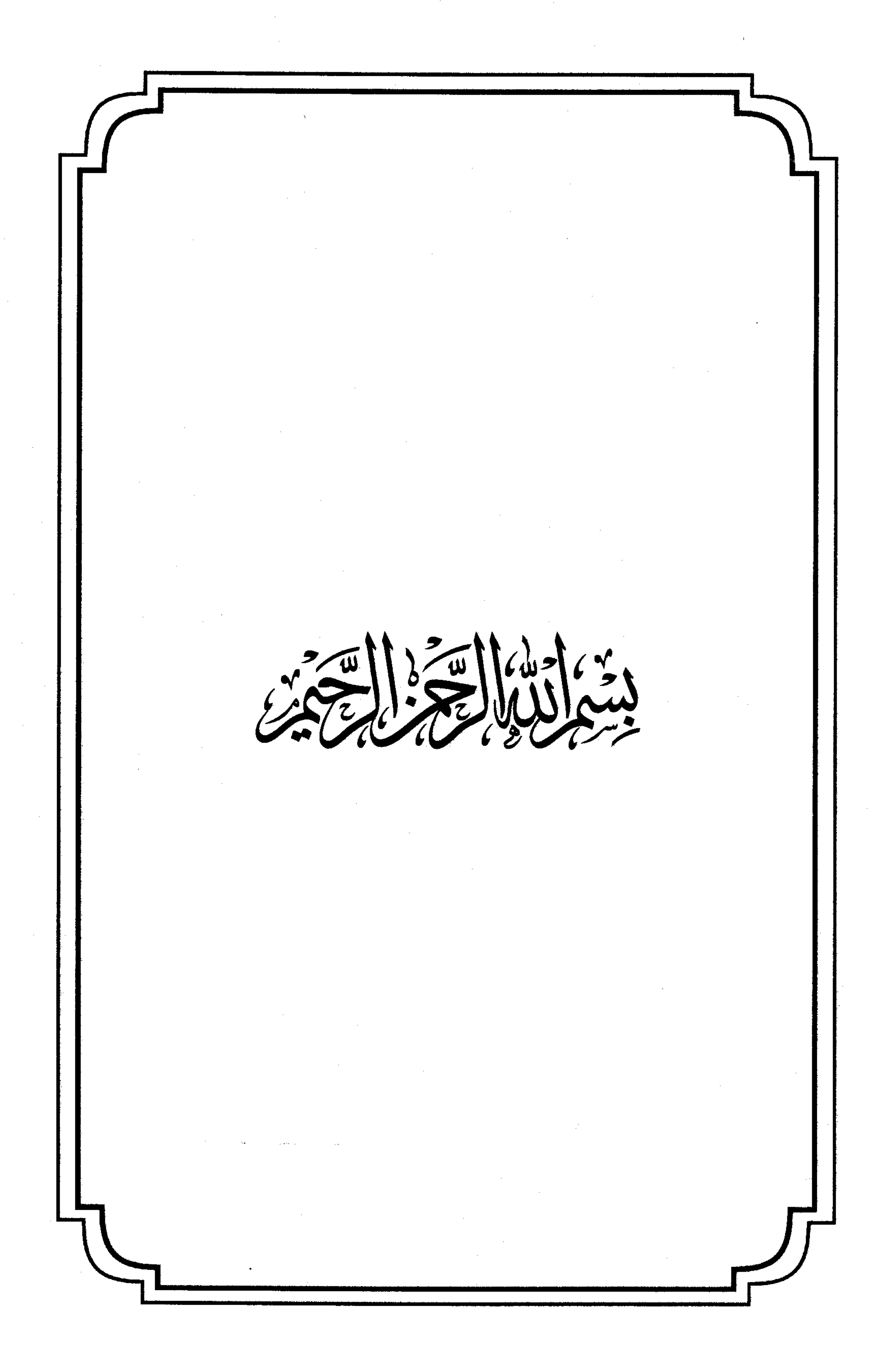


مكتبة أهل الأثر للنشر والتوزيع

الكويت . حولي . شارع المثنى . تلفاكس:

٢٦٥٦٤٤٠ / الخط الساخن: ٦٥٥٤٣٦٩

E.mail: aahel_alather@hotmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فإن كتاب الله تعالى هو وحيه المبين، وصراطه المستقيم، وحياة الأرواح وزكاءها وشفاءها، وهو الفرقان الذي يهتدي به المسلم في حياته فيتخذه منهجاً ينير به دروب حياته، ويكون سبباً في تمييزه بين الحق والباطل.

القرآن عقيدتنا وذكرنا، وفيه بيان ما يقربنا إلى الله تعالى ويوجب مرضاته، مما أوجبه علينا من التكاليف والعبادات والطاعات.

والقرآن فيه أحسن القصص التي ساقها الله في أحسن بيان وأجمل عبارة، فللفظه حلاوة، ولمعانيه كمال البيان بأوجز عبارة، قصص ساقها الله للعظة والعبرة، تبيّن سُنَّة الله في خلقه، وعاقبة أهل الإيمان والقرآن.

القرآن هو مادة العلوم الشرعية كلها: العقيدة، والفقه، والتفسير، وغيره، فمن أجل هذا فالموفق هو من تنصرف همّته إلى حفظ هذا

القرآن، وتدبّر معانيه، والتدين بما فيه. فمن أجل هذا أذكر فصولاً مهمّة في أوصاف كلام ربنا، وأسباب حفظه وفهم معانيه.

والله أسأل أن يجعله عملاً خالصاً متقبلاً، وأن يجعلني من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

والحمد لله رب العالمين.

الباب الأول:

فضائل القرآن وأوصافه



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الفصل الأول
فضائل القرآن وأوصافه


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

فضائل القرآن وأوصافه

القرآن كلام ربنا ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]، وهو هدى ونور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

وهو شفاء للصدور من الشبهات والعقائد الفاسدة وأمراض الشهوات، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقراءته تجارة رابحة لا خسارة فيها أبداً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

هذا الكتاب الذي تتصدع له الجبال كما قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، ولو كان شيء يُسيِّر الجبال أو يُقطّع الأرض أو يُكلّم الموتى لكان هذا القرآن،

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [الرعد: ٣١]، كتاب مبارك: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، كتاب أنزله ربنا بعلم ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢]، هذا الكتاب أحسن الحديث كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، سمعته الجن فقالت: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١] وهو والله كذلك، كيف لا وهو كلام رب العالمين.

هذا الكتاب أنزله الله لنقرأه ونتدين به ظاهراً وباطناً ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٩٢].

وفضائله كثيرة عظيمة، لا يأتي عليها الحصر، فما من خير ومعروف وعلم نافع إلا وقد دلّ عليه وما من شر إلا وحذّر منه ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

وحفظ القرآن نجاة من النار، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار»[1] .

---

(١) رواه أحمد (٤/١٥٥)، والفريابي في فضائل القرآن (ص ١١٠ – رقم ٢).

قال الإمام أحمد رحمه الله[1] : «يُرجى لمن القرآن محفوظ في قلبه أن لا تمسه النار»، وعلَّق البغوي رحمه الله بقوله[2] : «هذا كما يروى عن أبي أمامة رضي الله عنه، قال: «احفظوا القرآن فإن الله لا يُعذِّب بالنار قلباً وعى القرآن».

وحفظ القرآن نجاة من كربات الحشر وأهوال يوم القيامة، وأمان من الفزع الأكبر، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر، ولا ينالهم الحساب، هم على كثيب من مسك حتى يُفرغ من حساب الخلائق: رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله، وأَمَّ به قوماً، وهم به راضون، وداع يدعو إلى الصلوات ابتغاء وجه الله، وعبدٌ أحسن فيما بينه وبين ربه، وفيما بينه وبين مواليه**»[3] .

فحفظ القرآن كما أن صاحبه يجد عائدته وفضله في الدنيا فهو في الآخرة أعظم ثواباً وأقر للعين، فعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**عليك بتلاوة القرآن، فإنه نورٌ لك في الأرض، وذخر لك في السماء**»[4] .

---

(١) شرح السُّنَّة للبغوي (٤/٤٣٧).

(٢) شرح السُّنَّة (٤/٤٣٧).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، وفي الصغير (٢/١٢٤)، وقال الهيثمي في مجمع البحرين (٢/٧): «رواه الترمذي باختصار».

(٤) رواه ابن حبان (١/٢٨٧ - رقم ٣٦٢).

ومن ذخره في الآخرة أنه يشفع لصاحبه، فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه**»[1] .

كما أن الماهر بالقرآن عاقبته حميدة في الدار الآخرة مع ملائكة الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران**»[2] .

وقارئ القرآن تحيطه الملائكة، وتحفّه رحمة الله، وتغشاه السكينة، فيا لله ما أعظمها من فضيلة، وهنيئاً لمن شغل وقته بقراءة ومذاكرة القرآن، فهو في رحمة الله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله يتلون كتابه ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفَّتْهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**»[3] .

قال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله[4] : «إن من نعمة الله على العبد أن يكون الذي يتولاه الملائكة، لأن الملائكة

---

(١) رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة القرآن (ص ٣٢٥ – رقم ١٨٧٤).

(٢) رواه البخاري كتاب التفسير باب سورة عبس (ص ٨٨٠ – رقم ٤٩٣٧)، ومسلم كتاب صلاة المسافرين باب فضل الماهر بالقرآن (ص ٣٢٣ – رقم ١٨٦٢).

(٣) رواه مسلم كتاب الذكر والدعاء باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن (ص ١١٧٣ – رقم ٦٨٥٣).

(٤) تفسير سورة آل عمران (١٣٧/٢).

تثبت على الخير بخلاف الشياطين فإنها تثبت على الشر، ويتفرع على هذه الفائدة أنه إذا امتنعت الملائكة عن بيت فإنه نوع من العقوبة كما في قوله عليه الصلاة والسلام: «**إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة**» ».

والرحمة والسكينة والملائكة تحيط بكل من قرأ كتاب الله حيثما كان، لا يختص ذلك بالمسجد كما قد يُفهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، يدل لهذا العموم حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن أسيد بن حضير رضي الله عنه بينما هو في ليلة يقرأ في مربده إذ جالت فرسه، فقرأ ثم جالت أخرى، فقرأ ثم جالت أيضاً. قال أسيد رضي الله عنه: فنظرت فإذا مثل الظُّلَّة فوق رأسي فيها أمثال السُّرُّوج، فغدوت على رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال رسول الله ﷺ : «**تلك الملائكة تستمع لك، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم**»[١] .

والقلوب الحافظة للقرآن أوعية حية بنور الوحي، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ[٢] : «**إن الرجل الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب**».

---

(١) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن (ص ٨٩٩ – رقم ٥٠١٨)، ومسلم كتاب صلاة المسافرين باب نزول السكينة لقراءة القرآن (ص ٣٢٢ – رقم ١٨٥٩).

(٢) رواه الترمذي كتاب فضائل القرآن باب الذي ليس في جوفه القرآن كالبيت الخرب (ص ٦٥٥ – رقم ٢٩١٤).

وهذا القرآن هو أعظم ما يُوصى به، قال طلحة بن مُصرِّف: سألت عبدالله بن أبي أوفى: أوصى النبي ﷺ ؟ قال: لا، فقلت: كيف كتب على الناس الوصية؟ قال: أُمروا بها ولم يوص؟ قال: أوصى بكتاب الله عز وجل(١) .

وقال ابن عون رحمه الله (٢) : «ثلاث أحبهن لنفسي ولإخواني: هذه السنة أن يتعلَّموها ويسألوا عنها، والقرآن يتفهَّموه ويسألوا عنه، ويدعوا الناس إلا من خير».

والقرآن يرفع صاحبه، فهو أولى بكل فضل وأحرى بكل سبق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً وهم ذو عدد فاستقرأهم، واستقرأ أحدثهم سناً، فقال: «ما معك يا فلان؟ قال: معي كذا وكذا، وسورة البقرة؟ قال: اذهب وأنت أميرهم»(٣) .

وكذلك لما رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه نائبه على مكة جعل على وادي عسفان ابن أبزى مولى من الموالي لأنه حافظ للقرآن عالم بالفرائض قاض، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الله يرفع بهذا القرآن أقواماً ويضع به آخرين (٤) .

---

(١) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب الوصاة بكتاب الله (ص ٩٠٠ - رقم ٥٠٢٢).

(٢) ذكره البخاري تعليقاً مجزوماً به كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ.

(٣) رواه الترمذي كتاب فضائل القرآن باب ما جاء في سورة البقرة (ص ٢٨٧٦ - رقم ٢٨٧٦) وصححه ابن حبان (٣/٢٨٤ - رقم ٢١٢٣).

(٤) رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلِّمه (ص ٣٢٩ - رقم ١٨٩٧).

وكذلك روى هشام بن عروة عن أبيه قال: تلا رسول الله ﷺ يوماً: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، فقال شاب من أهل اليمن: بل عليها أقفالها حتى يكون الله عز وجل يفتحها أو يفرجها، فما زال الشاب في نفس عمر رضي الله عنه حتى وُلِي، فاستعان به[١] .

وفي إمامة الصلاة قال النبي ﷺ: «يؤم القوم أقرأهم لكتاب الله»[٢].

ولما اضطر النبي ﷺ إلى دفن أكثر من رجل في قبر واحد، قدَّم في اللحد أكثرهم قرآناً[٣].

وقارئ القرآن أسعد الناس بالكرامة والحلل في الدار الآخرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول ﷺ قال: **«يجيء صاحب القرآن يوم القيامة، فيقول القرآن: يا رب، حَلِّهِ، فيُلبس تاج الكرامة، ثم يقول: يا رب، زده، فيُلبس حُلّة الكرامة، ثم يقول: يا ربِّ: ارْضَ عنه فيُرضى عنه، فيقال له: اقرأ ارْق، ويزداد بكل آية حسنة»**[٤] .

---

(١) رواه الطبري في جامع البيان (٢١/٢١٧)، وابن كثير في تفسيره (٧/٣٢٠).

(٢) رواه مسلم كتاب المساجد باب من أحق بالإمامة (ص ٢٧١ – رقم ١٥٣٢).

(٣) رواه البخاري كتاب الجنائز باب الصلاة على الشهيد (ص ٢١٤ – رقم ١٣٤٣).

(٤) رواه الترمذي كتاب فضائل القرآن باب الذي ليس في جوفه من القرآن (ص ٦٥٥ – رقم ٢٩١٥) وقال: حسن.

وحسبك من فضل أهل القرآن في الدنيا والآخرة حديث عثمان ابن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **«خيركم من تعلَّم القرآن وعلّمه»**[1].

وقارئ القرآن زاكي، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثلُ الأترجة ريحها طيب وطعمها طيِّب»**[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تعلَّمُوا القرآن واقرؤوه، فإن مثل القرآن لمن تعلَّمه فقرأه كمثل جراب محشو مسكاً يفوح ريحه في كل مكان، ومن تعلَّمه فيرْقُد وهو في جوفه فمثله كمثل جراب وُكِئ على مسك»**[3].

وحسبك من فضل قارئ القرآن أنه من أهل الله وخاصته، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن لله أهلين من الناس، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: أهل القرآن هم أهل الله وخاصته»**[4].

---

(١) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب خيركم من تعلم القرآن (ص ٩٠١ - رقم ٥٠٢٧).

(٢) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب فضل القرآن على سائر الكلام (ص ٩٠٠ - رقم ٥٠٢٠)، ومسلم كتاب صلاة المسافرين باب فضيلة حافظ القرآن (ص ٣٢٢ - رقم ١٨٦٠).

(٣) رواه الترمذي كتاب فضائل القرآن باب ما جاء في سورة البقرة (ص ٦٤٧ - رقم ٢٨٧٦)، وقال: حسن، وصححه ابن خزيمة (٣/٥)، وابن حبان (٣/٢٨٤ - رقم ٢١٢٣).

(٤) رواه الحاكم (١/٥٥٦)، وابن ماجة كتاب السنة باب فضل من تعلَّم القرآن (ص٣٣ - رقم ٢١٥)، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (١/٧٢)، وقال المنذري «إسناد صحيح». الترغيب والترهيب ص ٢٨٨.

ولا أعرف عبادةً أيسر عملاً وأعظم أجراً من قراءة القرآن، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحنُ في الصُّفة، فقال: **«أيكم يحبُّ أن يغدو كُلَّ يوم إلى بُطْحان، أو إلى العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطيعة رحم؟** فقلنا: يا رسول الله كلنا نُحبُّ ذلك، قال: **«أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيَعْلَمَ، أو فيقرأ آيتين من كتاب الله عزَّ وجل خير له من ناقتين، وثلاث، وأربع خيرٌ له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل»**[(١)].

والناقة الكوماء هي عظيمة السنام.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قرأ حرْفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألَمّ حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»**[(٢)]. فانظر ما تجتنيه من قراءة القرآن، صفحة واحدة فيها مئات الحروف بعشر حسنات، فصفحة بآلاف الحسنات، فأي فضل أعظم من هذا؟!!

وهذا القرآن مجيد كما نعته الله سبحانه بقوله: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١].

---

(١) رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة القرآن (ص ٣٢٤ – رقم ١٨٧٣).

(٢) رواه الترمذي كتاب فضائل القرآن باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن (ص ٦٥٤ – رقم ٢٩١٠)، وقال: حسن صحيح.

قال العلامة أبو المظفر السمعاني رحمه الله (ت: ٤٨٩هـ)[١] :

«قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ أي: عظيم الكرم، ويقال: الكريم.

يقال: تماجد القوم إذا تفاخروا بالكرم، وأظهروه من أنفسهم، وقيل: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾: أي الرفيع، ومعناه: رفيع القدر والمنزلة».

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله: (١٣٧٦هـ): «أي وسيع المعاني، عظيمها، كثير الوجوه، كثير البركات، جزيل المبرات، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها، وأحق كلام يوصف بذلك هذا القرآن، الذي قد احتوى على علوم الأولين والآخرين، الذي حوى من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزلها، ومن المعاني أعمّها وأحسنها. وهذا موجب لكمال اتِّباعه وسرعة الانقياد له، وشكر الله على المنّة به، ولكن أكثر الناس لا يقدِّر نعم الله قدرها»[٢].

وهذا القرآن لا شك أنه مجيد، فالمتكلم به هو الله، وهو مجيد في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].

---

(١) تفسير القرآن (٥/٢٣٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٥٥.

قال العلامة السعدي رحمه الله[1] : «أي: هذا الكتاب ﴿لَدَيْنَا﴾ في الملأ الأعلى في أعلى الرُّتب وأفضلها ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾؛ أي: لعليٌّ في قدره وشرفه ومحله، حكيم فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه مخالف للحكمة والعدل والميزان».

وهذا القرآن أيضاً: «رحمة»، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[2] : «وهي الخير الديني والدنيوي والأخروي المترتب على الاهتداء بالقرآن، فكل من كان أعظم اهتداء به فله من الرحمة والخير والسعادة والفلاح بحسب ذلك».

وهذا القرآن كتاب عزيز، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١].

قال ابن عطية الأندلسي رحمه الله[3] : «وصف تعالى الكتاب بالعزّة، لأنه بصحة معانيه ممتنع الطعن فيه والإزراء عليه، وهو محفوظ من الله تعالى، قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه كريم على الله تعالى، قال مقاتل: منيع من الشيطان، قال السدي: غير مخلوق».

وقال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله[4] : «إنه كتاب عزيز، والعزيز النفيس، وأصله من العزة وهي المنعة لأن الشيء

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٠٤.

(٢) تيسير اللطيف المنان ص ٧.

(٣) المحرر الوجيز (١٤/١٩٢).

(٤) التحرير والتنوير (٢٤/٣٠٨).

النفيس يدافع عنه ويُحمى عن النبذ، فإنه بيِّن الإتقان وعلوّ المعاني ووضوح الحجة، ومثل ذلك يكون عزيزاً، والعزيز أيضاً: الذي يغلب ولا يُغلب، وكذلك حجج القرآن».

فإذا كان القرآن عزيزاً فإن عزة المسلم بمقدار التزامه بهذا القرآن، ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ ﴾ [فاطر: ١٠].

والقرآن نور تنشرح به الصدور، ومنهج ينوّر الطريق لكل مخلوق فيسلك سبل السلام، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٤ - ١٧٥].

قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ)[1] : «والمقصود أن الله تعالى جعل الحياة حيث النور، والموت حيث الظلمة، فحياة الوجودَيْن الروحيِّ والجسميِّ بالنور، وهو مادة الحياة، كما أنَّه مادة الإضاءة، فلا حياة بدونه، كما لا إضاءة بدونه، وكما أنه به حياة القلب، فبه انفساحه وانشراحه وسعتُه، كما في الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا دخل النُّور القَلْبَ انفسح وانشرح**»، قالوا: وما علامة ذلك؟ قال: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله**».

---

(١) الوابل الصيب ص ١٤٣ – ١٤٥.

ونور العبد هو الذي يُصْعِدُ عَمَلَه وَكَلِمَه إلى الله تعالى، فإن الله تعالى لا يَصْعد إليه من الكلم إلا الطَّيِّب – وهو نور، ومصدره عن النور – ، ولا من العمل إلا الصالح، ولا من الأرواح إلا الطَّيِّبة، وهي أرواح المؤمنين التي استنارت بالنور الذي أنزله على رسوله ﷺ ».

وقال أيضاً[1] : «وفي «المسند» من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ : «**إن الله تعالى خلق خلْقه في ظلمة، وألقى عليهم من نوره، فمن أصاب من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلّ**»؛ فلذلك أقول: جفَّ القلم على علم الله تعالى.

وهذا الحديث العظيم أصل من أصول الإيمان، وينفتح به باب عظيم من أبواب سر القدر وحكمته، والله تعالى الموفق.

وهذا النور الذي ألقاه عليهم سبحانه وتعالى، هو الذي أحياهم وهداهم، فأصابت الفطرة منه حظَّها، ولكن لمّا يستقلَّ بتمامه وكماله أكمله لهم، وأتمه بالوحي الذي ألقاه على رسله عليهم الصلاة والسلام، والنور الذي أوحاه إليهم، فأدركته الفطرة بذلك النور السابق الذي حصل لها يوم إلقاء النور، فانضاف نور الوحي والنُّبوَّة إلى نور الفطرة، نورٌ على نور، فأشرقت منه القلوب، واستنارت به

---

(١) الوابل الصيب ص ١٤٨ – ١٤٩.

الوجوه، وحيثْ بـه الأرواح، وأذعنـت بـه الجـوارح للطاعـات طوعـاً واختياراً، فازدادت القلوب حياةً إلى حياتها».

والقـرآن مبـارك كمـا نعتـه الله ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ)[1] : «وكتابـه مبـارك، قـال تعـالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبيـاء: ٥٠]، وقـال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص: ٢٩]، وهـو أحـق أن يُسمى مباركـاً مـن كـل شـيء، لكثرة خيره ومنافعه، ووجوه البركة فيه، والرب تعالى يقال فـي حقـه «تبارك»،ولا يقال: «مبارك» ».

وقال العلامـة محمـد الأمـين الـشنقيطي رحمـه الله [2] : «إن هـذا الكتاب مبارك، أي: كثير البركات والخيرات، فمن تعلّمـه وعمـل بـه غمرته الخيرات في الدنيا والآخرة، لأن ما سماه الله مباركاً فهو كثيـر البركات والخيرات قطعاً. وكان بعض علماء التفسير يقـول: اشـتغلنا بـالقرآن فغمرتنـا البركـات والخيـرات فـي الـدنيا، تـصديقاً لقولـه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾، ونرجو أن يكون لنـا مثـل ذلـك فـي الـدنيا، تصديقاً لقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾.

---

(١) جلاء الأفهام ص ٤٣٢.

(٢) العذب النمير (٢/٨٧١).

وهذا الكتاب المبارك لا ييسر الله للعمل به إلَّا الناس الطيبين المباركين، فإنه كثير البركات والخيرات، لأنه كلام رب العالمين، إذا قرأه الإنسان وتدبَّر معانيه ففي كل حرف عشر حسنات في القراءة، وإذا تدبّر معانيه عرف منها العقائد التي هي الحق، وعرف أصول الحلال والحرام، ومكارم الأخلاق، وأهل الجنة وأهل النار، وما يصير إليه الإنسان بعد الموت، وما يسبب له النعيم الأبدي، وما يسبب له العذاب الأبدي، فكله خيرات وبركات، لأنه نور ينير الطريق التي تميّز بين الحسن من القبيح، والنافع من الضار، والباطل من الحق، فهو كله خيرات وبركات، من عمل به غمرته الخيرات والبركات في الدنيا والآخرة، وأصلح له الله الدارين».

هذا القرآن كتاب كله حكمة، فمن أراد الحكمة فليقرأه وليتدبّره وليعمل به، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣].

قال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله[١] : «قيل: المراد بالحكمة أنه علَّمهم كيف يضعون الأشياء مواضعها، لأن الشريعة الإسلامية تُعلّم الإنسان كيف يضع الشيء في موضعه.

وأيضاً علَّمهم الحكمة التي هي أسرار التشريع، لأن الشرع كما نعلم أحكام وحِكَم، فالأحكام ظاهرة، والحِكَم هي الأسرار والمعاني

(١) تفسير سورة آل عمران (٢/٤٠٧).

التي تُناط بها هذه الأحكام، والإنسان إذا عرف هذه الحكم والأسرار تبيّن له أن الشريعة ليست لهواً ولا لعباً، وأن الشريعة ذات معان سامية، لا يدركها إلا من فتح الله عليه».

وهذا القرآن سمّاه الله بشيراً ونذيراً، فقال سبحانه: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى عن نبينا ﷺ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[١]: «وسُمّي القرآن بشيراً ونذيراً، فكذلك لما كان هو يشهد للرسول والمؤمنين بكلامه الذي أنزله، وكان كلامه شهادة منه: كان كلامه شاهداً منه، كما كان يحكم ويفتي، ويقضي ويبشر وينذر».

وهذا القرآن بيان كما نعته الله بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، قال

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٦٧).

شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «البيّنة من البيان، و«البيّنة» هي السبيل البيّنة، وهي الطريق البيّنة الواضحة، وهي أيضاً ما يبين بها الحق، فهي بيّنة في نفسها مبينة لغيرها وقد تُفسر بالبيان وهي الدلالة والإرشاد؛ فتكون كالهدى، كما يقال: فلان على هدى وعلى علم، فيفسر بمعنى المصدر والصفة والفاعل. ومنه قوله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣]، أي بيان ما فيها أو يبين ما فيها، أو الأمر البيّن فيها، وقد سمى الرسول بيِّنة كما قال: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البينة: ١ - ٢]، فإنه يبين الحق، والمؤمن على سبيل بيّنة ونور من ربه، والشاهد المقصود به شهادته للمشهود له، فهو يشهد للمؤمن بما هو عليه، وجعل الإيمان من الله كما جعل الشاهد من الله».

وبيان الله في أعلى درجات البيان، لذلك قامت به الحجة وحصل به البلاغ، قال شيخ المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله (ت: ٣١٠هـ)[2] : «فبيِّنٌ ألا بيان أبين، ولا حكمة أبلغ، ولا منطق أعلى، ولا كلام أشرف من بيان ومنطق تحدَّى به امرؤٌ قوماً، في زمان هم فيه رؤساء صناعة الخُطب والبلاغة، وقيل الشعر والفصاحة، والسجع والكهانة، على كل خطيب منهم وبليغ،

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٧٢).

(٢) مقدمة جامع البيان (١/ ١٠ - ١١).

وشاعر منهم وفصيح، وكل ذي سجع وكهانة، فسفَّه أحلامهم، وقصَّر بعقولهم، وتبرَأ من دينهم، ودعا جميعهم إلى اتباعه، والقبول منه، والتصديق به، والإقرار بأنه رسول إليهم من ربهم، وأخبرهم أن دلالته على صدق مقالته، وحجته على حقيقة نبوته، ما أتاهم به من البيان والحكمة والفرقان، بلسان مثل ألسنتهم، ومنطق موافقة معانيه معاني منطقهم، ثم أنبأ جميعهم أنهم عن أن يأتوا بمثل بعضه عجزة، ومن القدرة عليه نقصةٌ، فأقر جميعهم بالعجز، وأذعنوا له بالتصديق، وشهدوا على أنفسهم بالنقص، إلا من تجاهل منهم وتعامى، واستكبر وتعاشى».

* * *

القرآن شفاء : كما نعته الله عز وجل بقوله: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[١] : «فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة، وليس ذلك لكل أحد، وإنما ذلك للمؤمنين به المصدِّقين بآياته العاملين به، وأما الظالمون بعدم التصديق به أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خساراً، إذ به تقوم عليهم الحجة، فالشفاء الذي تضمَّنه القرآن عامٌ لشفاء القلوب من الشُبه والجهالة والآراء الفاسدة والانحراف السيئ والقصود السيئة، فإنه مشتمل على العلم اليقيني الذي تزول به كل شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير الذي تزول به كل شهوة تخالف أمر الله، ولشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها، وأما الرحمة فإن ما فيه من الأسباب والوسائل التي يحثُّ عليها متى فعلها العبد، فاز بالرحمة والسعادة الأبدية، والثواب العاجل والآجل».

وتكلم الحافظ محمد بن علي الكرجي رحمه الله في طرق الاستشفاء بالقرآن، فقال[٢]: «إنه يستشفى به بالنشر، والتعليق؛ من

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٣٥.

(٢) نكت القرآن الدالة على البيان (٤/٨٣ – ٨٤).

أجل أن اسم التمائم لا يقع عليه، لأن التمائم هي: ما كانت بغير لغة العربية، من كلام لا يُعرف، والقرآن شفاء، كيفما استشفي به بالقراءة على العليل، أو بكتبه، وسقيه، والإفاضة عليه، أو تعليقه في الصحف، على بعض بدنه، لا ينكره إلا جاهل بمعنى التمائم المنهي عنها[1].

ولما كانت النُّشر تكتب من القرآن وذكر الله، وتكتب من غيره، كان قوله: «النشر من السحر، والنشر من عمل الشيطان، مصروفاً إلى ذلك، لا إلى القرآن، وذكر الرحمن».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2] : «وأما المصحف العتيق والذي تخرّق، وصار بحيث لا ينتفع به بالقراءة فيه، فإنه يُدفن في مكان يُصان فيه، كما أن كرامة بدن المؤمن دفنه في موضع يصان فيه، وإذا كتب شيء من القرآن أو الذكر في إناء أو لوح ومحي بالماء وغيره، وشرب ذلك فلا بأس به، نص عليه أحمد وغيره، ونقلوا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يكتب كلمات من القرآن والذكر، ويأمر بأن تسقى لمن به داء، وهنا يقتضي أن لذلك بركة».

---

(١) كان الأحرى به أن يُرجّح الراجح، لا أن يُجهّل من خالفه في هذه المسألة، حيث أنكرها خيار وعلماء الصحابة كابن مسعود رضي الله عنه، لأن الاستشفاء بالقرآن جاء على صفة مخصوصة.

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/٥٩٩).

وهذا المذهب عن السلف في التوسعة بالاستشفاء بالقرآن عمدتهم فيه عموم قوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وعموم قول النبي ﷺ: «**إعرضوا عليَّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً**»[١].

والآثار عن السلف في ذلك كثيرة، قال أبو قلابة رحمه الله[٢]: «لا بأس أن يُكتب القرآن في الشيء يُغْسل للرجل».

وقال صالح بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: قلت لأبي: يُكتب الشيء من القرآن في قرطاس ويُدفن للآبق؟ قال: لا بأس به[٣].

وقال الإمام أحمد في رواية عبدالله: يُكتب للمرأة إذا عَسُرَ عليها الولادة في جام، أو شيء نظيف: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمدُ لله رب العالمين، ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٦]، ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ثم تُسقى ويُنضح بما بقي دون سُرَّتها»[٤].

---

(١) رواه مسلم كتاب السلام باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك (ص٩٧٥ – رقم ٥٧٣٢)، من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه.

(٢) العيال لابن أبي الدنيا (٨/١٤٥ – رقم ٦٦٨).

(٣) المسائل (١/٤١٨ – رقم ٣٩٩).

(٤) بدائع الفوائد (٤/١٥٢٥).

قال البغوي رحمه الله[1]: «روي عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت لا ترى بأساً أن يُعوِّذ في الماء، ثم يُعالج به المريض، وقال مجاهد: لا بأس أن يكتب القرآن ويغسله، ويسقيه المريض، ومثله عن أبي قلابة، وكرهه النخعي، وابن سيرين.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه أمر أن يكتب لامرأة تعسّر عليها ولادتها آيتين من القرآن وكلمات، ثم يغسل وتسقى».

ويقابل هذا المذهب مذهب ابن مسعود رضي الله عنه وجماعة من السلف يقولون إن القرآن شفاء لكن الاستشفاء به جاء على صفة مخصوصة.

قال إبراهيم النخعي رحمه الله[2]: «كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن».

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[3] : «لأن الاستشفاء بالقرآن ورد على صفة معينة، وهي القراءة به، بمعنى أنك تقرأ على المريض به، فلا نتجاوزها».

ومما ينبغي التنبيه عليه هو أن القرآن كله شفاء، صحيح أنه قد وردت نصوص في حصول الشفاء ببعض آي القرآن كالفاتحة وغيرها، فهذا تنصيص وليس بتخصيص.

---

(١) شرح السنة (١٢/١٦٦).

(٢) رواه وكيع بواسطة كتاب التوحيد ص ١٩.

(٣) القول المفيد على كتاب التوحيد ص ١٢٠.

قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، قال ابن القيم رحمه الله: «و﴿مِنَ﴾ **هنا لبيان الجنس لا للتبعيض، فإن القرآن كله للشفاء**، كما قال في الآية المتقدمة، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه وتعالى من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن»[1].

كما ينبغي التنبيه إلى أن الأجرة للراقي إنما تُعطى على الشفاء كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وبهذا يتبين خطأ من يأخذ الأجرة على مجرد الدخول لمكان الرقية ويجعلون للدخول تذاكر، وكذلك يتبين خطأ من يأخذ الأجرة على مجرد القراءة.

وهذا القرآن وصفه الله بأنه متشابه فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «**فالتشابه في المعنى** ينفي التضاد والتناقض: المعبر عنه بالاختلاف في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وذلك في الأوامر والنواهي والأخبار، فيأمر بالشيء الحسن وما يماثله، وينهى

(١) الجواب الكافي ص ١٥.

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٨/٣٤٠ – ٣٤٤).

عن الشيء السيئ، وعما يماثله، لا يتناقض، فيحكم بين المثلين بحكمين متفقين، وكذلك المدح والذم يمدح الشيء وما يماثله، ويذم الشيء، ويذم ما يماثله. وكذلك في الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، وكلام المخلوقين لا يخلو عن نوع من التناقض والاختلاف.

والتشابه في الألفاظ تناسبها وائتلافها واعتدالها، وأنه كله كذلك بخلاف كلام المخلوقين، فإنه يكون بعضه على طريقة في الحسن، وباقيه يخالف ذلك، فلا يكون آخره كأوله، وهذا كالبناء والخياطة، إذا كان متناسباً يشبه بعضه بعضاً، فهو بخلاف ما يكون بعضه لا يشاكل بعضاً.

وأما المثاني: فهو جمع مثنى، والتثنية يُراد بها التقسيم، فقد فسر المثاني بأنه: الذي يستوفى فيه الأقسام، فيذكر فيه الوعد والوعيد، والأمر والنهي والأخبار والأحكام، والحلال والحرام، لا يذكر أحد القسمين دون الآخر، فهو يستوفي الأقسام، كما أن المتشابه هو الأمثال، وفُسر بأنه هو الذي يكون فيه القصص والحجج والأمر والنهي لما في ذلك من الحكمة والبيان، ولأن في كل موضع من المعاني النافعة مثلاً ليس في الموضع الآخر، بمنزلة الشيء الواحد الذي له أسماء متعددة، وأسماء كتابه، فتثنية الخبر والأمر، بألفاظ يختص كل لفظ بمعنى، بمنزلة تثنية الأسماء للمسمى الواحد، الذي يختص كل اسم بمعنى، وهذا يتضمن الإخبار بصفات الأشياء، وإن كان الموصوف واحداً فهو تثنية وتكرير باعتبار الذات لا اعتبار الصفات.

وروى ابن أبي حاتم بإسناد معروف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿مَثَانِيَ﴾ يفسر بعضه بعضاً، ويرد بعضه على بعض، وعن الحسن قال: «ثنى الله فيه القضاء، تكون السورة فيها آية وفي الأخرى آية تشبهها»، وكذلك قال عكرمة: «ثنى الله فيها القضاء»، وعن الضحاك قال: «ترديد القول ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى».

فابن عباس رضي الله عنهما جعل المثاني من جنس المتشابه، وهي النظائر التي يفسر بعضها بعضاً، وعلى القول الآخر تكون المثاني هي: الوجوه، وهي: الأنواع: كالوعد والوعيد، والأمر والنهي».

ويقول العلامة أبو الحسن السخاوي رحمه الله (ت: ٦٤١هـ) مبيناً جريان القرآن على معنى واحد في توافق معانيه[1] : «كلام البشر وإن كان من فصيح بليغ، يظهر فيه إذا طال تفاوت واختلاف وإخلال. والقرآن العزيز على ذوق واحد، إن بشّر أو أنذر، أو وعظ وحذَّر، أو قصّ وأخبر، أو نهى أو أمر، وليس ذلك لرؤساء الكلام وفحول النُظّام، فقد يجيد بعضهم المدح ويقصر في ضده، وفي وصف الخيل وسير الليل، دون وصف الحرب والجور والمطر والسيل.

(١) جمال القراء وكمال الإقراء (١/ ٤٤ – ٤٥).

والقرآن العزيز كله وإن طال في هذه المعاني التي ذكرتها أو أوجز على قعرِيّ واحد، لا تعثر فيه على اختلاف، ولا أنت لتقصير بواجد، فلا يَشُكُّ في صحة نزوله من عند الله عز وجل ذو بصيرة، ولا قدرة لأحد من البشر على أن يأتي بمثله، في إحكام معانيه، وانتظام ألفاظه، وبديع منهاجه».

ومن المعاني المهمة في التشابه في القرآن تشابه أحكامه كلها، وجريان آحادها وفق مقاصد الشريعة، بحيث تتعاضد آحاد الأحكام وتأتلف وتتوافق على المقاصد الكلية للشريعة.

قال العز بن عبدالسلام رحمه الله (ت: ٦٦٠هـ)[1] : «ومن تتبع مقاصد الشرع في جلب المصالح ودرء المفاسد حصل له من مجموع ذلك اعتقاد أو عرفان بأن هذه المصلحة لا يجوز إهمالها، وأن هذه المفسدة لا يجوز قربانها، وإن لم يكن فيها نص ولا إجماع ولا قياس خاص، فإن فَهْمَ نفس الشرع يوجب ذلك.

ومَثَلُ ذلك أن من عاشر إنساناً من الفضلاء الحكماء العقلاء، وفهم ما يؤثره ويكرهه في كل وِرْدٍ وصَدْرٍ، ثم سنحت له مصلحة أو مفسدة، لم يعْرف قوله فيها، فإنه يَعْرفُ بمجموع ما عهده من طريقته وأَلِفَهُ من عادته أنه يُؤْثر تلك المصلحة، ويكره تلك المفسدة. ولو تتبعنا مقاصد ما في الكتاب والسُّنَّة لعلمنا أن الله أمر بكل خير، دِقِّهِ

(١) قواعد الأحكام (٢/٣١٤ – ٣١٥).

وجِلِّه، وزجر عن كل شر، دِقِّهِ وجِلِّهِ، فإن الخير يُعبَّر به عن جلب المصالح ودرء المفاسد، والشر يُعبَّر به عن جلب المفاسد ودرء المصالح، وقد قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

وهذا ظاهر في الخير الخالص والشر المحض، وإنما الإشكال إذا لم نفهم خيْر الخيرين وشر الشرين، أولم نعرف ترجُّح المصلحة على المفسدة، أو ترجُّح المفسدة على المصلحة، أو جهلنا المصلحة والمفسدة. ومن المصالح والمفاسد ما لا يعرفُه إلا كل ذي فهم سليم وطبْع مستقيم، يعرف بهما دِقَّ المصالح والمفاسد وجِلَّهما، وراجحهما من مرجوحهما، ويتفاوت الناس في ذلك على قدر تفاوتهم فيما ذكرته».

* * *

والقرآن نعته الله بأنه فرقان كما قال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

قال العلامة مجد الدين الفيروزآبادي رحمه الله (٨١٧هـ)[١]: «وأما الفرقان فاسم على زنة فُعْلان مشتق من الفَرْق، وهو الفصل. والفُرق بالضم لغة فيه، قال الراجز: ومُشْركي كافر بالفُرْق. والْفِرق بالكسر: قطيع من الغنم يتفرَّق من سائرها، وسمِّي القرآن فرقاناً لأنه نزل من السماء نجوماً متفرقة، ولأنَّه يَفرق بين الحق والباطل.

وقد يكون الفرقان بمعنى النصرة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، أي يوم النُصرة. فقيل للقرآن: فرقان لما فيه من نُصرة الدين وأهله.

وقد يكون الفرقان بمعنى الخروج من الشك والشبهة، قال تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، فالقرآن فرقان بمعنى أنه تقوية وهداية، يحصل به الخروج من ظلمات الضَّلالات، والشكوك، والشبهات».

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١ / ٨٣).

وابن جرير الطبري رحمه الله ساق مسنداً تفسير ابن عباس رضي الله عنهما للفرقان بأنه المخرج، وقول عكرمة بأنه النجاة، وسائر أقوال السلف، ثم علّق بقوله[1] : «وكل هذه التأويلات في معنى الفرقان - على اختلاف ألفاظها - متقاربات المعاني، وذلك أن من جُعل له مخرجٌ من أمر كان فيه، فقد جُعل له ذلك المخرج منه نجاة، وكذلك إذا نُجِّي منه، فقد نُصر على من بغاه فيه سوءا، وفُرق بينه به وبين باغية السوء.

فجميع ما روينا عمّن روينا عنه في معنى الفرقان قول صحيح المعنى، لاتفاق معاني ألفاظهم في ذلك.

وأصل الفرقان عندنا الفرقُ بين الشيئين والفصل بينهما، وقد يكون ذلك بقضاء، واستنقاد، وإظهار حجة، ونصر، وغير ذلك من المعاني المُفرِّقة بين المحق والمُبْطل. فقد تبين بذلك أن القرآن سُمِّي فرْقاناً، لفصله بأدلته وحججه وأدلته وحدود فرائضه، وسائر معاني حُكْمه، بين المُحقِّ والمُبْطل، وفرقانه بينهما بنصرة المُحِقَّ، وتخذيله المُبْطل، حكماً وقضاءً».

فهو فرقان وفصل، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ [الطارق: ١٣ - ١٤]، قال ابن القيم رحمه الله[2]: «القول الفصل هو

---

(١) مقدمة جامع البيان (١/٩٤ - ٩٥).

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص ١١٤.

الذي يفصل بين الحق والباطل، فيميز هذا من هذا، ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه».

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩].

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله [١] : «الفرقان أصله مصدر كالشكران والغُفران والبُهتان، وهو ما يفرق أي يميّز بين شيئين متشابهين. وقد أُطلق بالخصوص على أنواع من التفرقة فأُطلق على النصر، لأنه يفرق بين حالَيْن كانا محتملين قبل ظهور النصر، ولُقب القرآن بالفرقان لأنه فرقَ بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان: ١]، ولعل اختياره هنا لقصد شموله ما يصلح للمقام من معانيه، فقد فُسر بالنصر، وعن السدي، والضحّاك، ومجاهد، الفرقانُ المَخْرَج.

وفي أحكام ابن العربي عن ابن وهب وابن القاسم وأشهب أنهم سألوا مالكاً عن قوله تعالى: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ قال: مخرجاً، ثم قرأ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

وفُسر بالتمييز بينهم وبين الكفار في الأحوال التي يُحتسب

(١) التحرير والتنوير (٩/٣٢٦).

فيها التمايز في أحوال الدنيا، فيشمل ذلك أحوال النفس: من الهداية، والمعرفة، والرضى، وانشراح القلب، وإزالة الحقد والغل والحسد بينهم، والمكر والخداع وذميم الخلائق.

وقد أشعر قوله ﴿لَّكُمْ﴾ أن الفرقان شيء نافع لهم، فالظاهر أن المراد منه كل ما فيه مخرج لهم ونجاة من التباس الأحوال وارتباك الأمور وانبهام المقاصد، فيؤول إلى استقامة أحوال الحياة، حتى يكونوا مطمئني البال منشرحي الخاطر، وذلك يستدعي أن يكونوا: منصورين، غالبين، بُصراء بالأمور، كملة الأخلاق، سائرين في طريق الحق والرشد، وذلك هو ملاك استقامة الأمم، فاختيار الفرقان هنا لأنه اللفظ الذي لا يؤدي غيره مؤداه في هذا الغرض، وذلك من تمام الفصاحة».

ومن أوضح معالم كون القرآن فرقان سلطان الحجة الذي فيه، يستظهر بها أهل الحق على أهل الباطل، قال تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «والسلطان هو الوحي المنزل من عند الله كما ذكر ذلك في غير موضع كقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾، وقوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن

(١) نقض المنطق ص ١٨٠.

سُلۡطَٰنٍۚ ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كل سلطان في القرآن فهو الحجة».

وقال شيخ الإسلام أيضاً[1] : «إن السلطان نوعان: سلطان الحجة والعلم، وهو أكثر ما سُمي في القرآن سلطاناً، حتى روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن كل سلطان في القرآن فهو الحجة، والثاني سلطان القدرة. والعمل الصالح لا يقوم إلا بالسلطانين.

فإذا ضعف سلطان الحجة كان الأمر بقدره، وإذا ضعف سلطان القدرة كان الأمر بحسبه، والأمر مشروط بالقدرة على السلطانين، فالإثم ينتفي عن الأمر بالعجز عن كل منهما.

وسلطان الله في العلم هو الرسالة، وهو حجة الله على خلقه، كما قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ ﴾ [النجم: ٢٣]، وقال: ﴿ أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ﴾ [الروم: ٣٥]، ونظائره متعددة».

وقال ابن القيم رحمه الله[2] : «والمقصود أن الله سبحانه سمى علم الحجة سلطاناً لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره، فله بها

(١) مجموع الفتاوى (١٩/١٢٥ - ١٢٦).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/٥٩).

سلطان على الجاهلين، بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد الناس للحجة ما لا ينقاد لليد، فإن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن، فالحجة تأسر القلب وتقوده وتذل المخالف وإن أظهر العناد والمكابرة، فقلبه خاضع لها ذليل مقهور تحت سلطانها».

ومن أوضح معالم كون القرآن فرقاناً هو أن أحكامه عدل توزن بها المسائل كلها، وترد الخلافات جميعاً إلى هذا الميزان، فما كان عدلاً ومصلحة وهدى بميزانه فهو العدل، وما كان ظلماً ومفسدة وضلالاً بميزانه فهو الظلم والفساد.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورى: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[١] : «الميزان يفسره السلف بالعدل، ويفسره بعضهم بما يوزن به، وهما متلازمان، وقد أخبر أنه أنزل ذلك مع رسله كما أنزل معهم الكتاب ليقوم الناس بالقسط.

فما يعرف به تماثل المتماثلات من الصفات والمقادير هو من «الميزان»، وكذلك ما يعرف به اختلاف المختلفات، فمعرفة أن هذه

(١) الرد على المنطقيين ص ٣٧١ – ٣٧٢.

الدراهم أو غيرها من الأجسام الثقيلة بقدر هذه تعرف بموازينها. وكذلك معرفة أن هذا الكيل مثل هذا يعرف بميزانه وهو المكاييل، وكذلك معرفة أن هذا الزمان مثل هذا الزمان يعرف بموازينه التي يقدر بها الأوقات، كما يعرف به الظلال، وكما يجري من ماء ورمل وغير ذلك. وكذلك معرفة أن هذا بطول هذا يعرف بميزانه، وهو الذراع، فلا بد بين كل متماثلين من قدر مشترك كلي يعرف به أن أحدهما مثل الآخر.

فكذلك الفروع المقيسة على أصولها في الشرعيات والعقليات تُعرف بالموازين المشتركة بينهما، وهي الوصف الجامع المشترك».

وقال[1] : «... الميزان التي أنزلها الله في قلوبنا لنزن بها هذا ونجعله مثل هذا، فلا نفرق بين المتماثلين، والقياس الصحيح هو من العدل الذي أمر الله تعالى به».

وقال[2] : «أنزل الله سبحانه الميزان في القلوب لما بيّنت الرسل العدل وما يُوزن به عرفت القلوب ذلك، فأنزل الله على القلوب من العلم ما تزن به الأمور حتى تعرف التماثل والاختلاف، وتضع من الآلات الحسية ما يحتاج إليه في ذلك، كما وضعت موازين النقدين، وغير ذلك.

---

(١) الرد على المنطقيين ص ٣٧٢.

(٢) الرد على المنطقيين ص ٣٨٤.

وهذا من وضعه تعالى الميزان. قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩]، قال كثير من المفسرين: هو «العدل»، وقال بعضهم: «ما يوزن به ويُعرف العدل»، وهما متلازمان».

ومن أوضح الأدلة على أن القرآن فرقان هو أن بيانه للحجج الصحيحة أتم بيان وأقوم حجة وأحسن دليلاً وأيسره للفهم. قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

قال الراغب الأصبهاني رحمه الله[1] : «ما من برهان وتقسيم وتحديد ينبئ عن كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا والقرآن قد نطق به، لكن أورده الله تعالى على عادة العرب».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله [2] : «فالصحابة كانوا يعلمون ما جاء به الرسول ﷺ، وفيما جاء به بيان الحجة على بطلان كفر كل كافر، وبيان ذلك بقياس صحيح أحق وأحسن بياناً من مقاييس أولئك الكفار، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، أخبر سبحانه أن الكفار لا يأتونه

(١) مقدمة تفسيره ص ٧٥.

(٢) نقض المنطق ص ٨٩.

بقياس عقلي لباطلهم إلا جاءه الله بالحق، وجاء من البيان والدليل وضرب المثل بما هو أحسن تفسيراً وكشفاً وإيضاحاً للحق من قياسهم».

وقال ابن القيم رحمه الله[1] : «فلا يذكر المتكلمون وغيرهم دليلاً صحيحاً على ذلك إلا وهو في القرآن بأفصح عبارة وأوضح بيان وأعم معنى وأبعده عن الإيرادات والأسئلة، وقد اعترف بهذا حذّاق المتكلمين من المتقدمين والمتأخرين».

ومن أوضح معالم فرقان القرآن هو رده على أنواع الضلالات وأصناف المبطلين.

قال القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله[2] : «وخذوا مني في ذلك نصيحة مشحونة بنكت من الأدلة، وهي أن الله سبحانه رد على الكفار على اختلاف أصنافهم من ملحدة وعبدة أوثان وأهل كتاب وطبيعة وصائبة ومشركة ويهودية بكلامه، وساق أفضل سياق أدلته، وجاء بها في أحكم نظام وأبدع ترتيب».

وقال أيضاً في آي القرآن وفرقانه في تمييز الحق من الباطل ودمغ الباطل[3] : «فما بقي نوع من الأدلة ولا وجه من وجوه الحجج

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٤٥).
(٢) العواصم من القواصم ص ٨٠.
(٣) العواصم من القواصم ص ١١٠.

إلا وجاء بها على أوضح منهج، وتناولت كل حجة طائفة من الملحدة، وأصحاب الطبائع والصابئة بقدرها، واليهود والنصارى، والزائفين بقسطها، على نحو ما قالت كل طائفة من الشرك، ولو شاء ربنا لكفهم عن هذه المقالات، وإذ أطلقها على ألسنتهم فقد نص كيف تنقض أقوالهم، حسبما تقرر من الأدلة ومن كيفية استعمالها، في كتابه وعلى لسان رسوله».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «وأما ما في القرآن من ذكر أقوال الكفار وحججهم وجوابها، فهذا كثير جداً، فإنه يجادلهم تارة في التوحيد، وتارة في النبوات، وتارة في المعاد، وتارة في الشرائع بأحسن الحجج وأكملها، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢ - ٣٣]».

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[2] : «أهل الشر والفساد نوعان: أحدهما المبطلون في عقائدهم وأديانهم ومذاهبهم الذين يدعون إليها، ففي القرآن من الاحتجاج على هؤلاء وإقامة الحجج والبراهين على فساد أقوالهم شيء كثير، لا يأتي مبطل بقول

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (١/٧١).

(٢) القواعد الحسان في تفسير القرآن ص ٢٢٢ - ٢٢٣).

إلا وفي القرآن بيانه بالحق الواضح والبرهان الجلي، ففيه الرد على جميع المبطلين من الدهريين والماديين والمعطلين والمشركين والمتمسكين بالأديان المبدلة والمنسوخة من اليهود والنصارى والأميين ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، يذكر الله حجج هؤلاء وينقضها ويبدي من الأساليب المتنوعة في إفسادها ما هو معروف».

* * *

القرآن يهدي للأقوم: هذا القرآن نعته الله بأنه يهدي للتي هي أقوم. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]، فلا ريب أن هذا القرآن أنزله عليم خبير بأحوال خلقه وما يصلح لهم، وما يُقوّم سلوكهم وعقائدهم ومعاملاتهم.

قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله (ت: ٦٦١هـ)[١]: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ وأمثل، من توحيد الله تعالى وطاعته، وتصديق رسله، والعمل بالمعروف، ومكارم الأخلاق».

وقال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله[٢]: «هذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم، لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خير الدنيا والآخرة».

---

(١) رموز الكنوز (٤/١٣٤).

(٢) أضواء البيان (٣/٣٧٢).

فهذا القرآن يهدي للتي هي أقوم في التوحيد والعقيدة، فهو يقرر الإنسان بحقيقة تفرد الله بالخلق مما يوجب إفراده بالعبادة وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، كما يُحرره من اعتقاد العقائد الفاسدة لمجرد أنها إرث الآباء والأجداد، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، كما أنه يبين عجز من يُطلب منه النصر والرزق وقضاء الحوائج من الموتى وأنهم مثلنا بشر لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣ - ١٤].

ومن طريقة القرآن للهداية للتي هي أقوم في التوحيد ذكره سبحانه لأنواع نعمه وإحسانه إلى خلقه ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ [النحل: ٥٣]، وكذلك ذكر نعوته وصفاته الكاملة ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ [النحل: ٦٠]، و﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، مما يُوجب التأله له وحده لا شريك له.

ومن طريقة القرآن للهداية للتي هي أقوم في التوحيد بيان أن الأمر كله لله، فهو الذي يحيي ويميت، ويعز ويذل، ويبسط الرزق

لمن يشاء ويقدر، كما أن ناصية كل مخلوق بيده، فكذلك أمر السموات والأرضين، وفوق ذلك كله قيام الساعة، وقيام الناس لرب العالمين.

وقيل لأعرابي: بم عرفت ربك؟ قال: بتغير الهمّم!!!

ومن طريقة القرآن للهداية للتي هي أقوم في التوحيد هو بيان آثار التوحيد في سعادة الإنسان.

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ومن طريقة القرآن للهداية للتي هي أقوم بيان حصول الضرر بالمخلوق إذا لم يجرد التوحيد خالصاً لله، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١ - ٨٢].

وهدايته للتي هي أقوم في الأخلاق واضحة في القرآن أشهر من أن يجادل فيه أحد، قالت عائشة رضي الله عنها عن نبينا ﷺ: **«كان خلقه القرآن»**[1].

---

(١) رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين باب جامع صلاة الليل (ص ٣٠١ – رقم ١٧٣٩).

قال العلامة أبو الخطاب ابن دحية الكلبي رحمه الله (ت: ٦٣٣هـ)[1]: «فإذا كان خُلقُ النبي ﷺ القرآن، فالقرآن يجمع كُلَّ فضيلة، ويحثُّ عليها، وينهى عن كل نقيصة ورذيلة، ويوضحها ويبيّنها.

ويكفيه ثناء الله العزيز الحكيم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ثم قال له جلَّت قدرته: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وهذه أصول الفضائل وينبوع المناقب، لأن في أخذه العفو: صلة القاطع، والصفح عن الظالم، وإعطاء المانع، وفي الأمر بالمعروف: تقوى الله، وصلة الأرحام، وصون اللسانِّ عن ذكر كل إنسان، وغضُّ الطَّرْفِ عن الحُرمات، وفي تقوى الله تدخلُ آدابُ الشّرع جميعاً: فرضها ونفلها، وفي الإعراض عن الجاهلين، والصفح، والحلمُ، وصرف النفس عن مماراة السفيه ومجاراة اللجوج، فهذه الأصول الثلاثة تتضمن محاسن الشرع نصاً، وتنبيهاً وصمتاً واعتباراً، ولذلك كان أصحابه الذين يحضرون مجالسه كأنما على رؤوسهم الطير، ومعلوم أن من كان على رأسه طائر فإنه لا يتحرك ولا يتكلَّم ولا يَطْرف بعينه حذراً أن ينفر الطائر».

(١) الآيات البينات في ذكر ما في أعضاء رسول الله ﷺ من المعجزات ص ٢٢٧ – ٢٢٨.

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[1] : «القرآن الكريم كتاب تعليم وإرشاد، وكتاب تربية على أكمل الأخلاق، وأحسن الآداب، وأسمى الأوصاف، وحثَّ عليها بكل وسيلة، وزجر عن ضدها، لا يوجد خلق كامل إلا وقد دلَّ عليه القرآن، ولا أدب حميد إلا وقد دعا إليه وبيَّنه، والأخلاق الكاملة والآداب السامية تجعل صاحبها مستقيم الظاهر والباطن، معتدل الأحوال، مكتمل الأوصاف الحسنة، طاهر القلب نقيّه من كل درن وآفة ونقص، قوي القلب، متوجهاً قلبه إلى أعلى الأمور وأنفعها، قائماً بالحقوق الواجبة والمستحبة، محموداً عند الله وعند خلقه، قد حاز الشرف والاعتبار الحقيقي، وسلم من كل دنس وآفة، قد تواطأ ظاهره وباطنه على الاستقامة، وسلوك طريق الفلاح، وعلُوُ مكانة المتخلق بأخلاق القرآن وآدابه لا يمتري فيه من له أدنى مسكة من عقل، لأن العقل من أكبر الشواهد على حسن ما جاء به الشرع».

فهذا القرآن يهدي للتي هي أقوم لصلاح الأفراد والمجتمعات وجلب المصالح لهم ودرء المفاسد عنهم، يتعايشون فيما بينهم بالعدل، يستضيئون بنور الوحي، فتجري أمورهم على أحسن ما يكون من تحقيق حكمة استخلافهم في الأرض بالتأله لله وعمارة

(١) فتح الرحيم الملك العلام ص ٩٨.

الأرض بالمعروف بما يؤول إلى تحقيق العبودية وشكر الله على نعمه دون تعطيلها أو البطر فيها.

قال العلامة محمد الطاهربن عاشور رحمه الله[1] : «إن القرآن أنزله الله تعالى كتاباً لصلاح أمر الناس كافة رحمةً لهم لتبليغهم مراد الله منهم، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية. فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر. وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولاً من الصلاح الفردي، إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، ومن شيء زائد على ذلك وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزامة الشهوات ومواثبة القوى النفسانية، وهذا هو علم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية.

وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك، إذ هو حفظ نظام

---

(١) التحرير والتنوير (١/٣٨ – ٣٩).

العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورَعْيُ المصالح الكلية الإسلامية، وحفظُ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع. **فمراد الله من كتابه هو بيان تصاريف ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدين**، وقد أودع ذلك في ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطاباً بيِّناً وتعبَّدنا بمعرفة مراده والاطلاع عليه، فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]».

وهذا القرآن يهدي للتي هي أقوم في الأحكام، فأحكام الله كلها عدل، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، فهي أحكام وسط ينال فيها المكلف حقه دون المضارة بحق سائر المخلوقين، ودون تضييع لحق الله.

كما أن أحكام الله كلها وفق الاستطاعة: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

كما أنها أحكام وفق مصالح البشر، فأباح الله كل نافع، وحرَّم ما تمحض ضرره أو كان راجحاً، قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله (ت: ١٣٦٧هـ)[1] :
«فأحكامه على الإطلاق أحسن الأحكام وأنفعها للعباد، فهذا في شرعه ودينه، ونظيره في خلقه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]».

وقال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله[2] : «التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ١٠٥]، ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾ [المائدة: ٤٨]، ولقد جمع القرآن جميع الأحكام جمعاً كلياً في الغالب، وجزئياً في المهم».

وأحكام الشريعة كلها تأتلف وتتفق فتتعاضد جزئياتها في تحقيق كلياتها، وأحكامه كلها مضطردة ليست كأحكام الجاهلية التي تتبع الهوى كما كانوا يستحلون الأشهر الحرم عاماً ويحرمونها عاماً.

ومن أمثلة فوضى الأحكام الطلاق في الجاهلية فإنه لا حد له، يُطلّق الرجل عشرات أو مئات المرات لا يمنعه من ذلك شيء، فجاء الإسلام فجعل أقصاه ثلاثاً، قال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

---

(١) تيسير اللطيف المنان ص ٢٤٠.
(٢) التحرير والتنوير (١/ ٤٠).

قال ابن عطية الأندلسي رحمه الله[1] : «قال عروة بن الزبير وقتادة وابن زيد وغيرهم: نزلت هذه الآية بياناً لعدد الطلاق الذي للمرء فيه أن يرتجع دون تجديد مهر وولي، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية يطلقون ويرتجعون إلى غير غاية».

ومن أحكام الجاهلية الجائرة تحريم الحلال، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إذا أردت أن تعرف عدم عقول العرب فاقرأ الآية الفلانية من سورة الأنعام. يعني: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]، رزقهم الله الأولاد والمال فقتلوا الأولاد وحرموا المال على أنفسهم، فهؤلاء قوم لا يعقلون[2].

وقد بكَّت الله اليهود الذين فضلوا أحكام الجاهلية المشتملة على الظلم وتحريم الحلال على أحكام الإسلام، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

---

(١) المحرر الوجيز (١٩٨/٢).

(٢) رواه البخاري كتاب المناقب باب قصة زمزم وجهل العرب (ص ٥٩٣ - رقم ٣٥٢٤).

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[1] : «هذا من قبائح اليهود وحسدهم للنبي ﷺ والمؤمنين، أن أخلاقهم الرذيلة وطبعهم الخبيث حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله والتعوُّض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله أو حكم بغير شرع الله، فدخل في السحر والكهانة وعبادة غير الله وطاعة الشيطان، كلُّ هذا من الجبت والطاغوت، وكذلك حملهم الكفر والحسد على أن فضَّلوا طريقة الكافرين بالله عبدة الأصنام على طريق المؤمنين، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: لأجلهم تملُّقاً لهم ومداهنةً وبغضاً للإيمان: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾؛ أي: طريقاً، فما أسمجهم وأشدَّ عنادهم وأقلَّ عقولهم! كيف سلكوا هذا المسلك الوخيم والوادي الذَّميم؟! هل ظنُّوا أن هذا يروج على أحد من العقلاء أو يدخل عقل أحد من الجهلاء؟! فهل يفضل دينٌ قام على عبادة الأصنام والأوثان، واستقام على تحريم الطيِّبات وإباحة الخبائث وإحلال كثير من المحرَّمات، وإقامة الظلم بين الخَلْق وتسوية الخالق بالمخلوقين، والكفر بالله ورسله وكتبه، على دين قام على عبادة الرحمن، والإخلاص لله في السر والإعلان والكفر بما يُعْبَدُ من دونه من الأوثان والأنداد والكاذبين، وعلى صلة الأرحام والإحسان إلى جميع الخلْق حتى البهائم، وإقامة العدل

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ١٨٥.

والقسط بين الناس وتحريم كل خبيث وظلم ومصدق في جميع الأقوال والأعمال؟!

وصاحب هذا القول إما من أجهل الناس وأضعفهم عقلاً،وإما من أعظمهم عناداً وتمرّداً ومراغمة للحق، وهذا هو الواقع».

* * *

الفـرح بالقـرآن

كتاب بهذه النعوت العظيمة: نـور، وهـدى، وشـفاء، لا شـك أن فرح المؤمن به أعظم من كل شيء، فهذه أم أيمن رضي الله عنها لما رأت أبا بكر وعمر رضي الله عنهما بعد موت النبي ﷺ بكـت، فقـال لها الشيخان: ما يبكيك! أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسوله، قالت: بلى، ولكني أبكي أن الوحي انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء[1].

قـال تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ - ٥٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «فإن أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ وابتهاجها وسرورها، كما قـال تعـالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد:

---

(١) رواه مسلم كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أم أيمن (ص ١٠٧٩ - رقم ١٨٧٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/٤٩ - ٥٠).

٣٦]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس: ٥٨] الآية، ففضل الله ورحمته القرآن والإيمان، من فرح به فقد فرح بأعظم مفروح به، ومن فرح بغيره فقد ظلم نفسه ووضع الفرح في غير موضعه.

فإذا استقر في القلب، وتمكَّن فيه العلم بكفايته لعبده ورحمته له وحلمه عنده، وبرّه به، وإحسانه إليه على الدوام، أوجب له الفرح والسرور أعظم من فرح كل محب بكل محبوب سواه، فلا يزال مترقياً في درجات العلو والارتفاع بحسب رقيه في هذه المعارف».

وقال ابن القيم رحمه الله[1] : «قال تعالى ذكره: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

تصدير الباب بهذه الآية في غاية الحسن، فإن الله تعالى أمر عباده بالفرح بفضله ورحمته، وذلك تبع للفرح والسرور بصاحب الفضل والرحمة، فإن من فرح بما يصل إليه من جواد كريم محسن بر، يكون فرحه بمن أوصل ذلك إليه أولى وأحرى، ونذكر ما في هذه الآية من المعنى ثم نشرح كلام المصنّف.

قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والحسن وغيرهم: فضل الله: الإسلام، ورحمته: القرآن، فجعلوا رحمته أخص من «فضله». فإن

---

(١) بدائع التفسير (٢/٤٠٧ - ٤٠٩).

فضله الخاص على أهل الإسلام، ورحمته بتعليم كتابه لبعضهم دون بعض، فجعلهم مسلمين بفضله، وأنزل إليهم كتابه برحمته. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «فضل الله القرآن ورحمته أن جعلنا من أهله».

قلت: يريد بذلك أن ههنا أمرين:

أحدهما: الفضل في نفسه:

والثاني: استعداد المحل لقبوله، كالغيث يقع على الأرض القابلة للنبات، فيتم المقصود بالفضل، وقبول المحل له. والله أعلم.

و«الفرح» لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب، ونيل المشتهى، فيتولد من إدراكه حالة تُسمى الفرح والسرور، كما أن الحزن والغم من فقد المحبوب، فإذا فقده: تولد من فقده حالة تسمى الحزن والغم وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضله وبرحمته عقب قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]. ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من فضل الله ورحمته التي تتضمن الموعظة، وشفاء الصدور من أدوائها بالهدى والرحمة، فأخبر سبحانه: أن ما آتى عباده من الموعظة – التي هي الأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب، وشفاء الصدور، المتضمن

لعافيتها من داء الجهل، والظلمة، والغي، والسفه – وهو أشد ألماً لها من أدواء البدن، ولكنها لما ألفت هذه الأدواء لم تحس بألمها، وإنما يقوى إحساسها بها عند المفارقة للدنيا. فهنالك يحضرها كل مؤلم محزن. وما آتاها من ربها الهدى الذي يتضمن ثلج الصدور باليقين وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، وحياة الروح به، و«الرحمة» التي تجلب لها كل خير ولذّة، وتدفع عنها كل شر ومؤلم.

فذلك خير من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها، أي هذا هو الذي ينبغي أن يُفْرح به، ومن فرح به فقد فرح بأجل مفروح به، لا ما يجمع أهل الدنيا منها. فإنه ليس بموضع للفرح. لأنه عرضة للآفات، ووشيك الزوال، ووخيم العاقبة، وهو طيف خيال زار الصب في المنام. ثم انقضى المنام، وولى الطيف، وأعقب مزاره الهجران.

وقد جاء الفرح في القرآن على نوعين: مطلق، ومقيد، فالمطلق: جاء في الذم كقوله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]. والمقيد نوعان أيضاً: مقيد بالدنيا، ينسى صاحبه فضل الله، ومنته، فهو مذموم، كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

والثاني: مقيد بفضل الله وبرحمته، وهو نوعان أيضاً، فضل ورحمة بالسبب، وفضل ورحمة بالمسبب.

فالأول: كقوله: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

والثاني: كقوله: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، فالفرح بالله ورسوله والإيمان والسُّنَّة، وبالعلم، والقرآن: من أعلى مقامات العارفين، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ﴾ [الرعد: ٣٦]. **فالفرح بالعلم والإيمان والسُّنَّة دليل على تعظيمه عند صاحبه ومحبته له، وإيثاره له على غيره**، فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله على قدر محبته له، ورغبته فيه، فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله، ولا يحزنه فواته، فالفرح تابع للمحبة والرغبة، فالفرق بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله، والاستبشار يكون به قبل حصوله إذا كان على ثقة من حصوله، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

والفرح صفة كمال، ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها، كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقده لها واليأس من حصولها.

والمقصود: أن الفرح أعلى أنواع نعيم القلب ولذته، وبهجته، والفرح والسرور نعيمه، والهم والحزن عذابه.

والفرح بالشيء فوق الرضى به، فإن الرضى طمأنينة وسكونه انشراح، والفرح لذته بهجة وسرور، فكل فَرِحٍ راضٍ، وليس كل راضٍ فرحاً. ولهذا كان الفرح ضد الحزن، والرضى ضد السخط، والحزن يؤلم صاحبه، والسخط لا يؤلمه، إلا إن كان مع العجز عن الانتقام، والله أعلم».

❊ ❊ ❊

حفاوة السماء والأرض لنزول القرآن

من مظاهر الحفاوة والتوطئة لنزول القرآن البشارة به في الكتب السماوية، قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٩ - ٢٠].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله (ت: ١٣٧٦هـ) [١]: «لما بيّن شهادته وشهادة رسوله على التوحيد وشهادة المشركين الذين لا علمَ لديهم على ضدِّه، ذكر أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى (يعرفونه)؛ أي: يعرفون صحة التوحيد، كما يعرفون أبناءهم؛ أي: لا شك عندهم فيه بوجه، كما أنهم لا يشتبهون بأولادهم، خصوصاً البنين الملازمين لآبائهم، ويُحتمل أن الضمير عائد إلى الرسول محمد ﷺ، وأن أهل الكتاب لا يشتبهون بصحة رسالته ولا يمترون بها لما عندهم من البشارات به ونعوته التي تنطبق ولا تصلح لغيره، والمعنيان متلازمان».

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٧٠.

ومن مظاهر الحفاوة والتوطئة لنزول القرآن بشارة الجن بنبينا محمد ﷺ، وقد نطق بذلك ساكن الصنم وتكلَّم.

عن عبدالله بن عمررضي الله عنهما قال: ما سمعت عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لشيء قط يقول: إني لأظنُّه كذا إلا كان كما يَظنُّ، بينما عمر رضي الله عنه جالس إذ مرَّ به رجل جميل – سواد ابن قارب – فقال: لقد أخطأ ظني، أو إن هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كان كاهنهم، عليَّ الرجل.

فدُعي له وقال له ذلك، فقال: ما رأيتُ كاليوم استقْبلَ به رجلاً مسلماً، قال: فإني أعزم عليك إلا ما أخبرتني، قال: كنت كاهنهم في الجاهلية، قال: فما أعجب ما جاءتك به جنِّيَّتُكَ؟

قال: بينما أنا يوماً في السُّوق جاءتني أعرفُ فيها الفزع، وقالت: ألم تر الجنَّ وإبلاسها، ويأسها من بعد إنكاسها، ولحوقها بالقِلاص وأحلاسها.

قال عمر رضي الله عنه: صدق بينما أنا نائم عند آلهتهم إذ جاء رجلٌ بعجلٍ فذبحه، فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قطُّ أشدَّ صوتاً منه يقول: يا جليح، أمر نجيح، رجل فصيح، يقول: لا إله إلا الله، فوثب القوم: قلت: لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثمّ نادى: يا جليح، أمر نجيح رجل فصيح، يقول: لا إله إلا الله، فقمت فما نشبنا أن قيل: هذا نبي [1].

---

(١) رواه البخاري كتاب مناقب الأنصار باب إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ص ٦٤٩ – رقم ٣٨٦٦).

ومن مظاهر حفاوة السماء والأرض بنزول القرآن هو حراسة السماء قال تعالى عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ٨ - ١٠].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(١) : «يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له أن السماء مُلئت حرساً شديداً، وحُفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك، لئلا يسرقوا شيئاً من القرآن، فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق. وهذا من لطف الله بخلقه، ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز، ولهذا قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي: من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً مرصداً له، لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يمحقه ويهلكه، ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، أي: ما ندري هذا الأمر الذي قد حدث في السماء، لا ندري أشر أريد بمن

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٤٠ – ٢٤١).

في الأرض، أم أراد بهم ربهم رشداً؟ وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، والخير أضافوه إلى الله عز وجل.

وقد ورد في الصحيح: «والشر ليس إليك». وقد كانت الكواكب يُرمى بها قبل ذلك، ولكن ليس بكثير بل في الأحيان بعد الأحيان، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ رُمي بنجم فاستنار، فقال: ما كنتم تقولون في هذا؟ فقلنا: كنا نقول: يولد عظيم، يموت عظيم، فقال: «ليس كذلك، ولكن الله إذا قضى الأمر في السماء، وذكر تمام الحديث، وقد أوردناه في سورة «سبأ» بتمامه.

وهذا هو السبب الذي حملهم على تطلب السبب في ذلك، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الذي حُفظت من أجله السماء، فآمن من آمن منهم، وتمرّد في طغيانه من بقي، كما تقدم حديث ابن عباس رضي الله عنهما في ذلك، عند قوله في سورة «الأحقاف»: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

ولا شك أنه لمّا حدث هذا الأمر، وهو كثرة الشُهب في السماء والرمي بها، هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا له وارتاعوا لذلك، وظنوا أن ذلك لخراب العالم - كما قال السدي: لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون في الأرض نبي أو دين لله ظاهر، وكانت

الشياطين قبل محمد ﷺ قد اتخذت المقاعد من الليالي، ففزع لذلك أهل الطائف، فقالوا: هلك أهل السماء، لما رأوا من شدة النار في السماء واختلاف الشُهب. فجعلوا يعتقون أرقاءهم ويسيبون مواشيهم، فقال لهم عبد ياليل بن عمرو بن عمير: ويحكم يا معشر أهل الطائف، أمسكوا عن أموالكم، وانظروا إلى معالم النجوم، فإن رأيتموها مستقرة في أمكنتها فلم يهلك أهل السماء، وإنما هذا من أجل ابن أبي كبشة – يعني: محمداً ﷺ – وإن أنتم لم تروها فقد هلك أهل السماء، فنظروا فرأوها، فكفوا عن أموالهم، وفزعت الشياطين في تلك الليلة، فأتوا إبليس فحدثوه بالذي كان من أمرهم، فقال: ائتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها، فأتوه، فشم، فقال: صاحبكم بمكة، فبعث سبعة نفر من جن نصيبين، فقدموا مكة فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي في المسجد الحرام يقرأ القرآن، فدنوا منه حرصاً على القرآن حتى كادت كلاكلهم تصيبه، ثم أسلموا. فأنزل الله أمرهم على نبيه ﷺ» .

*   *   *

منّة الله على خلقه في إنزال القرآن

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

قال العلامة أبو المظفر السمعاني رحمه الله (ت: ٤٨٩هـ)[1]: «وموضع المنّة في بعثه من أنفسهم للعرب: أنه كان شرفاً لهم، حيث بعث الرسول منهم، وأيضاً فإن القرآن نزل بلسان العرب، إذ كان الرسول عربياً، وكان التعلم أسهل عليهم لكونه أقرب إلى أفهامهم، فالمنة في السهولة عليهم، ولأنه لما نشأ فيهم، وعرفوا صدقه وأمانته، وكان أمياً مثلهم ما كان يحسن الخط، ولا يعلم شيئاً، ولا سافر، ثم أتى بكتاب يخبر عن القرون الماضية، وقصص الأولين، ووافق الكتب المنزلة قبله، كان أقرب إلى قلوبهم، فكان يسهل طريق الإيمان عليهم».

(١) تفسير القرآن (١/٣٧٦).

وقال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي رحمه الله (ت: ٨٤٢هـ) مبيناً منّة الله على خلقه في بعثة نبينا محمد ﷺ وإنزال القرآن عليه[1]: «فمن مفهوم الآيات: الإشارة إلى أقسام نِعَم الله تعالى، وهي – وإن كانت لا تحصى – فهي على ثلاثة أقسام كلها مأخوذ من هذه الآيات، فقسم أعيان، وقسم أوصاف، وقسم معان.

فمن الأعيان – وهو أجلُّها - : رسول الله ﷺ الذي مَنَّ الله عزَّ وجل ببعثته على المؤمنين، بل أنعم به على جميع المخلوقين، قال الله عزَّ وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ومن هذه الأوصاف في هذه الآيات: نعمة الله على هذه الأمة أمة الإجابة حيث سمَّاهم المؤمنين، وخاطبهم في الكتاب المذكور في قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [آل عمران: ١٥٦].

وكذلك نعمته عليهم بالتزكية، من قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ فصارت الأمة به صالحين أمةً وسطاً عدولاً خياراً، قال الله عز وجل في الكتاب الذي علَّمه إياه: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

(١) مجالس في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ ص ٣٢٤ – ٣٢٥.

ومن المعاني: علم الشريعة المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

ومن المعاني: عافية المؤمنين من الكفر وتوابعه، المشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾».

ثم قال[1]: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فسَّر الجمهور «الآيات» هنا بالقرآن، ثم أُعيد ذكره بالتعليم مقروناً مع السُّنَّة في قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ليُعلم أنه لا سبيل إلى معرفة الآيات التي هي القرآن إلا من قبل النبي ﷺ بتعليمه إياه للمؤمنين.

وتعليمه على قسمين:

تعليم تلاوته كما أنزل، وهو المشار إليه بقوله تعالى - وهو أعلم-: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

والثاني: تعليمُ تفسيره ومعانيه التي يشملُها علم القرآن، وأشير إليه - والله أعلم - بقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

---

(١) مجالس في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ص ٣٣٦ - ٣٣٧.

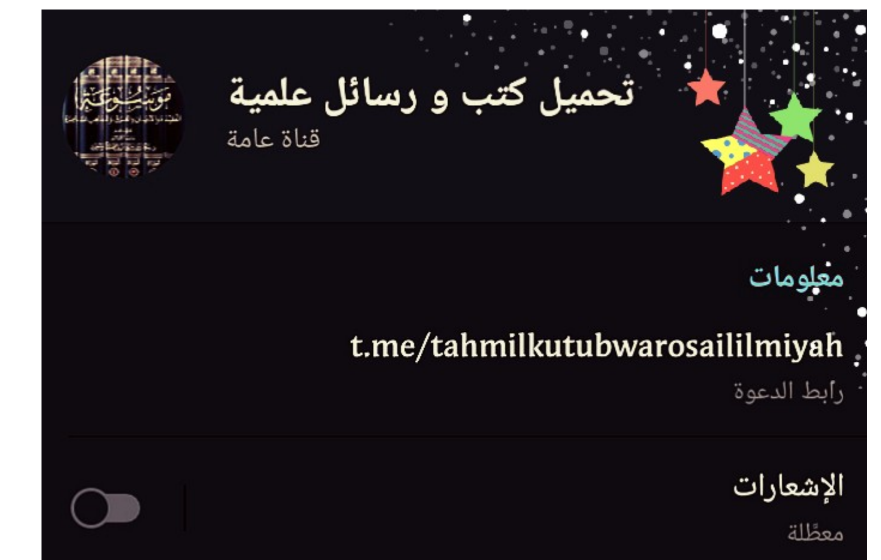
فالكتاب هو القرآن، والحكمة هي السُّنَّة التي منها بيان ما في القرآن من الأحكام ونحوها إجمالاً وتفصيلاً.

ولا سبيل إلى معرفة ذلك إلا من قبل النبي ﷺ، كما قال الله عزَّ وجل: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهو عام في الصحابة ومن بعدهم. ولا طريق إلى معرفة الكتاب والسُّنَّة إلا بإخبار الصحابة، ولا إلى معرفة إخبار الصحابة إلا بما جاء عن التابعين، ولا وصول إلى ذلك إلا بالإسناد الذي هو من الدِّين، وهو من خصائص هذه الأمة، فإن علم الدين هكذا أُدّي إلينا، فبلغنا بالإسناد درجة بعد درجة حتى وصل علم ذلك إلينا، وحصلت بركاته لدينا، ولله الحمد».

* * *

الفصل الثاني

وعــظ القرآن



تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

وعظ القرآن

وعظ القرآن أعظم وعظ لذلك قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

قال العلامة محمد تقي الدين الهلالي رحمه الله(١) : «يقول تعالى معظماً لأمر القرآن، ومبيِّناً علو شأنه وقدره، وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه، لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، أي: منقاداً متذللاً، متشققاً من خوف الله. ويستنبط من الآية علو شأن القرآن وقوة تأثيره لما فيه من المواعظ والزواجر، وتوبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة خشوعه حين قراءته للقرآن، وتدبر ما فيه من القوارع التي تذل لها الجبال الراسيات».

وقد كرر الله وعظه في القرآن، وأبدى فيه وأعاد لأنه المحرك الرئيسي للعمل الصالح، والزاجر العظيم عن المحرمات، ولأن القلوب يصيبها ما يصيبها من القسوة من آثار الذنوب فتحتاج إلى وعظ يزجرها عن غيّها ويأخذ بها إلى صلاحها، ناهيك أن الغلف والطبع على قلوب الكفار يحتاج إلى وعظ ووعيد وترغيب أقوى

---

(١) سبيل الرشاد (٣/٣٩٨ – ٣٩٩).

ليزول شيء من الران الذي على القلوب ليلج إليها نور الوحي فيحيا القلب بنور القرآن.

قال الزمخشري[1] : «إن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس، وتثبيتاً لها في الصدور. ولأن هذه القصص طُرِقَت بها آذان وُقْرٌ عن الإنصات للحق، وقلوب غلفٌ عن تدبره، فكُوثرت بالوعظ والتذكير، ورُوجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذْناً، أو يفْتُقَ ذهْناً، أو يصقُلَ عقْلاً طال عهده بالصقل، أو يجلو فهماً قد غطى عليه تراكم الصدأ».

فمواعظ القرآن تزرع الهدى والإيمان وتحيا القلوب وتُشرق بنور الوحي فتبعث الجوارح على طاعة الله، فيحصل صلاح الظاهر والباطن.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله[2] : «فإن هذا الكتاب المسموع يشتمل على نهاية المطلوب، وغاية ما تصلح به القلوب، وتنجذب به الأرواح، المعلّقة بالمحل الأعلى، إلى حضرة المحبوب، فيحيى بذلك القلب بعد مماته، ويجتمع به شتاته، وتزول قسوته بتدبُّر خطابه وسماع آياته، فإن القلوب إذا أيقنت بعظمة ما سمعت، واستشعرت شرف نسبة هذا القول إلى قائله،

---

(١) الكشاف بواسطة رموز الكنوز (٥/٤١٧).

(٢) نزهة الأسماع في مسألة السماع ص ٨٢ - ٨٣.

أذعنت وخضعت، فإذا تدبّرت ما احتوى عليه من المراد ووعت، اندكت من مهابة الله وإجلاله، وخشعت.

فإذا هطل عليها وابلُ الإيمان من سُحب القرآن، أخذت ما وَسِعت، فإذا بذَر فيها القرآن من حقائق العرفان، وسقاه ماء الإيمان، أنبتت ما زرعت ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٥٠]، ومتى فقدت القلوب غذاءها، وكانت جاهلة به، طلبت العوض من غيره، فتغذت به، فازداد سقمها بفقدها ما ينفعها والتعوّض بما يضرّها، فإذا سقمت مالت إلى ما فيه ضررها، ولم تجد طعم غذائها، الذي فيه نفعها، فتعوضت عن سماع الآيات، بسماع الأبيات، وعن تدبُّر معاني التنزيل بسماع الأصوات».

فافتحوا قلوبكم أيها الراغبون في الخير، واجعلوا قلوبكم أوعية خير قابلةً محبةً لسقيا النور والوحي الإلهي، قال العلَّامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله(١) : «يجب على المسلم أن يخاف من سخط الله وأن يكون قلبه كالأرض السبخة التي لا تنتفع بمواعظ القرآن ولا بزواجره، ويسأل الله أن يجعل أرض قلبه طيبة قابلة لمواعظ القرآن وزواجره وأوامره ونواهيه، فإن من كانت أرض قلبه

---

(١) العذب النمير (٣/١٢٩٣).

طيبة انتفع بمواعظ هذا القرآن، ونفعته أوامره فامتثلها، وزواجره فاجتنبها، وأمثاله فاعتبر بها، وقصصه فاعتبر بها. فعلينا جميعاً أن نسأل الله أن لا يجعل قلوبنا كالأرض السبخة التي لا تنتفع بما ينزل عليها من أمطار الوحي، وأن يجعل أرض قلوبنا كالأرض الطيبة القابلة للإثمار وإنبات العشب والكلأ الكثير والتأثر بآيات الله جل وعلا لتثمر كل الخير كله من الإيمان بالله وطاعته وامتثال أمره واجتناب نهيه. وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨]».

فالمؤمن إذا سمع وعظ القرآن أخبت قلبه وخشعت جوارحه وأورثه ذلك هدى وطاعة وزاد رغبةً في الخير وبعداً عن الشر.

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله (١) : «فخشوع القلب عنوان الإيمان وعلامة السعادة، كما أن قسوته وعدم خشوعه عنوان الشقاوة.

فالخشوع: انكسار القلب وذلُّه بين يدي ربه، وأن يبقى هذا الخشوع مستصحباً مع العبد في جميع أوقاته، إن غفل رجع إليه، وإن مرح عاد إليه، وإن شرع في تعبد وقربة من القربات خضع فيها وقام بالأدب الذي هو أثر الخشوع، خصوصاً في أمِّ العبادات، والجامعة بين أنواع التعبدات القلبية والبدنية وأقوال اللسان، وهي

---

(١) المواهب الربانية من الآيات القرآنية ص ١٤٦ – ١٥٠.

الصلاة، فإنه يقوم فيها مراعياً للمراقبة، ومرتبة الإحسان: أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يره فإنه يراه، فيُجهد نفسه على التحقيق بهذه العبودية الكاملة، فيحضر قلبه فيناجي ربَّه بقلبه قبل لسانه، ويستحضر ما يقوله ويفعله، فتسكن حركاته، ويقلُّ عبثه، ولهذا لمّا رأى النبي ﷺ رجلاً يصلي وهو يعبث في لحيته فقال: «لو خشع قلب هذا؛ لخشعت جوارحه.

وبهذا يُعرف أن من أعظم علامات الخشوع سكون الجوارح والتأدب في الخدمة الذي هو أثر سكون القلب، ولهذا وصف الله عباده الذين أضافهم إلى رحمته في قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، المراد: خاضعين متواضعين.

ومن أمارات هذا الخشوع: أن يطمئن القلب بذكر الله، ويخشع ويخضع للحق الذي أنزله الله، فيعتقد ما دلَّ عليه من الحق، ويرغب فيما دعا إليه من الخير، ويرهب عمَّا حذَّر منه من الشر، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى

بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٢ - ٢٣].

فالقلب القاسي لا تؤثر فيه الآيات شيئاً، ولا يزداد مع التذكير إلا تمادياً في غيِّه وطغيانه وضلاله.

والقلب الخاشع لمَّا كان حسن القصد، متواطئاً على الحق، طالباً له، مستعداً لقبوله، لمَّا وصل إليه الحقُّ عرفه، وعرف الحاجة بل الضرورة إليه، ففرح به واطمأن به، وزادت رغبته وأثَّر في قلبه خضوعاً، وفي عينيه دموعاً، وفي جلده قشعريرة، ثم يلين قلبه ويطمئن إلى ذكر الله تعالى، فهذا من هداية الله لعبده وتوفيقه إيّاه إلا من أعرضوا فأعرض الله عنهم، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ [الفرقان: ٧٣]، أي: بل خرُّوا سامعين مبصرين، منقادين لها - طوعاً واختياراً -، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩]، فهذا تأثير آيات الله في أهل العلم الخاشعين، يجمعون بين خشوع القلب وخضوع اللسان وتضرعه، وخضوع الجوارح حيث خرُّوا للأذقان يبكون، وقال تعالى - بعدما ذكر أصفياءه الخاضعين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا﴾ [مريم: ٥٨].

ومن أعظم علامات الخاشعين: ما ذكر الله بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤]، ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٥]، فلما أخبتت قلوبهم إلى ربهم فذلَّت له، وانكسرت وتبتَّلت إليه تبتيلاً، وجلَتْ عند ذكره، وصبرتْ على ما أصابها من ابتلاء الله، وأدَّت ما أُمِرت به من الصلاة وأنواع النفقات، فجمع بين وصف المخبتين، وبين أعمال القلوب: وهو الصبر والوجل، وأعمال الجوارح كلها، وأقوال اللسان: وهو الصلاة التي تجتمع فيها أنواع التعبد، والأعمال المالية وتقديم محبة الله على محبة المال، فأخرجت المال المحبوب للنفوس في الوجوه التي يحبها الله تعالى إيثاراً لربها، فهذه أوصاف المخبت الخاشع التي لا يستحق هذا الاسم من لم يتصف بها.

وكذلك وصفهم: بأنهم الذين يعرفون الحق في مواضع الشُّبَه فيزدادون إيماناً إلى إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٣]، يتضمن وصف المخبتين الخاشعين بالرجوع إلى ربهم في جميع الحالات، والإنابة إليه في كل الأوقات، لأن تعدية الفعل بـ «إلى» يدل على هذا المعنى، فإنهم لما أخبتوا إلى ربهم، وخضعوا لعظمته، أخبتوا إليه في التعبد متذللين، فتقبَّل منهم، وأوصلهم إلى مقصودهم، وجعلهم

أصحاب الجنة خالدين فيها، فلما خشعت قلوبهم، خشعت أسماعهم، وأبصارهم، وألسنتهم، وجوارحهم للرحمن.

ومما يدل على أن هذه الأشياء تابعة للقلب في خشوعه ما تقدَّم من قوله ﷺ: «لو خشع قلبُ هذا؛ لخشعت جوارحه»، وقوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]، ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨]، ولهذا فسَّر كثير من المفسرين: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]، أنه غض البصر، وقلة الحركات، وعدم الالتفات، ولا شك أن هذا أثر الخشوع ودليله.

فالخاشع هو الذي سكن في قلبه تعظيم الله، ووقاره، وتصديق وعده ووعيده، فذلَّ، وانقادت جوارحه لما أُمِرَتْ به، وترك الأشر، والبطر، والمرح المنافي للخشوع، وكلما بَعُدَ القلبُ عن هذا الوصف، قسا وغلظ، فلم يخضع لأمر الله، ولا أثَّر فيه الذِّكْر، بل ربما زاد خسارا، وافتتن عند المحن والشُّبهات، وفسق عن أمر ربِّه».

ومن خلال استقراء القرآن يظهر جلياً منهج القرآن في الوعظ، قال العلامة أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي رحمه الله[1]: «إن الدلائل الاعتبارية على تفاصيلها منحصرة في منهجين بهما حصول التوحيد وإثبات الرسالة، وعلى مضمن تفاصيلها دارت الآي الاعتبارية والتذكير في كتاب الله تعالى: أحدهما، ما يدرك بالحواس، وإطالة التفكر في الموجودات وارتباطها، ولحظ

(١) ملاك التأويل القاطع لذوي الإلحاد والتعطيل (٢/٦٨٨ - ٦٨٩).

الابتـداءات والانتهـاءات، وتقلـب الأكـوان، واخـتلاف الألـسنة والألـوان، وحركـات الأفـلاك وكواكبهـا الثابتـة والـسيارة، واخـتلاف حركاتها في السرعة والبطء، وخنوس الخمسة منها ومطارح شعاعها، ومقادير الأزمان، وتقلّب النهار والليل بالطول والقصر، وإيلاج الليل في النهار والنهار في الليل، وتعاقب الفصول بالحر والبرد، وتـسخر الرياح، وما في ذلك كله من عليّ الإحكام وجليـل الإتقان، إلى ما يرجع إلى ذلك مما تـستقل بـه العقـول وتجـزم بدلالتـه، والمـنهج الثاني: ما يرجع الاعتبار به إلى المـأثور مـن أحوال الأمـم والقـرون المتقدمـة، ودعـاء الرسـل إيـاهم، ومـا كـان مـن أخـذ تكـذيبهم حـين تمردوا وعتوا، فكل أخذ بذنبه، ونجاة المؤمنين من كل أمة.

فعلى هذين المنهجين دارت آي الكتـاب العزيـز المنطويـة على تذكير العباد وتحريكهم للاعتبار، فمن الأولى قولـه تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، إلى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقـرة: ٢٢]، وقولـه تعـالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقـرة: ١٦٤]، وقولـه: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ﴾ [الجاثيـة: ٣]، وقولـه تعـالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الـذاريات: ٢٠]، إلـى مـا يجاري هذه الآي مما يـشير إلـى دلائـل الآفـاق ودلائـل الأنفـس ومـا يرجع إلى ذلك من دلائل التوحيد والتذكير به».

ومن طريقة القرآن في الوعظ التذكير بالمثلات التي نزلت بمـن

حولنا، خصوصاً من آثارهم ما زالت باقية، ليكون أبلغ في مجانبة طرائقهم ومحاذرة أن يصيبنا ما أصابهم.

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله مبيناً فوائد التذكير بما نزل بـ «عاد» قوم هود[1] : «إن الله بحكمته يقص علينا نبأ الأمم المجاورين لنا في جزيرة العرب وما حولها، لأن القرآن يذكر أعلى الطرق في التذكير، والله تعالى صرَّف فيه التذكيرات تصريفاً نافعاً، ولا ريب أن الأقطار النائية عنا في مشارق الأرض ومغاربها قد بعث الله إليهم رسلاً، ولهم معهم نظير ما للمذكورين من إجابة ورد وإكرام وعقوبة، وما من أمة إلا بعث الله فيهم رسولاً، ولكن نفعنا بتذكيرنا بما حولنا وما نتناقله جيلاً بعد جيل، بل ما نشاهد آثارهم ونمر بديارهم كل وقت ونفهم لغاتهم، وطبائعهم أقرب إلى طبائعنا، لا ريب أن نفع هذا عظيم، وأنه أولى من تذكيرنا بأمم لم نسمع لهم بذكر ولا خبر، ولا نعرف لغتهم، ولا تتصل إلينا أخبارهم بما يطابق ما يخبرنا الله به، فيؤخذ من هذا أن تذكير الناس بما هو أقرب إلى عقولهم وأنسب لأحوالهم وأدخل في مداركهم وأنفع لهم من غيره أولى من التذكيرات بطرق أخرى وإن كانت حقاً، لكن الحق يتفاوت، والمذكر والمعلم إذا سلك هذا الطريق واجتهد في إيصال العلم والخير إلى الناس بالوسائل التي يفهمونها، ولا ينفرون منها أو تكون أقرب لإقامة الحجة عليهم نفع وانتفع، وأشار الباري إلى هذا في آخر قصة عاد، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ

---

(١) تيسير اللطيف المنان ص ١٥٣.

وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، أي نوعناها بكل فن ونوع ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٢]، أي ليكون أقرب لحصول الفائدة».

ومن منهج القرآن في الوعظ أنه إذا ذكر الوعيد ذكر الوعد، وإذا ذكر الترهيب ذكر الترغيب، وإذا ذكر النار وحال أهلها ذكر الجنة وحال أهلها، كل ذلك ترغيباً في سلوك طريق الجنة، وتحذيراً من سوء العاقبة، وترغيباً في التوبة، وحتى لا يقنط العبد من رحمة الله، ولئلا ينفرد منهج الوعيد فيكون العبد ممن يعبد ربه إكراهاً، وفي ذكر الطريقين بيان للعبد ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حيّا عن بيّنة.

قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله (ت: ١٣٧٦هـ)[١]: «فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته، سعوا بالأسباب الموصلة لهم إلى رحمته، وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها، لينالوا مغفرته.

ومع هذا، فلا ينبغي أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال، فنبئهم (أن عذابي هو العذاب الأليم)؛ أي: لا عذاب في الحقيقة إلا عذاب الله الذي لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه، نعوذ به من

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٩٣.

عذابه، فإنهم إذا عرفوا أن لا يعذِّب عذابه أحد ولا يُوثق وثاقه أحد، حذروا وأبعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب.

فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائماً بين الخوف والرجاء والرغبة والرهبة، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته وجوده وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرهبة والإقلاع عنها».

ومن بدائع الآيات وأعظمها ترغيباً في التوبة وسعة رحمة الله أن لا يذكر الوعد بعد الوعيد فقط، بل أن يكون الوعيد بين وعدين، كقوله تعالى: ﴿قَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾، ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾، ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣].

قال ابن عطية الأندلسي رحمه الله[1]: «عقب هذا الوعيد بوعد ثان في قوله: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ أي ذي التطول والمنّ بكل نعمة فلا خير إلا منه، فترتب في الآية وعيد بين وعدين، وهكذا رحمة الله تغلب غضبه».

* * *

(١) المحرر الوجيز (١٤/١١٤).

القرآن يوقظ التدبر في آيات غفلنا عن تلمح معانيها

ولعلي في هذا المقام أذكر أمثلة لما نغفل عن تعقل وتدبر معناه من آيات عظيمة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢١ – ٢٤].

قال العلامة الخطيب الإسكافي رحمه الله (ت: ٤٢٠هـ)[1] : «أي خلق لكم من شكلكم وجنسكم نساء، وهذا أدعى إلى الأُلفة والمحبة لوجود المشاكلة.

وقوله: ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ أي جعلها على حال تتيسر المسرةُ بها ويطمئن القلب إليها، فإذا فكر الإنسان في خلقها،ونعمة الله تعالى

(١) درة التنزيل وغرة التأويل (٣/١٠٤١ – ١٠٤٧).

على الرجال بها، سوى أنهن أوعيدة للأولاد الذين إذا برّوا فمن أكبر نعم الله على العباد، فالفكر في ذلك وفي المعاني التي لها خلقهن يؤدي إلى العلم بقادر عليم وصانع حكيم وواحد قديم، لا يقدر أحد كقدرته، ولا يعرف حكيم حدّاً لحكمته، فحثنا بالتفكّر على العلم بهذا كلّه.

وقوله عزَّ وجل: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي: ميل نفس بالمجانسة، ورقة قلب تبعث على التعاطف يستكمل سرور كلّ منهما بصاحبه، وذلك من فضل الله ونظره لخلقه.

وأما قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ فلأنه جاء بعد قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ ولا أحد إلّا والسماء تظلّه والأرض تقلّه، فلا ينفك منهما، ولا أحد يخلو من كونه بينهما، يعلم ذلك باضطرار، وأما اختلاف الألسنة فالمراد أن آلات الكلام متقاربة، وأجراس الأصوات والنّغم مختلفة، حتى ترى كلّ واحد من الناطقين مختصاً بلطيفة من الله تعالى في صوته وفي جرس لسانه، لا يخفى بها على من عرفه إذا سمع كلامه، والسمع يميّز بينه وبين ما سواه قبل أن يراه، ويعلم هذا كلٌّ من نفسه، وممن يجاوره ويعاشره ويناطقه حتى لا تكاد ترى اثنين في الدَّهْم العظيم، والبشر الكثير يتشابه صوتاهما، ويلتبس كلامهما، وهذه اللطيفة لا سبيل إلى وصفها حتى يتهيأ وصف كل صوت بما

يحصره على صاحبه ويخصّه بناطقه، تبارك الله أحسن الخالقين، وكذلك قوله: ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ ليس المرادبها السواد والبياض والسمرة والحمرة والأُدْمَة والصفرة، وإنما المعنى اختصاص كل واحد من الناس بخلقه، وانفرادُه بصورة يقارنها لُطف تدبير من الله، يجعله على لون ونوع من التصوير يتميّز به عن سائر أمثاله حتى لا يلتبس بواحد من أشكاله، فلا تكاد تجد في بلد يحوي من لا يحصر بعدد اثنين يتشابهان تشابه لبس، بل كل واحد مخصوص بخصوصية في وجهه، يعرَف بها من غيره، وهو أيضاً مما يعجز عنه بالنعت، ولا يمكن إبانةُ واحد من الآخر بالوصف حتى يستغني به عن المشاهدة، ويقوم من جهة الواصف له مقام الرؤية.

فهذه آيات يشترك في عرفتها الناس كلهم، وإن استمرت الغفلة بهم، ووقع على تأملها سهو منهم، فلذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ أي: لجماعات الناس، فكل جماعة منهم عالم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ فهو من باب لفّ الخبرين، المعنى: منامكم بالليل للسكون، وابتغاؤكم من فضله بالنهار، كما قال فيما قبله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣] أي: لتسكنوا في الليل ولتبتغوا من فضله في النهار، وكلُّ من سمع هذا علم أن النوم عجيب من فضل الله تعالى، لا يقدر الإنسان على اجتلابه إذا امتنع، ولا على دفاعه إذا ورد، ثم إنه بالنهار لا بد

له من تصرّف لمعاش وطلب قوتٍ وطعام، به قوامُ الأجساد، فلذلك قال: ﴿يَسْمَعُونَ﴾ وقيل: معنى قوله: ﴿يَسْمَعُونَ﴾: يستجيبون لما تدعوهم إليه الآيات، ويصرفون أفكارهم إليها».

وتلمح عزيزي القارئ للقرآن خواتيم كل آية من آيات الاعتبار حيث تراها تتناسب مع خفاء ووضوح الآية المساقة للاعتبار، وبهذا يتبين لك ولكل فطن لسببين أن ختم الآية بـ ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾، و﴿يَعْلَمُونَ﴾، و﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾ ما جاء إلا عن علم وقصد في البيان ممن أنزله تبارك رب العالمين.

فالآية البيّنة الواضحة التي يعقلها الكفار ويتعامون عنها يقول الله فيها ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠]، ويقول: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، وما خفي من الآيات والأدلة يقول الله فيها: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥]، ويقول: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

قال العلامة أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي رحمه الله (ت: هـ) (١) : «إن الآية الأولى لما نبهوا فيها وذكروا بما تشهد العقول بديهياً وتعترف بدلالته - إذ لا إشكال فيه - من أن السموات والأرض تشهد بإحكام منعتها، وإتقان خلقها، وما أودع سبحانه فيها من العجائب والآيات المشاهدة للعيان، مع انسحاب التغير على جميعها وعلى ما فيها، بأن لها موجداً أوجدها وأحكم صنعتها

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل (٢/ ٩٠١ - ٩٠٣).

وإتقانها، وأنه لا يمكن أن أوجدت أَنْفسها ولا أوجدها غيرها مما يماثلها في شواهد الافتقار وانسحاب التغير، وذلك مما لا تنفك عنه سائر الموجودات فيشهد العقل بأن لها موجداً من غير جنسها متعالياً عن شبهها. إذ لو شبهها لافتقر إلى موجد آخر، فلبيان الأمر ما أعقبت هذه الآية الأولى بقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل: ٦٠]، أي أن الأمر غير خاف، ولكنهم يعدلون عنه، وكذا قيل لهم في دعائهم إلى الإيمان في أول سورة البقرة حين ذُكروا بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، إلى قوله: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢]، فهذا كقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ من غير فرق، لما ذكروا في الموضعين بخلق السموات والأرض، وإنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات، وإنبات الحدائق العجيبة، وكانوا يعترفون بخلقه سبحانه جميع ذلك ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، فاعترافهم بهذا ثم يجعلون له تعالى الند والشريك عدول واضح بعد قيام الحجة عليهم، فقيل هنا: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾.

ثم لما ذكّروا بما هو أخفى في قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ...﴾ [النمل: ٦١]، فإن تمهيد الأرض للسكنى، وتفجير الأنهار خلالها، وحجز ما بين العذب والمالح من مياهها، ليس مما ظهور

الاعتبار به وبيانه في الجلاء والوضوح كخلق السماوات والأرض وإنزال الماء إلى ما في الآية، فلما كان التذكر بما في الآية الثانية أخفى أعقب هذا بقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، ثم تدرج الاعتبار إلى ما هو أخفى فقيل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، وخفاء الاعتبار بهذا واضح، ولا يحصل عليه إلا من أمعن النظر فيما تقدم قبله، فأعقب هذا لخفائه بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]، ثم أعقب بما لا يمكن أن يتعاطاه أحد مع وضوح الأمر عند تدبره، وهو قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ...﴾ الآية [النمل: ٦٣]، وذلك مما لا يتصور فيه من العاقل التسليم، فأعقب بحسب ذلك والتفات ما قبله بقوله: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣]، ثم ختم ما قدم من هذه المعتبرات الجليلة بما لا يحصل الاعتبار إلا بعد إحكام النظر فيما قبله، والاعتراف بما يجب لله سبحانه من الاتصاف بالعلم والقدرة، إذ بهما وبثبوتهما تتمُّ وتثبت العودة والبدأة، إلى ما يجب له سبحانه من الصفات العُلى التي يثمر العلم بثبوتها له سبحانه النظر التام الصحيح والاعتبار بما تقدم في الآيات قبل هذه، فلما كمل ذكر ما به يحصل الاعتراف والإيمان، ويستوضح منه أنه سبحانه المنفرد بالخلق والأمر والمالك للدارين، أعقب بطلب المعاند بالبرهان على ما يدعيه، فقيل: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]، أي إن صدقتم أن لله شريكاً

في ملكه تعالى: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣]، فقد وضح أن كل معقب به آية من هذه الآيات، المذكر بها من استبصر والقاطعة بكل من أشرك وكفر، جار على أوضح مناسبة».

وبيّن بعض العلماء أن هذه الآيات سبب غفلتنا عنها هو أننا نعيشها كل يوم، فذكّرنا الله هذه الآيات لنتأملها ونعتبر بها فتورثنا زيادة إيمان وإقبال على الآخرة وحسن تأمل لسائر الآيات.

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله (١) : «وحالة النوم حالة عجيبة من أحوال الإنسان والحيوان، إذ جعل الله له في نظام أعصاب دماغه قانوناً يسترد به قوة مجموعه العصبي بعد أن يعتريه فشل الإعياء من إعمال عقله وجسده فيعتريه شبه موت يخدّر إدراكه ولا يعطِّل حركات أعضائه الرئيسية، ولكنه يثبطها حتى يبلغ من الزمن مقداراً كافياً لاسترجاع قوته فيفيق من نومته، وتعود إليه حياته كاملة.

والمنام مصدر ميمي للنوم، أو هو اسم مصدر، وقوله: ﴿بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، متعلق بـ ﴿مَنَامُكُم﴾ [الروم: ٢٣]، والباء للظرفية بمعنى «في»، فالناس ينامون بالليل ، ومنهم من ينام بالنهار في القائلة، وبخاصة أهل الأعمال المضنية إذا استراحوا منها في منتصف النهار خصوصاً في البلاد الحارة أو في فصل الحر. والابتغاء من فضل الله:

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/٧٦ – ٧٧)، بتصرف يسير جداً.

طلب الرزق بالعمل، لأن فضل الله الرزق، وجعل هذا كناية عن الهبوب إلى العمل، لأن الابتغاء يستلزم الهبوب من النوم، وذلك آية أخرى لأنه نشاط القوة بعد أن خارت وفشلت. ولكون ابتغاء الرزق من خصائص النهار أطلق هنا، فلم يقيد بالليل والنهار. ولله أن تجعل عدم تقييده بمثل ما قُيد به ﴿مَنَامُكُمْ﴾ للاستغناء بدلالة القيد الذي قبله بتقدير: وابتغاؤكم من فضله فيهما.

وقد جعلت دلالات المنام والابتغاء من فضل الله لقوم يسمعون لوجهين: أحدهما: أن هذين حالتان متعاورتان على الناس قد اعتادوها فقلَّ من يتدبر في دلالتهما على دقيق صنع الله تعالى، فمعظم الناس في حاجة إلى من يوقفهم على هذه الدلالة ويرشدهم إليها.

وثانيهما: أن فيما يسمعه الناس من أحوال النوم ما هو أشد دلالة على عظيم صنع الله تعالى مما يشعر به صاحبُ النوم من أحوال نومه، لأن النائم لا يعرف من نومه إلا الاستعداد له وإلا أنه حين يهُبّ من نومه يعلم أنه كان نائماً، فأما حالة النائم في حين نومه ومقدار تنبهه لمن يوقظه، وشعوره بالأصوات التي تقع بقربه، والأضواء التي تنتشر على بصره فتنبهه أو لا تنبهه، كل ذلك لا يتلقاه النائم إلا بطريق الخبر من الذين يكونون أيقاظاً في وقت نومه. فطريق العلم بتفاصيل أحوال النائمين واختلافها السمع، وقد يشاهد المرء حال نوم غيره إلا أن عبرته بنومه الخاص به أشد،

فطريق السمع هو أعم الطرق لمعرفة تفاصيل أحوال النوم، فلذلك قيل ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

وأيضاً لأن النوم يحول دون الشعور بالمسموعات بادئ ذي بدء قبل أن يحول دون الشعور بالمبصرات.

وأجريت صفة «يسمعون» على «قوم» للإيماء إلى أن السمع متمكّن منهم حتى كأنه من مقومات قوميتهم كما تقدم في قوله تعالى: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ووجه جعل ذلك آيات لما ينطوي عليه من تعدد الدلالات بتعدد المستدلين وتولد دقائق تلك الآية بعضها عن بعض كما تقدم آنفاً».

وانظر كذلك إلى قوله تعالى: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١ - ١٣].

قال العلامة الخطيب الإسكافي رحمه الله (ت: ٤٢٠هـ)[1]: «للسائل أن يسأل عن توحيد «الآية» أولاً وآخراً وجمعها في

(١) درة التنزيل وغرة التأويل (٢/٨٢١ - ٨٢٧).

المتوسط، ولِمَ كان ذلك الاختيار؟ وفي كل ذلك آيات كثيرة، ولِمَ عبّر عنها بآية واحدة؟.

والجواب أن يقال: إنما وحَّد في الأولى، لأن جميع ما أخبر عنه أنه خلقه إنما هو في جنس من صنعه، ونوع من خلقه، وهو كل ما نجم من الأرض مما فيه قوت الخلق.

والذي فيه ذكر «الآيات»؛ الليل والنهار - وهو إظلام الجوّ لغروب الشمس إلى طلوع الفجر، وبدوّ الضياء مقدمة طلوع الشمس إلى غروبها -، والشمس والقمر - النيِّران اللذان في كل واحد منهما آيات كثيرة، ثم النجوم السيّارة وغيرها على ما جعل الله تعالىٰ لكل منها من مسيرة في فلك، ثم ما أجرى العادة به من إحداث ريح أو مطر عند انتهاء أحدها إلى بعض المجاري، فكان ذكر «الآيات» هنا أولى، وذكر «الآية» في الأولى أحقّ، لأن الأولى فيما يطلع من الأرض بالماء، فكأنه يجمع جميعها شيء واحد، والثانية بخلافها، فلذلك اختلفتا.

وأما الثانية: فهي: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ المعنى - والله أعلم - جميع جواهر الأرض كالذهب والفضة والحديد وغيرها من النعم التي تبعث على الفكر والتنبيه على ما جعل فيها من المنافع للخلائق، وهي كلها كالشيء الواحد في أنها عروق جارية مختلفة في شيء واحد، هو أمّها، وهي الأرض، ولذلك قدّم الإنعام بالزرع والثمار لعلم الخاصة والعامة بما فيها من

قرب النفع وإمساك الخلق، ثم عقّب ذلك بما هو أصله من الهواء وماء الكواكب التي جعلها الله قواماً لتربية ما به ثبات البريّة، فلما صرف العقول إلى ما نصب من الأمارات في أصناف ما سببه في البرّ أتبعه بما سخر في البحر.

مسألة ثانية في هذه الآيات: فإن قال قائل: فلِم قال في الأولى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وقال في الثانية: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وفي الثالثة: ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾؟

فالجواب: إن التفكر إعمال النظر لتطلب فائدة، وهذه المخلوقات التي تنجم من الأرض إذا أفكر فيها علم أن معظمها ليس إلَّا للأكل، وأن الأكل به قوام ذي الروح، وأن المنعم عليه يحتاج أن يعرف المنِعم به ليقصده شكر إحسانه، فهذا موضع تفكر بعث الناس عليه ليفضي بهم إلى المطلوب منهم.

وأما تعقيب ذكر الليل والنهار وما سخّر في الهواء من الأنوار بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، فلأن متدبّر ذلك أعلى رتبة من متدبَّر ما ذكر متقدماً، إذ كانت المنافع المجعولة فيها أخفى، وأغمض، فمن استدرك الآيات فيها استحق الوصف بما هو أعلى من رتبة المتفكر المتدبّر، لأنه المنزلة الثانية التي تؤدي إليها الفكرة، وهو أن يعقل مطلوبه منها، ويدرك فائدته منها.

أما الثالثة، وهي ﴿لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، فلأنه لمّا نبّه في الأولَيَيْن على إثبات الصانع نبّه في الثالثة على أنه لا شبه له ممّا

صنع، لأن من رأى المخلوقات أصنافاً مزدوجة مؤتلفة أو مختلفة نفى عنه صفاتها، وعلم أن خالقها يخالفها، لا يشبهها ولا تشبهه، وقال في سورة « ق » : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٧ - ٨]، أي فعلنا ذلك لنبصركم ونريكم آياتنا ولنذكّركم بازدواجها مخالفة صانعها، كما قال: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩] فيعلم بعد العلم بما تقدّم أنه لا صاحبة له ولا ولد، ولا مشبّه له فيما أنشأ وبرأ، إذا تذكّر حاله فيها اتفق منه واختلف».

كما بيّن الله في القرآن أن من أعظم أسباب الضلال تعطيل العقل وتوارث الباطل كما قال تعالى عن الكفار: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وركوب الباطل بالمحاكاة يقع من الأذكياء، الذين غبنوا عقولهم في أهم الأشياء وهو العقيدة، وإن كانوا قد حرروا عقولهم في علوم الدنيا، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله [١] : «ومن العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا إلى أمر يحيّر العقول ويُدهش الألباب، وأظهروا من العجائب الذرية والكهربائية والمراكب البرية والبحرية والهوائية ما فاقوا به، وبرزوا وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزاً عمّا أقدرهم

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٧٤٩.

الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلُّهم معرفة بالعواقب».

ثم قال رحمه الله [(١)] : «وهذه الأمور لو قارنها الإيمان وبُنيت عليه لأثمرت الرقيَّ العالي والحياة الطيبة، ولكنها لما بُني كثير منها على الإلحاد، لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير».

ولذلك جاء القرآن ليخاطب العقول الكافرة التائهة عن الحق بالبراهين العقلية التي توجب الانقياد للحق إذا صادفت إنصافاً، قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥]، وقد قرعت سمع جبير بن مطعم رضي الله عنه لما كان كافراً، فقال: كاد يتصدع قلبي[(٢)].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٦٧]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[(٣)] : «دعوة للنظر بالدليل العقلي بألطف خطاب، وأن إنكار من أنكر ذلك مبني على غفلة منه عن حاله الأولى، وإلا فلو تذكَّرها وأحضرها في ذهنه، لم ينكر ذلك».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٧٤٩.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير باب فداء المشركين (ص٥٠٤ – رقم ٣٠٥٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٧٥.

كذلك وعظ القرآن الكفار بأوضح البيّنات على استحقاق الله وانفراده بالألوهية، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[1] : «أي: هل يجيب المضطر الذي أقلقته الكروب وتعسَّر عليه المطلوب واضطَّر للخلاص بما هو فيه إلا الله وحده؟! ومن يكشف السوء؛ أي: البلاء والشرَّ والنقمة، إلا الله وحده؟! ومن يجعلكم خلفاء الأرض يمكِّنُكم منها، ويمدُّ لكم بالرزق ويوصل إليكم نعمه، وتكونون خلفاء من قبلكم كما أنه سيميتكم ويأتي بقوم بعدكم؟! أإله مع الله يفعل هذه الأفعال؟! لا أحد يفعل مع الله شيئاً من ذلك، حتى بإقراركم أيها المشركون، ولهذا كانوا إذا مسَّهم الضُّرُّ دعوا الله مخلصين له الدين، لعلمهم أنه وحده المقتدر على دفعه وإزالته، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: قليلاً تذكُّركم وتدبُّركم للأمور التي إذا تذكَّرتموها ادّكرتم ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة والإعراض شامل لكم، فلذلك ما ارعويتم ولا اهتديتم».

* * *

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٧١١.

الفصل الثالث

تعظيم القــرآن

تعظيم القرآن

القرآن كلام الله، وتعظيم القرآن هو تعظيم للمتكلم به، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦].

وقد عظّم الله هذا القرآن، قال سبحانه ﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١ - ٢]، قال والدنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[1]: «من فوائد الآية: بيان علو القرآن، لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾، فالإشارة بالبعد تفيد علو مرتبته، وإذا كان القرآن عالي المكانة والمنزلة، فلابد أن يعود ذلك على المتمسك به بالعلو والرفعة، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، وكذلك ما وُصف به القرآن من الكرم، والمدح، والعظمة فهو وصف أيضاً لمن تمسك به.

ومنها رفعة القرآن من جهة أنه قرآن مكتوب معتن به، لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، وقد بيّنا أنه مكتوب في ثلاثة مواضع: اللوح المحفوظ، والصحف التي بأيدي الملائكة، والمصاحف التي بأيدي الناس».

---

(١) تفسير سورة البقرة (١/ ٢٨).

ومن تعظيم القرآن أن لا تمسه إلا وأنت طاهر، وقد استدل العلماء بقوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩]، واعترض عليهم ابن حزم رحمه الله بأن الآية ليس فيها أمر ولا نهي وأنها جملة خبرية عن القرآن في اللوح المحفوظ والصحف التي بأيدي الملائكة، وهو اعتراض صحيح، إلا أن ذلك لا ينفي المدلول، فالجملة خبرية ومتضمنة للحكم بقياس الأولى.

قال ابن القيم رحمه الله[1]: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: الصحيح منها ما يدل عليه اللفظ بإشارته من باب قياس الأولى.

قلت: مثاله قوله تعالى ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾، قال: والصحيح في الآية، أن المراد به: الصحف التي بأيدي الملائكة، لوجوه كثيرة: منها: أنه وصفه بأنه «مكنون»، و«المكنون» المستور عن العيون، وهذا إنما هو في الصحف التي بأيدي الملائكة.

ومنها: أنه قال: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾، وهم الملائكة ولو أراد المتوضئين لقال: لا يمسه إلا المتطهرون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فالملائكة مطهرون، والمؤمنون متطهرون. ومنها: أن هذا إخبار، ولو كان نهياً لقال: لا يمسسه بالجزم، والأصل في الخبر: أن يكون خبراً صورة ومعنى.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٣٥ – ٣٣٦).

ومنها: أن هذا رد على من قال إن الشيطان جاء بهذا القرآن، فأخبر تعالى: أنه في كتاب مكنون لا تناله الشياطين، ولا وصول لها إليه، كما قال تعالى في آية الشعراء: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١١]، وإنما تناله الأرواح المطهرة وهم الملائكة.

ومنها: أن هذا نظير الآية التي في سورة عبس: ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: ١٢ - ١٦].

قال مالك في موطئه: أحسن ما سمعت في تفسيره قوله: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ أنها مثل هذه الآية التي في سورة عبس.

ومنها أن الآية مكية من سورة مكية تتضمن تقرير التوحيد والنبوة والمعاد، وإثبات الصانع، والرد على الكفار، وهذا المعنى أليق بالمقصود من فرع عملي، وهو حكم مس المحدث المصحف.

ومنها أنه لو أريد به الكتاب الذي بأيدي الناس: لم يكن في الإقسام على ذلك بهذا القسم العظيم كثير فائدة، إذ من المعلوم: أن كل كلام فهو قابل لأن يكون في كتاب حقاً أو باطلاً، بخلاف ما إذا وقع القسم على أنه في كتاب مصون، مستور عن العيون عند الله لا يصل إليه شيطان، ولا ينال منه، ولا يمسه إلا الأرواح الطاهرة الزكية، فهذا المعنى أليق وأجل وأخلق بالآية وأولى بلا شك.

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: «لكن نزول الآية بإشارتها على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر، لأنه إذا كانت تلك الصحف لا يمسها إلا المطهرون، لكرامتها على الله، فهذه الصحف أولى أن لا يمسها إلا طاهر».

وفي كتاب النبي ﷺ لعمرو بن حزم رضي الله عنه: «لا يمس القران إلا طاهر»[1].

ويدل لهذا الحكم إجماع الصحابة، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله[2]: «وأصل هذه المسألة منع المحدث من مس المصحف، وسواء كان حدثه حدثاً أكبر وهو من يجب عليه الغسل أو أصغر وهو من يجب عليه الوضوء.

هذا قول جماهير العلماء، وروي ذلك عن علي، وسعد، وابن عمر، وسلمان، رضي الله عنهم، ولا يعرف لهم مخالفاً من الصحابة».

ومن تعظيم القرآن عدم المماراة فيه: فالشرع كله محكم مؤتلف غير مختلف، ومتفق غير مفترق، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وكتاب الله ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ

---

(١) رواه الدارمي (٢/١٨٨)، والنسائي (رقم ٤٨٥٣)، وابن خزيمة (رقم ٢٢٦٩)، وابن حبان (٨/ ١٨٠) وغيرهم. قال ابن عبدالبر: «وهو كتاب مشهور عند أهل السير معروف ما فيه عند أهل العلم معرفة تستغني بشهرتها عن الإسناد لأنه أشبه التواتر في مجيئه لتلقي الناس له بالقبول والمعرفة». التمهيد (١٧/ ٣٣٨).

(٢) فتح الباري (٢/ ٢١).

مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٢]، أنزله الله وفصّله على علم ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢].

فكتاب الله كله محكم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «والقرآن كله محكم بمعنى الإتقان، فقد سماه الله حكيما بقوله: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، فالحكيم بمعنى الحاكم».

وأما الاشتباه المذكور في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ [آل عمران: ٧]، فهذا الاشتباه نسبي، أي بالنسبة لمن لم يعرفها.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله[2]: «وإنما هي مشتبهة على من لم يعلمها، وليست مشتبهة في نفس الأمر».

وقال الشاطبي رحمه الله[3]: «كل من تحقق بأصول الشريعة فأدلتها عنده لا تكاد تتعارض».

وقد وقع في عهد النبي ﷺ بدايات رد النصوص بعضها ببعض، وضرب كتاب الله بعضه ببعض مع حسن قصد الصحابة وتحريهم للحق، فزجرهم النبي ﷺ عن ذلك أشد الزجر وظهر أثر الغضب في

---

(١) الرسالة التدمرية ص ١٠٣.
(٢) جامع العلوم والحكم ص ٧٢.
(٣) الموافقات (٤/ ٢٩٤).

وجهه، كل ذلك قطعاً لدابر هذا الشر أن يستشري في الأمة وحسماً لمادة الخلاف، وإغلاقاً لباب فتنة لو فتح لأفسد على الناس دينهم.

فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن نفراً كانوا جلوساً بباب النبي ﷺ، فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا، فسمعهم رسول الله ﷺ فخرج، فكأنما فقئ في وجهه حب الرمان، فقال: بهذا أُمرتم! أو بهذا بُعثتم أن تضربوا القرآن بعضه ببعض، إنما ضلت الأمم قبلكم في مثل هذا، فانظروا الذي أمرتم به فاعملوا به، وانظروا الذي نهيتم عنه فانتهوا عنه[1].

قال ولي الله الدهلوي رحمه الله[2]: «يحرم التدارؤ بالقرآن، وهو أن يستدل واحد بآية فيرده آخر بآية أخرى طلباً لإثبات مذهب نفسه وهدم وضع صاحبه، أو ذهاباً إلى نصرة مذهب الأئمة على مذهب بعض، ولا يكون جامع الهمة على ظهور الصواب، والتدارؤ بالسنة مثل ذلك».

وضرب النصوص بعضها ببعض يؤدي إلى ذهاب حرمة كلام الله والتجرؤ على رد نصوصه، ويفضي إلى التشكيك في متشابهه،

---

(١) رواه أحمد (٢/١٥٩ - ١٦٠)، وابن ماجة (١/٣٣ - رقم ٨٥)، قال البوصيري رحمه الله: «إسناد صحيح». مصباح الزجاجة (١/٥٣).

(٢) الحجة البالغة (١/٣٨٩).

وهذا هو عين المراء في القرآن الذي حذّر منه النبي ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مراء في القرآن كفر**»[1].

قال الحافظ البغوي رحمه الله[2]: «احتفلوا في تأويله، فقيل: معنى المراء: الشك، كقوله سبحانه وتعالى ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧] أي: في شك منه. وقيل: المراء هو الجدل المشكك، وذلك أنه إذا جادل فيه أداه إلى أن يرتاب في الآي المتشابهة منه، فيؤديه ذلك إلى الجحود، فسماه كفراً باسم ما يخشى من عاقبته إلا من عصمه الله».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مبيناً حقيقة ما عليه المختلفون من أصحاب المقالات[3]: «فإن المختلفين أهل المقالات المذكورة في كتب الكلام: إما نقلاً مجرداً للأقوال، وإما نقلاً وبحثاً وذكراً للجدال مختلفون في الكتاب، كل منهم يوافق بعضاً ويرد بعضاً، ويجعل ما يوافق رأيه هو المحكم الذي يجب اتباعه، وما يخالفه هو المتشابه الذي يجب تأويله أو تفويضه».

وقد أمرنا الله بمجانبة الذين يمارون في القرآن، ويتجادلون في متشابهه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله ﷺ يوماً

---

(١) رواه أحمد (٢/٢٦٨) وأبو داود (٥/٩ - رقم ٤٦٠٣)، والحاكم (٢/٢٢٣).

(٢) شرح السُّنَّة (١/٢٦١).

(٣) منهاج السُّنَّة (٥/٢٧٤).

هذه الآية ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران: ٧]، الآية، فقال: «**فإذا رأيت الذين يجادلون فيه أو به، فهم الذين عنى الله تعالى فاحذروهم**»(١).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: سيكون أقوام يجادلونكم بمتشابه القرآن، فخذوهم بالسنن، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله تعالى(٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ [آل عمران: ٧]، قال: هم أصحاب الخصومات والمراء في دين الله(٣).

والمتشابه جعله الله فتنة للذين في قلوبهم ميل وزيع وهوى ومرض، فيخوضون ويتناظرون فيه، ويضلون ويُضلون بذلك، وهذه طريقة أهل البدع كما قال الإمام أحمد في وصفهم(٤): «هم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويُلبسون على الجهال بما يتكلمون به من المتشابه».

والمجادلون في المتشابه مخالفون للقرآن من وجهين:

---

(١) رواه البخاري كتاب التفسير باب ﴿منه آيات محكمات﴾ (٨/٢٠٩ – رقم ٤٥٤٧)، ومسلم كتاب العلم باب النهي عن اتباع متشابه القرآن (٤/٢٠٥٣ – رقم ٢٦٦٥).

(٢) الشريعة للآجري (١٢٠٩)، ذم الكلام للهروي (١/١٨٣)، جامع البيان للطبري (٣/١٢٠).

(٣) ذم الكلام للهروي (١/١٨٥ – رقم ١٥٣).

(٤) الرد على الجهمية.

الأول : عدم التسليم والانقياد والإيمان بالمتشابه كما أمرهم الله، وكما هي طريقة الراسخين في العلم ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

الثاني: عدم رده إلى المحكم من النصوص.

قال العلامة أبو عبدالله ابن بطة رحمه الله مبيناً شرور المراء في آيات الله[١]: «قد بقي المراء الذي يحذره المؤمنون، ويتوقاه العاقلون وهو المراء الذي بين أصحاب الأهواء وأهل المذاهب والبدع، وهم الذين يخوضون في آيات الله ويتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، الذي لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم، يتأولونه بأهوائهم ويفسرونه بأهوائهم ويحملونه على ما تحمله عقولهم، فيضلون بذلك ويضلون من اتبعهم عليهم».

وبيَّن الشاطبي رحمه الله ما يقع من الشرور بسبب اتباع المتشابه، فقال[٢]: «من شأن المتّبع للمتشابه أن يجادل فيه ويقيم النزاع على الإيمان، وسبب ذلك أن المتبع للمتشابه أنه يجادل فيه، ويقيم النزاع على الإيمان، وسبب ذلك أن الزائع المتبع لما تشابه من الدليل لا يزال في ريب وشك، إذ المتشابه لا يُعطي بياناً شافياً، ولا يقف منه متبعه على حقيقة، فاتباع الهوى يلجئه إلى التمسك

(١) الإبانة (٦١٨/٢).
(٢) الاعتصام (٢٣٦/٢).

به، والنظر فيه لا يتخلص له، فهو على شك أبداً وبذلك يفارق الراسخ في العلم، لأن جداله إن افتقر إليه فهو في مواقع الإشكال العارض طلباً لإزالته، فسرعان ما يزول إذا بيّن له موضع النظر.

وأما ذو الزيغ فإن هواه لا يخليه إلى طرح المتشابه، فلا يزال في جدال عليه وطلب لتأويله».

ومن تعظيم القرآن الانقياد للأدلة الشرعية وقبولها قبولاً عاماً، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[١]: «يقول الله تعالى آمرا عباده المؤمنين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك».

وتعظيم نصوص القرآن والانقياد لها هو من تعظيم الشرع وتوقير الله، وهو دليل وفور الإيمان، قال تعالى ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢].

والعبد إذا قرع سمعه كلام الله وتُليت عليه آياته وجب عليه الخضوع للحق وقبوله والانقياد له، وهذا مقتضى الإيمان، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٢٤٧).

[الفرقان: ٧٣]، وكان الصحابة أقوم الناس بالحق، ولزوماً وخضوعاً له، لأنهم أكمل الناس إيماناً.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه واصفاً الصدّيق رضي الله عنه[١]: «صادق بار راشد تابع للحق».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما واصفاً عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٢]: «كان وقافاً عند كتاب الله».

والعبد إذا ظهر له الحق ورغب عنه فإنه يستحق أن يزيده الله ضلالاً وغواية وبعداً عن الحق، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

قال الإمام أحمد رحمه الله: [٣] «لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ، فيزيغ الله قلبه، فيُهلِكه».

قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ١١٠].

قال أبو عبدالله ابن بطة رحمه الله[٤]: «فاعلم يا أخي أن من كره

---

(١) رواه البخاري كتاب فرض الخمس باب فرض الخمس (١٩٨/٧ – رقم ٣٠٩٤)، ومسلم كتاب الجهاد والسير باب حكم الفيء (١٣٧٩/٣ – رقم (٤٩) ١٧٥٧).
(٢) رواه البخاري كتاب التفسير باب (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين): (٣٠٤/٨ – رقم ٤٦٤٢).
(٣) تيسير العزيز الحميد ص ٥٤٥.
(٤) الإبانة (٥٤٧/٢).

الصواب من غيره، ونصر الخطأ من نفسه، لم يؤمن عليه أن يسلبه الله إيمانه، لأن الحق من رسول الله إليك، افترض عليك طاعته، فمن سمع الحق فأنكره بعد علمه له فهو من المتكبرين على الله، ومن نصر الخطأ فهو من حزب الشيطان».

وقال ابن القيم رحمه الله[1]: «حذار حذار من أمرين لهما عواقب سوء: أحدهما: رد الحق لمخالفته هواك، فإنك تعاقب بتقليب القلب، ورد ما يرد عليك من الحق رأساً، ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فعاقبهم على رد الحق أول مرة بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك».

فالواجب حفظ حرمة نصوص القرآن وتعظيمها، فيقدمها المسلم على كل ما عارضها، ودفع الأدلة في نحورها انتصاراً للأحزاب والمذاهب يهتك حرمة النصوص في النفوس، وكفى بذلك مفسدة.

قال العلامة أبوعبدالله المقري رحمه الله (ت: ٧٥٨هـ)[2]: «لا يجوز رد الأحاديث إلى المذاهب على وجه ينقص من بهجتها، ويذهب بالثقة بظاهرها، فإن ذلك إفساد لها، وغض من منزلتها، لا أصلح الله المذاهب بفسادها، ولا رفعها بخفض درجاتها.

فكل كلام يؤخذ منه ويرد، إلا ما صح لنا عن محمد ﷺ، بل لا يجوز الرد مطلقاً، لأن الواجب أن ترد المذاهب إليها».

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٨٠).

(٢) القواعد (٢/ ٣٩٦).

ومن تعظيم القرآن حسن الإنصات له، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1]: «لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة، أمر تعالى بالإنصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً».

وبعض أهل العلم يرى وجوب الإنصات إذا كان في صلاة لأن الآية إنما نزلت في ذلك، قال ابن المنذر رحمه الله[2]: «لولا أنهم اتفقوا على أن الآية إنما أُنزلت في الصلاة أو في الصلاة والخطبة لوجب بظاهر الكتاب على كل من سمع قارئاً يقرأ أن يستمع لقراءته لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ ﴾، فلما أجمعوا على إسقاط وجوب الاستماع عن كل سامع قارئاً يقرأ، إلا عن السامع لقراءة الإمام وهو خلفه، والسامع لخطبة الإمام، خرج ذلك عن عموم الكتاب وظاهره بالاتفاق، ووجب استعمال الآية على المأموم السامع لقراءة الإمام».

وهذا الذي قرره ابن المنذر رحمه الله نازعه فيه غيره، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، قال علم الدين أبو الحسن السخاوي رحمه الله (ت: ٦٤٣هـ)[3]: «ومن إجلال القرآن حسن

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٥٣٦).

(٢) الأوسط (٣/١٠٥).

(٣) فتح الوصيد في شرح القصيد (١/١٠٤ - ١٠٥).

الاستماع له والإنصات لتلاوته، وقد أمر الله تعالى عباده بذلك، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ، مناقضة لقول الذين كفروا: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

قيل: نزلت في ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام، وقيل: في ترك الكلام في خطبة يوم الجمعة[١]، وقيل سببها أن الكفار كانوا إذا سمعوا رسول الله ﷺ يقرأ رفعوا أصواتهم وأكثروا اللغو لئلا يسمع أتباعهم وأبناؤهم إلى كلام الله عز وجل فيسلموا، فنزلت أدباً للمسلمين ليخالفوا عادة أولئك. **وعلى الجملة، فاللفظ عام**، فينبغي أن يكون المستمع متدبراً لما يسمع متعظاً به، وقد تحدث بعض من خلا والقارئ يقرأ، فقيل لهما: ألم يقل الله عز وجل ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له﴾ فقالا: إنما ذلك في الصلاة، فنظرا إلى السبب ولم ينظرا إلى عموم الأمر بالإنصات، فإنه مقيد بالسبب ولم يقصر عليه.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، مطابق لما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «ما تجالس قوم في بيت من بيوت الله عز وجل يتلون كتاب

---

(١) هذا القول ضعيف، قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله: «قال عطاء ومجاهد: هو في الخطبة، ولم يرضوا من مجاهد هذا القول، لأن الآية مكية، والجمعة إنما وجبت بالمدينة، ولأن الاستماع في جميع الخطبة واجب، ولا يختص بالقراءة في الخطبة» تفسير القرآن (٢/ ٢٤٤).

الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده»، وهذا يعم القاريء والمستمع، فندب المستمع إلى الإنصات ليرحم مع التالين».

فالاستماع للقرآن رحمة وطاعة وزكاء، ومما ورد في فضل ذلك أيضاً ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من استمع إلى آية من كتاب الله، كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة**»[1].

وأما من حضر مجلس قراءة القرآن فهذا مما لا ينبغي أن يقع فيه الخلاف في وجوب الاستماع، قال الحسن البصري رحمه الله[2]: «إذا جلس إلى القرآن فأنصت له».

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله (ت: ١٣٧٦هـ) معلقاً على قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[3]: «هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يُتلى، فإنه مأمور بالاستماع له، والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه، وأما الاستماع له، فهو أن يُلقي سمعه ويحضر

---

(١) رواه أحمد (٢/٣٤١).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/٥٣٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٣٤٥.

قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيراً كثيراً وعلماً غزيراً وإيماناً مستمراً متجدداً وهدى متزايداً وبصيرة في دينه ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من يتلى عليه الكتاب فلم يستمع له وينصت أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير».

* * *

أخذ الأجرة على تعليم القرآن

السلف كانوا يتبرعون بتعليم القرآن، قال يحيى بن سعيد ابن أبي الحسن البصري رحمه الله: لما حذقت قلت: يا عماه إن المعلم يريد شيئاً، قال: ما كانوا يأخذون شيئاً ثم قال: أعطه خمسة دراهم، قال: فلم أزل به حتى قال: أعطه عشرة دراهم[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله[2]: «هذا يُشعر بأنهم كانوا قبل ذلك يتبرعون بها، فلما فشا الشح طلبوا الأجرة، فعُدّ ذلك من غير مكارم الأخلاق، فتُحمل كراهة من كرهها على التنزيه».

وعن عبدالحميد بن أبي جعفر الفراء عن أبيه عن أبي عبدالرحمن السلمي أنه جاء وفي الدار جلال وجزر، فقالوا: بعث بها عمرو بن حريث لأنك علّمت ابنه القرآن، فقال: رد، إنا لا نأخذ على كتاب الله أجراً[3].

وهذا من أقوى ما يكون من الآثار، فأبو عبدالرحمن السلمي

---

(١) علقه البخاري في كتاب الإجارة باب ما يُعطى في الرقية ص ٣٦٣، ورواه ابن سعد في الطبقات، قال: أخبرنا عفان، ثنا حماد بن سلمة، ثنا يحيى بن سعيد بن أبي الحسن البصري به. انظر تغليق التعليق (٣/ ٢٨٤).

(٢) فتح الباري (٤/ ٤٥٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٦٩).

رحمه الله أخذ عن عثمان بن عفان رضي الله عنه وأكابر الصحابة، فهذا التبرع في تعليم القرآن هو عمل الأكابر.

قال أبو العباس أحمد ابن البندنيجي: سألت شيخنا أبا جعفر أحمد بن أحمد ابن القاص: هل قرأت على أبي العز القلانسي؟ فقال: لما قدم بغداد، أردت أن أقرأ عليه، فطلب مني ذهباً، فقلتُ له: والله إني قادر على ما طلبت مني، ولكن لا أعطيك على القرآن أجراً، ولم أقرأ عليه[1].

وشيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله يفرق بين أخذ الأجرة على تلاوة القرآن فيُحرمها لأن التلاوة عبادة، ويجوّز أخذ الأجرة على تعليم القرآن لما فيه من بذل الوقت والجهد.

قال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله[2]: «إذا أصدقها تعليم قرآن فإنه يصح، لأن التعليم ليس هو القرآن، **نعم لو أراد أن يقرأ شخص بأجر فإنه لا يجوز، لأن قراءة القرآن من الأعمال الصالحة، والأعمال الصالحة لا يمكن أن يأخذ الإنسان عليها أجراً من الدنيا، لكن هذا رجل يريد أن يعلم، والتعليم عمل وتفرغ للمعلم**، ففي الحقيقة إنني ما جعلت القرآن عوضاً حتى يقال: إنه لا يصح أن يكون عوضاً، أنا جعلت التعليم الذي فيه معاناة وتلقين ووقت مهراً».

---

(١) معرفة القراء الكبار (١/٤٧٥).
(٢) الشرح الممتع (١٢/٢٥٩).

وقد أبعد النجعة الطحاوي رحمه الله حين قرر منع أخذ الأجرة على تعليم القرآن بدعوى الجهالة والغرر، حيث قال[1]: «لو أن رجلاً استأجر رجلاً على أن يعلّمه سورة من القرآن سمّاها بدرهم، أن ذلك لا يجوز، وكذلك لو استأجره أن يعلّمه شعراً بعينه لم يجز، لأن الإجارات لا تجوز إلا على أحد معنيين، إما على عمل بعينه - كغسل ثوب مثلاً - أو على وقت معلوم، وإذا استأجره على تعليم سورة فتلك إجارة لا على وقت معلوم، ولا على عمل معلوم، وإنما استأجره على أن يعلمه، وقد يتعلم بقليل التعليم وكثيره في قليل الأوقات وكثيرها، وكذلك لو باعه داره على أن يعلّمه سورة من القرآن لم يجز»، وقد أنكر العلماء على الطحاوي تقريره هذا، قال ابن الملقن رحمه الله[2]: «ولا يُسلم ما ذكره».

وقال العلامة ابن ناصر الدين الدمشقي رحمه الله (ت: ٨٤٢هـ)[3]: «ومن الإشارات في هذه الآيات أيضاً: **استحباب التعليم مجاناً بغير أجرة**، ويؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقد علّم رسول الله ﷺ ذلك لأمته: جليله ودقيقه، وصريحه ومفهومه، وجمله وتفاصيله، لامتثال قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، والذي أنزله

---

(١) شرح معاني الآثار (٣/١٩ - ٢٠).

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢٤/٤٧٥).

(٣) مجالس في تفسير قوله تعالى: ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾ ص ٤٣١ - ٤٣٣.

إليه: القرآن، وكذلك السنة، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣ - ٤]، ومع ذلك فقد عُلم علماً يقينياً قطعياً أن النبي ﷺ علَّم ذلك كله من غير أخذ أجرة على ذلك، ولا على شيء منه.

وقال عليه أفضل الصلاة والسلام: «**عليكم بسنتي**»، وكان من سننه التعليم بغير أجرة، كما ذكرناه، فيستحب التعليم كذلك.

والتعليم عام في القرآن والسنة، لكن الإجارة على تعليم القرآن صحيحة، وأخذ الأجرة عليه جائزة، لما صح عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «**أحق ما أخذتم عليه أجراً كتابُ الله**»، فتصح الإجارة على تعليم القرآن وإن كان عبادةً تجب لها نية كالحجِّ ومسائل معروفة، فإن كل أحد لا يختص بوجوب تعليم القرآن، وإن كان نشر القرآن وإشاعته من فروض الكفايات.

ومن الأئمة من منع من أخذ الأجرة على القرآن مطلقاً، ومنهم من جوّز الأخذ بغير اشتراط: إن أُعطي قَبِل وإن لم يُعطَ لا يُطالب، ومنهم من فرَّق بين المحتاج وغيره. وأما الإجارة وأخذ الأجرة على التحديث وتدريس العلم: لا يجوز، لأن نشرَ العلم وتعليمه فرضُ كفاية كالجهاد، وفيه تفصيل أشار إليه الإمام أبو عبدالله الحسين ابن الحسن بن محمد بن حليم الحَليمي البخاري القاضي فقال: ولا يجوز لمن كانت عنده أخبار عن رسول الله ﷺ فسُئل عنها أن يمتنع من روايتها ليُعطى عليها مالاً، لأنه يؤدي عن رسول الله ﷺ ما أداه

الرسول ﷺ إلى أمته، ومعلوم أن الله تعالى لم يكن أطلق له أخذ أجر من أمته على ما يبلِّغهم إياه عن ربهم عز وجل، فلذلك لا ينْطَلِقُ لأحد من المؤدِّين عنه. وقال أيضاً: وإذا حضر العالِمُ ليُسمَع منه الحديث فأَذِن في القراءة عليه فقالوا «نريد لفظك»: كان له أن لا يتكلَّف القراءة بنفسه إلا بعوض، وإنما يحرم العوض إذا لم يُخرِج ما عنده فيقرؤوا عليه إلا بعوض، فأما إذا أخرجه وأمر بالقراءة عليه، فكُلِّف أن يقرأ: فهذا شُغْل زائد على التبليغ والأداء، فله أن لا يفعله بغير عوض، فإن لم يوجد أحدٌ يقرأ عليه ووجب عليه أن يروي بلفظه فلا عوض له، وإن أُعطي لم يجز له أخذه.

وذكر الحَليمي أيضاً أن الطلبة إذا أرادوا من الشيخ ما يَطُول به المجلس وينقطع به عن السعي على نفسه وعياله: جاز أن يأخذ على إدمانه الجلوس وتفريغه نفسه لهم ما يعطونه ما لم يكن سرفاً، والسرف أن يطالبهم بأكثرَ مما كان يعود عليه من سعيه لو لم يجلس لهم، والله أعلم انتهى قول الحَليمي رحمه الله».

ومع هذا التجاذب لعل أفضل ما يُوجّه به أهل الخير الولاة هو أن يجعلوا للقراء الذين يجلسون لتعليم وإقراء القرآن رزقاً من بيت المال عوضاً عن أن يأخذوا أجرة ممن يتعلم منهم، فهذا وسط بين من يُحرمه ومن يبيح الأجرة، فرزق بيت المال أبعد عن موجب التنازع، وهو أيضاً لا يوجب لأهل الخير الورع عن الإجارة على التعليم.

فرزق بيت المال حكمه يختلف، ووجوه ترجيح هذا الاختيار كثيرة، منها:

١) أن عمر رضي الله عنه أجرى للمؤذنين والقضاة والولاة أرزاقاً من بيت المال.

٢) أن المعلّم يقوم بخدمة يجب له الأجر عليها، وهذا ما علل به ابن حبيب من المالكية.

٣) أن المعلّم يأخذ الأجر على ما لا يلزمه من ملازمة الطلاب وتخصيصه بتعليمهم.

٤) الإجماع على جواز التبرع للمعلّم والإحسان إليه بدفع المال، قال العلامة أبو سعيد فرج بن قاسم الغرناطي المالكي رحمه الله (ت:٧٨٢هـ): «الرزق مجمع على جوازه، لأنه عقد إحسان ومعروف وإعانة لا إجارة، وإنما وقع الخلاف في الإجارة لأنه عقد مكايسة ومغابنة، فهو من باب المعاوضات التي لا يجوز أن يحصل العوضان فيها لشخص واحد، لأن المعاوضة إنما شرعت لينتفع كل واحد من المتعاوضين بما بُذل له، وأجر الصلاة له، فلو أخذ العوض عنها لاجتمع العوضان، والأرزاق ليست بمعاوضة البتة لجوازها في أضيق المواضع المانعة من المعاوضة»[1].

٥) إنه اجتمع مبيح ومانع يشتبه أمره، فيتوسط حكمه، وذلك أن

---

(١) ينبوع العين الشرّة في مسألة الإمامة بالأجرة ص ٩٨ – ٩٩.

رزق بيت المال يحصل به فضل تعليم القرآن، ويرفع بسبب ذلك منار الدين.

٦) أن هذا داخل في التعاون على البر والتقوى.

٧) دلالة حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «**أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله**» رواه البخاري، ووجهه: أن تشيع الأعمال الصالحة في المسلمين إذا كان لأسباب المعاش مدخل في أمور الدين، وامتهان النفوس في الطاعات خير من امتهانها في المباحات.

٨) هؤلاء يرزقون من بيت المال لارتباطهم لغيرهم، وحسن الارتباط، لأنه من مصالح دينهم، فقد وظف الشرع غسل الميت وحمله ودفنه مع أنه فرض كفاية على من يليه من الأحياء، يباشرون ذلك بأنفسهم ويرزقون من بيت المال، فهذا شبيه به، والله أعلم[1].

* * *

---

(١) ذكر هذه الوجوه كلها أبو سعيد الغرناطي في «ينبوع العين».

الباب الثاني:

علـوم القـرآن



علوم القرآن آكد العلوم

لا ريب أن علم القرآن من آكد وأشرف العلوم، يدل لذلك حديث حذيفة رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة[1] .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله[2] : «فيه إشارة إلى أنهم كانوا يتعلمون القرآن قبل أن يتعلموا السنن، والمراد بالسنن ما يتلقونه عن النبي ﷺ واجباً كان أو مندوباً».

ويدل لذلك أيضاً حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يُعَلِّمنا التشهد كما يُعلِّمنا السورة من القرآن[3] .

فانظر إلى تشبيه الصلاة ما يتعاهدهم بتعليمه بتعليم القرآن، فمفروغ عند الصحابة رضي الله عنهم ومعلوم من سيرة الرسول ﷺ تعاهده أصحابه بتعليم القرآن. ومن آكد ما يُرجح به العالم على غيره إذا حسن اعتقادهما هو حفظ القرآن ومعرفة معانيه، ولما اجتمع

---

(١) رواه البخاري كتاب الفتن باب إذا بقي في حثالة من الناس(ص ١٢٢١ – رقم ٧٠٨٦).

(٢) فتح الباري (١٣/٣٩).

(٣) رواه مسلم كتاب الصلاة باب التشهد في الصلاة (ص ١٧١ – رقم ٩٠٣).

الشافعي بمحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة جرت بينهما مفاضلة بين شيخيهما فيها معيار يُعمل فيمن بعدهما. قال الشافعي لمحمد ابن الحسن: «نشتدك بالله، أكان صاحبنا عالماً بكتاب الله عزَّ وجل؟ قال: نعم»[1].

قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله[2] : «طلب العلم درجات ومناقل ورتب لا ينبغي تعديها، ومن تعداها جملة فقد تعدى سبيل السلف رحمهم الله، ومن تعدى سبيلهم عامداً ضل، ومن تعداه مجتهداً زل.

فأول العلم حفظ كتاب الله جل وعز وتفهمه، وكل ما يعين على فهمه فواجب طلبه معه، ولا أقول: إن حفظه كله فرض، ولكن أقول: إن ذلك واجب لازم على من أحب أن يكون عالماً ليس من باب الفرض».

وقال الخطيب البغدادي رحمه الله[3] : «ينبغي للطالب أن يبدأ بحفظ كتاب الله عز وجل، إذ كان أجل العلوم وأولاها بالسبق والتقديم».

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (١/١٨٢).

(٢) جامع بيان العلم وفضله ص ٥٢٦.

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/١٠٦).

القرآن تبيان لكل شيء

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله (ت: ٦٦١هـ)[(١)]: «يعني: لكل شيء من أمر الدين، إما نصاً، وإما دلالة وإحالة على السُّنَّة، فإن الكتاب العزيز اشتمل على الأمر بالانتهاء إليهما والاعتماد عليهما، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]».

وقال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله[(٢)]: «في القرآن كل شيء، **والناس إنما يأخذون بقدر استعداد أذهانهم، كل يغرف بحسب فهمه**».

وقال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله[(٣)]: «وقال السيوطي في «الإكليل في استنباط التنزيل» قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، وقال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾

---

(١) رموز الكنوز (٤/ ٧٩).

(٢) العذب النمير (١/ ١٩٣)، ط - دار ابن القيم.

(٣) أضواء البيان (٢/ ١٨١ - ١٨٢).

[الأنعام: ٣٨]، وقال ﷺ: **«ستكون فتن»**. قيل: وما المخرج منها؟ قال: **«كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم»**. أخرجه الترمذي وغيره.

وقال سعيد بن منصور في سننه: حدثنا خديج بن معاوية عن أبي إسحاق عن مرة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإن فيه خبر الأولين والآخرين.

قال البيهقي رحمه الله: أراد به أصول العلم. وقال الحسن البصري رحمه الله: أنزل الله مائة وأربعة كتب، أودع علومها أربعة: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان. ثم أودع الثلاثة الفرقان، ثم أودع علوم القرآن: المفصّل، ثم أودع علوم المفصّل: فاتحة الكتاب، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير الكتب المنزلة.

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: جميع ما تقوله الأمة شرح للسُّنَّة، وجميع شرح السُّنَّة شرح للقرآن.

وقال بعض السلف: ما سمعت حديثاً إلا التمست له آية من كتاب الله.

وقال سعيد بن جبير رحمه الله: ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه في كتاب الله. أخرجه ابن أبي حاتم.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه أيضاً: أنزل في القرآن كل علم،

وبيّن لنا فيه كل شيء، ولكن علمنا يقصر عما بُيِّن لنا في القرآن. أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لو أغفل شيئاً لأغفل الذرة والخردلة والبعوضة**».

وقال الشافعي أيضاً: جميع ما حكم به النبي ﷺ فهو مما فهمه من القرآن.

قلت: ويؤيد هذا قوله ﷺ: «**إني لا أحل إلا ما أحل الله في كتابه، ولا أحرم إلا ما حرَّم الله في كتابه**». رواه بهذا اللفظ الطبراني في الأوسط من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقال الشافعي رحمه الله أيضاً: ليست تنزل بأحد في الدين نازلة إلا في كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها. فإن قيل: من الأحكام ما ثبت ابتداء بالسُّنَّة؟ قلنا: ذلك مأخوذ من كتاب الله في الحقيقة، لأن كتاب الله أوجب علينا اتباع الرسول ﷺ، وفرض علينا الأخذ بقوله: وقال الشافعي مرة بمكة: سلوني عما شئتم، أخبركم عنه من كتاب الله، فقيل له: ما تقول في المحرم يقتل الزنبور؟ فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وحدثنا سفيان بن عيينة عن عبدالملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن حذيفة بن اليمان رضي

الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر رضي الله عنهما**».

وحدثنا سفيان عن مسعر بن كدام عن قيس بن مسلم عن طارق ابن شهاب عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه أمر بقتل المحرم الزنبور.

وروى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات لخلق الله، فقالت له امرأة في ذلك، فقال: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ، وهو في كتاب الله، فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول؟ قال: لئن قرأتيه لقد وجدتيه! أما قرأت ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]؟ قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه.

وقال ابن برجان: ما قال النبي ﷺ من شيء فهو في القرآن، أو فيه أصله قرب أو بعد، فهمه من فهم، أو عمه عنه مَن عمه، وكذا كل ما حكم أو قضى به».

وبيان القرآن والسُّنَّة لا يختص بعلوم العقيدة والأحكام الشرعية، بل هو عام لكل شيء، فما من علم إلا والقرآن والسُّنَّة دالان على أصله، فمثلاً: لما أصيب سعد رضي الله عنه يوم الخندق ضرب رسول الله ﷺ في المسجد خيمة يعوده من قريب. رواه مسلم،

ومن هنا اتخذ المسلمون داراً للمرضى - المارستان - وهو المعروف اليوم بالمستشفى، وأول من بنى المارستان من ملوك الإسلام الوليد ابن عبدالملك سنة ٨٨هـ[1] .

وأرشد النبي ﷺ إلى تأسيس نظم الدفاع والجهاد في غزواته من الجهة العملية، وأرشد إلى أنواع القوة العسكرية، من ذلك استعمال القوة البحرية، فقد روى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «**إن ناساً من أمتي يركبون البحر غزاة في سبيل الله ملوكاً على الأسرة**»[2].

وأول من ركب البحر للغزو العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه، وكان على البحرين من قبل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم ركب الصحابة البحر في زمن معاوية رضي الله عنه وفتحوا قبرص، وركب طارق بن زياد البحر وفتح الأندلس.

وكذلك في القرآن والسُّنَّة نظم العلاقات الخارجية وبروتوكولاتها، فهذا النبي ﷺ قال له أصحابه: إن الملوك لا يقبلون إلا كتاباً مختوماً، فاتخذ خاتماً عليه ختمه.

---

(١) انظر التراتيب الإدارية (١/٤٥٤).

(٢) رواه البخاري كتاب الجهاد والسير باب غزو المرأة في البحر (ص ٤٧٥ - رقم ٢٨٧٧).

وكذلك قبل النبي ﷺ العرف الدولي في العلاقات الدبلوماسية التي لا تخالف الشرع، فقال لأحد الرسل إليه: «**لولا أن الرسل لا تُقتل لقتلتك**»[1].

وهكذا سائر أمور الحضارة ونظام الدولة، ناهيك أن النبي ﷺ أمرنا أن نستفيد من أهل الاختصاص في الشؤون الدنيوية حيث قال عليه الصلاة والسلام: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»[2].

وليس هذا موضع بسط ذلك، فمن أراد الوقوف على شمول الشريعة لكل نواحي الحياة وترتيب الدولة فليرجع إلى كتاب «التراتيب الإدارية» للعلامة عبدالحي الكتاني رحمه الله.

وللعلماء استنباطات معلومة في تقرير أصول الفنون والعلوم الجديدة، كاستنباط بعضهم من قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣٠ - ٣١] لقاعدة هندسية، وهو أن الشكل المثلث لا ظل له[3] .

* * *

---

(١) رواه أحمد (٣/٤٨٨)، وأبو داود كتاب الجهاد باب في الرسل (ص ٤٢٠ – رقم ٢٧٦١)، وصححه الألباني رحمه الله.

(٢) رواه مسلم كتاب الفضائل باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي (ص ١٠٣٩ – رقم ٦١٢٨).

(٣) أضواء البيان (٢/١٨٣).

علوم القرآن

وقد تحدث العلماء بالتفصيل عن أنواع العلوم التي تضمنها القرآن، فقال العلامة أبو عبدالله الحسين الحليمي رحمه الله[1] :

«وعلوم الكتاب كثيرة:

١ - منها: علم ألفاظه وما أريد به، وهذا هو الذي يقال له التفسير، ويدخل في هذا القسم ما اختُلف فيه من القراءات ووجوهها.

٢ - ومنها: علم المكي والمدني منها، وأسباب التنزيل ومن نزل فيه، ومن نزل لأجله.

٣ - ومنها: علم المحاجّات فيه، فقد أودعه الله تعالى من البراهين والحجج ما إذا عُرفت حقَّ المعرفة لم يُحتج معها ولا وراءها إلى غيرها.

٤ - ومنها: علم الأمثال المضروبة فيه، والوقوف على ما هي أمثالٌ له ودلائل عليه.

٦ - ومنها: علم الوعد والوعيد، والمدح والذم.

٧ - ومنها: علم القصص وأنباء الأولين المذكورة للاعتبار بها وتسلية النبي ﷺ وتصبيره.

---

(١) المنهاج في شعب الإيمان (٢/١٨٧).

٨ - ومنها: علم ما جاء من الحث على الاعتصام بالله تعالى، والالتجاء في النوائب إليه، والدلالة على وجوه الاحتراس من شياطين الإنس والجن.

٩ - ومنها: علم الإخبار بالعواقب، تبشيراً للنبي ﷺ وتثبيتاً للمؤمنين.

١٠- ومنها: علم إعجازه ومباينته في نظمه نظم الشعراء أو خطب الخطباء وبلاغة الكُتّاب البلغاء.

وما شيء من هذه العلوم إلا ويوجد منه في السُّنَّة مثل ما يوجد في الكتاب، إلا الإعجازَ فإنه يَخُصُّ القرآن، وفيها - أي السُّنَّة - زيادات كثيرة، لأن الله تعالى جعل نبيه ﷺ مبيّناً للكتاب ومعرِّفاً للناس منه ما لا يدركونه إلا بتبيانه، وأُوحي إليه كثيراً مما لا ذِكْر له في الكتاب فبلّغه عنه».

وقال العلامة ابن ناصر الدين الدمشقي رحمه الله (ت: ٨٤٢)[١]: «الكلام في معاني القرآن هو أحد علومه المستنبطة من منطوقه ومفهومه، وأنواع علوم القرآن كثيرة، ترجع إلى أقسام ثلاثة خطيرة:

أحدها: معرفة تلاوته وإتقانها مع تصحيح إعرابه وحسن أدائه.

والثاني: علم وجوه قراءاته وما صحَّ منها، كالسبعة المشهورة وغيرها، وما لا تصحُّ، كالشاذ وغيره.

---

(١) مجالس في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ص ٢٩١.

والقسم الثالث: معرفة تفسيره واستنباط أحكامه ومعانيه، وبيان غريبه وحكمه وضروب نظمه وما فيه، وهذا القسم أجلُّ الأقسام، إذ به تتضح شرائع الدين، من توحيد الله رب العالمين، ومعرفة الرسل الكرام، وبيان ما فيه من الأحكام والفرْق بين الحلال والحرام، والترغيب في الخيرات، والترهيب من المخالفات، إلى غير ذلك مما لا يُستغنى عن علمه، ولا يَسَعُ مسلماً جهله مع وجود عقله وفهمه».

كما تكلم الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي رحمه الله (ت: ٨٤٢هـ) عن علم البيان والبلاغة في القرآن على وجه الخصوص فقال[1]: «علم المعاني والبيان، وهو أحد وجوه العربية، وهو فن جليل بمعرفته يُعقل عن الله عز وجل كتابه وعن نبيه ﷺ أحاديثه، وبمعرفته يتَّسع المرء في منطقه، فإن تكلم أفصح، وإن احتجَّ أوضح، وإن كتب أبلغ، وإن خطب أعجب، والمعاني والبيان أحد أقسام البلاغة التي هي إيصال المعنى المقصود إلى القلب بأحسن ما يكون من اللفظ وأجوده، فلو كان الكلام يُفهم المعنى بلفظ غير محكم لم يكن بليغاً، وكذلك لو كان اللفظ محكماً جيداً والمعنى غير طائل، لا يُعدُّ في البلاغة.

(١) مجالس في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ص ٤٥٢ – ٤٥٣.

والبلاغة على ثلاث مراتب: عليا ووسطى ودنيا، والكلام إذا اجتمع فيه الفصاحة والجزالة والنظم كان كامل البلاغة، وأعلاها بلاغة القرآن لاجتماع هذه الثلاثة فيه.

فالفصاحة: دلالة اللفظ على المعنى مع الإفصاح والإيضاح.

والجزالة: دلالة اللفظ على المعنى مع قلة حروف الكلم وتناسب مخارجها والاختصار.

والنظم: ترتيب الألفاظ وارتباط بعضها ببعض مع تناسب الكلمات وتوازن الحركات والسكتات، والدلالة على المعنى المراد، وهذا كله في القرآن مع أسلوبه العجيب الذي لم يعهد نظيره ونظمه الغريب الذي لم يسمع لكلام غيره تحريره ولا تحبيره، ولهذا عجز البلغاء كافة والفصحاء عامة عن الإتيان بسورة من مثله، وانقطعوا عن المعارضة بحديث من شكله، مع تحدّيهم وتوفُّر دواعيهم إلى المعارضة، ولم يقع ذلك منهم، ولا جاء شيء مثله عنهم».

وقال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله (ت: ١٣٩٣هـ) ناقلاً عن المرسي مبيناً أنواع استفادة الناس من علوم القرآن[١] : «ورث عن رسول الله ﷺ علم القرآن سادات الصحابة وأعلامهم مثل الخلفاء الأربعة، ومثل ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم،

---

(١) أضواء البيان (٢/١٨٢ - ١٨٤).

حتى قال: لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله، ثم ورث عنهم التابعون لهم بإحسان، ثم تقاصرت الهمم، وفترت العزائم، وتضاءل أهل العلم، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه، فنوعوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه.

فاعتنى قوم بضبط لغاته، وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه وعددها، وعدد كلماته وآياته، وسوره وأجزائه، وأنصافه وأرباعه، وعدد سجداته، إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة، والآيات المتماثلة من غير تعرض لمعانيه، ولا تدبر لما أُودع فيه، فسموا القراء.

واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبني من الأسماء والأفعال، والحروف العاملة وغيرها. وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها، وضروب الأفعال، واللازم والمتعدي، ورسوم خط الكلمات، وجميع ما يتعلق به، حتى إن بعضهم أعرب مشكله، وبعضهم أعربه كلمة كلمة.

واعتنى المفسرون بألفاظه، فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد، ولفظاً يدل على معنيين، ولفظاً يدل على أكثر، فأجروا الأول على حكمه، وأوضحوا الخفي منه، وخاضوا إلى ترجيح أحد محتملات ذي المعنيين أو المعاني، وأعمل كل منهم فكره، وقال بما اقتضاه نظره.

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية، والشواهد الأصلية والنظرية، مثل قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منها أدلة على وحدانية الله ووجوده، وبقائه وقدمه، وقدرته وعلمه، وتنزيهه عما لا يليق به، وسموا هذا العلم بـ «أصول الدين» وتأملت طائفة معاني خطابه، فرأت منها ما يقتضي العموم، ومنها ما يقتضي الخصوص، إلى غير ذلك، فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز[1]، وتكلموا في التخصيص والإضمار، والنص والظاهر، والمجمل والمحكم والمتشابه، والأمر والنهي والنسخ، إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة، واستصحاب الحال والاستقراء، وسموا هذا الفن «أصول الفقه».

وأحكمت طائفة صحيح النظر، وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام، وسائر الأحكام، فأسسوا أصوله وفروعه، وبسطوا القول في ذلك بسطاً حسناً، وسموه «علم الفروع» وبـ «الفقه أيضاً».

وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السابقة، والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم، ودوّنوا آثارهم ووقائعهم، حتى ذكروا بدء الدنيا، وأول الأشياء: وسموا ذلك بـ «التاريخ والقصص».

وتنبّه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال، والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال، وتكاد تدكدك الجبال، فاستنبطوا بما فيه من الوعد والوعيد، والتحذير والتبشير، وذكر الموت والمعاد، والنشر

---

(١) سيأتي الكلام على المجاز بإذن الله في ص ٧١٥.

والحشر، والحساب والعقاب، والجنة والنار - فصولاً من المواعظ، وأصولاً من الزواجر، فسموا بذلك «الخطباء والوعّاظ».

واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير، مثل ما ورد في قصة يوسف: من البقرات السمان، وفي منامي صاحب السجن، وفي رؤية الشمس والقمر والنجوم ساجدات، وسموه «تعبير الرؤيا»، واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب، فإن عز عليهم إخراجها منه، فمن السُّنَّة التي هي شارحة الكتاب، فإن عسر فمن الحكم والأمثال.

ثم نظروا إلى اصطلاح العوام في مخاطباتهم، وعرف عاداتهم الذي أشار إليه القرآن بقوله: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وأخذ قوم مما في آيات المواريث من ذكر السهام وأربابها، وغير ذلك «علم الفرائض»، واستنبطوا منها من ذكر النصف والثلث، والربع، والسدس، والثمن، «حساب الفرائض»، ومسائل العول. واستخرجوا منه أحكام الوصايا.

ونظر قوم إلى ما فيه الآيات الدالات على الحكم الباهرة في الليل والنهار، والشمس والقمر ومنازله، والنجوم والبروج، وغير ذلك - فاستخرجوا «علم المواقيت».

ونظر الكُتّاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ وبديع النظم، وحسن السياق والمبادئ، والمقاطيع والمخالص والتلوين في الخطاب، والإطناب والإيجاز، وغير ذلك، فاستنبطوا منه «علم المعاني والبيان والبديع».

ونظر فيه أرباب الإشارات وأصحاب الحقيقة، فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق، جعلوا لها أعلاماً اصطلحوا عليها، مثل الفناء والبقاء، والحضور والخوف والهيبة، والأنس والوحشة، والقبض والبسط، وما أشبه ذلك هذه الفنون التي أخذتها الإسلامية منه.

وقد احتوى على علوم أخر من علوم الأوائل، مثل: الطب والجدل والهيئة، والهندسة والجبر، والمقابلة والنجامة، وغير ذلك.

أما الطب – فمداره على حفظ نظام الصحة، واستحكام القوة. وذلك إنما يكون باعتدال المزاج تبعاً للكيفيات المتضادة، وقد جمع ذلك في آية واحدة، وهي قوله: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]. وعرفنا فيه بما يعيد نظام الصحة بعد اختلاله، وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله: ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]. ثم زاد على طب الأجساد بطب القلوب، وشفاء الصدور.

وأما الهيئة – ففي تضاعيف سوره من الآيات التي ذكر فيها من ملكوت السموات والأرض، وما بث في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات.

وأما الهندسة – ففي قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣٠ - ٣١]، فإن فيه قاعدة هندسية، وهو أن الشكل المثلث لا ظل له.

وأما الجدل - فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج، والقول بالموجب والمعارضة، وغير ذلك شيئاً كثيراً، ومناظرة إبراهيم أصل في ذلك عظيم.

وأما الجبر والمقابلة فقد قيل: إن أوائل السور ذكر عدد وأعوام وأيام لتواريخ أمم سالفة، وإن فيها تاريخ بقاء هذه الأمة، وتاريخ مدة الدنيا، وما مضى وما بقي، مضروباً بعضها في بعض.

وأما النجامة - ففي قوله: ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف: ٤]، فقد فسره ابن عباس رضي الله عنهما بذلك.

وفيه من أصول الصنائع، وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها - فمن الصنائع الخياطة في قوله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ [الأعراف: ٢٢] الآية. والحدادة في قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦]، وقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠] الآية. والبناء في آيات، والنجارة ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، والغزل: ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ [النحل: ٩٢]، والنسج ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١]، والفلاحة ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣] في آيات أخر، والصيد في آيات، والغوص ﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص: ٣٧]، ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾ [فاطر: ١٢]، والصياغة ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨] الآية، والزجاجة ﴿صَرْحٌ

﴿مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ [النمل: ٤٤]، ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ [النور: ٣٥]، والفخارة ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القصص: ٣٨]، والملاحة: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩]، والكتابة ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤] في آيات أخر، والخبز والطحن ﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ﴾ [يوسف: ٣٦]، والطبخ ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، والغسل والقصارة ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]، ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وهم القصارون، والجزارة ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣]، والبيع والشراء في آيات كثيرة، والصبغ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨] الآية، ﴿جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ [فاطر: ٢٧] الآية، والحجارة ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ [الشعراء: ١٤٩]، والكيالة والوزن في آيات كثيرة، والرمي ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧]، ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وفيه من أسماء الآلات، وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات، وجميع ما وقع ويقع في الكائنات - ما يحقق معنى قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، انتهى كلام المرسي ملخصاً مع زيادات».

الباب الثالث:

نـزول القــرآن



نزول القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا

قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: أُنزل القرآن جملة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم أُنزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣] ، وقرأ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦][(١)] .

وقول ابن عباس رضي الله عنهما اعتضد بالقرآن في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[(٢)] : «وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر رمضان، وفي ليلة القدر منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، ثم نزل بعد مفرّقاً بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ».

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى كتاب التفسير (٣/١٨٠٤ – رقم ١١٣٠٨)، والحاكم في المستدرك (٢/٢٢٣)، وصححه أبو شامة المقدسي رحمه الله في المرشد الوجيز ص ٢٠، والحافظ ابن كثير رحمه الله في فضائل القرآن ص ٣٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٥٠٥).

وقول الصحابي إذا اعتضد بالقرآن صار حجة، ونزول القرآن جملة واحدة إلى بيت العزة، لا ينافي ما ينزل مفرقاً بياناً للوقائع حسب نزولها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «وهذا لا ينافي ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، أنه أنزل إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم أنزله بعد ذلك منجماً مفرقاً بحسب الحوادث، ولا ينافي أنه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل نزوله، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١ - ٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٩]، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١ - ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، فإن كونه مكتوباً في اللوح المحفوظ، وفي صحف مطهرة بأيدي الملائكة لا ينافي أن يكون جبريل نزل به من الله، سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل أو بعد ذلك، وإذا كان قد أنزله مكتوباً إلى بيت العزة جملة واحدة في ليلة القدر، فلقد كتبه كله قبل أن ينزله.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/١٢٦ - ١٢٧).

والله تعالى يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون، وهو سبحانه قد قدَّر مقادير الخلائق، وكتب أعمال العباد قبل أن يعملوها، كما ثبت ذلك في صريح الكتاب والسُّنَّة وآثار السلف، ثم إنه يأمر الملائكة بكتابتها بعدما يعملونها؛ فيقابل بين الكتابة المتقدمة على الوجود والكتابة المتأخرة عنه، فلا يكون بينهما تفاوت هكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف، وهو حق».

* * *

الحكمة في نزول القرآن جملة إلى السماء الدنيا

نـزل القـرآن جملـة واحـدة كمـا سـبق، ودلَّ عليـه قولـه تعـالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ولنزوله جملة واحدة حكم عظيمة، قال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي رحمه الله (ت: ٨٤٢هـ)[1]: «وفي إنزال القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا، ثم في إنزاله مفرقاً، تعظيم لأمر القرآن وأمر من أُنزل عليه ذلك بإعلام سُكَّان السموات السبع أن هذا آخر الكتب، المنزل على خاتم النبيين، لأشرف الأمم، قد قرَّبه الله إليهم لينزله عليهم، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم مفرَّقاً بحسب الوقائع لهُبط به إلى الأرض جملةً كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله تعالى باين بينه وبينها، فجمع لنبيّنا ﷺ الأمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مفرَّقاً.

وفيه أيضاً إشارة إلى زيادة شرف لنبيّنا ﷺ، لأن كلَّ رسول أنزل الله عليه كتابه جملةً واحدة، كما أنزل القرآن جملةً واحدةً إلى سماء الدنيا، فشارك نبيّنا ﷺ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وامتاز عليهم بإنزال القرآن أيضاً عليه مفرقاً».

---

(١) مجالس تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ ص ١٥٥.

وقال أيضاً[1] : «ومن فائدته: إعلام الملائكة بقرب ظهور الأمة المحمدية، وإرسال نبيهم خاتم الأنبياء الذي ينزل عليه هذا القرآن، كما أعلم الله الملائكة بخلق آدم عليه الصلاة والسلام قبل إيجاده، فقال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] ».

وقال العلامة أبو الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله (ت: ٦٤٣هـ)[2] : «في ذلك تكريم بني آدم وتعظيم شأنهم عند الملائكة، وتعريفهم عناية الله عز وجل بهم ورحمته لهم، ولهذا المعنى أمر سبعين ألفاً من الملائكة لما أنزل سورة الأنعام تزفها، وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبريل عليه السلام بإملائه» وقال أيضاً مبيناً حكمة نزول القرآن جملة واحدة للسماء الدنيا[3] : «وفيه أيضاً إعلام عباده من الملائكة وغيرهم أنه علّام الغيوب لا يعزبُ عنه شيء، إذ كان فيه ذا الكتاب العزيز ذكر الأشياء قبل وقوعها».

وقال أيضاً في حكمته[4] : «وفيه أيضاً أن جناب العزة عظيم، ففي إنزاله جملة واحدة، وإنزال الملائكة له مفرقاً بحسب الوقائع، ما يوقع في النفوس تعظيم شأن الربوبية».

---

(١) مجالس تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ص ١٥٥ - ١٥٦.

(٢) جمال القراء ص ٢٠.

(٣) جمال القراء ص ٢٠.

(٤) جمال القراء ص ٢١.

القرآن لم ينزل على النبي ﷺ من اللوح المحفوظ

القرآن لم يأخذه جبريل عليه السلام من بيت العزة في السماء الدنيا ثم نزل به على نبينا محمد ﷺ، فهذا اعتقاد باطل ويتوصل به لنفي صفة الكلام عن الله عزَّ وجل، فالله عزَّ وجل تكلَّم بالقرآن حقيقة وسمعه جبريل عليه السلام فنزل به على النبي ﷺ، فقرأه النبي ﷺ على الصحابة كما أُنزل.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «النبي ﷺ سمعه من جبريل، وهو الذي نزل عليه به، وجبريل سمعه من الله تعالى، كما نص على ذلك أحمد وغيره من الأئمة»، إلى أن قال: «ولم يقل أحد من السلف إن النبي ﷺ سمعه من الله، وإنما قال ذلك بعض المتأخرين»[1] .

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٩٨).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً رحمه الله[1] : «إن محمداً ﷺ لم يؤلف نظماً بل سمعه من روح القدس، وروح القدس الذي نزل به من الله، فعلم أنه سمعه منه، لم يؤلفه هو ونظيرها قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ ﴾ [الأنعام: ١١٤]، و«الكتاب» اسم القرآن بالضرورة والاتفاق، فإنهم أو بعضهم يفرقون بين كتاب الله وكلامه، ولفظ «الكتاب» يُراد به المكتوب فيه، فيكون هو الكلام، ويُراد به ما يكتب فيه، كقوله: ﴿ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴾ [الواقعة: ٧٨]، وقوله: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء: ١٣]، وقوله: ﴿يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ ﴾ [الأنعام: ١١٤]، أخبار مستشهد بهم، فمن لم يقر به منا فهم خير منه من هذا الوجه.

وهذا لا ينافي ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أنه أُنزل في ليلة القدر إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ولا ينافي أنه مكتوب في اللوح قبل نزوله، سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل، أو بعده.

فإذا أُنزل جملة إلى بيت العزة فقد كتبه كله قبل أن ينزله، والله يعلم ما كان وما يكون، وما لا يكون لو كان كيف يكون، وهو قد كتب المقادير وأعمال العباد قبل أن يعملوها، ثم أمر بكتابتها بعد أن يعملوها، فيقابل بين الكتابة المتقدمة والمتأخرة، فلا يكون

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٢٢٣ – ٢٢٥).

بينهما تفاوت، هكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره. فإذا كان ما يخلقه بائناً عنه قد كتبه قبل أن يخلقه فكيف لا يكتب كلامه الذي يرسل به ملائكته قبل أن يرسلهم؟

ومن قال : إن جبرائيل أخذه عن الكتاب لم يسمعه من الله فهو باطل من وجوه: منها: أنه سبحانه كتب التوراة لموسى بيده، فبنو إسرائيل أخذوا كلامه من الكتاب الذي كتبه، ومحمد عن جبريل عن الكتاب فهم أعلى بدرجة، ومن قال: إنه ألقى إلى جبريل معاني وعبر بالعربي فمعناه أنه ألهمه إلهاماً، وهذا يكون لآحاد المؤمنين، كقوله: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ [المائدة: ١١١]، ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾ [القصص: ٧]، فيكون هذا أعلى من أخذ محمد ﷺ.

وأيضاً: فإنه سبحانه قال: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٣]، إلى قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]، وهذا يدل على أمور: على أنه يكلم العبد تكليماً زائداً على الوحي الذي هو قسيم التكليم الخاص. فإن لفظ التكليم والوحي كل منهما ينقسم إلى عام وخاص، فالتكليم العام هو المقسوم في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١]، الآية.

فالتكليم المطلق قسيم الوحي الخاص، لا قسماً منه، وكذلك الوحي يكون عاماً فيدخل فيه التكليم الخاص، كقوله: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣]، ويكون قسيماً له كما في الشورى، وهذا يبطل قول من قال: إنه معنى واحد قائم بالذات. فإنه لا فرق بين العام وما لموسى.

وفرّق سبحانه في «الشورى» بين الإيحاء وبين التكليم من وراء حجاب، وبين إرسال رسول فيوحي بإذنه ما يشاء».

* * *

الحكمة في نزول القرآن مفرقاً

القرآن نزل مفرقاً ولم ينزل على النبي ﷺ جملة واحدة، ولذلك حكم كثيرة، منها[1]:

١ - تقوية وتثبيت قلب النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب.

والنبي ﷺ نزلت به مواقف مزلزلة كتكذيب قومه وأذيتهم له، وما جرى له من أهل الطائف، وما وقع له في الهجرة، وما كان من ابتلاء في غزوة بدر، وأُحد، والأحزاب، وغيرها من المقامات العظيمة، فينزل القرآن لتثبيت قلب النبي ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]، قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله[2]: «لنثبت به فؤادك، أي: لنقوي به فؤادك، وقيل: لتزداد بصيرة في فؤادك، كأنه كلما نزل جبريل

(١) انظر المرشد الوجيز ص ٢٨ - ٢٩.

(٢) تفسير القرآن (٤/١٨).

بالوحي ازداد هو بصيرة وقوة، وقد أنزل الله تعالى القرآن في ثلاث وعشرين سنة، فحين أكمل الله تعالى ما أراد إنزاله عليه من الوحي أدركته الوفاة».

٢ - نزوله مفرقاً وتكرار نزول جبريل عليه السلام على نبيّنا ﷺ فيه إظهار عناية الله برسوله، لذلك لما تأخر نزول الوحي على النبي ﷺ قالت أم جميل امرأة أبي لهب لرسول الله ﷺ: ما أرى شيطانك إلا قد ودَّعك، فنزلت: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ - ٣][(١)] .

وكذبت امرأة أبي لهب، فما ودَّعه ربه وما هجره، ولكن الأمر كما قال تعالى عن جبريل عليه السلام: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤].

٣ - سرور النبي ﷺ لكثرة نزول الملك عليه وتجديد العهد به، وبما معه من الرسالة الواردة من الجناب العزيز، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة نزول جبريل عليه السلام عليه.

٤ - تيسير حفظ القرآن، فنزوله مفرقاً أيسر للحفظ، وأقوى في ثبوته في الذهن.

---

(١) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب كيف نزول الوحي (ص ٨٩٣ - رقم ٤٩٨٣)، ومسلم كتاب فضائل القرآن باب كيف نزول الوحي (ص ٨٠١- رقم ٤٦٥٧).

٥ - تيسير فهمه على الصحابة، فإن نزوله مفرقاً أيسر في الفهم، وجعل العلماء من هذا منهجاً لكل مسلم في طلب العلم، قال الخطيب البغدادي رحمه الله[1] : «وينبغي له أن يتثبت في الأخذ ولا يكثر، بل يأخذ قليلاً قليلاً، حسب ما يحتمله حفظه، ويقرب من فهمه، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢] ».

٦ - تيسير قبول تكاليفه، فإن الأوامر والنواهي لو نزلت جملة واحدة لشق ذلك على البعض، لاسيما وأنهم كانوا في جاهلية، فنزول الشرائع شيئاً فشيئاً كان عوناً لهم على تلقيها بالقبول.

قال مكي بن أبي طالب رحمه الله (ت: ٤٣٧هـ)[2] : «ومما رفق الله به عباده، ويسّر عليهم، نزول الفرائض والأحكام، والأوامر والنواهي لشيء بعد شيء في أكثر من عشرين سنة، فكانوا لذلك أقبل، وهو عليهم أسهل، إذ لو نزل كله مرة واحدة لصعب عليهم واشتد، وللحقهم في ذلك عنت وصعوبة، فمنَّ الله عليهم بنزوله شيء بعد شيء من الفرائض، فإذا أنسوا بالفرض، وعملوا به، وطال الأمر، وصار عندهم عادة -

(١) الفقيه والمتفقه (٢/٢٠١).

(٢) الإبانة عن معاني القراءات ص ٥٩ - ٦٠.

اعتادته جوارحهم -، نزل فرض آخر، حتى أكمل الله دينه في يسر على عباده، فنعمة الله لا تحصى».

٧ - ورود القرآن بالجواب عن سؤالات الصحابة والناس، فهذا من أسباب نزوله مفرقاً.

٨ - وقوع النسخ فيه، وهذا يتأتى إذا نزل مفرقاً.

٩ - نزول القرآن على سبعة أحرف، فناسب أن ينزل مفرقاً، إذ لو نزل دفعة واحدة لشق بيانها عادة[١] .

١٠ -ليطابق الأسباب المؤقتة[٢] ، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٢١].

١١ -بيان فضل النبي ﷺ على سائر النبيين: قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[٣] : «كل مرة يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجل، وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمد ﷺ أعظم نبي أرسله الله، وقد جمع الله تعالى للقرآن الصفتين معاً، ففي

(١) فتح الباري (٩/٨).

(٢) المحرر الوجيز (١٢/٢٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/١١٠).

الملأ الأعلى أنزله جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض منجماً بحسب الوقائع والحوادث».

* * *

تاريخ ابتداء نزول القرآن

تكلم العلماء في تاريخ ابتداء نزول القرآن على النبي ﷺ، قال ابن الملقن رحمه الله (ت: ٨٠٤هـ)[١] : «روى ابن سعد بإسناده أن نزول الملك عليه بحراء يوم الاثنين، لسبع عشرة خلت من رمضان، ورسول الله ﷺ يومئذ ابن أربعين سنة».

وهذا القول مرجوح، وأحسن منه حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«أنزلت صحف إبراهيم عليه السلام أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت منه، والزبور لثمان عشرة خلت منه، والقرآن لأربع وعشرين خلت من شهر رمضان»**[٢] .

وهذا القول أصوب لأن هذا الحديث يعضده القرآن، وهو أن ابتداء نزوله كان في ليلة القدر، وليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣].

فإن قلت إن ليلة أربع وعشرين المذكورة في حديث واثلة ابن

---

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢/ ٢٦٠).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٠٧).

الأسقع رضي الله عنه ليست وتراً، ومعلوم أن ليلة القدر في أوتار العشر الأواخر؟

فالجواب أن الوتر يكون باعتبار ما مضى، وباعتبار ما بقي، وقد دلَّ على اعتبار أن يكون الوتر باعتبار ما بقي، قوله عليه السلام عن ليلة القدر: «**في سابعة تبقى، في خامسة تبقى**»، فحينئذ لا إشكال.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله (ت: ٨٥٢هـ) عن حديث واثلة ابن الأسقع[١]: «هذا كله مطابق لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، فيحتمل أن تكون ليلة القدر في تلك السنة كانت تلك الليلة، فأنزل فيها جملة إلى سماء الدنيا، ثم أُنزل في اليوم الرابع والعشرين إلى الأرض أول ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]»[٢].

وقد فسَّر أبو عبدالله الحليمي رحمه الله: «لأربع وعشرين»، باليوم، وأنها ليلة خمس وعشرين[٣].

* * *

---

(١) فتح الباري (٩/٥).

(٢) نزوله لم يكن من السماء الدنيا، وإنما المراد نزول جبريل على النبي ﷺ بعد سماعه من الله.

(٣) المنهاج بواسطة المرشد الوجيز ص ١٢.

أول وآخر ما نزل

اختلف العلماء في أول ما نزل من القرآن تبعاً لما استنبطوه من كلام رسول الله ﷺ، فذهب الجمهور إلى أن أول ما نزل على النبي ﷺ ﴿ٱقْرَأْ﴾، واستدلوا بحديث عائشة رضي الله عنه أنها قالت: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه - وهو التعبُّد - اللَّيالي ذواتِ العَدَدِ قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزوَّد لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه المَلَك، فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ»، قال: فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجَهدَ، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجَهْدَ، ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ١ - ٣][1].

قال ابن الملقن رحمه الله[2] : «قوله: (فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، هذا دليل الجمهور أنه أول ما نزل».

---

(١) رواه البخاري كتاب بدء الوحي باب (ص ١- رقم ٣)، ومسلم كتاب الإيمان باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (ص٨٠ - رقم ٤٠٣).

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢/ ٢٦٥).

وذهب بعض العلماء أن أول ما نزل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، لحديث جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنهما قال وهو يُحدِّث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: «بَيْنا أنا أمشي إذْ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري فإذا المَلَكُ الذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فرُعبْتُ منه، فرجعْتُ، فقلت: زملوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ١ - ٥]، فحمي الوحي وتتابع»[1].

قال ابن الملقن رحمه الله[2]: «هذا مما اغتر به جماعة فزعموا أن أول ما نزل من القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾».

وللعلماء طرق في توجيه الأقوال والتأليف بينها، وقد قيل في ذلك:

١ - أول ما أُنزل مطلقاً ﴿ٱقْرَأْ﴾، وأن سورة المدثر بعده.

٢ - أول ما أُنزل في غار حراء ﴿ٱقْرَأْ﴾، ثم لما رجع إلى خديجة رضي الله عنها فتدثر، فأنزل عليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾.

٣ - أول ما نزل من الآيات ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، وأول ما نزل من أوامر التبليغ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، وأول ما نزل من السور سورة الفاتحة.

---

(١) رواه البخاري كتاب بدء الوحي باب (ص ٢ - رقم ٤)، ورواه مسلم كتاب الإيمان باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (ص ٨١ - رقم ٤٠٦).

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٣١١/٢).

٤ - أول ما نـزل للنبـوة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، وأول ما نـزل للرسالة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾.

٥ - جابر بن عبدالله رضي الله عنهما في حديثه نفسه ما يدلّ على نـزول ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ قبل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾، حيث قال في حديثه إن رسول الله ﷺ قال: «**بينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه فرقاً، فرجعت، فقلت: زملوني، زملوني، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾**»[1].

قال بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي رحمه الله (ت: ٧٩٤هـ)[2]: «فقد أخبر في هذا الحديث عن الملك الذي جاءه بحراء قبل هذه المرة، وأخبر في حديث عائشة أن نـزول: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، كان في غار حراء، وهو أول وحي ثم فتر بعد ذلك، وأخبر في حديث جابر رضي الله عنه أن الوحي تتابع بعد نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾، فعلم بذلك أن ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ أول ما نزل مطلقاً، وأن سورة المدثر بعده».

وأما بالنسبة لآخر ما نزل، فقد قال أبو شامة المقدسي رحمه الله (ت: ٦٦٥هـ)[3]: «وآخر ما نزل من الآيات ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ

---

(١) البرهان في علوم القرآن ص ١٤٥.

(٢) البرهان في علوم القرآن ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٣) المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز ص ٣١ - ٣٢.

إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] ، وقيل: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]، وقيل: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] إلى آخر الآيتين، وقيل آيات الربا، وهو الموافق للقول الأول، لأن ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا﴾، هي آخرهن، ونزل يوم عرفة في حجة الوداع: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] الآية.

قال أبو عبيد: حدثنا حجاج عن ابن جريج قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: آخر آية أُنزلت من القرآن: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾، قال: زعموا أن رسول الله ﷺ مكث بعدها تسع ليال، وبدئ به يوم السبت، ومات يوم الاثنين.

قلت: يعني العاشر من يوم مرضه».

قال الحافظ البيهقي رحمه الله (ت: ٤٥٨هـ) في شأن الاختلاف في آخر ما نزل[1] : «هذا الاختلاف يرجع - والله أعلم - إلى أن كل واحد منهم أخبر بما عنده من العلم، أو أراد أن ما ذُكر من أواخر الآيات التي نزلت».

* * *

---

(١) دلائل النبوة (١٣٩/٧).

نزول القرآن
على سبعة أحرف

نزل القرآن أولاً بلسان قريش كما جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: أُنزل القرآن بلسان قريش[1] .

ثم نزل القرآن بعد ذلك على سبعة أحرف كما تواترت بذلك الأحاديث كما قال أبو عبيد القاسم بن سلام[2]، ثم لما فُتحت الأمصار واختلف الناس في تلك الأمصار في قراءة القرآن[3]، حملهم عثمان رضي الله عنه بإجماع الصحابة على حرف قريش الذي ابتدأ به نزول القرآن.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله (ت: ٨٥٢هـ)[4] : «إنه نزل أولاً بلسان قريش أحد الأحرف السبعة، ثم نزل بالأحرف السبعة المأذون في قراءتها تسهيلاً وتيسيراً كما سيأتي بيانه، فلما جمع عثمان رضي الله عنه الناس على حرف واحد، رأى أن الحرف الذي نزل القرآن

---

(١) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب نزل القرآن بلسان قريش (ص ٨٩٣ - رقم ٤٩٨٤).

(٢) فضائل القرآن ص ٢٠٣.

(٣) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب جمع القرآن(ص ٨٩ – رقم ٤٩٨٧).

(٤) فتح الباري (٩/٩).

أولاً بلسانه أولى الأحرف، فحمل الناس عليه لكونه لسان النبي ﷺ، ولما له من الأولية المذكورة».

وقد اختلف العلماء في معنى «الأحرف السبعة» وتأول قوم معنى نزول القرآن على سبعة أحرف على معنى الحديث الآخر: «نزل القرآن في سبع: حلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وخبر ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وضرب الأمثال»، وأنكر المحققون هذا التأويل.

وهذا الحديث أولا لا يثبت، فهو من رواية حيوة بن شريح عن عقيل بن خالد عن سلمة بن أبي سلمة ابن عبدالرحمن عن أبيه عن ابن مسعودرضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال الحافظ ابن عبدالبر رحمه الله [(١)] : «وهذا حديث عند أهل العلم لا يثبت، لأنه يرويه حيوة عن عقيل عن سلمة هكذا.

ويرويه الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن سلمة بن أبي سلمة عن أبيه عن النبي ﷺ مرسلاً، وأبو سلمة لم يلق ابن مسعود رضي الله عنه، وابنه سلمة ليس ممن يحتج به، **وهذا الحديث مجتمع على ضعفه من جهة إسناده**».

هذا من جهة ثبوته، ثم نقول هذا الحديث مع ضعفه ليس بياناً لحديث «**أُنزل القرآن على سبعة أحرف**».

---

(١) التمهيد (٨/٢٧٦).

قال الحافظ البيهقي رحمه الله[1] : «فإن صحَّ فمعنى قوله: «**سبعة أحرف**»: أي سبعة أوجه، وليس المراد به ما ورد في الحديث الآخر من نزول القرآن على سبعة أحرف، ذاك المراد به اللغات التي أُبيحت القراءة عليها، وهذا المراد به الأنواع التي نزل القرآن عليها».

وقال العلامة أبو شامة المقدسي رحمه الله (ت: ٦٦٥هـ) موجهاً الحديث لو ثبت[2] : «وعندي لهذا الأثر أيضاً تأويلان آخران، **أحدهما**: ذكره أبو علي الأهوازي في «كتاب الإيضاح»، والحافظ أبو العلاء في «كتاب المقاطع»، أن قوله (زاجر وآمر) إلى آخره استئناف كلام آخر، أي هو كذلك، ولم يرد به تفسير الأحرف السبعة، وإنما توهم ذلك من توهمه، لاتفاقهما في العدد وهو السبعة، وروي (زاجراً وآمراً..) بالنصب؛ أي نزل على هذه الصفة من سبعة أبواب على سبعة أحرف، ويكون المراد بالأحرف غير ذلك.

التأويل الثاني: أن يكون ذلك تفسيراً للأبواب، لا للأحرف، أي: هذه سبعة أبواب من أبواب الكلام وأقسامه وأنواعه، أي أنزله الله تعالى كائناً من هذه الأصناف، لم يقتصر به على صنف واحد؛ بخلاف ما يحكى أن الإنجيل كله مواعظ وأمثال».

---

(١) بواسطة المرشد الوجيز ص ١٠٨.

(٢) المرشد الوجيز ص ١٠٨ – ١٠٩.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله (ت: ٢٢٤هـ) [1] : «وليس هذا من ذلك في شيء، وإنما هذا أن القرآن نزل في سبع، ومعناه: سبع خصال أو سبع خلال، وتلك الأحاديث إنما هي: نزل القرآن على سبعة أحرف، **والأحرف لا معنى لها إلا اللغات**».

وقال ابن جرير الطبري رحمه الله (ت: ٣١٠هـ)[2] : مبيناً فساد هذا التأويل: «ومعلوم أن تماريهم فيما تماروا فيه من ذلك، لو كان تمارياً واختلافاً فيما دلَّت عليه تلاواتهم من التحليل والتحريم، والوعد والوعيد، وما أشبه ذلك، لكان مستحيلاً أن يُصوِّب جميعهم ﷺ، ويأمر كل قارئ منهم أن يلزم قراءته في ذلك على النحو الذي هو عليه، لأن ذلك لو جاز أن يكون صحيحاً وجب أن يكون الله جل ثناؤه قد أمر بفعل شيء بعينه، وفرضه في تلاوة من دلَّت تلاوته على فرضه، ونهى عن فعل ذلك الشيء بعينه، وزجر عنه في تلاوة الذي دلَّت تلاوته على النهي والزجر عنه، وأباح وأطلق فعل ذلك الشيء بعينه، وجعل لمن شاء من عباده أن يفعله فِعْلَه، ولمن شاء منهم أن يتركه تركه، في تلاوة من دلَّت تلاوته على التخيير!

وذلك من قائله - إن قاله - إثبات ما قد نفى الله جل ثناؤه عن تنزيله وحكم كتابه، فقال تعالى ذكره: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢] ، وفي نفي الله

(١) فضائل القرآن ص ٢٠٧، ط. دار الكتب العلمية ص ٢٠٧.

(٢) مقدمة جامع البيان (١/ ٤٣ - ٤٤).

جل ثناؤه ذلك عن حكم كتابه، أوضح الدليل على أنه لم يُنزِّل كتابه على لسان رسوله ﷺ إلا بحكم واحد متفق في جميع خلقه، لا بأحكام فيهم مختلفة».

وتأول آخرون معنى «سبعة أحرف» على القراءات السبع المشهورة التي استقر عمل الناس على القراءة بها وتسميتها بذلك من جهة أبي بكر ابن مجاهد رحمه الله، وهذا القول في غاية الضعف، وأبعدها عن الصواب.

قال أبو شامة المقدسي رحمه الله[1] : «ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث **وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة**، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (٧٢٨هـ)[2] : «**لا نزاع بين العلماء المعتبرين أن «الأحرف السبعة» التي ذكر النبي ﷺ أن القرآن أُنزل عليها ليست هي «قراءات القراء السبعة المشهورة»**، بل أول من جمع قراءات هؤلاء هو الإمام أبو بكر ابن مجاهد، وكان على رأس المائة الثالثة ببغداد، فإنه أحب أن يجمع المشهور من قراءات الحرمين والعراقين والشام، إذ هذه الأمصار الخمسة هي التي خرج منها علم النبوة من القرآن وتفسيره، والحديث والفقه».

---

(١) فتح الباري (٩/ ٣٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٩٠).

وقد أفاض في بيان خطأ تفسير «الأحرف السبعة» بـ «القراءات السبع» العلامة مكي بن أبي طالب رحمه الله (ت: ٤٣٧هـ) حيث قال[١] : «إن هذه القراءات كلها التي يقرأ بها الناس اليوم، وصحّت روايتها عن الأئمة، إنما هي جزء من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووافق اللفظ بها خط المصحف، مصحف عثمان رضي الله عنه، الذي أجمع الصحابة فمن بعدهم عليه، واطرح ما سواه، مما يخالف خطه، فقرئ بذلك لموافقة الخط، لا يخرج شيء منها عن خط المصاحف التي نسخها عثمان رضي الله عنه، وبعث بها إلى الأمصار، وجمع المسلمين عليها، ومنع من القراءة بما خالف خطها، وساعده على ذلك زهاء اثني عشر ألف من الصحابة والتابعين، واتّبعه على ذلك جماعة المسلمين بعده، وصارت القراءة عند جميع العلماء بما يخالفه بدعة وخطأ، وإن صحت ورويت.

وكان المصحف قد كُتب على لغة قريش، على حرف واحد ليزول الاختلاف بين المسلمين في القرآن، ولم ينقط ولا ضبط، فاحتمل التأويل لذلك.

وإذا كان المصحف بلا اختلاف كُتب على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، وعلى لغة واحدة، والقراءة التي يُقرأ بها، لا يخرج شيء منها عن خط المصحف، فليست هي إذاً

---

(١) الإبانة عن معاني القراءات ص ٢٢ – ٢ط، ط. دار المأمون – دمشق.

السبعة الأحرف التي نزل بها القرآن كلها، ولو كانت هي السبعة كلها وهي موافقة للمصحف، لكان المصحف قد كُتب على سبع قراءات، ولكان عثمان رضي الله عنه قد أبقى الاختلاف الذي كرهه، وإنما جمع الناس على المصحف ليزول الاختلاف، فصحّ من ذلك أن الذي يقرأ به الأئمة، وكلّ ما صحّت روايته، مما يوافق خط المصحف، إنما هو كله حرف من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، وافق لفظها، على اختلافه، خطَّ المصحف، وجازت القراءة بذلك، إذ هو غير خارج عن خط المصاحف التي وجّه بها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار، وجمعهم على ذلك، وسقط العمل بما يخالف خط المصحف، من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، بالإجماع على خط المصحف».

فالمشهور عن العلماء أن معنى «سبعة أحرف» أي سبع لغات من لغات العرب، قال أبو محمد القاسم بن ثابت السرقسطي رحمه الله (ت: ٣٠٢هـ) [1] : «إن الله تبارك وتعالى بعث نبيه ﷺ والعرب متناوؤن في المحال والمقامات، متباينون في كثير من الألفاظ واللغات، ولكل عمارة لغة دلَّت بها ألسنتهم، وفحوى قد جرت عليها عادتهم، وفيهم الكبير العاسي والأعرابي القح، ومن لو رام نفيَ عادته وحمل لسانه على غير ذريته تكلف منه حملاً ثقيلاً،

(١) بواسطة المرشد الوجيز ص ١٢٨ – ١٢٩.

وعالج منه عبئاً شديداً، ثم لم يكسر غَرْبه، ولم يملك استمراره إلا بعد التمرين الشديد، والمساجلة الطويلة، فأسقط عنهم تبارك وتعالى هذه المحنة، وأباح لهم القراءة على لغاتهم، وحمل حروفه على عاداتهم؛ وكان الرسول ﷺ يقرئهم بما يفقهون، ويخاطبهم بالذي يستعملون بما طوقه الله من ذلك، وشرح به صدره، وفتق به لسانه، وفضّله على جميع خلقه».

وقال محيي السُّنَّة الحسين بن مسعود البغوي رحمه الله (ت: ٥١٦)[١] : «وأظهر الأقاويل وأصحها وأشبهها بظاهر الحديث أن المراد من هذه الحروف اللغات، وهو أن يقرأه كل قوم من العرب بلغتهم، وما جرت عليه عادتهم».

واختلف العلماء في هذه اللغات السبع، فبعضهم يرى أن هذه اللغات السبع في بطون قريش، قال ابن قتيبة رحمه الله[٢] : «قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ [إبراهيم: ٤]، فعلى هذا فتكون اللغات السبع في بطون قريش».

وهذا القول ضعيف، لأن عثمان رضي الله عنه لما أمر بجمع القرآن، قال: «وما اختلفتم فيه فاكتبوه بلسان قريش»، فدل هذا على أن الأحرف الأخرى غير قرشية.

---

(١) شرح السُّنَّة (٤/٥٠٧).

(٢) فتح الباري (٩/٢٧).

قال أبو حاتم السجستاني رحمه الله[1] : «نزل بلغة قريش، وهذيل، وتميم الرباب، والأزد، وربيعة، وهوازن، وسعد بن بكر».

وأبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله (ت: ٢٢٤هـ) له اختيار آخر، حيث قال[2] : «ليس معنى تلك السبعة أن يكون الحرف الواحد يُقرأ على سبعة أوجه، هذا شيء غير موجود، ولكنه عندنا أنه نزل على سبع لغات متفرقة في جميع القرآن من لغات العرب، فيكون الحرف منها بلغة قبيلة، والثاني بلغة أخرى سوى الأولى، والثالث بلغة أخرى سواهما، كذلك إلى السبعة، وبعض الأحياء أسعد بها وأكثر حظاً فيها من بعض».

وهذا القول يبدو أنه ينافي الرخصة التي من أجلها نزل القرآن على سبعة أحرف أي لغات من لغة العرب، فالعرب أميون، فإذا نزل بعض القرآن بلغة تلك القبيلة استعجم عليهم ما كان بلغة غيرهم من باقيه. إلا إن كانت تتوافق لغاتهم في الغالب فحينئذ يتوجه قول أبي عبيد رحمه الله.

قال أبو عمرو الداني رحمه الله [3] : «إن الأحرف السبعة ليست متفرقة في القرآن كلها، ولا موجودة فيه في ختمة واحدة، فإذا قرأ القارئ برواية واحدة فإنما قرأ ببعض الأحرف السبعة لا بكلها».

---

(١) فتح الباري (٩/ ٢٧).

(٢) فضائل القرآن ص ٢٠٣، ط. دار الكتب العلمية.

(٣) فتح الباري (٩/ ٢٨).

وأبعد عن الصواب قول من قال إن الأحرف السبعة كلها موجودة في لسان مضر، قال الحافظ ابن عبدالبر رحمه الله (ت: ٤٦٣هـ)(١): «وقال آخرون: هذه اللغات كلها السبعة إنما تكون في مضر، واحتجوا بقول عثمان: نزل القرآن بلسان مضر».

فنقول: إن الأصح عن عثمان رضي الله عنه أنه أمر زيد بن ثابت رضي الله عنه بجمع المصحف بالحرف الذي ابتدأ به نزوله وهو حرف قريش، ويكون تخصيص مضر بالذكر لو صحَّ، لقرب مضر من مولد النبي ﷺ، ومنزل الوحي، كما أشار إلى ذلك أبو حاتم السجستاني رحمه الله(٢).

وقيل في معنى حصر اللغات في مضر هو أن قريش هم بنو النضر بن الحارث على الصحيح من أقوال أهل النسب(٣).

قال الحافظ ابن عبدالبر رحمه الله (ت: ٤٦٣ هـ)(٤) : «إن معنى السبعة الأحرف المذكورة في الحديث، سبعة أوجه من الكلام المتفق معناه، المختلف لفظه، نحو: هلم، وتعال، وعجل، وأسرع، وانظر، وأخّر، ونحو ذلك».

---

(١) التمهيد (٢٧٧/٨).

(٢) المرشد الوجيز ص ١٣٠.

(٣) فضائل القرآن لابن كثير ص ١٣٥ – ١٣٦.

(٤) التمهيد (٢٨٤/٨).

وقال أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي رحمه الله (ت: ٣٢١هـ)[١] «إن السبعة الأحرف هي السبعة التي ذكرنا، وأنها مما لا يختلف معانيها، وإن اختلفت الألفاظ التي يُتلفَّظ بها، وأن ذلك كان توسعة من الله عز وجل عليهم لضرورتهم إلى ذلك، وحاجتهم إليه، وإن كان الذي نزل على النبي ﷺ إنما نزل بألفاظ واحدة».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٢] : «والأشبه والله أعلم هو الوجه الأول، وأن هذا كان فيما أنزل القرآن فيه على حروف عدَّة، فإن القول المرضي عند علماء السلف الذي يدلُّ عليه عامة الأحاديث وقراءات الصحابة أن المُصْحف الذي جمع عثمانُ رضي الله عنه الناس عليه هو أحد الحروف السبعة، وهو العرضة الأخيرة، وأن الحروف السبعة خارجةٌ عن هذا المصحف، وأن الحروف السبعة كانت تختلف الكلمة مع أن المعنى غير مختلف ولا متضاد».

* * *

(١) شرح مشكل الآثار (٨/١٢٤).

(٢) الصارم المسلول ص ١٢٦.

الحكمة في نزول القرآن على سبعة أحرف

نزول القرآن بلغة قوم رفعة لشأنهم، وهو أيسر عليهم في فهمه، ودعوة لهم للتدين به.

قال النبي ﷺ: «**إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسَّر منه**»[(١)] .

قال مكي بن أبي طالب رحمه الله (ت: ٤٣٧هـ)[(٢)] : «ليقرأ كل قوم على لغتهم، وعلى ما يسهل عليهم من لغة غيرهم، وعلى ما جرت به عادتهم».

وقال[(٣)] : «وكان في ذلك رفق عظيم بهم، وتيسير كثير لهم».

وقال أبو جعفر الطحاوي رحمه الله (ت: ٣٢١هـ)[(٤)] : «كان أهل لسانه أميين لا يكتبون إلا القليل منهم كتاباً ضعيفاً، وكان يشق عليهم حفظ ما يقرؤه عليهم بحروفه التي يقرؤه بها عليهم، ولا

---

(١) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب أنزل القرآن على سبعة أحرف (ص ٨٩٥ – رقم ٤٩٩٢)، ومسلم كتاب صلاة المسافرين باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف (ص٣٢٩- رقم ١٨٩٩).

(٢) الإبانة عن معاني القراءات ص ٥٩.

(٣) الإبانة عن معاني القراءات ص ٥٩.

(٤) شرح مشكل الآثار (٨/١١٧ – ١١٨).

يتهيأ لهم كتاب ذلك، وتحفُّظُهُمْ إياه لما عليهم في ذلك من المشقة، وإذا كان أهل لسانه في ذلك كما ذكرنا، كان من ليس من أهل لسانه من بعد أخذ ذلك عنه بحروفه أوكد، وكان عذرهم في ذلك أبسط، لأن من كان على لغة من اللغات، ثم أراد أن يتحوَّل عنها إلى غيرها من اللغات لم يتهيأ ذلك له إلا بالرياضة الشديدة، والمشقة الغليظة.

وكانوا يحتاجون إلى حفظ ما قد تلاه عليهم ﷺ مما أنزله الله عزَّ وجل عليه من القرآن ليقرؤوه في صلاتهم، وليعلموا به شرائع دينهم، فوسَّعَ عليهم في ذلك أن يتلوه بمعانيه وإن خالفت ألفاظهم التي يتلونه بها ألفاظ نبيهم ﷺ التي قرأه بها عليهم، فوسَّع لهم في ذلك بما ذكرنا».

وللعلامة عبدالحميد بن باديس رحمه الله إلماحة جميلة ذكر فيها حكمة إنزال القرآن على سبعة أحرف أي سبع لغات من لغات العرب، قال فيها[1] : «ومن أول القصد إلى العرب والعناية بلسانهم وتنبيههم إلى أن القرآن أُنزل بلسانهم دون جميع الألسنة، جلباً لهم حتى يعلموا أنه أُنزل لهم وفيهم قبل الناس كلهم.

إن العرب قوم يعتزون بقوميتهم وهم قوم ذوو عزة وإباء خصوصاً في الجاهلية، فكان من حكمة القرآن يجلب نافرهم ويقرب بعيدهم بأن هذا القرآن أنزل بلسانهم.

---

(١) آثار ابن باديس (٤/ ٦٠).

ومن هذا الباب توسعة الله في قراءة القرآن على سبعة أحرف وهي اللهجات التي تجتمع على صميم العربية وتختلف في غير ذلك.

وسَّع عليهم في ذلك لتشعر كل قبيلة أن هذا القرآن قرآنها، لأن اللسان الذي نزل به لسانها، وهذا هو ما يقصده القرآن، ومن هذا الباب أيضاً إشعارهم بأن صاحب الرسالة منهم ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] ».

وقد سبقه لنحو هذه الفائدة بعض السابقين، قال أبو شامة المقدسي رحمه الله (ت: ٦٦٥هـ)[1] : «وقد قال بعض الشيوخ: الواضح من ذلك أن يكون الله تعالى أنزل القرآن بلغة قريش ومن جاورهم من فصحاء العرب، ثم أباح للعرب المخاطبين به المنزل عليهم أن يقرؤوه بلغاتهم التي جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم في الألفاظ والإعراب، ولم يكلف بعضهم الانتقال من لغة إلى غيرها لمشقة ذلك عليهم، ولأن العربي إذا فارق لغته التي طُبع عليها يدخل عليه الحمية من ذلك، فتأخذه العزة، فجعلهم يقرؤونه على عاداتهم وطباعهم ولغاتهم منّا منه عز وجل لئلا يكلفهم ما يشق عليهم، فيتباعدوا عن الإذعان».

* * *

(١) المرشد الوجيز ص ٩٥.

وجوه الاختلاف الجائز في القراءات

التلقي هو الأساس في القراءة، وقد ذكرنا فيما سبق اتصال أسانيد القراء بالصحابة، وذكرنا كذلك عدم حصر القراءة في سبع.

والقراء المشهورون أنفسهم أخذوا عن جماعات، وسلكوا في ذلك الاحتياط في حال اختلاف القراءات.

قال نافع: قرأت على سبعين من التابعين، فما اتفق عليه اثنان أخذته، وما شك فيه واحد تركته.

قال مكي بن أبي طالب رحمه الله(١) : «يريد – والله أعلم – مما خالف المصحف، وكان من قرأ عليه بما اتفق فيه اثنان من أئمته لم ينكر عليه ذلك».

وقال أبو الحسن السخاوي رحمه الله(٢) : «وإنما الغرض ها هنا ذكر اعتمادهم في قراءتهم على النقل، وأنهم لم يجاوزوه إلى غيره، وإن كان له وجه في العربية، إذا لم تكن لها آثار مروية».

---

(١) المرشد الوجيز ص ١٥٥.

(٢) فتح الوصيد ص ١١٦.

أما وجوه الاختلاف في القراءات إذا ثبتت بالطرق الصحيحة ووافقت لغة قريش أنواع، منها:

١ - أن يقع تبديل حروف الكلمة، والخط واحد، مثل: (ننشرها) و(ننشزها)، بالراء والزاي. و(يَقُصُّ الحقَّ) و(يقض الحق)، بالصاد والضاد على أن تكون الياء من يقض حذفت من الخط، كما حُذفت من اللفظ لالتقاء الساكنين، وله نظائر نحو (وسوف يؤتِ الله المؤمنين) و(سندع الزبانية)، وقد ذكرت جميعها عند خط المصحف.

٢ - يقع اختلاف في إعراب الكلمة وحركات بنائها، مع تغيير المعنى، نحو (وادّكر بعد أمة)، و(بعد أَمَةٍ).
ومنه ما لا يتغير فيه المعنى، نحو (البُخلِ) و(البَخل)، و(ميُسرة) و(ميْسرة)، وما أشبه ذلك.

٣ - يقع الاختلاف في أصول القراءات من الإظهار والإدغام والفتح والإمالة، وما أشبه ذلك[1] .

* * *

(١) بيان السبب الموجب لاختلاف القراءات ص ٥٠ - ٥١.

الباب الرابع:

جمـع القـرآن



جمع الصدور

العمدة في حفظ القرآن في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين على الصدور، ثم اعتضد بجمعه في المصحف.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «والاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب لا على المصاحف، كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن ربي قال لي: أن قم في قريش فأنذرهم، فقلت: أي رب! إذا تبلغوا رأسي - أي يشدخوا- فقال: إني مبتليك ومبتل بك، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظاناً، فابعث جنداً أبعث مثليهم، وقاتل بمن أطاعك من عصاك، وأنفق أُنفق عليك**»، فأخبر أن كتابه لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة تُغسل بالماء، بل يقرؤه في كل حال كما جاء في نعت أمته: «أناجيلهم في صدورهم»، بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه إلا في الكتب، ولا يقرأونه كله إلا نظراً لا عن ظهر قلب».

وحفاظ القرآن من الصحابة كثيرون، كما أن كل آية من القرآن مجموع حفاظها من الصحابة أكثر.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤٠٠).

قال أبو شامة المقدسي رحمه الله (ت: ٦٦٥هـ)[١] : «وحفظه في حياته جماعة من أصحابه، وكل قطعة منه كان يحفظها جماعة كثيرة، أقلهم بالغون حد التواتر».

وأما قول أنس بن مالك رضي الله عنه: مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء رضي الله عنه، ومعاذ بن جبل رضي الله عنه، وزيد بن ثابت رضي الله عنه، وأبو زيد رضي الله عنه، قال: ونحن ورّثناه[٢] .

فهذا الحصر غير حقيقي، يُراد به جمعه على جميع الأحرف، أو أخذه مشافهة من النبي ﷺ ، لأن أكثر الصحابة أخذوا القرآن عن بعض[٣].

وقيل: إن هؤلاء الأربعة ظهروا به وانتصبوا لتلقينه، وتعليمه[٤].

قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: كان الرجل إذا هاجر دفعه رسول الله ﷺ إلى رجل منا يعلمه[٥] .

والأدلة على أن حفاظ القرآن من الصحابة كثيرون:

١- ما هو معلوم ضرورة من تدين الصحابة ومبادرتهم إلى

---

(١) المرشد الوجيز ص ٣٣.

(٢) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب القراء من أصحاب رسول الله ﷺ (ص ٨٩٧ - رقم ٥٠٠٤).

(٣) المرشد الوجيز، ص ٣٩.

(٤) عمدة القاري (٢٠٩/١٦).

(٥) الوسيلة إلى كشف العقيلة ص ٣٢.

الطاعات والقرب التي هي أدنى منزلة من حفظ القرآن مما يُعلم منه أنه محال - مع كثرتهم - أن لا يحفظه منهم إلا أربعة[1].

وكذلك مشهور معلوم أعيان من يحفظه سوى الأربعة، منهم:

٢- الصدّيق رضي الله عنه فقد قدّمه رسول الله ﷺ في مرضه إماماً على الصحابة جميعاً، وهو الذي قال: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله»[2].

٣- عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يحفظ القرآن كله، وقرأه في ركعة[3].

٤- عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «جمعت القرآن، فقرأت به كل ليلة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «اقرأه في شهر»، إلى أن أرخص له في أسبوع[4].

٥- عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «ولقد علم أصحاب محمد ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله»[5].

---

(١) المعلم بفوائد مسلم (٣/ ١٥٠).

(٢) رواه مسلم كتاب المساجد باب من أحق بالإمامة (ص ٢٧٢ - رقم ١٥٣٤).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١/ ٤٣)، طبقات ابن سعد (٣/ ٧٥).

(٤) رواه النسائي في السنن الكبرى (٢/ ١٢٤٩ - رقم ٨٠١٠)، وابن ماجة (ص - رقم ١٣٤٦)، وصححه ابن حبان.

(٥) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب القراء من أصحاب رسول الله ﷺ (ص ٨٩٧ - رقم ٤٩٩٩).

٦- عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ترجمان القرآن، قال مجاهد[١]: عرضت القرآن على ابن عباس رضي الله عنهما مرتين، أقفه عند كل آية وأسأله عنها[٢] .

٧- جمع عمر رضي الله عنه الناس على قيام الليل في رمضان، وجعل عليهم تميماً الداري وأبيّ بن كعب رضي الله عنهما يقومان بالقرآن[٣] .

٨- سالم بن معقل مولى أبي حذيفة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «**خذوا القرآن من أربعة: من عبدالله بن مسعود، وسالم، ومعاذ بن جبل، وأبيّ بن كعب رضي الله عنهم**»[٤] .

٩- عدد من قُتل من حفاظ القرآن من الصحابة **يوم بئر معونة سبعون صحابياً**، عن أنس رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ سبعين رجلاً لحاجة، يُقال لهم: القرّاء، فعرض لهم حيَّان من بني سليم: رعل، وذكوان، عند بئر يُقال لها: بئر مَعُونَة، فقال القوم: والله ما إياكم أردنا، إنما نحن مجتازون في حاجة للنبي

---

(١) جامع البيان (١/٨٥)، وحسنه الذهبي في تذكرة الحفاظ (٢/٧٠٦).

(٢) رواه البخاري كتاب الإيمان باب كتاب صلاة التراويح (ص ٣٢٢ – رقم ٢٠١٠).

(٣) هذه الوجوه ذكرها ابن كثير في فضائل القرآن ص ١٦٠ – ١٦١.

(٤) رواه البخاري كتاب مناقب الأنصار باب مناقب أُبَيّ بن كعب (ص ٦٣٩ – رقم ٣٨٠٨)، ورواه مسلم كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه (ص ١٠٨٢ – رقم ٦٣٣٤).

ﷺ فقتلوهم، فدعا النبي ﷺ عليهم شهراً في صلاة الغداة، وذلك بدء القنوت، وما كنا نقنت[1] .

١٠- عمر رضي الله عنه، قال ابن مسعود رضي الله عنه: كان عمر رضي الله عنه أعلمنا بالله، وأقرأنا لكتاب الله، وأفقهنا في دين الله[2].

١١- عبادة بن الصامت، وأبو أيوب خالد بن زيد رضي الله عنهما[3]، من حفاظ القرآن.

١٢- أبو موسى الأشعري ، ومجمع بن جارية[4] رضي الله عنهما من حفاظه أيضاً.

١٣- سعد بن عبيد بن النعمان بن قيس بن عمرو بن زيد بن أمية، أخي ضبيعة، وعبيد أولاد زيد أخي عزيز ومعاوية بن مالك، أخي حنش، وأخي كلفة بني عوف بن عمرو بن عوف ابن مالك بن الأوس الأوسي[5] .

---

(١) رواه البخاري كتاب المغازي باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة (ص ٦٩ - رقم ٤٠٨٨).

(٢) رواه الحاكم (٣/٨٦).

(٣) ذكره ابن عبد البر، التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢٤/٥٢).

(٤) ذكره ابن إسحاق بواسطة التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢٤/٥٢).

(٥) المحبر لابن حبيب ص ٢٨٦، التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢٤/٥٣).

١٤- أم ورقة بنت نوفل[١] .

١٥- الـذين قتلـوا مـن قُـراء وحفّـاظ القـرآن فـي معركـة اليمامـة خمسمائة، قال الحافظ ابـن كثيـر رحمـه الله: «قُتـل من القـراء يومئذ قريب من خمسمائة رضي الله عنهم»[٢] .

١٦- الـذين بقـوا مـن قـرّاء وحفـاظ القـرآن فـي اليمامـة أكثـر ممـن قُتلوا[٣].

١٧- حفاظ وقرّاء القرآن الذين كانوا فـي مـدن الإسـلام وفـي عـساكر الجهاد في غير اليمامة جمع، لا يحصيهم إلا الله.

قـال أبـو العبـاس القرطبـي رحمـه الله[٤] : «فيظهـر مـن هـذا أن الذين جمعوا القرآن على عهده لا يحصيهم أحد، ولا يـضبطهم عدد».

١٨- نظم القرآن العجيب، المخالف لأساليب كل البـشر فـي نـثرهم ونظمهم مع ما تضمنه من أحكام، وعلـوم، وقـصص، وترغيـب وترهيب، العادة توجب مبادرة جمع غفير لحفظه[٥] .

---

(١) طبقات ابن سعد (٨/٤٥٧)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢٤/٥٣).

(٢) فضائل القرآن ص ٥٨.

(٣) المفهم (٦/٣٧٩).

(٤) المفهم (٦/٣٧٩ - ٣٨٠).

(٥) المفهم (٦/٣٨٠).

١٩- قول أبي عبد الرحمن السلمي رحمه الله: حدثنا الذين كانوا يقرؤننا القرآن أنهم كانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يعملوا بما فيها[١] . فهذا يدل على أن حفاظ القرآن من الصحابة جمع.

٢٠- قيس بن أبي صعصعة، وعمرو بن زيد الأنصاري البدري[٢] .

٢١- طلحة، وسعد، وحذيفة، وأبو هريرة، وعبدالله بن السائب، والعبادلة رضي الله عنهم[٣] .

٢٢- عائشة، وحفصة، وأم سلمة رضي الله عنهن[٤] .

٢٣- إن الله تكفَّل بحفظ القرآن كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، فلا بد أن يجتبي الله لحفظه عدداً كثيراً يتحقق فيهم وعد الله الذي لا يخلف الميعاد، قال أبو الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله (ت: ٦٤٣هـ)[٥] : «كيف يصح تفريط الصدر الأول رضي الله عنهم في القرآن وإهمالهم لحفظه؟!!!».

* * *

(١) تفسير ابن كثير (١/٨).

(٢) عمدة القاري (١٦/٢٠٩).

(٣) عمدة القاري (١٦/٢٠٩).

(٤) عمدة القاري (١٦/٢٠٩).

(٥) الوسيلة إلى كشف العقيلة ص ٢٨.

العرضة الأخيرة

جبريل كان يعارض النبي ﷺ القرآن في كل رمضان مرة مذاكرة وتثبيتاً لحفظه، وعارضه في السنة التي توفي فيها مرتين مبالغةً في تثبيته قبل أن يودّع الصحابة، وهذه العرضة تسمى العرضة الأخيرة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان، لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة»[(١)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان يعرض عليَّ النبي ﷺ القرآن كل عام مرَّة، فعرض عليه مرتين في العام الذي قُبض فيه»[(٢)].

ومن الصحابة الذين حظوا بقراءة العرضة الأخيرة زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال أبو عبدالرحمن السلمي رحمه الله[(٣)]: «قرأ زيد ابن ثابت على رسول الله ﷺ في العام الذي توفاه الله فيه مرتين، وإنما سميت هذه القراءة قراءة زيد بن ثابت رضي الله عنه، لأنه

---

(١) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ (ص ٨٩٦ - رقم ٤٩٩٧).

(٢) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ (ص ٨٩٦ - رقم ٤٩٩٨).

(٣) شرح السنة للبغوي (٥٢٥/٤ - ٥٢٦).

كتبها لرسول الله ﷺ، وقرأها عليه، وشهد العرضة الأخيرة، وكان يُقرئ الناس بها حتى مات، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر رضي الله عنهم أجمعين».

قال عبيدة السلماني رحمه الله: «القراءة التي عُرضت على رسول الله ﷺ في العام الذي توفاه الله فيه مرتين، وإنما سميت هذه القراءة قراءة زيد بن ثابت رضي الله عنه، لأنه كتبها لرسول الله ﷺ، وقرأها عليه، وشهد العرضة الأخيرة، وكان يُقرئ الناس بها حتى مات، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في جمعه، وولاه عثمان رضي الله عنه كِتْبة المصاحف رضي الله عنهم أجمعين».

وقال عبيدة السلماني رحمه الله: «القراءة التي عُرضت على رسول الله ﷺ في العام الذي قُبض فيه هي القراءة التي يقرأها الناس اليوم»[1] .

وقال ابن سيرين رحمه الله[2] : «يرون أو يرجون أن تكون قراءتنا هذه أحدث القراءات عهداً بالعرضة الأخيرة».

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله[3] : «وعثمان رضي الله عنه جمع المصحف الإمام على العرضة الأخيرة، رضي الله عنه وأرضاه».

---

(١) دلائل النبوة (٧/١٥٥ – ١٥٦)، والمرشد الوجيز ص ٢٣.

(٢) المرشد الوجيز ص ٢٢.

(٣) فضائل القرآن ص ١٥٢.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت: ٧٢٨هـ)[١] : «فإنه قد ثبت في الصحاح عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم أن جبريل عليه السلام كان يعارض النبي ﷺ بالقرآن في كل عام مرة، فلما كان العام الذي قُبض فيه عارضه به مرتين، والعرضة الآخرة هي قراءة زيد بن ثابت رضي الله عنه وغيره، وهي التي أمر الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم بكتابتها في المصاحف، وكتبها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في خلافة أبي بكر رضي الله عنه في صحف، أمر زيد بن ثابت رضي الله عنه بكتابتها، ثم أمر عثمان رضي الله عنه في خلافته بكتابتها في المصاحف وإرسالها إلى الأمصار، وجمع الناس عليها باتفاق من الصحابة علي رضي الله عنه وغيره».

وقد جاء عن أبي ظبيان قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: أي القراءتين تقرأ؟ قلت: للقراءة الأولى، قراءة ابن أم عبد - يعني عبدالله بن مسعود رضي الله عنه - ، قال: بل، هي الأخيرة، إن رسول الله ﷺ كان يعرض على جبريل - الحديث وفي آخره - فحضر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه، فعلم ما نُسخ من ذلك وما بُدّل[٢] .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٩٥).

(٢) رواه النسائي وقال ابن حجر رحمه الله في فتح الباري (٩/ ٤٥): «إسناده صحيح».

وهـذا الأثـر مقابـل بحـديث سـمرة وفيـه: «عـرض القـرآن علـى رسـول الله ﷺ عرضـات، ويقولـون: إن قراءتنـا هـذه هـي العرضـة الأخيرة»[1] .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله[2] : «يمكن الجمع بين القـولين بأن تكون العرضتان الأخيرتان وقعتا بـالحرفين المـذكورين، فيـصح إطلاق الآخرية على كل منهما».

وقال الحافظ ابـن كثيـر رحمـه الله[3] : «وعثمـان رضـي الله عنـه جمع المصحف الإمام على العرضة الأخيرة، رضي الله عنه وأرضـاه، وخصَّ بذلك رمضان من بين الشهور، لأن ابتداء الإيحاء كان فيه».

* * *

(١) رواه الحاكم قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٩/٤٤): «إسناده حسن».

(٢) فتح الباري (٩/٤٥).

(٣) فضائل القرآن ص ١٥٢.

كتابة القرآن
في العهد النبوي

كتابة القرآن وتدوينه ثابت في عهد النبي ﷺ، فقد اتخذ النبي ﷺ من أصحابه كُتّاباً يكتبون الوحي. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وممن كتب له في الجملة الخلفاء الأربعة، والزبير بن العوام، وخالد، وأبان ابنا سعيد بن العاص بن أمية، وحنظلة بن الربيع الأسدي، ومعيقيب ابن أبي فاطمة، وعبدالله بن الأرقم الزهري، وشرحبيل بن حسنة، وعبدالله بن رواحة في آخرين، وروى أحمد وأصحاب السنن الثلاثة وصححه ابن حبان والحاكم من حديث عبدالله بن عباس عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان ينزل عليه من السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده، فيقول: ضعوا هذا في السورة التي يُذكر فيها كذا»، الحديث»[١] .

وفي بداية الأمر كان ينهي عن تدوين غير القرآن حتى لا يختلط بغيره، وقال ﷺ من كتب عني غير القرآن فليمحه[٢] .

---

(١) فتح الباري (٩/٢٢).

(٢) رواه مسلم كتابالزهد باب التثبت في الحديث (ص ١٢٩٧ – رقم ٧٥١٠).

فالكتابة موجودة والقرآن مثبت في الصحف إلا أنه لم يجمع في مصحف واحد.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله[1] : «وقد كان النبي ﷺ أذن في كتابة القرآن ونهى أن يكتب معه غيره، فلم يأمر أبو بكر رضي الله عنه إلا بكتابة ما كان مكتوباً، ولذلك توقف عن كتابة الآية من آخر سورة براءة حتى وجدها مكتوبة، مع أنه كان يستحضرها هو ومن ذُكر معه».

وقال أيضاً[2] : «وقد أعلم الله تعالى في القرآن بأنه مجموع في الصحف في قوله: ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ [البينة: ٢] الآية، وكان القرآن مكتوباً في الصحف، لكن كانت مفرقة فجمعها أبو بكر رضي الله عنه في مكان واحد، ثم كانت بعد محفوظة إلى أن أمر عثمان رضي الله عنه بالنسخ منها فنسخ منها عدة مصاحف، وأرسل بها إلى الأمصار».

والقرآن مكتوب في اللوح المحفوظ في السماء، فمن باب أولى أن يكون مكتوباً لأهل الأرض.

قال البغوي رحمه الله (ت: ٥١٦هـ)[3] : «فثبت أن القرآن كان على هذا التأليف والجمع في زمان النبي ﷺ، ويشبه أن يكون النبي

(١) فتح الباري (٩/ ١٣).
(٢) فتح الباري (٩/ ١٣).
(٣) شرح السنة(٤/ ٥١٩).

ﷺ إنما ترك جمعه في مصحف واحد، لأن النسخ كان يرد على بعضه، ويُرفع الشيء بعد الشيء من تلاوته، كما يُنسخ بعض أحكامه، فلو جمعه، ثم رُفعت تلاوة بعضه، أدى ذلك إلى الاختلاف، واختلاط أمر الدين، فحفظه الله في القلوب إلى انقضاء زمان النسخ، ثم وفق لجمعه الخلفاء الراشدين».

* * *

جمع القرآن في عهد الصدّيق رضي الله عنه

كان القرآن محفوظاً في الصدور في عهد النبي ﷺ وصدراً من خلافة الصدّيق رضي الله عنه، وفي قتال الصحابة للمرتدين يوم اليمامة استحرّ القتل في حفظة القرآن، فوجد الصحابة رضي الله عنهم الحاجة داعية إلى جمع القرآن في مصحف.

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال[1]: أرسل إليَّ أبو بكر رضي الله عنه مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر رضي الله عنه أتاني فقال: إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقُرَّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بالقُرَّاء بالمواطن[2]، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر رضي الله عنه: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر رضي الله عنه: هذا والله خير، فلم يزل عمر رضي الله عنه يُراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر رضي الله عنه، قال زيد رضي الله

(١) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب جمع القرآن (ص ٨٩٤ - رقم ٤٩٨٦).

(٢) أي الأماكن التي يقع فيها القتال مع الكفار. فتح الباري (٩/١٢).

عنه: قال أبو بكر رضي الله عنه: إنك رجل شاب عاقل لا نتَّهمُك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتَتَبَّع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلَّفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟! قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر رضي الله عنه يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللحاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري رضي الله عنه لم أجدها مع أحد غيره ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، حتى خاتمة براءة، فكانت الصُّحُفُ عند أبي بكر رضي الله عنه حتى توفاه الله، ثم عند عمر رضي الله عنه حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(١) : «قُتل من القُرَّاء يومئذ قريب من خمسمائة رضي الله عنهم، فلهذا أشار عمر رضي الله عنه على الصديق رضي الله عنه بأن يجمع القرآن؛ لئلا يذهب منه شيء بسبب موت من يكون يحفظه من الصحابة بعد ذلك في مواطن القتال، فإذا كُتب وحُفظ صار ذلك محفوظاً».

---

(١) فضائل القرآن ص ٥٨.

وقال الخطابي رحمه الله (ت: ٣٨٨هـ)[١] : «والذي اعتمده عوامُّ العلماء في جمع القرآن هو أن جميع ما وُضع بين الدفتين إنما كان عن اتفاق من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وهما من الخلفاء الراشدين المأمور بالاقتداء بهما، ووافقهما عثمان رضي الله عنه على ذلك، وكان إمام هُدى، وكان زيد بن ثابت رضي الله عنه كاتب الوحي وهو الذي كان يلي جمعه وتدوينه، **ثم اتفق الملأ من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، على أن ما بين الدفتين قرآن مُنزل على الرسول ﷺ لم يختلفوا في شيء منه، فهذا هو الحجة في جمع القرآن»**.

وبهذا تظهر منّة الخلفاء الراشدين على الأمة الإسلامية إلى يوم القيامة في حفظ قرآنها، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله [٢]: «فهذه الأفعال من أكبر القربات التي بادر إليها الأئمة الراشدون: **أبو بكر وعمر رضي الله عنهما حفظاً على الناس بالقرآن**، وجمعاه، لئلا يذهب منه شيء، وعثمان رضي الله عنه جمع قراءات الناس على مصحف واحد، ووضعه على العرضة الأخيرة التي عارض بها جبريل رسول الله ﷺ في آخر رمضان من عمره عليه السلام، فإنه عارضه به عامئذ مرتين، ولهذا قال رسول الله ﷺ لفاطمة ابنته رضي الله عنها

---

(١) أعلام الحديث (٣/ ١٨٦٠ - ١٨٦١).

(٢) فضائل القرآن ص ٨٦.

لمَّـا مَـرِضَ: «**ومـا أُرى ذلـك إلا لاقتـراب أجلـي**»، أخرجـاه فـي الصحيحين».

قال علي رضي الله عنه[1] : «أعظم النـاس أجـراً في المـصاحف أبو بكر رضي الله عنه، رحمة الله على أبـي بكـر رضـي الله عنـه، هـو أول من جمع ما بين اللَّوحين».

وأبو بكر رضي الله عنه إنما جمعه بمشورة عمر رضـي الله عنـه، فابتداء الفكرة من الفاروق رضي الله عنه.

وقال عبدالرحمن بن مهدي رحمه الله[2] : «خصلتان لعثمان ابن عفان رضي الله عنه ليستا لأبي بكر ولا لعمر رضي الله عنهما: صـبره نفسه حتى قُتل مظلوماً، وجمعه الناس على المصحف».

وقال الحافظ ابن حجـر رحمـه الله[3] : «وإذا تأمـل المنـصف مـا فعله أبـو بكر رضي الله عنه من ذلك جزم بأنه يعد في فضائله، وينوه بعظيم منقبته، لثبوت قوله ﷺ: «**من سن سُنَّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها**»، فما جمع القرآن أحد بعده إلا وكان له مثل أجـره إلـى يوم القيامة».

---

(١) المصاحف لابن أبي داود (١/١٥٤ – رقم ١٧)، إسناده حسن كما في فتح البـاري (١٢/٩)، وقال ابن كثير: «إسناد صحيح». فضائل القرآن ص ٥٧.

(٢) المصاحف لابن أبي داود (١/١٧٩ – رقم ٤٤) بإسناد صحيح.

(٣) فتح الباري (١٣/٩).

الجمع العثماني

قرأ النبي ﷺ القرآن بأكثر من حرف، وسمع الصحابة بعض ما قرأ، وسمع آخرون الآيات نفسها بقراءة أخرى، فوقع تنازع بين بعض الصحابة بسبب قراءة بعضهم خلاف ما سمعوه من النبي ﷺ، فتحقق النبي ﷺ من صحة قراءة كل واحد منهم، وأمرهم بالوفاق وترك الاختلاف، فقراءاتهم كلها ثابتة عن النبي ﷺ.

عن النزال بن سبرة عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقرأ آية سمع النبي ﷺ يقرأ خلافها، فأخذت بيده فانطلقت به إلى النبي ﷺ، فقال: «**كلاكما محسن فاقرأ، فإن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكهم**»[1] .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله[2] : «في هذا الحديث والذي قبله الحض على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف، والنهي عن المراء في القرآن بغير حق».

وحصل الوفاق في عهد النبي ﷺ وفتحت الأمصار في عهد عمر

(١) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب اقرءوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم (ص ٨٩٤ - رقم ٥٠٦٠).

(٢) فتح الباري (٩/١٠٢ - ١٠٣).

وعثمان رضي الله عنهما، وسمع أهل هذه الأمصار قراءة من وفد إليهم من الصحابة، ولنقص علمهم خالفوا من قرأ بغير قراءتهم مما سمعوه من تلقيهم عن صحابة آخرين، فرأى حذيفة رضي الله عنه هذا الخلاف، وخشي الفرقة والهلكة، فأعلم عثمان بن عفان رضي الله عنه بذلك، ثم رأى عثمان والصحابة رضي الله عنهم أجمعين المصلحة في جمع القرآن على حرف واحد، وهو حرف قريش، ليحصل الوفاق ويرتفع النزاع.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن حذيفة رضي الله عنه قدم على عثمان رضي الله عنه، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة رضي الله عنه اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان رضي الله عنهما: يا أمير المؤمنين! أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة رضي الله عنهما أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نرُدُّها إليك.

فأرسلت بها حفصة إلى عثمان رضي الله عنهما، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان رضي الله عنه للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت رضي الله عنه في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا. حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّ عثمان رضي الله عنه الصحف إلى

حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق[1] .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[2] : «جمع الناس على قراءة واحدة لئلا يختلفوا».

فإجماع الصحابة على كتابة المصحف بلغة قريش حجة قاطعة، قال العلامة أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي رحمه الله (ت: ٣٢١هـ)[3] : «فوقفنا بذلك على أن جمع القرآن كان من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وهما راشدان مهديان، وقد تقدَّم أمر رسول الله ﷺ بالقدوة بهما، وقد روينا ذلك فيما تقدَّم منا في كتابنا هذا، وتابعهما عثمان رضي الله عنه على ذلك وهو إمام راشد مهْديٌّ، وتابعهم عليه أيضاً زيد بن ثابت رضي الله عنه وهو كاتب الوحي لرسول الله ﷺ، فكتب المصحف لعثمان رضي الله عنه بيده، وتابعهم أصحاب رسول الله ﷺ على ذلك، فصار إجماعاً، والنقل بالإجماع هو الحجة التي بمثلها نقل الإسلام إلينا حتى علمنا شرائعه، وحتى وقفنا على عدد الصلوات، وعلى ما سواها مما هو من شرائع الإسلام».

---

(١) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب جمع القرآن (ص ٨٩٤- رقم ٤٩٨٧).

(٢) فضائل القرآن ص ٦٧ .

(٣) شرح مشكل الآثار (١٣١/٨).

فإن قلت: أليس نزول القرآن على سبعة أحرف رخصة وتوسعة على الناس وتسهيل لهم، كل قبيلة تقرأ كتاب ربها بلغتها، فكيف جاز لعثمان رضي الله عنه أن يجمع الناس على حرف واحد هو حرف قريش؟

فالجواب أن عثمان رضي الله عنه له سنة متّبعة، وهو أحد الخلفاء الراشدين، ووافقه على ذلك الصحابة جميعاً، فإجماعهم حجة قاطعة، والقراءة بالسبعة أحرف كان رخصة للعرب، لأن فيهم أميين لا يحسن كل واحد منهم لغة قريش، فرخص لهم أن يقرؤا بلغتهم، فلما توطدت لغة قريش وسهلت على ألسنة الناس جميعاً، اقتضت مصلحة الوفاق أن يجتمع الناس على لغة قريش التي ابتدأ بها نزول القرآن.

قال أبو جعفر الطحاوي رحمه الله (ت: ٣٢١هـ)[1] : «كانت هذه السبعة للناس في هذه الحروف في عجزهم عن أخذ القرآن على غيرها مما لا يقدرون عليه لما قد تقدَّم ذكرنا له في هذا الباب، وكانوا على ذلك حتى كثر من يكتب منهم، وحتى عادت لغاتهم إلى لسان رسول الله ﷺ، فقووا بذلك على تحفُّظ القرآن بألفاظه التي نزل بها، فلم يسعهم حينئذ أن يقرؤوه بخلافها، وبان بما ذكرنا أن **تلك السبعة الأحرف، إنما كانت في وقت خاص لضرورة دعت إلى**

---

(١) شرح مشكل الآثار (٨/١٢٥).

ذلك، ثم ارتفعت تلك الضرورة، فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن إلى حرف واحد».

فالجمع لعثمان رضي الله عنه والكتابة لزيد بن ثابت رضي الله عنه، وسُمي هذا المصحف الإمام بالمصحف العثماني لأنه بأمر عثمان رضي الله عنه، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1] : «نُسبت إلى عثمان رضي الله عنه لأنها بأمره وإشارته، ثم قُرئت على الصحابة بين يدي عثمان رضي الله عنه، ثم نفذت إلى الآفاق».

وأما عن سبب اختيار الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم لزيد ابن ثابت رضي الله عنه لجمع القرآن فأسبابه كثيرة واضحة، قال العلامة أبو الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله (ت: ٦٤٣هـ)[2] : «لأنه كتب الوحي لرسول الله ﷺ، وجمع القرآن على عهده، وكانت قراءته على العرضة الأخيرة التي عرضها رسول الله ﷺ على جبريل، فلهذا المعنى اختاره أبو بكر وعمر رضي الله عنهما لذلك، واقتدى فيه عثمان رضي الله عنه بهما».

والأمر الآخر هو إقرار عامة الصحابة لزيد بن ثابت رضي الله عنه أنه أكتب الصحابة للقرآن، فعن مصعب بن سعد رضي الله عنه قال: قام عثمان بن عفان رضي الله عنه فخطب الناس، فلما فرغ،

---

(١) فضائل القرآن ص ٨٩.

(٢) الوسيلة إلى كشف العقيلة ص ٦٠.

قال: من أكتب الناس؟ قالوا: كاتب رسول الله ﷺ: زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: فأي الناس أعرب؟ قالوا: سعيد بن العاص رضي الله عنه، قال عثمان رضي الله عنه: فليُمْل سعيد، وليكتب زيد مصاحف ففرَّقها في الناس، فسمعت بعض أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: قد أحسن[1].

ومن أسباب اختيار زيد بن ثابت رضي الله عنه هو وفور عقله، فقد قال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه مبيناً سبب اختياره له[2] : «إنك رجل شاب عاقل لا نتَّهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتَّبع القرآن فاجمعه».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله[3] : «ذكر له أربع صفات مقتضية خصوصيته بذلك: كونه **شاباً** فيكون أنشط لما يطلب منه؛ وكونه **عاقلاً** فيكون أوعى له، وكونه **لا يُتهم** فتركن النفس إليه، وكونه **كان يكتب الوحي** فيكون أكثر ممارسة له، وهذه الصفات التي اجتمعت له قد توجد في غيره لكن مفرقة».

وقد شقّ على ابن مسعود رضي الله عنه عدم اختياره لنسخ

---

(١) رواه ابن أبي داود في المصاحف (١/٢٠٩ - رقم ٨٣)، وقال الحافظ ابن كثير في فضائل القرآن ص ٨٤: «إسناد صحيح».

(٢) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب جمع القرآن (ص - ٨٩٤ - رقم ٤٩٨٦).

(٣) فتح الباري (٩/١٣).

وجمع المصحف حتى قال: «يا معشر المسلمين أُعزل عن نسخ كتابة المصاحف ويتولاها رجل والله لقد أسلمت وأنه لفي صلب رجل كافر؟ يريد زيد بن ثابت رضي الله عنه[1] . وقال أيضاً: «لقد أخذت من فَيْ رسول الله ﷺ سبعين سورة وإن زيد بن ثابت رضي الله عنه يلعب مع الصبيان[2] .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله[3] : «والعذر لعثمان رضي الله عنه في ذلك أنه فعله بالمدينة وعبدالله بالكوفة، ولم يؤخر ما عزم عليه من ذلك إلى أن يرسل إليه ويحضر، وأيضاً فإن عثمان رضي الله عنه إنما أراد نسخ الصحف التي كانت جمعت في عهد أبي بكر رضي الله عنه، وأن يجعلها مصحفاً واحداً، وكان الذي نسخ ذلك في عهد أبي بكر رضي الله عنه هو زيد بن ثابت رضي الله عنه كما تقدَّم لكونه كان كاتب الوحي، فكانت له في ذلك أولية ليست لغيره».

* * *

---

(١) رواه الترمذي كتاب التفسير باب ومن سورة التوبة (ص ٧٠١ – رقم ٣١٠٤).

(٢) رواه ابن أبي داود في المصاحف (١/١٨٣ – ٥٠).

(٣) فتح الباري (١٩/٩).

الفرق بين جمع أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما

أبو بكر وعمر رضي الله عنهما سبقا عثمان رضي الله عنه إلى جمع القرآن، والسبب الباعث لجمع الصدّيق رضي الله عنه خشية ضياعه لموت القُرّاء، بينما السبب في الجمع العثماني هو وقوع الاختلاف في قراءة القرآن، فلذلك جمعهم عثمان رضي الله عنه على حرف واحد وهو حرف قريش، فهذا هو الفرق الثالث.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1] : «فإن الشيخين سبقاه إلى حفظ القرآن أن يذهب منه شيء، وهو جمع الناس على قراءة واحدة لئلا يختلفوا في القرآن، ووافقه على ذلك جميع الصحابة، وإنما روي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه شيء من التَّغضُّب بسبب أنه لم يكن ممن كتب المصاحف، وأمر أصحابه بغلِّ مصاحفهم لما أمر عثمان رضي الله عنه بحرق ما عدا المصحف الإمام، ثم رجع ابن مسعود رضي الله عنه إلى الوفاق».

(١) فضائل القرآن ص ٦٧ – ٦٨.

وقال أبو شامة المقدسي رحمه الله (ت: ٦٦٥هـ)[1] : «وكأن أبا بكر رضي الله عنه كان غرضه أن يجمع القرآن مكتوباً مجتمعاً غير مفرّق على اللفظ الذي أملاه رسول الله ﷺ على كتبة الوحي ليعلم ذلك، ولم يكل ذلك إلى حفظ من حفظه خشية فنائهم بالقتل، ولاختلاف لغاتهم في حفظهم على ما كان أُبيح لهم من قراءته على سبعة أحرف؛ فلما وُلّي عثمان رضي الله عنه وكثر المسلمون وانتشروا في البلاد، وخيف عليهم الفساد من اختلافهم في قراءاتهم لاختلاف لغاتهم حملهم عثمان رضي الله عنه على ذلك اللفظ الذي جمعه زيد في زمن أبي بكر رضي الله عنه، وبقي ما عداه ليجمع الناس على قراءة القرآن على وفق ما نزل على محمد ﷺ، ولا يكثر فيه التصرف، فيتفاحش تغيره، وتنمحق ألفاظه المنزلة».

ثم قال رحمه الله[2] : «فقد اتضح بما ذكرناه معنى ما فعله كل واحد من الإمامين أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما، وتبين أن قصد كل واحد منهما غير قصد الآخر، فأبو بكر رضي الله عنه قصد جمعه في مكان واحد، ذخراً للإسلام يرجع إليه إن اصطلم، والعياذ بالله، قراؤه، وعثمان رضي الله عنه قصد أن يقتصر الناس على تلاوته على اللفظ الذي كُتب بأمر النبي ﷺ، ولا يتعدوه إلى غيره من القراءات

(١) المرشد الوجيز ص ٧٠، بتصرف يسير جداً.

(٢) المرشد الوجيز ص ٧١.

التي كانت مباحة لهم، المنافية لخط المصحف من الزيادة والنقصان وإبدال الألفاظ».

وقال الحافظ ابن عبدالبر رحمه الله (ت: ٤٦٣ هـ)[١] : «ليس بأيدي الناس من الحروف السبعة التي نزل القرآن عليها إلا حرف واحد، وهو صورة مصحف عثمان رضي الله عنه».

* * *

---

(١) التمهيد (٨/٢٩٦).

الجمع العلوي

جمع أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما معلوم مشهور ثابت بالأسانيد الصحيحة، المتوارث بالإجماع طبقة بعد طبقة من لدن الصحابة رضي الله عنهم إلى يومنا هذا.

فالمصحف الذي بأيدي المسلمين في أقطار الأرض هو المصحف العثماني الذي بعث به الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى الأمصار، ولا يُعرف جمع لمن بعدهما أبداً، لعدم وجود مقتضى ذلك، وحفظ الله للقرآن باستعماله للصحابة رضي الله عنهم في ذلك.

وأما ما رواه محمد بن سيرين رحمه الله أنه قال: لمَّا توفي النبي ﷺ أقسم عليّ رضي الله عنه أن لا يرتدي برداء إلا لجمعة حتى يجمع القرآن في مصحف ففعل، فأرسل إليه أبو بكر رضي الله عنه بعد أيام، أكرهت إمارتي يا أبا الحسن؟ قال: لا والله، إلا أني أقسمت أن لا أرتدي برداء إلا لجمعة، فبايعه ثم رجع.

فهذا الأثر ضعيف الإسناد منكر المتن، قال الحافظ أبو بكر ابن أبي داود رحمه الله[1] «لم يذكر المصحف أحد إلَّا أشعث، وهو ليِّن

(١) المصاحف (١/١٦٩ – رقم ٣١).

الحديث، وإنما رووا: حتى أجمع القرآن: يعني أتمّ حفظه، فإنه يقال للذي يحفظ القرآن قد جمع القرآن».

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله [1]: «إسناده ضعيف لانقطاعه، وعلى تقدير أن يكون محفوظاً فمراده بجمعه حفظه في صدره».

ومن المرجحات على عدم جمع علي رضي الله عنه المصحف هو عدم وجود مقتضى ذلك، فأبو بكر رضي الله عنه جمعه لما استحرّ القتل في القُرّاء، وعثمان رضي الله عنه جمعه على حرف واحد لما اختلف المسلمون في قراءة القرآن بأحرفه السبعة.

وقد جاء عن علي رضي الله عنه ما يدل على اكتفاءه بجمع عثمان رضي الله عنه، حيث قال رضي الله عنه في المصاحف: «لو لم يصنعه عثمان رضي الله عنه لصنعته»[2] .

وهذا عام لجمعه الناس على حرف واحد في مصحف واحد، ولأن حرق المصاحف فرع عن جمع الناس على مصحف واحد بحرف واحد، وهو المصحف الإمام.

قال مصعب بن سعد بن أبي وقاص: «أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان رضي الله عنه المصاحف، فأعجبهم ذلك، لم ينكر ذلك منهم أحد»[3] . فهذا إجماع معلوم متيقن.

---

(١) المصاحف (١/ ١٧٠).

(٢) المصاحف (١/ ١٧٧).

(٣) رواه ابن أبي داود في المصاحف (١/ ١٧٨ - رقم ١٤١). قال الحافظ ابن كثير: «إسناد صحيح». فضائل القرآن ص ٧٨.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1] : «حرّقها لئلا يكون فيها شيء يخالف المصاحف الأئمة التي نفذها عثمان رضي الله عنه إلى الآفاق، مصحفاً إلى مكة، ومصحفاً إلى البصرة، وآخر إلى الكوفة، وآخر إلى الشام، وآخر إلى اليمن، وآخر إلى البحرين؛ وترك عند أهل المدينة مصحفاً».

وقال الحارث المحاسبي[2] : «فإن هذا من فضائله وعلمه، فإنه أصلح ولَمَّ الشعث، وكان ذلك واجباً عليه، ولو تركه لعصى لما فيه من التضييع وحاشاه من ذلك».

على كل حال علي رضي الله عنه لم يجمع القرآن، ولو فعل لاشتهر ذلك عنه اشتهاراً واضحاً، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[3]: «فإن علياً رضي الله عنه لم يُنقل عنه مصحف – على ما قيل – ولا غير ذلك، ولكن قد توجد مصاحف على الوضع العثماني، يقال: إنها بخط علي رضي الله عنه، وفي ذلك نظر، فإن في بعضها [كتبه عليه بن (أبو) طالب]، وهذا لحن من الكلام، وعلي رضي الله عنه من أبعد الناس عن ذلك، فإنه كما هو المشهور عنه هو أول من وضع علم النحو، فيما رواه عنه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي، وإنه قسَّم الكلام إلى اسم وفعل وحرف، وذكر أشياء أُخر تمَّمها أبو

---

(١) فضائل القرآن ص ٧٧.

(٢) فهم السنن بواسطة البرهان في علوم القرآن ص ١٦٧.

(٣) فضائل القرآن ص ٨٨ – ٨٩.

الأسود بعده، ثم أخذ الناس عن أبي الأسود فوسَّعُوه ووضحَّوه، وصار علماً مستقلاً».

فالحاصل أنه انتفى بجمع عثمان رضي الله عنه أي حاجة إلى جمع جديد، فالقرآن حُفظ في مصحف واحد على حرف قريش بمشاورة عثمان للصحابة جميعاً رضي الله عنهم، وبمباركة علي ابن أبي طالب رضي الله عنه نفسه، فعن سويد بن غفلة قال: قال علي رضي الله عنه: لا تقولوا في عثمان إلا خيراً، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا[1] .

* * *

(١) رواه ابن أبي داود في المصاحف (١/٢٠٦)، قال الحافلظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (٩/١٨): «إسناد صحيح».

جمع النَّظم

ترتيب الآيات في السور، وترتيب كل أو جُلّ السور كان حاصلاً في عهد النبي ﷺ، قال الخطابي رحمه الله (ت: ٣٨٨هـ)[1] : «إن القرآن كان مجموعاً في صدور الرجال أيام حياة رسول الله ﷺ ومؤلَّفاً هذا التأليف الذي نشاهده ونقرؤه، فلم يقع فيه تقديم ولا تأخير ولا زيادة ولا نقصان إلا سورة براءة كانت من آخر ما نزل من القرآن لم يُبيّن لهم رسول الله ﷺ موضعها من التأليف حتى خرج، فقرنها الصحابة بالأنفال، وبيان ذلك في خبر ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت لعثمان رضي الله عنه: ما حملكم على أن عمدتم إلى براءة وهي من المئين وإلى الأنفال وهي من المثاني، فقرنتم بينهما ولم تجعلوا بينهما سطراً فيه بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطوال؟ فقال عثمان رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ كان تنزل عليه السُّورة التي يُذكر فيها كذا وكذا، فإذا نزلت عليه الآيات، يقول: ضعوا هذه الآيات في موضع كذا وكذا، وكانت الأنفال أول ما أُنزل عليه بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها تشبه قصتها، فقُبض رسول الله ﷺ ولم يبين

---

(١) أعلام الحديث (٣/١٨٥٢ – ١٨٥٤).

أمرها، فظننت أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، وجعلتُهما في السبع الطوال.

وهذا يدلك على أن الجمع كان حاصلاً والتأليف أيام حياة رسول الله ﷺ كان موجوداً، ومما يؤكد ذلك ما رُوي عن رسول الله ﷺ أنه كان يقرأ في صلاته سورة الأعراف، وقرأ سورة البقرة في صلاة الكسوف، ومعلوم أن نزولهما لم يكن جملة. وقوله ﷺ: «شيبتني هود وأخواتها»، **وهي متفرقة الآي في النزول، فدلَّ على أن الجمع قد سبق وفاته ﷺ وهو جمع النظم والتلاوة»**.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله معلقاً على حديث ابن عباس رضي الله عنهما في سؤال عثمان رضي الله عنه الذي استدل به الخطابي[1]: «فهذا يدل على أن ترتيب الآيات في كل سورة كان توقيفاً، ولما لم يفصح النبي ﷺ بأمر براءة أضافها عثمان إلى الأنفال اجتهاداً منه رضي الله عنه».

وقال أبو الحسين ابن فارس[2] : «جمع القرآن على ضربين: أحدهما تأليف السور كتقديم السبع الطوال وتعقيبها بالمئين، فهذا الضرب هو الذي تولته الصحابة، وأما الجمع الآخر، وهو جمع الآيات في السور فهو توقيفي تولاه النبي ﷺ».

---

(١) فتح الباري (٩/٤٢).

(٢) المسائل الخمس بواسطة البرهان في علوم القرآن ص ١٦٧.

وقال أبو شامة المقدسي رحمه الله (ت: ٦٦٥هـ)[١] : «إن تأليف القرآن على ما هو عليه الآن كان في زمن النبي ﷺ بإذنه وأمره؛ وأن جمعه في الصحف خشية دثوره بقتل قرائه كان في زمن أبي بكر رضي الله عنه؛ وأن نسخه في مصاحف حملاً للناس على اللفظ المكتوب حين نزوله بإملاء المنزل إليه ﷺ ومنعاً من قراءة كل لفظ يخالفه كان في زمن عثمان رضي الله عنه».

وقال أبو شامة أيضاً رحمه الله[٢] : «وكان النبي ﷺ كلما نزل من القرآن شيء أمر بكتابته ويقول في مفرقات الآيات: «**ضعوا هذه في سورة كذا**»، وكان يعرضه على جبريل في شهر رمضان في كل عام مرة، وعرضه عليه عام وفاته مرتين، وكذلك كان يعرض جبريل على رسول الله ﷺ كل عام مرة، وعرض عليه عام وفاته مرتين».

وبعض العلماء يرى أن ترتيب السور منه ما هو توقيفي، ومنه ما هو باجتهاد من الصحابة رضي الله عنهم، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[٣] : «الظاهر أن ترتيب السور فيه، منه ما هو راجع إلى رأي عثمان رضي الله عنه، وذلك ظاهر في سؤال ابن عباس رضي الله عنهما له عن ترك البسملة في أول براءة، وذكر الأنفال من الطُّوَال، والحديث في الترمذي وغيره بإسناد جيد قوي».

---

(١) المرشد الوجيز ص ٧٠.

(٢) المرشد الوجيز ص ٣٣.

(٣) فضائل القرآن ص ١٤٣.

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله[1] : «ترتيب سور المصحف على هذا الترتيب ليس توقيفاً على الصحيح، بل هو أمر اجتهد فيه عثمان رضي الله عنه مع الصحابة».

وقال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله[2] : «الحق أن الترتيب بين السور منه توقيفي، ومنه اجتهادي».

وهذا لا يتعارض مع من ذكر أن ترتيب سور القرآن توقيفي، لأن الاجتهاد نادر كسورتي الأنفال وبراءة، والحكم للأغلب.

قال سليمان بن بلال: سمعت ربيعة بن أبي عبدالرحمن يُسأل: لم قُدمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة، وإنما نزلتا بالمدينة؟

فقال: قُدِّمتا، وأُلِّف القرآن على علم ممن أَلَّفه، ومن كان معه فيه، واجتماعهم على علمهم بذلك، فهذا مما يُنتهى إليه، ولا يُسأل عنه[3].

واجتهاد الصحابة أخذ حجيته من إجماعهم، وإجماعهم حجة قاطعة فحينئذ لا يجوز لأحد أن يخرج عن إجماعهم في ترتيب سور المصحف.

---

(١) فتح الباري (٦٩/٧).

(٢) الشرح الممتع (١١٣/٣).

(٣) تاريخ المدينة (١٠١٦/٣).

قال صالح بن الإمام أحمد بن حنبل سألته - يعني والده - عن سورة الأنفال وسورة التوبة: هل يجوز للرجل أن يفصل بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم؟

فقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: ينتهي في القرآن إلى ما أجمع عليه أصحاب محمد ﷺ، لا يزاد فيه ولا ينقص[١].

وأما قول العراقي لعائشة رضي الله عنها عن القرآن أنه يُقرأ غير مؤلف[٢]، فهذا قبل أن يُلزم عثمان رضي الله عنه الأمصار الصفة التي أجمع عليها الصحابة رضي الله عنهم.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[٣]: «أخبرها - يعني العراقي - أنه يقرأ غير مؤلّف أي مرتّب السور، وكان هذا قبل أن يبعث أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه إلى الآفاق بالمصاحف الأئمة المؤلفة على هذا الترتيب المشهور اليوم، وقبل الإلزام به، والله أعلم».

وتتبع الحافظ ابن حجر الحافظ ابن كثير رحمهما الله في تقريره، وقال[٤]: «كذا قال، وفيه نظر، فإن يوسف بن ماهك لم

---

(١) مسائل الإمام أحمد رواية صالح (١/٢٧٤ - رقم ٢١٦).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن باب تأليف القرآن (ص ٨٩٥ - رقم ٤٩٩٣).

(٣) فضائل القرآن ص ١٤٢.

(٤) فتح الباري (٩/٤٠).

يدرك زمان أرسل عثمان رضي الله عنه المصاحف إلى الآفاق، فقد ذكر المزي أن روايته عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه مرسلة، وأبيّ عاش بعد إرسال المصاحف على الصحيح، وقد صرَّح يوسف في هذا الحديث أنه كان عند عائشة رضي الله عنها حين سألها هذا العراقي، **والذي يظهر لي أن هذا العراقي كان ممن يأخذ بقراءة ابن مسعود رضي الله عنه، وكان ابن مسعود رضي الله عنهما لما حضر مصحف عثمان رضي الله عنه إلى الكوفة فلم يوافق على الرجوع عن قراءته**، ولا على إعدام مصحفه كما سيأتي بيانه بعد الباب الذي يلي هذا، فكان تأليف مصحفه مغايراً لتأليف مصحف عثمان رضي الله عنه».

وأما ما روي من اختلاف مصحف أبيّ وعلي وعبدالله رضي الله عنهم، فقد قال ابن الملقن رحمه الله (ت: ٨٠٤هـ)[١] : «إنما كان قبل العرض الأخير، وأنه عليه الصلاة والسلام رتَّب لهم تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك».

على كل ترتيب الآيات في السور، وترتيب السور كان مؤلفاً بأمر النبي ﷺ، ويدل لذلك حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال[٢] : «كنا عند رسول الله ﷺ نُؤلِّف القرآن من الرِّقاع».

---

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢٤/٤٤).

(٢) رواه الترمذي كتاب المناقب باب فضل الشام واليمن (ص ٨٨٨ - رقم ٣٩٥٤)، وقال: حسن غريب.

قال الحافظ البيهقي رحمه الله (ت: ٤٥٨هـ)[1] : «وهذا يشبه أن يكون أراد به تأليف ما نزل من الكتاب: الآيات المتفرِّقة في سورها، وجمعها فيها بإشارة النبي ﷺ، ثم كانت مثبتة في الصدور، مكتوبة في الرقاع، واللخاف، والعسب، فجمعها منها في صحف، بإشارة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم نُسخ ما جمعه في الصحف، في مصاحف بإشارة عثمان بن عفان رضي الله عنهما على ما رسم المصطفى ﷺ».

* * *

---

(١) دلائل النبوة (١٤٧/٧ – ١٤٨).



الباب الخامس:

القصص في القرآن



الفصل الأول

العـــبرة
من قصص القرآن



قصص القرآن

قصص القرآن أنواع، فبعض القصص تكرر ذكرها ، وأبدى الله فيها وأعاد، وذلك لحكم كثيرة، منها ما أشار إليه الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله حيث قال[1] : «إن وفود العرب كانت ترد على رسول الله ﷺ فيتعلَّم كل واحد منهم ما يتيسر له، وكان رسول الله ﷺ يبعث السور المختلفة إلى القبائل المتفرقة، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثناة ومكررة لوقعت قصة نوح مثلاً إلى قوم، وقصة موسى إلى قوم، فأراد الله سبحانه وتعالى الحكيم إظهار القصص وتشعبها في القبائل والبقاع؛ موعظة لخلقه، ومعجزة لرسوله ﷺ.

الثاني: أن النفوس شديدة النفرة عن المواعظ والنصائح، فأراد الله عز وجل تكرير قصص الأنبياء مع أممهم وأمثال ذلك ليترسخ فيها بسبب التكرار والترداد».

ومن الأسرار في تكرار بعض القصص في القرآن هو ما اشتملت عليه من المعاني العظيمة، فكلما تكرر ذكرها تجدد مع هذا التكرار من الموعظة أعظم من ورودها مرة واحدة.

---

(١) رموز الكنوز (٦/ ٥٤٠).

وهناك معنى رابع أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهو ما يقع بسبب التكرار بيان في كل موضع نوعاً من الاعتبار والاستدلال غير النوع الآخر [(1)] .

وقصص الأنبياء المذكورة في القرآن تتفاضل في معانيها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(2)] : «ومن المعلوم أن قصة موسى وما جرى له مع فرعون وغيره أعظم وأشرف من قصة يوسف بكثير، ولهذا هي أعظم قصص الأنبياء التي تُذكر في القرآن، ثناها الله أكثر من غيرها، وبسطها وطوّلها أكثر من غيرها، بل قصص سائر الأنبياء - كنوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم من المرسلين - أعظم من قصة يوسف، ولهذا ثنى الله تلك القصص في القرآن ولم يثن قصة يوسف، وذلك لأن الذين عادوا يوسف لم يعادوه على الدين بل عادوه عداوة دنيوية، وحسدوه على محبة أبيه له وظلموه فصبر واتقى الله، وابتلي صلوات الله عليه بمن ظلمه وبمن دعاه إلى الفاحشة فصبر واتقى الله في هذا وفي هذا، وابتلي أيضاً بالملك فابتلي بالسراء والضراء فصبر واتقى الله في هذا وهذا، فكانت قصته من أحسن القصص، وهي أحسن من القصص التي لم تقص في القرآن، فإن الناس قد يظلمون ويحسدون ويدعون إلى الفاحشة ويبتلون بالملك، لكن ليس من لم يُذكر في القرآن ممن اتقى الله

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٦٧ - ١٦٩)، و(١٦/ ٥٣٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢١ - ٢٢).

وصبر مثل يوسف، ولا فيهم من كانت عاقبته أحسن العواقب في الدنيا والآخرة مثل يوسف».

وقال أيضاً[1] : «قصصهم - أولو العزم من الرسل - أحسن من قصة يوسف، ولهذا ثناها الله في القرآن، لاسيما قصة موسى، قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: أحسن أحاديث الأنبياء حديث تكليم الله لموسى».

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله (ت: ١٣٧٦هـ) في القصص القرآني[2] : «قد قصَّ الله علينا في كتابه قصصاً طيبة من أخبار أنبيائه، ووصفها بأنها أحسن القصص، وهذا الوصف من الله العظيم يدل على أنها **أصدقها وأبلغها وأنفعها للعباد**، فمن أهم منافع هذه القصص أن بها يتم ويكمل الإيمان بالأنبياء صلى الله عليهم وسلم فإننا وإن كنا مؤمنين بجميع الأنبياء على وجه العموم والإجمال، فالإيمان التفصيلي المستفاد من قصصهم، وما وصفهم الله به من الصدق الكامل والأوصاف الكاملة التي هي أعلى الأوصاف، وما لهم من الفضل والفواضل والإحسان على جميع نوع الإنسان، بل وصل إحسانهم إلى جميع الحيوانات بما أبدوه للمكلفين في الاعتناء بها والقيام بحقها، فهذا الإيمان التفصيلي

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٢).

(٢) تيسير اللطيف المنان ص ١٣٥ - ١٣٦.

بالأنبياء يصل به العبد إلى الإيمان الكامل وهو من مواد زيادة الإيمان.

فمن ذلك أن في قصصهم تقرير الإيمان بالله وتوحيده وإخلاص العمل له والإيمان باليوم الآخر وبيان حسن التوحيد ووجوبه، وقبح الشرك وأنه سبب الهلاك في الدنيا والآخرة.

وفي قصصهم أيضاً عبرة للمؤمنين يقتدون بهم في جميع مقامات الدين، في مقام التوحيد والقيام بالعبودية، وفي مقامات الدعوة والصبر والثبات عند جميع النوائب المقلقة، ومقابلة ذلك بالطمأنينة والسكون والثبات التام، وفي مقام الصدق والإخلاص لله في جميع الحركات والسكنات واحتساب الأجر والثواب من الله تعالى، لا يطلبون من الخلق أجراً ولا جزاءً ولا شكوراً، إلا الأمور النافعة للخلق.

وفيها أيضاً عبرة لاتفاقهم على دين واحد وأصول واحدة ودعوة إلى كل خلق جميل وعمل صالح وإصلاح، وزجرهم عن كل ما يضاد ذلك.

وفيها أيضاً من الفوائد الفقهية والأحكام الشرعية والأسرار الحكمية شيء عظيم لا غنى لكل طالب علم عنها.

وفيها أيضاً من الوعظ والتذكير والترغيب والترهيب والفرج بعد الشدة وتيسير الأمور بعد تعسرها وحسن العواقب المشاهدة في

هذه الدار، وحسن الثناء والمحبة في قلوب الخلق ما فيه زاد للمتقين وسرور للعابدين وسلوة للمحزونين، ومواعظ للمؤمنين، فليس المقصود من قصصهم أن تكون فقط سمراً وإنما الغرض الأعظم منها أن تكون تذكيراً وعبراً».

* * *

العبرة من قصص النبيين

ما قصَّ الله علينا في كتابه ليس أخباراً محضة يتسامر بها الناس دون أخذ العظة والعبرة من شأنهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]. وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩].

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله[١] : «هذا تعريض بغفلة الذين طلبوا من النبي ﷺ بيان قصة أهل الكهف لاستعلام ما فيها من العجب، بأنهم سألوا عن عجيب وكفروا بما هو أعجب، وهو انقراض العالم، فإنهم كانوا يعرضون عن ذكر فناء العالم ويقولون: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، أي إن الحياة إلا حياتنا الدّنيا لا حياة الآخرة وأن الدهر يهلكنا وهو باق.

وفيه لفت لعقول السائلين عن الاشتغال بعجائب القصص إلى

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/٢٥٩).

أن الأولى لهم الاتعاظ بما فيها من العبر والأسباب وآثارها، ولذلك ابتدأ ذكر أحوالهم بقوله: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ١٠]، فأعلم الناس بثبات إيمانهم بالله ورجائهم فيه، وبقوله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: ١٣] الآيات... الدالِّ على أنهم أبطلوا الشرك وسفَّهوا أهله تعريضاً بأن حق السامعين أن يقتدوا بهداهم.

والخطاب للنبي ﷺ والمراد: قومه الذين سألوا عن القصة، وأهل الكتاب الذين أغروهم بالسؤال عنها وتطلب بيانها».

فهذا آدم عليه السلام قصَّ الله علينا خبره في القرآن في وسوسة الشيطان له حتى أخرجه من الجنة، فقال الله مخاطباً ذرية آدم: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

كذلك ذكر الله قصة آدم وصفة توبته والكلمات التي قالها فتاب الله عليه بسببها، قال تعالى عن آدم وحواء: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله [١] : «وهذا الخبر الذي أخبر الله عن آدم – من قيله الذي لقَّاه الله إياه، فقاله تائباً إليه من خطيئته

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١/٥٨٦ – ٥٨٧).

- تعريف منه جلَّ ذكره جميع المخاطبين بكتابه كيفية التوبة إليه من الذنوب».

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله (ت: ١٣٧٦هـ) معلقاً على فوائد قصة هود الذي بُعث إلى قوم عاد بالأحقاف من حضر موت[1]: «إن الله بحكمته يقص علينا نبأ الأمم المجاورين لنا في جزيرة العرب وما حولها، لأن القرآن يذكر أعلى الطرق في التذكير، والله تعالى صرف فيه التذكيرات تصريفاً نافعاً، ولا ريب أن الأقطار النائية عنا في مشارق الأرض ومغاربها قد بعث الله إليهم رسلاً، ولهم معهم نظير ما للمذكورين من إجابة ورد وإكرام وعقوبة، وما من أمة إلا بعث الله فيهم رسولاً، ولكن نفعنا بتذكيرنا بما حولنا وما نتناقله جيلاً بعد جيل، بل ما نشاهد آثارهم ونمر بديارهم كل وقت ونفهم لغاتهم، وطبائعهم أقرب إلى طبائعنا، لا ريب أن نفع هذا عظيم، وأنه أولى من تذكيرنا بأمم لم نسمع لهم بذكر ولا خبر، ولا نعرف لغتهم، ولا تتصل إلينا أخبارهم بما يطابق ما يخبرنا الله به. فيؤخذ من هذا أن **تذكير الناس بما هو أقرب إلى عقولهم وأنسب لأحوالهم وأدخل في مداركهم وأنفع لهم** من غيره أولى من التذكيرات بطرق أخرى، وإن كانت حقاً، لكن الحق يتفاوت، والمذكر والمعلم إذا سلك هذا الطريق واجتهد في إيصال العلم

---

(١) تيسير اللطيف المنان ص ١٥٢ - ١٥٣.

والخير إلى الناس بالوسائل التي يفهمونها، ولا ينفرون منها أو تكون أقرب لإقامة الحجة عليهم نفع وانتفع، وأشار الباري إلى هذا في آخر قصة عاد، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، أي ليكون أقرب لحصول الفائدة».

وتكرار القصص في القرآن أبلغ في الفصاحة، وأعظم في المعجزة، قال أبو الحسن السخاوي رحمه الله (ت: ٦٤٣هـ) (١): «فإن قيل: فأي فائدة في تكرير القصص فيه والأنباء؟ قيل: لذلك فوائد: منها أن يقول المعاند والجاحد: كيف أعارض مثلاً قصة موسى، وقد سردتها وأوردتها على أفصح القول وأحسنه، وسُبقتُ إلى ذلك، فلم يبق لي طريق إلى المعارضة، فيقال له: ها هي قد جاءت في القرآن العزيز على أنحاء ومبان، فأت بها أنت ولو على بناء واحد.

ومنها أنهم لما عجزوا عن الإتيان بسورة مثله، أتاهم بسور مماثلة في المعنى والنظم والقصة، وذلك أزكى لقلوبهم.

ومنها أن كل واحد لا يقدر على كل سورة، فجاءت هذه السورة فيها هذه القصة على قدر قوى البشر، فمن أطاق هذه حفظها، ومن لم يطق حفظ الأخرى، لينال الضعيف ما نال القوي.

---

(١) جمال القراء وكمال الإقراء (١/٤٦).

ومنها أن إعادة هذه القصة المتحدة، على الأنحاء المختلفة، مع التماثل في حسن النظم، أبلغ في الفصاحة، وأعظم في المعجزة، فكانت تلك المعاني كعرائس تُجْلَى في ملابس مختلفة رائقة، إذا رأيت الواحدة قلت هذه، فإذا رأيت الأخرى قلت بل هذه، فإذا جاءت الأخرى قلت: لا، بل هذه، حتى لا تفضّل واحدة على أخرى، ولا يقدر بليغ ولا ناقد في الفصاحة على ذلك أبداً».

وقال العلامة محمد جمال الدين القاسمي رحمه الله في فوائد تكرار بعض قصص القرآن[1] : «إن قصص القرآن جميعها مملوءة بالحكم كهذه القصة، **وفي كل واحدة منها ما ليس في الأخرى كأنها ثمرات مختلف ألوانها!**».

والآن بعد ذكر هذه الفوائد على سبيل الإجمال، بيانها على سبيل التفصيل يزيد بيانها بياناً وتذكيراً. فمن أهم فوائد القصص القرآني:

* * *

(١) محاسن التأويل (٩/ ٣٦٣٠).

(١) تسلية النبي ﷺ

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام: ١٠ - ١١].

قال أبو محمد ابن عطية الأندلسي رحمه الله (ت: ٥٤٦هـ)[١] : «وهذه تسلية للنبي ﷺ بالأسوة في الرسل، وتقوية لنفسه على محاجة المشركين وأخبار تتضمن وعيد مكذبيه والمستهزئين».

وكذلك لما أوذي النبي ﷺ بمكة والطائف وكذّبه قومه ذكر الله له ما جرى لمن قبله من المرسلين تسليةً وتخفيفاً عليه وبياناً لسُنَّة الله في رسله، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤ - ٣٥].

---

(١) المحرر الوجيز (١١/٦).

قال ابن عطية الأندلسي رحمه الله (ت: ٥٤٦هـ)[1] : «هذه الآية تضمنت عرض الأسوة التي ينبغي الاقتداء بها على محمد رسول الله ﷺ وترجيته أن يأتيه مثل ما أتاهم من النصر إذا امتثل ما امتثلوه من الصبر، قال الضحّاك وابن جريج.

عزى الله بهذه الآية نبيه، وروي عن ابن عامر أنه قرأ ﴿وَأُوذُواْ﴾ بغير واو بعد الهمزة، ثم قوى ذلك الرجاء بقوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾، أي لا راد لأمره، وكلماته السابقات بما يكون، ولا مكذب لما أخبر به.

فكان المعنى فاصبر كما صبروا، وانتظر ما يأتي، وثق بهذا الإخبار فإنه لا مبدل له، فالقصد هنا هذا الخبر، وجاء اللفظ عاماً جميع كلمات الله السابقات. وأما كلام الله عز وجل في التوراة والإنجيل فمذهب ابن عباس رضي الله عنهما أنه لا مبدل لها، وإنما حرّفها اليهود بالتأويل لا ببدل حروف وألفاظ، وجوّز كثير من العلماء أن يكونوا بدّلوا الألفاظ لأنهم استحفظوها، وهو الأظهر، وأما القرآن فإن الله تضمن حفظه فلا يجوز فيه التبديل، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال في أولئك ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]، أي فيما أنزلناه، وقصصناه عليك ما يقضي هذا الذي أخبرناك به».

---

(١) المحرر الوجيز (٦/ ٤٢).

(٢) تأسي المؤمنين بالمرسلين

النبيون أسوة المؤمنين، والعلماء ورثة الأنبياء، تنزل بهم مقامات عظيمة، فجعل الله للمؤمنين الأسوة والقدوة في سير النبيين في مقامات الدعوة أو الابتلاء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (١): «وفي قصص هذه الأمور عبرة للمؤمنين بهم، فإنهم لا بد أن يبتلوا بما هو أكثر من ذلك، ولا ييأسوا إذا ابتلوا بذلك، ويعلمون أنه قد ابتلي به من هو خير منهم، وكانت العاقبة إلى خير، فليتيقن المرتاب، ويتوب المذنب ويقوى إيمان المؤمنين، فبها يصح الاتساء بالأنبياء، كما في قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي القرآن من قصص المرسلين التي فيها تسلية وتثبيت، ليتأسى بهم في الصبر على ما كذبوا وأوذوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤]، ولنا، لأنه أسوة في ذلك ما هو كثير في القرآن، ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/١٧٨ - ١٧٩).

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠].

وإذا كان الاتساء بهم مشروعاً في هذا وفي هذا فمن المشروع التوبة من الذنب، والثقة بوعد الله، وإن وقع في القلب ظن من الظنون وطلب مزيد الآيات لطمأنينة القلوب، كما هو المناسب للاتساء والاقتداء دون ما كان المتبوع معصوماً مطلقاً، فيقول التابع: أنا لست من جنسه، فإنه لا يذكر بذنب، فإذا أذنب استيأس من المتابعة والاقتداء، لما أتى به من الذنب الذي يفسد المتابعة على القول بالعصمة، بخلاف ما إذا قيل: إن ذلك مجبور بالتوبة، فإنه تصح معه المتابعة، كما قيل: أول من أذنب وأجرم ثم تاب وندم آدم أبو البشر، ومن أشبه أباه ما ظلم».

* * *

(٣) طلب مقاربة الكمال في تدرج الأحوال

ومن فوائد قصص الأنبياء الاستفادة من تكميل الله لأنبيائه وأوليائه في المقامات التي تدرجت به أحوالهم إلى أن كمّلهم الله واجتباهم واستعملهم في أكمل الطاعات وهو الدعوة إلى الله، وهكذا ينبغي على العبد أن يكمل نفسه، وينتقل بها إلى أعلى المقامات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١) : «فالعبد المؤمن إذا تاب وبدل الله سيئاته حسنات انقلب ما كان يضره من السيئات بسبب توبته حسنات ينفعه الله بها، فلم تبق الذنوب بعد التوبة مضرة له، بل كانت توبته منها من أنفع الأمور له، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية، فمن نسي القرآن ثم حفظه خير من حفظه الأول لم يضره النسيان، ومن مرض ثم صح وقوي لم يضره المرض العارض. والله تعالى يبتلي عبده المؤمن بما يتوب منه: ليحصل له بذلك من تكميل العبودية والتضرع، والخشوع لله والإنابة إليه، وكمال الحذر في المستقبل والاجتهاد في العبادة ما لم يحصل بدون التوبة كمن ذاق الجوع والعطش، والمرض والفقر والخوف، ثم ذاق الشبع والري والعافية والغنى والأمن، فإنه يحصل له من المحبة

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٥٥).

لذلك وحلاوته ولذته، والرغبة فيه وشكر نعمة الله عليه، والحذر أن يقع فيما حصل أولاً ما لم يحصل بدون ذلك، وقد بُسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع.

وينبغي أن يُعرف أن التوبة لا بد منها لكل مؤمن، ولا يكمل أحد ويحصل له كمال القرب من الله، ويزول عنه كل ما يكره إلا بها».

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله في فوائد قصة يوسف عليه السلام [(١)] : «إن العبرة للعبد في حال كمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر من الجرائم المتنوعة، ثم انتهى إلى التوبة النصوح، والاعتراف التام، والعفو التام عنهم من يوسف ومن أبيهم والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد بحق فالله أولى بذلك وهو خير الراحمين الغافرين، **ولهذا في أصح الأقوال إن الله جعلهم أنبياء لمحو ما سبق منهم**، وكأنه ما كان، ولقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [آل عمران: ٨٤]، وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، **ومما يؤيد هذا أن في رؤيا يوسف أنهم الكواكب التي فيها النور والهداية، وهي من صفات الأنبياء، فإن لم** يكونوا أنبياء فإنهم علماء عباد».

* * *

---

(١) تيسير اللطيف المنان ص ٢١٨.

(٤) الدلالة على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ

قال أبو الحسن السخاوي رحمه الله (ت: ٦٤١هـ) مبيناً ما تضمنته قصص القرآن من الدلالة على صدق نبوة محمد ﷺ[١] : «وأما كونها براهين قاطعة، فهو دليل على صدق النبي ﷺ، لأنه لم يكن من أهل هذا ولا قومه، ولا يعرف شيئاً منه».

وقال أيضاً[٢] : «وأما ما تضمنه القرآن العزيز من الإخبار عن المغيب، فليس ذلك مما تحداهم به، ولكنه دليل على صدق الرسول ﷺ في كونه أُمياً لا معرفة له، ولا يُحسن أن يقرأ، ولا وقف على شيء من أخبار الأمم السالفة، حتى إنه لا يقول الشعر، ولا ينظر في الكتب.

ثم إنه قد أتى بأخبار القرون الماضية والأمم الخالية، وبما كان من أول خلق الأرض والسماء إلى انقضاء الدنيا، وهم يعلمون ذلك من حاله ولا يشكّون فيه، **فهذه الحال دليل قاطع بصدقه ﷺ**».

---

(١) جمال القراء وكمال الإقراء (١/ ٤٧).

(٢) جمال القراء وكمال الإقراء (١/ ٤٤).

ومع هذه البينات زعم الكفار أن نبينا ﷺ مجنون، وهم يعلمون أنهم مبطلون في دعواهم، وإنما ذكروا ذلك دفعاً للحق في نحره، والعياذ بالله. ولذلك خاطبهم الله مبكتاً لهم وكاشفاً عن حقيقة ما تنطوي عنه بواطنهم من الإقرار بصحة الوحي المنزل على النبي ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله (ت: ٦٦١هـ)[١] : «المعنى: أن تقوموا لوجه الله خالصاً متفرقين، (مثنى وفرادى) اثنين اثنين، وواحداً واحداً، ثم تتفكروا في أمر محمد ﷺ وما جاء به، ويعرض كل واحد منكم محصول ما أداه فكره إليه على شريطة المناصحة وعزل الهوى، أو يراجع رشده إذا خلا بنفسه وأمعن النظر، فإنكم إن فعلتم ذلك هجم بكم الفكر الصالح على النظر الصحيح وأصبتم طريق الحق.

فإن قيل: لم أمرهم بالقيام مثنى وفرادى فقط؟

قلت: لغرض صحيح نعرفه عن استعداء العادات، وهو أن الجموع الوافرة والعصب المتكاثرة يوجب اضطراب آرائها واختلاف

---

(١) رموز الكنوز (٦/٢٥٦).

أهوائها اختلاط القول، وتوقد ثائرة التعصب، وهذا أمر لا يجامعه الإنصاف غالباً وظاهراً.

وفي قوله تعالى: ﴿تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ إشعار بأن هذا الأمر العظيم الذي ينتظم في سلك المبعوث به سياسة الملك ورئاسة الدين، لا يتصدى لادعاء مثله إلا أحد رجلين، مجنون لا يبالي عند ظهور عجزه عن إثبات صحة ما ادعاه بالافتضاح، أو عاقل مؤيد بالعجز مصطفىً للنبوة، وإلا فما يحمل العاقل على مثل هذه الدعوى التي يبقى صاحبها بعرضة السخرية والاستهزاء إذا لم يثبت، وقد علمتم أن محمداً ﷺ ما به من جنة، بل علمتموه أرزن قريش حلماً، وأغزرهم مروءة، وآصلهم رأياً، وأصدقهم لساناً، وأجمعهم لمكارم الأخلاق».

وأما دعوى الكفار أن ما جاء به محمد ﷺ شعر، فهم أعلم من غيرهم بأن هذا الاعتراض من أبطل ما يكون، فهم أهل فصاحة وشعر، يعرفون أن الوحي الذي ينزل على نبينا محمد ﷺ ليس شعراً، لا من حيث النظم ولا حلاوة الألفاظ ورصف المعاني!!!

وهذا الوليد بن المغيرة مع شدة كفره ونفرته عن اتباع محمد ﷺ لما سمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، قال: ما هذا بقول بشر[1] .

---

(١) رموز الكنوز (٤/ ٨١).

فإذاً لماذا لم ينتهِ الكفار ولم يتناهوا عن وصف النبي ﷺ بأنه شاعر؟

قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله (ت: ٦٦١هـ)[1] : «لا جَرم أن ذلك كسبهم شعار الكذب، وسلبهم وصف الإنصاف، وجعلهم عند أنفسهم كذبة فجرة، لعلمهم بحاله.

ولذلك قال لهم الوليد بن المغيرة: لقد وضعت قوله على أقراء الشعر فما رأيته يلتئم بها، فقولوا فيه غير ذلك، فقالوا: قل أنت؟ فقال: إن هذا إلا سحر يؤثر، وإنما راموا بذلك ترويج باطلهم عند جاهل غِرٍّ، أو متجاهل ذي غُمر، وإلا فأين أسلوب القرآن من أساليب الشعر؟».

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله في فوائد القصص القرآني[2] : «ويذكر تعالى من أدلة رسالة محمد ﷺ الإخبار بوقائع الأنبياء المتقدمين وما جرى لهم، فيقول: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ [هود: ٤٩]، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]، وما أشبه هذا مما فيه التبيان لصحة رسالة محمد ﷺ حيث أخبر بهذه الغيوب، فتمام الإيمان بالغيب أن يؤمن العبد بجميع رسل الله».

(١) رموز الكنوز (٦/ ٣٦٠).

(٢) المواهب الربانية من الآيات القرآنية ص ١٤٢.

(٥) إلزام الحجة أهل الكتاب

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله (ت: ٣١٠هـ) في فوائد القصص في القرآن[١] : «ليتذكَّر منهم أولو الألباب، وخاصّاً أهل الكتاب بما ذكر من قَصص آدم وسائر القصص التي ذكرها معها وبعدها، مما علمه أهل الكتاب وجهلته الأمة الأُمية من مشركي عبدة الأوثان - بالاحتجاج عليهم - دون غيرهم من سائر أصناف الأمم الذين لا علم عندهم بذلك - لنبيه محمد ﷺ ، ليعلموا بإخباره إياهم بذلك أنه لله رسول مبعوث، وأن ما جاءهم به فمن عنده، إذ كان ما اقتصَّ عليهم من هذه القصص من مكنون علومهم، ومصون ما في كتبهم، وخفيِّ أمورهم، التي لم يكن يدَّعي معرفة علمها غيرهم، وغير من أخذ عنهم، وقرأ كتبهم.

وكان معلوماً من محمد ﷺ أنه لم يكن قط كاتباً، ولا لأسفارهم تالياً، ولا لأحد منهم مصاحباً ولا مجالساً، فيمكنهم أن يدَّعُوا أنه أخذ ذلك من كتبهم، أو عن بعضهم، فقال جل ذكره في تعديده عليهم ما هم فيه مقيمون من نعمه مع كفرهم به، وتركهم شكره عليها بما يجب له عليهم من طاعته: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى

(١) جامع البيان (١/٤٥٢ - ٤٥٣).

ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

وأوحى الله إلى نبينا ﷺ قصة المسيح عيسى ابن مريم وأمه، وما كان من اختلاف قومها في كفالتها، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله (ت: ٦٦١هـ)(١): «فإن قيل: معلوم قطعاً أنه لم يكن عندهم، فما الفائدة في الإخبار عن ذلك؟

قلت: إقامة الحجة على الكفار برسالة محمد ﷺ، لأن طريق العلم بالشيء، إما الرؤية أو السماع، وقد علموا قطعاً أن محمداً لم يكن من أهل الكتاب، ولا متشاغلاً بسماع العلم ولا دراسته، ولا كان حاضراً عند أسلافهم.

فإذا حدَّثهم بما لا يعلمه إلَّا الراسخون في العلم منهم، من أنباء أنبيائهم وقصص أسلافهم، ظهرت الحُجَّة عليهم بأنه بطريق الوحي».

وكذلك قصَّ الله على نبيه عليه السلام ما جرى لموسى عليه

---

(١) رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز (١/١٧٧).

السلام من المقامات العظيمة من تكليم الله له عند جبل الطور كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ [القصص: ٤٦]. قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله (ت: ١٣٧٦هـ) [1] : «إن المجريات التي جرت لموسى عليه الصلاة والسلام في هذه الأماكن، فقصصتها كما هي من غير زيادة ولا نقص، لا يخلو من أحد أمرين: إما أن تكون حضرتها وشاهدتها، أو ذهبت إلى محالِّها فتعلمتها من أهلها، فحينئذ قد لا يدل ذلك على أنك رسول الله، إذ الأمور التي يُخْبَرُ بها عن شهادة ودراسة من الأمور المشتركة غير المختصة بالأنبياء، ولكن هذا قد عُلم وتُيقن أنه ما كان وما صار، فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك، فتعيّن الأمر الثاني، وهو أن هذا جاءك من قبل الله ووحيه وإرساله، فثبت بالدليل القطعي صحة رسالتك ورحمة الله بك للعباد».

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٧٢٤.

(٦) التحقق بنصر الله لأنبيائه وأوليائه

وهذه سنة معلومة متحققة متيقنة في سيرة كل نبي بخاصته، وفي مجموع سير النبيين عليهم السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله (ت: ٣١٠هـ)[1] : «قد يقول القائل: وما معنى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وقد علمنا أن منهم من قتله أعداؤه ومثَّلوا به، كشعيباً، ويحيى بن زكريا وأشباههما، ومنهم من همَّ بقتله قومه، فكان أحسن أحواله أن تخلَّص منهم حتى فارقهم ناجياً بنفسه، كإبراهيم الذي هاجر إلى الشام من أرضه، مفارقاً لقومه، وعيسى الذي رُفع إلى السماء، إذ أراد قومه قتله؟ فأين النصرة التي أخبرنا أنه ينصر بها رسله والمؤمنين به في الحياة الدنيا، وهؤلاء أنبياؤه قد نالهم من قومهم ما قد علمت، وما نُصروا على من نالهم بما نالهم به؟

قيل: إن لقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾،

---

(١) جامع البيان (٢٠/٣٤٤ – ٣٤٥).

وجهين: كلاهما صحيح معناه؛ أحدُهما: أن يكون معناه: إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا، إما بإعلائنا هم على من كذَّبَنا وإظفارنا هم بهم، حتى يقهروهم غلبةً، ويذلوهم بالظفر ذلة - كالذين فعَل من ذلك بداود وسليمان، فأعطاهما من المُلْك والسلطان ما قَهَرا به كلّ كافر، وكالذي فعل بمحمد ﷺ من إظهاره على من كذَّبه من قومه - وإما بانتقامنا ممن حادَهم وشاقَّهم، بإهلاكهم وإنجاء الرسل ممن كذّبهم وعاداهم - كالذي فعل تعالى ذكره بنوح وقومه من تغريق قومه وإنجائه منهم، وكالذي فعل بموسى وفرعون وقومه إذ أهلكهم غرقاً، ونجَّى موسى ومن آمن به من بني إسرائيل وغيرهم، ونحو ذلك - أو بانْتقامنا في الحياة الدنيا من مكذبيهم بعد وفاة رسولنا من بعد مَهْلِكِهم، كالذي فعلنا من نُصْرتنا شعيباً بعد مهلكه، بتسليطنا على قتلته من سلَّطْنا حتى انتصرنا بهم من قتلته، وكفعلنا بقتلة يحيى، من تسليطنا بختنصر عليهم حتى انتصرنا به وبجنده من قتلته له، وكانتصارنا لعيسى من مريدي قتله بالروم حتى أهلكناهم بهم».

وقال الله عز وجل في شأن نوح عليه السلام: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٨ - ٤٩].

قال ابن عطية الأندلسي رحمه الله[1] : «قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ الآية. إشارة إلى القصة، أي هذه من الغيوب التي تقادم عهدها ولم يبقَ علمها إلا عند الله تعالى، ولم يكن علمها أو علم أشباهها عندك ولا عند قومك. ونحن نوحيها إليك لتكون لك هداية وأسوة فيما لقيه غيرك من الأنبياء، وتكون لقومك مثالاً وتحذيراً لئلا يصيبهم إذا كذبوك مثل ما أصاب هؤلاء وغيرهم من الأمور المعذبة.

وعلى هذا المعنى ظهرت فصاحة قوله: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، أي فاجتهد في التبليغ وجد في الرسالة واصبر على الشدائد، واعلم أن العاقبة لك كما كانت لنوح في هذه القصة».

* * *

(١) المحرر الوجيز (٩/١٦٦).

(٧) بيان لطف الله فيما يبتلي به أنبياءه وأولياءه

أولاً لا بد من بيان أن الله لطيف بمعنى خبير، وهو أن علمه دقَّ ولطف حتى أدرك السرائر الضمائر والخفيَّات.

واللطيف هو الذي يُوصل أولياءه وعباده المؤمنين إلى الكرامات والخيرات بالطرق التي يعرفون والتي لا يعرفون، والتي يريدون وما لا يريدون، وبالذي يحبون والذي يكرهون، فيلطف بأوليائه، فييسرهم لليسرى، ويجنّبهم العُسرى، ويلطف لهم فيقدر أموراً خارجية عاقبتها تعود إلى مصالحهم ومنافعهم(١).

ومن أظهر لطف الله في قصص النبيين قصة يوسف وموسى عليهما السلام، موسى طفل تخشى أمه عليه القتل من فرعون، فيتخذه فرعون ولداً بأمر زوجه ليترعرع في كنفه، ثم يقتل قبطياً ليهرب إلى مدين ثم يعود إلى قومه نبياً رسولاً، داعياً فرعون وقومه إلى الإيمان، ثم يقصده فرعون بالقتل فيفر هارباً فينجيه الله ويغرق فرعون وجنوده.

---

(١) فتح الرحيم الملك العلام، ص ٣٤.

ويوسف عليه السلام ابتلاه الله بأذية إخوته له، وتفريقهم بينه وبين أبيه، وبيعه بدراهم معدودة، ودخوله السجن، ثم خروجه وتبوأه وزارة اقتصاد مصر، قال تعالى عن كل ما أجراه من قضائه وقدره في يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله (ت: ١٣٧٦هـ)(١): «ولطف الله بيوسف إذ أوحى إليه وهو في الجب لتنبئنهم بأمرهم هذا، وهم لا يشعرون، وتنقلاته من حال إلى حال، **فإن فيها ألطافاً ظاهرة وخفية، ولهذا قال في آخر الأمر ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ﴾**، يلطف به في أحواله الداخلية، ويلطف له في الأمور الخارجية، ويوصله إلى أعلى المطالب من حيث لا يشعر».

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله أيضاً(٢): «ومن لطيف لطفه بعبده إذ أهلَّه للمراتب العالية والمنازل السامية التي لا تُدرك بالأسباب العظام التي لا يدركها إلا أرباب الهمم العالية، والعزائم السامية أن يقدّر له في ابتداء أمره بعض الأسباب المحتملة المناسبة للأسباب التي أُهِّلَ لها، ليتدرج من الأدنى إلى الأعلى، ولتتمرن نفسه، ويصيرله ملكة التي أُهل لها، ليتدرج من الأدنى إلى الأعلى، ولتتمرن نفسه، ويصير له ملكة من جنس ذلك الأمر، وهذا

---

(١) تيسير اللطيف المنان ص ٢٢٦.

(٢) المواهب الربانية من الآيات القرآنية ص ١٥٣.

كما قدّر لموسى ومحمد وغيرهما من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في ابتداء أمرهم رعاية الغنم، ليتدرجوا من رعاية الحيوان البهيم وإصلاحه إلى رعاية بني آدم، ودعوتهم وإصلاحهم».

* * *

(٨) إبراز جميل أخلاق النبيين

إبراز جميل أخلاق وسجايا النبيين: من أعظم ما يكون من فوائد ذكر قصص النبيين، وإنما يذكر الله جميل أخلاقهم وكريم سجاياهم ليتأسى بهم الخلق فيكونوا مسارعين إلى التخلق بتلك الأخلاق الجميلة.

وتأمل ما ذكره الله من صفات ونعوت وأخلاق رسله فذكر عن إبراهيم أنه: ﴿أَوَّٰهٌ﴾ [هود: ٧٥]، وأنه كريم مع أضيافه، وذكر عن إسماعيل أنه: ﴿حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]. وذكر عن إسماعيل أيضاً أنه ﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤].

ونعت الله أنبياءه بالحكمة، فقال سبحانه: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ٥٤]، ونعت إبراهيم بالقدوة: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، فهو إمام وقدوة مداوم لطاعة ربه مقبلاً عليه، قاصداً ربه وحده مائلاً عن الشرك.

ونعت الله نبينا محمداً ﷺ بكمال الأخلاق من كل شيء، فقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ونعت النبيين جميعاً بالمسارعة للخيرات وفعل الطاعات كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ

كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وكان النبي ﷺ يُبرز جميل أخلاق النبيين قبله ليتأسى الناس بهم، فكان يقول ﷺ: «**يرحم الله موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»[1] ، فهذه دعوة للتخلق بخلق الصبر، وهكذا سائر أخلاق النبيين، فيا فوز من تجمّل بأخلاق النبيين، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يحب الربيع بن خثيم لما كان عليه من جميل الأخلاق والسجايا، حتى قال فيه: يا أبا يزيد! لو رآك رسول الله ﷺ لأحبّك.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله: «فهذه منقبة عظيمة للربيع»[2] .

وقال تعالى في شأن أخلاق أنبياءه عليهم السلام: ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ ﴾ [ص: ٤٨ - ٤٩].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله (ت: ١٣٧٦هـ) [3]: «أي: واذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، وأثن عليهم أحسن الثناء، فإن كلّاً منهم من الأخيار، الذين اختارهم الله من الخلق، واختار لهم أكمل الأحوال من الأعمال والأخلاق والصفات الحميدة والخصال السديدة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء (ص٥٧١ - رقم ٣٤٠٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٢٥٨).

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٤٣.

هذا: أي: ذكر هؤلاء الأنبياء الصفوة، وذكر أوصافهم (ذِكْرٌ): في هذا القرآن ذي الذكر، يتذكَّرُ بأحوالهم المتذكِّرون، ويشتاق إلى الاقتداء بأوصافهم الحميدة المقتدون، ويُعرف ما منَّ الله عليهم به من الأوصاف الزكيَّة، وما نشر لهم من الثناء بين البريَّة. فهذا نوع من أنواع الذكر، وهو ذكر أهل الخير».

وقال علامة الشام محمد جمال الدين القاسمي رحمه الله[1] : «قال علماء الأخلاق والحكماء: لا ينتظم أمر الأمة إلا بمصلحين، ورجال أعمال قائمين، وفضلاء مرشدين هادين، لهم شروط معلومة، وأخلاق معهودة، فإن كان القائم بالأعمال نبيّاً فله أربعون خصلة ذكروها، كلها آداب وفضائل بها يسوس أمته. وإن كان رئيساً فاضلاً لمدينة فاضلة، اكتفوا من الشروط الأربعين ببعضها. وسيدنا يوسف عليه السلام حاز من كمال المرسلين وجمال النبيين. ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هدًى لاختيار الأكفاء في مهام الأعمال، إذ قد حاز الملك والنبوة!

ونحن لا قبل لنا بالنبوة لانقطاعها، وإنما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة، ولنذكر منها ثلاث عشرة خصلة هي أهم خصال رئيس المدينة الفاضلة لتكون ذكرى لمن يتفكر في القرآن،

---

(١) محاسن التأويل (٩/٣٦٢٥ - ٣٦٢٩).

وتنبيهاً للمتعلمين العاشقين للفضائل على نفائس الكتاب العظيم، وحبًّا في نظرهم في القرآن، وليعلموا أن تلك القصص وقد أودعت ما لم يكن ليخطر على باب من سمعه للتغني به ومجرّد اللهو واللعب!

أهم ما شرطه الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة:

١ - العفة عن الشهوات، ليضبط نفسه وتتوافر قوته النفسية ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

٢ - الحلم عند الغضب، ليضبط نفسه ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ﴾ [يوسف: ٧٧].

٣ - وضع اللين في موضعه، والشدة في موضعها: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: ٥٩ - ٦٠]، والصدر للين، والعجز للشدة.

٤ - ثقته بنفسه: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

٥ - قوة الذاكرة ليمكنه تذكر ما غاب ومضى له سنون، ليضبط السياسات ويعرف للناس أعمالهم: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨].

٦ - جودة المصوِّرة والقوة المخيِّلة حتى تأتي بالأشياء تامة الوضوح ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

٧ - استعداده للعلم، وحبّه له، وتمكّنه منه ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ﴾ [يوسف: ١٠١].

٨ - شفقته على الضعفاء وتواضعه مع جلال قدره وعلوّ منصبه، فخاطب الفتيين المسجونين بالتواضع فقال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ٣٩]، وحادثهما في أمور دينهما ودنياهما، فالأول بقوله: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٧]، والثاني بقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [يوسف: ٣٧]، وشهدا بقولهما: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

٩ - العفو مع القدرة: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

١٠- إكرام العشيرة، ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣].

١١- قوة البيان والفصاحة بتعبيره رؤيا الملك، واقتداره على الأخذ بأفئدة الراعي والرعية والسوقة، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنية على العلم والحكمة: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

١٢- حسن التدبير: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٤٧].

١٣- اجتذاب القلوب إليه بالإحسان.

ثم تأمل في اقتدار يوسف عليه السلام على سياسة الملك، وكيف اجتذب إليه القلوب بالإحسان: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ...﴾ [يوسف: ٦٢]، ودبّر الحيلة العجيبة بمسألة الصواع والاتهام بالسرقة ليضم أخاه إليه، ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ [يوسف: ٧٦]، وعامل المحكومين بشرعهم ودينهم وملتهم وعادتهم، كما عليه جميع الأمم الشرقية الحية من الرفق بالأمة المحكومة لهم، فيسوسونهم بدينهم وعادتهم وشرعهم وأخلاقهم وأموالهم اتباعاً لما رسمته الشريعة الغراء مما يناسب حكم سيدنا يوسف عليه السلام، وذلك أنه أمر اتباعه أن يسألوهم ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤]، فكانت شريعة بني يعقوب أن يستعبدوا السارق سنة عند صاحب المتاع، فعاملهم بما هم عليه، ولذلك يقول

تعـــــالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، امتدح على حسن خطته في السياسة ومراعاته عادة أولئك القوم. وهذه وإن كانت مسألة بسيطة الظاهر - فهي أم السياسة ورأس علوم العمران، وأول ما يوصى به السواس والعقلاء!

تالله ! ما أجمل القرآن وما أبهج العلم! وليت شعري كيف يقول الله بعـــــدها : ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. ولولا ما فيها من مبدأ شريف وحكم عالية مع وضوحها وبساطتها لذوي النظر السطحي والبُلْه الغُفَّل، ما أعطاها هذا الجلال والإعظام ومدح العلم! فحيا الله العلم وأدام دولته!».

* * *

(٩) الاستفادة من أحكام الأنبياء السابقين

أحوال النبيين في قصصهم وسيرهم وأحكامهم وقضائهم كله نافع لنا ما لم يخالف شريعتنا كما قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء: ٢٦].

ومن أمثلة ذلك: الضمان بالمثل في المتلفات، وهو قضاء نبي الله سليمان عليه السلام الذي فضل به على داود عليه السلام، فإن غنم رجل دخلت مزرعة آخر ليلاً، وأتلفت زرعه، فقضى نبي الله داود بالقيمة على صاحب الغنم، فتحاكما إلى سليمان عليه السلام فأمر صاحب الغنم أن يزرع مزرعة الآخر حتى ترجع إلى ما كانت عليه قبل تلفها، وجعل صاحب المزرعة يستمتع بلبن وحليب الغنم المعتدية إلى حين رجوع الزرع إلى حاله قبل التلف، قال تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٨ - ٧٩].

ومن الأحكام المستفادة من قصص النبيين القول بقسمة المهايأة المستفاد من قصة ثمود لقوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ [القمر: ٢٨] [1] .

ومن الأحكام المستفادة من قصص النبيين هو تفضيل النكاح على التخلِّي لنوافل العبادة، قال تعالى في شأن قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح شعيب وقبوله تزويجه إحدى ابنتيه على أن يرعى الغنم له عشر سنين: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٧ - ٢٨].

قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ)[2] : «اقتطع من زمن كليمه عشر سنين في رعاية الغنم مهر الزوجة، ومعلوم مقدار هذه السنين العشر في نوافل العبادات».

وفي هذا أبلغ الرد على أهل التخلي المبتدع، يترك أحدهم النكاح سنة المرسلين ليتفرغ لطلب العلم والعبادة، ناهيك أن

(١) البحر المحيط (٦/ ٤٤).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٠٩٧).

النكاح عون على الطاعة والعفاف وصفاء الذهن وتوفر الوقت لقيام المرأة بخدمة زوجها.

ومن الأحكام المستفادة من قصص النبيين مشروعية الإجارة المستفادة من قصة موسى عليه السلام مع الرجل الصالح صاحب مدين كما جاء في تعريض إحدى ابنتيه ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ﴾ [القصص: ٢٦]، قال أبو عبدالله القرطبي رحمه الله في فوائد القصة[١] : «دليل على أن الإجارة كانت عندهم مشروعة معلومة، وكذلك كانت في كل ملة، وهي من ضرورة الخليقة، ومصلحة الخلطة بين الناس، خلافاً للأصم حيث كان عن سماعهم أصم».

ومن الأحكام التي استفادها العلماء من قصص الأنبياء السابقين الحكم بالقرائن إذا كانت واضحة بيّنة، وترجيح القرينة الأقوى على الضعيفة.

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله[٢] : «ومحل الشاهد قوله: ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾ [يوسف: ٢٨]، لما وجدوا القميص مشقوقاً من دُبر جزموا بأنها كاذبة وألزموها، وقالوا: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف:

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٢٧١).

(٢) العذب النمير (١/ ٤١٠).

٢٨]، والله جل وعلا ما ذكر هذه القصة في معرض الاستحسان والتسليم مُبرِّئاً بها ساحة نبيه يوسف إلا أن مثل هذا يجوز أن يُعتمد عليه إذا كانت القرائن واضحة بيّنة لا تترك في الحق لبْساً. وقد أخذها العلماء بالإجماع في بعض الأفراد. أجمع العلماء في أقطار الأرض أن الرجل يتزوج المرأة ولم يرَ وجهها قط، ولم يعرفها، وإنما يسمع أن عند فلان ابنة فيخطبها، ويتزوجها من غير أن يراها. ثم إنها وقت الزفاف تزفها إليه ولائد وإماء لا يثبت بقولهن حقير ولا جليل، فقد أجمع العلماء على أن له أن يجامعها، وليس عليه أن يتوقف حتى تقوم بيّنة عدول تشهد أن هذه عين فلانة ابنة فلان التي وقع عليها العقد، لأن قرينة العقد، ودَفْع الصداق، والتهيؤ للزفاف، قرائن قامت مقام البيّنة في هذا الموضوع.

والرجل ينزل عند القوم فيأتيه الولد والجارية بطعام القوم، والطعام مال معصوم محترم، وليس عليه أن يتثبت حتى تقوم بيِّنة على أنهم أذنوا له في الأكل، لأن القرينة تقوم مقام ذلك.

وقد أخذ علماء المالكية وغيرهم من قصة يعقوب وأولاده أن القرينة تبطلها قرينة أقوى منها، وهو أخذ صحيح من كتاب الله، ذلك أن أولاد يعقوب لما أرادوا أن يجعلوا يوسف في غيابة الجب ذبحوا سخلة، ولطَّخوا قميصه بدم السخلة، ليكون الدم قرينة لهم على صدقهم بأن يوسف أكله الذئب، ونسوا أن يشقوا القميص!!

فلما جاؤوا بالليل إلى يعقوب بالقميص عليه الدم تأمل في القميص، فإذا هو ليس فيه شق، وهو صحيح سليم، فقال: سبحان الله!! متى كان الذئب حليماً كيِّساً؟ يقتل يوسف ولا يشق قميصه؟! فجزم بأنهم كاذبون».

ومن فوائد قصص النبيين مشروعية صلاة الفتح، فإن الله عزَّ وجل أمر بني إسرائيل الذهاب إلى بيت المقدس لقتال العمالقة، وأمرهم دخولها متواضعين ساجدين لله، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [النساء: ١٥٤]، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله في فوائده[1]: «يُشرع عند فتح البلاد صلاة الفتح، لقوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ ويمكن أن يؤخذ هذا على أساس أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا لم يرد شرعنا بخلافه، وقد قيل: إن شرعنا ورد وفاقه، فإن النبي ﷺ لما فتح مكة صلى ثماني ركعات ضحى في بيت أم هانئ، فقال بعض العلماء: إن هذه صلاة الضحى، وقال آخرون: إنها صلاة الفتح؛ لأنه ليس من عادة الرسول عليه الصلاة والسلام أن يصلي صلاة الضحى ثمان ركعات، فتكون هذه صلاة الفتح، وأخذ بها بعض الخلفاء فكانوا إذا فتحوا المدينة صلوا صلاة الفتح».

---

(١) تفسير سورة النساء (٢/٤٢٥ - ٤٢٦).

(١٠) بيان سُنَّة الله في النبيين بحصول الكرامات ووقوع المعجزات

كل نبي له معجزة يختص بها دون سائر إخوانه من النبيين، وهذه الخصوصية اقتضتها خصوصية الزمان والمكان والقوم الذين بُعث فيهم.

فقوم موسى سحرة فآتى الله موسى العصا التي أبطلت سحرهم، وعيسى قومه أهل طب فكان يُبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، ونبينا محمد ﷺ قومه أهل فصاحة فأنزل الله عليه القرآن المعجز في فصاحته وبيانه.

وهذه المعجزات التي أوتيها النبيون عليهم السلام ضرورة ليتميز بها النبي الصادق من الكاذب، ويؤمن الناس عن بيِّنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(١)] : «من الممتنع أن يرسل الله رسولاً يأمر الناس بتصديقه، ولا يكون هناك ما يعرفون به صدقه، وكذلك من قال إني رسول الله، فمن الممتنع أن يجعل مجرد الخبر المحتمل للصدق والكذب دليلاً له، وحجة على الناس، هذا لا يُظن بأجهل الخلق، فكيف بأفضل الناس؟

(١) النبوات (٢/٦٣٩ - ٦٤٠).

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أُوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»».

ومع اختصاص كل نبي بمعجزته دون سائر إخوانه النبيين إلا أن المعجزة الكبرى الجامعة لهم جميعاً هو حفظ الله لهم، فإبراهيم عليه السلام ألقي في النار فكانت برداً وسلاماً عليه، وعيسى عليه السلام أرادوا قتله فرفعه الله إليه، ومحمد ﷺ أرادوا قتله فحفظه الله.

قال العلامة الماوردي رحمه الله[١] : «أظهر الله تعالى لرسوله ﷺ من أعلام نبوته بعد ثبوتها بمعجز القرآن، واستغنائه عما سواه من البرهان، ما جعله زيادة استبصار تُحجُّ بها من قلت فطنته، ويذعن لها من ضعف بصيرته، ليكون إعجاز القرآن مُدركاً بالخواطر الثاقبة تفكراً واستدلالاً، وإعجاز العيان معلوماً ببداية الحواس احتياطاً واستظهاراً، فيكون البليد مقهوراً بوهمه وعيانه، واللبيب محجوجاً بفهمه وبيانه. لأن لكل فريق من الناس طريقاً هي عليهم أقرب، ولهم أجذب، فكان ما جمع انقياد الفرق أوضح سبيلاً، وأعم دليلاً.

فمن معجزاته عصمته من أعدائه وهم الجم الغفير، والعدد الكثير، وهم على أتم حنق عليه، وأشد طلب لنفسه. وهو بينهم

(١) أعلام النبوة بواسطة محاسن التأويل للقاسمي (٢٠٧٥/٦ - ٢٠٧٦).

مسترسل قاهر، ولهم مخالط ومكاثر، ترمقه أبصارهم شزرا، وترتد عنه أيديهم ذعرا، وقد هاجر عنه أصحابه حذرا، حتى استكمل مدته فيهم ثلاث عشرة سنة. ثم خرج عنهم سليماً لم يُكْلَمْ في نفس ولا جسد، وما كان ذلك إلا بعصمة إلهية وعده الله تعالى بها فحققها حيث يقول: والله يعصمك من الناس. فعصمه منهم».

وهذا أمريعلمه كل علماء الملل، فإن النبي ﷺ لما سافر إلى الشام مع عمه أبي طالب ورأى نفر من أهل الكتاب في نبينا محمد ﷺ دلائل نبوته أرادوا به سوءاً، فزجرهم بحيرى الراهب، وردّهم، وذكّرهم الله وما يجدون في كتبهم من ذكره وصفته، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه، ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم، وصدّقوه بما قال، فتركوه وانصرفوا عنه[١] .

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله (ت: ١٣٧٦هـ) [٢] : «إن آيات الأنبياء وكرامات الأولياء وما يخرقه الله من الآيات ومن تغيير الأسباب أو منع سببيتها أو احتياجها إلى أسباب أخر، أو وجود موانع تعوقها هي من البراهين العظيمة على وحدانية الله، وأنه على كل شيء قدير، وأن أقدار الله لا يخرج عنها حادث جليل ولا حقير، وأن هذه المعجزات والكرامات والتغييرات لا تنافي ما جعل

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٠٧)، ط. دار الريان، ط. الأولى.

(٢) تيسير اللطيف المنان ص ١٨٢ – ١٨٣.

الله في هذه المخلوقات من الأسباب المحسوسة والنظامات المعهودة، وإنك لا تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلا، فإن سنن الله في جميع الحوادث السابقة واللاحقة قسمان:

أحدهما: وهو جمهور الحوادث والكائنات والأحكام الشرعية والقدرية وأحكام الجزاء لا تتغير ولا تتبدل عما يعهده الناس ويعرفون أسبابه، وهذا القسم أيضاً مندرج في قدرة الله وقضائه، ويستفاد من هذا العلم بكمال حكمة الله في خلقه وشرعه، وأن الأسباب والمسببات من سلك طرقها على وجه كامل أفضت به إلى نتائجها وثمراتها، ومن لم يسلكها أو سلكها على وجه ناقص لم يحصل له الثمرات التي رتبت على الأعمال شرعاً وقدراً، وهذه توجب للعبد أن يجد ويجتهد في الأسباب الدينية والدنيوية النافعة مع استعانته بالله والثناء على ربه في تيسير أسبابها وآلاتها وكل ما تتوقف عليه.

القسم الثاني: حوادث معجزات للأنبياء التي تواترت تواتراً لا يتواتر مثله في جميع الأخبار وتناقلتها القرون كلها، وكذلك ما يكرم الله به عباده من إجابة الدعوات وتفريج الكربات وحصول المطالب المتنوعة ودفع المكاره التي لا قدرة للعبد على دفعها، والفتوحات الربانية والإلهامات الإلهية والأنوار التي يقذفها الله في قلوب خواص خلقه فيحصل لهم بذلك من اليقين والطمأنينة والعلوم

المتنوعة ما لا يُدرك بمجرد الطلب وفعل السبب، ومن نصره للرسل وأتباعهم وخذلانه لأعدائهم وهو مشاهد في كثير من الأوقات، فهذا القسم ليس عند الخلق اهتداء إلى أسباب هذه الحوادث ولا جعل لهم في الأصل وصول إلى حقيقتها وكنهها.

وإنما هي حوادث قدّرها الرب العظيم الذي هو على كل شيء قدير بأسباب وحكم وسنن لا يعقلها الخلق، ولا لحواسهم وتجاربهم وصول إليها بوجه من الوجوه، وبها آمن الرسل من أولهم إلى آخرهم وأتباعهم، الأولون منهم والآخرون، وبها يعرف عظمة الباري، وأن نواصي العباد بيده، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ويعرف بذلك صحة ما جاءت به الرسل كما يعرف بالقسم الأول، وكما أنه لا سبيل إلى العباد في هذه الدار إلى إدراك كنه صفات اليوم الآخر، وكنه ما في الجنة والنار، وإنما يعلمون منها ما علمتهم به الرسل ونزلت به الكتب، ولا سبيل إلى أهل الكون للوصول إلى العالم السماوي، ولا سبيل لهم إلى إحياء الموتى وإيجاد الأرواح في الجمادات، فكذلك هذا النوع من حوادث الكون».

ومما ينبغي التنبيه عليه هو ضرورة التفريق بين معجزات الأنبياء، وكرامات الصالحين، وخوارق المبتدعة الضالين، وهي لا تشتبه على بصير عالم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «إن آيات الأنبياء هي الخارقة للعادات، عادات الإنس والجن، بخلاف خوارق مخالفيهم، فإن كل ضرب منها معتاد لطائفة غير الأنبياء».

وأما أصحاب الأحوال الشيطانية فأعمالهم مقدور عليها لغيرهم، وينالونها بطاعة الشياطين والشرك بالله، كما أنهم يأمرون بما يخالف الشريعة، ويضيعون تكاليفها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2] : «إن ما تأتي به السحرة، والكهان، وكل مخالف للرسل تُمكن معارضته بمثله، وأقوى منه، كما هو الواقع لمن عرف هذا الباب، وآيات الأنبياء لا يُمكن أحد أن يعارضها، لا بمثلها، ولا بأقوى منها».

وقال شيخ الإسلام أيضاً[3] : «وأما السحرة والكهان والمشركون، وأهل البدع من أهل الملل فإنهم يخرجون عما اتفقت عليه الأنبياء، فكلهم يشركون مع تنوعهم، ويُكذِّبون ببعض ما جاء به الأنبياء».

وأما كرامات الصالحين فهي تحصل لغيرهم من الصالحين، فهي غير معجزة كمعجزات الأنبياء عليهم السلام، وهي ناشئة عن طاعة النبيين.

---

(١) النبوات (٢/١٠٨٢).

(٢) النبوات (٢/١٠٨١ – ١٠٨٢).

(٣) النبوات (٢/١٠٨٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «وأما كرامات الصالحين فهي من آيات الأنبياء - كما تقدم - ولكن ليست من آياتهم الكبرى، ولا يتوقف إثبات النبوة عليها، وليست خارقة لعادة الصالحين، بل هي معتادة في الصالحين من أهل الملل، في أهل الكتاب، والمسلمين. وآيات الأنبياء التي يختصون بها خارقة لعادة الصالحين».

والذهبي لما ساق ما قاله بكر المزني رحمه الله: «كان الرجل في بني إسرائيل إذا بلغ المبلغ، فمشى في الناس، تُظلُّه غمامة».

علّق بقوله[2] : «شاهده أن الله قال: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾ [البقرة: ٥٧]، ففعل بهم تعالى ذلك عاماً، وكان فيهم الطائع والعاصي، فنبينا صلوات الله عليه أكرم الخلق على ربه، وما كانت له غمامة تظلُّه ولا صح ذلك، بل ثبت أنه لما رمى الجمرة كان بلال يظلُّه بثوبه من حرِّ الشمس.

ولكن كان في بني إسرائيل الأعاجيب والآيات، ولمّا كانت هذه الأمة خيْرَ الأمم، وإيمانهم أثبت، لم يحتاجوا إلى برهان، ولا إلى خوارق، فافهم هذا، وكُلَّما ازداد المؤمن علماً ويقيناً، لم يحتج إلى الخوارق، وإنما الخوارق للضعفاء، ويكثر ذلك في اقتراب الساعة».

---

(١) النبوات (٢/١٠٨٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/٥٣٣).

وقد طلب أقوام الرسل من رسلهم أنواعاً من الآيات والمعجزات ولم يجبهم الله إلى كل ما سألوه، وذلك لعدة أمور:

١ - رحمة الله بهم: لأن الله لو أجابهم لما اقترحوه وطلبوه من المعجزات ثم كفروا فإن الله سيأخذهم بعذاب شديد، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

قال قتادة رحمه الله[١] : «قال أهل مكة لنبي الله ﷺ: إن كان ما تقول حقاً، ويسُرُّك أن نؤمن، فحوِّلْ لنا الصفا ذهباً.

فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: إن شئت كان الذي سألك قومك، ولكنه إن كان، ثم لم يؤمنوا، لم يُنَاظَرُوا، وإن شئتَ استأنيت بقومك، قال: بل أستأني بقومي، فأنزل الله: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ﴾، وأنزل الله عزَّ وجل: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٦] ».

قال شيخ المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله (ت: ٣١٠هـ)[٢] : «يقول تعالى ذكره: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ﴾ يا محمد ﴿أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ التي سألها قومك، إلا أن من قبلهم من الأمم

(١) جامع البيان (١٤/٦٣٦).

(٢) جامع البيان (١٤/٦٣٥).

المكذبة سألوا ذلك مثل سؤالهم، فلما أتاهم ما سألوا منه كذبوا رسلهم، فلم يصدِّقوا مع مجيء الآيات، فعُوجِلوا، فلم نرسل إلى قومك بالآيات، لأنا لو أرسلنا بها إليها، فكذبوا بها، سلكنا بهم في تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلها».

ولاحظ أن بعض ما طلبه الكفار إنما هو زيادة توسعة في متاع وزخرف الحياة الدنيا، فمثل هذا لا يجيبهم الله إليه على وجه الخصوص، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله: «يخبر تعالى بأن الدنيا لا تسوى عنده شيئاً، وأنه لولا لطفه ورحمته بعباده التي لا يقدم عليها شيئاً، لوسَّع الدنيا على الذين كفروا توسيعاً عظيماً، ولجعل ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾؛ أي: درجاً من فضة، ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾: إلى سطوحهم، ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴾: من فضة، ولجعل لهم ﴿زُخْرُفًا﴾، أي: لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف وأعطاهم ما يشتهون، ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده، خوفاً عليهم من التسارع في الكفر وكثرة المعاصي بسبب حب الدنيا. ففي هذا دليل على أنه يمنع العباد بعض أمور الدنيا منعاً

عاماً أو خاصّاً لمصالحهم، وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة. وأن كلَّ هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا منغصة مكدرة فانية، وأن الآخرة عند الله تعالى خير للمتقين لربهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، لأن نعيمها تام كامل من كل وجه، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين، وهم فيها خالدون، فما أشد الفرق بين الدارين!».

٢ - أن الحجة قائمة بأعظم المعجزات القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله[١] : «وأعظم الآيات وأكبر المعجزات هو هذا القرآن العظيم الذي تحداهم الله به، وكان عجز الخلق عن معارضته أكبر آية عظمى، ولذا أنكر الله على من لم يكتف بمعجزة القرآن وطلب آية غيرها، حيث قال منكراً عليه: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١]، فقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ﴾ صيغة إنكار، ينكر الله به على من لم يكتف بهذا القرآن؛ لأنه آية أعظم آية.

ومما امتازت به عن الآيات: أن آيات الرسل ومعجزاتهم تنقضي، وتكون أخباراً لا وجود لها في العيان، وآيته ﷺ الكبرى وهي هذا القرآن العظيم باقية تتردد في آذان الناس إلى يوم القيامة،

---

(١) العذب النمير (١/١٨١ - ١٨٣).

ولذلك أشار النبي ﷺ في الحديث الصحيح إلى حصر معجزاته في هذا القرآن، وإن كانت معجزاته كثيرة لا تحصر لكثرتها، حيث قال في الحديث الصحيح: «**ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»، ولذا قال هنا لما اقترحوا هذه الآية، اقترحوها عناداً لا استرشاداً وطلباً للهدى، مع أنهم جاءهم من الآيات ما يكفي، والناس عاينوا من معجزاته ﷺ أشياء تبهر العقول، كشق القمر، وتسبيح الحصى في يده، وكحنين الجذع في هذا المسجد - النبوي - لما تحول عنه إلى المنبر، سمعوه يحنّ حنين العشار، ولم يسكت حتى جاءه ﷺ يسكته كما تسكت الأم ولدها.

ومعجزاته صلوات الله وسلامه عليه كثيرة جداً، ولكن أعظمها القرآن، ولذا حصرها فيه بقوله: «**وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**».

ولذا أنكر الله على من لم يكتف بهذا القرآن العظيم حيث قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يونس: ٣٧] » .

٣ - لا فائدة من إجابتهم لإصرارهم على كفرهم: فمهما أجابهم الله لما سألوا من الآيات والمعجزات لن يؤمنوا، فحينئذ لا فائدة من إجابة سؤالهم، قال تعالى عن مشركي قريش: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ

﴿أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]. قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله(١) : «وأي: وأقسم المشركون المكذِّبون للرسول محمد ﷺ ﴿بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: قسماً اجتهدوا فيه وأكَّدوه، ﴿لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾: تدل على صدق محمد ﷺ ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾: وهذا الكلام الذي صدر منهم لم يكن قصدهم فيه الرشاد، وإنما قصدهم دفع الاعتراض عليهم وردُّ ما جاء به الرسول قطعاً، فإن الله أيَّد رسوله ﷺ بالآيات البيِّنات والأدلة الواضحات التي عند الالتفات لها لا تبقى أدنى شبهة ولا إشكال في صحة ما جاء به، فطلبهم بعد ذلك للآيات من باب التعنت الذي لا يلزم إجابته».

وما أكثر ما أجاب الله بني إسرائيل ما سألوه من الآيات ومع ذلك ما آمنوا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٦ - ٤٧].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله (ت: ٧٧٤هـ) (٢) : «يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى عليه السلام، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة، والأتباع والرعايا، من القبط وبني

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٨٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٣٠).

إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظاماً، كيده وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكذبوها وسخروا منها، وضحكوا ممن جاءهم بها. ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾، ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، وجهلهم وخبالهم».

والآن بعد ذكر فوائد قصص النبيين يحسن جداً أن نذكر أمهات ما اتفقت عليه قصصهم.

* * *

الفصل الثاني

أمهات ما اتفقت عليه قصص النبيين



أمهات ما اتفقت عليه قصص النبيين

أولاً: توحيد الله:

وهذا واضح جداً في القرآن، وهو الذي من أجله أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، قال العلامة محمد الشنقيطي رحمه الله معلقاً على قصة هود عليه السلام[1] : « ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: ٥٠]، ماذا قال هود؟ قال: دعوة الرسل التي جاؤوا بها كلهم، وهي عبادة الله وحده، ويُخلص له في توحيده، فهذه دعوة الرسل التي جاؤوا بها عامة، وهي التي فيها المعارك بينهم وبين أممهم، والقرآن بيَّن ذلك جملة وتفصيلاً، أما بيانه بالتفصيل كقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ماذا قال نوح؟ ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ماذا قال هود؟ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ ماذا قال صالح؟ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وهكذا في جميع الرسل.

ومن الأدلة العامة المبينة لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي

(١) العذب النمير (٣/١٣٢٤ – ١٣٢٥).

كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وفي القراءة الأخرى: ﴿نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾، ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥]، فإخلاص العبادة لخالق السموات والأرض هو دعوة الرسل التي جاؤوا بها كلهم عليهم صلوات الله وسلامه، ولذا أُمِر نبينا ﷺ في سورة الأنبياء أن يقول: إنه لم يوح إليه شيء إلا عبادة الله وحده، وإفراده بالعبادة في قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]، و(إنما) من صيغ الحصر كما هو مقرر في المعاني في مبحث القصر، وفي الأصول في مبحث العام، لأن كلمة (لا إلٰه إلَّا الله) هي التي قامت عليها السموات والأرض، وهي المتضمنة توحيد العبادة بنفيها وإثباتها، فنفيها يتضمن: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله في جميع العبادات، وإثباتها يتضمن: إفراده – جل وعلا – بالعبادة دون غيره، وهذا معنى قوله: (لا إلٰه) نفي (إلَّا الله) إثبات. وهذه الكلمة الشريفة التي قامت عليها السموات والأرض، وخُلقت من أجلها الجنّة والنار، وهي التي جاء بها جميع الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم».

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله (ت: ٧٧٤هـ)[(١)] : «فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥] ».

ثانياً: بشرية الرسل جميعاً:

إذا تأملت قصص النبيين جميعاً وجدتها واضحة وصريحة في تنبيه أقوامهم ومن بعدهم إلى بشريتهم، حتى لا يتجاوزوا الحد فيهم، ولا يغلوا فيهم، ولا يصرفوا لهم شيئاً من حقوق الربوبية، ولا يسألوهم ما لا يقدر عليه إلا الله من شفاء الأسقام، وطلب النصر، والرزق، وعموم جلب المنفعة ودفع المضرة.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٠].

---

(١) تفسير القرآن العظيم(٧/٢٢٣).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله [1] : «يقول تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين: أنهم كانوا يأكلون الطعام، ويحتاجون إلى التغذي به: ﴿وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾، أي: للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم، فإن الله جعل لهم من السمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة، والخوارق الباهرة، والأدلة القاهرة، ما يستدل به كل ذي لب سليم، وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاؤوا به من الله عز وجل، ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾[الأنبياء: ٨] ».

وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، وأخبر الله عن بشرية الرسل جميعاً وأنه ما كتب لأحد منهم الخلد، فقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾[الأنبياء: ٨].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله [2] : «الرسل قبل محمد ﷺ كلهم من البشر الذين يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وتطرأ عليهم العوارض البشرية من الموت وغيره.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٠٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٠١.

وقال تعالى عن نبينا محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾ يعني أعلن للملأ أنك لست ملكاً، وأنك من جنس البشر ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾. وذكر المثلية لتحقيق البشرية، أي: أنه بشر لا يتعدى البشرية، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يمرض كما يمرض الناس، وكان يجوع كما يجوع الناس، وكان يعطش كما يعطش الناس، وكان يتوقى الحر كما يتوقاها الناس، وكان يتوقى سهام القتال كما يتوقاها الناس، وكان ينسى كما ينسى الناس، كل الطبيعة البشرية ثابتة للرسول عليه الصلاة والسلام، وكان له ظل كما يكون للناس.

أما من زعم أن الرسول ﷺ نوراني، ليس له ظل فهذا كذب بلا شك، فإن الرسول ﷺ كغيره من البشر له ظل ويستظل أيضاً، ولو كان الرسول ﷺ ليس له ظل لنقل هذا نقلاً متواتراً، لأنه من آيات الله عزَّ وجل، إذ الرسول بشر مثل الناس، وهل يقدر الرسول ﷺ أن يجلب للناس نفعاً أو ضراً؟ الجواب: لا، كما أمره الله عز وجل أن يقول: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١]، ومن العجب أن أقواماً لا يزالون موجودين، يتعلقون بالرسول ﷺ أكثر مما يتعلقون بالله عزَّ وجل، إذا ذُكر الرسول ﷺ اقشعرت جلودهم، وإذا ذكر الله كأن لم يُذكر!».

ومما ذكره الله من بشرية الرسل، هو توبتهم واستغفارهم من ذنوبهم، كما قال تعالى في شأن داود عليه السلام: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ [ص: ٢٤ – ٢٥].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله (١) : «قوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾: الذي صدر منه، وأكرمه الله بأنواع الكرامات، فقال: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٤٠]؛ أي: منزلة عالية وقربة منَّا، ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾؛ أي: مرجع، وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصَّه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محلُّه فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها».

ثم ذكر العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله فائدة ابتلاء الله صفوة خلقه وأنبياءه بالذنوب والتوبة منها(٢): «إكرام الله لعبده داود وسليمان بالقرب منه وحسن الثواب، وأن لا يظنَّ أن ما جرى لهما منقصٌ لدرجتهما عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم، أزال الآثار المترتبة عليه كلَّها، حتى ما يقع في قلوب الخلق، فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم، وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال الله تعالى هذه الآثار، وما ذاك بعزيز على الكريم الغفار».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٣٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٤٢.

ومما ذكره الله من مظاهر بشريتهم أنه إذا شُغل أحدهم عن طاعة لعارض دنيوي استغفر ربه واستدرك، كما حصل لسليمان عليه السلام، حيث شغلته الخيل عن صلاة العصر، فتركها لله وعاد للزوم الطاعة، قال تعالى: ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ [ص: ٣١] .

ثالثاً: إقامة الدين والتحذير من الفرقة:

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله (ت: ١٣٧٦هـ)(١) :

«هذه أكبر منَّة أنعم الله بها على عباده أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها وأزكاها وأطهرها، دين الإسلام الذي شرعه الله للمصطفين المختارين من عباده، بل شرعه الله لخيار الخيار وصفوة الصفوة، وهم أولو العزم من المرسلين، المذكورون في هذه الآية، أعلى الخلق درجة وأكملهم من كل وجه، فالدين الذي شرعه الله لهم لا بد أن يكون مناسباً لأحوالهم موافقاً لكمالهم، بل إنَّما كمَّلهم الله، واصطفاهم بسبب قيامهم به، فلولا الدين الإسلاميُّ، ما ارتفع أحدٌ من الخلق، فهو روح السعادة وقطب رحى الكمال، وهو ما تضمنَّه

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٨٩٣ – ٨٩٤.

هـذا الكتـاب الكـريم ودعـا إليـه مـن التوحيـد والأعمـال والأخـلاق والآداب. ولهذا قال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: أمركم أن تقيمـوا جميـع شـرائع الـدين أصـوله وفروعـه؛ تقيمونـه بأنفسكم، وتجتهـدون فـي إقامته على غيركم، وتعاونون على البرِّ والتَّقـوى، ولا تعـاونون على الإثـم والعدوان، ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾؛ أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصـول الـدين وفروعـه، واحرصـوا علـى أن لا تفـرِّقكم المسـائل وتحزِّبكم أحزاباً، فتكونون شِيَعاً يعادي بعضكم بعضاً مع اتفقـاكم على أصل دينكم.

ومن أنواع الاجتماع على الـدين وعدم التفرق فيـه مـا أمـر بـه الشارعُ مـن الاجتماعـات العامَّـة، كاجتمـاع الحـجِّ والأعيـاد والجُمـع والصلوات الخمس والجهاد وغير ذلك من العبادات التي لا تـتمُّ ولا تكْمُل إلا بالاجتماع لها وعدم التفرُّق».

رابعاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وهـذا واضـح بداهـة أن تتفـق عليـه جميـع الرسـالات، لأن قيـام الـشرائع كلهـا بـالأمر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر، فبـالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحرس الشريعة عن تحريـف الغـالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

فالأمر بالمعروف والنهي عـن المنكـر حفـظ للشريعة واسـتمرار لهـا، قـال تعـالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ

﴿ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨].

فهذه الآية صريحة باتفاق الشرائع على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال العلامة ابن عطية الأندلسي رحمه الله[1] : «خصت هذه الآية داود وعيسى إعلاماً بأنهم لعنوا في الكتب الأربعة، وأنهم قد لعنوا على لسان غير موسى ومحمد عليهما السلام، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لعنوا بكل لسان، لعنوا على عهد موسى في التوراة، وعلى عهد داود في الزبور، وعلى عهد عيسى في الإنجيل، وعلى عهد محمد ﷺ في القرآن».

خامساً: المنهج الدعوي:

النبيون أسوة المؤمنين، قال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وأعظم وظائف المرسلين الدعوة إلى الله، وهي أعظم وظائف الخلق جميعاً كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣].

---

(١) المحرر الوجيز (٥/ ١٦٥).

والدعوة إلى الله ليست فوضى يخبط فيها الداعية خبط عشواء، فالنبيون رسموا منهجاً واضح المعالم بيّن الطريق حتى يتأسى بهم الخلق ويسيروا على طريقهم حذراً من السبل وبنيات الطريق، لذلك أمرنا الله بالتأسي بالنبيين في منهج الدعوة إلى الله، قال تعالى مخاطباً نبينا محمد ﷺ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]. فأخبر أنه يدعو عن علم وإيمان ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾، لا عن جهل ولا ابتداع، ونزَّه الله عن النقائص في ختام الآية ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، وتبرَّأ من الشرك ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ إشارةً إلى أن دعوته دعوة توحيد.

فمن جانب دعوة التوحيد فقد ضاد الأنبياء في دعوتهم وصدف عن مقصود إرسال الرسل وإنزال الكتب.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله (ت: ٧٧٤هـ)[1] : «يقول الله تعالى لعبده ورسوله إلى الثقلين: الإنس والجن، آمراً له أن يخبر الناس: أن هذه سبيله، أي طريقه ومسلكه وسُنَّته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله على بصيرة من ذلك، ويقين وبرهان، هو وكل من اتبعه، يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان شرعي وعقلي.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٤٢٢).

وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: وأنزّه الله وأجلّه وأعظّمه وأقدّسه، عن أن يكون له شريك أو نظير، أو عديل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة، أو وزير أو مشير، تبارك وتعالى وتقدّس وتنزَّه عن ذلك كله علواً كبيراً، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]».

ويقول العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله معلقاً على قصص النبيين عليهم السلام[1] : «هذه الأمم يقص الله خبرها على هذه الأمة لتستفيد من ذلك فوائد عظيمة ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ﴾ [يوسف: ١١١]، فيخاف المكذبون للرسل، الجاحدون بآيات الله أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك من المثلات، ومن عذاب الله المستأصل المتصل بعذاب النار، وكذلك يُعَلِّم الناس الآداب، وآداب الدعاة إلى الله في لينهم وعطفهم، ولين كلامهم، وكرم مخاطبتهم، وعدم بذاءتهم وكلامهم بكلام الجاهلين، هذا نبي الله نوح لما قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]، هو يعلم أنهم هم الضالون، وأنه هو المهتدي، والذي يعيبك ويلمزك بعيب أنت تعلم أنه فيه هو، وأنك أنت بريء منه هذا مما يستدعي الغضب، والكلام الشديد، والرد العنيف، فنبي الله نوح عليه السلام

---

(١) العذب النمير (٣/١٣٢٢ – ١٣٢٣).

لم يقل لهم شيئاً من ذلك، ولم يرد عليهم رداً عنيفاً، وإنما رد بأكرم العبارة، وألطف الرد، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦١]، فلم يقل: أنتم هم الكفرة الفجرة الضُلال، ولم يقذع فيهم بلسانه، بل بالعبارات اللطيفة الليِّنة، وهذا تعليم من الله لخلقه أن الداعي المتبع لآثار الرسل إذا قابله الجهلة ببذاءة اللسان وعابوه وتكلموا له بالقبيح أنه لا يقابلهم إلا بالقول الليّن اللطيف، والحكمة والموعظة الحسنة، كما هي عادة الرسل في خطاباتهم لأممهم».

* * *

الفصل الثالث

الخارج عن العادة من قصص النبيين



الخارج عن العادة
من قصص النبيين

أحوال النبيين في سيرهم مع أممهم واحدة لا تتغير، ودعوتهم واحدة فيما يتعلق بتوحيد الله، وإنما وقع الاختلاف في بعض الأحكام في شرائعهم حسب ما تقتضيه مصلحة الزمان والمكان والمكلفين.

وليس مقصودنا هنا البحث في آحاد ما اختلفت فيه الشرائع حسب ما تقتضيه مصلحة الزمان والمكان، وإنما غرضنا بيان الخارج عن العادة مما كان لا بد أن يجري فيه حكم نظيره في كل المرسلين:

أولاً : رفع العذاب عن قوم يونس بعد معاينته :

وسُنَّة الله واحدة في أحوال النبيين كلهم مع أممهم، إلا أن قصة قوم يونس تختلف من جهة أنهم كذبوا يونس عليه السلام فلم يستأصلهم الله بالعذاب بل قارب أن يمسهم فلما عاينوا العذاب تابوا فتاب الله عليهم.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس:٩٨].

قال العلامة أبو عبدالله القرطبي رحمه الله[1] : «روي في قصة يونس عن جماعة من المفسرين: أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام يدعوهم إلى الإسلام وترك ما هم عليه فأبوا، فقيل: إنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمانهم، فقيل له: أخبرهم أن العذاب مصبحهم إلى ثلاث ففعل، وقالوا: هو رجل لا يكذب فارقبوه، فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم، وإن ارتحل عنكم فهو نزول العذاب لا شك، فلما كان الليل تزوَّد يونس وخرج عنهم فأصبحوا فلم يجدوه فتابوا ودعوا الله ولبسوا المُسرح وفرّقوا بين الأمهات والأولاد من الناس والبهائم، وردّوا المظالم في تلك الحالة، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: وكان الرجل يأتي الحجر قد وضع عليه أساس بنيانه فيقتلعه فيردّه، والعذاب منهم فيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما على ثلثي ميل. ورُوي على ميل.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم غشيتهم ظُلة وفيها حمرة فلم تزل تدنو حتى وجدوا حرّها بين أكتفاهم».

والآن لتحرير أن ما جرى لقوم يونس خارج عن المعهود من سُنَّة الله في الأمم المكذبة من أنه لا تقبل توبتهم إذا نزل بهم العذاب، لا بد من تحرير الخلاف بين المفسرين هل نزل العذاب بقوم يونس؟ أم لم ينزل؟ وحينئذ فلا إشكال.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣٨٤).

جزء كبير من هذا الخلاف يرجع إلى نوع الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] فقد ذهب سيبويه والكسائي والأخفش والفراء إلى أن الاستثناء منقطع.

وذهب آخرون إلى أن الاستثناء متصل، وقال آخرون هو متصل لفظاً منقطع معنى، وتكون الجملة في معنى النفي، كأنه قيل: ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس[١].

وهناك مرجحات أخرى غير نوع الاستثناء أبرزها العلماء لتحرير ما إذا نزل بقوم يونس ما نزل بالأمم السابقة أم انفردوا عنهم بحالة خاصة؟ قال أبو عبدالله القرطبي رحمه الله[٢]: «قال الزجاج: إنهم لم يقع بهم العذاب، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان.

قلت: قول الزجاج حسن، فإن المعاينة التي لا تنفع التوبة معها هي التلبس بالعذاب كقصة فرعون، ولهذا جاء بقصة قوم يونس على أثر قصة فرعون لأنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك، وقوم يونس تابوا قبل ذلك، ويعضد هذا قوله عليه السلام: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»، والغرغرة الحشرجة، وذلك هو حال التلبس بالموت، وأما قبل ذلك فلا، والله أعلم».

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٤/٦٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٨/٣٨٤).

وغير القرطبي رحمه الله رجح نزول العذاب بقوم يونس لمرجحات أخرى، قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله (ت: ٤٨٩هـ)[١]: «واختلف القول في أنهم هل رأوا العذاب عياناً أو رأوا دليل العذاب؟ فالأكثرون على أنهم رأوا العذاب عياناً، قال قتادة: تدنى عليهم العذاب حتى صار بينهم وبين العذاب قدر ميل، وقال بعضهم: رأوا دليل العذاب، ولم يروا عين العذاب.

والقول الأول أصح، بدليل قوله: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ [يونس: ٩٨]، والكشف إنما يكون بعد وقوع العذاب أو قرب العذاب.

فإن قال قائل: كيف قُبل إيمانهم عند المعاينة، ولم يقبل إيمان غيرهم، وقد قال في موضع آخر: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، دلَّ على أن الإيمان المقبول هو الإيمان بالغيب؟

الجواب: أن قوم يونس استثنوا من هذا الأصل بنص القرآن، والله تعالى يفعل ما يشاء، ولا سؤال عليه فيما يفعل».

وقال ابن الأنباري رحمه الله[٢] : «علم منهم صدق النيات بخلاف من تقدمهم من الهالكين».

---

(١) تفسير القرآن (٢/٤٠٦).

(٢) البحر المحيط (٥/١٩٢).

ثانياً: تغير سُنَّة الله في استئصال الأمم المكذبة بعد هلاك فرعون:

سُنَّة الله كانت معلومة في إهلاك الأمم المكذبة بعد أن يستنفذ رسلهم كل سبيل وطريق لهدايتهم كما حصل لقوم عاد وثمود، وجرى أمر الله في الأمم المكذبة على هذه الطريقة إلى إهلاك فرعون، ثم تغيرت سُنَّة الله بعد ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله [١]: «يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم، عليه من ربه الصلاة والتسليم، من إنزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملأه.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني: أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة».

وقال العلامة أبو محمد ابن عطية الأندلسي رحمه الله (ت:٥٤٦هـ) [٢]: «وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ إخبار بأنه أنزل التوراة على موسى بعد هلاك فرعون وقومه، وبعد

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/٢٣٩).

(٢) المحرر الوجيز (١٢/١٦٩).

هذه الأمم الذي تقدم ذكرها من عاد وثمود وقرية قوم لوط وغيرها، والقصد بهذا الإخبار التمثيل لقريش بما تقدم في غيرها من الأمم، وقالت فرقة إن الآية مضمنة أن إنزال التوراة على موسى هو بعد أن رفع الله تعالى عذاب الأمم فلم تعذب أمة بعد نزول التوراة إلا القرية التي مُسخت قردة، فيما روي».

ثم قال[1] : «وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: ما أهلك الله تعالى أمة بعذاب منذ أنزل التوراة إلى الأرض غير القرية التي مُسخت قردة، وهم الذين تعدوا في السبت، وهذا التعذيب من سبب شرع موسى، فكأنه لا ينقص فضيلة التوراة برفع العذاب عن الأرض».

ثالثاً: بكاء يعقوب على يوسف عليهما السلام لا ينافي صبره:

الأنبياء عليهم السلام جميعهم ابتلوا فصبروا فهل انفرد يعقوب عليه السلام عنهم في هذا الأمر العظيم؟

هذا الإشكال أورده العلماء المتقدمون، قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله (ت: ٤٨٩)[2] : «فإن قال قائل كيف بكى يعقوب كل هذا البكاء وحزن هذا الحزن، وهل أصيب إلا بفقد ولد واحد، أفما كان عليه أن يسلم الأمر إلى الله تعالى ويصبر؟

---

(١) المحرر الوجيز (١٢/١٦٩).

(٢) تفسير القرآن (٣/٥٩).

الجواب عنه: أنه امتُحن في هذا بما لم يمتحن به غيره، ولم يسأل عن يوسف مع طول الزمان، وكان ابتلاؤه فيه أنه لم يعلم حياته فيرجو رؤيته، ولم يعلم موته فيسأل عنه، وكان يوسف من بين سائر الإخوة خصَّ بالجمال الكامل، والعقل، وحسن الخلق، وسائر ما يميل القلب إليه.

وروي عن الحسن البصري رحمه الله أنه مات أخوه فبكى عليه بكاء شديداً، فسئل عن ذلك؟ فقال: سبحان من لم يجعل الحزن عاراً على أهله».

* * *



الفصل الرابع

قصص غير النبيين



قصص غير النبيين في القرآن

مع ما كثر ذكره في القرآن من قصص النبيين، قصَّ الله علينا قصص أوليائه الصالحين من غير النبيين كذي القرنين، ولقمان، وأصحاب الكهف، وغيرهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله [1] : «قصة أهل الكهف وقصة ذي القرنين كل منهما هي في جنسها أحسن من غيرها، **فقصة ذي القرنين أحسن قصص الملوك، وقصة أهل الكهف أحسن قصص أولياء الله الذين كانوا في زمن الفترة**».

وهنا لعلي أُبرز أهم ما في قصص غير النبيين من الدروس المهمة على سبيل الاختصار، فمن أبرز الدروس المستفادة هو بذل الأسباب للتوصل للرزق، وهذا مستفاد من قوله تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٢).

قال الحافظ محمد بن علي الكرجي رحمه الله (ت: ٣٦٠هـ) في فوائد الآية[1] : «حجة في تثبيت الأسباب ورد على جهلة الصوفية فيما يزعمون أن التوصل إلى الرزق بالطلب والسعي والحركة نقص في التوكل، وذلك غلط غير مشكل، ألا يرون أن الله - تبارك وتعالى - كان قادراً على إزالة البِلى عن أصحاب الكهف بغير تقليب، فهل يزعمون - ويحهم - أن تقليبه إياهم يميناً وشمالاً نقص في قدرته، أم يرجعون عن قولهم فيعلمون أن الله - جل جلاله - لما جعل سبب البلى طول المكث على جنب قلبهم إلى الآخر ليزول البلى عن القوم بالسبب الذي جعله لهم ولغيرهم، ولما جعل الرزق موصولاً إليه بالسعي والحركة حركهم للطلب ليصير إليهم رزقهم بالسبب الذي جعله له، ولم يكن سعي الساعي وحركته فيطلب الرزق بالسبب المجعول له نقصاً في التوكل، ولا تداوي المريض يكون نقصاً في التوكل على هذا المعنى».

ومن آكد ما يستفاد من قصص غير النبيين العدل في الأحكام والقضاء والسياسات، فقد قص الله علينا خبر الملك الصالح حيث قال سبحانه : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: ٨٣]، وقال سبحانه عن قاعدته في التعامل مع الخلق: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾

(١) نكت البيان الدالة على القرآن (٢/١٨٥ - ١٨٦).

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: ٨٧ – ٨٨].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله [(١)] : «حكم عدل: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ وذلك بالشرك لأن الظلم يطلق على الشرك وعلى غيره، لكن الظاهر والله أعلم أن المراد به الشرك لأنه قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف: ٨٨]. يقول: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ العذاب الذي يكون تعزيراً، وعذاب التعزير يرجع إلى رأي الحاكم، إما بالقتل أو بغيره. ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ لأن العقوبات لا تطهر الكافرين، فالمسلم تطهره العقوبات، أما الكافر فلا، فإنه يعذب في الدنيا وفي الآخرة، نعوذ بالله من ذلك.

قوله: ﴿نُّكْرًا﴾ ينكره المُعَذَّب بفتح الذال، ولكنه بالنسبة لله تعالى ليس بنُكر، بل هو حق وعدل، لكنه ينكره المُعَذَّب ويرى أنه شديد.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٨]، المؤمن العامل للصالحات له جزاء عند الله ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾

---

(١) تفسير سورة الكهف ص ١٢٧ – ١٢٩.

وهي الجنَّة كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: ٢٦]، فسَّرها النبي ﷺ بأن: (الحسنى) هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجه الله.

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي سنقول له قولاً يسراً لا صعوبة فيه، فوعد الظالم بأمرين: أنه يعذبه، وأنه يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نُكراً، والمؤمن وعده بأمرين: بأن له (الحسنى) وأنه يعامله بما فيه اليسر والسهولة، لكن تأمَّل في حال المشرك بدأ بتعذيبه ثم ثنى بتعذيب الله، والمؤمن بدأ بثواب الله أولاً ثم بالمعاملة باليسر ثانياً، والفرق ظاهر لأن مقصود المؤمن الوصول إلى الجنة، والوصول إلى الجنَّة لا شك أنه أفضل وأحب إليه من أن يقال له قول يسر، وأما الكافر فعذاب الدنيا سابق على عذاب الآخرة وأيسر منه فبدأ به، وأيضاً فالكافر يخاف من عذاب الدنيا أكثر من عذاب الآخرة، لأنه لا يؤمن بالثاني».

وأما لقمان فأعظم ما نستفيده من قصته أهمية الحكمة ومكانتها، وبيان فضلها في الشرائع كلها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢]. وهذا مما تحلى به لقمان في أعلى درجاته، وهو أخص ما عُرف به لقمان، كذلك يستفاد هذا من وصيته التي أوصى بها ابنه وهي وصية حكيم أُدرجت النبوة بين جنبيه.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾[لقمان: ١٣ - ١٤].

قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله (ت: ٦٦١هـ)[1] : «**فنبّه بهذا على أن الحكمة الأصلية توحيد الله سبحانه وتعالى وشكره**».

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله (ت: ١٣٧٦هـ) مبيناً الحكم العظيمة في وصايا لقمان الحكيم[2] : «هذه الوصايا التي وصى بها لقمان لابنه تجمع أمهات الحِكَم، وتستلزم ما لم يُذكر منها، وكلُّ وصية يُقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمراً وإلى تركها إن كانت نهياً، وهذا يدل على ما ذكرناه في تفسير الحكمة: أنها العلم بالأحكام وحِكَمِها ومناسباتها: فأمره بأصل الدين وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك، وبيَّن له الموجب لتركه.

وأمره ببر الوالدين، وبيَّن له السبب الموجب لبرِّهما، وأمره بشكره وشكرهما، ثم احترز بأن محل برهما وامتثال أوامرهما ما لم يأمرا بمعصية، ومع ذلك فلا يعقُّهما، بل يُحسن إليهما، وإن كان لا يطيعهما إذا جاهداه على الشرك، وأمره بمراقبة الله وخوفه القدوم

(١) رموز الكنوز (٦/٥٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٧٦٣.

عليه، وأنه لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً من الخير والشر إلا أتى بها، ونهاه عن التكبُّر، وأمره بالتواضع، ونهاه عن البطر والأشرِ والمرح، وأمره بالسكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضد ذلك. وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وبالصبر اللذين يسهل بهما كل أمر، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ٤٥]، فحقيق بمن أوصى بهذه الوصايا أن يكون مخصوصاً بالحكمة مشهوراً بها، ولهذا من منَّة الله عليه وعلى سائر عباده أن قصَّ عليهم من حكمته ما يكون لهم به أسوة حسنة».

* * *

الباب السادس:

أدعية القرآن



أدعية القرآن

أخبرنا الله في القرآن بما جرى للأنبياء من قصص وحوادث ونوازل ومقامات عظيمة، وما كان من دعائهم في تلك المقامات والتي كانت سبباً في تفريج الكربات وزوال المشقات، قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧ - ٨٨].

فالدعاء العظيم: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، دعاء بكلمة التوحيد والاعتراف بالذنب لله كان سبباً في تفريج كربة ذي النون.

فهذا لم يقصه الله علينا لمجرد الاستمتاع، فهو أسوة المؤمنين، فالابتهال إلى الله بهذا الدعاء لكل المؤمنين هو من أسباب تفريج كرباتهم، ولا أدل على ذلك من ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وأدعية القرآن كلها خير وبركة سواء ما أرشدنا الله إليه ابتداءً أو ما قصه علينا مما دعا به النبيون عليهم السلام.

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله (ت: ١٣٧٦هـ)(١) :

«لمّا كان الدُّعاء مخُّ العبادة ولبُّها وخالصها، لكونه متضمِّناً للافتقار التَّامِّ لله، والخشوع والخضوع بين يديه، وتنوُّع عبوديَّات القلب، وكثرة المطالب المهمَّة، كان أفضله وأعلاه ما كان أنفع للعبد، وأصحُّ من غيره، وأجمع لكل خير، وتلك أدعية القرآن التي أخبر الله بها عن أنبيائه ورسله وعباده الأخيار التي كان سيِّد المرسلين يختارها على غيرها، ولمَّا كان من شروط الدعاء وآدابه: حضور قلب الدَّاعي، واستحضاره لمعاني ما يدعو به، **أحببت أن أنبِّه تنبيهاً لطيفاً على معاني أدعية القرآن، ليسهل استحضارها، فيعظم انتفاع العبد بها.**

فأفضل أدعية القرآن وأفرضها قوله تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧]. أي: علّمنا يا ربّنا! وألهمنا ووفقنا لسلوك الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، المشتمل على علم ما يحبه الله ورسوله، ويغضبه وتركه من كل وجه، وحقيقة ذلك أن الدَّاعي بهذا الدُّعاء يسأل الله تعالى أن يهديه الصراط المستقيم لمعرفة الحق والعمل به، ويجنبه طريق المغضوب عليهم: الذين عرفوا الحق وتركوه، وطريق الضالين: الذين تاهوا عن الحق فلم يعرفوه.

---

(١) المواهب الربانية ص ٧٨ – ٨٢.

ومن أجمع الأدعية وأنفعها: دعاء أرباب الهمم العالية الذين جمع الله لهم بين خيري الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

فصدَّروا دعاءهم بقولهم: ﴿رَبَّنَآ﴾، وذلك متضمن لاستحضارهم معنى تربية الله العامة، وهو الخلق والتدبير، وإيصال ما به تستقيم الأبدان، والتربية الخاصة لخيار خلقه الذين ربَّاهم بلطفه، وأصلح لهم دينهم ودنياهم، وتولَّاهم فأخرجهم من الظلمات إلى النور، وهذا متضمن لافتقارهم إلى ربهم، وأنهم لا يقدرون على تربية نفوسهم من كل وجه، فليس لهم غير ربهم يتولاهم ويصلح أمورهم، ولهذا كانت أغلب أدعية القرآن مصدَّرة بالتوسل إلى الله بربوبيته، لأنها أعظم الوسائل على الإطلاق، التي تحصل بها المحبوبات، وتندفع بها المكروهات.

وحسنة الدنيا: اسم جامع للعلم النَّافع، والعمل الصَّالح، وراحة القلب والجسم، والرِّزق الحلال الطَّيِّب من كل مأكل، ومشرب، وملبس، ومنكح، ومسكن، ونحوها؛ فهي اسم جامع لحسن الأحوال، وسلامتها من كل نقص.

وأمَّا حسنة الآخرة فهي: كلُّ ما أعدَّه الله لأوليائه في دار كرامته، مما لا عين رأت ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ولمَّا كانت حسنة الدُّنيا والآخرة تمامها وكمالها، الحفظ من عذاب النار، والحفظ من أسبابه، وهو: الذُّنوب والمعاصي، قالوا: ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، فاشتمل هذا الدُّعاء على كل خير ومطلوب محمود، ودفع كل شر وعذاب، ولهذا كان النبي ﷺ يدعو بهذا الدعاء كثيراً.

ومن ذلك: الدعاء الذي في آخر «سورة البقرة» الذي أخبر الله على لسان رسوله أنه قَبِلَه من المؤمنين حين دعوا به: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ولما كان إخلال العبد بأمر الله، قد يكون عمداً على وجه العلم، وقد يكون نسياناً وخطأً، وكان هذا القسم غير ناشئ عن عمل القلب الذي هو محلُّ الإثم وعدمه، سألوا ربهم أن لا يؤاخذهم بالنسيان والخطأ، وذلك عام في جميع الأمور، قال الله تعالى: قد فعلتُ.

ولما كانت - أيضاً - الشَّرائع التي شرعها الله لعباده لا بدَّ أن يحصل منهم التقصير فيها: إمَّا بفعل محظور، أو بترك مأمور، وذلك موجبٌ للشَّر والعقوبة - إن لم يغفره الله ويُزيله -، قالوا: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا﴾، فبهذه الأمور تندفع المكروهات والشرور كلها، ثم سألوا الله بعد ذلك الرَّحمة التي ينشأ عنها كل خير في الدنيا

والآخرة، ولمَّا كان أمر الدِّين والتمكين من فعل الخير، وترك الشَّر، لا يحصل ولا يتمُّ إلا بولاية الله وتولِّيه، ونصرته على الأعداء الكافرين من الشيطان وجنوده، قالوا: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾. قال تعالى: قد فعلت.

فالله تعالى يتولَّى عبده، وييسِّره لليسرى في جميع الأمور، فيدفع عنه الشُّرور، فهو نعم المولى ونعم النَّصير.

ومن هذا دعاء الراسخين في العلم بعد الثناء عليهم بالإيمان التام ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، فسألوا ربَّهم، وتوسلوا بربوبيته في حصول أفضل الوسائل، وهو استقامة القلوب على ما يحبه الله ويرضاه، والثَّبات على ذلك، وعدم زيغها عن هذه الهداية، وأجلّ المقاصد، وهو حصول رحمة الله تعالى التي يحصل معها خير الدُّنيا والآخرة، وختموا دعاءهم بالتوسل إلى ربِّهم باسمه الوهَّاب، أي: كثير العطايا، واسع الكرم، فمن كرمك يا وهَّاب نسألك الاستقامة، وعدم زيغ القلوب، وأن تهب لنا من لدنك رحمة، لأن الرحمة التي من لدنه لا يقادر قدرها، ولا يعلم ما فيها من البركات والخيرات إلَّا الذي وهبهم إيّاها.

ويشبه أن يكون قولهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، توسُّلاً إلى ربِّهم بإيمانهم

بهذا اليوم، وتصديق ربِّهم في وعده ووعيده، فإن التوسل إلى الله بالإيمان، ومنَّة الله به من الوسائل المطلوبة، فيكون هذا من تمام دعائهم». إلى أن قال[1] : «ومن ذلك دعاء أتباع الأنبياء في مواطن الشدائد وأنواع المحن: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧ - ١٤٨].

فدلَّ هذا على أن هذا الدعاء من الدعاء الذي استجابه الله، وأن أهله محسنون فيه، وذلك أنهم توسَّلوا إلى الله بربوبيته، فافتقروا إليه، وطلبوا أن يربّهم بما يصلح أحوالهم، وأن يغفر لهم الذنوب، وهي المعاصي المستقلة، وإسرافنا في أمرنا، وهي: تعدي ما حدَّ للعبد، ونُهِي عن مجاوزته، فكما أن التقصير يُلام عليه الإنسان، فكذلك المجاوزة للحدِّ، وأن يثبِّت أقدامهم، فيرزقهم الصَّبر والثبات والقوة، التي هي مادَّة النصر، وأن يمدَّهم بمدده الإلهي، وهو نصره على القوم الكافرين، فسألوا ربَّهم زوال المانع من النَّصر، وهي الذنوب والإسراف، وحصول سبب النَّصر، وهو نوعان: سببٌ داخلي، وهو: ثبات الأقدام، والصَّبر عند الإقدام، وسببٌ خارجي، وهو: نصره.

---

(١) المواهب الربانية ص ٨٣ – ٨٤.

ويشبه أن يكون قولهم: ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ توسلاً إلى الله، وأننا يا ربَّنا آمنَّا بك، واتَّبعنا رسلك، وحاربنا أعداءك، الذين كفروا بك وبرسلك، فمعاداتنا لهم، وقتالنا إيّاهم، لأجلك وفي سبيلك، فانصرنا عليهم لكوننا من حزبك وجندك، وهم جنود عدوِّك الشيطان الرجيم».

إلى أن قال: «وكذلك قوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٠].

فهذا توسُّلٌ إلى الله بربوبيته، أن تكون مداخل العبد ومخارجه كلُّها صدقاً، وذلك أن تكون صالحةً خالصةً لوجه الله، مقرونة بالاستعانة بالله، والتوكُّل عليه، وذلك يستلزم أن تكون حركات العبد كلُّها - ظاهرها وباطنها - طاعةً لله، وعملاً بما يحبُّه ويرضاه، وهذا هو الكمال من جهة العمل، وأما الكمال من جهة العلم فإنه يجعل الله له سلطاناً نصيراً، أي: حجة ظاهرة ناصرة، وقوَّةً يحصل بها نصر الحق وقمع الباطل، فيحصل باستجابة هذا الدعاء: العلم النافع، والعمل الصالح، والتمكين في الأرض.

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، فالعلم أجلُّ الأشياء، وبه تُعْرَف جميع الأشياء، فسؤاله وسؤال الزِّيادة منه من أفضل ما سأل السائلون» (١) .

---

(١) المواهب الربانية من الآيات القرآنية ص ٨٩ - ٩٠.

فاتحة الكتاب
أنفع وأوجب الأدعية

ونحن نذكر فضل الأدعية القرآنية، لا يمكن أن نغفل فاتحة الكتاب وما اشتملت عليه من الأدعية الجامعة النافعة[1]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله [2] : «إن معاني الفاتحة فيها الحوائج الأصلية التي لا بد للعباد منها، وقد بُسط الكلام عليها في غير هذا الموضع، وبيّن أن ما في الفاتحة من الثناء والدعاء وهو قول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧]، هو أفضل دعاء دعا به العبد ربه، وأنفع دعاء دعا به العبد ربه، فإنه يجمع مصالح الدين والدنيا والآخرة، والعبد دائماً محتاج إليه لا يقوم غيره مقامه، فلو حصل له أجر تسعة أعشار القرآن – دع ثلثه – ولم يحصل له مقصود هذا الدعاء لم يقم مقامه، ولم يسد مسده.

وهذا كما لو قُدّر أن الرجل تصدق بصدقات عظيمة وجاهد جهاداً عظيماً يكون أفضل من قراءة القرآن مرات وهو لم يصل ذلك

---

(١) نقلنا في بداية هذا المبحث كلاماً مختصراً لابن سعدي في المواهب الربانية.
(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ١٣١ – ١٣٣).

اليوم الصلوات الخمس لم يقم ثواب هذه الأعمال مقام هذه، كما لو كان عند الرجل من الذهب والفضة والرقيق والحيوان والعقار أموال عظيمة وليس عنده ما يتغدى به ويتعشى من الطعام فإنه يكون جائعاً متألماً فاسد الحال، ولا يقوم مقام الطعام الذي يحتاج إليه تلك الأموال العظيمة، ولهذا قال الشيخ أبو مدين رحمه الله: أشرف العلوم علم التوحيد، وأنفع العلم أحكام العبيد، فليس الأفضل الأشرف هو الذي ينفع في وقت، بل الأنفع في كل وقت ما يحتاج إليه العبد في ذلك الوقت، وهو فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه، ولهذا يقال: المفضول في مكانه وزمانه أفضل من الفاضل، إذ دل الشرع على أن الصلاة أفضل من القراءة، والقراءة أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، فهذا أمر مطلق».

وقال ابن القيم رحمه الله[1] : «فاتحة الكتاب التي لم يُنزل في القرآن، ولا في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الزبور مثلها، المتضمنة لجميع معاني كتب الله، المشتملة على ذكر أصول أسماء الرب - تعالى - ومجامعها، وهي الله، والرب، والرحمن، وإثبات المعاد، وذكر التوحيدين: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وذكر الافتقار إلى الرب سبحانه في طلب الإعانة وطلب الهداية، وتخصيصه سبحانه بذلك، وذكر أفضل الدعاء على الإطلاق وأنفعه

---

(١) زاد المعاد (٤/ ١٧٧ - ١٧٨).

وأفرضه، وما العباد أحوج شيء إليه، وهو الهداية إلى صراطه المستقيم، المتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته - بفعل ما أُمر به، واجتناب ما نهى عنه، والاستقامة عليه إلى الممات، ويتضمن ذكر أصناف الخلائق وانقسامهم إلى مُنْعم عليه بمعرفة الحق، والعمل به، ومحبته، وإيثاره، ومغضوب عليه بعدوله عن الحق بعد معرفته له، وضال بعدم معرفته له. وهؤلاء أقسام الخليقة مع تضمنها لإثبات القدر، والشرع، والأسماء، والصفات، والمعاد، والنبوات، وتزكية النفوس، وإصلاح القلوب، وذكر عدل الله وإحسانه، والرد على جميع أهل البدع والباطل، كما ذكرنا ذلك في كتابنا الكبير «مدراج السالكين» في شرحها. وحقيق بسورة هذا بعض شأنها، أن يُستشفى بها من الأدواء، ويُرقى بها اللديغ.

وبالجملة فما تضمنته الفاتحة من إخلاص العبودية والثناء على الله، وتفويض الأمر كله إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وسؤله مجامع النِّعم كلها، وهي الهداية التي تجلبُ النعم، وتدفع النقم، من أعظم الأدوية الشافية الكافية.

وقد قيل: إن موضع الرُّقية منها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ولا ريب أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدواء، فإن فيهما من عموم التفويض والتوكل، والالتجاء والاستعانة، والافتقار والطلب، والجمع بين أعلى الغايات، وهي عبادة الربِّ وحده،

وأشرف الوسائل وهي الاستعانة به على عبادته ما ليس في غيرها، ولقد مرَّ بي وقت بمكة سقمت فيه، وفقدت الطبيب والدواء، فكنت أتعالج بها، آخذ شربة من ماء زمزم، وأقرؤها عليها مراراً، ثم أشربه، فوجدتُ بذلك البرء التام، ثم صرت أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع، فأنتفع بها غاية الانتفاع».

* * *

الباب السابع:

أمثال القــرآن



أمثال القرآن

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧]، فالأمثال المضروبة في القرآن فيها تذكرة وبيان لمعاني عظيمة، ذكرها الله في قالب «أمثال» لما في ذلك من التشويق لمعرفة معاني تلك الأمثال مما يوجب رسوخ معانيها في النفوس.

وبمقدار النقص في معرفة معاني الأمثال القرآنية يفوت العبد علم كثير، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

قال عمرو بن مرة رحمه الله: «ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني، لأني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾»(١).

والناس يتفاضلون في معرفة معاني الأمثال القرآنية، وكلما عظم علم العالم علم من معاني الأمثال ما لا يعلمه من هو دونه علماً وفضلاً، قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: «عَقلْتُ عن رسول الله ﷺ ألف مثل»(٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٨٠).

(٢) رواه أحمد (٤/ ٢٠٣)، وحسن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٦٤) كما نقل محقق تفسير ابن كثير الشيخ سامي السلامة.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله [(١)]: «هذه منقبة عظيمة».

وقال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ)[(٢)]: «ضرب الأمثال في القرآن يُستفاد منه أمور التذكير والوعظ، والحث، والزَّجر، والاعتبار والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل كنسبته المحسوس إلى الحس.

وقد تأتي أمثال القرآن مشتملةً على بيان تفاوُت الأجر، وعلى المدح والذَّمِّ، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر».

ومن فوائد ضرب الأمثال في القرآن تشويق القارئ والمستمع لمعرفة المعنى، فيكون هذا أقوى في الانتفاع والفهم لما جُبلت عليه النفوس من حب الأمثال ومعرفة معانيها، كما أن فيها قوة بيان القرآن وجمال خطابه، لأنه ليس على نمط واحد، بل يُنوّع في أسلوب الخطاب، فتارة يكون الخطاب في أسلوب سؤال وجواب، وتارة بضرب الأمثال، ومرة بأسلوب القصص، وأحياناً بأسلوب المناظرات، وأخرى بأسلوب إلقاء المعلومة.

وبيّن العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله أن أمثال القرآن إنما هي في الأمور العظيمة، حيث قال رحمه الله[(٣)]: «إن الأمثال التي يضربها الله في القرآن إنما هي للأمور الكبار والمطالب العالية

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/٢٧٩).

(٢) بدائع الفوائد (٤/١٣١٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٧٤٢.

والمسائل الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها أهمُّ من غيرها، لاعتناء الله بها، وحثه عباده على تعقُّلها وتدبُّرها، فيبذلون جهدهم في معرفتها، وأما من لم يعقلها مع أهميتها، فإن ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم، لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمَّة، فعدم معرفته غيرها من باب أولى وأحرى، ولهذا أكثر ما يضرب اللهُ الأمثال في أصول الدّين ونحوها».

مثل التوحيد: قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

قال أبو محمد ابن عطية الأندلسي رحمه الله[١] : «لما ذكر الله تعالى أنه ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل مجملاً، جاء بعد ذلك بمَثَل في أهم الأمور وأعظمها خطراً وهو التوحيد، فمثَّل تعالى الكافر العابد للأوثان والشياطين بعَبْدٍ لرجال عدَّة، في أخلاقهم شكاسة ونقص وعدم مسامحة، فهم لذلك يُعذِّبون هذا العبد بأنهم يتضايقون في أوقاتهم، ويضايقون هذا العبد في كثرة العمل، فهو أبداً دائب ناصب، فكذلك عابد الأوثان، والذي يعتقد أن ضرَّه ونفعه عندها هو معذب الفكر بها، وبحراسة حاله منها، ومتى أرضى صنماً منها بالذبح له في زعمه تفكَّر فيما يصنع مع الآخر، فهو أبداً

(١) المحرر الوجيز (٧/ ٣٩٠ - ٣٩١).

في نصب وضلال، وكذلك هو المُصانع للناس، المُمْتحن بخدمة الملوك.

ومثَّل تعالى المؤمن بالله تبارك وتعالى وحده بعَبْد لرجل واحد يكلفه شغله، فهو يعمله على تؤدة، وقد ساس مولاه، فالمولى يغفر زلَّته، ويشكره على إجادة عمله».

مثل الإيمان:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله (ت: ٧٩٥هـ)[١]: «وقد ضرب الله مثلَ الإيمان بذلك في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.

والمراد بالكلمة كلمة التوحيد، وبأصلها التوحيد الثابت في القلوب، وأُكُلها: هو الأعمال الصالحة الناشئة منه.

وضرب النبي ﷺ مثل المؤمن والمسلم بالنخلة، ولو زال شيء من فروع النخلة، أو من ثمرها، لم يزل بذلك عنها اسم النخلة بالكلية، وإن كانت ناقصة الفروع أو الثمر».

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٥١ - ١٥٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت: ٧٢٨هـ)(١) : «فالكلمة الطيبة هي التوحيد، وهي كالشجرة، والأعمال ثمارها في كل وقت، فجميع الأعمال الحسنة تضاعف لصاحبها، وجميعها من عبادة الله وحده، وهي من فروع قوله: «لا إله إلا الله»، بل الأعمال تحقق قول: «لا إله إلا الله»، فإن الإيمان قول وعمل، قال النبي ﷺ: «الإيمان بضع وستون، أو بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: «لا إله إلا الله»، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق.

فمن قال الحسنة: «لا إله إلا الله» لم يرد أن هذه الكلمة وحدها هي الحسنة دون العمل بمقتضاها، بل هي عنده الشجرة الجامعة، والأعمال داخلة فيها وفروع لها».

مثل: الحق والباطل:

قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

قال العلامة أبو المظفر السمعاني رحمه الله (ت: ٤٨٩هـ)(٢) : «جعل هذا مثلاً للحق والباطل في القلوب، يعني: أن الباطل كالزبد

---

(١) تفسير آيات أشكلت (١/٣٤٨ – ٣٤٩).

(٢) تفسير القرآن (٣/٨٨).

يذهب ويضيع ويهلك، والحق كالماء وكهذه الأشياء يمكث ويبقى في القلوب، وقال بعضهم: هذا تسلية للمؤمنين، يعني أن أمر المشركين كذلك الزبد، يُرى في الصورة شيئاً ثابتاً وليس له حقيقة. وأمر المؤمنين كالماء المستقر في مكانه، فله الثبات والبقاء، يقال: للباطل جولة، وللحق دولة».

مثل: الحياة الدنيا:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله(١) : «هذه الآية تنزل منزلة البيان لجملة «متاع الحياة الدنيا»، المؤذنة بأن تمتعهم بالدنيا ما هو إلا لمدة قصيرة، فبيّنت هذه الآية أن التمتع صائر إلى زوال، وأطنب فشبهت هيئة التمتع بالدنيا لأصحابها بهيئة الزرع في نضارته ثم في مصيره إلى الحصد.

والمثل: الحال الماثلة على هيئة خاصة، كان التشبيه هنا تشبيه حالة مركبة بحالة مركبة، عبر عن ذلك بلفظ المثل الذي شاع في التشبيه المركب كما تقدم في أول سورة البقرة.

---

(١) التحرير والتنوير (١١/١٤١ – ١٤٤).

وصيغة القصر لتأكيد المقصود من التشبيه وهو سرعة الانقضاء. ولتنزيل السامعين منزلة من يحسب دوام بهجة الحياة الدنيا لأن حالهم في الانكباب على نعيم الدنيا كحال من يحسب دوامه، وينكر أن يكون له انقضاء سريع ومفاجئ. والمعنى: قصر حالة الحياة الدنيا على مشابهة حالة النبات الموصوف، فالقصر قصر قلب، بُني على تنزيل المخاطبين منزلة من يعتقد عكس تلك الحالة.

شبهت حالة الحياة في سرعة تقضيها وزوال نعيمها بعد البهجة به وتزايد نضارتها بحال نبات الأرض في ذهابه حطاماً ومصيره حصيداً.

ومن بديع هذا التشبه تضمنه لتشبيهات مفرقة من أطوار الحالين المتشابهين بحيث يصلح كل جزء من هذا التشبيه المركب لتشبيه جزء من الحالين المتشابهين، ولذلك أطنب وصف الحالين من ابتدائه.

فقوله: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، شبّه به ابتداء أطوار الحياة من وقت الصبا إذ ليس ثمة سوى الأمل في نعيم العيش ونضارته، فذلك الأمل يشبه حال نزول المطر من السماء في كونه سبب ما يؤمَّل منه من زخرف الأرض ونضارتها.

وقوله: ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ شُبه به طور ابتداء نضارة العيش وإقبال زهرة الحياة، فذلك يشبه خروج الزرع بعيد المطر

فيما يشاهد من بوارق المأمول، ولذلك عطف بفاء التعقيب للإيذان بسرعة ظهور النبات عقب المطر فيؤذن بسرعة نماء الحياة في أول أطوارها. وعبر عنه بالاختلاط بالماء بحيث ظهر قبل جفاف الماء، أي فاختلط النبات بالماء أي جاوره وقارنه.

وقوله: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾، وصف لنبات الأرض الذي منه أصناف يأكلها الناس من الخضروات والبقول، وأصنافٌ يأكلها الأنعام من العشب والكلأ، وذلك يشبَّه به ما ينعم به الناس في الحياة من اللذات وما ينعم به الحيوان، فإن له حظاً في نعيم الحياة بمقدار نطاق حياته.

ولما كان ذلك قد تضمن المأكول والآكل صحَّ أن تُشبه به رغبات الناس في تناول لذائذ الحياة على حسب اختلاف مراتب الهمم، وذلك يتضمن تشبيه معالي الأمور من نعم الدنيا التي تسمو إليها الهمم العوالي بالنبات الذي تقتاته الناس، وتشبيه سفاسف الأمور بالنبات الذي يأكله الأنعام، ويتضمن تشبيه الذين يجنحون إلى تلك السفاسف بالأنعام، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [محمد: ١٢]، والقول في ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ كالقول في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ [يونس: ٢٢]، وهو غاية شبّه بها بلوغ الانتفاع بخيرات الدنيا إلى أقصاه ونضوجه وتمامه وتكاثر أصنافه وانهماك الناس في تناولها ونسيانهم المصير إلى الفناء.

وأمر الله: تقديره وتكوينه وإتيانه: إصابة تلك الأرض بالحوائج المعجلة لها باليبس والفناء.

وفي معنى الغاية المستفاد من (حتى) ما يؤذن بأن بين مبدأ ظهور لذات الحياة وبين منتهاها مراتب جمة وأطواراً كثيرة، فذلك طوي في معنى (حتى).

وقوله: ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ ترديد في الوقت لإثارة التوقع من إمكان زوال نضارة الحياة في جميع الأزمنة، لأن الشيء المؤقت بمعين من الوقت يكون الناس في أمن من حلوله في غير ذلك الوقت.

والزخرف: اسم الذهب، وأطلق على ما يتزين به مما فيه ذهب وتلوين من الثياب والحلي.

وإطلاق أخذ الأرض زخرفها على حصول الزينة فيها استعارة مكنية. شبّهت الأرض بالمرأة حين تريد التزين فتُحضر فاخر ثيابها من حلي وألوان.

والعرب يطلقون على ذلك التناول اسم الأخذ، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال بشار ابن برد:

وخذي ملابس زينة ومُصبّغات وهي أفخر

وذكر (ازينت) عقب (زخرفها) ترشيح للاستعارة، لأن المرأة تأخذ زخرفها للتزين.

﴿ وَٱزَّيَّنَتۡ ﴾ أصلها تزينت فقلبت التاء زَاياً لتدغم في الزاي فسكنت وأدغمت واجتلبت همزة الوصل لأجل النطق بالساكن.

واعلم أن في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا ﴾ إشارة لإرادة الاستئصال فهو ينذر بالتهديد للكافرين ويجعل التمثيل أعلق بحياتهم، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤]، لاسيما وقد ضرب هذا المثل لتمتع الكافرين ببغيهم وإمهالهم عليه، ويزيد تلك الإشارة وضوحاً قوله: ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ ﴾ المؤذنُ بأن أهلها مقصودون بتلك الإصابة.

ومعنى: ﴿أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ أنهم مستمرون على الانتفاع بها محصلون لثمراتها، فأطلق على التمكن من الانتفاع ودوامه لفظ القدرة على وجه الاستعارة.

والحصيد: المحصود، وهو الزرع المقطوع من نباته. والإخبار عن الأرض بحصيد على طريق المجاز العقلي وإنما المحصود نباتها.

ومعنى ﴿ لَّمۡ تَغۡنَ ﴾ لم تَعْمُر، أي لم تعمر بالزرع.

يقال: غَنِي المكان إذا عَمَر، ومنه المغنَى للمكان المأهول، وضد أغنى أقفر المكان».

مثل: حياة القلوب بالوحي بحياة الأرض بالمطر النافع:

قال تعالى: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٥٠].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله (ت: ١٣٧٦هـ) [(١)] :

«فإذا كانت الأرض الخاشعة الخالية من كل نبت، إذا أنزل الله عليها المطر اهتزَّت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، واختلط نبتها، وكثرت أصنافه ومنافعه، جعله الله تعالى من أعظم الأدلة الدالة على سعة رحمته وكمال قدرته، وأنه سيحيي الموتى للجزاء.

فالدَّليل في القلب الخالي من العلم والخير حين ينزل الله عليه غيث الوحي فيهتزُّ بالنبات، وينبت من كل زوج بهيج من العلوم المختلفة النافعة، والمعارف الواسعة، والخير الكثير، والبرِّ الواسع، والإحسان الغزير، والمحبة لله ورسوله، وإخلاص الأعمال الظاهرة والباطنة لله وحده لا شريك له، والخوف، والرجاء، والتضرع، والخشوع لله، وأنواع العبادات، وأصناف التقربات، والنصح لله، ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين، وعامَّتهم، وغير ذلك من العلوم والأعمال الظاهرة والباطنة، والفتوحات الربانية، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، أعظم من الأرض بكثير، على سعة رحمة الله، وواسع جوده، وتنوُّع هباته، وكمال

---

(١) المواهب الربانية من الآيات القرآنية ص ٥٨.

اقتداره وعزّته، وأنه يحيي الموتى للجزاء، وأن عنده في الدَّار الأخرى من الخيرات والفضل ما لا يعلمه أحدٌ غيره.

وقد نبَّه الله على أن حياة القلوب بالوحي بمنزلة حياة الأرض بالغيث، وأن القلوب الخالية من الخير بمنزلة الأرض الخبيثة، فقال تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]».

والمثل لا يلزم أن ينص عليه في الآية أنه مثل، فقد تتضمن الآية معنى ذلك دون لفظ المثل.

كما قال تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا مثل الرجل يعمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أحرق أعماله[١] .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله (ت: ٧٤٤هـ)[٢] : «وفي الحديث كفاية في تفسير هذه الآية، وتبيين ما فيها من المثل بعمل

---

(١) رواه البخاري كتاب التفسير باب قوله: (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب)، (ص ٧٧١ – رقم ٤٥٣٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٧٠٠).

من حسن العمل أولاً، ثم بعد ذلك انعكس سيره، فبدل الحسنات بالسيئات، عياذاً بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه فيما تقدم من الصالح، واحتاج إلى شيء من الأول في أضيق الأحوال، فلم يحصل له منه شيء، وخانه أحوج ما كان إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾ وهو الريح الشديد ﴿فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ أي: أحرق ثمارها وأباد أشجارها، فأي حال يكون حاله».

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ - ٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أجلٌ أو مَثَلٌ ضُرب لمحمد ﷺ نُعيت له نفسه[1].

كما أن قصص القرآن ومعانيه باتت أمثلة سائرة تستخدم في نظير أحوالها ومعانيها، من ذلك من لزم الحق فانحرف إلى الباطل.

قال أبو بكر السمرقندي رحمه الله[2]: «كان مشايخنا يسمون أبا

(١) رواه البخاري كتاب التفسير باب قوله: ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾ (ص ٨٩١ - رقم ٤٩٦٩).

(٢) شرف أصحاب الحديث (رقم ١٦٢).

بكر بن إسماعيل أبا ثمود، لأنه كان من أصحاب الحديث فصار من أهل الرأي، يقول الله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله [(١)] : «فالأمثال المضروبة في القرآن منها ما يصرح فيه بتسميته مثلاً، ومنها ما لا يسمى بذلك، ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ ﴾ [البقرة: ١٧] ، والذي يليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ ﴾ [البقرة: ١٧١]، ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] الآية، ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، والذي بعده ليس فيه لفظ مثل ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ﴾ [آل عمران: ١١]، في الثلاثة ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ ﴾ [آل عمران: ١٣]».

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٦٥).

الباب الثامن:

إعجاز القرآن وبلاغته

الفصل الأول

إعجاز القرآن

معجزة فيها ألوف المعجزات

إعجاز القرآن يذهب بلب القارئ، ويبهر كل بصير بمعاني القرآن، فهو كلام الله، تلاوته طاعة، وذكره حياة، نور القلوب، وشفاء الصدور، حوى أخبار السابقين واللاحقين، وأحاط حكماً في كل صغير وكبير.

قال الحافظ البغوي رحمه الله (ت: ٥١٦هـ)[1] : «جعل الله القرآن دلالة على نبوته، أعجز الخلق عن الإتيان بمثله، أو مثل سورة من مثله، وأبقاه في أمته إلى قيام الساعة، ليكون حُجة على من جاء بعده ممن لم يره إلى يوم القيامة».

وقال البيهقي رحمه الله[2] : «فإنه أكثر الرسل آيات وبينات، وذكر بعض أهل العلم أن أعلام نبوته تبلغ ألفاً».

وقال شمس الدين الأصبهاني رحمه الله[3] : «جعل الله أكثر معجزات النبي ﷺ عقلية تُدرك بالبصيرة، لأن شريعته لما كانت باقية على صفحات الدهر والأيام ووجنات الأرض إلى يوم القيامة - كان أكثر معجزاته عقلية باقية، ولفرط ذكاء أمته وكمال أفهامهم.

---

(١) شرح السُّنَّة (١٣/ ٢٨٥).

(٢) دلائل النبوة (١/ ١٠).

(٣) المقدمات ص ١١، التيسير في قواعد علم التفسير ص ٢١٠ - ٢١٣.

وأما ما أتى به نبينا ﷺ من المعجزات الحسية كحنين الجذع ومجيء الشجرة، ونبوع الماء من بين أصابعه، وإطعام الخلق الكثير من الطعام اليسير، فقد أحصاها أصحاب الحديث في كتب دلائل النبوة. وأما أكثر معجزات موسى عليه السلام فحسية تدرك بالحس، لبلادة القوم الذين أرسل إليهم، ولقلة بصيرتهم».

وأنواع ما في هذا القرآن من الآيات والمعجزات متنوعة ومتصرفة على وجوه مختلفة مما يدل على كمال البيان في مجموع سوره وآياته، وأنه منزل من عليم خبير، ما هو بقول لا شاعر ولا كاهن.

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله[1] : «اعلم أولاً أن معنى الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ [الأنعام: ١٠٥] أي: وكذلك التصريف الواضح الذي تُصرف عليه الآيات على أنحاء مختلفة، من إقامة البراهين العقلية، وإفحام الخصوم، والوعد والوعيد، وبيان المحجَّة، كذلك التصريف الذي نصرِّف به الآيات في هذه السورة: نصرِّفها بغيرها من جميع القرآن مما يحتاج له البشر على أنحاء مختلفة من العقائد، والحلال والحرام، والآداب، والمكارم، والأمثال، والوعد والوعيد، كذلك التصريف الواضح على الأنحاء المختلفة، نُصرف الآيات.

(١) العذب النمير (٢/٥١٢ - ٥١٣).

وتصريف القرآن بهذه الأساليب العظيمة لحكمة مفترقة إلى شيئين: أي: ليؤمن به من وفقه الله، وليُكذب به من خذله الله فيقول: دَرَسْتَ هذا القرآن على غيرك، وأخذته من غيرك، كما قالوا: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، والمعنى: نُصرِّف آيات القرآن على أنحاء مختلفة، في أكمل بيان وأوضحه، لنخذل قوماً، ونوفق آخرين، لأن الله أنزل هذا القرآن، وصدق في علمه أنه يؤمن به قوم فيُدخلهم الجنة، ويكفر به آخرون فيدخلهم النار، لأن هذا القرآن منذ أنزله الله لا يدخل أحد الجنة إلا عن طريق العمل به، ولا النار إلا عن طريق الإعراض عنه، فالعمل به مفتاح الجنة، والإعراض عنه مفتاح النار ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾[هود: ١٧]».

* * *

إعجاز القرآن بأمية المنزل عليه

من أوضح ما يكون من إعجاز القرآن وأنه تنزيل رب العالمين هو أن من أُنزل عليه القرآن نبينا محمد ﷺ أمّي لا يقرأ ولا يكتب، ولا هو بشاعر ولا كاهن، والقرآن الذي أوحي إليه قد جمع أنواع العلوم الباهرة، والأخبار الصادقة، والأحكام المتقنة.

قال العلامة عبدالرزاق الرسعني رحمه الله (ت: ٦٦١هـ)[١] :

«فإن قيل: لم مُنع عن قول الشعر؟

قلت: كما مُنع من الكتابة، لئلا يتخذ الكفرة ذلك ذريعة إلى الطعن عليه فيما جاء به من النظم البديع، فيقال: إنما تأتى له ذلك بحدة خاطره، وثقابة فطنته، وقوته على نظم القريض، وكذلك منع الكتابة لئلا يقال: نظر في الكتب القديمة وتسلط بها على إنشاء كتابه، واطلع فيها على الأمور المغيبة عنه.

فإن قيل: إذا كان ما ذكرته حكمةُ صرفه عن قول الشعر، فنراهم لم يتناهوا عنه، حتى قالوا: شاعر؟

قلت: لا جرم أن ذلك كسبهم شعار الكذب، وسلبهم وصف الإنصاف، وجعلهم عند أنفسهم كذبة فجرة، لعلمهم بحاله.

---

(١) رموز الكنوز (٦/ ٣٦٠).

ولهذا قال لهم الوليد بن المغيرة: لقد وضعت قوله على أقراء الشعر، فما رأيته يلتئم بها، فقولوا فيه غير ذلك، فقالوا: قل أنت؟ فقال: إن هذا إلا سحر يؤثر، وإنما راموا بذلك ترويج باطلهم عند جاهل غِرٍّ، أو متجاهل ذي غمر، وإلا فأين أسلوب القرآن من أساليب الشعر؟».

ومن إعجازه بعربيته هو فصاحته ورصف ألفاظه وقوة معانيه.

قال أبو محمد ابن عطية الأندلسي رحمه الله (ت: ٥٤٦هـ)[١] : «إن التحدي إنما وقع بنظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه، ووجه إعجازه أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كله علماً، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة لم تصلح أن تلي الأولى، وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل، والنسيان، والذهول، ومعلوم ضرورة أن بشراً لم يكن قط محيطاً.

فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، **وبهذا النظر يبطل قول من قال**: إن العرب كان من قدرتها أن تأتي بمثل القرآن، فلما جاء محمد ﷺ صُرفوا عن ذلك وعجزوا عنه.

والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن **لم يكن قط في قدرة أحد** من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع

---

(١) المحرر الوجيز (١/٣٨ - ٤٠).

خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها حولاً كاملاً، ثم تُعطى لآخر نظيره فيأخذها بقريحة جامة[1] فيبدّل فيها وينقّح ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل، كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد. ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام.

ألا ترى ميز الجارية نفس الأعشى، وميز الفرزدق نفس جرير من نفس ذي الرمة، ونظر الأعرابي في قوله: «عز فحكم فقطع» إلى كثير من الأمثلة اكتفيت بالإشارة إليها اختصاراً.

فصورة قيام الحجة بالقرآن على العرب أنه لما جاء محمد ﷺ به، وقال: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، قال كل فصيح في نفسه: وما بال هذا الكلام حتى لا آتي بمثله؟ فلما تأمله وتدبره، ميّز منه ما ميز الوليد بن المغيرة حين قال: «والله ما هو بالشعر، ولا هو بالكهانة، ولا بالجنون»، وعرف كل فصيح بينه وبين نفسه أنه لا يقدر بشر على مثله، فصح عنده أنه من عند الله تعالى.

فمنهم من آمن وأذعن، ومنهم من حسد كأبي جهل وغيره ففر إلى القتال، ورضي بسفك الدم عجزاً عن المعارضة، حتى أظهر الله

---

(١) مستريحة.

دينه، ودخل جميعهم فيه، ولم يمت رسول الله ﷺ وفي الأرض قبيل من العرب يعلن كفره. وقامت الحجة على العالم بالعرب إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة، كما قامت الحجة في معجزة عيسى بالأطباء، وفي معجزة موسى بالسحرة فإن الله تعالى إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع ما يكون في زمن النبي ﷺ الذي أراد إظهاره، فكان السحر في مدة موسى قد انتهى إلى غايته، وكذلك الطب في زمن عيسى، والفصاحة في مدة محمد ﷺ»[1].

وقال أبو الحسن السخاوي رحمه الله (ت: ٦٤٣هـ)[2] : «ولقد عجزت العرب مع قدرتها على التصرف في الكلام والفصاحة وفروع البلاغة عن معارضته بسورة، ومن السور ما يقلّ عدده، وقد أعلمهم أنهم لا يقدرون على ذلك، فنطق لسان الحال بعجزهم ووقوع عدده، وقد أعلمهم أنهم لا يقدرون على ذلك، فنطق لسان الحال بعجزهم ووقوع إياسهم من الوصول إلى شيء منه، وانحرفوا إلى القتال وبذل الأموال في المعاندة.

فالقرآن إذا لهذا السبب أعظم آياته ﷺ وأوضح الأدلة على صحة نبوته، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢] ، أي لا يرتاب فيه ذو لب».

(١) وما زالت باقية يعرف ذلك العارفون بمعانيه ورصف ألفاظه.

(٢) جمال القراء وكمال الإقراء (١/ ٤٥).

ومن إعجاز هذا القرآن أنك لا تمل قراءته مع تكراره أبداً، قال أبو الحسن السخاوي رحمه الله (ت: ٦٤٣هـ)[١] : «**كل قول مكرَّر مملول إلا القرآن، فإنه كلما كُرِّر حلا، فهو خير جليس**».

ومن إعجاز هذا القرآن في بلاغته طلاوة وحلاوة ألفاظه وإتقانه مهما تفاوتت آياته طولاً وقصراً، قال أبو الحسن السخاوي رحمه الله[٢] : «وكلام البشر وإن كان من فصيح بليغ، يظهر فيه إذا طال تفاوت واختلاف وإخلال، والقرآن العزيز على ذوق واحد، إن بشّر أو أنذر، أو وعظ وحذّر، أو قصّ وأخبر، أو نهى أو أمر، وليس ذلك لرؤساء الكلام وفحول النُظّام، فقد يجيد بعضهم المدح ويقصر في ضده، وفي وصف الخيل وسير الليل، دون وصف الحرب والجود والمطر والسيل.

والقرآن العزيز كله وإن أطال في هذه المعاني التي ذكرتها أو أوجز على قَرِيٍّ واحد، لا تعثر فيه على اختلاف، ولا أنت لتقصير بواجد، فلا يشك في صحة نزوله من عند الله عز وجل ذو بصيرة، ولا قدرة لأحد من البشر على أن يأتي بمثله، في إحكام معانيه، وانتظام ألفاظه، وبديع منهاجه».

---

(١) فتح الوصيد (١/ ٩١).

(٢) جمال القراء (١/ ٤٤ – ٤٥).

قال بعض البلغاء[1] : «فضل القرآن على سائر الكلام معروف غير مجهول، وظاهر غير خفي، يشهد بذلك عجز المتعاطين ووهن المتكلفين، وتحيُّرُ الكائدين، وهو المتلوُّ الذي لا يُمل، والجديد الذي لا يخلق، والحق الصادع والنور الساطع، والماحي لظلم الضلال، ولسانُ الصدق المؤنب للكذب، نذير قدَّمته الرحمة قبل الهلاك، هو ناعي الدنيا المتحولة، وبشير الآخرة المخلدة، ومفتاح الخير، ودليل الجنة، إن أوجز فكافيا، وإن كرر فمذكّرا، وإن أومأ فمقنعا، وإن أطال فمُفهما، وإن أمر فناصحا، وإن حكم فعادلا، وإن خبَّر فصادقاً، وإن بيَّن فشافياً، سهلٌ على الفهم، صعبٌ على التعاطي، قريب المأخذ، بعيد المرام، سراج تستضيء به القلوب، حلو إذا تذوقته العقول، بحر العلوم، وديوان الحكم، وجوهر الكَلِم، وشفاء سقام الريب، نزهة المتوسمين، وروح قلوب الموقنين، نزل به الروح الأمين على محمد خاتم النبيين، فخصم الباطل وصدع بالحق، وتألَّف النَّفرة، وانتاش من الهلكة، وواصل الله به النصر، وأضرع به خد الكفر».

ولما نزل على النبي ﷺ الوحي، تلاه على قومه كما أُنزل، ودعاهم إلى ما فيه من الدعوة للتوحيد وترك تقليد الآباء بالباطل، فكذّبه قومه وقالوا: شاعر، وكاهن، وهم مبطلون فيما افتروه، وإنما

---

(١) فتح الوصيد (١/ ٩١ - ٩٢).

ذكروا ذلك دفعاً للحق في نحره، وتفريجاً لمضايق إصرارهم على الباطل، وتشويشاً على سائر العرب.

قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١ - ٤٢].

قال العلامة الخطيب الإسكافي رحمه الله (ت: ٤٢٠هـ)[١] : «من نسب إلى النبي ﷺ إلى أنه شاعر وأن ما أتى به شعر، فهو جاحد كافر، لأنه يعلم أن القرآن ليس بشعر لا في اتزان آياته ولا في تشاكل مقاطعه، إذ منه آية طويلة، وأخرى إلى جنبها قصيرة كآية الدّين في طولها والآية التي قبلها في قصرها وهي: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وأما اختلاف المقاطع فإنه ينبئ العرب أيضاً شاعرها ومفحمها أنه ليس بشعر، فمن نسبه إلى أنه شاعر فهو لقلة إيمانه.

وأما من قال إنه كاهن، فإن كلام الكهنة نثر غير نظم، وفيه سجع وهو مخالف للشعر أيضاً، فمن قال إنه كلام الكهّان فإنه ذاهل عن تذكر ما بُني عليه كلامهم من السجع الذي يتبعون فيه معاني ألفاظهم، وحقّ اللفظ في البلاغة أن يكون تابعاً للمعنى، وهو ما عليه القرآن كقوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل (٣/١٢٩٤ - ١٢٩٦).

وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١]، فلو تذكر قائل هذا القول: إن هذا النثر مخالف لكلام الكهنة فيما ذكرناه لما قال إنه قول كاهن، فلذلك عقبه بقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢] ».

ومن إعجاز القرآن في بلاغته وفصاحته هو أن كلماته جوامع، معانيها كثيرة في ألفاظ موجزة، لو وردت في غير لغة القرآن لأفصحوا عنها في كلمات وجمل، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨].

قال مجد الدين الفيروزآبادي رحمه الله (ت: ٨١٧هـ)[1] : «والتَّبَتُّل يجمع أمرين: اتصالاً وانفصالاً لا يصح إلا بهما، فالانفصال انقطاع قلبه عن حظوظ النفس المزاحمة لمراد الربّ منه، وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله خوفاً منه، أو رغبةً فيه، أو مبالاة وفكراً فيه، بحيث يشتغل قلبه عن غير الله تعالى، والاتِّصال لا يصحّ إلا بعد هذا الانفصال. وهو اتّصال القلب بالله، وإقباله عليه، وإقامة وجهه له حُبّاً وخوفاً ورجاءً وإنابةً وتوكلاً. وهذا إنما يحصل بحسم مادة رجاء المخلوقين من قلبك، وهو الرّضا بحكم الله وقَسْمه لك، وبحَسْم مادة الخوف وهو التسليم لله، فإن من سلَّم لله واستسلم له

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢/٣٢٣ - ٣٢٤).

علم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه فلا يبقى للمخلوقين في قلبه موقع، فإن نفسه التي يخاف عليها قد سلَّمها إلى مولاها وأودعها عنده وجعلها تحت كنفه، حيث لا يناله يدُ عادٍ ولا بغي باغ، وبحسم مادة المبالاة بالناس. وهذا إنما يحصل بشهود الحقيقة وهو رؤية الأشياء كلها من الله، وبالله، وفي قبضته، وتحت قهر سلطانه، لا يتحرَّك منها شيء إلا بحوله وقوته، ولا ينفع ولا يضر إلا بإذنه ومشيئته، فما وجه المبالاة بالخلق بعد هذا الشهود».

* * *

إعجاز القرآن بعلومه الكونيّة

القرآن مليء بذكر تفاصيل ودقائق نشأة الكون، وصفة حركة الكواكب ووظائف النجوم، وهو مما يبهر العقول، إذ لم تهتد إليه إلا بعد قرون كثيرة.

ولأئمة الإسلام المتقدمين تأصيلات وتعليقات سبقوا بها كل من دوّن تفاصيل هذا العلم حديثاً.

ومهم جداً أن نبرز في هذا المقام شيئاً من الآيات الدالة على ما نرمي التنبيه عليه.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

فمعنى الآية أن السموات والأرض كانتا رتقاً ملتصقتين ففتقهما الله.

وكذلك أعلمنا الله بصفة خلقه للسموات والأرضين، والمدة التي خلقهما فيها، وتفصيل خلق ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً

لِلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [فصلت: ٩ - ١٢].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(١) : «خلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض، ودَحْيُها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله: (دحاها)، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]، فخُلقت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخُلقت السموات في يومين».

ثم قال(٢) : «فقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ يعني: يوم الأحد ويوم الاثنين، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ ، أي جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾، وهو: ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس، يعني: يوم الثلاثاء والأربعاء، فهما مع اليومين السابقين أربعة، ولهذا قال تعالى: ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠]، أي: لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه».

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/١٦٥ - ١٦٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/١٦٦).

وقد تكلم العلماء في الحكمة التي خلق الأرض في يومين وهو قادر على أن يخلقها في أقل من ذلك كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله[١] : «خلق في يومين ليرشد خلقه إلى الإناة في الأفعال، وليكون أبعد من توهم اتفاق أو فعل طبع، ولأنه لا سؤال عليه في خلقه فكيفما شاء خلق».

ويجتمع في آي القرآن الإعجاز اللغوي والعلمي فينسبك من مجموعها قوة العبارة وصدق الحقيقة، مثال ذلك: قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨ - ٥٠].

فانظر إلى التعبير القرآني «رياح» ولم يقل الله عز وجل في هذا الموضع ريح، قال أبو محمد ابن عطية الأندلسي رحمه الله مبيناً السر في ذلك[٢] : «قرأت فرقة الرياح وقرأت فرقة الريح على الجنس فهي بمعنى الرياح، وقد نسبنا القراءة في سورة الأعراف وقراءة الجمع أوجه لأن عرف الريح متى وردت في القرآن مفردة فإنما هي للعذاب، ومتى كانت للمطر والرحمة فإنما هي رياح لأن

---

(١) تفسير القرآن (٤/٣٨).

(٢) المحرر الوجيز (١٢/٢٨).

ريح المطر تتشعب وتتداءب وتتفرق وتأتي لينة من ها هنا وها هنا وشيئاً إثر شيء، وريح العذاب إذا خرجت لا تتداءب وإنما تأتي جسداً واحداً ألا ترى أنها تحطم ما تجد وتهدمه.

قال الرماني جمعت رياح الرحمة، لأنها ثلاثة: لواقح الجنوب، والصبا، والشمال، وأفردت ريح العذاب لأنها واحدة لا تلقح وهي الدبور».

وانظر ما ذكره الله من الآيات في المقدار الذي ينزل الله من المطر، فتلك آية كثير من الناس عنها غافلون، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[١] : «يذكر تعالى نعمه على عبيده التي لا تعدّ ولا تحصى، في إنزاله القطْر من السماء (بقدر) أي: **بحسب الحاجة**، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحتمل دِمْنتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما في أرض مصر، ويقال لها: «الأرض الجرز»، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٧٠).

فيأتي الماء يحمل طيناً أحمر، فيسقي أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه، لأن أرضهم سباخ يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور.

وقوله: ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابليَّة له، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى.

وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: لو شئنا ألا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري والبحار والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشُرب ولا لسقي لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض، بل ينجرّ على وجهها لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا. ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلالاً، فيسكنه في الأرض ويَسْلكه ينابيع في الأرض، فيفتح العيون والأنهار، فيسقي به الزروع والثمار، وتشربون منه، ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون منه وتتطهرون وتتنظفون، فله الحمد والمنّة».

والله عزَّ وجل في كتابه أمر بتذكر ما ضربه من الآيات والأمثال في إنزال المطر وتدبّر ذلك كما قال سبحانه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ

بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٨ - ٥٠].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1] : «قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾ أي: أمطرنا هذه الأرض دون هذه، وسقنا السحاب فمر على الأرض وتعداها وجاوزها إلى الأرض الأخرى، فأمطرتها وكفتها فجعلتها غدقاً، والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة.

قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما: ليس عام بأكثر مطراً من عام، ولكن الله يصرفه كيف شاء، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾، أي ليذكروا بإحياء الله الأرض الميتة أنه قادر على إحياء الأموات والعظام الرفات. أو: ليذكر من منع القطْر إنما أصابه ذلك بذنب أصابه فيقلع عما هو فيه».

وانظر إلى علم الفلك في القرآن وما اشتمل عليه من أساس هذا العلم ودقائقه قبل قرون عديدة من تدوين هذا العلم في مصنفات خاصة به.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/١١٥ - ١١٦).

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

قال الحسن البصري رحمه الله[1] : «الفَلَكُ طاحونة كهيئة فلكية المغزل، يريد: أنه مستدير كاستدارة الطاحونة».

وقال ابن قتيبة رحمه الله[2] : «الفَلكُ مدار النجوم الذي يَضُمُّها، سُمي فلَكاً، لاستدارته، ومنه: فلكةُ المِغْزَل، وقد فَلَّك ثدي المرأة».

وكذلك من الإعجاز العلمي في القرآن نطقه بكروية الأرض، يهتدي لمعنى ذلك ويبصر حقائقه من يتدبّر نصوص القرآن بفهم ثاقب، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[3] : «ففي هذه الآية والأحاديث الصحيحة المفسرة لها المستفيضة التي اتفق أهل العلم على صحتها وتلقيها بالقبول - ما يبيّن أن السموات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمة الله تعالى أصغر من أن تكون مع قبضه لها إلا كالشيء الصغير في يد أحدنا، حتى يدحوها كما تدحى الكرة».

---

(١) رموز الكنوز (٤/٦١٢).

(٢) رموز الكنوز (٤/٦١٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/٥٦٢).

ثم قال[1] : «وإذا كان كذلك فإذا قُدر أن المخلوقات كالكرة، وهذا قبضه لها ورميه بها، وإنما بيّن لنا من عظمته وصف المخلوقات بالنسبة إليه ما يعقل نظيره منا. ثم الذي في القرآن والحديث يبين أنه إن شاء قبضها وفعل بها ما ذكر، كما يفعل ذلك في يوم القيامة، وإن شاء لم يفعل ذلك، فهو قادر على أن يقبضها ويدحوها كالكرة، وفي ذلك من الإحاطة بها ما لا يخفى، وإن شاء لم يفعل ذلك، وبكل حال فهو مباين لها ليس بمحايث لها».

وقال تعالى عن سليمان عليه السلام ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣١ - ٣٢].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[2] : «من فوائد الآية أن الأرض كروية لأنه لما أثبت أنها تتوارى بالحجاب، دلَّ هذا على أن الأرض هي التي تحجبها، وهي كما نشاهد تنزل شيئاً فشيئاً حتى تكون في الأرض، فيدل ذلك على أن الأرض كروية، وهذا أيضاً أمر مقطوع به ولا إشكال فيه، فهو ظاهر من القرآن، وظاهر في الواقع، ففي القرآن يقول الله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ١ - ٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٦٤).

(٢) تفسير سورة «ص» ص ١٥٩.

﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾، وذلك يكون يوم القيامة، فقوله: ﴿وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ﴾ يدل على أنها قبل هذا ليست ممدودة، بل هي كروية، وهذا لا يعارض قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠]، لأن سطحها باعتبار المشاهدة، فأنت الآن إذا وقفت على الأرض تجدها مستوية إلى مد البصر».

كما أنه ليس في القرآن ما ينفي إمكانية الصعود للقمر، أما قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ [الرحمن: ٣٣].

فهذا النفوذ الممنوع إنما يكون يوم القيامة، قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله[1]: «قوله: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ أي: حجة، ويقال: لا تنفذون إلا في سلطان، والباء بمعنى في، حيثما كنتم فأنتم في سلطاني وملكي.

واختلفوا أن هذا القول متى يكون؟ فالأكثرون على أنه يوم القيامة يكون، وينزل الله تعالى الملائكة حتى ينفذوا على أقطار السموات والأرض، فإذا رأى الجن والإنس أهوال القيامة هربوا، فتردهم الملائكة».

---

(١) تفسير القرآن (٥/ ٣٣٠).

وقال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله[1] : «هذه الآية في سياقها إذا تأملتها وجدت أن هذا التحدي يوم القيامة، لأنه قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، ثم ذكر ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرحمن: ٢٩]، ثم ذكر ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾، ثم ذكر ما بعدها يوم القيامة، ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [الرحمن: ٣٧]، يعني تفتحت وذلك يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ١ - ٦]».

ومن آيات الإعجاز الكوني قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٥٣].

فيلتقي ماء البحر الملح الأجاج بماء النهر العذب الفرات في مواقع من الأرض فيحول الله بين طغيان الملح الأجاج على العذب الفرات، سواء كان بينهما برزخ ظاهر نشاهده أو لا نشاهده.

قال أبو محمد ابن عطية الأندلسي رحمه الله[2] : «والذي أقول به في الآية أن المقصد بها التنبيه على قدرة الله تعالى، وإتقان خلقه

---

(١) تفسير القرآن الكريم من «الحجرات إلى الحديد» (ص ٣١٦ - ٣١٧).

(٢) المحرر الوجيز (١٢/ ٣٠).

للأشياء في أن بث في الأرض مياهاً عذبة كثيرة من أنهار وعيون وآبار وجعلها خلال الأجاج، وجعل الأجاج خلالها، فتلقى البحر قد اكتنفته المياه العذبة في ضفتيه، وتلقى الماء العذب في الجزائر ونحوها قد اكتنفه الماء الأجاج، فبثها هكذا في الأرض هو خلطها، وهو قوله «مرج» ومنه «أمر مريج» أي مختلط مشتبك، ومنه مرجت عهودهم في الحديث المشهور، والبحران يريد بهما جميع الماء العذب وجميع الماء الأجاج، كأنه قال: مرج نوعي الماء، والبرزخ والحجر هو ما بين البحرين من الأرض واليبس، قاله الحسن».

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[1]: « ﴿مَرَجَ﴾ بمعنى أرسل البحرين، يعني المالح والعذب ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩]، يلتقي بعضهما ببعض، البحر المالح هذه البحار العظيمة، البحر الأحمر، والبحر الأبيض، والبحر الأطلسي، وهذه البحار كلها مالحة، وجعلها الله تبارك وتعالى مالحة، لأنها لو كانت عذبة لفسد الهواء وأنتنت، لكن الملح يمنع الإنتان والفساد، والبحر الآخر البحر العذب وهو الأنهار التي تأتي: إما من كثرة الأمطار، وإما من ثلوج تذوب وتسيح في الأرض، فالله سبحانه وتعالى أرسلهما بحكمته وقدرته حيث شاء عزَّ وجل ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: يلتقي بعضهما ببعض عند مصب النهر في البحر فيمتزج بعضهما ببعض، لكن حين سيرهما أو حين انفرادهما».

---

(١) تفسير سورة الرحمن ص ٣٠٨.

ثم قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[1] : «يقول الله عزَّ وجل: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ وهو اليابس من الأرض ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠] أي: لا يبغي أحدهما على الآخر، ولو شاء الله تعالى لسلَّط البحار ولفاضت على الأرض وغرقت الأرض، لأن البحر عندما تقف على الساحل لا تجد جداراً يمنع انسيابه إلى اليابس مع أن الأرض كروية، ومع ذلك لا يسيح البحر لا ها هنا، ولا ها هنا بقدرة الله عزَّ وجل، ولو شاء الله - سبحانه وتعالى - لساحت مياه البحر على اليابس من الأرض ودمرتها، إذن البرزخ الذي بينهما هو اليابس من الأرض هذا قول علماء الجغرافيا، وقال بعض أهل العلم: بل البرزخ أمر معنوي يحول بين المالح والعذب أن يختلط بعضهما ببعض، وقالوا: إنه يوجد الآن في عمق البحار عيون عذبة تنبع من الأرض، حتى إن الغواصين يغوصون إليها ويشربون منها كأعذب ماء، ومع ذلك لا تفسدها مياه البحار، فإذا ثبت ذلك فلا مانع من أن نقول بقول علماء الجغرافيا وقول علماء التفسير، والله على كل شيء قدير».

ومن آيات الإعجاز الكوني قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

---

(١) تفسير سورة الرحمن ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

فتأمل للتعبير القرآني كيف نعت الله «الشمس» بالضياء، و«القمر» بالنور، فهذا التخصيص في النعت لم يأت عبثاً، قال العلامة عبدالقاهر الجرجاني رحمه الله (ت: ٤٧١هـ)[١] : « (ضياء) مصدر كالبناء، والضياء أغلب من النور، لأنه يتعدى إلى غيرذاته أبداً، والنور قد يتعدى وقد لا يتعدى».

وقال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله[٢] : «هذا الدليل قد تضمن أشياء يأخذ المخاطبون بحظ عظيم من التمتع بها وهو خلق الشمس والقمر على صورتهما وتقدير تنقلاتهما تقديراً مضبوطاً أَلْهَمَ الله البشر للانتفاع به في شؤون كثيرة من شؤون حياتهم.

فجعل الشمس ضياء لانتفاع الناس بضيائها في مشاهدة ما تهمهم مشاهدته بما به قوام أعمال حياتهم في أوقات أشغالهم.

وجعل القمر نوراً للانتفاع بنوره انتفاعاً مناسباً للحاجة التي قد تعرض إلى طلب رؤية الأشياء في وقت الظلمة وهو الليل. ولذلك جُعل نوره أضعف ليُنتفع به بقدر ضرورة المنتفع، فمن لم يضطر إلى الانتفاع به لا يشعرُ بنوره ولا يصرفه ذلك عن سكونه الذي جُعل ظلام الليل لحصوله، ولو جعلت الشمس دائمة الظهور للناس

---

(١) دَرْجُ الدُّرر في تفسير الآي والسور (٣/٩٣٩).

(٢) التحرير والتنوير (١١/٩٣ – ٩٤).

لاستووا في استدامة الانتفاع بضيائها فيشغلهم ذلك عن السكون الذي يستجدون به ما فتر من قواهم العصبية التي بها نشاطهم وكمال حياتهم.

والضياء: النور الساطع القوي، لأنه يضيء للرائي. وهو اسم مشتق من الضوء، وهو النور الذي يوضح الأشياء، فالضياء أقوى من الضوء».

ثم قال[1]: «والنور: الشعاع، وهو مشتق من اسم النار، وهو أعم من الضياء، يصدق على الشعاع الضعيف والشعاع القوي، فضياء الشمس نور، ونور القمر ليس بضياء، هذا هو الأصل في إطلاق هذه الأسماء، ولكن يكثر في كلام العرب إطلاق بعض هذه الكلمات في موضع بعض آخر بحيث يعسر انضباطه».

ومن أعظم ما يكون من آيات الله العلمية المذكورة في القرآن والمشاهدة في الواقع خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله[2]: «بيّن لنا أنا ندخل بطون أمهاتنا نُطف ماء، ولذا قال: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ [الزمر: ٦] ينقلكم من طور إلى طور ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ

(١) التحرير والتنوير (١١/٩٤).
(٢) العذب النمير (٢/٤٩٥).

﴿لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣ - ١٤]، وهذا كله والواحد في ظلمات ثلاث: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦]، ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، لم يحتج خالق السماوات إلى أن يشق البطن، ويشق الرحم، ويزيل المشيمة التي على الولد، حتى يتمكن بصره، لا، بصره - جلا وعلا - وعلمه نافذ، يفعل هذه الأفعال الغريبة العجيبة، ولم تمنعه من ذلك الظلمات الثلاث».

وقال[1]: «وحذرنا - الله - أن ننصرف عن هذا، وأن نغفل عنه، لأنكم كلكم تعلمون أن الواحد منا لم يدخل رحم أمه مخططاً، وليس فيه يد، ولا رجل، ولا رأس، ولا عين، بل يدخل رحم أمه وهو نطفة من مني، ثم إن الخالق - جلا وعلا - ينقل بقدرته تلك النطفة فيجعلها دماً جامداً، وهو المعبَّر عنه بـ (العلاقة)، ثم يقلب ذلك الدم مضغة لحم ليس فيها تخطيط، ولا رجل، ولا يد، ثم إنه يقلب تلك المضغة هيكل عظام، ويرتب هذه العظام بعضها ببعض هذا الترتيب المحكم المتقن الذي يجده الواحد منكم، فيرتب السُّلاميات في السُّلاميات، والمفاصل بالمفاصل، وفقارى الظهر بفقارى الظهر، ويجعل هذه العظام على أم الدماغ، فيجعل له دماغه في هذا الغلاف الذي هو أم الدماغ، ويفتح في وجهه العينين،

---

(١) العذب النمير (٢/٤٦٨ - ٤٦٩).

ويصبغ بعضهما بصبغ أسود، وبعضها بصبغ أبيض، ويزينها بشعر الحواجب والجفون، ويجعل فيها حاسة البصر، ويفتح له الأنف، ويجعل فيه حاسة الشم، ويفتح له الفم، ويجعل فيه اللسان ليرد به شارد الطعام على أضراسه عند المضغ، ويبين به الكلام، حتى يقضي حاجته من بني الإنسان، ثم إنه جل وعلا يضع الكبد في محله، والكليتين في محلهما، وكل موضع في محله، ويوكله بوظيفته في تدبير الجسم، ويفتح الشرايين ليدور الدم، ويفتح مجاري البول والغائط، ولو جُرِّح عضو واحد من أعضاء الإنسان تشريحاً حقيقياً لبهر العقول ما أودع الله جل وعلا فيه من غرائب صنعه وعجائبه، فليس في الواحد منّا موضع رأس إبرة إلا وفيه من غرائب صنع خالقه وعجائبه ما يبهر العقول لو فكَّر».

* * *

إعجاز القرآن بإخباره عن المغيبات

قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١ - ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[1]: «وهذا شامل لخلق ما لا يعلمه العباد في تلك الأوقات الماضية، مما لم يشاهدوا له نظيراً، فيدخل فيه جميع المخترعات التي حدثت والتي تحدث إلى يوم القيامة من المراكب البرية والبحرية والهوائية، وما خلقه وعلَّمه الإنسان بواسطة الكيمياء والكهرباء من المخترعات المدهشة، ونقل الأصوات والأنوار من الأماكن الشاسعة في أسرع وقت.

وهذا من الآيات والبراهين التي دلَّ عليها القرآن، حيث لا يحدث حادث جليل أو حقير، كبير أو صغير، إلا وفي القرآن تصريح به، أو إدخاله في عموم أو مفهوم، وأنه لم يأت ولن يأتي علم صحيح ولا حادث حقيقي ينقض شيئاً من أدلة القرآن، فإنه

---

(١) فتح الرحيم الملك العلّام في علم العقائد والتوحيد ص ٩٢ - ٩٤.

تنزيل من حكيم محيط علمه بكل شيء، نفذت إرادته ومشيئته في كل شيء.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ٦٥]، وقد وقعت القنابل المهلكة والديناميت الناسف لما باشره أو قرب منه، والدخان الخانق وما أشبه ذلك. وهذا ينطبق على موصوفه غاية الانطباق، وفيه التنبيه على حدوث الآلات المقرِّبة للمواصلات، كما بسطنا ذلك في مواضع أُخر.

﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الدخان: ١٠ - ١١]، وقد ذكر الله التنادي بين أهل الجنة وأهل النار، مع البُعد المفرط والترائي، وقد أظهرت المكتشفات الكهربائية والكيمياوية مصداق ذلك، بعدما كان كثير من المكذبين يسخرون بإخبارات الرسل في هذا الباب ويستبعدونها، فأظهر الله في هذه الأوقات من البراهين ما يكذب المكذبين الجاحدين.

وهذا من مصداق قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، فلم يزل يُري عباده ويُحدث لهم من البراهين الدالة على صدق الرسل، وأن ما جاؤوا به هو الحق، وما خالفه هو الباطل، ولكن أبى المباهتون المكابرون إلا عتواً ونفوراً.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، فهذه المنافع التي علّمها الله الإنسان، فلم يزل يفرّعها الإنسان ويرقّيها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه، وهو جاد في طريقه في تنمية الصناعات والمخترعات.

وذلك كله داخل في تعليم الله له، وإلهامه وإيجاده تبارك وتعالى المنافع والقوى في مخلوقاته.

فالله تعالى هو الذي أوجد فيها القوى الصالحة لإيجاد المخترعات النافعة منها، والله هو الذي علَّم الإنسان ذلك، وذلك من آياته في الآفاق، وفي النفوس الدالة على أن ما جاء به الرسول حق، وإن لم يهتد لذلك أكثر الخلق ضلالاً عن الأدلة الحقيقية، أو عن وجه دلالتها، أو قيام عقائد باطلة صارفة وصادفة.

ومن ذلك: إخباره أن سنته في خليقته في نظام العالم، وفي الأسباب والمسببات، والجزاء بالحسنى وبالسوأى واحدة لا تتغير ولا تتبدل، وهي كلها جارية على مقتضى الحكمة التي يحمد عليها، وهذا شاهد شرعاً وقدراً.

وقد يُري عباده تعالى أنه يغير بعض المخلوقات عن نظامها المعتاد ليعرف العباد أنه المنفرد بالقدرة والتصرف، وأن جميع

الحوادث خاضعة لمشيئته وقدرته، وأن ما أخبرت به الرسل من أمور الغيب كلِّها حق، ولكن أبى الجاحدون إلا أن ينكروا ما كان الله أخبر به على ألسنة رسله مما كانوا الآن يعقلون ثم نظيره، فانقلب عليهم الأمر، وقلب الله قلوبهم كما لم يؤمنوا به لمَّا جاءهم، واستكبروا بعقولهم على الحق».

* * *

إعجاز القرآن التشريعي

الإعجاز التشريعي في القرآن يكاد يكون أكثر وأظهر وجوه إعجاز القرآن، أولاً من جهة أساسه، فإن قوامه العدل، ثانياً: انضباطه، فأحكامه جارية على الجميع، خلافاً لما كان عليه أهل الجاهلية، فكان الطلاق عندهم بلا عدد، يُطلِّق أحدهم امرأته بلا نهاية ولو إلى ألف مرة، فوضى ولا انضباط.

ومن أهم وأظهر وجوه الإعجاز التشريعي إحاطته بكل حكم صغير وكبير، وما كان ويكون لأنه من عند الله، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

ولعلنا نشير في هذا الموضع إلى الآية الجامعة لأصول التشريع، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله[1] : «لما جاء أن هذا القرآن تبيان لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، حسن

(١) التحرير والتنوير (١٤/٢٥٤ – ٢٥٨).

التخلص إلى تبيان أصول الهدى في التشريع للدّين الإسلامي العائدة إلى الأمر والنهي، إذ الشريعة كلها أمر ونهي[1]، والتقوى منحصرة في الامتثال والاجتناب، فهذه الآية استئناف لبيان كون الكتاب تبياناً لكل شيء، فهي جامعة أصول التشريع.

وافتتاح الجملة بحرف التوكيد للاهتمام بشأن ما حوته، وتصديرهما باسم الجلالة للتشريف، وذكر «يأمر» و«ينهى» دون أن يقال: اعدلوا واجتنبوا الفحشاء، للتشويق. ونظيره ما في الحديث: «**إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره لكم ثلاثاً**» الحديث.

والعدل: إعطاء الحق إلى صاحبه، وهو الأصل الجامع للحقوق الراجعة إلى الضروري والحاجي من الحقوق الذاتية، وحقوق المعاملات، إذ المسلم مأمور بالعدل في ذاته، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ومأمور بالعدل في المعاملة، وهي معاملة مع خالقه بالاعتراف له بصفاته وبأداء حقوقه، ومعاملة مع المخلوقات من أصول المعاشرة العائلية والمخالطة الاجتماعية، وذلك في الأقوال والأفعال، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

---

(١) وخبر أيضاً.

ومن هذا تفرعت شعب نظام المعاملات الاجتماعية من آداب، وحقوق وأقضية، وشهادات، ومعاملة مع الأمم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

ومرجع تفاصيل العدل إلى أدلة الشريعة، فالعدل هنا كلمة مجملة جامعة فهي بإجمالها مناسبة إلى أحوال المسلمين حين كانوا بمكة، فيصار فيها إلى ما هو مقرر بين الناس في أصول الشرائع، وإلى ما رسمته الشريعة من البيان في مواضع الخفاء، فحقوق المسلمين بعضهم على بعض من الأخوة والتناصح قد أصبحت من العدل بوضع الشريعة الإسلامية.

وأما الإحسان فهو معاملة بالحسنى ممن لا يلزمه إلى من هو أهلها، والحسن: ما كان محبوباً عند المعامل به ولم يكن لازماً لفاعله، وأعلاه ما كان في جانب الله تعالى مما فسره النبي ﷺ بقوله: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، ودون ذلك التقرّب إلى الله بالنوافل. ثم الإحسان في المعاملة فيما زاد على العدل الواجب، وهو يدخل في جميع الأقوال والأفعال ومع سائر الأصناف إلا ما حَرُم الإحسان بحكم الشرع.

ومن أدنى مراتب الإحسان ما في حديث الموطأ: «**إن امرأة بغيا رأت كلباً يلهث من العطش يأكل الثرى فنزعت خفّها وأدْلَتْه في بئر ونزعت فسقته فغفر الله لها**».

وفي الحديث: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة**».

ومن الإحسان أن يجازي المحسن إليه المحسن على إحسانه إذ ليس الجزاء بواجب. فإلى حقيقة الإحسان ترجع أصول وفروع آداب المعاشرة كلها في العائلة والصحبة. والعفو عن الحقوق الواجبة من الإحسان لقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. وتقدم عند قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وخص الله بالذكر من جنس أنواع العدل والإحسان نوعاً مُهماً يكثر أن يغفل الناس عنه ويتهاونوا بحقه أو بفضله، وهو إيتاء ذي القربى، فقد تقرر في نفوس الناس الاعتناء باجتلاب الأبعد واتقاء شره، كما تقرر في نفوسهم الغفلة عن القريب والاطمئنان من جانبه وتعوُّد التساهل في حقوقه. ولأجل ذلك كثر أن يأخذوا أموال الأيتام من مواليهم، قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْۖ﴾ [النساء: ٢]، وقال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقال: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ١٢٧] الآية. ولأجل ذلك صرفوا معظم إحسانهم إلى الأبعدين لاجتلاب المحمدة وحسن الذكر بين الناس، ولم يزل هذا الخلق متفشياً في الناس حتى في الإسلام إلى الآن ولا يكترثون بالأقربين. وقد كانوا في الجاهلية يقصدون بوصايا أموالهم أصحابهم من وجوه القوم، ولذلك قال تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]. فخص الله بالذكر من بين جنس العدل وجنس الإحسان إيتاء المال إلى ذي القربى تنبيهاً للمؤمنين بأن القريب أحق بالإنصاف من غيره، وأحق بالإحسان من غيره لأنه محل الغفلة، ولأن مصلحته أجدى من مصلحة أنواع كثيرة.

وهذا راجع إلى تقويم نظام العائلة والقبيلة تهيئة بنفوس الناس إلى أحكام المواريث التي شُرعت فيما بعد.

وعطف الخاص على العام اهتماماً به كثير في الكلام، فإيتاء ذي القربى ذو حكمين: وجوب لبعضه، وفضيلة لبعضه، وذلك قبل فرض الوصية، ثم فرض المواريث.

وذو القربى: هو صاحب القرابة، أي من المؤتى، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

والإيتاء: الإعطاء، والمراد: إعطاء المال، قال تعالى: ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل: ٣٦]، وقال: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ونهى الله عن الفحشاء والمنكر والبغي، وهي أصول المفاسد.

فأما الفحشاء: فاسم جامع لكل عمل أو قول تستفظعه النّفوس لفساده من الآثام التي تفسد نفس المرء: من اعتقاد باطل أو عمل

مفسد للخلق، والتي تضر بأفراد الناس بحيث تلقي فيهم الفساد من قتل أو سرقة أو قذف أو غصب مال، أو تضر بحال المجتمع وتدخل عليه الاضطراب من حرابة أو زنى أو تقامر أو شرب خمر، فدخل في الفحشاء كلّ ما يوجب اختلال المناسب الضروري، وقد سمّاها الله الفواحش، وتقدّم ذكر الفحشاء عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ١٦٩]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وهي مكية.

وأما المنكر فهو ما تستنكره النفوس المعتدلة وتكرهه الشريعة من فعل أو قول، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢]، وقال: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]. والاستنكار مراتب، منها مرتبة الحرام، ومنها مرتبة المكروه فإنه منهي عنه، وشمل المنكر كل ما يفضي إلى الإخلال بالمناسب الحاجي، وكذلك ما يعطل المناسب التحسيني بدون ما يفضي منه إلى ضر.

وخص الله بالذكر نوعاً من الفحشاء والمنكر، وهو البغي اهتماماً بالنهي عنه وسداً لذريعة وقوعه، لأن النفوس تنساق إليه بدافع الغضب، وتغفل عما يشمله من النهي من عموم الفحشاء بسبب فُشوّه بين الناس، وذلك أن العرب كانوا أهل بأس وشجاعة وإباء، فكانوا يكثر فيهم البغي على الغير إذا لقي المُعجب بنفسه من أحد

شيئاً يكرهه أو معاملةً يعدها هضيمة وتقصيراً في تعظيمه. وبذلك كان يختلط على مُريد البغي حُسْنُ الذب عمّا يسميه الشرف وقُبْح مجاوزة حد الجزاء.

فالبغي هو الاعتداء في المعاملة، إمّا بدون مقابلة ذنب كالغارة التي كانت وسيلة كسب في الجاهلية، وإما بمجاوزة الحد في مقابلة الذنب كالإفراط في المؤاخذة، ولذا قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٤]. وقال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠]، وقد تقدَّم عند قوله تعالى: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣] في سورة الأعراف. فهذه الآية جمعت أصول الشريعة في الأمر بثلاثة، والنهي عن ثلاثة، بل في الأمر بشيئين وتكملة، والنهي عن شيئين وتكملة».

ومن الإعجاز التشريعي في القرآن اضطراد أحكامه، خلافاً لما بدّله أهل الكتاب وشرعه أهل الجاهلية، فبنو النضير إذا قتلوا من بني قريظة أدوا نصف الدية، وإذا قتل بنو قريظة من بني النضير أدّوا إليهم الدية كاملة، فسوَّى رسول الله ﷺ بينهم.

وكان الرجل في الجاهلية يُطلّق امرأته إلى ما لا نهاية ويُراجعها، فجعل الإسلام الطلاق مرتين، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، إلى غير ذلك من عدل الأحكام.



الفصل الثاني
بلاغة القرآن



أساس البلاغة

قبل الحديث عن بلاغة القرآن، لابد أولاً من الكلام على أساس البلاغة لنتذوق معنى البلاغة، ومن أجمع ما قيل فيه حد الجاحظ رحمه الله، حيث قال[1]: «ومتى شاكل أبقاك الله اللفظ معناه، وكان لذلك الحال وفقاً، ولذلك القدر لفقاً، وخرج من سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التكلف، كان قمنا بحسن الموقع، وحقيقاً بانتفاع المستمع، وجديراً أن يمنع جانبه من تأول الطاعنين، ويحمي عرضه من اعتراض العائبين، ولا تزال القلوب به معمورة، والصدور به مأهولة،ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً في نفسه، متخيراً من جنسه، وكان سليماً من الفضول، بريئاً من التعقيد، حُبب إلى النفوس، واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول، وهشت له الأسماع، وارتاحت له القلوب، وخف على ألسن الرواة، وشاع في الآفاق ذكره، وعظم في الناس خطره، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس، ورياضة للمتعلم الريض.

ومن أعاره من معرفته نصيباً، وأفرغ عليه من محبته ذنوباً، حبب إليه المعاني، وسلس له نظام اللفظ، وكان قد أغنى المستمع عن كد التكلف، وأراح قاريء الكتاب من علاج التفهم».

---

(١) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (٥/٢١١٢).

وقال بدر الدين الزركشي رحمه الله (ت: ٧٩٤هـ) في أساس البلاغة [(١)]: «إن عمود البلاغة التي تجتمع لها هذه الصفات، وهو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما بتبدل المعنى الذي يفسد به الكلام، أو إذهاب الرونق الذي تسقط به البلاغة، وذلك أن في الكلام ألفاظاً مترادفة متقاربة المعاني في زعم أكثر الناس، كالعلم والمعرفة، والشح والبخل، والنعت والصفة، وكذا بلى ونعم، ومن وعن، ونحوها من الأسماء والأفعال والحروف، والأمر فيها عند الحذاق بخلاف ذلك، لأن كل لفظة منها خاصة تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها وإن اشتركا في بعضها.

ولهذا قال أبو العالية في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥]، أنه الذي ينصرف ولا يدري عن شفع أو وتر، فرد عليه الحسن بأنه لو كان كذلك لقال: «الذين هم في صلاتهم»، فلم يفرق أبو العالية بين (في) و(عن)، حتى تنبه له الحسن وقال: المراد به إخراجها عن وقتها».

ومن فصاحة القرآن وبلاغته هو أن ألفاظه بيّنة ظاهرة، قال ضياء

(١) البرهان في علوم القرآن ص ٣٩٠.

الدين ابن الأثير رحمه الله (ت:٦٣٧هـ) [١]: «إن الكلام هو الظاهر البين، وأعني بالظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة لا يحتاج في فهمها إلى استخراج من كتاب بلاغة، وإنما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرة في كلامهم، وإنما كانت مألوفة الاستعمال دائرة في الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حسنها، وذلك أن أرباب النظم والنثر غربلوا اللغة باعتبار ألفاظها، وسبروا وقسموا، فاختاروا الحسن من الألفاظ فاستعملوه، ونفوا القبيح منها فلم يستعملوه، فحسن الألفاظ سبب استعمالها دون غيرها، واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها، فالفصيح إذاً من الألفاظ هو الحسن».

ثم قال دافعاً توهم غموض ألفاظ القرآن [٢]: «فإن قيل: إنك قلت: إن الفصيح من الألفاظ هو الظاهر البيّن، أي «المفهوم»، ونرى من آيات القرآن مالا يفهم ما تضمنه من المعنى إلا باستنباط وتفسير، وتلك الآيات فصيحة لا محالة، وهذا بخلاف ما ذكرته، قلت: لأن الآيات التي تستنبط وتحتاج إلى تفسير ليس شيء منها إلا ومفردات ألفاظها كلها ظاهرة واضحة، وإنما التفسير يقع في غموض المعنى من جهة التركيب، لا من جهة ألفاظه المفردة، لأن معنى المفردة يتداخل بالتركيب، ويصير له هيئة تخصه، وهذا ليس

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١/ ٨١).

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١/ ٨٢ – ٨٣).

قدحاً في فصاحة تلك الألفاظ، لأنها إذا اعتبرت لفظة وجدت كلها فصيحة: أي ظاهرة واضحة، وأعجب ما في ذلك أن تكون الألفاظ المفردة التي تركبت منها المركبة واضحة كلها، وإذا نظر إليها مع التركيب احتاجت إلى استنباط وتفسير».

ومن بلاغة القرآن في ألفاظه هو تجدد فوائده، قال ابن القيم رحمه الله [(١)]: «إنه ليس في القرآن حرف زائد، وإن كل لفظة لها فائدة متجددة زائدة على أصل التركيب».

ومن بلاغة القرآن قوة ألفاظه، قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ) [(٢)]: «ألفاظه ملوك الألفاظ وأجلها وأفصحها، ولها من الفصاحة أعلى مراتبها التي تعجز عنها قدر العالمين».

وقوة اللفظ قوة في المعنى، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢]، فمقتدر هنا أبلغ من قادر، وإنما عدل إليه للدلالة على تفخيم الأمر وشدة الأخذ الذي لا يصدر إلا عن قوة الغضب، أو للدلالة على بسطة القدرة، فإن المقتدر أبلغ في البسطة من القادر، وذاك أن مقتدراً اسم فاعل من اقتدر، وقادر اسم فاعل من قدر، ولا شك أن افتعل أبلغ من فعل[(٣)].

---

(١) بدائع الفوائد (٦٢٨/٢).

(٢) بدائع الفوائد (٨٧٧/٣).

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٥٦/٢).

وكـذلك قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فالتواب وهو الذي تكرر منه التوبة مرة على مرة، وهـو فعَّال، وذلك أبلغ من التائب الذي هو فاعل، فالتائب اسم فاعـل من تاب يتوب فهو تائب: أي صدرت منه التوبـة مـرة واحـدة، فـإذا قيـل توَّاب، كان صدور التوبة منه مراراً كثيرة [١].

والزيادة في الألفاظ لا توجب زيادة في المعاني، إلا إذا تضمنت معنـى الفعليـة، لأن الأسـماء التـي لا معنـى للفعـل فيهـا إذا زيـدت استحال معناها، ألا ترى أنا لو نقلنا لفظة عـذب، وهـي ثلاثيـة، إلـى الرباعي، فقلنا: عَذْيَب، على وزن جعفر، لاستحال معناها، ولـم يكن لها معنى.

وقوة اللفظ لقوة المعنى لا تستقيم إلا في نقل صيغة إلـى صـيغة أكثر منها، كنقل الثلاثي إلى الرباعي، وإلا فإذا كانـت صيغة الربـاعي مثلاً موضوعة لمعنى فإنه لا يراد به ما أريد من نقل الثلاثي إلى مثل تلك الصيغة[٢].

فقد ورد قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمـل: ٤]، فـإن لفظـة «رتِّل»، على وزن لفظة قتل، ومع هذا ليست دالة على كثـرة القـراءة، وإنما المراد بها أن تكون القراءة على هيئـة التـأني والتـدبّر، وسـبب

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢/٥٧).

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢/٥٧).

ذلك أن هذه اللفظة لا ثلاثي لها حتى تنقل عنه إلى رباعي، وإنما هي رباعية موضوعة لهذه الهيئة المخصوصة من القراءة، وعلى هذا فلا يستقيم معنى الكثرة والقوة في اللفظ والمعنى إلا بالنقل من وزن إلى وزن أعلى منه [١].

ومن بلاغة القرآن هو أن معانيه أشرف وأفضل المعاني، قال بدر الدين الزركشي رحمه الله (ت: ٧٩٤هـ) [٢]: «إن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني من توحيد الله تعالى، وتنزيهه في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان لطريق عبادته في تحليل وتحريم وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساويها، واضعاً كل شيء منها موضوعه الذي لا يرى شيء أولى منه، ولا يتوهم في صورة العقل أمر أليق به منه، مودعاً أخبار القرون الماضية وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم، منبئاً عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الماضية من الزمان جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وإنباء عن وجوب ما أُمر به ونُهي عنه.

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢/ ٦٠).

(٢) البرهان في علوم القرآن ص ٣٨٩ – ٣٩٠.

ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق، أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله، ومناقضته في شكله».

فمعاني القرآن أفضل المعاني، ولا يجهل هذا أو يكابر فيه إلا المنافقون واليهود الذين لما سمعوا ذكر الله الذباب والعنكبوت قالوا: ما يشبه هذا كلام الله؟!!

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

قال ابن عطية الأندلسي رحمه الله(١): «أي أن هذه الأشياء ليست من نازل القول، إذ هي من الفصيح في المعنى المبلغ أغراض المتكلم إلى نفس السامع، فليست مما يستحى منه».

وقال ابن القيم رحمه الله (٢): «فإن ضرب الأمثال بالبعوضة فما فوقها إذا تضمن تحقيق الحق وإيضاحه، وإبطال الباطل وإدحاضه كان من أحسن الأشياء، والحسن لا يستحيا منه فهذا جواب الاعتراض».

---

(١) المحرر الوجيز (١/١٥١).

(٢) بدائع التفسير (١/٢٩٨).

ومن بلاغة القرآن حسن اتساقه في سبكه، فانظر مثلاً إلى أوائل سورة البقرة، من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] إلى قوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ - ٣٩]، فقد ذكر الله كتابه وأنه لا ريب فيه، ثم ذكر اختلاف الناس فيه، فابتدأ بالمستعدين للإيمان به المنتظرين للهدى الذي يضيء نوره منه، وثنى بالمؤمنين، وثلث بالكافرين، وقفى عليهم بالمنافقين. ثم ضرب الأمثال لفرق الصنف الرابع، ثم طالب الناس كلهم بعبادته، ثم أقام البرهان على كون الكتاب منزل من الله على عبده محمد ﷺ، وتحدى المرتابين بما أعجزهم، ثم حذر وأنذر، وبشّر ووعّد، ثم ذكر المثل والقدوة وهو الرسول ﷺ، وذكر اختلاف الناس فيه كما ذكر اختلافهم في الكتاب، ثم حاج الكافرين، وجاءهم بأنصع البراهين، وهو إحياؤهم مرتين، وإماتتهم مرتين، وخلق السماوات والأرض لمنافعهم، ثم ذكر خلق الإنسان وبيّن أطواره، ثم طفق يخاطب الأمم والشعوب الموجودة في البلاد التي ظهرت فيها النبوة تفصيلاً، فبدأ في هذه الآيات بذكر اليهود، فالكلام لم يخرج بهذا التنويع عن انتظامه في سلكه، وحسن اتساقه في سبكه، فهو دائر على قطب واحد في فلكه، وهو الكتاب، والمرسل به، وحاله مع المرسل إليهم [1].

(١) تفسير المنار (١/٢٨٩).

ومن بلاغة القرآن تفننه في أنواع التراكيب، واستيفاء مجموع كلماته في تراكيب جمله في مجموع سور القرآن أغراض البيان الإلهي، قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله [1]: «من جملة وجوه الإعجاز أموراً لا تظهر خصائصها إلا بالنظر إلى كلام مستوفى في غرض من الأغراض، وإنما تنزل سور القرآن في أغراض مقصودة، فلا غنى عن مراعاة الخصوصيات المناسبة لفواتح الكلام وخواتمه بحسب الغرض، واستيفاء الغرض المسوق له الكلام، وصحة التقسيم، ونكت الإجمال والتفصيل، وأحكام الانتقال من فن إلى آخر من فنون الغرض، ومناسبات الاستطراد والاعتراض، والخروج والرجوع، وفصل الجمل ووصلها، والإيجاز والإطناب، ونحو ذلك مما يرجع إلى نكت مجموع نظم الكلام، وتلك لا تظهر مطابقتها جلية إلا إذا تم الكلام واستوفى الغرض حقه، فلا جرم كان لنظم القرآن وحسن سبكه إعجاز يفوت قدرة البشر هو غير الإعجاز الذي لجمله وتراكيبه وفصاحة ألفاظه فكانت السورة من القرآن بمنزلة خطبة الخطيب وقصيدة الشاعر لا يُحكم لها بالتفوق إلا باعتبارات مجموعها بعد اعتبار أجزائها».

ومن بلاغة القرآن حلاوة ألفاظه: فألفاظه لها حلاوة في السمع، ونفوذ في القلب.

---

(١) التحرير والتنوير (١/٣٣٧).

قال الخطابي رحمه الله [1]: «صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا مأثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في حال أخرى، ما يخلص منه إليه، قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣]».

ومن بلاغة القرآن إيجازه، وحد الإيجاز هو دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه، والتطويل ضد ذلك [2].

وألفاظ القرآن مع إيجازها فإنه لا يمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها وفي عدتها [3].

فمن ذلك ما ورد في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، فإن قوله تعالى: ﴿ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾، لا يمكن التعبير عنه إلا بألفاظ كثيرة، لأن معناه أنه إذا قُتل القاتل امتنع غيره عن القتل، فأوجب ذلك حياة للناس، ولا يلتفت إلى ما ورد عن العرب من قولهم: القتل أنفى للقتل، فإن من لا يعلم يظن

---

(١) البرهان في علوم القرآن ص ٣٩١.

(٢) المثل السائر (١/ ٧٠).

(٣) المثل السائر (١/ ١١٧).

أن هذا على وزن الآية، وليس كذلك، بل بينهما فرق من ثلاثة أوجه:

الأول: أن ﴿ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ لفظتان، و(والقتل أنفى للقتل)، ثلاثة ألفاظ.

الوجه الثاني: أن في قولهم القتل أنفى للقتل تكريراً ليس في الآية.

الثالث: أنه ليس كل قتل نافياً للقتل، إلا إذا كان على حكم القصاص[1].

ومن إيجاز القرآن حذف الكلمات وحذف الجمل، قال ضياء الدين ابن الأثير رحمه الله (ت: ٦٣٧هـ) [2]: «أما الإيجاز بالحذف فإنه عجيب الأمر، شبيه بالسحر، وذاك أنك ترى فيه ترك الذكر أفصل من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون مبيناً إذا لم تبين، وهذه جملة تنكرها حتى تخبر، وتدفعها حتى تنظر.

والأصل في المحذوفات جميعها على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام ما يدل على المحذوف، فإن لم يكن هناك دليل على المحذوف فإنه لغو من الحديث لا يجوز بوجه، ولا سبب، ومن شرط المحذوف في حكم البلاغة أنه متى أُظهر صار الكلام إلى شيء غث، لا يناسب ما كان عليه أولاً من الطلاوة والحسن، وقد

---

(١) المثل السائر (١/ ١١٧).

(٢) المثل السائر (١/ ٧٧).

يظهر المحذوف بالإعراب كقولنا: وسهلاً، فإن نصب الأهل والسهل يدل على ناصب محذوف، وليس لهذا من الحسن ما للذي لا يظهر بالإعراب، وإنما يظهر بالنظر إلى تمام المعنى: أي أنه يحل الأمور ويعقدها، والذي يظهر بالإعراب يقع في المفردات من المحذوفات كثيراً، والذي لا يظهر بالإعراب يقع في الجمل من المحذوفات كثيراً».

ومعرفة هذا الأصل عون على فهم جملة من الأحكام والمسائل، من ذلك دفع ما استشكله بعض الناس من سماع داود عليه السلام لخصومة اللذين تسورا المحراب، فإنه لما سمع شكوى الشاكي أفتاه مباشرة، وكان واجبه أن يسمع جواب المدعى عليه، قال تعالى ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ إلى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [ص: ٢١-٢٤].

قال أبو حيان الأندلسي رحمه الله: «ثم محذوف أي فأقر المدعى عليه فقال لقد ظلمك، ولكنه لم يحك في القرآن اعتراف المدعى عليه، لأنه معلوم من الشرائع كلها إذ لا يحكم الحاكم إلا بعد إجابة المدعى عليه»[1].

---

(١) البحر المحيط ٣٩٢/٧.

ومن بلاغة القرآن تنوع أساليبه في عرض الحق، فتارة يذكر المسألة في قالب أجوبة على سؤالات، وتارة في قالب مناظرة، وتارة في قالب خبر محض، وهكذا.

قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥٢هـ) [1]: «والمادة الحق يمكن إبرازها في الصور المتعددة، وفي أي قالب أفرغت وصورة أبرزت ظهرت صحيحة، وهذا شأن مواد براهين القرآن في أي صورة أبرزتها ظهرت في غاية الصحة والبيان».

ومن بلاغة القرآن تكرار آياته، فتكرر لزيادة معنى ولفوائد جديدة، يعرف ذلك من يفهم الآيات في سياقها وفي مجموع الآيات ذات العلاقة، فتأمل مثلاً التكرار الواقع في الأمر باستقبال الكعبة، قال تعالى ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وقال تعالى ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٩]، وقال تعالى ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ

---

(١) بدائع الفوائد (٤/١٥٦٥ – ١٥٦٦).

إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٠]، قال العلامة عبدالقادر بن بدران رحمه الله مبيناً أسرار التكرار [١]: «إنما أعاد الله ذلك ثلاث مرات، لأن كل مرة تعلق بها فائدة زائدة، وهي في الآية الأولى: بيان أن أهل الكتاب يعلمون نبوة محمد ﷺ، وأن هذه القبلة حق لأنها قبلة إبراهيم عليه السلام، وهو الذي بنى الكعبة ودعى لأهلها، وفي الثانية: بيان أنه تعالى يشهد أن ذلك حق، وشهادة الله بكونه حقاً مغاير لعلم أهل الكتاب بكونه حقاً.

وفي الثالثة: بيان أنه إنما فعل ذلك لئلا يكون للناس عليكم حجة، فلما اختلفت الفوائد حسنت الإعادة ليترتب على كل معاد فائدة لم تكن في غيره».

ومن بلاغة القرآن التقديم والتأخير في ألفاظه لمعاني كثيرة، وبعض من لا يتلمح ذلك ربما ظنه لمجرد رعاية الفواصل، فانظر مثلاً قوله تعالى ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٣]، قال العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله عن شيخه [٢]: «أمر بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالركوع مع الراكعين، والركوع صورة الصلاة أو جزء من أجزائها، وقد أخّره ولم يصله بالصلاة

---

(١) جواهر الأفكار ومعادن الأسرار ص ٣٩١ – ٣٩٢.

(٢) تفسير المنار (١/ ٢٩٤).

لحكمة جليلة لا رعاية للفاصلة، كما زعم بعض المفسرين، فليس من الجائز أن يكون في القرآن ما يعرض فيه إخلال بالمعنى لأجل رعاية الفاصلة، بل هذا لا يرتضيه البلغاء من الناس فكيف يقع في كلام الله تعالى؟ .

وإنما وردت هذه الأوامر الثلاثة مرتبة كما يحب الله تعالى، فإقامة الصلاة في المرتبة الأولى من عبادة الله تعالى لأنها روح العبادة والإخلاص لها، ويليها إيتاء الزكاة لأنها تدل أيضاً على زكاء الروح وقوة الإيمان، وأما الركوع وهو صورة الصلاة البدنية أو بعض صورتها أشير به إليها فهو في المرتبة الثالثة فرض للتذكير بسابقيه وما هو بعبادة لذاته، وإنما كان عبادة لأنه يؤدى امتثالاً لأمر الله تعالى وإظهاراً لخشيته، والخشوع لعظمته، ولكنه قد يصير عادة لا يلاحظ فيها امتثال ولا إخلاص فلا يعد عند الله شيئاً، وإن عدّه أهل الرسوم كل شيء، بخلاف إقامة الصلاة بالمعنى الذي ذكرناه وإيتاء الزكاة، ولا يخفى أن الفصل بين معنى الصلاة وصورتها بالزكاة فيه تعظيم لشأن الزكاة».

ومعرفة معاني تقديم الألفاظ وتأخيرها يوقفك على بلاغة القرآن وأحكامه[1].

---

(١) بدائع الفوائد (١/٥٨ - ٦١).

ومن الأمور الملاحظة في التقديم والتأخير اعتبار:

١ - ترتيب الألفاظ بحسب الخفة والثقل لا بحسب المعنى: كقولهم: ربيعة ومضر، وكان تقديم مضر أولى من جهة الفضل، ولكن آثروا الخفة، لأنك لو قدمت مضر في اللفظ كثرت الحركات وتوالت، فلما أخرت وقف عليها بالسكون.

ومن هذا النحو: الجن والإنس، فإن لفظ الإنس أخف لمكان النون الخفيفة والسين المهموسة، فكان الأثقل أولى بأول الكلام من الأخف لنشاط المتكلم وجمامه، وأما في القرآن فلحكمة أخرى سوى هذه، قدم الجن على الإنس في الأكثر والأغلب.

٢ - ترتيب الألفاظ بحسب الزمان: نحو عاد وثمود، والظلمات والنور، فإن الظلمة سابقة للنور في المحسوس والمعقول، قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]، فالجهل ظلمة معقولة، وهي متقدمة بالزمان على نور العلم، ولذلك قال تعالى: ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦]، فهذه ثلاث محسوسات: ظلمة الرحم، وظلمة البطن، وظلمة المشيمة.

ومن تقدم الزمان، تقدم السبب على المسبب، كتقدم العزيز على الحكيم، لأنه عز فلما عز حكم، ونحوه قوله سبحانه: ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، لأن التوبة سبب الطهارة.

٣ - التقدم للرتبة: كقوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج: ٢٧]، لأن الذي يأتي راجلاً يأتي من المكان القريب، والذي يأتي على الضامر يأتي من المكان البعيد.

٤ - التقدم للفضل والشرف: نحو قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

فإذا عرفت بلاغة القرآن في ألفاظه، فتذوق تلك البلاغة على وجه تعرف معانيه بكل ما في ألفاظه من فوائد ومعان عظيمة، فاللفظة تأملها في اختيارها دون ما يقاربها في المعنى، والضمائر كذلك تأملها في سدها مسد الظواهر، وكذلك تأمل الألفاظ وما يقع فيها من تنكير وتعريف ودلالات ذلك، وكذلك ما يقع في الألفاظ من إفراد أو جمع.

فمثلاً قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١]، لم يقل الله عز وجل (ولا تستبدلوا بآياتي ثمناً قليلاً)، فتأمل المعنى البلاغي في ذلك.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فالنكتة في استعمال الختم مع القلب والسمع،

والغشاوة مع البصر، هي أن الختم من شأنه أن يكون على المكنون المستور، وهكذا موضع حس السمع، وموضع الإدراك من العقل، والإسماع في ظاهر الخلقة، وأما البصر فالحاسة منه ظاهرة منكشفة(١).

وأما مثال إفراد الكلمة وجمعها فتأمل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(٢): «وحّد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات، لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة، وكلها باطلة كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨]، إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتفرقه وتشعبه».

فإن قيل: فهلا كذلك في قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١].

قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥٢هـ)(٣): «قيل: جاءت مفردة، لأن المراد أهل هذه الجهة ومصيرهم ومآلهم إلى جهة واحدة، وهي جهة الشمال مستقر أهل النار، والنار من جهة الشمال فلا يحسن

---

(١) تفسير المنار (١٤٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٦٨٩).

(٣) بدائع الفوائد (١/ ١٠٩ - ١١١)، ط - دار النفائس.

مجيئها مجموعة، لأن الطرق الباطلة وإن تعددت فغايتها المرد إلى طريق الجحيم وهي جهة الشمال، وكذلك مجيئها مفردة في قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، لما كان المراد أن لكل عبد قعيدين: قعيداً عن يمينه، وقعيداً عن شماله، يحصيان عليه الخير والشر، فلكل عبد من يختص بيمينه وشماله من الحفظة فلا معنى للجمع ههنا، وهذا بخلاف قوله تعالى عن إبليس: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧]، فإن الجمع هنا في مقابلة كثرة من يريد إغواءهم، فكأنه أقسم أن يأتي كل واحد من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، ولا يحسن هنا عن يمينهم وعن شمالهم، بل الجمع ههنا من مقابلة الجملة بالجملة المقتضي توزيع الأفراد.

ونظيره: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]، وقد قال بعض الناس إن الشمال إنما جمعت في الظلال وأفرد اليمين، لأن الظل حين ينشأ أول النهار يكون في غاية الطول، يبدو كذلك ظلاً واحداً من جهة اليمين، ثم يأخذ في النقصان، وأما إذا أخذ في جهة الشمال فإنه يتزايد شيئاً فشيئاً، والثاني، من غير الأول، فلما زاد منه شيئاً، فهو غير ما كان قبله، فصار كل جزء منه كأنه ظل، فحسن جمع الشمائل في مقابلة تعدد الظلال وهذا معنى حسن.

ومن هذا المعنى مجيء المشرق والمغرب في القرآن تارة مجموعين وتارة مثنيين وتارة مفردين، لاختصاص كل محل بما

يقتضيه ذلك، فالأول كقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، والثاني كقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٧ - ١٨]، والثالث كقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، فتأمل هذه الحكمة البالغة في تغاير هذه المواضع، في الإفراد والجمع والتثنية، بحسب موادها، يطلعك على عظمة القرآن الكريم وجلالته، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

فحيث جمعت كان المراد بها مشارق الشمس ومغاربها في أيام السنة وهي متعددة، وحيث أفردت كان المراد أفقي المشرق والمغرب.

وحيث ثنيا كان المراد شرقي صعودها وهبوطها ومغربيهما، فإنها تبتديء صاعدة حتى تنتهي إلى غاية أوجها وارتفاعها فهذا شرق صعودها، وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء: فجعل مشرق صعودها: بجملته مشرقاً واحداً، ومشرق هبوطها بجملته مشرقاً واحداً ويقابلها مغرباها، فهذا وجه اختلاف هذه في الإفراد والتثنية والجمع.

وأما وجه اختصاص كل موضع بما وقع فيه فلم أر أحداً تعرض له ولا فتح بابه، وهو بحمد الله بيّن من السياق، فتأمل وروده مثنى في سورة الرحمن لما كان مساق السورة مساق المثاني المزدوجات، فذكر أولاً نوعي الإيجاد وهما الخلق والتعظيم، ثم ذكر سراجي

العالم ومظهري نوره وهما الشمس والقمر، ثم ذكر نوعي السماء المرفوعة والأرض الموضوعة، وأخبر أنه رفع هذه ووضع هذه، ووسط بينهما ذكر الميزان، ثم ذكر العدل والظلم في الميزان، فأمر بالعدل ونهى عن الظلم، ذكر نوعي الخارج من الأرض وهما الحبوب والثمار، ثم ذكر خلق نوعي المكلفين وهما: نوع الإنسان ونوع الجان، ثم ذكر نوعي المشرقين ونوعي المغربين، ثم ذكر بعد ذلك البحرين، الملح والعذب، فتأمل حسن تثنية المشرق والمغرب في هذه السورة وجلالة ورودهما لذلك، وقدر موضعهما اللفظ مفرداً ومجموعاً تجد السمع ينبو عنه، ويشهد العقل بمنافرته للنظم، ثم تأمل ورودهما مفردين في سورة (المزمل)، لما تقدمها ذكر الليل والنهار، فأمر رسوله بقيام الليل ثم أخبره أن له في النهار سبحاً طويلاً، فلما تقدم ذكر الليل وما أمر به فيه، وذكر النهار وما يكون منه فيه، عقب ذلك بذكر المشرق والمغرب الذين هما مظهر الليل والنهار، فكان ورودهما مفردين في هذا السياق أحسن من التثنية والجمع، لأن ظهور الليل والنهار هما واحد، فالنهار أبداً يظهر من المشرق، والليل أبداً يظهر من المغرب، ثم تأمل مجيئهما مجموعين في سورة المعارج في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠ - ٤١]، لما كان هذا القسم في سياق سعة ربوبيته وإحاطة قدرته، والمقسم عليه أرباب هؤلاء، والإتيان بخير منهم ذكر المشارق والمغارب لتضمنها انتقال الشمس التي هي أحد آياته العظيمة الكبيرة، ونقله

سبحانه لها وتصريفها كل يوم في مشرق ومغرب، فمن فعل هذا كيف يعجزه أن يبدل هؤلاء وينقل إلى أمكنتهم خيراً منهم.

وأيضاً فإن تأثير مشارق الشمس ومغاربها في اختلاف أحوال النبات والحيوان أمر مشهور، وقد جعل الله تعالى ذلك بحكمته سبباً لتبدل أجسام النبات وأحوال الحيوانات وانتقالها من حال إلى غيره، ويبدّل الحر بالبرد، والبرد بالحر، والصيف بالشتاء، والشتاء بالصيف، إلى سائر تبدّل أحوال الحيوان والنبات والرياح والأمطار والثلوج.. وغير ذلك من التبدّلات والتغيرات الواقعة في العالم بسبب اختلاف مشارق الشمس ومغاربها، كان ذلك تقدير العزيز العليم، فكيف لا يقدر مع ما يشهدونه من ذلك على أن يبدّل خيراً منهم، وأكد هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠] ، فلا يليق بهذا الموضع سوى لفظة الجمع. ثم تأمل كيف جاءت أيضاً في سورة (الصافات)، مجموعة في قوله: ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات: ٥]، لما جاءت مع جملة المربوبات المتعددة وهي السماوات والأرض وما بينهما، كان الأحسن مجيئها مجموعة لينتظم مع ما تقدم من الجمع والتعدد.

ثم تأمل كيف اقتصر على المشارق دون المغارب لاقتضاء الحال لذلك، فإن المشارق مظهر الأنوار وأسباب انتشار الحيوان وحياته وتصرفه ومعاشه وانبساطه فهو إنشاء مشهود، فقدّمه بين يدي الرد على منكري البعث، ثم ذكر تعجب بنيه من تكذيبهم

واستبعادهم البعث بعد الموت، ثم قدّر الموت وحالهم فيه، وكان الاقتصار على ذكر المشارق ههنا في غاية المناسبة للغرض المطلوب، والله أعلم».

وكذلك من نكت الإفراد والجمع في قوله تعالى في الكفار والمنافقين ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، هو أن العقل له وجوه كثيرة في إدراك المعقولات، فليس الناس فيه سواء، فجمع لاختلاف الناس فيه، وأنواع تصرفهم في وجوهه، بخلاف السمع فإن أسماع الناس تتساوى في إدراك المسموعات [1]، فلا تتشعب تشعب العقول في إدراك المعقولات.

وأما الأبصار فهي مثل العقول في التشعب، وأعظم معين للعقول في إدراكها، لأن أنواع المبصرات كثيرة فتعطي للعقل مواد كثيرة، والسمع لا يدرك إلا الصوت [2].

فالعقول والأبصار بمنزلة ينابيع كثيرة تنبجس من كل منها عيون للعلم مختلفة، بخلاف السمع فإنه ينبوع واحد لا اختلاف بما يصدر عنه [3].

ولاحظ بلاغة القرآن في إظهار الأسماء وإضمارها، فأسماء الله

---

(١) في أصل السمع فقط.

(٢) تفسير المنار (١/ ١٤٤).

(٣) تفسير المنار (١/ ١٤٥).

الحسنى يؤتي بها في الثناء ظاهرة، قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥٢هـ) (١): «إن الثناء على الله عامة ما يجيء مضافاً إلى أسمائه الحسنى الظاهرة دون الضمير، إلا أن يتقدم ذكر الاسم الظاهر فيجيء بعده المضمر، وهذا نحو قول المصلي ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٢ - ٥]، وقوله في الركوع: (سبحان ربي العظيم)، وفي السجود: (سبحان ربي الأعلى).

وفي هذا من السر أن تعليق الثناء بأسمائه الحسنى هو لما تضمنت معانيها من صفات الكمال ونعوت الجلال، فأتى بالاسم الظاهر الدال على المعنى الذي يثني به ولأجله عليه تعالى، ولفظ الضمير لا إشعار له بذلك».

فالحاصل أن القرآن في أعلى درجات البلاغة تقصر العبارات عن بيان حقيقة البلاغة المتحققة في ألفاظه ومعانيه، ولا أدل على ذلك من أنه لا يوجد كلام يضاهيه ولا يدانيه.

قال أبو عبدالله القرطبي رحمه الله (٢): «فبلاغة القرآن في أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإيجاز والبيان، بل تجاوزت حد الإحسان والإجادة إلى حيز الإرباء والزيادة، هذا رسول الله ﷺ ما أوتي من جوامع الكلم، واختص به من غرائب الحكم، إذا تأملت

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٦٥ - ١٦٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٧٧).

قوله ﷺ في صفة الجنان، وإن كان في نهاية الإحسان، وجدته منحطاً عن رتبة القرآن، وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: «**فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»، فأين ذلك من قوله عز وجل: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، هذا أعدل وزناً، وأحسن تركيباً، وأعذب لفظاً، وأقل حروفاً، على أنه لا يعتبر إلا في مقدار سورة أو أطول آية، لأن الكلام كلما طال اتسع فيه مجال المتصرف، وضاق المقال على القاصر المتكلف، وبهذه قامت الحجة على العرب إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة».

* * *



الباب التاسع:

آداب وأحكام التلاوة والتجويد وحفظ القرآن



القرآن والسورة والآية

قال البغوي رحمه الله (ت: ٥١٦هـ)[١] : «وسُمي الكتاب قرآنا، لأنه جُمع فيه الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والقصص، وكل شيء جمعته، فقد قرأته، ومنه قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]، وقد تُحذف الهمزة، فيقال: قريتُ الماء في الحوض، أي: جمعته، وقرأ ابن كثير «القران» بغير همز، وقرأ به الشافعي، وقال: ليس هو من القراءة، إنما هو اسم لهذا الكتاب».

فتبين بهذا أن القرآن اسم من أسماء الكتاب العزيز.

قال أبو الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله (ت:٦٤٣هـ)[٢] : «فإن قيل فكيف يصح على ما ذكرت من أن معناه الجمع أن يقال: إن علينا جمعه وجمعه، وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]؟ قلت: قال أبو علي الفارسي: الجمع أعم، والقرآن أخص، فحَسُن التكرير لذلك، كما يجوز: أعلمت زيداً وأنذرته، لأن الإنذار أخص، لأن كل منذر مُعلم، وليس كل معلم

---

(١) شرح السنة (٤/٤٢٨).

(٢) جمال القراء (١/٢٣ – ٢٤).

منذراً، كذلك قرأت وجمعت، قرأت أخص من جمعت، وإذا جاز استعمال المعنى الواحد بلفظين مختلفين، نحو: أقوى وأقفر، فإنه يجوز فيما يختص فيه إحدى الكلمتين بمعنى ليس للأخرى أولى.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا ألقى إليه جبريل عليه السلام القرآن يعجل، لحرصه وخوفه أن ينساه، فيساوقه في قراءته، ويُحرك شفتيه، وحرّك ابن عباس رضي الله عنهما شفتيه، فقيل له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٧] ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت: ٧٢٨هـ)[1] : «(القرآن) هو في الأصل مصدر قرأ قرآناً، ومنه قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧ - ١٩]، ويسمى الكلام المقروء نفسه «قرآناً»، وهو كثير كما في قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[النحل: ٩٨]، كما أن الكلام هو اسم مصدر كلَّم تكليماً، وتكلَّم تكلماً، ويُراد به الكلام نفسه».

وقال ابن جرير الطبري رحمه الله (ت: ٣١٠هـ)[2] : «وأما الآية من آي القرآن فإنها تحتمل وجهين في كلام العرب؛ أحدهما: أن

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/١٣).

(٢) جامع البيان (١٠٤/١).

تكون سُمِّيت آية، لأنها علامة يُعرف بها تمام ما قبلها وابتداؤها، كالآية التي تكون دلالة على الشيء يُستدل بها عليه، كقول الشاعر:

أَلِكْني إليها عَمْرَكَ اللهَ يا فتى ... بآيـة ما جاءت إلينا تهاديا

يعني: بعلامة ذلك، ومنه قوله جل ثناؤه: ﴿رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ﴾ [المائدة: ١١٤]، يعني بذلك: علامةً منك لإجابتك دعاءنا وإعطائك إيانا سُؤْلَنا.

والآخر منهما: القصةُ، كما قال كعب بن زهير بن أبي سلمى:

ألا أبْلِغا هـذا المُعَرِّض آيـة ... أيقْظانَ قال القولَ إذا قال أم حَلَمْ

يعني قوله: آية: رسالة مني وخبراً عني، فيكون معنى الآيات القصص، قصة تتلو قصة، بفصول ووصول».

وقال ابن جرير الطبري رحمه الله (ت: ٣١٠هـ)[١] : «وأما المئون فهي ما كان من سور القرآن عدد آيه مائة آية، أو تزيد عليها شيئاً أو تَنْقُصُ منها شيئاً يسيراً.

وأما المثاني: فإنها ما ثَنَّى المئين فتلاها، فكان المئون لها أوائل، وكان المثاني لها ثواني، لتثنية الله جل ذكره فيها الأمثال والخبر والعبَر، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما».

---

(١) جامع البيان (١/ ١٠٠).

وقال[1] : «وقال جماعة يكثر تعدادهم: القرآن كله مثان».

وقال[2] : «وأما المفصَّل فإنما سُمِّيت مفصَّلاً؛ لكثرة الفصول التي بين سورها بـ «بسم الله الرحمٰن الرحيم».

ثم تُسمَّى كل سورة من سور القرآن سورة، وتجمع سُوَراً، على تقدير خُطبة وخُطَب، وغُرفةٍ وغُرفٍ».

* * *

(١) جامع البيان (١/١٠٠).

(٢) جامع البيان (١/١٠١).

القرآن عز الأمة وسبب رفعتها

قراءة القرآن عبادة وطاعة، فالحرف بعشر حسنات، كما أنه نور وشفاء لما في الصدور، وهو من أسباب عزة الأمة، لذلك لا بد أن يقرأه المؤمنون لتحيا به قلوبهم وأبدانهم وأوطانهم.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله»**[(١)] .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[(٢)] : **«وإنما فازوا بهذا ببركة الكتاب العظيم** الذي شرَّفه الله تعالى على كل كتاب أنزله، جعله مهيمناً عليه، وناسخاً له، وخاتماً له، لأن كل الكتب المتقدمة نزلت إلى الأرض جملة واحدة، وهذا القرآن نزل منجماً بحسب الوقائع لشدة الاعتناء به وبمن أنزله عليه».

---

(١) رواه أحمد (٥/٣)، والترمذي كتاب تفسير القرآن باب سورة آل عمران (ص ٦٧٥ - رقم ٣٠٠١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٥٩).

وقال العلامة محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله [1] : «أما إن المسلمين الأولين سعدوا بالقرآن واتباع الرسول فهذا ما لا مراء فيه، وهو الحقيقة العارية التي جلاها التاريخ على الناس من جميع الأجناس، وزكّاها بشاهدين من آثار العلم ونتائج العقل، فإن احتمل أن يجهل هذه الحقيقة جاهل فهم سواد المسلمين قبل غيرهم. وإن وقف باحث عند الظواهر السطحية وقال: سعدوا بالاتحاد مثلاً، قلنا له: وما الذي وحَّدهم بعد ذلك التفرّق الشنيع غير القرآن؟ أو قال قوم: استيقظت فيهم عواطف الخير ونوازع الشرف حين ماتت في الأمم، فسادوها وقادوها. قلنا له: نعم، ولكن ما الذي أيقظ فيهم تلك العواطف وتلك النوازع وما هم إلا ناس من الناس، بل قد كانوا قبل القرآن أضل الناس، وليسوا من جذم واحد حتى تتقارب فيهم النوازع الجنسية التي يتوارثها أبناء الجذم الواحد ويترابطون بها، ويسهل استيقاظها فيهم فجأة. لأننا لسنا نعني بالمسلمين الأولين العرب وحدهم، وإنما نعني بهم الأمم التي دانت بالإسلام في قرونه الأولى، تربت في كنف القرآن وتحت رعايته، وطبعت على غرار الهدي المحمدي[2].

فحرّر القرآن أرواحها من العبودية للأوثان الحجرية والبشرية، وحرر أبدانها من الطاعة والخضوع لجبروت الكسروية والقيصرية،

---

(١) الآثار (١/١٥٩).

(٢) الهدى النبوي.

وجلا عقولها على النور الإلهي فأصبحت تلك العقول كشافة عن الحقائق العليا، وطهَّر نفوسها من أدران السقوط والإسفاف إلى الدنايا، فأصبحت تلك النفوس نزاعة إلى المعالي مقدمة على العظائم.

وحدد لها لأول مرة في التاريخ صلة الروح بالجسم ومدى تعاونهما في التدبير، وكيفية الجمع بين مطالبهما المتباينة، وعلمها لأول مرة في التاريخ كيف يستغل الإنسان استعداده وفكره، ففتح أمامه ميادين التفكر والاعتبار، وأمره أن يسير في الأرض ويمشي في جوانبها ويتفكر في ملكوت السموات والأرض.

وقد كان الناس قبل القرآن على جهل مطبق بهذا الاستعمار الفكري حتى بيَّنه القرآن الكريم، ووضع قواعده وأرشدها لأول مرة في التاريخ أن الإنسان أخو الإنسان لا سيده ولا عبده».

* * *

المزاحمة بين قراءة القرآن وفعل سائر الطاعات

أول ما ينبغي التنبيه عليه هو أن الحد الأدنى لقراءة القرآن يومياً لا يجوز لأحد أن يتركه لأي شيء آخر حتى لا يكتب من الغافلين، وحتى لا يدخل في زمرة الهاجرين للقرآن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حافظ على هؤلاء الصلوات المكتوبات لم يُكتب من الغافلين، ومن قرأ في ليلة مائة آية كُتب من القانتين**»[١].

ناهيك أن المسلم ينبغي أن يستبق الخيرات في لزوم أفضل الطاعات، فعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ[٢]: «**خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه**».

---

(١) رواه ابن خزيمة (٢/ ١٨٠ – رقم ١١٤٢)، وقال العلامة الألباني رحمه الله: «إسناد صحيح على شرط الشيخين».

(٢) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب خيركم من تعلّم القرآن وعلمه (ص ٩٠١ – رقم ٥٠٢٧).

قال ابن الملقن رحمه الله (ت: ٨٠٤هـ)[١] : «الحديث دال على أن قراءة القرآن من أفضل أعمال البر كلها، لأنه لما كان من تعلم القرآن وعلَّمه أفضل الناس وخيرهم دلَّ على ما قلناه، لأنه إنما أوجب له الخيرية والفضل من أجل القرآن، وكان له فضل التعليم جارياً ما دام كل من علّمه باقياً».

كما أنه ينبغي ملاحظة اعتبار الزمان، فهذا مُرجّح يوجب تقديمه على ما سواه، من ذلك شهر رمضان فهو شهر القرآن، ابتداء نزول القرآن كان في رمضان، وقيام النبي ﷺ بالقرآن جماعة كان في رمضان، ومذاكرة جبريل للنبي عليه السلام بالقرآن كان في رمضان، وتتأكد قراءته في العشر الأخيرة من رمضان.

وهذه الأوقات لا يزاحمها النفع المتعدي كتعليم الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحوه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٢] : «إن النفع المتعدي ليس أفضل مطلقاً، بل ينبغي للإنسان أن يكون له ساعات يناجي فيها ربه، ويخلو فيها بنفسه ويحاسبها، ويكون فعله ذلك أفضل من اجتماعه بالناس ونفعهم، ولهذا كان خلوة الإنسان في الليل بربه أفضل من اجتماعه بالناس».

---

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (١٢٧/٢٤).

(٢) شرح العمدة كتاب الصيام (٧٨٩/٢).

كـذلك ينبغـي ملاحظـة حـال الـشخص القـارئ، فقـد يكـون المفضول في حقه أحسن لأحواله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «فإن جنس الدعاء الذي هو ثناء وعبادة أفضل من جنس الدعاء الذي هو سؤال وطلب، وإن كان المفضول قد يفضل على الفاضل في موضعه الخاص بسبب وبأشياء أخر، كما أن الصلاة أفضل من القراءة، والقراءة أفضل من الذكر الذي هو ثناء، والذكر أفضل من الدعاء الذي هو سؤال، ومع هذا فالمفضول له أمكنة وأزمنة وأحوال يكون فيها أفضل من الفاضل، لكن أول الدين وآخره وظاهره وباطنه هو التوحيد، وإخلاص الدين كله لله هو تحقيق قول لا إلٰه إلَّا الله».

وقال أيضاً[2] : «وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض **فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه، وما يناسب أوقاتهم**، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد، لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره: **أن ملازمة ذكر الله دائماً هو أفضل ما شغل العبد به نفسه في الجملة**، وعلى ذلك دلَّ حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي رواه مسلم: «**سبق المفردون، قالوا: يا رسول الله! ومن المفردون؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات**»، وفيما رواه أبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٢٦٣ – ٢٦٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٦٦٠ – ٦٦١).

قال: **«ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: ذكر الله**(١).

والدلائل القرآنية والإيمانية بصراً وخبراً ونظراً على ذلك كثيرة، وأقل ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير وإمام المتقين ﷺ، كالأذكار المؤقتة في أول النهار وآخره، وعند أخذ المضجع، وعند الاستيقاظ من المنام، وأدبار الصلوات، والأذكار المقيدة مثل ما يقال عند الأكل والشرب واللباس والجماع ودخول المنزل والمسجد والخلاء والخروج من ذلك، وعند المطر والرعد إلى غير ذلك، وقد صنَّفت له الكتب المسماة بعمل اليوم والليلة».

والذي لا مرية فيه أن من لازم قراءة القرآن وانتفع بذلك فإن عاقبته حميدة، وسيهديه القرآن إلى المسارعة في الخيرات، وآي القرآن كلها أو أكثرها تدل على أبواب الطاعات كلها، فيحصل للعبد من تهذيب النفس وكمالها ما يجعله يضرب من كل الطاعات أو أكثرها بسهم، فإذا بلغ العبد هذه الرتبة فحينئذ حري به أن يرتب ليله ونهاره على وظائف كل وقت بما هو أولى، فهذا هو مقصود إنزال القرآن هو البلوغ بالعبد إلى أعلى درجات العبودية لله.

---

(١) رواه أحمد (٥/١٩٥) والترمذي كتاب الدعوات باب أن ذاكر الله كثيراً أفضل من الغازي في سبيل الله (ص٧٧١ – رقم ٣٣٧٧)، وابن ماجة كتاب الأدب باب فضل الذكر (ص ٥٤١ – رقم ٣٧٩٠)، وحسنه المنذري والهيثمي، انظر تحفة الذاكرين ص١٠.

قال الحافظ النووي رحمه الله[1] : «والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، فمن كان له بدقيق الفكر لطائف ومعارف، فليقتصر على قدر يحصل له كمال فهم ما يقرؤه، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم وغيره من مهمّات الدِّين ومصالح المسلمين العامة، فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه إخلال بما هو مرصد له، وإن لم يكن من هؤلاء فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حدّ الملل والهذْرمة».

والذي لا ريب فيه أن ملازمة قراءة القرآن والإكثار منه خير وبركة وشفاء لما في الصدور وهدى وموعظة للمتقين، قال عثمان ابن عفان رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله»[2].

قال ابن القيم رحمه الله معلقاً[3] : «فالقلب الطاهر بكمال حياته ونوره وتخلُّصه من الأدران والخبائث لا يشبع من القرآن، ولا يتغذّى إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذي لم يطهره الله تعالى؛ فإنه يتغذى من الأغذية التي تناسبه، بحسب ما فيه من النجاسة، فإن القلب النجس كالبدن العليل، لا يلائمه الأغذية التي تلائم الصحيح».

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن ص ٥٨.

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١١٨).

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ١١٨).

ويدل لذلك حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: إني رأيت الليلة في المنام ظُلَّةً تَنْطِفُ السَّمْنَ والعسل، فأرى الناس يتكفَّفون منها، فالمستكثر والمستقلُّ، وعبّرها أبو بكر الصديق رضي الله عنه بحضرة النبي ﷺ وقال: وأمّا الذي ينْطفُ من العسل والسَّمْنِ فالقرآن، حلاوته تَنْطِفُ، فالمستكثر من القرآن والمستقِلُّ[1] .

قال المهلب رحمه الله[2] : «وأما العسل فإن الله جعله شفاء للناس، وقال في القرآن: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، وهو أبداً حلو على الأسماع كحلاوة العسل على المذاق، وكذلك جاء في الحديث: «**إن في السمن شفاء من كل داء**» ».

ونحن إذ نذكر هذه المفاضلة بين قراءة القرآن وسائر الطاعات فهذا باعتبار التفرغ تماماً لقراءة القرآن، وإلا فإن المؤمن لا يحجزه عن القرآن شيء، فيقرأه وهو يباشر أمور دنياه، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

(١) رواه البخاري كتاب التعبير باب من لم ير الرؤيا لأول عابر إذا لم يُصب (ص ١٢١٤ – رقم ٧٠٤٦).
(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٣٢/٢٥٥).

وقالت عائشة رضي الله عنها: إن النبي ﷺ كان يذكر الله على كل أحيانه[1].

وقال معاذ لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: كيف تقرأ القرآن؟ قال: قائماً وقاعداً وعلى راحلتي أتفوَّقُهُ تَفَوُّقاً، قال: فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنام أوَّلَ الليل، فأقوم وقد قضيتُ جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما أحتسبُ قومتي[2].

قال ابن الملقن رحمه الله (ت: ٨٠٤هـ)[3]: «قال: أتفوقه تفوقاً. أي: أقرؤه حيناً بعد حين، مأخوذ من فواق الناقة، وهو ما بين الحلبتين، ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [صَ: ١٥]، أي: مهل.

وذكر الهروي عن أبي موسى رضي الله عنه أنه قال: أما أنا فأتفوقه تفوق اللَّقُوح. أي: لما أقرأ جزئي مرة، ولكن أقرؤه شيئاً بعد شيء.

وكذا ذكره الجوهري بعد أن قال: فوقت الفصيل. أي: سقيته اللبن فواقاً، وتفوق الفصيل إذا شرب اللبن كذلك».

---

(١) رواه مسلم كتاب الحيض باب جواز أكل المحدث الطعام (ص ١٦٠ - رقم ٨٢٦).

(٢) رواه البخاري كتاب المغازي باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما إلى اليمن (ص ٧٣٥ - رقم ٤٣٤١)، ورواه مسلم كتاب الجهاد والسير باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير (ص ٧٦٩ - رقم ٤٥٢٦).

(٣) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢١/٥٠٧ - ٥٠٨).

فأحوال السلف عجيبة في عمارة أوقاتهم بقراءة القرآن ولو زاحم أوقاتهم شواغل الدنيا، فهذا داود الطائي كان يستف الفتيت ويقول: بين سفّ الفتيت وأكل الخبز قراءة خمسين آية[١] .

وهذا بشر بن المنصور الأزدي البصري الزاهد كان ورده ثُلث القرآن، كما حكاه عنه ابن المديني[٢] .

* * *

(١) الآداب الشرعية (٢/٥٤٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/٣٥٩).

المفاضلة بين قراءة القرآن نظراً أو حفظاً

ذهب البخاري رحمه الله إلى تفضيل القراءة عن ظهر قلب لأن النبي ﷺ قال للصحابي رضي الله عنه: «فما معك من القرآن؟ قال: معي سورة كذا وسورة كذا، لسور عدَّها، قال أتقرؤهُنَّ عن ظهر قلب؟ قال: نعم، قال: اذهب فقد ملَّكتكها بما معك من القرآن[1] .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[2] : «هذه الترجمة من البخاري رحمه الله مشعرة بأن قراءة القرآن عن ظهر قلب أفضل».

أما من فضّل قراءة القرآن من المصحف فاستدل بالأثر، والنظر الصريح، فالأثر المرفوع من حديث بعض أصحاب النبي ﷺ، قال النبي ﷺ: **«فضل قراءة القرآن نظراً على من يقرؤه ظهراً كفضل الفريضة على النافلة»**[3] .

---

(١) رواه البخاري كتاب النكاح باب إذا كان الولي هو الخاطب (ص ٩١٨ – ٥١٣٢)، ورواه مسلم كتاب النكاح باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن (ص ٥٩٨ – رقم ٣٤٨٧).

(٢) فضائل القرآن ص ٢٠٩.

(٣) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص٤٦، ط. دار الكتب العلمية.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1] : «هذا الإسناد فيه ضعف».

ووردت القراءة عن الصحابة من المصحف، قال عبدالرحمن ابن أبي ليلى إن ابن مسعود رضي الله عنه كان إذا اجتمع إليه إخوانه نشروا المصحف، فقرؤوا، وفسَّر لهم[2].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «إسناد صحيح».

أما التعليل فقد حكاه عن أهله ابن كثير رحمه الله قال[3] : «الذي صرَّح به كثيرون من العلماء أن قراءة القرآن من المصحف أفضل، لأنه يشتمل على التلاوة والنظر في المصحف، وهو عبادة كما صرَّح به غير واحد من السلف، وكرهوا أن يمضي على الرجل يومٌ لا ينظر في مصحفه».

ثم قال الحافظ كثير رحمه الله مضيفاً تعليلاً آخر لهذا القول[4] : «لئلا يُعطَّل المصحف فلا يقرأ منه، ولعله قد يقع لبعض الحفظة نسيان فيستذكر منه، أو تحريف كلمة أو آية، أو تقديم أو تأخير، فالاستثبات أولى، والرجوع إلى المصحف أثبت من أفواه الرجال».

---

(١) فضائل القرآن ص ٢١٠.

(٢) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص ٤٧.

(٣) فضائل القرآن ص ٢٠٩.

(٤) فضائل القرآن ص ٢١١.

ثم حكى ابن كثير رحمه الله قولاً وسطاً بين القولين، فقال[1] : «قال بعض العلماء: المدار في هذه المسألة على الخشوع، فإن كان الخشوع أكثر عند القراءة عن ظهر قلب، فهو أفضل، وإن كان عند النظر في المصحف أكثر، فهو أفضل، فإن استويا، فالقراءة نظراً أولى، لأنها أثبت، وتمتاز بالنظر إلى المصحف».

والصواب أن يقال أن **الأفضل أن يجمع العبد بين الاثنين،** فيقرأ من المصحف ويقرأ من حفظه، فالقراءة من المصحف عبادة ومذاكرة وتصحيح، والقراءة حفظاً تثبيت للحفظ وهو طاعة، وتضييع الحفظ فيه وعيد شديد. فهذا عروة بن الزبير رضي الله عنه كان يقرأ ربع القرآن في كل يوم نظراً في المصحف، ويقوم به بالليل[2].

وكذلك ينبغي التنبيه إلى أن الآثار المنقولة عن السلف في القراءة من المصحف لا تدل على أن قراءتهم للقرآن من المصحف حصراً، فهذا لا يُظن بمن يعرف أحوال السلف الذين يستبقون الخيرات، فهذه الآثار تحكي بعض أحوالهم لا كلها، فافهم ذلك.

قال إسماعيل بن أبي حكيم: كان عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه قلَّما ما يدعُ يوماً يقرأ من المصحف بالغداة[3] .

---

(١) فضائل القرآن ص ٢١٢.

(٢) شعب الإيمان (٤/٣٤٣ – رقم ٢٠٣٨).

(٣) شعب الإيمان (٤/٣٤٤ – رقم ٢٠٣٩).

وكان الربيع بن خثيم يدخل عليه الداخل وفي حجره المصحف يقرأ فيه فيغطيه[1].

وقال محمد بن جحادة لأم ولد الحسن البصري: ما رأيت منه؟ فقالت: رأيته فتح المصحف فرأيت عيْنَيه تسيلان، وشفتيه لا تتحرّكان[2].

* * *

(١) شعب الإيمان (٤/ ٣٤٤ - رقم ٢٠٤٠).

(٢) شعب الإيمان (٤/ ٣٤٦ - رقم ٢٠٤٣).

الترسل والإسراع في القراءة

القراءة السريعة التي من غير إقامة حروف الآي ولا مراعاة إقامة اللفظ، ودون تلمح للمعاني فهذا مذموم، لكن من الناس من له ملكة في سرعة القراءة مع إقامة اللفظ وفهم المعنى، حصل بسبب كثرة الممارسة وتكرار القراءة الذي أورثه معرفة المعنى فهذه قراءة جماعة من السلف.

قال الإمام الشافعي رحمه الله[١] : «أحب ما يقرأ إليَّ حدراً وتحزيناً».

وقال يزيد بن هارون عن منصور بن زاذان[٢] : «كان سريع القراءة فإذا أراد أن يترسل فكان لا يستطيع».

وقال أحمد في رواية جعفر بن أحمد بن أبي قيماز وقد سُئل: أيما أحب إليك: الترسل أو الإسراع؟ قال: أليس قد جاء بكل حرف كذا وكذا حسنة؟ قالوا له: في السرعة؟ قال: إذا صوّر الحرف بلسانه ولم يسقط من الهجاء.

قال ابن رجب رحمه الله معلقاً[٣] : «وهذا ظاهر في ترجيح الكثرة على التدبر».

---

(١) الأم (٦/٢١٠).

(٢) مسائل حرب الكرماني ص ٤٤٩.

(٣) تقرير القواعد وتحرير الفوائد (١/١٣٤).

وقال ابن بطال رحمه الله[1] : «ذكر أبو عبيد أن رجلاً سأل مجاهداً عن رجل قرأ البقرة وآل عمران، ورجل قرأ البقرة، قيامهما واحد وركوعهما واحد وسجودهما واحد، أيهما أفضل؟

قال: الذي قرأ البقرة، وقرأ ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦] الآية. وقال الشعبي: إذا قرأتم القرآن فاقرؤوه قراءة تسمعه آذانكم، وتفهمه قلوبكم، فإن الأذنين عدل بين اللسان والقلب، فإذا مررتم بذكر الله فاذكروا الله، وإذا مررتم بذكر النار فاستعيذوا بالله منها، وإذا مررتم بذكر الجنة فاسألوها الله.

وفيها قول آخر، روى ابن القاسم وابن وهب عن مالك في الهذ في القراءة قال: من الناس من إذا هذ كان أخف عليه، وإذا رتل أخطأ، ومن الناس من لا يحسن الهذ، والناس في هذا على قدر حالاتهم وما يخف عليهم، وكل واسع.

وقد روي عن جماعة من السلف أنهم كانوا يختمون القرآن في ركعة، وهذا لا يتمكن إلا بالهذ، والحجة لهذا القول حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**خُفف على داود القرآن، فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج**»، وهذا لا يتم إلا بالهذ وسرعة القراءة، والمراد بالقرآن في هذا الحديث الزبور. ذكره البخاري في كتاب الأنبياء، وداود عليه السلام ممن أنزل الله

---

(١) شرح صحيح البخاري (١٠/٢٧٣ - ٢٧٤).

فيه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وإنما ذكر النبي ﷺ هذا الفعل من داود عليه السلام على وجه الفضيلة له والإعجاب بفعله، ولو ذكره على غير ذلك لنسخه ولأمر بمخالفته، فدلَّ على إباحة فعله، والله أعلم».

وقال ابن القيم رحمه الله(١) : «وقد اختلف الناس في الأفضل من الترتيل وقلة القراءة، أو السرعة مع كثرة القراءة: أيهما أفضل؟

على قولين: فذهب ابن مسعود رضي الله عنه، وابن عباس رضي الله عنهما، وغيرهما، إلى أن الترتيل والتدبُّر مع قلة القراءة أفضل من سرعة القراءة مع كثرتها، واحتج أرباب هذا القول بأن المقصود من القراءة فهمه وتدبُّره، والفقه فيه والعمل به، وتلاوته وحفظه وسيلة إلى معانيه...، ولهذا كان أهل القرآن هم العاملون به العالمون بما فيه، وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب، وأما من حفظه ولم يفهمه ولم يعمل بما فيه، فليس من أهله وإن أقام حروفه إقامة السهم.

وقال أصحاب الشافعي رحمه الله: كثرة القراءة أفضل، واحتجوا بحديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: آلم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»، رواه الترمذي

---

(١) زاد المعاد (١/٣٣٩).

وصححه، قالوا: ولأن عثمان بن عفان رضي الله عنه قرأ القرآن في ركعة، وذكروا آثاراً عن كثير من السلف في كثرة القراءة.

والصواب في المسألة أن يقال: إن ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجل وأرفع قدراً، وثواب كثرة القراءة أكثر عدداً، فالأول: كمن تصدق بجوهرة عظيمة، أو أعتق عبداً قيمته نفيسة جداً.

والثاني: كمن تصدَّق بعدد كثير من الدراهم، أو أعتق عدداً من العبيد قيمتهم رخيصة».

* * *

قراءة القرآن في البيوت

قراءة القرآن مجلبة لكل خير، تحف صاحبه السكينة وهذا لا يختص بالمساجد، فهذا أسيد بن حضير رضي الله عنه لما قرأ القرآن في مربده جالت فرسه، فرفع رأسه إلى السماء فإذا ظُلَّة فيها أمثال المصابيح، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: **«تلك السكينة»**، وفي رواية **«تلك الملائكة تنزلت للقرآن»**(١).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **«إني لأعرف أصوات رُفقة الأشعريين بالقرآن حين يَدْخلون بالليل، وأعْرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار»** (٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«البيتُ الذي يُقْرأ فيه القرآن يترائى لأهل السماء كما تتراءى النجوم لأهل الأرض»**(٣) .

---

(١) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن (ص٨٩٩ – رقم ٥٠١٨).

(٢) رواه البخاري كتاب المغازي باب غزوة خيبر (ص ٧١٨ – رقم ٤٢٣٢).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٤/١٦١ – رقم ١٨٢٩)، وصححه الحافظ الذهبي في السير (٨/٢٩).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا دخل بيته نشر المصحف، فقرأ فيه[١] .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما[٢] : «إذا رجع أحدكم من سوقه فلينشر المصحف وليقرأ».

وقال خيثمة دخلت على ابن عمر رضي الله عنهما وهو يقرأ في المصحف، فقال[٣] : «هذا جزئي الذي أقرأ به الليلة».

وهذا أبو بكر ابن عياش رحمه الله (ت: ١٩٣هـ) لما احتضر بكت أخته، فقال: ما يبكيك؟ انظري إلى تلك الزاوية، ختمتُ فيها ثمانية عشر ألف ختمة[٤] .

وقال ابن وهب: قيل لأخت مالك: ما كان شُغل مالك في بيته؟ قالت: المصحف، التلاوة[٥] .

وقال مجاهد رحمه الله: كان لعبدالرحمن بن أبي ليلى بيت فيه مصاحف يجتمع إليه فيه القُرَّاء، قلَّما تفرَّقوا إلا عن طعام[٦] .

---

(١) فضائل القرآن لابن كثير ص ٢١٠.
(٢) فضائل القرآن لابن كثير ص ٢١١.
(٣) فضائل القرآن لابن كثير ص ٢١١.
(٤) طبقات علماء الحديث (١/٣٨٩).
(٥) سير أعلام النبلاء (٨/١١١).
(٦) سير أعلام النبلاء (٤/٢٦٥).

رقة الطباع وأثرها في تجويد القراءة

أشار ابن القيم رحمه الله إلى أن معاني القرآن العظيمة إنما يدركها من تهذب جوهره ممن اجتباهم الله ليكونوا مستودع كلامه.

قال ابن القيم رحمه الله وهو يتحدث عن مطابقة الألفاظ لمعانيها[1] : «ومثل هذه المعاني تستدعي لطافة ذهن، ورقة طبع، ولا تتأتى مع غلظ القلوب».

وكذلك الحال بالنسبة لتجويد القرآن والتغني به، قال شمس الدين أبو الخير محمد بن الجزري رحمه الله (ت: ٨٣٣هـ) في شأن حرف «الهمزة»[2] : «لا صورة لها في الخط، وإنما تُعلم بالشكل والمشافهة. **والناس يتفاضلون في النطق بها على مقدار غلظ طباعهم ورقتها**، فمنهم من يلفظ بها لفظاً تستبشعه الأسماع، وتنبو عنه القلوب، ويثقل على العلماء بالقراءة، وذلك مكروه، معيب من أخذ به.

وروي عن الأعمش أنه كان يكره شدة النبرة، يعني الهمز في

---

(١) جلاء الأفهام ص ٢٤٥.

(٢) التمهيد في علم التجويد ص ١١٥ – ١١٦.

القراءة، وقال أبو بكر ابن عياش: إمامنا يهمز (مُؤْصَدَة) فأشتهي أن أَشدَّ أذني إذا سمعته يهمزها.

ومنهم من يغلظ اللفظ بها، وهو خطأ، ومنهم من يشددها في تلاوته، يقصد بذلك تحقيقها، وأكثر ما يستعملون ذلك بعد المد، فيقول: (يا أيها). ومنهم من يأتي بها في لفظة مسهلة، وذلك لا يجوز إلا فيما أحكمت الرواية تسهيله.

والذي ينبغي أن القارئ إذا همز أن يأتي بالهمزة سلسة في النطق، سهلة في الذوق، من غير لكز ولا ابتهار لها، ولا خروج بها عن حدها، ساكنة كانت أو متحركة، يألف ذلك طبع كل أحد، ويستحسنه أهل العلم بالقراءة، وذلك المختار.

وقليل من يأتي بها كذلك في زماننا هذا، ولا يقدر القارئ عليه إلا برياضة شديدة، كما كان حمزة يقول: إنما الهمز رياضة».

* * *

اللحن حده وأنواعه

إتقان الناس لقراءة القرآن متباين، فمنهم من مارس القراءة وأخذها بالمشافهة من القُرّاء، ومنهم من قرأ القرآن بخاصة نفسه، ومنهم من يقرأه وهو شاق عليه لضعف معرفته بالقراءة عموماً وخط المصحف خصوصاً، ومنهم من لا يقرأ إلا نادراً، وتبعاً لذلك فاللحن في القراءة درجات.

قال شمس الدين أبو الخير محمد بن الجزري رحمه الله (ت:٨٣٣هـ)[١] : «اعلم أن اللحن على ضربين: لحن جلي، ولحن خفيّ، ولكل واحد منهما حد يخصه، وحقيقة بها يمتاز عن صاحبه.

فأما اللحن الجلي فهو خلل يطرأ على الألفاظ، فيخل بالمعنى والعرف، وخلل يطرأ على الألفاظ فيخل بالعرف دون المعنى، وأما اللحن الخفي فهو خلل يطرأ على الألفاظ فيخل بالعرف دون المعنى.

وبيان ذلك أن الجلي المخل بالمعنى والعرف هو تغيير بعض الحركات عما ينبغي، نحو أن تضم التاء في قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أو تكسرها، أو تفتح التاء في قوله: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ ﴾ .

(١) التمهيد في علم التجويد ص ٧٧ – ٧٨.

والقسم الثاني من الجلي المخل بالعرف دون المعنى نحو رفع الهاء ونصبها من قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

واللحن الخفي هو مثل تكرير الراءات، وتطنين النونات، وتغليظ اللامات، وإسمانها وتشريبها الغنة، وإظهار المخفي، وتشديد الملين، وتليين المشدد، والوقف بالحركات كوامل، مما سنذكره بعد. وذلك غير مخل بالمعنى، ولا مقصر باللفظ، وإنما الخلل الداخل على اللفظ فساد رونقه وحسنه وطلاوته، من حيث إنه جار مجرى الرُّتةِ واللُّثْغة، كالقسم الثاني من اللحن الجلي، لعدم إخلالهما بالمعنى.

وهذا الضرب من اللحن، وهو الخفي، لا يعرفه إلا القارئ المتقن، والضابط المجوِّد، الذي أخذ عن أفواه الأئمة، ولُقن من ألفاظ أفواه العلماء الذين ترتضي تلاوتهم ويوثق بعربيتهم، فأعطى كل حرف حقه، ونزَّله منزلته».

وبعض العلماء يتسهل في اللحن والخطأ إذا كان مخرج الحرف الخطأ قريباً من الحرف المنزل، من ذلك اللحن في سورة الفاتحة في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ﴾، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1]: «والصحيح من مذاهب العلماء: أنه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٤٤).

الضاد والظاء لقرب مخرجيهما، وذلك أن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس، ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا، ولأن كلا من الحرفين من الحروف المجهورة ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة، فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك، والله أعلم. وأما حديث: «أنا أفصح من نطق بالضاد»، فلا أصل له، والله أعلم».

وقال ابن القيم رحمه الله[1] : «لا يختلف المذهب في اللحن الذي هو مخالفة الإعراب لا يُبطل الصلاة».

* * *

(١) بدائع الفوائد (٤/١٤٥٨).

تجويد القراءة

يتكلم العلماء في حكم التجويد من جهة ما يتعلق بالإثم، فيقولون هو واجب أو مستحب، وهمة المؤمن لا تقف عند حد إبراء الذمة، فالقرآن حياة القلوب ونورها، وسبيل هدايتها، تحيا القلوب بذكر الله بهذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

هذا القرآن نظمه ولفظه وسياقه ورصف ألفاظه عليه حلاوة لا تعدلها حلاوة، تستعذب القلوب المؤمنة هذه الحلاوة، فالمؤمنون فرحون بهذا القرآن كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨]. فمن يستعذب هذا القرآن تزداد عذوبته عند قارئه وسامعه بتلاوته كما أُنزل مجوّداً، ويتحرى المؤمن أن يُزّين صوته بالقرآن.

قال شمس الدين أبو الخير محمد بن الجزري رحمه الله (ت:٨٣٣هـ)[١] : «**فالتجويد هو حلية التلاوة، وزينة القراءة**، وهو إعطاء الحروف حقوقها، وترتيبها مراتبها، ورد الحرف إلى مخرجه

---

(١) التمهيد في علم التجويد ص ٥٩.

وأصله، وإلحاقه بنظيره وشكله، وإشباع لفظه، وتلطيف النطق به على حال صيغته وهيئته، من غير إسراف ولا تعسف، ولا إفراط ولا تكلُّف، قال الداني: ليس بين التجويد وتركه إلا رياضة لمن تدبَّره بفكه».

وقال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي رحمه الله (ت: ٨٤٢هـ)[١]: «تلاوته بالإتقان، وتصحيح الإعراب وحسن الأداء منه الواجب والمستحب:

فمن الواجب: تصحيح التلاوة من اللحْن الجليّ، مثل تغيير الإعراب، لاسيما إذا غيَّر اللحنُ المعنى، كإخراج الحرف من غير مخرجه، وربما تغيّر به المعنى، وكذلك عدم أصل التشديد.

ومن المستحب: تصحيح التلاوة من اللحن الخفيّ، كترك المدّ المتفق عليه، وأحكام النون الساكنة والتنوين، ونحو ذلك من الترقيق والتفخيم».

فالمقصود هو أن يُقرأ القرآن كما أُنزل بلسان عربي مبين بدون تكلف، قال شمس الدين أبو الخير محمد بن الجزري رحمه الله (ت: ٨٣٣هـ)[٢] : «وأما قراءتنا التي نقرأ ونأخذ بها، فهي القراءة

---

(١) مجالس تفسير قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ ص٢٥٦.

(٢) التمهيد في علم التجويد ص ٥٧.

السهلة المرتلة العذبة الألفاظ، التي لا تخرج عن طباع العرب وكلام الفصحاء، وعلى وجه من وجوه القراءات، فنقرأ لكل إمام بما نُقل عنه، من مدٍّ أو قصر أو همز أو تخفيف همز أو تشديد أو تخفيف أو إمالة أو فتح أو إشباع أو نحو ذلك».

* * *

تغني وتجويد في غير تكلف

الناس في تجويد القراءة طرفان ووسط، طرف مفرط يقرأ القرآن كسائر الكلام بلا تجويد، وطرف أسرف في التمطيط وإشباع الحركات، وخير الأمور أوسطها.

قال حمزة: «إن لهذا التحقيق منتهى ينتهي إليه، ثم يكون قبيحاً مثل البياض، له منتهى ينتهي إليه فإذا زاد صار برصاً»[١] .

وقال أبو عمرو الداني رحمه الله [٢] : «فأما ما يذهب إليه بعض أهل الغباوة من القراء في الإفراط في التمطيط، والتعسف في التفكيك، والإسراف في إشباع الحركات إلى غير ذلك من الألفاظ المستشبعة والمذاهب المكروهة فخارج عن مذاهب الأئمة وجمهور سلف الأمة، وقد وردت الآثار عنهم بذلك».

وقال الموفق أبو محمد ابن قدامة المقدسي رحمه الله (ت:٦٢٠هـ) في التجويد المستحب[٣]: «والمستحب أن يأتي بها مُرتَّلة مُعْرَبة، يقف فيها عند كل آية، ويُمكِّن حُرُوفَ المدِّ واللِّين، ما

---

(١) المرشد الوجيز ص ٢١٢.

(٢) المرشد الوجيز ص ٢١١ – ٢١٢.

(٣) المغني (٢/١٥٤ – ١٥٥).

لم يخرجه ذلك إلى التمطيط، لقول الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، ورُوي عن أم سلمة رضي الله عنها أنها سُئلت عن قراءة رسول الله ﷺ، قالت: كان يُقطِّع قراءته آية آية ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ١ - ٤]. رواه الإمام أحمد في «مسنده». وعن أنس رضي الله عنه قال: كانت قراءة رسول الله ﷺ مَدًّا، ثم قرأ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، يمدُّ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، ويمدُّ بالرَّحمن، ويمدُّ بالرحيم. أخرجه البخاري.

فإن انتهى ذلك إلى التمطيط والتلحين كان مكروهاً، لأنه رُبَّما جعل الحركات حُروفاً. **قال أحمد: يعجبني من قراءة القرآن السَّهْلَةُ.**

وقال: قوله: «زينوا القرآن بأصواتكم»، قال: يُحسِّنُه بصوته من غير تكلف. وقد رُوي في خبر آخر: أحسن الناس قراءة، من إذا سمعت قراءته رأيت أنه يخشى الله».

* * *

ثمرات التجويد

تجويد القرآن فوائده عظيمة، أولها قراءة القرآن كما أنزل، وثانيها ما يحصل من الخشوع مع القراءة المجودة، وثالثها ما يجتنيه القارئ من الفهم الصحيح مع القراءة الصحيحة التي لا تخل بالمعنى.

قال شمس الدين أبو الخير محمد بن الجزري رحمه الله (ت: ٨٣٣هـ)[(١)] : «اعلم أن المستفاد بذلك حصول التَّدَبُّر لمعاني كتاب الله تعالى، والتفكر في غوامضه، والتبحر في مقاصده، وتحقيق مراده، - جَلَّ اسمه- من ذلك. فإنه تعالى قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وذلك أن الألفاظ إذا أُجليت على الأسماع في أحسن معارضها، وأحلى جهات النطق بها، حسب ما حثَّ عليه رسول الله ﷺ بقوله: «**زَيِّنوا القرآن بأصواتكم**»، كان تلقي القلوب وإقبال النفوس عليها بمقتضى زيادتها في الحلاوة والحسن، على ما لم يبلغ ذلك المبلغ منها، فيحصل حينئذ الامتثال لأوامره، والانتهاء عن مناهيه، والرغبة في وعده، والرهبة من وعيده، والطمع في ترغيبه، والارتجاء بتخويفه، والتصديق بخبره، والحذر من إهماله، ومعرفة الحلال والحرام.

---

(١) التمهيد في علم التجويد ص ٥٧ – ٥٨.

وتلك فائدة جسيمة، ونعمة لا يُهمل ارتباطها إلا محروم، ولهذا المعنى شُرع الإنصات إلى قراءة القرآن في الصلاة وغيرها، ونُدب الإصغاء إلى الخطبة في يوم الجمعة، وسقطت القراءة عن المأموم ما عدا الفاتحة، ومن أجل ذلك دأب الأئمة في السكوت على التام من الكلام، أو ما يستحسن الوقف عليه، لما في ذلك من سرعة وصول المعاني إلى الأفهام، واشتمالها عليها، بغير مقارعة للفكر، ولا احتمال مشقة لا فائدة فيها غير ما ذكرناه».

* * *

الوقف والابتداء في القراءة

القارئ للقرآن يضطر أحياناً للوقف لالتقاط أنفاسه ليتمكن من القراءة، وهذا أمر يعتري كل قاريء إلا أن الناس يتفاضلون، فمنهم من هو قوي النفس يستطيع الاستمرار في القراءة والوقوف عند موضع يستحسن الوقوف عليه.

من أجل هذا نبّه العلماء إلى وجوب محاذرة الوقف الذي يتعلّق به معنى ما بعده، قال شمس الدين أبو الخير محمد بن الجزري رحمه الله (ت: ٨٣٣هـ)[1] : «اعلم أنه يجب على القارئ أن يصل المنعوت بنعته، والفعل بفاعله، والفاعل بمفعوله، والمؤكد بمؤكده، والبدل بالمبدل منه، والمستثنى بالمستثنى منه، والمعطوف بالمعطوف عليه، والمضاف بالمضاف إليه، والمبتدآت بأخبارها، والأحوال بأصحابها، والأجوبة بطالبها، والمميزات بمميزاتها، وجميع المعمولات بعواملها، ولا يفصل شيئاً من هذه الجمل إلا في بعض أجزائها».

فلا يجوز تعمد الوقف إذا غيّر المعنى أو نقصه كقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله:﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦ﴾ [البقرة: ٢٦]، و﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [آل عمران:٦٢]».

(١) التمهيد في علم التجويد ص ١٧٨ – ١٧٩.

تعليم الصبيان القرآن

لا بد أن يتعاهد الأبوان صبيانهم بقراءة وحفظ القرآن، فهذا النبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة ورآه أهلها، قال الولدان: هذا رسول الله ﷺ (١).

وهذا إيمان من الصبيان بالنبي ﷺ قبل أن يروه، وقبل أن يصل إلى ديارهم دار الهجرة والإيمان والنصرة، وهذا يدل على أن أهليهم قد علّموهم حب رسول الله ﷺ والإيمان به، وكذلك كان النبي ﷺ يغرس أصول العقيدة في نفوس الصغار حيث قال لابن عباس رضي الله عنهما: يا غلام احفظ الله يحفظك.

وكذلك أورث النبي ﷺ الصبيان العبادة والطاعة، حيث وافق ابن عباس رضي الله عنهما النبي ﷺ في الليل قائماً يصلي لما كانت نوبته عند خالته ميمونة رضي الله عنها، فقام فصلى بجوار النبي ﷺ.

وكذلك قام النبي ﷺ بتعليمه القرآن، قال ابن عباس رضي الله عنهما: تُوفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين، وقد قرأت المحكم(٢).

---

(١) رواه البخاري كتاب مناقب الأنصار باب مقدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة (ص٦٦٢ – رقم ٣٩٢٥).

(٢) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب تعليم الصبيان القرآن (ص ٩٠٢ – رقم ٥٠٣٥).

وبوَّب عليه البخاري رحمه الله «باب تعليم الصبيان القرآن»، قال ابن الملقن رحمه الله (ت: ٨٠٤هـ)[١] : «فيه كما ترجم له تعليم الصبيان القرآن، وروي أن تعليم القرآن للصبيان يطفئ غضب الرب، ذكره ابن زيد».

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله[٢] : «فيه دلالة على جواز تعلم الصبيان القرآن، لأن ابن عباس رضي الله عنهما أخبر عن سنّه حين موت رسول الله ﷺ، وقد كان جمع المفصل، وهو من الحجرات، وعمره إذ ذاك عشر سنين».

وقال أيضاً[٣] : «فيه دلالة على جواز تعليم القرآن في الصبا، وهو ظاهر، بل قد يكون مُستحباً أو واجباً، لأن الصبيَّ إذا تعلَّم القرآن بلغ وهو يعرف ما يُصلي به، وحفظه في الصغر أولى من حفظه كبيراً، **وأشد علوقاً بخاطره**، وأرسخ وأثبت كما هو المعهود من حال الناس».

أما المقدار الذي يُحفّظ للصبيان، فقد قال الميموني: سألت أبا عبدالله: أيهما أحب إليك، أبدأ ابني بالقرآن أو الحديث؟

قال: لا، بالقرآن، قلت: أعلمه كله؟ قال: إلا أن يعسر، فتعلمه منه.

ثم قال لي: إذا قرأ أولاً تعلَّم القراءة ولزمها[٤] .

---

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (١٤٢/٢٤).

(٢) فضائل القرآن ص ٢٢٦.

(٣) فضائل القرآن ص ٢٢٦.

(٤) الآداب الشرعية (٣٣/٢).

فكلام الإمام أحمد رحمه الله واضح في تحفيظ الصبيان بحسب ما تحتمله أذهانهم، فمن كان قوي الذهن فإن مقدار ما يُحفّظ أكثر ممن هو دونه.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1] : «إذا عقل وميَّز عُلِّم قليلاً قليلاً، بحسب همَّته ونهمته وحفظه وجودة ذهنه، واستحب عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أن يُلقَّن خمس آيات خمس آيات. رواه البيهقي في شعب الإيمان بسند جيد».

ولا ينبغي للوالدين الجزع إذا لم يحفظ ابنهما القرآن كله في صباه، فإن البعض يرى أو يسمع عن بعض الصبية أنه حفظ القرآن وهو ابن أربع سنين أو ست سنين، فإذا رأى ابنه لم يحفظ في مثل هذا السن مقداراً كبيراً من القرآن أيس من ابنه، وترك تحفيظه للقرآن، فهذا خطأ، فأولئك خارجون عن عادة أمثالهم من صغار الصبيان، وبالصبر والإصرار وتحفيظ الطفل بحسب ما يحتمله ذهنه، يدرك الطفل خيراً كثيراً.

وهؤلاء خيار الصحابة وعلماء الأمة لم يحفظوا القرآن كله في سن الرابعة أو السادسة.

قالت عائشة رضي الله عنها[2] : «وكنت جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن».

---

(١) فضائل القرآن ص ٢٢٧.

(٢) رواه البخاري كتاب المغازي باب حديث الإفك (ص ٧٠١ - رقم ٤١٤١).

وبعض العلماء يرى أنه ينبغي التروي في تحفيظ الصبيان القرآن، لأن أذهانهم تقصر عن فهم معانيه، سئل الإمام مالك رحمه الله عن صبي ابن سبع سنين جمع القرآن، فقال: «ما أرى هذا ينبغي»[١] .

قال أبو بكر الطرطوشي رحمه الله[٢] : «وإنما وجه إنكاره ما تقرر في الصحابة رضي الله عنهم من كراهة التسرع في حفظ القرآن دون التفقه فيه».

وبعض العلماء يرى أن ذهن الصبي إذا كان يقوى على الحفظ فلا بأس من تحفيظه كما قال الإمام أحمد رحمه الله للميموني لما سأله: ابدأ ابني أعلمه القرآن كله؟ قال الإمام أحمد: نعم، إلا أن يعسر عليه فتعلمه منه[٣] .

وجمع الصبي للحفظ والفهم عزيز، وحفظه للقرآن خير من أن يُعدم الحفظ والفهم معاً، فإن الفهم يأتي بعد، وقد حُدّثت عن موجه في التربية الإسلامية يقول: كيف يُحفّظ الصبيان ما لا يفقهون، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [التكوير: ١٧]، فالله المستعان!!

وتكلم العلامة محمود الطناحي رحمه الله في تقريب حفظ القرآن للصبيان بحفظهم للنشيد الوطني، يحفظونه في البداية وهم

---

(١) الحوادث والبدع ص ٢٠٨.

(٢) الحوادث والبدع ص ٢٠٨.

(٣) الآداب الشرعية (٢/٣٣).

لا يفقهون كثيراً من معانيه، فلا يزالون يكررون حفظه حتى يعقلوه أو أكثره.

قال العلامة محمود الطناحي رحمه الله : «وقد وقفت على نص خطير جداً ، هو خير رد وأوفاه على هؤلاء الذين يشترطون للحفظ: الفهم، ويقولون: لا تطلبوا من الصبي حفظ ما لا يفهم، فإن هذا غير مجد في العملية التعليمية. يقول أبو الفتح عثمان بن جني: [قال لنا أبو علي الفارسي يوماً، قال لنا أبو بكر ابن السراج: إذا لم تفهموا كلامي فاحفظوه، فإنكم إذا حفظتموه فهمتوه]. وهذا كلام صحيح، يصدقه الواقع وتؤكده التجربة، فإن الإلحاح بالحفظ الدائم المستمر مما يمهد للفهم لا محالة. وآية ذلك أن صغار التلاميذ في دور الحضانة والروضة يرددون مع إطلالة كل صباح النشيد الوطني لبلادهم، وهم بالقطع لا يعرفون شيئاً عن معاني مفرداته فضلاً عن تراكيبه، ولكنهم بمرور الأيام يدركون ويفهمون.

والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى في اكتساب وإدراك المعارف، ونحن الذين حفظنا القرآن صغاراً نعرف هذا من أنفسنا فما زلنا نذكر ألفاظ القرآن وتراكيبه الغريبة علينا في مطالع أيامنا، ثم إضاءة معانيه في نفوسنا بعد ذلك بالتدريج، وإن كنا لا ندرك بالضبط متى تم هذا، كما لا يدرك الناظر في السماء انسلاخ النهار من الليل إلا حين يغشاه نوره ويغمره سناه»[1].

* * *

(١) مقالات العلامة محمود الطناحي (١/١٥٢ - ١٥٣).

خشوع في غير تمايل ولا سقوط

لا شك أن آي القرآن تخشع لها القلوب وتذرف منها العيون، وهذا حال السابقين الأولين. ثم خلفت خلوف قست قلوبهم من كثرة ما أصابها من رين الآثام وأكنة البدع والشبهات، فلم يلج نور الوحي إلى قلوبهم كما يريد الله، فلم تنتفع بوعظ القرآن، فلم يحصل لهم ما حصل للسابقين الأولين من الخشوع والإخبات الذي أيقظ القلوب فحرك وجدان البكاء إلى عمل، وخشوع التدبر إلى إيمان حقيقي يدفع ظلمات الكفر، وشبهات البدع.

ويقابل هؤلاء قوم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل يطربون ويرقصون لسماع القرآن، والعياذ بالله.

فالسعيد من طهّر قلبه من الدغل، وهيأه ليزرع فيه القرآن صبغة الرحمن ونور الوحي، فيحيا حياةً طيبة.

فخشوع الناس لآيات القرآن نوعان: شرعي، وبدعي، فالبدعي ما كان فيه تمايل وغشي.

قال أبو محمد ابن عطية الأندلسي رحمه الله معلقاً على قوله تعالى: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [الزمر:٢٣][١]: «عبارة عن وقف شعر الإنسان عندما يداخله خوف، ولينُ قلب عند سماع موعظة أو زجر قرآن ونحوه، وهذه علامة وقوع المعنى المتخشع في قلب السامع، وفي الحديث أن أُبيَّ بن كعب رضي الله عنه قرأ عند النبي ﷺ فرَقَّت القلوب، فقال النبي ﷺ: «**اغتنموا الدعاء عند الرقَّة فإنها رحمة**»، وقال العباس رضي الله عنه: قال عليه الصلاة والسلام: «**من اقشعر جلده من خشية الله تحاتَّت عنه ذنوبه كما يتحاتُّ عن اليابسة ورقها**»، وقالت أسماءُ بنت أبي بكر رضي الله عنهما: كان الصحابة تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم عند سماع القرآن، قيل لها: إن أقواماً اليوم إذا سمع أحدهم القرآن خرَّ مغشياً عليه، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان، وقال ابن عمر رضي الله عنهما وقد رأى ساقطاً عند سماع القرآن: إنا لنخشى الله وما نسْقُط، هؤلاء يدخل الشيطان في جوف أحدهم، وقال ابن سيرين رحمه الله: بيننا وبين هؤلاء القوم الذين يصرعون عند قراءة القرآن أن يُجعل أحدهم على حائط باسطاً رجليه، ثم يُقْرأُ عليه القرآن كله، فإن رمى بنفسه فهو صادق».

ونقل الحافظ أبو عبدالله القرطبي عن الإمام أبي بكر الطرطوشي[٢] رحمه الله أنه سُئل عن جماعة من رجال، يكثرون من

---

(١) المحرر الوجيز (٧/٣٨٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١١/٢٣٧ – ٢٣٨).

ذكر الله تعالى، وذكر محمد ﷺ، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأديم، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشياً عليه، ويحضرون شيئاً يأكلونه، هل الحضور معهم جائز أم لا؟ أفتونا مأجورين.

فأجاب أبو بكر الطرطوشي رحمه الله، فقال: مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله وسُنَّة رسوله، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامريّ، لما اتّخذ لهم عجلاً جسداً له خُوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون؛ فهو دين الكفار وعبّاد العجل، وأما القضيب فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى، وإنما كان يجلس النبي ﷺ مع أصحابه كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار، فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها، ولا يحلّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم، ولا يعينهم على باطلهم، هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين».

وتكلم الشاطبي رحمه الله (ت: ٧٩٠هـ) في ذلك بكلام طويل نختصره بذكر الوجد الشرعي وحال السلف، ثم نعرج بذكر الوجد البدعي وكلام السلف فيه. فقال رحمه الله: «والذي يظهر في التواجد: ما كان يبدو على جملة من أصحاب رسول الله ﷺ وهو البكاء، واقشعرار الجلد التابع للخوف الآخذ بمجامع القلوب،

وبذلك وصف الله عباده في كتابه، حيث قال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، إلى قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وعن عبدالله بن الشخير رضي الله عنه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل (يعني: من البكاء)»، والأزيز صوت يشبه غليان القدر.

وقال: «وقد صحَّ من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه أنه قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً بليغةً، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب...» الحديث.

فقال الإمام العالم السني أبو بكر الآجري رحمه الله: «ميِّزوا هذا الكلام، لم يقل: صَرَخْنا من موعظته، ولا زعقنا، ولا طرقْنا على

رؤوسنا، ولا ضربْنا على صدورنا، ولا زفنَّا، ولا رقصْنا، كما يفعل كثير من الجهَّال، يصرخون عند المواعظ ويزعقون ويتغاشون.

وقال الآجري: وهذا كله من الشيطان يلعب بهم، وهذا كله بدعة وضلالة، يُقال لمن فعل هذا: اعلم أن النبي ﷺ أصدقُ الناس موعظة، وأنصح الناس لأمته، وأرق الناس قلباً، وخير الناس من جاء بعده - لا يشك في ذلك عاقل -؛ ما صرخوا عند موعظته ولا زعقوا ولا رقصوا ولا زفَنُوا، ولو كان هذا صحيحاً، لكانوا أحق الناس بهذا أن يفعلوه بين يدي رسول الله ﷺ، ولكنه بدعة وباطل ومنكر، فاعلم ذلك.

وهذا أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه أفضل الأمة بعد نبيها ﷺ مطلقاً، نعتته عائشة رضي الله عنها بأنه رقيق يغلبه البكاء، ولم يُنقل عنه صراخاً ولا صرعاً ولا غشياً لتلاوة القرآن.

وقال عبدالله بن عروة بن الزبير: قلت لجدتي أسماء: كيف كان يصنع أصحاب رسول الله ﷺ إذا قرؤوا القرآن؟ قالت: كانوا - كما نعتهم الله - تدمع أعينهم، وتقشعر جُلودهم. قلت: إن ناساً ها هنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية؟! فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. رواه سعيد بن منصور.

ومرَّ ابن عمر رضي الله عنهما برجل من أهل العراق ساقط والناس حوله، فقال: ما هذا؟ فقالوا: إذا قُرئ عليه القرآن أو سمع الله

يُذْكَر، خرّ من خشية الله، قال ابن عمر رضي الله عنهما: والله إنا لنخشى الله وما نسقط! .

وقيل لعائشة رضي الله عنها: إن قوماً إذا سمعوا القرآن صعقوا؟!

فقالت: القرآن أكرم من أن تُنزف عنه عقول الرجال، ولكنَّه كما قال الله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال عامر بن عبدالله بن الزبير رضي الله تعالى عنه: «جئت أبي، فقال: أين كنت؟ فقلت: وجدت أقواماً يذكرون الله، فيرعد أحدهم حتى يُغْشى عليه من خشية الله، فقعدتُ معهم، فقال: لا تقعد معهم بعدها، فرآني كأنه لم يأخذ ذلك فيَّ، فقال: رأيتُ رسول الله ﷺ يتلو القرآن، ورأيت أبا بكر وعمر رضي الله عنهما يتلوان القرآن، فلا يصيبهم هذا، أفتراهم أخشع لله من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما!! فرأيت أن ذلك كذلك، فتركتهم. رواه الطبراني وأبو نعيم.

قال الشاطبي رحمه الله بعد أن ساق مجموع تلك الآثار[1] : «قد تغالط النفس فيه، فتظنّه انفعالاً صحيحاً، وليس كذلك، والدَّليل عليه أنه لم يظهر على أحد من الصحابة هو ولا ما يشبهه، فإن

---

(١) الاعتصام (٢/١١١).

مبناهم كان على الحقِّ، فلم يكونوا ليستعملوا في دين الله هذه اللُّعَبَ القبيحة للأدب والمروءة».

ثم قال[1] : «قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، فإن الوجل تأثُّرٌ ولينٌ يحصل في القلب بسبب الموعظة، فترى الجلد من أجل ذلك يقشعر، والعين تدمع، واللين إذا حلَّ بالقلب – وهو باطن الإنسان – وحلَّ بالجلد بشهادة الله – وهو ظاهر الإنسان، فقد حلَّ الانفعال بمجموع الإنسان، وذلك يقتضي السكون – لا الحركة والانزعاج، والسكون – لا الصياح –، وهي حالة السلف الأولين».

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله (ت: هـ) معلقاً على قوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣][2]: «كان الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله، لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون ما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك، ولهذا فازوا بالقدح المُعَلّى في الدنيا والآخرة.

---

(١) الاعتصام (٢/١١٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٩٤ – ٩٥).

قال: هذا نعت أولياء الله، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان».

* * *

طلب سماع القرآن من الغـير

المقصود من التلاوة هو الخشوع وأخذ العظة من معانيه، والتعبُّد لله بتلاوته، والمسلم تارة يخشع بقراءته بخاصة نفسه، وتارة يكون خشوعه بقراءة غيره أكثر، لإقبال حواسه بكليتها على السماع، بخلاف تدبره وهو يقرأه بخاصة نفسه، فإن جزءاً من جهده يذهب لتجويد القراءة وضبط الحفظ.

وقد كان النبي ﷺ يسمع القرآن من غيره، قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: قال لي النبي ﷺ: اقرأ عليَّ، قلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أُنْزل؟ قال: نعم، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١][1] .

قال الحافظ ابن الملقن رحمه الله (ت: ٨٠٤هـ)[2] : «ومعنى استماعه القرآن من غيره، ليكون عرض القرآن سُنَّة، ويحتمل لأجل

(١) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب قول المُقرِئ للقارئ حسبك (ص ٩٠٤ – رقم ٥٠٥٠)، ومسلم كتاب صلاة المسافرين باب فضل استماع القرآن (ص ٣٢٣ – رقم ١٨٦٧).

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٢٤/ ١٦٠).

التدبر والتفهم، وذلك أن المستمع أقوى على التدبر ونفسه أخلى وأنشط لذلك من نفس القارئ؛ لأنه في شغل بالقراءة وأحكامها، وأما قراءته عليه السلام على أبيّ كما سلف ليمتاز بذلك وليأخذه أبيّ من فيه، فلا يخالجه شك في اختلاف القراءة من الشارع بعده، وذلك إنما خاف عليه الفتنة في هذا الباب لأنه لا يجوز أن يكون أحد أقرأ للقرآن من الشارع، ولا أدعىٰ له وأعلم منه، لأنه نزل به الروح الأمين عليه، قاله الخطابي».

* * *

الاستعاذة للقراءة

قال علم الدين أبو الحسن السخاوي رحمه الله (ت: ٦٤٣هـ)[(١)]: «وأجمع المسلمون على أن الاستعاذة قبل القراءة، وقال داود: الاستعاذة بعد الفراغ من القراءة، وإنما معنى قوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٩٨]، كقوله عليه الصلاة والسلام: «**إذا أكلت فسمِّ الله**»، فيلزمه على هذا ألا يسمّي إلا بعد الأكل، فإن التزم له ذلك كان خروجاً عن السُّنَّة، وعما جاء عن رسول الله ﷺ من التسمية قبل الأكل، وقد روي عن رسول الله ﷺ من طرق شتى الاستعاذة قبل القراءة، ولم يرو عنه ﷺ الاستعاذة بعد القراءة، وإنما أُتي داود من قبل العجمة».

وأما صفة الاستعاذة، فقال أيضاً[(٢)] : «والذي عليه إجماع الأمة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وأما غير هذا اللفظ فغير متفق عليه، ورأيت بعضهم إذا قرأ قال في أول القراءة قبل الاستعاذة: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧ - ٩٨]، فقلت له: فقد قرأت القرآن ولم تستعذ».

---

(١) جمال القراء (٢/ ٤٨٢).

(٢) جمال القراء (٢/ ٤٨٢).

وأما بالنسبة للنطق بآي القرآن في غير قراءة ولا صلاة، فقد قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله[1] : «فالاستعاذة مشروعة للشروع في القراءة أو لإرادته وليست مشروعة عند كل تلفظ بألفاظ القرآن كالنطق بآية أو آيات من القرآن في التعليم أو الموعظة أو شبههما، خلافاً لما يفعله بعض المتحذقين إذا ساق آية من القرآن في غير مقام القراءة أن يقول كقوله تعالى بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ويسوق آية».

وإذا انتهى القارئ من القراءة لا يلتزم ذكراً معيناً لذلك، ولا قول (صدق الله العظيم)، فلم يكن هذا من شأن النبي ﷺ ولا من شأن أصحابه، بل لما أراد الانتهاء من سماع قراءة ابن مسعود رضي الله عنه، قال له: «حسبك»[2] .

قال العلامة عبدالعزيز بن باز رحمه الله[3] : «اعتياد الناس أن يأتوا بقولهم: «صدق الله العظيم» عند الانتهاء من قراءة القرآن الكريم لا نعلم له أصلاً، ولا ينبغي اعتياده، بل هو على القاعدة الشرعية من قبيل البدع إذا اعتقد أحد أنه سُنَّة، فينبغي ترك ذلك، وأن لا يعتاد ذلك. وأما الآية: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٩٥]،

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/٢٧٨).

(٢) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب قول المقرئ للقارئ: حسبك (ص ٩٠٤ - رقم ٥٠٥٠).

(٣) مجموع الفتاوى البازية (٩/٣٤٣).

فليست في هذا الشأن، وإنما أمره الله أن يبين لهم صدق الله فيما بيَّنه في كتبه العظيمة من التوراة وغيرها، وأنه صادق فيما بيَّن لعباده في التوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزّلة».

وأخذ المصحف من موضعه وإعادته إليه بعد الانتهاء من قراءته لا يوجب تقبيله ولا التزامه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «القيام للمصحف وتقبيله لا نعلم فيه شيئاً مأثوراً عن السلف، وقد سُئل الإمام أحمد عن تقبيل المصحف، فقال: ما سمعت فيه شيئاً، ولكن روي عن عكرمة ابن أبي جهل: أنه كان يفتح المصحف، ويضع وجهه عليه، ويقول: «كلام ربي، كلام ربي»، ولكن السلف وإن لم يكن من عادتهم القيام له، فلم يكن من عادتهم قيام بعضهم لبعض، اللهم إلا لمثل القادم من مغيبه».

وأثر عكرمة لا يطابق عمل الناس، من التزام تقبيل المصحف كلما نشروه للقراءة.

* * *

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/٦٥).

التكبير بعد قراءة سورة الضحى

ورد حديث ضعيف لا تثبت بمثله حجة، وهو أن القارئ يُكبّر، يقول: (الله أكبر)، عقب كل سورة من الضحى إلى سورة الناس.

قال يحيى بن محمد بن صاعد حدثنا البزّي أحمد بن القاسم ابن أبي بزة سمعت عكرمة بن سليمان يقول: قرأت على إسماعيل ابن عبدالله بن قسطنطين، فلما بلغت: والضحى، قال: كبِّرْ عند خاتمة كل سورة؛ فإني قرأت على عبدالله بن كثير، فلما بلغت: والضحى، قال: كبِّر حتى تختم.

وأخبره ابن كثير أنه قرأ على مجاهد، فأمره بذلك، وأخبره أن ابن عباس رضي الله عنهما أمره بذلك، وأخبره ابن عباس رضي الله عنهما أن أبيّ بن كعب رضي الله عنه أمره بذلك، وأخبره أبيّ أن النبي ﷺ أمره بذلك.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله[1] : «هذا حديث غريب، وهو مما أُنكر على البزي.

قال أبو حاتم: هذا حديث منكر».

---

(١) ميزان الاعتدال (١/١٤٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «فإن القرآن يقرأ كما كتب في المصحف، لا يزاد على ذلك ولا ينقص منه، والتكبير المأثور عن ابن كثير ليس هو مسنداً عن النبي ﷺ، ولم يسنده أحد إلى النبي ﷺ إلا البزي، وخالف بذلك سائر من نقله فإنهم إنما نقلوه اختياراً ممن هو دون النبي ﷺ وانفرد هو برفعه، وضعفه نقلة أهل العلم بالحديث والرجال من علماء القراءة وعلماء الحديث، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء».

وقال العلامة عبدالعزيز بن باز رحمه الله[2]: «ذلك عادة جرى عليها بعض القراء، لحديث ضعيف ورد في ذلك، فالأولى ترك ذلك، لأن العبادات لا تثبت بالأحاديث الضعيفة».

* * *

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ١٣٠).

(٢) مجموع الفتاوى البازية (١/ ٤٤٠).

تكرار الآية للتدبّر

تكرار الآية وتردادها مقصوده التدبر، وهذا يكون نافعاً لمن يكرر بتدبر، وفي الآية التي يُحسن قراءتها بتكرارها لتمام المعنى بها، واستغناءها عما سبقها وما يعقبها من آيات.

قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥٢هـ) [(١)]: «فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين، وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مرَّ بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة، ولو ليلة، **فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن**، وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية إلى الصباح، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قام بآية يرددها حتى الصباح وهي قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٨٧).

فقراءة القرآن بالتفكر هي أصل صلاح القلب، ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لا تهذّوا القرآن هذّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، وقفوا عند عجائبه وحرّكوا به القلوب، لا يكن همّ أحدكم آخر السورة».

وروى أبو أيوب عن أبي جمرة قال قلت لابن عباس رضي الله عنهما: إني سريع القراءة، إني أقرأ القرآن في ثلاث، قال: لأن أقرأ سورة من القرآن في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إليَّ من أن أقرأ القرآن كما تقرأ.

والتفكر في القرآن نوعان: تفكر فيه ليقع على مراد الرب تعالى منه، وتفكر في معاني ما دعا عباده إلى التفكر فيه، فالأول تفكر في الدليل القرآني، والثاني: تفكر في الدليل العياني.

الأول: تفكر في آياته المسموعة، والثاني: تفكر في آياته المشهورة، ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به، لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه، قال الحسن البصري رحمه الله: أُنزل القرآن ليُعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً».

* * *

التباكي لقراءة القرآن

قال إسماعيل بن عياش رحمه الله[1] : «البكاء من سبع: البكاء من خشية الله: القطرة منه تكف من النار أمثال البحور، ورجل فاضت عيناه من خشية الله، والبكاء من السرور، والبكاء من الكَرْب، والبكاء من السُّكْر، والبكاء من الخوف، والبكاء من الألم».

وقد تحدث ابن القيم رحمه الله عن أنواع البكاء، فقال[2]: «والثامن: بكاء النفاق، وهو أن تدمع العين، والقلب قاس، فيُظهر صاحبه الخشوع، وهو من أقسى الناس قلباً.

والتاسع: البكاء المستعار والمستأجر عليه، كبكاء النائحة بالأجرة، فإنها كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تبيعُ عبْرتها، وتبكي شجو غيرها.

والعاشر: بكاء الموافقة، وهو أن يرى الرجلُ الناس يبكون لأمر ورد عليهم، فيبكي معهم، ولا يدري لأي شيء يبكون، ولكن يراهم يبكون، فيبكي.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الرّقة والبكاء (٣/١٨٣ - رقم ٧٣) حدثني محمد ابن عباد المكي عن سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن عياش به.

(٢) زاد المعاد (١/١٨٥ - ١٨٦).

وما كان من ذلك دمعاً بلا صوت، فهو بكى، مقصور، وما كان معه صوت، فهو بكاء، ممدود على بناء الأصوات.

وقال الشاعر:

بكت عَيْني وحُقَّ لها بُكَاهَا ... وما يُغني البُكاء ولا العويل

وما كان منه مستدعىً متكلفاً، فهو التباكي، وهو نوعان: محمود، ومذموم، فالمحمود: أن يُستجلب لرقة القلب، ولخشية الله، لا للرياء والسُّمعة.

والمذموم: أن يُجتلب لأجل الخلق، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للنبي ﷺ وقد رآه يبكي هو وأبو بكر رضي الله عنهما في شأن أسارى بدر: أخبرني ما يبكيك يا رسول الله؟ فإن وجدتُ بكاءً بكيتُ، وإن لم أجد تباكيت، لبكائكما. ولم ينكر عليه ﷺ.

وقد قال بعض السلف: «ابكوا من خشية الله، فإن لم تبكوا، فتباكو».

والقرآن لا شك أنه يُصدّع الجبال ولو كان شيء يسيّر الجبال أو يُكلّم الموتى أو يُقطّع الأرض لكان القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١].

وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا أتى على هذه الآية بكى حتى يبلَّ لحيته البكاء، ويقول: بلى يا رب[(١)].

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٣/١٨٤ – رقم ٧٧).

والبكاء عند سماع القرآن إنما يقع ممن يتدبره وممن لم تغط قلبه الذنوب، قال مكحول: أرقُّ الناس قلوباً أقلُّهم ذنوباً(١) .

ففتّش قلبك إذا حُرمت لذة البكاء من تدبر القرآن فلربما أُتيت من غفلة القلب : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [قَ: ٣٧] ، أو أُتيت من رين الذنوب على قلبك ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

قال فضل الرقاشي رحمه الله(٢) : «ما تلذَّذ العابدون، ولا استطارَّت قلوبهم بشيء كحُسْن الصوت بالقرآن، وكل قلب لا يُجيب على حسن الصوت بالقرآن فهو قلبٌ ميِّت، وقال: وأي عين لا تهمل على حسن الصوت إلا عين غافل أو لاه».

---

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٣/١٨٢ - رقم ٦٦).

(٢) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٣/١٨٥ - رقم ٨٠).

تدبر القرآن

قراءة التدبر هي التي يحصل معها مقصود التلاوة، وهو فهم المعنى ولزوم العمل، أما مجرد النطق بالحروف دون تدبّر المعنى فهو قراءة اليهود، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨].

قال ابن القيم رحمه الله[1] : «وأما التأمّل في القرآن فهو تحديق نظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبّره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر، قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، وقال الحسن: نزل القرآن ليتدبّر ويُعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً. فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع الفكر فيه على معاني آياته، فإنها تُطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما

---

(١) مدارج السالكين (١/٣٦٣ - ٣٦٤)، ط. دار الحديث - القاهرة.

وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتتلُّ في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتُثبّت قواعد الإيمان في قلبه، وتُحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصِّره مواقع العبر، وتُشهده عدل الله وفضله، وتُعرّفه ذاته، وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يُحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتُعرّفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم، وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة تُعرّفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه. وتُعرّفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها ومشاهدتها ومطالعتها، فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتميز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم، فتريه الحق حقاً، والباطل باطلاً، وتعطيه فرقاناً ونوراً يفرق به بين الهدى والضلال، والغي والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه، وحياةً وسَعةً وانشراحاً وبهجة وسروراً، فيصير في شأن والناس في شأن آخر.

فإن معاني القرآن دائرة على التوحيد وبراهينه، والعلم بالله وما له من أوصاف الكمال، وما يُنزه عنه من سمات النقص، وعلى الإيمان بالرسل، وذكر براهين صدقهم، وأدلة صحة نبوتهم، والتعريف بحقوقهم وحقوق مرسلهم، وعلى الإيمان بملائكته، وهم رسله في خلقه وأمره، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوي والسفلي، وما يختص بالنوع الإنساني منهم، من حين يستقر في رحم أمه إلى يوم يوافي ربه ويقدم عليه، وعلى الإيمان باليوم الآخر وما أعد الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق، التي لا يشعرون فيها بألم ولا نكد وتنغيص، وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل، التي لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح، وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأبينه، وعلى تفاصيل الأمر والنهي، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر، والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادئ والغايات، في خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذّره وتخوّفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثّه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل، وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصده عن اقتحام طريق البدع والأضاليل وتبعثه على الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل، وتثبت

قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل، وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل، وتناديه كلما فترت عزماته، وونى في سيره: تقدم الرَّكْبُ وفَاتَكَ الدليلُ، فاللحاق اللحاقَ، والرحيل الرحيل، وتحدو به وتسير أمامه سير الدليل، وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو، أو قاطع من قطاع الطريق نادته: الحذر الحذر! فاعتصم بالله، واستعن به، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل. وفي تأمل القرآن وتدبره وتفهمه أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد، وبالجملة: فهو أعظم الكنوز، طلمسه الغوص بالفكر إلى قرار معانيه».



تجويد العمل

تحدثنا عن تجويد القراءة، فالتغني بالقرآن وتجويد قراءته طاعة، والقراءة الجميلة عون على الخشوع.

وتجويد العمل هو المقصود الأكبر. **قال الحسن: إن الهذ خفيف، ولكن العمل ثقيل**[1].

وقال عبد الأعلى التيمي رحمه الله[2]: «إن من أوتي من العلم ما لم يُبكه، لخليق ألا يكون أوتي علماً ينفعه، لأن الله نعت العلماء، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٨ - ١٠٩].

فعناية البعض بتجويد القرآن وإعرابه حسن، ولكن المقصود ثمرته وفقه معناه والعمل به، قال علامة الشام محمد جمال الدين القاسمي رحمه الله معلقاً على أخلاق يوسف عليه السلام[3]: «هذه هي الأخلاق الفاضلة، ذكرت في التنزيل نموذجاً، في غضون هذه

---

(١) المحرر الوجيز (١٦/ ١٤٦).

(٢) جامع البيان (١٥/ ١٢٢).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ٣٦٢٥).

السيرة، للأمم الإسلامية ليأخذوا ثمرتها ولا يضيِّعوا الزمن في أصلها وموردها في التاريخ، كما يجمد المفسّر على الإعراب أو الصرف أو البلاغة. وهذا غيض من فيض من حكم هذه القصة، وبها نفهم ما ذُكر في أولها ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ ﴾ [يوسف: ٣] » .

وقال علامة مصر محمد رشيد رضا رحمه الله[١] : «ولم يبق لأحد من شعوب أمتنا حظ من القرآن إلا تغنّى بعضهم بتلاوته من غير فهم ولا تدبر، واشتغال آخرين بإعراب جمله، ونكت البلاغة في مفرداته وأساليبه، من غير علم ولا فقه فيها، ولا فكر ولا تدبر لما أودع من العظات والعِبَر في مطاويها، **فهم يتشدقون بأن (خفافاً وثقالاً) منصوبان على الحال، ولا يرشدون أنفسهم ولا غيرهم إلى ما أوجباه على ذي الحال**».

قال ابن مسعود رضي الله عنه[٢] : «أنتم في زمان كثير فقهاؤه قليل قرّاؤه، تُحفظ فيه حدود القرآن، وتُضيّع حروفه، قليل من يسأل، كثير من يُعطى، يطيلون فيه الصلاة ويُقْصرون الخطبة، يبدئون أعمالهم قبل أهوائهم.

---

(١) تفسير المنار (٤٦١/١٠).

(٢) رواه مالك في الموطأ كتاب الصلاة.

وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه كثير قراؤه، تُحفظ فيه حروف القرآن وتُضيَّع حدوده. كثير من يسأل قليل من يُعطي، يطيلون فيه الخطبة ويُقْصرون الصلاة، يبدئون فيه أهواءهم قبل أعمالهم».

فابن مسعود رضي الله عنه أفصح أن القراء هم الذين يحفظون حروف القرآن وحدوده، وأنهم يجعلون الشرع حاكماً على أهوائهم لا محكوماً عليه.

قال ابن القيم رحمه الله[1] : «فهذا القرآن والسُّنَّة وإطلاق السلف من الصحابة والتابعين يدل على أن العلم والمعرفة مستلزم للهداية، وأن عدم الهداية دليل على الجهل وعدم العلم.

قالوا: ويدل عليه أن الإنسان ما دام عقله معه لا يؤثر هلاك نفسه على نجاتها وعذابها العظيم الدائم على نعيمها المقيم، والحس شاهد بذلك، ولهذا وصف الله سبحانه أهل معصيته بالجهل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧]».

وقال الحسن البصري رحمه الله[2] : «إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، ولم يأتوا الأمر من قبل أوله. قال

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٩٠).

(٢) الحوادث والبدع ص ٢٠٩.

الله تعـــــالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وما تدبُّر آياته إلا اتّباعه لعلمه.

أما والله! ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: «والله لقد قرأت القرآن كله وما أسقطت منه حرفاً! وقد - والله! أسقطه كله، ما رئي القرآن له في خلق ولا عمل!

وإن أحدهم ليقول: والله! إني لأقرأ السورة في نَفَس!

ما هؤلاء بالقرّاء، ولا العلماء، ولا الورعاء.

متى كان القرّاء يقولون مثل هذا؟ لا كثر الله في الناس مثل هذا!».

وقال الحسن البصري رحمه الله أيضاً[1] : «لقد قرأ القرآن ثلاثة نفر: فرجل قرأ القرآن وأعدّه بضاعة يطلب بها ما عند الناس من مصر إلى مصر، وقوم قرؤوا القرآن فثقّفوه كما يثقّف القِدْح، فأقاموا حروفه وضيَّعوا حدوده، واستدروا به ما عند الولاة، واستطالوا به على أهل بلادهم. وما أكثر هذا الصنف من حملة القرآن! لا كثّرهم الله تعالى!

ورجل قرأ القرآن فتداوى بدواء ما تعلّم من القرآن فجعله على داء قلبه، فهملت عيناه، وسهر نومه، وتسربل الحزن، وارتدى

---

(١) الحوادث والبدع ص ٢١٠ - ٢١١.

الخشوع فبهم يسقي الله الغيث، ويتقي العدو، ويدفع البلاء. فوالله لهذا الضرب من حملة القرآن أقل في الناس من الكبريت الأحمر».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد وعكرمة رحمهم الله في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]، قال: يتبعونه حق اتباعه[١].

وعن الشعبي في قوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، قال: أما إنه ما كان بين أيديهم، ولكن نبذوا العمل به[٢].

وقال رجل بابنه لأبي الدرداء رضي الله عنه فقال: إن ابني هذا جمع القرآن، فقال: اللهم غفرا، إنما جمع القرآن من سمع له وأطاعه[٣].

قال أبو شامة المقدسي رحمه الله[٤]: «لم يبق لمعظم من طلب القرآن العزيز همّة إلا في قوة حفظه وسرعة سرده وتحرير النطق بألفاظه والبحث عن مخارج حروفه والرغبة في حسن الصوت به.

وكل ذلك وإن كان حسناً، ولكن فوقه ما هو أهم منه وأتم وأولى وأحرى، وهو فهم معانيه والتفكر فيه والعمل بمقتضاه».

---

(١) المرشد الوجيز ص ١٩٣.

(٢) المرشد الوجيز ص ١٩٤.

(٣) المرشد الوجيز ص ١٩٣.

(٤) المرشد الوجيز ص ١٩٣.

وقال الأوزاعي رحمه الله[1] : «لم يزل لله نصحاء من خلقه في أرضه، يعرضون أعمال العباد على القرآن، فبالقرآن يعرفون هدي من اهتدى، وضلالة من ضلّ، أولئك خلفاء الله عز وجل في أرضه».

وقال الإمام أحمد رحمه الله[2] : «فمن أولى بحسن الخلق من قارئ القرآن، ومن أولى بالنصفة من نفسه من قارئ القرآن، ومن أولى ببر الوالدين من قارئ القرآن، ومن أولى بأداء الفرائض كلها من قارئ القرآن؟ لأن الدليل معه، فإن قبل منه لم يخطئه باب الجنة، ويُوشك أن لا يفعل لأن الله عزَّ وجل يقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، قال: هذا أُريد، أنظر إلى هذا أزدري به، وانظر إلى هذا أستعظمه، وانظر إلى محارم المسلمين فأتلذذ بالنظر، فإذا فعل فقد عصى الدليل».

وقال العلامة محمد جمال الدين القاسمي رحمه الله[3] : «فتأمل! كيف كانت هذه السورة يقرؤها القارئون، ويسمعها الجاهلون وهم عن آياتها معرضون! فإذا سمعوا صوتاً حسناً ظنّوا أن هذا هو جمال القرآن، فقالوا للقارئ: سبحان من أعطاك! وفرحوا بما عندهم من العلم بظواهر ورونق القراءة، أو مجرد التفسير ومعرفة القصة، ولم ينظروا إلى الحكم المودعة فيها!

---

(١) مختصر الحجة على تارك المحجة (٢/ ٥١٠).

(٢) الحجة على تارك المحجة (٢/ ٥٠٩).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ٣٦٣٠).

فقُبح الجهل يترك الرجل أعمى وإن لبس الحلل وارتـدى ثيـاب الفخار الكاذب والسراب الخداع، كـم للإنـسان مـن آيـات وعبـر فـي الـسموات والأرض فيعـرض عنهـا! خلقـت لنـا الأبـصار والأسـماع والعقول لننظر ماذا في السموات والأرض مما ذرأ المبلغ في الكـون! وتلا القرآن – وهو كلام مبدع الكون – وتلطف في تصوير المعـاني، وألبسها أجمل لباس، فأعرض العقلاء فضلاً عن العامة! فما للعامة لا يتعلمون؟ وما لذوي البصائر لا ينصحون ولا يبينون؟ وما للنـاس لا يكادون يفقهون؟!».

وقال العلامة محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله[1] : «ما هو هذا القرآن الذي نكرره في كل سطر؟

أهو هذا (الأحزاب الستون) أو (الأجزاء الثلاثون) التـي نـحفظهـا وننفق على حفظها سنوات الطفولة العذبة، وسنوات الـشباب الزهـر، ثـم لا يكـون حظنـا منـه عنـد هجـوم الكبـر إلا قراءتـه علـى الأمـوات بدريهمات، واتخاذه جُنّة من الجِنّة وغير ذلك من الهنات الهينات؟

إن كان هو هذا فَلِمَ لم يفعل في الآخرين فعله في الأولين؟ ولـم نر حفاظه اليوم – على كثرتهم – أنقى الناس من هـذه المعـاني التـي كان القرآن يفيضها على نفوس حفاظه بـالأمس؟ ونجـدهم دائمـاً فـي أُخريـات النـاس أخلاقـاً وأعمـالاً حتـى لقـد أصـبحوا هـدفاً لـسخرية

(١) الآثار (١/ ١٦٠ – ١٦١).

الساحر، يتكسبون بالقرآن فلا يجديهم، ويقعون في المزالق فلا يهديهم، مع أنهم يقرأون فيه ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

فنعم: إن القرآن هو هذه الأحزاب الستون التي نقرأها اليوم بألفاظها وحروفها ونقوشها، منقولاً بالتواتر القطعي، محفوظاً بحفظ الله من كل ما أصاب الكتب السماوية من قبله من النسيان والتبديل وتحريف الكلم عن مواضعه. كبر بتواتره عن الإسناد والمسندين، وشهادة المعدلين والمجرحين، قد نيّف على ثلاثة عشر قرناً، ولم يشك المسلمون في حرف منه فضلاً عن كلمة، وفي الأرض عدد حصاها أعداء له يتمنون بقاصمة الظهر أن لو ينطفئ نوره ويستسر ظهوره، ويرضخون في سبيل محوه من الأرض بما كسبت الأيدي واحتقبت الخزائن من الأموال، وبما أخرجت بطون النساء من الرجال، وبما أنتجت القرائح من مكر واحتيال وكيد ومحال. فلم ينالوا منه نيلاً إلا مضضا تنطوي عليه جوائحهم، ووغراً تنكسر عليه صدورهم، وشجى تنثني عليه لهواتهم، وحقداً تغلي مراجله في نفوسهم، وقد أبقاهم الله وأبقى لهم منه المقيم المقعد وهم بهذا الحال وهو بهذا الحال إلى يومنا هذا، فلينم المسلمون ملء جفونهم، ولينعموا بالاً من هذه الناحية، وليعلموا أن القرآن أُتي من قبلهم.

ولكن سر القرآن ليس في هذا الحفظ الجاف الذي نحفظه، ولا في هذه التلاوة الشلاء التي نتلوها، وليس من المقاصد التي أنزل لتحقيقها تلاوته على الأموات، ولا اتخاذه مكسبة، والاستشفاء به من الأمراض الجسمانية. وإنما السر كل السر في تدبره وفهمه، وفي اتباعه والتخلق بأخلاقه، ومن آياته ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، ومن آياته ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

هذه هي الطريقة الواحدة التي اتبعها المسلمون الأولون فسعدوا باتباعها والاستقامة عليها، وهذا هو الإسلام متجلياً في آيات القرآن، دين واحد جاء به نبي واحد عن إله واحد، وما ظنك بدين تحفه الوحدة من جميع جهاته؟

أليس حقيقاً أن يسوق العالم إلى عمل واحد وغاية واحدة واتجاه واحد على السبيل الجامعة من عقائده وآدابه؟

أليس حقيقاً أن يجمع القلوب التي فرّقت بينها الأهواء، والنفوس التي باعدت بينها النزعات، والعقول التي فرّق بينها تفاوت الاستعداد؟

بلى والله إنه لحقيق بكل ذلك».

وقال علامة المغرب تقي الدين الهلالي رحمه الله[1] : «إن القرآن في هذا الزمان يقرأ ويحفظ أكثر مما كان يقرأ ويحفظ في زمان النبي ﷺ والصحابة أضعافاً مضاعفة، ولكن هل يحصل به من الهدى والرحمة ما كان يحصل به في ذلك الزمان؟

الجواب: لا، ثم لا، لأنه في ذلك الزمان كان تعلمه لله وقراءته لله مصحوبة بتدبر وخشوع يعمل به ويحكم به ويتأدب بأدبه، وفي هذا الزمان عكس ذلك، فالانتفاع بالقرآن كالانتفاع بالدواء، إذا استعمل حسب ما وصف الطبيب وتجنّب المريض ما نهاه عنه طبيبه من المأكولات والمشروبات نفعه الدواء، وإذا استعمله على خلاف ذلك لا ينفعه بل يضره، وقد جاء في الخبر: «رب قارئ للقرآن والقرآن يلعنه» - من كلام أنس -. وذلك واضح في الظالم الذي يقرأ القرآن فيقرأ فيه ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، وفي الكاذب الذي يقرأ القرآن فيقرأ فيه: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، وفي الذي يقرأ القرآن ولا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، فيقرأ فيه: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ﴾

(١) سبيل الرشاد في هدي خير العباد (٤/٣١٨ - ٣١٩).

[المائدة: ٧٨ - ٧٩]. وقد قال النبي ﷺ: **«لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليلعنكم الله كما لعنهم»**.

وفي الوقت الذي استولى المستعمرون على المغرب بأسره، كان القرآن يختم في كل شهر آلاف المرات، فلم ينفع المغاربة شيئاً، بل هُزموا شر هزيمة واستولى عليهم أعداؤهم واستمر استيلاؤهم عشرات السنين، ولو كان القرآن يقرأ فيهم كما كان يقرأ في زمان النبي ﷺ وأصحابه لما قدر أولئك الأعداء أن يستولوا عليهم، ومن ذلك نعلم أن القرآن يكون هدى ورحمة للمؤمنين الذين يتعلمونه لله، ويعلمونه لله، ويعملون به، ويجعلونه إماماً وحكماً ويتأدبون بآدابه، ويستضيئون بنوره، وإلا كانوا كالذين قال الله تعالى فيهم: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٠ - ٢٠٣]، وهيهات هيهات!».

والسلف كانوا ينادون على أنفسهم بالنقص وهم أكمل الخلق، عظمت ذنوبهم في أعينهم ولو كانت صغاراً، يُبّكتون أنفسهم حتى على الخواطر، ونحن نُنادي على أنفسنا بالتزكية مع نقص العمل إلا من رحم ربك.

قال إبراهيم التيمي رحمه الله: «ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذباً»[1] .

وقال القحطاني في نونيته[2] :

والله لو علموا خبيء سريرتي | لأبى السلام عليَّ من يلقاني

وهؤلاء السلف يذمون أنفسهم وهي زكية، يرون في أنفسهم تفريطاً وقد سارعوا إلى كل فضيلة، وما ذاك إلا لحياة قلوبهم، فهم كما قال عنهم ابن عباس رضي الله عنهما[3] : «يَعُدُّون أنفسهم مع المقصرين المفرِّطين وإنهم لأكياس أقوياء، ومع المخطئين الظالمين، وإنهم لأنزاه برآء.

ألا إنهم لا يستكثرون له الكثير، ولا يرضون له بالقليل، ولا يدلون عليه بالأعمال، هم حيثما لقيتهم: مهتمون، مشفقون، وجلون، خائفون».

وقال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله (ت: ٦٦١هـ)[4] :

«وما أحسن قول الحسن في قول أبي بكر رضي الله عنه:

---

(١) ذكره البخاري تعليقاً مجزوماً به وهو مسند عند أحمد في الزهد ص ٤٣٤ بإسناد صحيح.

(٢) النونية ص ٩.

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/٢٥٩).

(٤) رموز الكنوز (٥/١٥٤).

«وُلِّيتكم ولست بخيركم»: كان يعلم أنه خيرهم، ولكن المؤمن يهضم نفسه».

وهذا الربيع بن خُثيم رحمه الله إذا قيل له: كيف أصبحتم؟ قال: ضعفاء مذنبين، نأكل أرزاقنا، وننتظر آجالنا[1] .

ونحن لا ندعي العصمة لأحد، ولا نعرف أحداً تمحض للطاعة ولم يصدر منه شيء من النقص، قال الإمام الشافعي رحمه الله[2] : «لا أعلم أحداً أُعطي طاعة الله حتى لم يخلطها بمعصية إلا يحيى ابن زكريا»، وهذا دليله قوله تعالى عنه: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩]، فالحصور الممتنع عن المعاصي.

وهذا نذكره ليعرف العبد حقيقة بشريته وأنه ليس بملك، فلا يقنط ولكن يبادر إلى سد الخلل، وإزالة آثار نقصه كما فعل أنبياء الله ورسله والصالحون.

قال العز بن عبدالسلام رحمه الله[3]: «وما من أحد إلا وقد هَمَّ ولَمَّ».

---

(١) الرقة والبكاء لابن قدامة ص ٤٨.

(٢) الكفاية (١/ ٢٧٠).

(٣) قواعد الأحكام في إصلاح الأنام (١/ ٢٠٩).

ولمّا دخل أهل مصر في الإسلام وقرأوا كتاب الله، ووجدوا المسلمين على غير صفة الكمال من ترك بعض المأمورات وركوب بعض المحرّمات، تعاظموا ذلك ورحلوا إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذكروا له ذلك، فذكّرهم بما غاب عنهم من طبيعة النقص البشرية، وأطفأ فتنتهم.

قال الحسن: إن ناساً سألوا عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما بمصر، فقالوا: نرى أشياء من كتاب الله عز وجل أُمر أن يُعمل بها، لا يُعمل بها، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك.

فقدم وقدموا معه، فلقي عمر رضي الله عنه، فقال: متى قدمت؟ فقال: منذ كذا وكذا، قال: أبإذن قدمت؟ قال: فلا أدري كيف ردّ عليه، فقال: **يا أمير المؤمنين! إن ناساً لقوني بمصر، فقالوا: إنا نرى أشياء في كتاب الله أُمر أن يُعمل بها، فلا يُعمل بها، فأحبّوا أن يلقوك في ذلك**، قال: فاجمعهم لي، قال: فجمعتهم له، فأخذ أدناهم رجلاً، فقال: أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك! أقرأت القرآن كله؟ قال: نعم، قال: فهل أحصيته في نفسك؟ فقال: اللهم لا! ولو قال: نعم، لخصمه. قال: فهل أحصيته في بصرك؟ فهل أحصيته في لفظك؟ هل أحصيته في أثرك؟ ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم، فقال: ثكلت عمر أُمُّه، أتكلّفونه أن يقيم الناس على كتاب الله، قد علم ربنا أن

ستكون لنا سيئات، قال: وتلا: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١] »[١] .

ومع هذا فلا بد للعبد أن يجتهد في تكميل نفسه وتزكيتها، ويخلصها من التبعات ويبادر إلى استباق الخيرات والتحاشي من المهلكات.

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**والقرآن حجة لك أو عليك**»[٢] .

وقيل ليوسف بن أسباط بأي شيء تدعو إذا ختمت القرآن؟ قال: «أستغفر الله من تلاوتي، لأني إذا ختمته وتذكرت ما فيه من الأعمال خشيت المقت فأعدل إلى الاستغفار والتسبيح»[٣] .

وقرأ رجل القرآن على بعض العلماء، قال: فلما ختمته أردت الرجوع من أوله، فقال لي: اتخذت القراءة عليّ عملاً، **اذهب فاقرأه على الله في ليلك، وانظر ماذا يفهمك منه فاعمل به**[٤] .

---

(١) رواه الطبري في جامع البيان (٥/٢٩)، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (١/٤٨٥): إسناد صحيح ومتن حسن.

(٢) رواه مسلم كتاب الطهارة باب فضل الوضوء (ص ١١٤ - رقم ٥٣٤).

(٣) المحرر الوجيز (١/١٣).

(٤) المحرر الوجيز (١/١٣).

وأحرى الناس بتجويد العمل هم حملة القرآن، والقراء، وطلبة العلم، قال حذيفة رضي الله عنه: «يا معشر القراء استقيموا فقد سبقتم سبقاً بعيداً، فإن أخذتم يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً»[1] .

والقراء: المراد بهم العلماء بالقرآن والسُّنَّة[2] .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله[3] : «قوله (استقيموا) أي اسلكوا طريق الاستقامة وهي كناية عن التمسك بأمر الله فعلاً وتركاً، وقوله فيه «سبقتم» بفتح أوله، وقوله (فإن استقمتم فقد سبقتم سبقاً بعيداً) أي ظاهراً، ووصفه بالبعد لأنه غاية شأو السابقين، والمراد أنه خاطب بذلك من أدرك أوائل الإسلام، فإذا تمسك بالكتاب والسُّنَّة سبق إلى كل خير، لأن من جاء بعده إن عمل بعمله لم يصل إلى ما وصل إليه من سبقه إلى الإسلام، وإلا فهو أبعد منه حساً وحكماً.

وكلام حذيفة رضي الله عنه منتزع من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]».

---

(١) رواه البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (ص ١٢٥٣ - رقم ٧٢٨٢).

(٢) فتح الباري (١٣/٢٥٧).

(٣) فتح الباري (١٣/٢٥٧) باختصار يسير جداً.

وطلبة العلم والقراء أقرب الناس للتوبة وإزالة آثار الزلل والمخالفات، قال ابن القيم رحمه الله[1] : «فإن العالم إذا زلَّ فإنه يحسن إسراع الفيئة، وتدارك الفارط، ومداواة الجرح، فهو كالطبيب الحاذق البصير بالمرض وأسبابه وعلاجه، فإن زواله على يده أسرع من زواله على يد الجاهل. وأيضاً فإن معه من معرفته بأمر الله وتصديقه بوعده ووعيده وخشيته منه، وإزرائه على نفسه بارتكابه وإيمانه بأن الله رحمه، وأن له ربّاً يغفر الذنب، ويأخذ به، إلى غير ذلك من الأمور المحبوبة للرب، ما يغمر الذنب، ويضعف اقتضائه، ويزيل أثره، بخلاف الجاهل بذلك أو أكثره، فإنه ليس معه إلا ظلمة الخطيئة وقبحها وآثارها المردية، فلا يستوي هذا وهذا».

* * *

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٧٧).

منّة الصحابة على الأمة في حفظ القرآن

منّة الصحابة رضي الله عنهم على الخلق جميعاً معلومة، لذلك لما أزفت ساعة الاقتتال بين عسكر الإيمان وعسكر الكفار في غزوة بدر، قال النبي ﷺ: «**اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض**»[1] .

وكذلك منّة الصحابة في حفظ القرآن معلومة، فإن قلوبهم أوعيةٌ لكتاب الله، وفي قتال أهل الردة لما استحرّ القتل في القراء، قال عمر لأبي بكر رضي الله عنهما: «إني أخشى أن يستحرَّ القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن»[2] .

فهذا دال بلا شك على أن قلوب الصحابة هي التي حفظت القرآن، ومن صدورهم كُتب المصحف.

قال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي رحمه الله[3] : «القرآن – ولله الحمد – وصل إلينا بالإسناد الصحيح المتواتر المجمع عليه

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب جمع القرآن (ص ٨٩٤ – رقم ٤٩٨٦).

(٣) مجالس في تفسير قوله تعالى: ﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾ ص ٢٧٩.

بنقل الوسائط الثقات الضابطين، عن أمثالهم كذلك، حتى إلى النبي ﷺ، والنبي ﷺ تلقى القرآن عن جبريل عليه الصلاة والسلام، عن رب العالمين عزَّ وجل، قال الله عزَّ وجل: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وهي القرآن، تلقاه منه المؤمنون حين تلاه عليهم، وهم الصحابة خير القرون، وأخذه عنهم التابعون، وهلمَّ جرا، حتى انتهى علم ذلك إلينا، وحصلت بركاته لدينا، وفاضت أنواره علينا. وأعلى الوسائط في ذلك: الصحابة رضي الله عنهم».

وقال علم الدين أبو الحسن السخاوي رحمه الله (ت:٦٤٣هـ)[1]: «وقد أمر رسول الله ﷺ بمكافأة المعروف بالدعاء، من لم يقدر على الجزاء، وأي معروف أعظم مما أسداه إلينا علماؤنا، فإنهم بذلوا جهدهم في حفظ الشريعة والذب عن كتاب الله تعالى، والتنبيه على إبطال من رام به الباطل، وبغاه الغوائل، وأخذوا النفوس بالجد في حراسته حتى أوصلوه إلينا سليماً من التحريف والتبديل، نقياً من التخليط والأباطيل، فلولاهم لجُزْنا عن السبيل بكيد من انتصب لعداوة هذا الدين، معملاً التحيل في إفساده، ضارباً في الأقطار ليظفر بضعيف يُضِله، وغبي يُزِلُه، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢].

---

(١) فتح الوصيد (١/١١٢ – ١١٣).

ولقد أوضح علماؤنا كل مشكلة، وشرحوا كل معضلة، واجتمعوا على سد الخلل، وضيّقوا على المبتدعة السبل، وأخذوا على المُتمحِّلين الطرق، وهم العدول بشهادة الرسول ﷺ إذ يقول: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين**» ».

* * *

آي القرآن كلها
ثابتة بالتواتر

القرآن تكفل الله بحفظه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، والصحابة نقلوه كله إلينا بالتواتر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «والاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب لا على المصاحف، كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن ربي قال لي: أن قم في قريش فأنذرهم، فقلت: أي رب! إذا تبلغوا رأسي - أي يشدخوا- فقال: إني مبتليك ومبتل بك، ومنزل عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرؤه نائماً ويقظاناً، فابعث جنداً أبعث مثليهم، وقاتل بمن أطاعك من عصاك، وأنفق أُنفق عليك»**، فأخبر أن كتابه لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة تُغسل بالماء، بل يقرؤه في كل حال كما جاء في نعت أمته: «أناجيلهم في صدورهم»، بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه إلا في الكتب، ولا يقرأونه كله إلا نظراً لا عن ظهر قلب».

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤٠٠).

وأما حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال: لما نسخنا الصُحف في المصاحف، فقدتُ آيةً من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها، لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة الأنصاري رضي الله عنه الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته شهادة رجلين ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]»[1] .

فهذا الأثر لا يدل على أن خزيمة الأنصاري رضي الله هو الوحيد الذي يحفظها، قال الحافظ البغوي رحمه الله[2] : «قوله: «لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة»، ليس فيه إثبات القرآن بقول الواحد، لأن زيداً كان قد سمعها، وعلمَ موضعها من سورة الأحزاب بتعليم النبي ﷺ، وكذلك غيره من الصحابة، فمنهم من نسيها، فلما سمع ذكر، وتتبُّعه الرجال في جمعه **كان للاستظهار، لا لاستحداث العلم**».

* * *

(١) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب جمع القرآن (ص ٨٩٤ – رقم ٤٩٨٦).
(٢) شرح السُّنَّة (٥١٦/٤).

القراء السبعة
أسانيدهم متصلة بالصحابة

القراءات السبع أخذت بالمشافهة عن التابعين عن الصحابة، لم تبتدأ في المائة الرابعة، قال الحافظ البغوي رحمه الله (ت: ٥١٦هـ)[١] : «والقراء المعروفون أسندوا قراءتهم إلى الصحابة، فعبدالله بن كثير، ونافع أسندا إلى أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه، وعبدالله بن عامر أسند إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأسند عاصم إلى علي رضي الله عنه، وعبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وزيد رضي الله عنه، وأسند حمزة إلى عثمان وعلي رضي الله عنهما، وهؤلاء قرؤوا على النبي ﷺ ، فثبت أن القرآن كان مجموعاً كله في صدور الرجال».

والقراء كثيرون جداً إلا أن الناس غلب عليهم القراءة بقراءة هؤلاء السبعة لسهولته عليهم واشتهارها بينهم، قال مكي بن أبي طالب رحمه الله[٢] : «إن الرواة عن الأئمة من القراء كانوا في العصر الثاني والثالث كثيراً في العدد، كثيراً في الاختلاف، فأراد الناس في

(١) شرح السُّنَّة (٤/٥١٨).

(٢) المرشد الوجيز ص ١٥٦.

العصر الرابع أن يقتصروا من القراءات التي توافق المصحف على ما سهل حفظه وتنضبط القراءة به، فنظروا إلى إمام مشهور بالثقة والأمانة في النقل وحسن الدين وكمال العلم، واشتهر أمره وأجمع أهل مصره على عدالته فيما نقل، وثقته فيما قرأ وروى، وعلمه بما يقرأ به، ولم تخرج قراءته عن خط مصحفهم المنسوب إليهم، فأفردوا من كل مصر وجّه إليه عثمان رضي الله عنه مصحفاً إماماً، هذه صفته وقراءته على مصحف ذلك المصر».

وقال أبو العباس أحمد بن عمّار المهدوي رحمه الله (ت: ٤٣٠هـ)[١] : «فأما اقتصار أهل الأمصار في أغلب أمورهم على القراء السبعة، الذين هم: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، فإن ذلك إنما هو على سبيل الاختصار، عند ما رواه من أكثر القراءة، بسبب اتساع الخيرات، فذهب إلى ذلك بعض المتأخرين على وجه الاختيار والاختصار، فجعله عامة الناس كالفرض المحتوم، والشرع المعين المعلوم، حتى صار بعضهم إذا سمع قراءةً تخالف شيئاً مما بلغه من الحروف السبعة خطّأ قارئها، وربما كفَّره، مع كون تلك القراءة التي أنكرها أشهر في القراءات، وأظهر في الروايات، وأقوى في اللغات».

والقراء كثيرون، وجهودهم عظيمة في حفظ القرآن بقراءاته، فنافع مثلاً قرأ على سبعين تابعي[٢] ، وروايات غير السبعة كانت

---

(١) بيان السبب الموجب لاختلاف القراءات ص ٥٢ – ٥٣.

(٢) المرشد الوجيز ص ١٥٥.

مشهورة غير مهجورة، أما أول من اقتصر على السبعة فهو أبو بكر ابن مجاهد، قال مكي بن أبي طالب رحمه الله[1] : «وأول من اقتصر على هؤلاء السبعة أبو بكر ابن مجاهد، قبل سنة ثلاثمائة أو في نحوها، وتابعه على ذلك من أتى بعده إلى الآن، ولم تترك القراءة برواية غيرهم، واختيار من أتى بعدهم إلى الآن، فهذه قراءة يعقوب الحضرمي غير متروكة، وكذلك قراءة عاصم الجحدري، وقراءة أبي جعفر، وشيبة، إمامي نافع».

وبهذا يتبين أنه تجوز القراءة بغير قراءة السبعة، إذا كانت ثابتة عن النبي ﷺ، قال ابن القيم رحمه الله[2] : «لا يجب على الإنسان التقيّد بقراءة السبعة المشهورين باتفاق المسلمين، بل إذا وافقت القراءة رسم المصحف الإمام وصحّت في العربية وصحّ سندها جازت القراءة بها وصحّت الصلاة بها اتفاقاً، بل لو قرأ بقراءة تخرج عن مصحف عثمان رضي الله عنه، وقد قرأ بها رسول الله ﷺ والصحابة بعده جازت القراءة بها ولم تبطل الصلاة بها على أصح الأقوال، والثاني تبطل الصلاة بها على أصح الأقوال، وهاتان روايتان منصوصتان عن الإمام أحمد، والثالث: إن قرأ بها في ركن لم يكن مؤدياً لفرضه، وإن قرأ بها في غيره لم تكن مبطلة، وهذا

---

(١) المرشد الوجيز ص ١٥٧.

(٢) إعلام الموقعين ص ٩٣١ - ٩٣٢.

اختيار أبي البركات ابن تيمية رحمة الله عليه، قال: لأنه لم يتحقق الإتيان بالركن في الأول، ولا الإتيان بالمبطل في الثاني».

وأما بالنسبة للاستدلال بالقراءات غير السبعية لتقرير الأحكام الشرعية، فقد ذكر ابن عبدالبر رحمه الله إجماع العلماء على أن القراءة الشاذة إذا صحَّ النقل بها عن الصحابة فإنه يجوز الاستدلال بها في الأحكام[1].

والمقصود من هذا كله بيان أن العمدة في حجية القراءات هو النقل، قال أبو جعفر أحمد بن جبير المقرئ (ت: ٢٥٨هـ)[2]: «وإنما الأصل الذي يعتمد عليه في هذا: أن ما صح سنده، واستقام وجهه في العربية، ووافق لفظاً خط المصحف فهو من السبعة المنصوص عليها، ولو رواه سبعون ألفاً مفترقين أو مجتمعين، فهذا هو الأصل الذي بُني عليه في ثبوت القراءات عن سبعة أو عن سبعة آلاف، فاعرفه وابنِ عليه».

وقال علم الدين أبو الحسن السخاوي رحمه الله[3]: «وإنما الغرض ها هنا ذكر اعتمادهم في قراءتهم على النقل، وأنهم لم يجاوزوه إلى غيره، وإن كان له وجه في العربية، إذا لم تكن لها آثار مروية.

---

(١) مجموع الفتاوى (٤٣/٣٤).

(٢) الإبانة ص ٥١.

(٣) فتح الوصيد في شرح القصيد (١١٦/١).

وكيف تجوز القراءة بذلك، وقد أنكر عمر رضي الله عنه قراءة من قرأ (عتى حين)[1] ، وقال للقارئ: من أقرأك (عتى)؟ قال: أقرأني ابن مسعود رضي الله عنه، فكتب إليه: «أما بعد: فإن الله أنزل هذا القرآن فجعله عربياً مبيناً، وأنزله بلغة هذا الحي من قريش، فإذا أتاك كتابي هذا فأقرئ الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل».

* * *

(١) في قوله تعالى: ﴿ليسجننه حتى حين﴾.

الأسباب المعينة على حفظ القرآن

لا بد أن يتحرى الراغب في حفظ القرآن الأسباب التي تيسّر له ذلك، ونجملها فيما يلي:

١) اعتقاد أن حفظ القرآن سهل اعتقاداً جازماً، فهذا عون على الحفظ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

٢) الإرادة الصادقة والعزيمة الجازمة، فحفظ القرآن نعمة لا توازيها نعمة، فابذل من الجهد غايته، قال عكرمة رحمه الله: كان ابن عباس رضي الله عنهما يضع الكبل في رجلي يعلمني القرآن والفرائض[١].

٣) اجتناب المعاصي، قال وكيع رحمه الله[٢]: «استعينوا على الحفظ بترك المعصية».

٤) الاستعداد البدني والذهني للحفظ، وذلك بالنوم مبكراً والتخلي عن الشواغل، فاعتدال المزاج وقوة التركيز وصفاء الذهن عون

---

(١) ذكره البخاري تعليقاً مجزوماً به كتاب الخصومات باب التوثق ممن تخشى معرّته، ووصله البيهقي في السنن الكبرى (٦/٢٠٩) وإسناده صحيح.

(٢) روضة العقلاء ص ٢٩.

على الحفظ. قيل لحماد بن زيد رحمه الله: ما أعون الأشياء على الحفظ؟ قال: قلة الغم[1].

٥) اختيار أوقات البركة، كالحفظ بالأسحار، أو بعد صلاة الفجر، فإن النبي ﷺ دعا لأمته بالبركة في بكورها.

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح لم يبرح من مجلسه حتى تطلع الشمس حسناً[2].

وقال علقمة بن قيس رحمه الله[3]: «بلغنا أن الأرض تعجُّ إلى الله من نومة العالم بعد صلاة الصبح».

وقال إسماعيل بن أبي أويس رحمه الله: «إذا هممت أن تحفظ شيئاً فنم، وقم عند السحر فأسرج، وانظر فيه، فإنك لا تنساه بعد إن شاء الله».

قال الخطيب البغدادي رحمه الله[4]: «إنما اختاروا المطالعة بالليل لخلو القلب، فإن خلوَّه يسرع إليه الحفظ».

٦) الاستماع لما تريد حفظه من قراءة أحد القراء من خلال الأشرطة، وهذا يكون ليلة الحفظ، فتنام وقد طرق حواسك الآيات التي

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/٦٥).
(٢) رواه مسلم كتاب المساجد باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح (ص ٢٧٠ - رقم ١٥٢٥).
(٣) شرح السُّنَّة للبغوي (٣/٢٢٢).
(٤) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/٢٦٥).

تريد حفظها بعد الفجر، فتسهل عليك القراءة أولاً، وتقرأ قراءة صحيحة ثانياً.

٧) القراءة من مصحف واحد، لأن صورة المصحف ترتسم في الذهن، فمع اختلاف الصورة لتعدد المصاحف واختلافها يتشتت الذهن.

٨) التزام مقدار محدد تقرأه يومياً، ولو فاتك شيء منه في يوم فلا تترك الحفظ من أجل ذلك فإن هذا من تلبيس إبليس، بل بادر بالتعويض في اليوم نفسه أو تاليه.

٩) الصلاة بما حفظته مع الشروق أو الضحى، فإنه من أعظم أسباب تثبيت الحفظ، قال ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: «وصاحب القرآن إذا قام به ليلاً أو نهاراً ذكره، وإذا لم يقم به نسيه»[١] .

والإمامة في الصلاة عون على تثبيت الحفظ، والصلاة به في قيام رمضان من أعظم أسباب تثبيت الحفظ، قال محمد بن الفضل رحمه الله: سمعت جدي يقول: استأذنت أبي في الخروج إلى قتيبة، فقال لي: امكث حتى تصلي الختمة، ففعلت، فلما عيّدنا أذن لي، فخرجت إلى مرو[٢] .

---

(١) رواه مسلم كتاب فضائل القرآن باب الأمر بتعهد القرآن (ص ٣٢٠ – رقم ١٨٤١).

(٢) تذكرة الحفاظ (٢/٧٢٢).

١٠) تكرار التلاوة ومراجعة المحفوظ فهو الموجب لرسوخه في الذهن، قال أحمد ابن الفرات: لم نزل نسمع شيوخنا يذكرون أشياء في الحفظ، فأجمعوا أنه ليس شيء أبلغ فيه إلا كثرة النظر[١] .

وقال البخاري رحمه الله: «لا أعلم شيئاً أنفع للحفظ من نهمة الرجل ومداومة النظر»[٢] .

* * *

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/٢٦٥).
(٢) هدي الساري ص ٤٨٧ – ٤٨٨ .

حفظ القرآن وتعاهده من التفلت

ينبغي لطالب العلم مذاكرة محفوظه، فكما أن القرآن يسير للحفظ، فإنه سريع التفلت، عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**تعاهدوا القرآن، فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها**»[1] .

قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله[2]: «وإذا كان القرآن الميسر للذكر كالإبل المعقلة من تعاهدها أمسكها، فكيف بسائر العلوم؟!». وجبريل عليه السلام كان يعارض النبي ﷺ بالقرآن كل سنة[3] ، فهذا كالتعليم لأمته بمذاكرة القرآن وتعاهد حفظه.

وقد زجرنا النبي ﷺ عن نسبة التهاون في مذاكرة القرآن وتثبيت حفظه إلى أنفسنا، وأمرنا أن ننسبه إلى مجهول أو الشيطان، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**بئس ما**

---

(١) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب استذكار القرآن (ص ٩٠٢ – رقم ٥٠٣٣)، ومسلم كتاب فضائل القرآن باب الأمر بتعاهد القرآن (ص ٣٢٠ – رقم ١٨٤٤).

(٢) التمهيد (٢٠٢/٣).

(٣) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب ما كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ (ص ٨٩٦ – رقم ٤٩٩٧).

لأحدهم أن يقول: نسيت آية كَيْتَ وكَيْتَ، بل نُسِّي، واستذكروا القرآن، فإنه أشد تفصيا من صدور الرجال في النَّعَمِ»[1] .

قال القرطبي رحمه الله[2] : «فإذا قال الإنسان: نسيت آية كيت، فقد شهد على نفسه بالتفريط، وترك معاهدته، وهو ذنب عظيم كما قال في حديث أنس رضي الله عنه الذي خرّجه الترمذي مرفوعاً: «عُرضت عليَّ أعمال أمتي، فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن، أو آية أوتيها رجل ثم نسيها»، وهو نص، وعلى هذا متعلَّق الذم: ترْكُ ما أُمر به من استذكار القرآن وتعاهده، والنسيان علامة ترك ذلك، فعلق الذمَّ عليه».

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله[3] : « وقد أدخل بعض المفسرين هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤ - ١٢٦]».

---

(١) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب استذكار القرآن وتعاهده (ص ٩٠١ – رقم ٥٠٣٢)، ومسلم كتاب فضائل القرآن باب الأمر بتعهد القرآن (ص ٣٢٠ – رقم ١٨٤١).

(٢) المفهم (٢/٤١٩).

(٣) فضائل القرآن ص ٢٢١.

تنكيس سور وآيات وحروف القرآن

قيل لعبدالله بن مسعود رضي الله عنه: إن فلاناً يقرأ القرآن منكوساً، فقال: ذاك منكوس القلب[1] .

قال أبو عبيدالقاسم بن سلام رحمه الله (ت: ٢٢٤هـ)[2] : «قوله: يقرأ القرآن منكوساً يتأوله كثير من الناس أن يبدأ الرجل من آخر السورة فيقرأها إلى أولها، وهذا شيء ما أحسب أحداً يطيقه، لا كان هذا في زمان عبدالله ولا أعرفه، ولكن وجهه عندي أن يبدأ من آخر القرآن من المعوذتين ثم يرتفع إلى البقرة كنحو ما يتعلم الصبيان في الكتاب، لأن السنة خلاف هذا، يعلم ذلك بالحديث الذي يحدثه عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ: أنه كان إذا أنزلت عليه السورة أو الآية قال: «**ضعوها في الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا**»؛ ألا ترى أن التأليف الآن في هذا الحديث من رسول الله ﷺ، ثم كتبت المصاحف على هذا؟

ومما يبين لك أيضاً أنه ضم براءة إلى الأنفال فجعلها بعدها وهي أطول، وإنما ذلك التأليف، فكان أول القرآن فاتحة الكتاب ثم

---

(١) رواه ابن أبي داود في المصاحف.

(٢) غريب الحديث (٤/١٠٣ – ١٠٥)، ط. دائرة المعارف العثمانية – الهند.

البقرة إلى آخر القرآن، فإذا بدأ من المعوذتين صارت فاتحة الكتاب آخر القرآن، فكيف تُسمى فاتحة وقد جُعلت خاتمته؟

وقد روي عن الحسن وابن سيرين من الكراهة فيما هو دون هذا.

قال أبو عبيد: حدثني ابن أبي عدي عن أشعث عن الحسن وابن سيرين أنهما كانا يقرءان القرآن من أوله إلى آخره، ويكرهان الأوراد.

وقال ابن سيرين: تأليف الله خير من تأليفكم، قال أبو عبيد: وتأويل الأوراد أنهم كانوا أحدثوا أن جعلوا القرآن أجزاء، كل جزء منها فيه سور مختلفة من القرآن على غير التأليف، جعلوا السورة الطويلة مع أخرى دونها في الطول ثم يزيدون كذلك، حتى يتم الجزء، ولا يكون فيه سورة منقطعة، ولكن تكون كلها سوَراً تامة، فهذه الأوراد التي كرهها الحسن ومحمد، والنَّكْس أكثر من هذا وأشدّ؛ وإنما جاءت الرخصة في تعلُّم الصبي والعجمي من المفصّل لصعوبة السور الطوال عليهما، فهذا عذر، فأما من قرأ القرآن وحفظه ثم تعمّد أن يقرأه من آخره إلى أوّله فهذا النكس المنهي عنه، وإنما كرهنا هذا فنحن للنكس من آخر السورة إلى أولها أشد كراهة إن كان ذلك يكون».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت: ٧٢٨هـ)[١] : «في كراهة تنكيس السور روايتان عن الإمام أحمد: إحداهما: يكره لأنه

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤١٠).

خلاف المصحف العثماني المتفق عليه، والثانية: لا يكره كما يلقنه الصبيان؛ إذ قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قرأ بالبقرة، ثم النساء، ثم آل عمران».

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1] : «وأما ترتيب السور فمن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولهذا ليس لأحد أن يقرأ القرآن إلا مرتباً آياته، فإن نكَّسه أخطأ خطأً كبيراً، وأما ترتيب السور فمستحب، اقتداءً بعثمان رضي الله عنه.

والأولى إذا قرأ أن يقرأ متوالياً، كما قرأ عليه الصلاة والسلام في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين، وتارة بـ ﴿سبِّح﴾، و﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾، فإن فرّق جاز، كما صحَّ أن رسول الله ﷺ قرأ في العيد بـ ﴿قٓ﴾ و﴿اقتربت الساعة﴾.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿آلٓمٓ﴾ السجدة، و﴿هل أتى على الإنسان﴾.

وإن قدّم بعض السور على بعض جاز أيضاً، فقد روى حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ البقرة ثم النساء ثم آل عمران[2].

وقرأ عمر رضي الله عنه في الفجر بسورة النحل ثم بيوسف».

---

(١) فضائل القرآن ص ٧٣ – ٧٦.

(٢) أخرجه مسلم كتاب صلاة المسافرين باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل (ص ٣١٥ – رقم ١٨١٤).

قال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله (ت:١٤٢١هـ)[1] : «أما تنكيس الحروف: بمعنى أن تكون الكلمة مشتملة على ثلاثة أحرف، فيبدؤها الإنسان من آخرها مثلاً، هذا لا شك في تحريمه، وأن الصلاة تبطل به، لأنه أخرج القرآن عن الوجه الذي تكلم الله به، كما أن الغالب أن المعنى يختلف اختلافاً كبيراً.

وأما تنكيس الكلمات: أن يبدأ بكلمة قبل الأخرى مثل أن يقول: الحمد لرب العالمين، الله الرحمن الرحيم، فهذا أيضاً محرم بلا شك لأنه إخراج لكلام الله عن الوجه الذي تكلم الله به.

تنكيس الآيات أيضاً محرم على القول الراجح؛ لأن ترتيب الآيات توقيفي، ومعنى توقيفي أنه بأمر الرسول ﷺ، ولهذا تجد أحياناً بعض الآيات بين آيات لا يظهر لك تعلقها بها مما يدل على أن الأمر توقيفي، مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤]، وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ [البقرة: ٢٤٠].

الأولى: سابقة بالقراءة، والثانية أسبق نزولاً، ولو كان الترتيب غير توقيفي لكان على حسب النزول.

(١) الشرح الممتع (٣/١١٠ - ١١٣).

تنكيس السور يكره، وقيل يجوز، وأما الذين قالوا بالجواز فاستدلوا: بحديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه الذي في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قام من الليل فقرأ بسورة البقرة، ثم بالنساء، ثم آل عمران، وهذا على غير الترتيب المعروف، قالوا: وفعل النبي ﷺ دليل على الجواز.

وأما الذين قالوا بالكراهية، فقالوا: إن الصحابة رضي الله عنهم وضعوا المصحف الإمام الذي يكادون يجمعون عليه في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وضعوه على هذا الترتيب، فلا ينبغي الخروج عن إجماعهم، أو عما يكون كالإجماع منهم، لأنهم سلفنا وقدوتنا، وهو من سُنَّة الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد أمرنا باتباعه، ولأنه قد يكون فيه تشويش على العامة، وتنقص لكلام الله عز وجل إذا رأوا أن الناس يقدمون ويؤخرون فيه.

ولكن القول بالكراهية قول وسط، فيقال: إن إجماع الصحابة رضي الله عنهم على هذا الترتيب غير موجود، فإن في مصاحف بعضهم ما يخالف هذا الترتيب كمصحف ابن مسعود رضي الله عنه، وأما قراءة النبي عليه الصلاة والسلام في حديث حذيفة رضي الله عنه للنساء قبل آل عمران، فهذا لعله قبل العرضة الأخيرة، لأن جبريل عليه السلام كان يعارض النبي ﷺ القرآن في كل رمضان،

فيكون ما اتفق عليه الصحابة أو ما كادوا يتفقون عليه هو الذي استقر عليه الأمر، لاسيما وأن رسول الله ﷺ كان يقرن بين البقرة وآل عمران مما يدل على أنهما قرينتان، فيكون تقديمه للنساء في حديث حذيفة رضي الله عنه قبل الترتيب الأخير».

* * *

الدعاء مستجاب عند ختم القرآن

تلاوة القرآن عمل صالح، وهو من أجل أنواع الذكر بين يدي الدعاء، قال الحافظ النووي رحمه الله (ت: ٦٧٦هـ)(١) : «روى ابن أبي داود بإسنادين صحيحين عن قتادة التابعي الجليل صاحب أنس رضي الله عنه، قال: كان أنس بن مالك رضي الله عنه، إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا.

وروى بأسانيده الصحيحة عن الحكم بن عتيبة التابعي الجليل قال: أرسل إليَّ مجاهد وعبدة بن أبي لبابة؛ فقالا: إنا أرسلنا إليك لأنا أردنا أن نختم القرآن، والدعاء مستجاب عند ختم القرآن.

وفي بعض الروايات الصحيحة أنه كان يقال: إن الرحمة تنزل عند خاتمة القرآن. وروى بإسناده الصحيح عن مجاهد قال: كانوا يجتمعون عند ختم القرآن، يقولون: تنزل الرحمة».

أما عن سبب اجتماعهم فليدرك الجميع الخير والرحمة والبركة، وليكون ذلك أيضاً من أسباب إجابة الدعاء.

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن ص ١٥٩.

وكان رجل يقرأ القرآن في مسجد رسول الله ﷺ، فكان ابن عباس رضي الله عنهما يجعل عليه رقيباً، فإذا أراد أن يختم قال لجلسائه، قوموا حتى نحضر الخاتمة[1] .

وعن ابن مجاهد رحمه الله: كانوا يجتمعون عند ختم القرآن، ويقولون: الرحمة تنزل[2] .

وقال وهب بن الورد: قال لي عطاء، بلغني أن حميداً الأعرج أن يختم القرآن فانظر، فإذا أراد أن يختم فأخبرني حتى أحضر الختمة[3] .

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: إذا وافق ختم القرآن أوَّل الليل صَلَّتْ عليه الملائكة حتى يُصبح، وإن وافق خَتْمُهُ آخر الليل صلَّت عليه الملائكة حتى يُمسي[4] .

وعن عمرو بن مرة التابعي رحمه الله: كانوا يُحبُّون أن يُخْتَم القرآن من أول الليل أو من أول النهار[5] .

وإنما استحب جماعة من العلماء ختم القرآن أول النهار أو أول الليل لينعم القارئ ببركة ذلك من أول النهار، أو أول الليل.

---

(١) المنهاج في شعب الإيمان (١/٢٢١).

(٢) المنهاج في شعب الإيمان (١/٢٢١).

(٣) المنهاج في شعب الإيمان (١/٢٢١).

(٤) رواه الدارمي، وقال: هذا حسن عن سعد رضي الله عنه.

(٥) رواه ابن أبي داود، التبيان في آداب حملة القرآن ص ٦٠.

قال أبو عبدالله الحليمي رحمه الله[1] : «استحباب الختم أول النهار وأول الليل، قال إبراهيم التيمي رحمه الله: كانوا يقولون إذا ختم الرجل القرآن حلت عليه الملائكة بقية يومه أو بقية ليلته، وكانوا يستحبون أن يجتمعوا في قبل الليل أو قبل النهار، وقال عبدالله بن المبارك: إذا كان الشتاء فاختم القرآن في أول الليل، وإذا كان الصيف فاختمه في أول النهار».

قال أبو داود رحمه الله: ذكرت لأحمد بن حنبل رحمه الله قول ابن المبارك: إذا كان الشتاء فاختم القرآن في أول الليل، وإذا كان الصَّيفُ فاختمه في أول النهار، فكأنه أعجبه، وذلك لما رُوي عن طلحة بن مُصرِّف قال: أدركت أهل الحرمين من صدر هذه الأمة يستحبون الختم في أول الليل، وفي أول النهار، يقولون: إذا ختم في أول الليل صلَّتْ عليه الملائكة حتى يُصْبح، وإذا ختم في أول النهار صلَّتْ عليه الملائكة حتى يمسي[2] .

واستحب بعض العلماء صيام يوم الختم ليجتمع فيه أكثر من موجب من موجبات استجابة الدعاء، قال الحافظ النووي رحمه الله (ت: ٦٧٦هـ)[3] : «يستحب صيام يوم الختم إلا أن يصادف يوما نهى الشرع عن صيامه، وقد روى ابن أبي داود بإسناده الصحيح أن

---

(١) المنهاج في شعب الإيمان (٢/٢٢١).

(٢) المغني (٢/٦٠٩).

(٣) التبيان في آداب حملة القرآن ص ١٥٨.

طلحة بن مُصرِّف، وحبيب بن أبي ثابت، والمسيِّب بن رافع التابعيين الكوفيين رحمهم الله، كانوا يُصْبِحُون في اليوم الذي يختمون فيه القرآن صياماً».

فهذه الآثار كلها في دعاء الختمة خارج الصلاة، أما في الصلاة فليس فيه دليل صحيح.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله [1] : «إن دعاء ختم القرآن في الصلاة لا شك أنه غير مشروع، لأنه وإن ورد عن أنس ابن مالك رضي الله عنه: «أنه كان يجمع أهله عند ختم القرآن ويدعو»، فهذا خارج الصلاة، وفرق بين ما يكون خارج الصلاة وداخلها، فلهذا يمكن أن نقول: إن الدعاء عند ختم القرآن في الصلاة لا أصل له، ولا ينبغي فعله حتى يقوم دليل من الشرع على أن هذا مشروع».

ثم إن بعض من يباشر هذا يجعل دعاء ختمته بعد انتهاءه من القراءة حال قيامه وقبل ركوعه، وهذا موضع قد نُهي عن الدعاء فيه.

* * *

---

(١) الشرح الممتع (٤/٥٧ – ٥٨).

الجمع بين السور في القراءة

عن عبدالله بن شقيق قال: سألت عائشة رضي الله عنها: هل كان رسول الله ﷺ يُصلي الضحى؟ قالت: لا، إلا أن يجيء من مغيبه، قلت: هل كان رسول الله ﷺ يقرن بين السور؟ قالت: من المفصل[١].

وإنما كره الصحابة جمع السور من القرآن عموماً ومن المفصّل خصوصاً إذا كانت هذًّا بدون تدبر، عن أبي وائل رحمه الله قال: جاء رجل إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال: قد قرأت المُفصَّل الليلة في ركعة، فقال: هَذًّا كهذِّ الشعر[٢].

وقال رجل لابن عمر رضي الله عنهما: إني قرأت المفصل في ركعة - أو قال: في ليلة - فقال ابن عمر رضي الله عنهما: إن الله تبارك وتعالى لو شاء لأنزله جملة واحدة، ولكن فصّله لتُعْطى كل سورة حظها من الركوع والسجود[٣].

---

(١) رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب صلاة الضحى (ص٢٩١- رقم ١٦٦٠).

(٢) رواه البخاري كتاب الأذان باب الجمع بين السورتين في الركعة (ص١٢٦ - رقم ٧٧٥).

(٣) رواه عبدالرزاق (٢/١٤٩ - رقم ٢٨٥٥).

وكره الجمع بين السور الشعبي وأبو بكر ابن عبدالرحمن ابن الحارث بن هشام، ورفيع بن مهران، وعمدتهم قول أبي العالية رحمه الله: أخبرني من سمع النبي ﷺ يقول: لكل سورة ركعة[١] .

قال بدر الدين العيني رحمه الله (ت: ٨٥٥هـ)[٢] : «فهذا يدل على أن المصلي لا ينبغي له أن يزيد في كل ركعة من صلاته على سورة واحدة مع فاتحة الكتاب كما ذهب إليه جماعة من السلف، ويمكن أن يكون قوله: لكل سورة ركعة» من باب القلب، من قولهم: عرضت الحوض على الناقة، والمعنى: لكل ركعة سورة واحدة لا يُزاد عليها».

وهذا القول متوجه جداً حيث لا يوجد مقتضى قراءة أكثر من سورة، أما لو وُجد مقتضى ذلك كصلاة الكسوف فإنه إذا كان الكسوف طويلاً فلا ريب أن الإمام قد يضطر إلى قراءة أكثر من سورة.

قال ابن القيم رحمه الله[٣] : «وأما قراءة السورتين في ركعة، فكان يفعله في النافلة، وأما في الفرض، فلم يُحفظ عنه، وأما حديث

---

(١) رواه الطحاوي (٥/٤٣٥ – نخب الأفكار). وقال رحمه الله: «إسناده صحيح، وجهالة الصحابي لا تضر صحة السند».

(٢) نخب الأفكار (٥/٤٣٥).

(٣) زاد المعاد (١/٢١٥).

ابن مسعود رضي الله عنه: إني لأعرف النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهن السورتين في الركعة (الرحمن)، و(النجم) في ركعة، و(اقتربت) و(الحاقة) في ركعة، و(الطور) و(الذاريات) في ركعة و(إذا وقعت) و(نٓ) في ركعة الحديث، فهذا حكاية فعل لم يُعين محلَّه، هل كان في الفرض أو في النفل؟ وهو محتمل.

وأما قراءة سورة واحدة في ركعتين معاً، فقلما كان يفعله، وقد ذكر أبو داود عن رجل من جهينة أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ في الصبح (إذا زلزلت) في الركعتين كلتيهما، قال: فلا أدري أنسي رسول الله ﷺ أم قرأ ذلك عمداً».

وأما اجتزاء بعض سورة في ركعة، وبعض سورة أخرى في ركعة ثانية، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «أعدل الأقوال قول من قال يكره اعتياد ذلك دون فعله أحياناً، لئلا يخرج عما مضت به السنة، وعادة السلف من الصحابة والتابعين».

وقال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ)[2] : «وكان من هديه ﷺ قراءة السورة كاملة، وربما قرأها في الركعتين، وربما قرأ أول السورة، وأما قراءة أواخر السور وأوساطها، فلم يُحفظ عنه».

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤١٢).

(٢) زاد المعاد (١/ ٢١٤ – ٢١٥).

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله معلقاً[1] : «إن الذي ينبغي للإنسان أن يقرأ سورة كاملة، لا بعض السورة، ولا آيات من أثناء السورة، لأن ذلك لم يرد عن النبي ﷺ، وأطلقه ابن القيم رحمه الله حيث قال: لم يكن من هديه أن يقرأ آيات من أثناء السور، ولكن ثبت عن النبي ﷺ أنه قرأ في سنة الفجر آيات من السور فكان أحياناً يقرأ في الركعة الأولى ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ...﴾ [البقرة: ١٣٦] الآية، وفي الثانية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ...﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية، والأصل أن ما ثبت في النفل ثبت في الفرض إلا لدليل.

ويدل لهذه القاعدة أن الصحابة رضي الله عنهم لما حكوا أن رسول الله ﷺ كان يوتر على راحلته، قالوا: غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة، فلما حكوا أنه يوتر ثم قالوا غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة دلَّ على ذلك على أن المعلوم أن ما ثبت في النفل ثبت في الفرض، ولأنهما عبادتان من جنس، والأصل اتفاقهما في الأحكام.

على كل نرى أنه لا بأس أن يقرأ الإنسان آية من سورة في الفريضة وفي النافلة.

وربما يستدل له أيضاً بعموم قوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾

---

(١) الشرح الممتع (٣/١٠٤).

[المزمل: ٢٠]، لكن السُّنَّة والأفضل أن يقرأ سورة، والأفضل أن تكون كاملة في كل ركعة، فإن شق فلا حرج عليه أن يقسم السورة بين الركعتين؛ لأن النبي ﷺ قرأ ذات يوم سورة «المؤمنون» ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، فلما وصل إلى قصة موسى وهارون أخذته سعلة فركع، فدل هذا على جواز قسم السورة لاسيما عند الحاجة».

❋ ❋ ❋

عدّ آي السور وكلماتها وحروفها

عدّ الآي والسور من فوائده معرفة ما عيّنه الشارع من فضائل مخصوصة لبعض الآيات والسور، كما في حديث أبي مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**»[1] ، وحديث من قرأ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من فتنة الدجال[2] .

وبعدّ الآي يُدرك المقدار المرتب من الفضل على قراءة القرآن والقيام به، كما في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كُتب من القانتين، ومن قام بألف آية كُتب من المقنطرين**» [3] .

ومن فوائد عدّ الآيات استنباط بعض الأحكام، حيث استنبط بعض العلماء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: سورة من القرآن ثلاثون آية تشفع لصاحبها، حتى غُفر له: ﴿تَبَٰرَكَ

(١) رواه البخاري كتاب المغازي (ص ٦٧٧ - رقم ٤٠٠٨)، ومسلم كتاب صلاة المسافرين باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة (ص٣٢٦ - رقم ١٨٨٠).

(٢) رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين باب فضل سورة الكهف (ص٣٢٦ - رقم ١٨٨٣).

(٣) رواه أبو داود كتاب تفريع أبواب رمضان باب تحزيب القرآن (ص ٢٠٩- رقم ١٣٩٨).

﴿ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١][1]. حيث استنبط بعض العلماء من هذا الحديث أن البسملة ليست آية من كل سورة.

ومعرفة عدد آي القرآن من أسباب موافقة السُّنَّة كمقدار ما يقوم به المصلي في صلاته، كما ذكر الصحابة أن النبي ﷺ كان يقوم في صلاة الفجر من الستين إلى المائة، وفي صلاة الظهر بمقدار ثلاثين، وفي العصر على النصف من ذلك، وهكذا...

ومن فوائد معرفة عدد آي القرآن استشعار الفضل في مقدار التلاوة، فإذا عرف العبد عدد الآيات التي قرأها أو يريد أن يقرأ بها وعرف أن كل حرف بعشر حسنات، عرف مجموع الحسنات في المقدار الذي يريد أن يقرأ به، فيكون هذا من أسباب تنشيطه على الطاعة.

ومن فوائد معرفة عدد آي القرآن توقيت السنن بذلك حيث ورد، فإنه قد ذكر الصحابة أن مقدار ما بين سحور النبي ﷺ وإقامة صلاة الفجر مقدار قراءة خمسين آية[2].

هذا ما حضرني الآن في فوائد عدّ آي القرآن، وإلا فبعض العلماء لا يرى في ذلك فائدة تذكر، قال أبو الحسن السخاوي رحمه

---

(١) رواه أبو داود كتاب تفريع أبواب رمضان باب في عدد الآي (ص٢٠٩ – رقم ١٤٠٠)، ورواه الترمذي كتاب فضائل القرآن باب ما جاء في فضل سورة الملك (ص٦٥٠ – رقم ٢٨٩١.

(٢) رواه مسلم كتاب الصيام باب فضل السحور (ص ٤٤٧ – رقم ٢٥٥٢).

الله[1] : «وما أعلم لذلك من فائدة، ولأن ذلك إن أفاد، فإنما يفيد في كتاب تمكن الزيادة والنقصان منه، والقرآن لا يمكن ذلك فيه».

وقد دوّن بعض العلماء عدد الحروف في بعض السور، نذكره ليعرف الإنسان مقدار الفضل في قراءة السور، قال بدر الدين العيني رحمه الله (ت: ٨٥٥هـ)[2] : «إن الأعراف أطول السور بعد البقرة، لأن البقرة مائتان وثمانون وست آيات، وهي ستة آلاف ومائة وإحدى وعشرون كلمة، وخمسة وعشرون ألف حرف، وخمسمائة حرف، وسورة آل عمران مائتا آية، وثلاثة آلاف وأربعمائة وإحدى وثمانون كلمة، وأربعة عشر ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرون حرفاً، وسورة النساء مائة وخمس وسبعون آية، وثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسة وأربعون كلمة، وستة عشر ألفاً وثلاثون حرفاً، وسورة المائدة مائة واثنان وعشرون آية، وألف وثمانمائة كلمة وأربع كلمات، وأحد عشر ألفاً وسبعمائة وثلاثة وثلاثون حرفاً».

وهذا ما ذكره العيني رحمه الله في عدّ حروف وكلمات بعض السور، أما بالنسبة لعدد مجموع حروف وكلمات القرآن، فقد قال أبو الحسن السخاوي رحمه الله[3] : «وحسبنا حروف القرآن، فكان: ثلاثمائة ألف حرف وواحداً وعشرين ألف حرف، وعددنا الكلمات فكانت اثنتين وسبعين ألف كلمة».

---

(١) جمال القراء (١/ ٢٣١).

(٢) شرح سنن أبي داود (٣/٤٧٧).

(٣) جمال القراء (١/ ٢٣١).

تحزيب القرآن

الحزب هو ما يجعله المسلم على نفسه من قراءة[1] ، وقد ورد عن النبي ﷺ تسمية ذلك، والتزامه، فلقد روى أوس بن حذيفة أن النبي ﷺ أبطأ يوماً عن أصحابه، فقال الصحابة رضوان الله عليهم له: لقد أبطأت عنا الليلة، فقال: إنه طرأ عليَّ جزئي من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أُتمَّه. قال أوس بن حذيفة: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف يُحزِّبون القرآن؟

قالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده[2] .

قال بدر الدين العيني رحمه الله (ت: ٨٥٥هـ)[3] : «قوله: «طرأ عليَّ جزئي» مهموز، يريد أنه كان قد أغفله عن وقته، ثم ذكره، فقرأه».

قال أبو الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله (ت:٦٤٣هـ)[4] : «أجزاء القرآن والأحزاب والأوراد بمعنى واحد،

---

(١) شرح سنن أبي داود للعيني (٥/٢٩٦).

(٢) رواه أبو داود كتاب تفريع أبواب شهر رمضان باب تحزيب القرآن (ص ٢٠٨ - رقم ١٣٩٣)، وابن ماجة كتاب إقامة الصلاة باب في كم يستحب ختم القرآن (ص١٩٠ - رقم ١٣٤٥).

(٣) شرح سنن أبي داود (٥/٢٩٩).

(٤) جمال القراء (١/١٢٤).

وأظن (الأحزاب) مأخوذ من قولهم: حزب فلان أي جماعته، لأن الحزب طائفة من القرآن، والورد أظنه من الوِرْد الذي هو ضد الصَّدَر، لأن القرآن يروي ظمأ القلوب».

وأما ما ذكره ابن الهاد قال: سألني نافع بن جبير بن مطعم، فقال لي: في كم تقرأ القرآن؟ فقلت: ما أَحْزِبُهُ، فقال لي نافع: لا تقل: ما أَحزِبُهُ، فإن رسول الله ﷺ قال: قرأت جزءاً من القرآن[1] .

قال بدر الدين العيني رحمه الله (ت: ٨٥٥هـ)[2]: «قوله: «لا تقل ما أحزبه»، ظاهر كلامه أن لا يقال: أحزب القرآن، ولا حزبته، ونحو ذلك، ولكن قوله عليه الصلاة والسلام قرأت جزءًا من القرآن لا يدل على نفي القول بالتحزيب».

قال أبو الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله (ت:٦٤٣هـ)[3] : «وقد قُسّم القرآن العزيز على ثلاثمائة وستين جزءاً لمن يريد حفظ القرآن، فإذا حفظ كل يوم جزءًا حفظ القرآن في سنة، وهذه الأجزاء أسداس الأحزاب، يعني أحزاب ستين».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[4] : «فالصحابة إنما كانوا يحزبون سوراً تامة، لا يحزبون السورة الواحدة، كما روى أوس بن حذيفة».

---

(١) رواه أبو داود كتاب تفريع أبواب شهر رمضان باب تحزيب القرآن (ص٢٠٨ - رقم ١٣٩٢).

(٢) شرح سنن أبي داود (٥/٢٩٦).

(٣) جمال القراء (٢/١٦٢).

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/٤٠٨).

وقال أيضاً معلقاً على حديث أوس بن حذيفة[1] : «وهذا الحديث يوافق معنى حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، في أن المسنون كان عندهم قراءته في سبع؛ ولهذا جعلوه سبعة أحزاب، ولم يجعلوه ثلاثة ولا خمسة. وفيه أنهم حزبوه بالسور، وهذا معلوم بالتواتر؛ فإنه قد عُلم أن أول ما جزئ القرآن بالحروف تجزئة ثمانية وعشرين، وثلاثين، وستين. هذه التي تكون رؤوس الأجزاء والأحزاب في أثناء السورة، وأثناء القصة ونحو ذلك، كان في زمن الحجاج وما بعده، وروي أن الحجاج أمر بذلك، ومن العراق فشا ذلك ولم يكن أهل المدينة يعرفون ذلك.

وإذا كانت التجزئة بالحروف محدثة من عهد الحجاج بالعراق، فمعلوم أن الصحابة قبل ذلك على عهد النبي ﷺ وبعده كان لهم تحزيب آخر؛ فإنهم كانوا يقدرون تارة بالآيات فيقولون: خمسون آية، ستون آية، وتارة بالسور لكن تسبيعه بالآيات لم يروه أحد ولا ذكره أحد، فتعين التحزيب بالسور».

ثم قال[2] : «لا ريب أن قراءة سورة بعد سورة لا بد أن يكون مرتباً، أكثر ما في الباب أن الترتيب يكون أنواعاً، كما أُنزل القرآن على أحرف، وعلى هذا فهذا التحزيب يكون تابعاً لهذا الترتيب،

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤٠٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤١٠ - ٤١١).

ويجوز أن يكون هذا التحزيب مع كل ترتيب، فإنه ليس في الحديث تعيين السور.

وهذا الذي كان عليه الصحابة هو الأحسن؛ لوجوه:

«**أحدها**»: أن هذه التحزيبات المحدثة تتضمن دائماً الوقوف على بعض الكلام المتصل بما بعده، حتى يتضمن الوقف على المعطوف دون المعطوف عليه، فيحصل القارئ في اليوم الثاني مبتدئاً بمعطوف، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، وقوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٣١]، وأمثال ذلك. ويتضمن الوقف على بعض القصة دون بعض حتى كلام المتخاطبين حتى يحصل الابتداء في اليوم الثاني المجيب، كقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢]».

وقال مبيناً مخالفة التحزيب المبتدع للسنة[1] : «**الثاني**: أن النبي ﷺ كانت عادته الغالبة وعادة أصحابه أن يقرأ في الصلاة بسورة كـ (قٓ) ونحوها، وكما كان عمر رضي الله عنه يقرأ بـ «يونس»، و«يوسف» و«النحل».

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٤١٢).

التحزيب المقترح لحفظ القرآن خلال سنة

القرآن ثلاثون جزءاً، والجزء حزبان، فالقرآن ستون حزباً، فإذا حفظ الراغب في الخير كل يوم سُدس من كل حزب، فإنه يُتم حفظ القرآن في سنة.

والحفظ بهذه الطريقة عون على رسوخه في الذهن، فإن من يحفظ القرآن بسرعة فإن ثبوته ورسوخه في ذهن صاحبه لا يكون قوياً إلا ما شاء الله(١).

وطالب العلم لا ينبغي له أن يستفزه من يزعم أنهم يحفظون القرآن في شهر أو أقل، فإن من رام الحفظ جملة ذهب عنه جملة. وقد سألت عن حقيقة حفظ هؤلاء في هذه المدة القصيرة فوجدت أنه لا يخلو من مجازفة، فقد سمعت أن أحدهم كان يحفظ في الأصل أكثر من نصف القرآن قبل أن يعتكف لحفظه في شهر أو شهرين.

---

(١) جمال القراء (١ / ١٦٣).

خيار الصحابة ما كانوا يحفظون في مثل هذه المدة الوجيزة، وهذا واضح من نزول القرآن في ثلاث وعشرين سنة، نعم من أنس من نفسه قوة حفظ فإنه يحفظ أكثر من غيره، لكن لا يسابق إلى مثل هذه المبالغات.

فتحزيب القرآن إلى ستين حزباً، وحفظه في سنة تحزيب مبارك، وهو مجرب في الواقع، ومن أسباب بقاء المحفوظ، والله الموفق.

قال أبو عبدالرحمن السلمي رحمه الله: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً.

وقال الزهري ليونس بن يزيد: يا يونس! لا تكابد العلم، فإن العلم أودية، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة، فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الليالي والأيام[١].

* * *

---

[١] الإلماع للقاضي عياض (٢٢٠).

الخلط بين القراءات

خلط القراءات غير مشروع في القراءة في الصلاة، وفي قراءة التعبد، أما ذكر أنواع القراءات في الآية في مجالس تعليم القراءات، فهذا من أسباب حفظ العلم.

قال أبو الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله: (ت:٦٤٣هـ)[١] : «وخلط بعض القراءات ببعض عندنا خطأ».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٢] : «وأما جمعها في الصلاة أو في التلاوة فهو بدعة مكروهة، وأما جمعها لأجل الحفظ والدرس فهو من الاجتهاد الذي فعله طوائف في القراءة».

وقال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ) في حكم الجمع بين القراءات[٣] : «لا يستحب ذلك للقارئ في الصلاة ولا خارجها إذا قرأ قراءة عبادة وتدبُّر، وإنما يفعل ذلك القرَّاءُ أحياناً؛ ليمتحن بذلك حفظ القارئ لأنواع القراءات، وإحاطته بها، واستحضاره

---

(١) جمال القراء وكمال القراء (٢/٥٢٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٤٠٤).

(٣) جلاء الأفهام ص ٤٥٥.

إياها، والتمكن من استحضارها عند طلبها، فذلك تمرين وتدريب لا تعبد يُستحب لكلِّ تالٍ وقارئ».

وقال الحافظ النووي رحمه الله[1]: «إذا ابتدأ بقراءة أحد القراء، فينبغي أن لا يزال على القراءة بها ما دام الكلام مرتبطاً، فإذا انقضى ارتباطه فله أن يقرأ بقراءة آخر من السبعة، والأولى دوامه على الأولى في هذا المجلس».

* * *

(١) التبيان في آداب حملة القرآن ص ٩٢.

قراءة القرآن في أقل من ثلاث

جمع عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما القرآن وصار يقوم به في كل ليلة، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال له: «اقرأ به في سبع»[١].

ومع هذا النهي الصريح من النبي ﷺ من قراءة القرآن في أقل من أسبوع فالمنقول عن خيار السلف وصالحيهم من طبقة الصحابة ومن بعدهم قراءته في أقل من ذلك، فهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وبالأنعام إلى هود، ويوسف إلى مريم، وبطه إلى طسم فرعون، وبالعنكبوت إلى ص، وتنزيل إلى الرحمن، ثم يختم[٢].

وكان عثمان رضي الله عنه يوتر بالقرآن كاملاً في ركعة[٣]، وسعيد بن جبير كان يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء كل ليلة في رمضان[٤]، ودخل مرة الكعبة فقرأ القرآن في ركعة[٥]،

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (٢/١٢٤٩ - رقم ٨٠١٠)، وابن ماجة، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجة ١٣٤٦).

(٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد (١/٦٣٤).

(٣) طبقات ابن سعد (٣/٧٥).

(٤) تهذيب الكمال (١٠/٣٦٣).

(٥) تهذيب الكمال (١٠/٣٦٣).

وأبو عبدالله محمد بن خفيف كان يقرأ القرآن كله في ركعة[1]، وأبو حنيفة الإمام قرأ القرآن في ركعة[2]، وأبو بكر ابن عياش مكث نحواً من أربعين سنة يختم القرآن في كل يوم وليلة مرة[3]، وعروة بن الزبير كان يقرأ ربع القرآن كل يوم في المصحف نظراً ويقوم به في الليل[4]، وثابت البناني كان يقرأ القرآن في كل يوم وليلة[5]، ومجاهد كان يختم القرآن فيما بين المغرب والعشاء[6].

والإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كان يقرأ القرآن في كل أسبوع ختمتين، إحداهما بالليل، والأخرى بالنهار[7].

وكان للإمام الشافعي رحمه الله في رمضان ستون ختمة يقرؤها في غير الصلاة[8].

وكان الأسود يقرأ القرآن في كل ليلتين في رمضان[9].

وتميم الداري رضي الله عنه كان يحيي الليل بالقرآن كله في ركعة[10].

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٦/٣٤٦).

(٢) سير أعلام النبلاء (٦/٤٠١).

(٣) سير أعلام النبلاء (٨/٥٠٣).

(٤) تاريخ ابن أبي خيثمة (٢/١٦٢).

(٥) سير أعلام النبلاء (٥/٢٢٤).

(٦) فضائل القرآن لابن كثير ص ٢٥٩.

(٧) طبقات الحنابلة (١/٩).

(٨) لطائف المعارف ص ٣٣٠، ط - بيت الأفكار.

(٩) لطائف المعارف ص ٣٣٠، ط - بيت الأفكار.

(١٠) نخب الأفكار (٥/٤٥٧)، وقال العيني: رجاله ثقات.

وسليم التجيبي رحمه الله كان يقرأ القرآن في ليلة ثلاث مرات، ويجامع ثلاث مرات، فلما مات قالت امرأته: رحمك الله، إن كنت لتُرضي ربك وترضي أهلك[1] .

وذكر أبو عثمان المغربي أن ابن الكاتب كان يختم بالنهار أربع ختمات، وبالليل أربع ختمات[2] .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[3] : «وهذا نادر جداً».

وقد اختلفت عبارات العلماء في توجيه هذه الأحوال، فقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله[4] : «وإنما ورد النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث على المداومة على ذلك، فأما في الأوقات المفضلة، كشهر رمضان، خصوصاً الليالي التي يطلب فيها ليلة القدر، أو في الأماكن المفضلة كمكة شرفها الله، لمن دخلها من غير أهلها، فيستحب الإكثار فيها من تلاوة القرآن، اغتناماً للزمان والمكان، وهذا قول أحمد وإسحاق وغيرهما من الأئمة».

وهذا قد يصلح جواباً لبعض من نقلنا أحوالهم من السلف، لكنه لا يرفع الإشكال عن آخرين الذين داوموا على ختم القرآن يومياً كأبي بكر ابن عياش رحمه الله.

---

(١) فضائل القرآن لابن كثير ص ٢٥٩.

(٢) فضائل القرآن لابن كثير ص ٢٦٠.

(٣) فضائل القرآن لابن كثير ص ٢٦٠.

(٤) لطائف المعارف ص ٣٣١.

وأمثل من هذا الجواب هو أن نذكر مناط الحكم في الزجر عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث، حيث قال النبي ﷺ[1] : «لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث».

فأولئك السلف حفظوا القرآن حفظاً راسخاً، وداوموا على فقهه ومدارسته، فبعد أن رسخ حفظهم وفقههم له اختاروا أن يعمروا أوقاتهم بأفضل الطاعات كتاب الله، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[2] : «فهذا وأمثاله من الصحيح عن السلف محمول إما على أنه ما بلغهم في ذلك حديث مما تقدم، أو أنهم كانوا يفهمون ويتفكرون فيما يقرءونه مع هذه السرعة».

* * *

---

(١) رواه النسائي في الكبرى (٢/ ١٢٥٠ - رقم ٨٠١٣)، وابن ماجة وصححه الألباني (صحيح ابن ماجة ١٣٤٧).

(٢) فضائل القرآن ص ٢٦٠.

المواضع التي يكره فيها قراءة القرآن

قال الشعبي رحمه الله[1] : «تكره قراءة القرآن في ثلاثة مواضع: في الحمَّام، وفي الحشوش، وفي بيت الرحى وهي تدور».

وهنا فرّق الشعبي بين الحمّام والحشوش في الحكم، فالحمَّام في اصطلاحهم موضع الغسل وليس فيه حش، خلافاً لاصطلاحنا هذه الأيام في العرف العام حيث يجعله البعض مرادفاً للحش.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله معلقاً على أثر الشعبي[2] : «وخالفه في القراءة في الحمّام كثير من السلف، أنَّها لا تكره، وهو مذهب مالك والشافعي وإبراهيم النخعي وغيرهم.

وروى ابن أبي داود عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كره ذلك، ونقله ابن المنذر عن أبي وائل شقيق بن سلمة، والشعبي، والحسن البصري، ومكحول، وقبيصة بن ذؤيب، وهو رواية عن إبراهيم النخعي.

ويُحكى عن أبي حنيفة رحمه الله أن القراءة في الحمَّام تُكره، وأما القراءة في الحش فكراهتها ظاهرة، ولو قيل بتحريم ذلك صيانةً

---

(١) فضائل القرآن لابن كثير ص ٢٢٤.

(٢) فضائل القرآن ص ٢٢٤.

لشرف القرآن، لكان مذهباً، وأما القراءة في بيت الرحى وهي تدور؛ فلئلَّا يعلو غير القرآن عليه، والحق يعلو ولا يعلى».

وقال الحافظ النووي رحمه الله (ت: ٦٧٦هـ)[١] : «اعلم أن قراءة القرآن محبوبة على الإطلاق، إلا في أحوال مخصوصة جاء الشرع بالنهي عن القراءة فيها، وأنا أذكر ما حضرني الآن منها مختصرة بحذف الأدلة، فإنها مشهورة، فتُكره القراءة في حال الركوع، والسجود، والتشهد، وغيرها من أحوال الصلاة سوى القيام، وتكره قراءة ما زاد على الفاتحة للمأموم في الصلاة الجهرية إذا سمع قراءة الإمام، وتكره حالة القعود في الخلاء، وفي حالة النعاس، وكذا إذا استعجم عليه القرآن، وكذا حالة الخطبة لمن يسمعها، ولا تُكره لمن لا يسمعها، بل تستحب، هذا هو المختار الصحيح، وجاء عن طاوس كراهتها، وعن إبراهيم عدم الكراهة، فيجوز أن يجمع بين كلاميهما بما قلناه كما ذكره أصحابنا.

ولا تُكره القراءة في الطواف، هذا مذهبنا، وبه قال أكثر العلماء».

* * *

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن ص ١١٣ – ١١٤.

تسمية السور

بعض السور سمّاها النبي ﷺ كسورة الفاتحة والبقرة حيث قال عليه الصلاة والسلام[1] : «فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته».

وقال أيضاً ﷺ في سورة البقرة: **«من قرأ الآيتين من أواخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»**[2] ، وقال عليه الصلاة والسلام: **«اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة»**[3] .

وكذلك سمّى ﷺ سورة الكهف، فقال ﷺ: **«من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال»**[4] .

وبعض السور سمّاها الصحابة رضي الله عنهم مراعاةً لمعناها، قال سعيد بن جبير لابن عباس رضي الله عنهما: سورة التوبة؟ قال:

---

(١) رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين (ص٣٢٥ – رقم ١٨٧٧).

(٢) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب فضل سورة البقرة (ص ٨٩٨ – رقم ٥٠٠٩)، ومسلم كتاب صلاة المسافرين باب فضل الفاتحة وخواتيم البقرة (ص ٣٢٦ - رقم ١٨٧٨).

(٣) رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (ص٣٢٥ – رقم ١٨٧٤).

(٤) رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين باب فضل سورة الكهف (ص٣٢٦ – رقم ١٨٨٣).

التوبة؟ قال: بل هي الفاضحة، ما زالت تنزل: (ومنهم)، (ومنهم)، حتى ظنُّوا أن لا يبقى منهم أحد إلا ذُكر فيها، قال: قلت سورة الأنفال، قال: تلك سورة بدر، قال: قلت: فالحشر؟ قال: نزلت في بني النضير[(١)] .

وعلى هذا جرى العمل في تسمية السورة بما يدل عليها، قال ابن الملقن رحمه الله[(٢)] : «كل سور القرآن في التسمية كالفاتحة ثم التسمية بالبعض قد يكون لعظم لفظه ومعناه، وقد يكون شهرة قصته، وقد يكون لعظم المثوبة، وقد يكون لتفخيم ذكر المنعوت في السورة، وقد يكون لغير ذلك على ما اقتضته التسمية».

والسورة تسمى بوصف أو شيء مميز فيها أو ما يدل عليها، فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «أتى رجلٌ رسول الله، فقال: أقرئني يا رسول الله، فقال: اقرأ ثلاثاً من ذوات «آلر»، فقال: كَبُرت سنِّي، واشتدَّ قلبي، وغلُظ لساني، قال: فاقرأ ثلاثاً من ذوات «حَمَ»، فقال: مثل مقالته، فقال: اقرأ ثلاثاً من المسبحات، فقال مثل مقالته، فقال الرجل: يا رسول الله، أقرئني سورةً جامعة، فأقرأه النبي ﷺ (إذا زلزلت)، حتى فرغ منها، فقال الرجل: والذي

---

(١) رواه مسلم كتاب التفسير باب في سورة براءة والأنفال والحشر (ص ١٣١٠ – رقم ٧٥٥٨).

(٢) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٥٧/٣).

بعثك بالحق، لا أزيد عليها أبداً، ثم أدبر الرجل، فقال النبي ﷺ: «**أفلح الرويجل مرتين**»[1] .

قال بدر الدين العيني رحمه الله (ت: ٨٥٥هـ)[2] : «قوله: «من ذوات حَمٓ» أراد بها من السور التي أولها «حَمٓ»، وهي سبع حواميم.

قوله: «من المسبحات» أراد به من السور التي أولها يسبح لله، أو سبح لله».

ويدل لذلك أيضاً أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال لمروان ابن الحكم: ما لك تقرأ في المغرب بطولى الطُّوليين، قال: قلت: ما طولى الطوليين؟ قال: الأعراف.

قال مروان بن الحكم: وسألت أنا ابن أبي مليكة، فقال لي من قبل نفسه: المائدة والأعراف[3] .

قال العلامة أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي رحمه الله[4] : «والعرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في المسمى من خلق أو صفة تخصه أو تكون فيه أحكم أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام

(١) رواه أبو داود كتاب شهر رمضان باب تحزيب القرآن (ص ٢٠٩ - رقم ١٣٩٩).
(٢) شرح سنن أبي داود (٥/٣٠٥).
(٣) رواه البخاري كتاب الأذان باب القراءة في المغرب (ص ١٢٤ – رقم ٧٦٤).
(٤) ملاك التأويل (١/١٧٤ – ١٧٦).

والقصيدة الطويلة من الشعر بما هو أشهر فيها أو بمطلعها إلى أشباه هذا، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لغريب قصة البقرة المذكورة فيها، وعجيب الحكمة في أمرها، وتسمية سورة الأعراف بالأعراف لما لم يرد ذكر الأعراف في غيرها، وتسمية سورة النساء بهذا الاسم لما تردد فيها وكثر من أحكام النساء، وتسمية سورة الأنعام في غيرها، إلا أن التفصيل الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًاۚ﴾ [الأنعام: ١٤٢]، إلى قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، لم يرد في غير هذه السورة، كما ورد ذكر النساء في سور إلا أن ما تكرر وبسط من أحكامهن لم يرد في غير سورة النساء، وكذا سورة المائدة لم يرد ذكر المائدة في غيرها فسميت بما يخصها.

فإن قلت: قد ورد في سورة هود ذكر نوح وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام، ولم تختص باسم هود وحده عليه السلام، فما وجه تسميتها بسورة هود على ما أصلت، وقصة نوح فيها أطول وأوعب؟ قلت: تكررت هذه القصص في سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشعراء بأوعب مما وردت في غيرها، ولم يتكرر في واحدة من هذه السور الثلاث اسم هود عليه السلام، كتكرره في هذه السورة، فإنه تكرر فيها عند ذكر قصته في أربعة».

وأما ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما من النهي عن تسمية سور القرآن فغير صحيح.

وهو معارض بما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما نفسه من إقراره لتسمية السور، قال سعيد بن جبير رحمه الله لابن عباس رضي الله عنهما: سورة التوبة؟ قال: التوبة؟ قال: بل هي الفاضحة، ما زالت تنزل: (ومنهم)، (ومنهم)، حتى ظنُّوا أن لا يبقى منهم أحد إلا ذُكر فيها، قال: قلت سورة الأنفال، قال: تلك سورة بدر، قال: قلت: فالحشر؟ قال: نزلت في بني النضير[1] .

وابن مسعود رضي الله عنه كان يرمي الجمرة من الوادي، ويقول: هذا مقام الذي أُنزلت عليه سورة البقرة[2] .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[3] : «وكره بعض السلف ذلك، ولم يروا أن يقال إلا السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا، كما جاء وتقدَّم من رواية يزيد الفارسي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن عثمان رضي الله عنه أنه قال: إذا نزل من القرآن شيء؛ يقول رسول الله ﷺ: «**اجعلوا هذا في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا**».

ولا شك أن هذا أحوط وأولى، ولكن قد صحَّت الأحاديث بالرخصة في الآخر، وعليه عمل الناس اليوم في ترجمة السور في مصاحفهم».

---

(١) رواه مسلم كتاب التفسير باب في سورة براءة والأنفال والحشر (ص ١٣١٠ - رقم ٧٥٥٨).

(٢) رواه مسلم كتاب التفسير باب في سورة براءة والأنفال والحشر (ص١٣١٠ - رقم ٧٥٥٨).

(٣) فضائل القرآن ص ٢٣٢.

وقال شيخنا العلامة العثيمين رحمه الله في فوائد حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ سجد بالنجم[1] : «جواز حذف ذكر السورة خلافاً لمن كرهه لأن بعض العلماء كره أن تقول: النجم، أو البقرة، أو آل عمران، بل تقول: سورة البقرة، سورة آل عمران، سورة النجم، وما أشبه ذلك، وهذا لا وجه له، فالصحيح أنه لا بأس بإسقاط لفظ «سورة»، ويشبه هذه الكراهة من بعض الوجوه كراهة بعضهم أن يقول القائل: رمضان دون أن يقرنه بشهر رمضان، واستدلوا بحديث أشبه ما يكون موضوعاً: «لا تقولوا رمضان فإن رمضان من أسماء الله»، فإن هذا لا يصح عن النبي ﷺ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: **«من صام رمضان إيماناً واحتساباً...»**، وقال: **«من قام رمضان إيماناً واحتساباً...»** ».

* * *

(١) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام (٤/ ١٢٠).

ترجمة القرآن

النبي ﷺ بُعث للناس كافة كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ودين الإسلام تعبد الله به الخلق جميعاً، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، والقرآن هو حجة الله على خلقه أجمعين، كما قال سبحانه: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

والمسلمون مأمورون بتبليغ الشرع، ولما كان كثير من الناس لا يحسن اللغة العربية فيجب تقريب معانيه إليهم بالترجمة، لأن ألفاظ القرآن لا يوازيها أي لسان آخر، فترجمته حرفياً كما أنه ممتنع ولن يقدر أحد أن يأتي بمثل ألفاظه بأي لغة أخرى، فإنه كذلك لا يجوز شرعاً، لأننا متعبدون بتلاوة ألفاظه التي نزل بها بلسان عربي مبين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت: ٧٢٨هـ)[١] : «إن تبليغه إلى العجم قد يحتاج إلى ترجمة لهم، فيترجم لهم بحسب الإمكان».

---

(١) مجموع الفتاوى (١١٧/٤).

وقال أيضاً[1] : «ولهذا إذا فسره المفسر، وترجمه المترجم: لم يقل لتفسيره وترجمته: إنه «قرآن»، بل اتفق المسلمون على جواز مس المحدث لكتب التفسير، واتفقوا على أنه لا تجوز الصلاة بتفسيره، وكذلك ترجمته بغير العربية عند عامة أهل العلم».

وقال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله (ت:١٤٢١هـ)[2] «وعلى هذا فالترجمة الحرفية إن أمكنت حسّاً في بعض الكلمات فهي ممنوعة شرعاً، اللهم إلا أن يترجم كلمة خاصة بلغة من يخاطبه ليفهمها، من غير أن يترجم التركيب كله، فلا بأس.

وأما الترجمة المعنوية للقرآن فهي جائزة في الأصل لأنه لا محذور فيها، وقد تجب حين تكون وسيلة إلى إبلاغ القرآن والإسلام لغير الناطقين باللغة العربية؛ لأن إبلاغ ذلك واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

لكن يشترط لجواز ذلك شروط:

الأول: أن لا تجعل بديلاً عن القرآن بحيث يستغنى بها عنه، وعلى هذا فلا بد أن يكتب القرآن باللغة العربية، وإلى جانبه هذه الترجمة؛ لتكون كالتفسير له.

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٤٢).

(٢) أصول في التفسير ص ٣٧، ط. دار ابن الجوزي.

الثاني: أن يكـون المُتَـرْجَمُ عالمـاً بمـدلولات الألفـاظ فـي اللغتـين المترْجَم منها وإليها، وما تقتضيه حسب السياق.

الثالث: أن يكون عالماً بمعاني الألفاظ الشرعية في القرآن، ولا تُقْبَلُ الترجمة للقرآن الكريم إلا مـن مـأمون عليهـا، بحيـث يكـون مسلماً مستقيماً في دينه».

* * *



الباب العاشر:

سجدات القرآن



سجدات القرآن

عامة الفقهاء على القول بعدم وجوب سجود التلاوة، وأبو حنيفة وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله يوجبانه، واستدل من لا يوجبه بعدة أدلة:

(١) حديث زيد بن ثابت رضي الله قال: قرأت على النبي ﷺ (والنجم)، فلم يسجد فيها[١] .

قال البغوي رحمه الله [٢] : «فيه دليل على أن سجود التلاوة غير واجب، إذ لو كان واجباً لم يترك النبي ﷺ زيداً حتى يسجد».

وأجيب عن هذا بأن المستمع تبع للقارئ، فلما لم يسجد زيد لم يسجد النبي ﷺ، وهذا أولى من إيراد الاحتمالات عليه كاحتمال أنه لم يكن على وضوء، فهذا خلاف المعهود من حال النبي ﷺ، وباحتمال أن الوقت كان وقت كراهية.

والحجة قائمة بهذا الحديث على عدم وجوب سجود التلاوة، قال ابن بطال رحمه الله[٣] : «لو كان واجباً كما زعم الكوفيون لم

---

(١) رواه البخاري كتاب سجود القرآن باب من قرأ السجدة ولم يسجد (ص ١٧٣ - رقم ١٠٧٢)، ومسلم كتاب المساجد باب سجود التلاوة (ص ٢٣٤ - رقم ١٢٩٨).

(٢) شرح السنة (٣/ ٣١٠).

(٣) شرح صحيح البخاري (٣/ ٥٨).

يترك زيد السجود فيها، ولا تركه النبي ﷺ، لأنه بُعث معلماً»، وقد أجاب شيخ الإسلام عن هذا الدليل بأنه قضية عين لا تُقدّم على الأوامر الكثيرة الآمرة بسجود التلاوة[1] .

(٢) ما ورد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ (السجدة على المنبر) يوم الجمعة فنزل، فسجد، وسجد الناس معه، ثم قرأها في الجمعة الثانية، فتهيأ الناس للسجود، فقال: إن الله لم يكتبها علينا إلا أن نشاء، فلم يسجد[2] .

ومن هذا الأثر انتزع بعض العلماء إجماع الصحابة على عدم وجوب سجود التلاوة، قال أبو الخطاب الكلوذاني رحمه الله (ت: ٥١٠هـ)[3] : «وهذا قاله بمحضر من الصحابة فلم ينكره أحد، فدلَّ على نفي وجوبها بالإجماع، وهذا يقطع كل عذر».

وهذا يقابله ما هو أرفع منه مما وقع في عهد النبي ﷺ حيث قرأ ﷺ النجم بمكة فسجد فيها وسجد من معه، غير شيخ أخذ كفاً من حصى أو تراب فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا، فقُتل بعد ذلك كافراً[4] .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥٨/٢٣).

(٢) رواه البخاري كتاب سجود القرآن باب من رأى أن الله عز وجل لم يوجب السجود (ص ١٧٤ - رقم ١٠٧٧).

(٣) الانتصار في المسائل الكبار (٣٨٥/٢).

(٤) رواه البخاري كتاب سجود القرآن باب ما جاء في سجود القرآن وسنتها. (ص ١٧٢ - رقم ١٠٦٧).

وقد أجاب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن أثر عمر رضي الله عنه بجواب بالغ جداً، حيث بيَّن معنى كلام عمر رضي الله عنه، وأن معنى قوله: «لم يكتب علينا» يعني في مثل هذه الحال والإمام يخطب الجمعة، وذلك لأن الخطيب يوم الجمعة مقصوده خطابهم وأمرهم ونهيهم، ثم الصلاة عقب ذلك، فلا يجب أن يشتغلوا عن هذا المقصود، مع أن عقبه يحصل السجود، **وهذا يدل على أن سجود التلاوة يسقط لما هو أفضل منه**[1].

(٣) حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر «صٓ»، فلما بلغ السجدة نزل فسجد، وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تشزّن الناس للسجود، فقال: «إنما هي توبة نبي، ولكني رأيتكم تشزّنْتم، فنزل وسجد، وسجدوا»[2].

ووجه الدلالة منه أن النبي ﷺ سجد لأجل تأهبهم لا لوجوبها[3].

وممكن الاعتراض على هذه الدلالة من جهة أن النبي ﷺ ترك خطبة الجمعة وهي واجبة من أجل سجود التلاوة، فلا يكون سجود التلاوة إلا واجباً.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٦٠).

(٢) رواه أبو داود كتاب سجود القرآن باب السجود في (ص) (ص ٢١١ – رقم ١٤٠٩)، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٧/ ٦٢): «إسناده على شرط الصحيح».

(٣) الانتصار في المسائل الكبار (٢/ ٣٨٣).

وطالب العلم إذ يذكر أقوال العلماء في سجود التلاوة فإنه لا ينبغي له التفريط فيه بحال للأمر الأول حيث أُمر إبليس بالسجود فأبى، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله! أُمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأُمرت بالسجود فأبيت، فلي النار**»(١).

وذكر الله صفة الكفار، فقال سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الانشقاق: ٢٠ - ٢١]، فالمباعدة عن أسباب الذم ومشابهة الكافرين يتأكد جداً.

وفي السجود أيضاً مراغمة الشيطان، وهذا من أجل الطاعات، والصحابة رضي الله عنهم داوموا على فعله، قال أبو رافع صَلَّيْتُ مع أبي هريرة رضي الله عنه العتمة، فقرأ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، فسجد، فقلت: ما هذه؟ قال: سجدت بها خلف النبي ﷺ، فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه(٢) .

وكان الصحابة يبادرون لسجود التلاوة مع ضيق المكان والتزاحم عليه، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يقرأ

---

(١) رواه مسلم كتاب الإيمان باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة (ص ٥١ – رقم ٢٤٤).

(٢) رواه البخاري في سجود القرآن باب من قرأ السجدة في الصلاة فسجد (ص ١٧٤ – رقم ١٠٧٨)، ورواه مسلم كتاب المساجد باب سجود التلاوة (ص ٢٣٤ – رقم ١٣٠٤).

السجدة ونحن عنده، فيسجد ونسجد معه، فنزدحم حتى ما يجد أحدنا لجبهته موضعاً يسجد عليه[1] .

والسجود مع ما فيه من الأجر والثواب فإن عاقبته حميدة، فهو غاية التذلل لله على هذه الصفة، وتأمل خاتمة من لم يسجد مع النبي ﷺ قُتل كافراً، ومن سجد وُفق للتوبة، قال ابن رشيد رحمه الله[2] : «إن الذي ما سجد عوقب بأن قُتل كافراً، فلعل جميع من وُفق للسجود يومئذ خُتم له بالحسنى فأسلم لبركة السجود».

والله عز وجل أخبر أننا لو تخلفنا عن السجود فملائكته لا يفترون عن تسبيحه والسجود له، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت: ٧٢٨هـ)[3] : «**فسجود القرآن هو من شعائر الإسلام الظاهرة**، إذا قرئ القرآن في الجامع سجد الناس كلهم لله رب العالمين، وفي ترك ذلك إخلال بذلك».

---

(١) رواه البخاري في كتاب سجود القرآن باب ازدحام الناس إذا قرأ الإمام السجدة (ص ١٧٣ - رقم ١٠٧٥)، ومسلم كتاب المساجد باب سجود التلاوة (ص ٢٣٣ - رقم ١٢٩٥).

(٢) فتح الباري (٢/٥٥٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٣/١٦١).

وقال أيضاً(1) : «جاء في الحديث الصحيح: «**إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله، أُمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأُمِرت بالسجود فأبيت فلي النار!**». رواه مسلم.

والنبي ﷺ ذكر هذا ترغيباً في هذا السجود، فدل على أن هذا السجود مأمور به، كما كان السجود لآدم؛ لأن كليهما أمر، وقد سن السجود عقبه، فمن سجد كان متشبهاً بالملائكة، ومن أبى تشبه بإبليس، بل هذا سجود لله، فهو أعظم من السجود لآدم.

وهذا الحديث كاف في الدلالة على الوجوب، وكذلك الآيات التي فيها الأمر المقيد، والأمر المطلق أيضاً».

وقال أيضاً: «كما أثنى على من إذا سمعه سجد، فقال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

وهذا وإن قيل: إنه متناول سجود الصلاة، فإنهم إذا سمعوا القرآن ركعوا وسجدوا، فلا ريب أنه متناول سجود القرآن بطريق الأولى؛ لأن هناك السجود بعض الصلاة، وهنا ذكر سجوداً مجرداً

---

(1) مجموع الفتاوى (٢٣/١٥٧ - ١٥٨).

على الأذقان، فما بقي يمكن حمله على الركوع، لأن الركوع لا يكون على الأذقان. وقوله: ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾، أي على الأذقان، كما قال: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، أي: على الجبين، وقوله: ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾، يدل على تمام السجود، وأنهم سجدوا على الأنف مع الجبهة حتى التصقت الأذقان بالأرض، ليسوا كمن سجد على الجبهة فقط، والساجد على الأنف قد لا يلصق الذقن بالأرض، إلا إذا زاد انخفاضه».

ومن الأدلة سوى ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في وجوب سجود التلاوة حديث عقبة بن عامر في سجدتي الحج حيث قال عليه السلام: «فمن لم يسجدهما فلا يقرأها»[1].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[2] : «ظاهره عند بعض أهل العلم أنه يقتضي الوجوب، لأنه نهى عن القراءة لمن لم يسجدهما، والنهي في الأصل للتحريم، وإذا حَرُمت القراءة التي تستلزم ترك السجود فمعناه أن السجود واجب.

وقيل: إن هذا على سبيل الحث والترغيب والمبالغة فيه، وأنه كقوله ﷺ: **«من لم يضح فلا يقربن مصلانا»**، ولكن الصحيح أن هذا الحديث موقوف».

---

(١) رواه أحمد (٤/١٥١)، والترمذي كتاب الجمعة باب ما جاء في السجدة في الحج (ص ١٥١ – رقم ٥٧٨)، وقال الترمذي هذا حديث ليس إسناده بذاك القوي.

(٢) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام (٤/١٢٤).

وذهب أبو مجلز إلى خلاف الجماعة، فإنه كان لا يرى السجود في صلاة الفريضة، وزعم أن ذلك زيادة في الصلاة ما ليس فيها، ورأى أن السجود فيها غير الصلاة[1].

وهذا استنباط باطل، بل فعل النبي ﷺ وسجوده للتلاوة وهو يصلي بيان للواجب فعله حال قراءة آية فيها سجدة تلاوة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «وبهذا فسرها النبي ﷺ، فإنه سجد بها في الصلاة، وفعله إذا خرج امتثالاً لأمر، أو تفسيراً لمجمل كان حكمه حكمه، فدل ذلك على وجوب السجود الذي سجده عند قراءة هذه السورة، لاسيما وهو في الصلاة، والصلاة مفروضة، وإتمامها مفروض، فلا تقطع إلا بعمل هو أفضل من إتمامها، فعُلم أن سجود التلاوة فيها أفضل من إتمامها بلا سجود، ولو زاد في الصلاة فعلاً من جنسها عمداً بطلت صلاته، وهنا سجود مشروع فيها».

* * *

(١) شرح صحيح البخاري (٣/٦٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٣/١٥٤ – ١٥٥).

عدد سجدات القرآن

اختلف العلماء في عدد سجدات القرآن، قال سعيد بن جبير سمعت ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما يعدان كم في القرآن من سجدة؟ قالا: الأعراف، والرعد، والنحل، وبني إسرائيل، ومريم، والحج أولها، والفرقان، وطَسٓ، وألم تنزيل، وصٓ، وحَمٓ السجدة، إحدى عشرة[1] .

قال أبو بكر ابن المنذر رحمه الله (ت: ٣١٨هـ)[2] : «وقالت طائفة: سجود القرآن أربع عشر سجدة في الحج منها سجدتان، وفي المفصل ثلاثة، وليس في (صٓ) منها شيء هكذا قال الشافعي، وقال أبو ثور كقول الشافعي في العدد، غير أنه أثبت السجود في (صٓ)، وأسقط السجود من سورة النجم، خالف الشافعي في هاتين السجدتين.

وقال إسحاق: في سجود القرآن خمس عشرة: الأعراف، والرعد، والنحل، وبني إسرائيل، ومريم، وفي الحج سجدتان مباركتان، وفي الفرقان، والنمل، وآلم تنزيل السجدة، وفي صٓ، وفي حَمٓ السجدة،

---

(١) الأوسط (٢٦٧/٥).

(٢) الأوسط (٢٦٨/٥).

وفي النجم، وفي إذا السماء انشقت، واقرأ باسم ربك الذي خلق، وقال أصحاب الرأي كما قال إسحاق إلا في السجود في سورة الحج، فإنهم قالوا: فيها سجدة واحدة، وقولهم كقوله في سائر سجود القرآن».

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ أقرأه خمسة عشر سجدة في القرآن، منها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان[1].

قال أبو عبدالله الحاكم رحمه الله[2]: «ليس في عدد سجود القرآن أتم منه».

وإنما نقص عدد سجدات التلاوة عن الخمس عشرة سجدة لعدم عدّ الآية الثانية من الحج وسجدات المفصل وسجدة (صَ) من سجدات التلاوة، فمن العلماء من أثبت كل ذلك إلا سجدة (صَ) فاعتبروها سجدة شكر لا تلاوة، وهذا مذهب الشافعي، ومالك رحمه الله أسقط مع صَ سجدات المفصل الثلاث، فصار مجموع السجدات عنده إحدى عشر. وأبو حنيفة كالشافعي في عدد السجدات لكنه أثبت سجدة صَ وأسقط السجدة الثانية من الحج.

---

(١) رواه أبو داود كتاب سجود القرآن باب تفريع أبواب السجود، وكم سجدةً في القرآن (ص ٢١٠ – رقم ١٤٠١)، ورواه ابن ماجة كتاب إقامة الصلاة باب عدد سجود القرآن (ص ١٤٨ – رقم ١٠٥٧)، وحسنه الدميري في النجم الوهاج (٢/ ٢٧٠)، وقال العلامة صديق حسن خان: إسناد حسن.

(٢) مستدرك الحاكم (١/ ٢٢٣).

وأسعد الأئمة بإثبات تمام السجدات كما في حديث عمرو ابن العاص رضي الله عنه الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق، وابن وهب، وابن حبيب من المالكية، وابن المنذر، وابن سريج من الشافعية[1] .

هذه هي الأقوال المشهورة في سجدات القرآن، وإلا فقد قيل: يشرع السجود عند كل لفظ وقع فيه الأمر بالسجود، أو الحث عليه، أو الثناء على فاعله، أو سيق مساق المدح، وهذا يبلغ عدداً كثيراً، وقد أشار إليه أبو محمد ابن الخشاب في قصيدته الإلغازية[2] .

وقول أبي محمد ابن الخشاب ضعيف، فإنه لو كان الأمر كما قال لوجبت الصلاة عند قراءة الآية التي فيها الأمر بالصلاة[3] .

قال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله[4]: «فإن قال قائل: في القرآن آيات فيها سجود، ولم تكن آيات سجود مثل قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٨ - ٩٩]، قال: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ وليس فيها سجدة؟

قلنا: لأن هذا أُمر به النبي ﷺ في حال معينة: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ

---

(١) شرح صحيح مسلم (٥/٧٧)، نيل الأوطار (٣/٣٤٥).

(٢) فتح الباري (٢/٥٥١)، عون الباري (٣/٣٦٣).

(٣) بداية المجتهد ص ١٨٦.

(٤) الشرح الممتع (٤/١٤٠ - ١٤١).

﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٨]، وذلك إذا ضاق صدره وآذاه المشركون، وهذا لا يقتضي السجود على الإطلاق، ولكن قد ينقض هذا التعليل بسجدة اقرأ: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق: ١٧ - ١٩]، وهذا أمر بالسجود في حال معينة، وهو إذا قام ذلك الرجل يتكلم على الرسول ﷺ وينهاه عن الصلاة، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق: ٩ - ١٩]، ومع هذا فالسجود فيها مشروع، وحينئذ يكون المرجع هو التوقيف، فنقول: وردت السنة بالسجود في آيات السجود، فنتوقف على ما وردت به السنة».

وأول السجدات: آخر الأعراف، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الأعراف:٢٠٦].

ثم في الرعد عند قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩﴾ [الرعد: ١٥].

وفي النحل عند: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ [النحل: ٤٩ - ٥٠].

وفي الإسراء عند: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

وفي مريم بعد ذكر النبيين إبراهيم وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس ويعقوب عند: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨].

وفي الحج الأولى عند: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩﴾ [الحج: ١٨].

والثانية عند: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ [الحج: ٧٧].

وفي الفرقان عند: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩﴾ [الفرقان: ٦٠].

وفي النمل عند: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴾ [النمل: ٢٥ - ٢٦].

وفي السجدة عند: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴾ [السجدة: ١٥].

وفي فصلت عند: ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴾ [فصلت: ٣٨].

وفي النجم عند: ﴿ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ۩ ﴾ [النجم: ٦٢].

وفي الانشقاق عند: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [الانشقاق: ٢١][١].

* * *

(١) الكافي لابن قدامة (١/٣٦٢ - ٣٦٣).

سورة الحج فيها سجدتان

اختلف العلماء في السجدة الثانية في سورة الحج، قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله (ت: ٤٦٣هـ) [١] : «السجدة الثانية من الحج اختلف فيها الخلف والسلف، وأجمعوا على أن الأولى من الحج يسجد فيها، وأما اختلافهم في السجدة الآخرة من الحج فقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما: ليس في الحج سجدة إلا واحدة وهي الأولى، وقال الشافعي وأصحابه، وأحمد، وإسحاق، وأبو ثور، وداود، والطبري: في الحج سجدتان».

والذي يدل لثبوت السجدتين في سورة الحج السنة، وعمل الصحابة والتابعين، فعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان» [٢] .

وفي حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت لرسول الله ﷺ: أفي سورة الحج سجدتان؟ قال: نعم، ومن لم يسجدهما فلا يقرأهما [٣] .

---

(١) الاستذكار (٨/١٠٢ – ١٠٣)، باختصار.

(٢) رواه أبو داود (رقم ١٤٠١)، وابن ماجة (١٠٥٧).

(٣) رواه أبو داود (رقم ١٤٠٢)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله.

وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة الحج وسجد فيها سجدتين، ثم قال: إن هذه السورة فُضِّلت بسجدتين[1] .

قال أبو إسحاق السبيعي رحمه الله[2] : «أدركت الناس منذ سبعين سنة يسجدون في الحج سجدتين».

وقال الأثرم: سمعت أحمد بن حنبل يسأل: كم في الحج من سجدة؟ فقال: سجدتان، قيل له: حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: في الحج سجدتان»؟ قال: نعم»[3] .

وابن عباس رضي الله عنهما ورد عنه أنه قال: في سورة الحج الأولى عزيمة، والأخرى تعليم، وكان لا يسجد فيها[4] .

وورد عنه ما يوافق قول جماعة الصحابة، حيث قال: فُضلت سورة الحج بسجدتين[5].

وقال نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما: لو سجدت فيها واحدة كانت السجدة في الآخرة أحب إليَّ[6] .

---

(١) رواه مالك في الموطأ كتاب القرآن باب ما جاء في سجود القرآن (١/٢٠٥ - رقم ١٣)، والشافعي في الأم (١/١٣٧).

(٢) الاستذكار (٨/١٠٣).

(٣) الاستذكار (٨/١٠٣).

(٤) الأوسط لابن المنذر (٥/٢٦٦).

(٥) الأوسط لابن المنذر (٥/٢٦٩).

(٦) الأوسط لابن المنذر (٥/٢٦٦).

وهذا القول هو الأرجح، فالسجدة الأولى فيها خبر، والثانية خبر وأمر.

وقد سجد أبو عبدالرحمن المهري مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في «سورة الحج» سجدتين[1].

وساق البيهقي رحمه الله مرسل خالد بن معدان أن رسول الله ﷺ قال: «فُضلت سورة الحج على القرآن بسجدتين»، ثم أتبعه بمسند ابن لهيعة عن مِشْرَح عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضلت سورة الحج بسجدتين، فمن لم يسجد فيهما فلا يقرأهما»، ثم قال البيهقي رحمه الله: «وهذا المرسل إذا انضم إلى رواية ابن لهيعة صار قوياً»[2].

وقال جبير بن نفير: رأيت أبا الدرداء رضي الله عنه يسجد في الحج سجدتين[3].

* * *

---

(١) رواه البيهقي في معرفة السنن والآثار (٢/١٥٢ – رقم ١١٠٤)، وقال: «هذا إسناد موصول مصري».

(٢) معرفة السنن والآثار (٢/١٥٣).

(٣) نخب الأفكار (٥/٥٣٣)، قال العيني: إسناد صحيح.

السجدة في سورة صَ

اختلف العلماء في السجود في الآية من سورة «صَ»، فبعض العلماء يراها سجدة شكر لا تلاوة.

واحتج من لا يرى سجود التلاوة في «صَ» بحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ليس صَ من عزائم السجود، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها»[1] .

واعترض بعض العلماء على هذا الاستدلال، وقلبوا الدليل عليهم، قال بدر الدين العيني رحمه الله (ت: ٨٥٥ هـ)[2] : «بل الحديث حجة لنا، لقوله: [وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها]، وفعله عليه السلام أقوى من قول ابن عباس رضي الله عنهما».

ومما يرجح اعتبار الآية من سورة «صَ» من سجدات القرآن حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ سجد في «صَ»، وقال: «سجدها داود عليه السلام توبة، ونسجدها شكراً»[3] .

ولذلك لما سأل مجاهد ابن عباس رضي الله عنهما عن سجدة «صَ»، من أين سجدت؟

---

(١) رواه البخاري كتاب الكسوف أبواب سجود القرآن (ص ١٧٢ – رقم ١٠٦٩).

(٢) شرح سنن أبي داود (٥/٣١٥).

(٣) رواه النسائي في السنن الكبرى (٣/١٨١٦ – رقم ١٣٧٢)، والدارقطني (١/٤٠٧)، قال البيهقي رحمه الله: «هذا مرسل وقد روي موصولاً من أوجه عن عمر بن ذر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وليس بالقوي». معرفة السنن والآثار (٢/١٥٦).

فقال: أوما تقرأ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ [الأنعام: ٨٤]، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فكان داود عليه السلام ممن أُمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله ﷺ [(١)].

قال بدر الدين العيني رحمه الله (ت: ٨٥٥هـ)[(٢)]: «إنا نقول: سجدها داود عليه السلام توبة، ونحن نسجدها شكراً، لما أنعم الله تعالى على داود بالغفران، والوعد بالزلفى، وحسن المآب، ولهذا لا يسجد عندنا عقيب قوله: ﴿وأناب﴾، بل عقب قوله: ﴿مآب)، وهذه نعمة عظيمة في حقنا، وطمعنا في إقالة عثراتنا، وغفران ذنوبنا، وزلاتنا، وسبب وجوب هذه السجدة تلاوة هذه الآية التي فيها الإخبار عن هذه النعم على داود عليه السلام في الجمعة الأولى، وترك الخطبة لأجلها، فدلَّ على أنها سجدة تلاوة».

فإن قلت: كيف نسجد في «صَ» والآية ليس فيها ذكر السجود، وإنما فيها ذكر الركوع كما قال تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ [ص: ٢٤] ؟ فالجواب كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت:٧٢٨هـ)[(٣)]: «المراد هنا السجود بالسنة واتفاق العلماء، فالمراد خَرَّ ساجداً، وسمَّاه ركوعاً لأن كل ساجد راكع لاسيما إذا كان قائماً، وسجود التلاوة من قيام أفضل، ولعل داود سجد من قيام، وقيل: خرَّ راكعاً ليبين أن سجوده كان من قيام، وهو أكمل.

---

(١) رواه البخاري كتاب التفسير سورة صَ (ص ٨٤٦ – رقم ٤٨٠٧).

(٢) شرح سنن أبي داود (٥/٣١٦).

(٣) جامع الرسائل (١/٣٦)، تحقيق محمد رشاد سالم.

ولفظ «خرَّ» يدل على أنه وصل إلى الأرض فجمع له معنى السجود والركوع، والسجود عبادة تُفعل مجردة عن الصلاة كسجود الشجرة، وسجود داود، وسجود التلاوة، والشكر، وسجود الآيات، وغير ذلك».

وهذا أولى من توجيه من قال: إن داود عليه السلام خرَّ ساجداً بعد أن كان راكعاً، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «وذُكر أن الحسين بن الفضل قال لأبي عبدالله بن طاهر عن قوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ [ص: ٢٤]، هل يقال: للراكع: خرَّ؟ قال: لا، ومعناه: فخرّ بعد ما كان راكعاً، أي سجد.

وهذا قول ضعيف، والقرآن إنما فيه: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ لم يقل: خرّ بعد ما كان راكعاً، ولا كان داود عليه السلام حين تحاكموا إليه راكعاً، بل كان قاعداً معتدلاً أو قائماً فخرَّ ساجداً، وسؤال ابن طاهر إنما يتوجه إذا أُريد بالركوع انحناء القائم، كركوع الصلاة، وهذا لا يقال فيه خرَّ».

وقال أيضاً[2] : «فكل ساجد راكع، وليس كل راكع ساجداً، فإنه إذا سجد من قيام انحنى انحناء الراكع، وزاد فإنه يصير ساجداً، ولو صلَّى قاعداً أيضاً انحنى انحناء الركوع وزاد، فإنه يصير ساجداً،

---

(١) جامع الرسائل (١/ ٣٥ - ٣٦)، تحقيق محمد رشاد.

(٢) جامع الرسائل (١/ ٣٤ - ٣٥).

فالساجد راكع وزيادة، فلهذا جاز أن يُسمَّى راكعاً وأن يجعل الركوع نوعين: ركوعاً خفيفاً، أو ركوعاً تاماً، فالقيام هو السجود، بخلاف لفظ السجود فإنه إنما يستعمل في غاية الذل والخضوع، وهذه حال الساجد لا الراكع».

وبهذا يزول الإشكال الذي استشكله الشوكاني رحمه الله حيث قال[1] : «إنما لم تكن السجدة في صَ من العزائم، لأنها وردت بلفظ الركوع، فلولا التوقيف ما ظهر أن فيها سجدة».

وقال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله (ت: ٦٦١هـ) في دفع الإشكال في السجود مع عدم ذكره وذكر الركوع[2] : «﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ساجداً.

وعبَّر عن السجود بالركوع، لما يشتركان فيه من معنى الانحناء والخضوع».

* * *

(١) نيل الأوطار (٣/٣٤٩).

(٢) رموز الكنوز (٦/٤٧٧).

السجدة في المفصل

استدل القائلون بعدم السجود في المفصل بحديث زيد ابن ثابت رضي الله عنه أنه قرأ على النبي ﷺ سورة النجم فلم يسجد فيها.

قال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله (ت: ١٤٢١هـ)[١] : «فحديث زيد بن ثابت رضي الله عنه يستدل به على أنه إذا لم يسجد القارئ لم يسجد المستمع، ولا يصح أن نستدل به على نسخ سجود التلاوة في المفصل كما قال به بعض العلماء، لأنه ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ سجد في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١]، وفي سورة «اقرأ»، وهما من المفصل، ومع ذلك فإن أبا هريرة رضي الله عنه كان متأخر الإسلام لم يسلم إلا في السنة السابعة فأين النسخ؟».

وتكلم الحافظ ابن عبدالبر رحمه الله في حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه في سجود التلاوة في سورة النجم حيث لم يسجد النبي ﷺ، فقال[٢] : «وقد قيل إن معناه أن زيد بن ثابت رضي الله

---

(١) الشرح الممتع (٤/١٣٣ – ١٣٤).

(٢) التمهيد (١٩/١٢١).

عنه كان القارئ، فلما لم يسجد، لم يسجد النبي ﷺ، لأن المستمع تبع للتالي؛ وهذا يدل على صحة قول عمر رضي الله عنه إن الله لم يكتبها علينا، فإنما حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه هذا حجة على من أوجب سجود التلاوة لا غير؛ وقال جماعة من أهل العلم: السجود في المفصل في «والنجم»، و«إذا السماء انشقت»، و«اقرأ باسم ربك»، هذا قول الشافعي والثوري وأبي حنيفة؛ وبه قال أحمد ابن حنبل وإسحاق، وأبو ثور، وروي ذلك عن أبي بكر، وعمر، وعلي، وابن مسعود، وعثمان، وأبي هريرة، وابن عمر رضي الله عنهم، على اختلاف عنه، وعن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله، وجماعة من التابعين؛ وحجة من رأى السجود في المفصل: حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه سجد في: «إذا السماء انشقت»، و«اقرأ باسم ربك».

ثم ساق ابن عبدالبر رحمه الله حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في: «إذا السماء انشقت»، و«اقرأ باسم ربك»، وساق بعده أيضاً أثر أبي رافع قال: صليت مع أبي هريرة رضي الله عنه العتمة فقرأ: «إذا السماء انشقت»، فسجد، قلت: ما هذه السجدة؟ قال: سجدت بها خلف أبي القاسم ﷺ، فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه، وقال[1] : «هذا حديث ثابت صحيح لا

---

(١) التمهيد (١٩/١٢١ - ١٢٢).

يختلف في صحة إسناده وكذلك الذي قبله صحيح أيضاً، وفيه السجود في المفصل، والسجود في: «إذا السماء انشقت»، معينة، والسجود في الفريضة؛ وهذه فصول كلها مختلف فيها، وهذا الحديث حجة لمن قال به، وحجة على من خالف ما فيه».

وأما حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحول إلى المدينة[1] . فهو ضعيف.

قال الحافظ ابن عبدالبر رحمه الله[2] : «هذا عندي حديث منكر، يرده قول أبي هريرة رضي الله عنه: سجدت مع رسول الله ﷺ في: «إذا السماء انشقت»، ولم يصحبه أبو هريرة رضي الله عنه إلا بالمدينة».

وقال عبدالحق الإشبيلي رحمه الله[3] : «إسناده ليس بقوي».

وقال الحافظ النووي رحمه الله[4] : «ضعيف الإسناد لا يصح الاحتجاج به».

وقال بدر الدين العيني رحمه الله[5] : «هو حديث ضعيف».

---

(١) رواه أبو داود كتاب سجود القرآن باب من لم ير السجود في المفصل (ص ٢١٠ - رقم ١٤٠٣).

(٢) التمهيد (١٩/ ١٢٠).

(٣) الأحكام الوسطى (٢/ ٩٢).

(٤) شرح صحيح مسلم (٥/ ٧٧).

(٥) شرح سنن أبي داود (٥/ ٣١٠).

وضعفه ابن الملقن رحمه الله، وقال[1] : «أنى له بالصحة».

وقال ابن القيم رحمه الله[2] : «فهو حديث ضعيف، في إسناده أبو قدامة الحارث بن عبيد، لا يحتج بحديثه، قال الإمام أحمد: أبو قدامة مضطرب الحديث، وقال يحيى بن معين: ضعيف، وقال النسائي: صدوق عنده مناكير، وقال أبو حاتم البستي: كان شيخاً صالحاً ممن كثر وهمه».

ورد ابن القيم رحمه الله على من أورد أن أبا قدامة روى له مسلم، فقال[3] : «ولا عيب على مسلم في إخراج حديثه لأنه ينتقي من أحاديث هذا الضرب ما يعلم أنه حفظه، كما يطرح من أحاديث الثقة ما يعلم أنه غلط فيه».

وقال العلامة محمد بن علي الشوكاني رحمه الله (ت: ١٢٥٠هـ)[4] : «وعلى فرض صلاحيته للاحتجاج، فالأحاديث المتقدمة مثبتة، وهي مقدمة على النفي، ولاسيما مع إجماع العلماء، على أن إسلام أبي هريرة رضي الله عنه كان سنة سبع من الهجرة، وهو يقول في حديثه الآتي: «سجدنا مع رسول الله ﷺ في «إذا السماء انشقت»، و«اقرأ باسم ربك» ».

---

(١) البدر المنير (٤/٢٤٩).

(٢) زاد المعاد (١/٣٦٣).

(٣) زاد المعاد (١/٣٦٤).

(٤) نيل الأوطار (٣/٣٤٦)، ط. مكتبة المعارف.

وأما الاستدلال باستمرار أهل المدينة ومداومتهم على ترك السجود في المفصل، فهذا غير صحيح، قال الحافظ ابن حجر رحمه الله[1] : «وفيه نظر لما رواه الطبري بإسناد صحيح عن عبدالرحمن ابن أبزى عن عمر رضي الله عنه أنه قرأ النجم في الصلاة فسجد فيها، ثم قام فقرأ (إذا زلزلت)، ومن طريق إسحاق بن سويد عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سجد في النجم».

* * *

---

(١) فتح الباري (٢/٥٥٥).

اشتراط الوضوء لسجود التلاوة

اعتبر عامة العلماء لسجود التلاوة من الشروط ما يشترط لصلاة النافلة، قال موفق الدين أبو محمد ابن قدامة المقدسي رحمه الله[1] : «يعتبر للسجود من الشروط ما يشترط لصلاة النافلة؛ من الطهارتين من الحدث والنَّجس، وستر العورة، واستقبال القبلة، والنية، ولا نعلم فيه خلافاً إلا عن عثمان بن عفان رضي الله عنه في الحائض تسمع السجدة، تومئ برأسها، وبه قال سعيد بن المسيَّب، قال، ويقول: اللهُمَّ لكَ سجدت.

وعن الشعبي فيمن سمع السجدة على غير وضوء سجد، حيث كان وجهه، ولنا قول النبي ﷺ: «لا يقبل الله صلاة بغير طَهور»، فيدخل في عمومه السجود، ولأنه صلاة فيُشترط له ذلك، كذات الركوع، ولأنه سجود، فيشترط له ذلك كسجود السهو».

واعترض ابن القيم رحمه الله على تشبيه سجود التلاوة بالصلاة، وذكر أن شبهها بالذكر والدعاء الذي لا يشترط له الوضوء أوفق وأقوم وأصوب، فقال[2] : «السجود هو من جنس ذكر الله،

---

(١) المغني (٢/٣٥٨).

(٢) تهذيب سنن أبي داود (١/٥٤).

وقراءة القرآن، والدعاء، ولهذا شُرع في الصلاة وخارجها، فكما لا يشترط الوضوء لهذه الأمور – وإن كانت من أجزاء الصلاة – فكذا لا يشترط للسجود، وكونه جزءًا من أجزائها لا يوجب أن لا يفعل إلا بوضوء».

واستدل أهل العلم على جواز سجود التلاوة من غير وضوء، بأن النبي ﷺ لما قرأ والنجم فسجد، سجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس[1] .

وهذا لا دليل فيه من هذه الجهة، قال ابن بطال رحمه الله[2] : «لا يستنبط من سجود المشركين جواز السجود على غير وضوء؛ لأن المشرك نجس، لا يصح له وضوء ولا سجود إلا بعد عقد الإسلام».

والصواب أن الاستدلال بالحديث قائم، لكن من جهة فعل المسلمين لا من جهة فعل المشركين، قال ابن القيم رحمه الله[3]: «فالمسلمون الذين سجدوا معه ﷺ لم ينقل أن النبي ﷺ أمرهم بالطهارة، ولا سألهم: هل كنتم متطهرين أم لا؟

ولو كانت الطهارة شرطاً فيه للزم أحد الأمرين: إما أن يتقدم

---

(١) رواه البخاري كتاب الكسوف أبواب سجود القرآن باب سجود المسلمين مع المشركين (ص ١٧٣ – رقم ١٠٧١).

(٢) شرح صحيح البخاري (٥٧/٢).

(٣) تهذيب سنن أبي داود (٥٤/١).

أمره لهم بالطهارة، وإما أن يسألهم بعد السجود، ليبين لهم الاشتراط، ولم ينقل مسلم واحداً منهم».

وهكذا سائر سجوده في المجامع العامة التي يبعد جداً أن يكون المسلمون كلهم إذ ذاك على وضوء!

قال ابن القيم رحمه الله[1] : «ففي الصحيحين عن عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ القرآن، فيقرأ السورة فيها السجدة فيسجد، ونسجد معه، حتى ما يجد بعضنا موضعاً لمكان جبهته، ومعلوم أن مجامع الناس تجمع المتوضئ وغيره».

ومن الأدلة كذلك على عدم اشتراط الوضوء لسجود التلاوة قياس الأولى، فأفضل أجزاء الصلاة وأقوالها هو القراءة، ويفعل بلا وضوء، فالسجود أولى[2] .

ومن الأدلة كذلك ثناء الله على من سجد عند التلاوة بلا فصل مما يدل على عدم اشتراطه، قال ابن القيم رحمه الله: «فالله سبحانه وتعالى أثنى على كل من سجد عند التلاوة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧]، وهذا يدل على أنهم سجدوا عقب تلاوته بلا فصل، سواء كانوا

---

(١) تهذيب سنن أبي داود ١/ ٥٤).

(٢) تهذيب سنن أبي داود ١/ ٥٥).

بوضوء أو بغيره، لأنه أثنى عليهم بمجرد السجود عقب التلاوة، ولم يشترط وضوءًا، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨][1].

وسجود التلاوة المروي فيه عن النبي ﷺ تكبيرة واحدة، فإنه لا ينتقل من عبادة إلى عبادة، فليس كالصلاة فلا يشترط له وضوء[2].

ومن المعلوم أيضاً أن جنس العبادة لا تشترط له الطهارة، بل إنما تشترط للصلاة، فكذلك جنس السجود يشترط لبعضه، وهو السجود الذي لله كسجود الصلاة، وسجدتي السهو، بخلاف سجود التلاوة، وسجود الشكر، وسجود الآيات[3].

وأيضاً ثناء الله على الأنبياء بالسجود المجرد، في مثل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم: ٥٨]، ولم يكونوا مأمورين بالوضوء[4]، فإن الوضوء من خصائص أمة محمد ﷺ، كما جاءت الأحاديث الصحيحة «أنهم يبعثون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء،

(١) تهذيب سنن أبي داود ١/٥٥).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٣/١٦٦).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٣/١٦٦).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٣/١٦٧).

وأن الرسول ﷺ يعرفهم بهذه السيماء»، فدل على أنه لا يشركهم فيها غيرهم. والحديث رواه ابن ماجة وغيره أنه توضأ مرة مرة، ومرتين مرتين، وثلاثاً ثلاثاً، وقال: «هذا وضوئي، ووضوء الأنبياء قبلي»، حديث ضعيف عند أهل العلم بالحديث، لا يجوز الاحتجاج بمثله، وليس عند أهل الكتاب خبر عن أحد من الأنبياء أنه كان يتوضأ وضوء المسلمين، بخلاف الاغتسال من الجنابة، فإنه كان مشروعاً، ولكن لم يكن لهم تيمم إذا عُدموا الماء، وهذه الأمة مما فُضلت به التيمم مع الجنابة، والحدث الأصغر، والوضوء.

والحكم بإيجاب الوضوء لسجود التلاوة على أنها صلاة بعيد، فسجود التلاوة لا يشرع له اصطفاف، ولا سن لها النبي ﷺ، لم يرو ذلك عنه لا بإسناد صحيح، ولا بإسناد ضعيف، بل هو بدعة، ولا جعل لها تكبير افتتاح، وإنما روي عنه أنه كبّر فيها إما للرفع، وإما للخفض، والحديث في السنن[1] .

* * *

(١) مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٧١).

صفة سجود التلاوة

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ علينا القرآن، فإذا مرَّ بالسجدة كبَّر، وسجد، وسجدنا[١] .

قال عبدالرزاق: كان الثوري يُعجبه هذا الحديث، قال أبو داود يُعجبه لأنه كَبَّرَ[٢].

قال الحاكم رحمه الله[٣] : «سجود الصحابة بسجود رسول الله ﷺ خارج الصلاة سُنَّة عزيزة».

وقال بدر الدين العيني رحمه الله (ت: ٨٥٥هـ)[٤] : «يستفاد من الحديث أن سجدة التلاوة لها تكبير بدون رفع اليدين، وكذا ليس لها تشهد، ولا سلام».

---

(١) رواه أبو داود كتاب سجود القرآن باب ما يقول إذا سجد (ص ٢١١ - رقم ١٤١٣)، وفي إسناده عبدالله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم مختلف فيه، قال ابن الملقن: «ولم ينفرد به، بل تابعه عليه أخوه عبيد الله - بالتصغير - الثقة، فرواه الحاكم». البدر المنير (٤/ ٢٦١).

(٢) المغني (٢/ ٣٥٩).

(٣) المستدرك (١/ ٢٢٢).

(٤) شرح سنن أبي داود (٥/ ٣١٨).

وذهب بعض العلماء إلى أن سجود التلاوة له تكبير عند الخفض والرفع وتسليمة عند الانتهاء قياساً على الصلاة، قال ابن قدامة رحمه الله[1] : «لأنه سجود منفرد فشُرع التكبير في ابتدائه، والرفع منه كسجود السهو بعد السلام، وقد ثبت أن النبي ﷺ كبَّر فيه للسجود والرَّفع، ولم يذكر الخرقي التكبير للرفع، وقد ذكره غيره من أصحابنا، وهو القياس، كما ذكرنا، ولا يُشرع في ابتداء السجود أكثر من تكبيرة، وقال الشافعي: إذا سجد خارج الصلاة كبَّر واحدة للافتتاح، وأخرى للسجود، لأنه صلاة، فيُكبِّر للافتتاح غير تكبيرة السجود، كما لو صلى ركعتين، ولنا حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وظاهره أنه كبَّر واحدة، ولأن معرفة ذلك تثبت بالشرع ولم يرد الشرع به، ولأنه سجود مفرد، فلم يشرع في ابتدائه تكبيرتان، كسجود السهود، ولأنه سجود تلاوة، فأشبه ما لو سجده في الصلاة، وقياسهم يبطل بسجود السهو، وقياس هذا على سجود السهو أولى من قياسه على ركعتين، ولأنه أقرب إليه، وأشبه به، ولأن الإحرام بالركعتين يتخلل بينه وبين السجود أفعال كثيرة وأركان، فلم يُكتف بتكبيرة عن تكبيرة السجود، وهٰهنا لا يتخلل بينهما سوى الإسلام، فأجزأه تكبيرة واحدة كالمسبوق إذا كبَّر وسجد، أو ركع».

---

(١) المغني (٢/ ٣٦٠).

وعن عبدالله بن مسلم بن يسار عن أبيه قال: إذا قرأ الرجل السجدة فلا يسجد حتى يأتي على الآية كلها، فإذا أتى عليها رفع يديه وكبّر وسجد، وسمعت محمد بن سيرين يقول مثل هذا[١] .

وقد تكلم العلماء في حكم السجود لتكرار تلاوة آية السجدة، قال العلامة أبو البقاء محمد بن موسى الدَّميري رحمه الله (ت:٨٠٨هـ)[٢] : «ولو كرر آية خارج الصلاة في مجلسين سجد لكل آية كما تتكرر التحية بتكرر دخول المسجد.

وكذا المجلس في الأصح لتجدد السبب.

والثاني: تكفيه الأولى كما لو كررها قبل أن يسجد.

والثالث: إن طال الفصل سجد مرة أخرى، وإلا كفت الأولى».

وقال شيخنا محمد العثيمين رحمه الله (ت: ١٤٢١هـ)[٣] : «إذا كان يتعلم السورة وفيها سجدة فإنه يسجد لأول مرة فقط، ويكفي».

* * *

(١) السنن الكبرى للبيهقي (٢/٣٢٥).

(٢) النجم الوهاج في شرح المنهاج (٢/٢٧٩).

(٣) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام (٤/١٠٨).

ما يقال في سجود القرآن

سجود القرآن كسجود الصلاة في صفة هيئته، وهذا المقام يناسبه التسبيح بإثبات العلو لله تعالى، فهو غاية في التذلل.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في سجوده[١]: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**».

قال موفق الدين أبو محمد المقدسي رحمه الله (ت: ٦٢٠هـ)[٢]: «ويقول فيه ما يقول في سجود الصلاة».

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله (ت:١٤٢١هـ)[٣]: «إن الساجد للتلاوة يقول: «سبحان ربي الأعلى»، لعموم قوله ﷺ: «**اجعلوها في سجودكم**»، فإن سجود التلاوة من السجود، ويقول أيضاً: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»، وهذا يمكن أن نأخذه من عموم حديث عائشة رضي الله عنها أنه كان - عليه الصلاة والسلام - يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»، ويمكن أن نأخذها من قوله

(١) رواه البخاري كتاب الأذان باب التسبيح والدعاء في السجود (ص ١٣٣ - رقم ٨١٧).

(٢) الكافي (١/٣٦١).

(٣) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام (٤/١٣١).

تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ [السجدة: ١٥]؛ لأن هذه الآية في سجود التلاوة وإن كان الاستغفار ليس موجوداً في الآية، لكن قد يكون حديث عائشة عاماً له، ويقول أيضاً: «سبوح قدوس رب الملائكة والروح»، ويقول أيضاً: «اللهم لك سجدت، وبك آمنت، وعليك توكلت، سجد وجهي لله الذي خلقه وصوّره وشق سمعه وبصره، بحوله وقوته، فتبارك الله أحسن الخالقين»، ويقول أيضاً: «اللهم اكتب لي بها أجراً، وضع عني بها وزراً، واجعلها لي عندك ذخراً، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقول في سجود القرآن: سجد وجهي للذي خلقه، وشق سمعه وبصره بحوله وقوته[1] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله!

إني رأيت فيما يرى النائم كأني أصلي خلف شجرة، فرأيتني

---

(١) رواه أبو داود كتاب سجود القرآن باب ما يقول إذا سجد (ص ٢١١ - رقم ١٤١٤)، والترمذي كتاب الصلاة باب ما جاء ما يقول في سجود القرآن (ص ١٥١ - رقم ٥٨٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه ابن خزيمة (١/٢٨٣).
وقال ابن قدامة في الكافي (١/٣٦١): «هذا حديث صحيح».

كـأني قـرأت سـجدة فـسجدت، فكـأني رأيـت الـشجرة تـسجد بسجودي[1] ، فكأني أسمعها وهي ساجدة تقول[2] : اللهم اكتب لـي بهـا عنـدك أجـراً، وضـع عنـي بهـا وزراً، واجعلهـا لـي عنـدك ذخـراً، واقبلها منـي كمـا قبلـت مـن عبـدك داود، قـال ابـن عبـاس رضـي الله عنهما: فقرأ النبي ﷺ السجدة فسمعته وهو سـاجد يقـول مثـل الـذي أخبر الرجل عن كلام السجدة[3] .

قال الروياني رحمـه الله[4] : «يـستحب أن يقـول فـي سـجوده مـا يليـق بالآيـة التـي قـرأ بهـا، فيقـول فـي سـجدة (الفرقـان): سـجدت للرحمن، وآمنت بالرحمن، فاغفر لي يا رحمٰن».

* * *

(١) يـدل لـسجود الـشجر عمومـاً قولـه تعـالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

(٢) أسـمعه الله، وصـدق الله إذ يقـول: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

(٣) رواه الترمذي كتاب الصلاة باب ما جاء ما يقـول فـي سـجود القـرآن (ص ١٥١ – رقـم ٥٧٩)، وقال: حسن غريب.

وصححه ابن خزيمة (١/ ٢٨٢ – رقم ٥٦٢).

وحسنه الدميري في النجم الوهاج (٢/ ٢٧٨).

(٤) النجم الوهاج (٢/ ٢٧٨).

المستمع له حكم الناطق في سجود التلاوة

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول ﷺ يقرأ علينا السورة فيها السجدة، فيسجد ونسجد حتى ما يجد أحدنا موضع جبهته[1] .

قال ابن بطال رحمه الله[2] : «أجمع فقهاء الأمصار أن التالي إذا سجد في تلاوته لزم الجالس إليه المستمع له أن يسجد بسجوده».

فالمستمع تبع للناطق في سجود القرآن، فهو بمنزلة المأموم للإمام، يدل لذلك حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قرأت على رسول الله ﷺ النجم فلم يسجد فيها[3] .

قال أبو عيسى الترمذي رحمه الله[4] : «تأوَّل بعض أهل العلم هذا الحديث فقال: إنما ترك النبي ﷺ السجود لأن زيد بن ثابت رضي الله عنه حين قرأ فلم يسجد لم يسجد النبي ﷺ».

---

(١) رواه البخاري كتاب سجود القرآن باب ازدحام الناس إذا قرأ الإمام السجدة (ص ١٧٣ – رقم ١٠٧٦).

(٢) شرح صحيح البخاري (٣/ ٦٠).

(٣) رواه البخاري كتاب سجود القرآن باب من قرأ السجدة ولم يسجد (ص١٧٣ – رقم ١٠٧٢).

(٤) جامع الترمذي (ص ١٥٠).

وقال تميم بن حذلم: قرأت القرآن على عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وأنا غلام، فمررت بسجدة، فقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه «أنت إمامنا فيها»[1] .

وقال البغوي رحمه الله (ت: ٥١٦هـ)[2] : «السنة للمستمع أن يسجد بسجود التالي، فإن لم يسجد التالي، فلا يتأكد في حقه».

وعن عطاء بن يسار أن رجلاً قرأ عند النبي ﷺ السجدة فسجد، فسجد النبي ﷺ، ثم قرأ آخر عنده السجدة فلم يسجد فلم يسجد النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! قرأ فلان عندك السجدة فسجدت، وقرأت عندك السجدة فلم تسجد، فقال النبي ﷺ: «**كنت إماماً فلو سجدت سجدت معك**»[3] .

---

(١) ذكره البخاري تعليقاً مجزوماً به، باب من سجد لسجود القارئ وهو موصول عند سعيد بن منصور، فتح الباري (٢/٥٥٦).

(٢) شرح السنة (٢/٣١٥).

(٣) رواه أبو داود في مراسيله (رقم ٧٧)، والشافعي في الأم (١/١٣٦)، وقال: «إني لأحسبه زيد بن ثابت رضي الله عنه لأنه يحكى أنه قرأ عند النبي ﷺ النجم فلم يسجد، وإنما روى الحديثين معاً عطاء بن يسار».

وقال البيهقي رحمه الله: «فهذا الذي ذكره الشافعي رحمه الله محتمل، وقد رواه إسحاق ابن عبدالله بن أبي فروة عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه موصولاً، وإسحاق ضعيف، وروى عن الأوزاعي عن قرة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهو أيضاً ضعيف، والمحفوظ من حديث عطاء ابن يسار مرسل، وحديثه عن زيد بن ثابت موصول مختصر».

السنن الكبرى (٢/٣٢٤).

وقال ابن حجر في فتح الباري (٢/٥٥٦): «مرسل».

وقال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله (ت:١٤٢١هـ) مبيناً ومضيفاً أن المستمع له حكم الناطق[١] : «والدليل على أن المستمع له حكم الناطق أن موسى عليه السلام قال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٨ - ٨٩]، لقوله تعالى: ﴿دَّعْوَتُكُمَا﴾، مثنى، والقائل واحد وهو موسى، فمن أين جاءت التثنية؟

قال العلماء: لأن موسى يدعو وهارون يستمع ويؤمن، فجعل الله تعالى للمستمع حكم الناطق القائل».

على كل حال لا يُطلق القول بائتمام المستمع لقارئ سجدة التلاوة من كل وجه، لعدم قيام الدليل الصريح في غير أصل السجدة، قال الحافظ النووي رحمه الله[٢] : «قال العلماء إذا سجد المستمع لقراءة غيره، وهما في غير صلاة لم ترتبط به، بل له أن يرفع قبله، وله أن يطول السجود بعده، وله أن يسجد إن لم يسجد القارئ سواء كان القارئ متطهراً أو محدثاً، أو امرأة أو صبياً، أو غيرهم».

(١) الشرح الممتع (٤/١٣٢).

(٢) شرح صحيح مسلم (٥/٧٤).

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[1]: «المشهور من المذهب أنه إذا سجد القارئ وسجد المستمع فإنه يكون كالمأموم مع الإمام، يعني: لا يسجد قبل القارئ، ولا يقوم قبله، ولا يكون عن يساره مع خلو يمينه، ولا يكون خلفه وحده، يعني: يجعلون هذا حكمه حكم الصلاة.

وبعض العلماء يقول: لا يشترط ذلك، وعليه فيسجد ولو كان على يساره مع خلو يمينه، أو كان خلفه وحده، وهذا هو الظاهر من فعل الرسول ﷺ حين سجد معه المسلمون في مكة في سورة النجم».

قال موفق الدين أبو محمد ابن قدامة المقدسي رحمه الله (ت: ٦٢٠هـ)[2]: «ويُسَنُّ السجود للتالي والمستمع، لا نعلم في هذا خلافاً، وقد دلَّتْ عليه الأحاديث التي رويناها، وقد روى البخاري ومسلم وأبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ علينا السورة في غير الصلاة فيسجد، ونسجد معه، حتى لا يجد أحدنا مكاناً لموضع جبهته، فأما السامع غير القاصد للسماع فلا يُستحب له لكان أرجح، وروي ذلك عن عثمان، وابن عباس، وعمران بن الحصين رضي الله عنهم، وبه قال مالك، وقال أصحاب

---

(١) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام (٤/١٢٢ – ١٢٣).

(٢) المغني (٢/٣٦٦ – ٣٦٧).

الرأي: عليه السجود، ورُوي نحو ذلك عن ابن عمر، والنخعي، وسعيد بن جبير، ونافع، وإسحاق رضي الله عنهم؛ لأنه سامع للسجدة، فكان عليه السجود كالمستمع.

وقال الشافعي: لا أؤكِّد عليه السجود، وإن سجد فحسن.

ولنا ما رُوي عن عثمان رضي الله عنه: أنه مرَّ بقاصٍّ، فقرأ القاصُّ سجدةً يسجد عثمان رضي الله عنه معه، فلم يسجد.

وقال: إنما السجدة على من استمع. وقال ابن مسعود وعمران رضي الله عنهما: ما جَلَسْنا لها.

وقال سلمان: ما عَدَوْنا لها، ونحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولا مخالف لهم في عصرهم نعلمه إلا قول ابن عمر رضي الله عنهما: إنما السجدة على من سمعها، فيحتمل أنه أراد من سمع عن قصد، فيُحْمل عليه كلامه جمعاً بين أقوالهم؛ ولأن غير القاصد لم يُشارك التالي في الأجر، فلم يشاركه في السجود كغيره، أما المستمع فإنه شريك التالي في الأجر، بدليل قوله عليه السلام: «التالي والمستمع شريكان» ».

على كل حال لو قيل إنه لا يتأكد السجود في حق السامع لكنه يستحب له فإنه أولى وأعدل، قال العلامة أبو البقاء محمد بن موسى

الدَّميري رحمه الله (ت: ٨٠٨هـ)[1] : «تسن للسامع الذي لم يقصد السماع لعموم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ [الانشقاق: ٢١]، فدخل فيه السامع والمستمع»، ثم قال[2] : «أما إذا لم يسمع فلا يسجد بالاتفاق، وإن علم بذلك برؤية الساجدين ونحوه».

* * *

(١) النجم الوهاج (٢/٢٧٤).
(٢) النجم الوهاج (٢/٢٧٥).

إذا كانت السجدة آخر السورة

إذا كانت السجدة آخر السورة فالمصلي مخيَّر بين الركوع مباشرة دون سجدة تلاوة لأنه سيقوم بسجود الصلاة مباشرة، ولا يضره فصل الركوع، أو يسجد للتلاوة ثم يقوم فيقرأ ثم يركع.

قال موفق الدين أبو محمد ابن قدامة المقدسي رحمه الله[1] : «وإن قرأ السجدة في الصلاة في آخر السورة، فإن شاء ركع، وإن شاء سجد، ثم قام فقرأ شيئاً من القرآن ثم ركع، وإن شاء سجد، ثم قام فركع من غير قراءة، نصَّ عليه أحمد، وهذا قول ابن مسعود رضي الله عنه، والرَّبيع بن خثيم، وإسحاق، وأصحاب الرأي، ونحوه عن علقمة، وعمرو بن شرحبيل، ومسروق.

قال مسروق: قال عبدالله رضي الله عنه: إذا قرأ أحدكم سورة وآخرها سجدة، فليركع إن شاء، وإن شاء فليسجد، فإن الركعة مع السجدة، وإن سجد فليقرأ إذا قام سورة، ثم ليركع.

ورُوي عن عمر رضي الله عنه أنه قرأ بالنجم، فسجد فيها، ثم قام فقرأ سورة أخرى».

---

(١) المغني (٢/٣٦٩).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «إذا كانت السجدة في آخر السورة فله أن يفعل كما ذكره ابن مسعود رضي الله عنه أنه يكتفي بسجود الصلاة، فإنه ليس بينه وبينه إلا الركوع، وهذا ظاهر مذهب أحمد ومذهب أبي حنيفة وغيرهما، لكن قيل: إنه جعل الركوع مكان السجود، والصحيح أنه إنما جعل سجود الصلاة هو المجزئ، كما لو قرأ، فإن الركوع عمل فيه فلم يجعل فصلاً، لاسيما وهو مقدمة السجود».

*　　*　　*

(١) جامع الرسائل (١/٣٥)، تحقيق: د. محمد رشاد سالم.



الباب الحادي عشر:

قرآننا
والكتب السماوية



الشرائع والرسالات السابقة توطئة لشريعة الإسلام

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٩٦ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٦ - ١٩٧]، قال علامة المغرب تقي الدين الهلالي رحمه الله[1]: «يقول تعالى: وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم، الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك، حتى قام آخرهم خطيباً في ملئه بالبشارة بأحمد: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، والزبر جمع زبور وهو الكتاب، والزبور الكتاب الذي نزل على داود عليه السلام، ومعنى زبر الأولين: كتب الأولين، ثم قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]، أي: أوليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن علماء بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها؟! والمراد: العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه كعبد الله بن سلام وغيره».

والحكم من بشارة الأنبياء السابقين بخاتم النبيين نبينا محمد

---

(١) سبيل الرشاد إلى هدي خير العباد (٤/ ٣١٤).

ﷺ كثيرة، قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله[1]: «التنبيه على فخامة أمره ﷺ وتعظيم شأنه، وتحقيق رسالته، وتقرير نبوته في قلوب أهل الكتاب، وتوكيد حجته، مع ما في ذلك من المعجزة له ولعيسى صلى الله عليهما وسلم».

وقال العلامة محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله[2]: «إن مراد الله تعالى كما شرع للناس منذ النشأة إلى ختم الرسالة واحد، وهو إبلاغ البشر إلى الغاية التي خُلقوا لها وحفظ نظام عالمهم وضبط تصرفاتهم فيه على وجه لا يعتوره خلل، وإنما اختلفت الشرائع على حسب مبلغ تهيؤ البشر لتلقي مراد الله تعالى، ولذلك قلما اختلفت الأصول الأساسية للشرائع الإلهية، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ [الشورى: ١٣] الآية.

وإنما اختلفت الشرائع في تفاريع أصولها اختلافاً مراعى فيه مبلغ طاقة البشر لطفاً من الله تعالى بالناس، ورحمة منه بهم حتى في حملهم على مصالحهم ليكون تلقيهم لذلك أسهل، وعملهم به أدوم، إلى أن جاءت الشريعة الإسلامية في وقت راهق فيه البشر مبلغ غاية الكمال العقلي، وجاءهم دين تناسب أحكامه وأصوله استعداداهم الفكري وإن تخالفت الأعصار وتباعدت الأقطار، فكان

(١) رموز الكنوز (٨/١١٣).

(٢) التحرير والتنوير(١/٣٧١ - ٣٧٢).

ديناً عاماً لجميع البشر، فلا جرم أن كانت الشرائع السابقة تمهيداً له لتهيئ البشر لقبول تعاليمه وتفاريعها التي هي غاية مراد الله تعالى من الناس، ولذا قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

فما من شريعة سلفت إلا وهي حلقة من سلسلة جعلت وصلة للعروة الوثقى التي لا انفصام لها، وهي عروة الإسلام، فمتى بلغها الناس فقد فصموا ما قبلها من الحلق وبلغوا المراد، ومتى انقطعوا في أثناء بعض الحلق فقد قطعوا ما أراد الله وصله، فاليهود لما زعموا أنهم لا يحل لهم العدول عن شريعة التوراة قد قطعوا ما أمر الله به أن يوصل ففرقوا مجتمعه».

* * *

قرآننا أكمل الكتب السماوية

قرآننا أكمل الكتب السماوية، لما تضمنه من معاني الكتب السابقة، وما انفرد به من وحي دون ما سبقه من كتب من قبلنا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمة محمد ﷺ ورّثهم الله كل كتاب أنزله»[1].

قال العلامة ابن ناصر الدين الدمشقي رحمه الله (ت: ٨٤٢هـ)[2]: «وإذا اعتبرنا كلام الله القرآن: وجدناه كذلك، فلا أجلَّ ولا أعظم، ولا أمجد ولا أجود، ولا أكرم من قائله تعالى، وهو الله رب العالمين وخالق الأنام.

والمقُول له: هو نبينا محمد خير الخلق وحبيب الحق عليه أفضل الصلاة والسلام. والمقول فيه: الشريعة المحمدية المطهرة الزكية المشتملة على شريف الحكمة وسنيِّ الأحكام.

وقد جمع الله تعالى في القرآن مع وجازة كلمه، وإحكام نظمه، وقواعد علمه، وتناسب آياته، والتئام كلماته: أضعاف ما في الكتب

---

(١) رواه البيهقي في البعث والنشور (رقم ٧٣) وابن جرير (٢٢/ ١٣٤).

(٢) مجالس تفسير قوله تعالى: ﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾ ص ٣٢٢ – ٣٢٣).

السابقة من الحكم والمواعظ والآيات، مع أنه معجزة واحدة تحتوي على ألوف من المعجزات. فهذا الاعتبار يُظهر شرف القرآن وأنه محتو على علوم كثيرة، قال الله عز وجل: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]».

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله معلقاً على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢ - ٣٣][1]، «في هذا اعتناء كبير، لشرف الرسول صلوات الله وسلامه عليه، حيث كان يأتيه الوحي من الله بالقرآن صباحاً ومساء، ليلاً ونهاراً، سفراً وحضراً، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجل، وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله، ومحمد صلوات الله وسلامه عليه أعظم نبي أرسله الله، فقد جمع الله تعالى للقرآن الصفتين معاً، ففي الملأ الأعلى أُنزل جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض منجماً بحسب الوقائع والحوادث».

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/١٠٩ - ١١٠).

قرآننا أحسن قصصاً

قرآننا أحسن قصصاً وبياناً من الكتب السماوية السابقة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل: ٧٦]. قال العلامة محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله(١): «... ومن ذلك ما اشتمل عليه القرآن من تحقيق أمور الشرائع الماضية والأمم الغابرة مما ضبطت فيه كتب بني إسرائيل ضبطاً من جراء ما طرأ على كتبهم من التشتت والتلاشي وسوء النقل من لغة إلى لغة في عصور انحطاط الأمة الإسرائيلية، ولما في القرآن من الأصول الصريحة في الإلهيات مما يكشف سوء تأويل بني إسرائيل لكلمات كتابهم في متشابه التجسيم ونحوه، فإنك لا تجد في التوراة ما يساوي قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. فالمعنى: نفى أن يكون أساطير الأولين بإثبات أنه تعليم للمؤمنين، وتعليم لأهل الكتاب.

وإنما قصَّ عليهم أكثر ما اختلفوا وهو ما في بيان الحق منه نفع للمسلمين، وأعرض عما دون ذلك، فموقع هذه الآية استكمال نواحي هذي القرآن للأمم فإن السورة افتتحت بأنه هدى وبشرى

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/٣٠ - ٣١).

للمؤمنين، وأن المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة يعمهون في ضلالهم فلم ينتفعوا بهديه، فاستكملت هذه الآية ما جاء به من هذي بني إسرائيل لما يهم مما اختلفوا فيه.

والتأكيد بـ (إنّ) مثل ما تقدم في نظائره، وأكثر الذي يختلفون فيه هو ما جاء في القرآن من إبطال قولهم فيما يقتضي إرشادهم إلى الحق أن يُبين لهم، وغيرُ الأكثر ما لا مصلحة في بيانه لهم.

ومن مناسبة التنبيه على أن القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر ما هم فيه مختلفون، أن ما قصّه مما جرى بين ملكة سبأ مع سليمان كان فيه مما يخالف ما في كتاب الملوك الأول، وكتاب الأيام الثاني، ففي ذينك الكتابين أن ملكة سبأ تحملت وجاءت إلى أورشليم من تلقاء نفسها محبة منها في الاطلاع على ما بلغ مسامعها من عظمة ملك سليمان وحكمته، وأنها بعد ضيافتها عند سليمان قفلت إلى مملكتها، وليس مما يصح في حكم العقل وشواهد التاريخ في تلك العصور أن ملكة عظيمة كملكة سبأ تعمد إلى الارتحال عن بلدها وتدخل بلد ملك آخر غير هائبة، لولا أنها كانت مضطرة إلى ذلك بسياسة ارتكاب أخف الضررين، إذ كان سليمان قد ألزمها بالدخول في دائرة نفوذ ملكه، فكان حضورها لديه استسلاماً واعترافاً له بالسيادة بعد أن تنصلت من ذلك بتوجيه الهدية، وبعد أن رأت العزم من سليمان على وجوب امتثال أمره.

ومن العجيب إهمال كتب اليهود دعوة سليمان بلقيس إلى عقيدة التوحيد، وهل يظن بنبي أن يقر الشرك على منتحليه».

وكذلك كان ينزل القرآن بما كان من شأن أهل الكتاب من كفرهم وعنادهم وأذيتهم لرسل الله، ونزول أنواع العقوبات والمثلات بهم، فلم يكن أهل الكتاب ينكرون حرفاً مما نزل في أخبار أسلافهم، بل وبّخ بعضهم بعضاً ظانين أن ما يتحدث به نبينا محمد ﷺ متلقى من تسريب بعض أقوامهم لنبينا عليه السلام، وإنما هو وحي يوحى من السماء، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٦ - ٧٧].

قال العلامة محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله[1]: «وجملة إذا لقوا معطوفة على جملة «وقد كان فريق منهم» على أنها حال مثلها من أحوال اليهود، وقد قصد منها تقييد النهي أو التعجيب من الطمع في إيمانهم فهو معطوف على الحال بتأويل وقد كان فريق منهم آخر إذا لقوا.

وقوله: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ﴾ معطوف على إذا لقوا، وهو المقصود من الحالية أي والحال أنهم يحصل منهم مجموع هذا لأن

(١) التحرير والتنوير (١/٥٦٩ - ٥٧٠).

مجرد قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ لا يكون سبباً للتعجب من الطمع في إيمانهم، فضمير بعضهم راجع إلى ما رجع إليه ﴿لَقُوا﴾، وهم عموم اليهود، ونكتة التعبير بقالوا ﴿ءَامَنَّا﴾ مثلها في نظيره السابق في أوائل السورة.

وقوله: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم﴾ استفهام للإنكار أو التقرير أو التوبيخ بقرينة أن المقام دل على أنهم جرى بينهم فيما ينزل من القرآن فاضحاً لأحوال أسلافهم، ومثالب سيرتهم مع أنبيائهم وشريعتهم.

والظاهر عندي أن معناه أنهم لما سمعوا من القرآن ما فيه فضيحة أحوالهم وذكر ما لا يعلمه إلا خاصتهم ظنوا أن ذلك خلص للنبيء من بعض الذين أظهروا الإيمان من أتباعهم، وأن نفاقهم كان قد بلغ بهم إلى أن أخبروا المسلمين ببعض قصص قومهم ستراً لكفرهم الباطن فوبخوهم على ذلك توبيخ إنكار، أي كيف يبلغ بكم النفاق إلى هذا، وأن في بعض إظهار المودة للمسلمين كفاية على حد قول المثل الذي حكاه بشار بقوله:

وأسعد بما قال في الحلم ابن ذي يَزَن

يَلْهُو الكرام ولا ينسون أحسابا

فحكى الله ذلك عنهم حكاية لحيرتهم واضطراب أمرهم لأنهم كانوا يرسلون نفراً من قومهم جواسيس على النبي ﷺ والمسلمين،

يظهرون الإسلام ويبطنون اليهودية، ثم اتهموهم بخرق الرأي وسوء التدبير، وأنهم ذهبوا يتجسسون فكشفوا أحوال قومهم، ويدل لهذا عندي قوله تعالى بعد ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، وأخبار مروية عن بعض التابعين بأسانيد لبيان المتحدث به، فعن السدي كان بعض اليهود يحدث المسلمين بما حدّث به أسلافهم، وعن أبي العالية قال بعض المنافقين إن النبيء مذكور في التوراة، وعن ابن زيد: كانوا يخبرون عن بعض قصص التوراة.

* * *

قرآننا أيسر حفظاً

قرآننا أيسر الكتب السماوية حفظاً، يحفظه الصغير قبل الكبير، يجد حفظه أيسر ما يكون بما يماثله في مقداره من سائر الكلام، وهو أيسر حفظاً من الكتب السماوية التي سبقته، ولا أدل على ذلك من بقائه محفوظاً، واندراس وتحريف الكتب السماوية السابقة.

قال قتادة رحمه الله: «إن موسى عليه السلام لما أخذ الألواح قال: ربِّ إني أجد في الألواح أمة هم الأولون والآخرون السابقون، قال قتادة: هم الأولون في العرض يوم القيامة، وهم الآخرون في الخلق، السابقون في دخول الجنة، اجعلهم أمتي، قال: تلك أمة أحمد، قال: إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم، يقرأونها، **قال قتادة: وكان من قبلكم إنما يقرأون كتبهم نظراً، فإذا رفعوها لم يعوها، ولم يحفظوها، وإن الله أعطى من هذه الأمة من الحفظ ما لم يُعطِ الأمم قبلها**»[1].

فالقرآن يسّره الله للحفظ، وهذا من رحمة الله بهذه الأمة، ومن أعظم مننه على خلقه، قال تعالى ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ [القمر: ١٧].

(١) بدائع الفوائد (٤/ ١٤٣٠).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1]: «أي سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أراده، ليتذكر الناس».

ومن أسباب تيسير حفظ القرآن أنه نزل بلغة العرب التي هي أخف اللغات على الألسنة، قال نجم الدين الطوفي رحمه الله[2] (ت: ٧١٦ هـ): «اختلاف اللغات إلى عربي وأعجمي وغير ذلك من أصناف اللغات علته وسببه اختلاف أمزجة الألسنة، واختلاف أمزجة الألسنة علته وسببه اختلاف الأهوية وطبائع الأمكنة، فإذا غلب البرد مثلاً على مكان، برد هواؤه، وطبع البرد التكثيف والتثقيل، لأن العنصرين الباردين، وهما: الماء والأرض، ثقيلان كثيفان، والماء أشدهما برداً، والأرض أشدهما كثافة، فيغلب الثقل على ألسنة أهل ذلك البلد، فيثقل النطق على ألسنتهم، ثم يضعون الألفاظ المخصوصة للمعاني المخصوصة، فيجيء النطق بها ثقيلاً، كالعجمي، والتركي، وغيرهما. وإذا غلب الحرُّ على مكان، سخن هواؤه، وطبعُ الحرارة التخفيف والتحليل والتلطيف، فتغلب الخفة على ألسنة أهل ذلك المكان، فيخفُّ النطق على ألسنتهم، ثم يضعون الألفاظ المخصوصة للمعاني المخصوصة، فيجيء النطق بها خفيفاً سمحاً سهلاً، كاللغة العربية، ولهذا كانت أفصح اللغات

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٢٦٤).

(٢) شرح مختصرا لروضة (١/٤٦٩ - ٤٧٠).

وأحسنها وأشرفها، وحصل الإعجاز والتحدي بكلام الله تعالى النازل بها دون كلامه النازل بغيرها، مع أنه قد كان في قدرة الله سبحانه أن يُعجز أهل كل لسان بما ينزله من كلامه بذلك اللسان. وهذا التقرير أشار إليه الأطباء، منهم: صاحب «الإقناع» ».

* * *

قرآننا أكمل تشريعاً

لا شك أن تشريع القرآن أكمل من الكتب السماوية لما فيه من التخفيف والتيسير والرفق بالمكلفين، كما قال تعالى عن نبينا ﷺ ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ولنضرب أمثلة لأنواع تشريعات القرآن التي يظهر معها رحمة الله بأهل القرآن، من ذلك:

كفارة اليمين: في شريعة من قبلنا لم يكن لليمين كفارة، فلا خيار للمكلف في لزوم اليمين أو الحنث فيه، بل يلزمه موجب اليمين، لذلك لما حلف أيوب عليه السلام أن يضرب امرأته مائة ضربة، ولم يكن له سبيل إلى الحنث إذ لا كفارة، أمره أن يُوقع عليها مسمى اليمين، فيأخذ اثكال النخل بمائة شمروخ فيضرب به امرأته، فيتحقق بهذا حفظ يمينه ويتخفف عن زوجه الضرب.

قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤]، قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ)[1]: «وهذا يدل على أن كفارة الأيمان لم تكن مشروعة بتلك الشريعة».

---

(١) إعلام الموقعين ص ٦٦١.

التوبة: فهي في شريعتنا أيسر ما تكون، يندم المسلم على ما كان منه ويستغفر ربه ويعزم ألا يعود لفعل الذنب فيغفر الله ذنبه، قال تعالى ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠]، أما في شريعة بني إسرائيل فإن من لم يقارف الذنب كان يؤمر بقتل من قارف الذنب كما أمر الله من لم يعبد العجل بقتل من عبده، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٥٤].

فقد روى الليث قال: حدثني عقيل عن ابن شهاب قال: لما أُمرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها برزوا ومعهم موسى، فاضطربوا بالسيوف، وتطاعنوا بالخناجر، وموسى رافع يديه، حتى إذا فتر، أتاه بعضهم فقالوا: يا نبي الله، ادع الله لنا، وأخذوا بعضديه يسندون يديه، فلم يزل أمرهم على ذلك حتى إذا قبل الله توبتهم، قبض أيدي بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم، فأوحى الله إلى موسى: ما يحزنك؟ أما من قُتل منكم فحي عندي يُرزق، وأما من بقي فقد قبلت توبته، فبشَّر بذلك موسى بني إسرائيل(١).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(٢): «إسناد جيد».

---

(١) جامع البيان (١/ ٦٨٢ - ٦٨٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٦٦).

وانظر كذلك إلى **الصلاة**: حيث كان أهل الكتاب لا يصلون إلا في صوامعهم، ونحن نصلي حيث أدركتنا الصلاة، لا حرج ولا ضيق.

وانظر إلى الأحكام التي كانت على من قبلنا، حيث كان الإسرائيلي يقرض موضع النجاسة من ثوبه، وحرّم الله على من قبلنا الغنائم وأباحها لنا، قال تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] إلى قوله ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وأهل الكتاب يعرفون حق المعرفة أن شرعتنا وسط، فقد كان اليهود إذا وقعوا في الفواحش وأرادوا الخروج من حكم توراتهم، قالوا: اذهبوا بنا إلى هذا النبي ﷺ فإنه بُعث بالتخفيف[1].

* * *

(١) رواه أبو داود كتاب الحدود باب في رجم اليهوديين (ص ٦٢٧ - رقم ٤٤٥٠).

قرآننا محفوظ
وكتبهم مبدّلة محرّفة

الكتب السماوية السابقة أصابها التحريف والتغيير والتبديل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[١]: «أي: يبيّن ما بدّلوه وحرّفوه وأوّلوه، وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيروه ولا فائدة في بيانه».

والسر في حفظ قرآننا وتحريف الكتب السماوية السابقة هو أن الله تكفل بنفسه بحفظ القرآن، ووكل حفظ الكتب السابقة لأحبارها فأصابها الضياع والتحريف.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، قال

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٦٧).

الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله[1]: « ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة، فإنه لم يتول سبحانه وتعالى حفظها، بل وكلها إلى الأحبار واستحفظهم إياها، فأضاعوها وبدّلوها وحرّفوها.

قال قتادة: أنزله الله ثم حفظه، فلا يستطيع إبليس أن يزيد فيه باطلاً ولا ينقص منه حقاً.

وقال الكلبي[2]: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ﴾ أي: لمحمد ﷺ حافظون من شياطين الإنس والجن.

والأول أصح وأكثر. وأن المراد بذلك حفظ القرآن العزيز، وقد ظهر أثر ذلك والحمد لله، فلو تمالأ الثقلان على تحريفه وتبديله وزيادته ونقصانه لم يقدروا على ذلك».

والقاضي إسماعيل بن إسحاق بن حماد المالكي البصري سُئل عن السر في تطرق التغيير للكتب السالفة وسلامة القرآن من طرق التغيير له؟ فأجاب: إن الله أوكل للأحبار حفظ كتبهم، فقال[3]: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وتولى حفظ القرآن بذاته تعالى فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

---

(١) رموز الكنوز (٣/٥٨٧).
(٢) التحرير والتنوير (١٤/٢١).
(٣) رموز الكنوز (٣/٥٨٧).

قال أبوالحسن ابن المنساب «ذكرت هذا الكلام للحاملي، فقال لي: لا أحسن من هذا الكلام».

ومن أعظم ما كتمه أهل الكتاب مما هو في كتبهم البشارة بنبينا محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال عطاء بن يسار رحمه الله: «لقيت عبدالله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما، قلت له أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن، يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يتوفاه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: (لا إله إلا الله)، ويفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صُماً، وقلوباً غُلفاً»(١).

---

(١) رواه البخاري كتاب البيوع باب كراهية السخب في السُّوق (ص ٣٤١ – رقم ٢١٢٥).

وأما سبب تحريف وتبديل التوراة والإنجيل هو أن الله قضى ذلك كونا، وجعل من أعظم أسبابه عدم عناية أهلها بحفظها، ولذلك لم تُنقل بالتواتر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «التوراة والإنجيل الموجودة اليوم بيد أهل الكتاب لم تتواتر عن موسى وعيسى عليهما السلام، أما التوراة فإن نقلها انقطع لما خرب بيت المقدس أولاً، وأُجلي منه بنو إسرائيل، ثم ذكروا أن الذي أملاها عليهم بعد ذلك شخص واحد يقال له عازر، وزعموا أنه نبي، ومن الناس من يقول: إنه لم يكن نبياً، وإنها قوبلت بنسخة وجدوها عتيقة، وقيل: إنه أحضرت نسخة كانت بالمغرب، وهذا كله لا يوجب تواتر جميع ألفاظها، ولا يمنع وقوع الغلط في بعضها كما يجري مثل ذلك في الكتب التي يلي نسخها ومقابلتها وحفظها القليل: الاثنان والثلاثة.

وأما الإنجيل الذي بأيديهم فإنهم معترفون بأنه لم يكتبه المسيح عليه السلام، ولا أملاه على من كتبه، وإنما أملاه بعد رفع المسيح «متى» و«يوحنا»، وكانا قد صحبا المسيح، ولم يحفظه خلق كثير يبلغون عدد التواتر، ومرقس، ولوقا، وهما لم يريا المسيح عليه السلام، وقد ذكر هؤلاء أنهم ذكروا بعض ما قاله المسيح، وبعض أخباره، وأنهم لم يستوعبوا ذكر أقواله وأفعاله. ونقل اثنين وثلاثة وأربعة يجوز عليهم الغلط، لاسيما، وقد غلطوا في المسيح نفسه حتى اشتبه عليهم بالمصلوب».

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (١/٣٥٦).

وقد ذكر الله الكيفية التي وقع فيها تحريف التوراة، فقال سبحانه: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]، قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله[1]: «القراطيس جمع قرطاس، و«القرطاس»: الورقة، كما هو معروف، لأن نسخة التوراة الكبيرة كلها فيها الحق، فإذا أرادوا التحريف أخذوا أوراقاً مفرقة، وكتبوا فيها أشياء متعددة مما يريدون أن يحرفوه، وتركوا نسبة الكتاب الكبيرة غير حاضرة، فإذا في المحل الفلاني كذا وكذا، وهذا نصه!!

وهو محرف ولم يأتوا بأصل الكتاب، لأنه لو جاء لظهرت الحقيقة فيه، وهذا معنى ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ ﴿تُبْدُونَهَا﴾: أي القراطيس المحرفة على أهوائكم ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ وجعله بهذه القراطيس ليسع بها على إخفاء ما لا يحبون وإبداء ما يحبون لأنه لو جاءت نسخة الكتاب كاملة لعُرف الحقيقة فيه، ولذلك يكتبونها كتباً محرفة، كما قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩]، وقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]، وهذا

(١) العذب النمير (١/ ٤١٩).

معنى قوله: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا﴾ محرفة للناس، (وتخفون كثيراً) في النسخة الكبيرة لا تظهرونه، كانوا يخفون صفات النبي ﷺ، فيجدونه في التوراة: «أبيض مشرباً بحمرة»، فيكتبون لونا غير ذلك، يجدون ربعة، يكتبون: طويلاً مشذباً، جعد الشعر: يكتبون سبط الشعر، ويغيرون الحقائق، ولذا قال تعالى: ﴿تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ ».

وأما ضابط ما دخله التحريف وما لم يدخله؟ فالجواب أن الذي لهم فيه هوى وغرض فإنهم يحرفونه أو يكتمونه كصفة نبينا محمد ﷺ، وحكم الزنا، وابن القيم رحمه الله لما ذكر ما حكاه عبدالله ابن سلام رضي الله عنه عن التوراة أن ساعة الإجابة يوم الجمعة آخر ساعة بعد العصر، قال[1]: «وهذه الساعة هي آخر ساعة بعد العصر، يُعظمها جميع أهل الملل، وعند أهل الكتاب هي ساعة الإجابة، وهذا مما لا غرض لهم في تبديله وتحريفه، وقد اعترف به مؤمنهم».

والكتمان لصفة نبينا ﷺ والكفر به وقع من أغلب أهل الكتاب، وآمن به قليل منهم، وقد أثنى الله في القرآن على من آمن بنبينا محمد ﷺ من أهل الكتاب ليكون ذلك مُحركاً لإيمان الأميين وسائر أهل الكتاب.

---

(١) زاد المعاد (١/٣٩٦).

قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله (ت: ٦٦١هـ)[1]: «هو حض الناس على الإيمان بالنبي ﷺ المنعوت في الكتب المتقدمة، بما استثبته الأحبار والربانيون فيها من الدلائل الناطقة برسالته الشاهدة بنبوته، وتبنيهم على الاقتداء بمن يعلمون براعتهم في العلم ومهارتهم في دراسته.

هذا مع ما في الثناء على أهل الكتاب - مؤمنهم - من تقريع ذوي النفوس الأبية من الأمة العربية، والتعريض بذمها لموضع إعراضها عن الإيمان، فإنك لا تكاد تجد أنكى لها وأوغل في أذاها من هجائها ومدح أعدائها، ولا أرغب منها في المدح والثناء، فحرك هِمَمهم إلى الإيمان بذلك».

* * *

(١) رموز الكنوز (٥/٥٥٤).

قرآننا لكل الخليقة

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1]: «يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وهذا خطاب للأحمر، والأسود، والعربي والعجمي، ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: جميعكم، وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ﴾ [هود: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾ [آل عمران: ٢٠]، والآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٨٩).

تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه، رسول الله إلى الناس كلهم».

ثم ساق الحافظ ابن كثير رحمه الله جملة من الأحاديث، منها: حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي - ولا أقوله فخراً: بعثت إلى الناس كافة: الأحمر والأسود، ونصرتُ بالرعب مسيرة شهر، وأُحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت الشفاعة فأخّرتها لأمتي، فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً**»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة من يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار**»[2].

وقال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله[3]: «فالذين يقولون: إن محمداً ﷺ أرسل إلى العرب ولم يرسل إلى غيرهم كفرة ملاحدة، كفرة بالله، مكذبون كتاب الله، مخالفون الضروري من دين الإسلام، فهو ﷺ مرسل إلى جميع الخلائق كما صرحت به هذه الآية الكريمة ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله: رواه أحمد وإسناده جيد تفسير القرآن العظيم (٣/٤٩٠).

(٢) رواه مسلم كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ (ص ٧٧ - رقم ٣٨٦).

(٣) العذب النمير (٤/١٦١٧ - ١٦١٨).

١٥٨]، وجاءت في آيات أُخر من كتاب الله وأحاديث صحيحة معروفة، فمن الآيات الدالة على ذلك: قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، فصرح بأنه نذير للعالمين، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾ [الأنعام: ١٩]، فكل من بلغه هذا القرآن فهو منذر برسالة محمد ﷺ، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، أي: إلا للناس كافة على التحقيق.

ثم ساق بقية الأدلة وقال:(١) « ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ﴾ [هود: ١٧]، وكل من سمع برسالة محمد ﷺ وبلغته ولم يؤمن به دخل النار، لأنه رسول الله إلى الأسود والأحمر، وإلى الخلق كافة صلوات الله وسلامه عليه، مرسل إلى الجن والإنس، عام الرسالة، باقيها إلى يوم القيامة، لأن الله لما أرسله رسالة عامة وجعلها باقية تتردد في آذان الخلق إلى يوم القيامة، محفوظة من رب العالمين، لو أراد إنسان أن يزيد حرفاً أو ينقصه، أو نقطاً أو ينقصه لرد عليه الآلاف من صبيان المسلمين في أقطار الدنيا، لأن الله تولى حفظ هذا المُنزَّل المحكم الذي هو أساس هذه الرسالة العامة الخالدة صلوات الله وسلامه على من جاء بها، وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ».

---

(١) العذب النمير (٤/١٦١٨).

قرآننا مهيمن وناسخ للكتب السماوية قبله

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨]، فقرآننا حاكم وناسخ للكتب السابقة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١): «والمهيمن الشاهد المؤتمن الحاكم، فيشهد بما فيها من الحق، ويبين ما حُرف فيها، ويحكم بإقرار ما أقره الله من أحكامها، وينسخ ما نسخه الله منها، وهو مؤتمن عليها».

وكان النبي ﷺ يزجر أصحابه عن صحف أهل الكتاب لأنها منسوخة أولاً، ولأنه دخلها التغيير والتحريف والتبديل.

ولما رأى النبي ﷺ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحيفة من التوراة زجره، وقال له: «**لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما تكذبوا بحق، أو تصدقوا بباطل، والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني**»(٢).

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (١/ ٢٩٩).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٨٧)، والدارمي (١/ ١١٥)، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله ص ٣٣٩.

وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما [1]: «يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله، محضاً لم يُشب، وقد حدّثكم الله أن أهل الكتاب بدّلوا من كتب الله وغيروا، فكتبوا بأيديهم، قالوا: هو من عند الله، ليشتروا بذلك ثمناً قليلاً».

ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام، هو أن الاحتجاج بشريعة من قبلنا لا يعني الرجوع إلى الكتب المحرّفة، وإنما هو العمل بما جاء في شريعتنا مما ذكره الله عنهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «ونحن إذا قلنا: شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، فإنما ذاك لكونه مشروعاً على لسان محمد ﷺ بالأدلة الدالة على ذلك».

وقال الكيا الهراسي رحمه الله[3]: «المراد بشرع ما قبلنا ما حكاه الله ورسوله عنهم، أما الموجود بأيديهم فممنوع اتباعه بلا خلاف».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[4]: «فالسلف كلهم متفقون على أن القرآن هو المهيمن المؤتمن الشاهد على ما بين يديه من الكتب، ومعلوم أن المهيمن على الشيء أعلى منه مرتبة،

---

(١) رواه البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة باب قول النبي ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء» (١٣/٣٣٣ - رقم ٧٣٦٣).

(٢) الصفدية (١/٢٥٨).

(٣) البحر المحيط في أصول الفقه (٦/٤٥).

(٤) مجموع الفتاوى (١٧/٤٣ - ٤٥).

ومن أسماء الله «المهيمن»، ويسمى الحاكم على الناس القائم بأمورهم «المهيمن»، قال المبرد والجوهري وغيرهما: المهيمن في اللغة المؤتمن، وقال الخليل: الرقيب الحافظ، وقال الخطابي: المهيمن الشاهد، قال: وقال بعض أهل اللغة: الهيمنة القيام على الشيء والرعاية له وأنشد:

ألا إن خير الناس بعد نبيهم مهيمنه التاليه في العرف

يريد القائم على الناس بالرعاية لهم، وفي مهيمن قولان: قيل أصله مؤيمن، والهاء مبدلة من الهمزة، وقيل بل الهاء أصلية.

وهكذا القرآن فإنه قرر ما في الكتب المتقدمة من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر، وزاد ذلك بياناً وتفصيلاً، وبيّن الأدلة والبراهين على ذلك وقرر نبوة الأنبياء كلهم ورسالة المرسلين، وجادل المكذبين بالكتب والرسل بأنواع الحجج والبراهين، وبين عقوبات الله لهم ونصره لأهل الكتاب المتبعين لها، وبيّن ما حُرف منها وبُدّل، وما فعله أهل الكتاب في الكتب المتقدمة، وبيّن أيضاً ما كتموه مما أمر الله ببيانه، وكل ما جاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن، **فصارت له الهيمنة على ما بين يديه من الكتب من وجوه متعددة، فهو شاهد بصدقها وشاهد بكذب ما حُرف منها، وهو حاكم بإقرار ما أقره الله، ونسخ ما نسخه، فهو شاهد في الخبريات حاكم في الأمريات.** وكذلك معنى «الشهادة»

و«الحكم» يتضمن إثبات ما أثبته الله من صدق ومحكم، وإبطال ما أبطله من كذب ومنسوخ، وليس الإنجيل مع التوراة ولا الزبور بهذه المثابة، بل هي متبعة لشريعة التوراة إلا يسيراً نسخه الله بالإنجيل، بخلاف القرآن، ثم إنه معجز في نفسه لا يقدر الخلائق أن يأتوا بمثله، ففيه دعوة الرسول، وهو آية الرسول وبرهانه على صدقه ونبوته، وفيه ما جاء به الرسول وهو نفسه برهان على ما جاء به».

وقال أيضاً شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «وأما اليهودية والنصرانية المتضمنة **للمنسوخ المبدّل وهي التي عليها اليهود والنصارى الذين كذبوا محمداً، فهذه ليست دين أحد من الأنبياء، لا موسى ولا عيسى ولا غيرهما.**

فإذا قال أهل الكتاب للمسلمين: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾، فقد أمرهم الله أن يقولوا: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥]، فلا يجوز لنا اتباع ما اختص به أهل التوراة والإنجيل من الشرع المنسوخ، فكيف بالمبدّل؟ بل نتبع ملة إبراهيم - وهي عبادة الله وحده بما أمر به - وهي التي كان عليها موسى وعيسى، لكن كان لهم شرع اختصوا به دون إبراهيم، وكان من الدين في حق أولئك الذين أُمروا به خاصة، وإبراهيم ومن كان قبله لم يؤمروا به، وكذلك محمد ﷺ ومن آمن به لم يؤمروا بتلك الآصار والأغلال، بل رُفعت

(١) تفسير آيات أشكلت (١/ ٢٨١ - ٢٨٥).

عنهم كما كانت مرفوعة عن إبراهيم، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**بُعثت بالحنيفية السمحة**»، وقال: «**لا رهبانية في الإسلام**»، وقال: «**إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين**»، ولما رأى بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورقة من التوراة قال: «**والذي نفسي بيده لو كان موسى بن عمران حياً، ثم اتبعتموه وتركتموني ضللتم**».

ورُوي عنه أيضاً: «**لو كان موسى وعيسى حيين ما وسعهما إلا اتباعي**».

فقد تبين أن اليهود والنصارى فيهم سعيد؛ وهم المتبعون شرع التوراة والإنجيل قبل النسخ والتبديل، وفيهم من هو مستحق للعذاب، ومع هذا نحن منهيون أن نتبع اليهودية والنصرانية مطلقاً، فإن ما اختص به السعداء منهم قد نُسخ، وأما ما اختص به الأشقياء فهو مبدّل أو منسوخ تمسكوا به بعد النسخ، وما كان مشروعاً كان داخلاً في مسمى الإسلام والحنيفية لما كان مشروعاً، فلما نُسخ لم يبق داخلاً في الإسلام ولا في الحنيفية ملة إبراهيم، والمُبدَّل بطريق الأولى».



الباب الثاني عشر:

مواقع وأسباب النزول

الفصل الأول
المكي والمدني



المكي والمدني

معرفة المكي والمدني عون على تدبّر القرآن، حيث يجد طالب العلم في ذلك أولويات الشريعة، وعنايتها بالعقيدة، وتدرجها في أحكامها، واعتبار فقه المرحلة، ومعرفة الناسخ من المنسوخ مما يعين على ضبط الأحكام، إلى غير ذلك.

وقد تكلم العلماء في الفرق بين المكي والمدني، فذهب بعضهم إلى اعتبار مكان النزول، واختار أن ما نزل بمكة فهو مكي، وما نزل بالمدينة فهو مدني(١)، وهذا حد لا ينضبط به تمييز المكي والمدني، لأن من القرآن ما نزل بغير مكة والمدينة، ناهيك أن هذا لا يجمعه وحدة موضوعية تليق بخصائصه، فما نزل بمكة قبل الهجرة خصائصه تختلف عما نزل بها بعد الفتح.

والصواب هو التفريق بينهما باعتبار الهجرة، قال يحيى ابن سلام: ما نزل بمكة وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي ﷺ المدينة فهو من المكي، وما نزل على النبي ﷺ في أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدني(٢).

---

(١) البرهان في علوم القرآن ص ١٣١، ط. دار الحديث – القاهرة – ١٤٢٧هـ.

(٢) البرهان في علوم القرآن ص ١٣٢.

قال بدر الدين الزركشي رحمه الله (ت: ٧٩٤هـ)[(١)]: «وهو المشهور».

على كل حال ما لم ينزل بمكة والمدينة محصور، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، نزلت بالجُحفة والنبي ﷺ مهاجر، وقوله تعالى في الزخرف: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[الزخرف: ٤٥]، نزلت عليه ليلة أُسري به إلى بيت المقدس.

ومما نزل عليه بالطائف قوله تعالى في الفرقان: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان: ٤٥]، الآية، وقوله في: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٢ - ٢٤].

ومما نزل عليه في الحديبية قوله تعالى في الرعد: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠] نزلت بالحديبية، حين صالح النبي ﷺ أهل مكة[(٢)].

ومما نزل على النبي ﷺ من مكة إلى المدينة في طريق هجرته، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] نزلت هذه الآية في الجُحفة، وذلك حين هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة[(٣)].

---

(١) البرهان في علوم القرآن ص ١٣١.
(٢) البرهان في علوم القرآن ص ١٣٨ – ١٣٩.
(٣) تفسير القرآن لأبي المظفر السمعاني (٤/ ١٢٠).

وذهب جماعة من الأئمة كعلقمة، وعروة بن الزبير، وأحمد ابن حنبل إلى أن ما أنزل فيه «يا أيها الناس» فهو مكي، وما أنزل فيه «يا أيها الذين آمنوا» فهو مدني، وهذا وصف أغلبي، فسورة البقرة مدنية وفيها «يا أيها الناس اعبدوا ربكم»، وسورة النساء مدنية وفيها «يا أيها الناس اتقوا ربكم»، وسورة الحج مكية وفيها ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧][1].

وقد تكون السورة كلها مكية، وقد تكون السورة كلها مدنية، وقد تجمع السورة بين المكي والمدني.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله[2]: «الاصطلاح أن كل ما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني، سواء نزل في البلد حال الإقامة أو في غيرها حال السفر».

ومما نزل بالمدينة: البقرة، ثم الأنفال، ثم آل عمران، ثم الأحزاب، ثم الممتحنة، ثم النساء، ثم الزلزلة، ثم الحديد، ثم محمد، ثم الرعد، ثم الرحمن، ثم الإنسان، ثم الطلاق، ثم البيّنة، ثم الحشر، ثم النصر، ثم النور، ثم الحج، ثم المنافقون، ثم المجادلة، ثم الحجرات، ثم التحريم، ثم الصف، ثم الجمعة، ثم التغابن، ثم الفتح، ثم التوبة، ثم المائدة[3].

(١) البرهان في علوم القرآن ص ١٣٤.
(٢) فتح الباري (٩/٥).
(٣) البرهان في علوم القرآن ص ١٣٦ – ١٣٧.

وباقي القرآن نزل بمكة قبل الهجرة[1].

وأما مثال ما كان من السور مشتملاً على المكي والمدني فسورة «إبراهيم»، قال قتادة رحمه الله: سورة إبراهيم مكية إلا آيتين منها، نزلتا بالمدينة، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ إلى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨ - ٢٩].

قال أبو جعفر النحاس رحمه الله[2]: «والذي قاله قتادة لا يمتنع، قد تكون السورة مكية، ثم ينزل الشيء بالمدينة، فيأمر رسول الله ﷺ بجعله فيها، ولا يكون هذا لأحد غير رسول الله ﷺ لما يأتيه من الوحي بذلك، إذ كان تأليف القرآن معجزاً لا يؤخذ إلا عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ، وعن الجماعة الذين لا يلحقهم الغلط ولا يتواطؤون على الباطل».

وسورة الأعراف مكية إلا ثلاث آيات ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ﴾ [الأعراف: ١٦٣] إلى قوله ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

وسورة الكهف مكية، غير قوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨] نزلت في سلمان الفارسي، والزمر مكية غير قوله: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣]، والحواميم كلها مكيات، غير آية في الأحقاف نزلت في عبدالله بن سلام ﴿قُلْ

(١) حاشية ابن قاسم على مقدمة التفسير ص ٣٠.

(٢) الناسخ والمنسوخ (٢/ ٤٨٠ - ٤٨١).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف: ١٠][١].

وأما المختلف فيه من المكي والمدني، فقد قال بدر الدين الزركشي رحمه الله (ت: ٧٩٤ هـ)[٢]: «وأما ما اختلفوا فيه ففاتحة الكتاب، قال ابن عباس والضحاك ومقاتل وعطاء، إنها مكية، وقال مجاهد: مدنية، واختلفوا في (ويل للمطففين)، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: مدنية، وقال عطاء: هي آخر ما نزل بمكة».

وتكلم العلماء في كيفية التمييز بين المكي والمدني باعتبار المعنى، فقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مبيناً خصائص المكي والمدني[٣]: «الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح الذي أصله عبادةُ الله وحده لا شريك له، وما فيه من تحريم قتل النفس بغير حق والزنا والكذب والظلم وغير ذلك **مما أنزل الله فيه السور المكية المشتملة على أصول الدين**، وما شرعت فيه شرائع الرسل **مثل صفة العبادات وأقدارها ومقادير العقوبات وأنواعها وغير ذلك مما أنزله الله في السور المدنية**، وأنزل فيها ما جعله لأهل القرآن من الوجهة والشرعة والمنهاج والمنسك، وفضَّلهم بذلك على سائر الأمم».

---

(١) البرهان في علوم القرآن ص ١٤١ – ١٤٢.
(٢) البرهان في علوم القرآن ص ١٣٧.
(٣) جامع المسائل المجموعة السادسة ص ٢٤٣.

وقال أيضاً [1] : «إن الإيمان هو من الأسماء الكتابية، القرآنية، النبوية، الدينية، الشرعية؛ فيتنوع مسماها قدراً ووصفاً بتنوع الكتب الإلهية؛ فمنه ما هو متفق عليه بين جميع المؤمنين، من الأولين والآخرين، وجميع الكتب الإلهية: مثل الإقرار بالله، واليوم الآخر، وعبادة الله وحده لا شريك له، والصدق والعدل، واعلم أن عامة السور المكية التي أنزلها الله بمكة هي في هذا الإيمان العام المشترك هو في بعض الملل أعظم قدراً ووصفاً، فإن ما جاء به محمد ﷺ من أسماء الله وصفاته، ووصف اليوم الآخر أكمل مما جاء به سائر الأنبياء».

وقال ابن القيم رحمه الله[2]: «الاعتناء في السُّور المكية إنما هو بأصول الدين، من تقرير التوحيد، والمعاد، والنبوة، وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنة السور المدنية».

وقال الشاطبي رحمه الله موضحاً أوصاف المكي والمدني[3]: «إن الأحكام المكية مبنية على الإنصاف من النفس، وبذل المجهود في الامتثال بالنسبة لحقوق الله أو حقوق الآدميين، وأما الأحكام المدنية فمنزلة في الغالب على وقائع لم تكن فيما تقدم من بعض المنازعات والمشاحات والرخص والتخفيفات وتقرير العقوبات في

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٧٥).
(٢) التبيان في أيمان القرآن ص ٣٣٢.
(٣) الموافقات (٤/ ٢٣٦ - ٢٣٧).

الجزئيات لا الكليات، فإن الكليات كانت مقررة محكمة بمكة - وما أشبه ذلك، مع بقاء الكليات المكية على حالها، ولذلك يؤتي بها في السور المدنيات تقريراً وتأكيداً، فكملت جملة الشريعة، والحمد لله».

فكلام الشاطبي رحمه الله فيه تنبيه مهم وهو أن خصائص المكي مستصحبة في المدني، وهذا واضح فإن الإيمان بالله والعقيدة لا يصح الانفكاك عنه بحال، فهو أصل إيمان الخلق وليس فقه مرحلة حتى لا يتوهم ذلك متوهم من خلال التمييز بين المكي والمدني.

* * *



الفصل الثاني
أسباب النزول



نزول القرآن ابتدائي وسببي

أكثر آي القرآن نزلت ابتداء، وبعضه له سبب نزول، قال الجعبري رحمه الله (١): «نزول القرآن على قسمين: قسم نزل ابتداءً، وقسم نزل عقب واقعة، أو سؤال».

وما نزل ابتداءً فهو داخل في المعنى العام لنزول القرآن، كما قال تعالى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

قال العلامة محمد تقي الدين الهلالي رحمه الله (٢): «...، وبعضها لا يعلم سببه إلا الله، ولا توجد آية إلا ومراد الله بإنزالها هداية الخلق إلى مصالح دينهم ودنياهم».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله (٣): «ينقسم نزول القرآن إلى قسمين:

القسم الأول: الابتدائي: وهو ما لم يتقدم نزوله سبب يقتضيه، وهو غالب آيات القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [التوبة: ٧٥]، الآيات،

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٦١).

(٢) نبذة من علوم القرآن ص ٢١، ط. دار الكتاب والسنة – القاهرة.

(٣) أصول في التفسير ص ١٣ – ١٤.

فإنها نزلت ابتداء في بيان حال بعض المنافقين، وأما ما اشتهر من أنها نزلت في ثعلبة بن حاطب في قصة طويلة، ذكرها كثير من المفسرين، وروجها كثير من الوعاظ، فضعيف لا صحة له.

القسم الثاني: سببي: وهو ما تقدم نزوله سبب يقتضيه، والسبب:

أ - إما سؤال يجيب الله عنه مثل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٩].

ب - أو حادثة وقعت تحتاج إلى بيان وتحذير مثل: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ﴾، الآيتين [التوبة: ٦٥، ٦٦] نزلتا في رجل من المنافقين قال في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قراءنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله ﷺ وأصحابه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن فجاء الرجل يعتذر إلى النبي ﷺ، فيجيبه ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة: ٦٥].

ج - أو فعل واقع يحتاج إلى معرفة حكمه، مثل: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

* * *

صيغ أسباب النزول

صيغ أسباب النزول نوعان: صريحة، ومحتملة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله [1]: «وقولهم (نزلت هذه الآية في كذا)، فيُراد به تارة أنه سبب النزول، ويُراد به تارة أن هذا داخل في الآية، وإن لم يكن السبب».

وقال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله [2]: «الحاصل أن العبارات التي يُعبر بها عن أسباب النزول تنقسم ثلاثة أقسام: صريحة، وظاهرة، ومحتملة. وصيغة الصريحة أن يقول «سبب نزول الآية كذا وكذا»، والظاهرة: «كان كذا فنزلت»، والمحتملة «نزلت في كذا»، ولهذا يقول المؤلف رحمه الله - يعني شيخ الإسلام ابن تيمية-: وقولهم نزلت هذه الآية في كذا فيُراد به تارة أنه سبب النزول، ويُراد به تارة أن هذا داخل في الآية وإن لم يكن السبب».

* * *

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ٤٧.

(٢) شرح مقدمة التفسير ص ٤٨ – ٤٩.

فوائد معرفة أسباب النزول

فوائد معرفة أسباب النزول مهمة جداً، منها:

١ – الوقوف على المعنى.

٢ – معرفة الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

٣ – تمييز العام الذي أريد به الخصوص، والعام المحكم، والعام المخصص.

٤ – بيان أن القرآن نزل من الله، وذلك لأن النبي ﷺ يسأل عن الشيء فينزل الوحي مبيناً الجواب.

ففي صحيح البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً من اليهود قال للنبي ﷺ: يا أبا القاسم ما الروح؟ فأمسك النبي ﷺ فلم يرد عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامي، فنزل الوحي: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥].

٥ – إزالة الإشكال، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة: ١٥٨]، أن غاية أمر السعي بينهما، أن يكون من قسم المباح.

وفي صحيح البخاري عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس ابن مالك رضي الله عنه عن الصفا والمروة، قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، إلى قوله تعالى: ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾، وبهذا عرف أن نفي الجناح ليس المراد به بيان أصل حكم السعي، وإنما المراد نفي تحرجهم بإمساكهم عنه، حيث كانوا يرون أنهما من أمر الجاهلية، أما أصل حكم السعي فقد تبين بقوله: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[1].

٦ - الاستفادة من مراحل التشريع: قال العلامة مقبل الوادعي رحمه الله[2]: «فإننا في أمس الحاجة إلى أن نعتبر أنفسنا مجددين، وأن نبدأ الدعوة من جديد، وفي أسباب النزول الكثير الطيّب من بيان مراحل الدعوة والتوجيهات الإلهية، كآية القتال، فإنها لم تنزل إلا بعد أن علم الله أن لهم اقتداراً على القتال».

* * *

(١) البرهان في علوم القرآن ص ٣٨، الإتقان في علوم القرآن (١/ ٦١ - ٦٢)، أصول في التفسير لشيخنا العثيمين ص ١٤ - ١٦.

(٢) الصحيح المسند من أسباب النزول (ص ١٢).

تعدد أسباب النزول

تعدد أسباب النزول كثير في روايات المفسرين، وتتأرجح الأقوال بقبول التعدد أورده حسب القرائن التي غالبها يرجع إلى معنى الآية.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

فقد قال الحسن وقتادة رحمهما الله: لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتابه، وضرب للمشركين به المثل ضحكت اليهود وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، فأنزل الله هذه الآية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الله ذكر آلهة المشركين، فقال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٧٣]، وذكر كيد الآلهة فجعله كبيت العنكبوت، فقالوا: أرأيت حيث ذكر الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد أي شيء كان يصنع بهذا، فنزلت الآية.

فهنا رجح الحافظ ابن حجر رحمه الله عدم التعدد، حيث قال[1]: «والأرجح نسبة القول لأهل النفاق، لأن كتب أهل الكتاب ممتلئة بضرب الأمثال، فيبعد أن ينكروا ما في كتبهم مثله».

وما قاله الحافظ ابن حجر رحمه الله غير قطعي، فأهل الكتاب أنكروا نبينا ﷺ المبشر في كتبهم بغاية الوضوح، فجدالهم من جملة عنادهم وتكذيبهم للحق.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ﴾ [البقرة: ١١٤]، قال قتادة رحمه الله [2]: «نزلت في النصارى، حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس».

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم رحمه الله [3]: «هم المشركون حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية وبين أن يدخل مكة، حتى نحر هديه بذي طوى وهادنهم، بعد أن قال لهم: ما أحد يرد أحداً عن هذا البيت، فقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يعدو عليه، قالوا: لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق».

---

(١) العجاب في بيان الأسباب (١/٢٤٧).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٣٩١).

(٣) تفسير ابن كثير (١/٣٩٢).

ورجح الطبري لمعنى في الآية أن سبب النزول في النصارى، حيث قال: «كان معلوماً أن مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام، وإن كانوا قد منعوا في بعض الأوقات رسول الله ﷺ وأصحابه من الصلاة فيه، صح وثبت أن الذين وصفهم الله عز وجل بالسعي في خراب مساجده، غير الذين وصفهم الله بعمارتها، إذ كان مشركو قريش هم بنو المسجد الحرام في الجاهلية، وبعمارتهم كان افتخارهم، وإن كان بعض أفعالهم على غير الوجه الذي يرضاه الله منهم»[1].

وقد اعترض على هذا الترجيح الحافظ ابن كثير رحمه الله (ت: ٧٧٤هـ)[2] ، فقال: «الذي يظهر - والله أعلم - القول الثاني، كما قاله ابن زيد، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، لأن النصارى إذا منعت اليهود الصلاة في بيت المقدس، كان دينهم أقوم من دين اليهود، وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولاً إذ ذاك، لأنهم لُعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، وأيضاً فإنه تعالى لما وجّه الذم في حق اليهود والنصارى، شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة، ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام، وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة، فأي

(١) جامع البيان (٢/٤٤٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٣٩٢).

خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم».

وحيث يتعدد سبب النزول ويحتمله عموم الآية، ولا تضاد ولا تعارض بين أسباب النزول، فإن عموم الآية يشمل الجميع، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فقد ذكر أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنها نزلت فيهم معشر الأنصار، فإنهم قالوا لما أعز الله نبيه، وكثر ناصريه، إن أموالنا قد ضاعت فلو أنا أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فنزلت الآية[١].

وعن حذيفة رضي الله عنه: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، قال: نزلت في النفقة [٢]، يعني في ترك النفقة في سبيل الله[٣].

وقد جمع بين القولين الضحاك رحمه الله فقال [٤]: «التهلكة أن يمسك الرجل نفسه وماله عن النفقة في الجهاد في سبيل الله».

---

(١) رواه الترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة البقرة (ص ٦٦٨ - رقم ٢٩٧٢)، وقال: حسن صحيح غريب، وأبو داود كتاب الجهاد باب في قوله عز وجل: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ (ص ٣٦٤ - رقم ٢٥١٢).

(٢) رواه البخاري كتاب التفسير باب قوله: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (ص٧٦٧ - رقم ٤٥١٦).

(٣) جامع البيان (٣/٣١٣).

(٤) جامع البيان (٣/٣١٧).

وهناك قول ثالث في سبب النزول، فقد قال أبو إسحاق السبيعي رحمه الله سمعت البراء رضي الله عنه وسأله رجل، فقال: يا أبا عمارة، أرأيت قول الله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾: أهو الرجل يتقدم فيقاتل حتى يُقتل؟ قال: لا، ولكنه يعمل بالمعاصي ثم يُلقي بيده ولا يتوب (١).

وعليه فتكون النفقة في سبيل الله من أسباب تكفير السيئات، وهو لا يتعارض مع الجهاد بالنفس في سبيل الله، فإن تعريض العبد رقبته للقتل في سبيل الله من أعظم أسباب تكفير الذنوب.

قال الطبري رحمه الله (٢): «فمن ترك إنفاق ما لزمه من ذلك في سبيل الله على ما لزمه كان للهلكة مستسلماً، وبيديه للتهلكة مُلقياً، وكذلك الآيس من رحمة الله لذنب سلف منه ملقٍ بيديه إلى التهلكة، لأن الله قد نهى عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَايْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَايْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وكذلك التارك غزو المشركين وجهادهم في حال وجوب ذلك عليه في حال حاجة المسلمين إليه، مضيع فرضاً فملق بيده إلى التهلكة، فإذا كانت هذه المعاني كلها يحتملها قوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، ولم يكن الله عز وجل خص منها شيئاً دون شيء،

---

(١) جامع البيان (٣/٣٢٠).

(٢) جامع البيان (٣/٣٢٤ – ٣٢٥).

فالصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى عن الإلقاء بأيدينا لما فيه هلاكنا والاستسلام للهلكة وهي العذاب – بترك ما لزمنا من فرائضه، فغير جائز لأحد منا الدخول في شيء يكرهه الله منا مما نستوجب بدخولنا فيه عذابه، غير أن الأمر وإن كان كذلك، فإن الأغلب من تأويل الآية: وأنفقوا أيها المؤمنون في سبيل الله، ولا تتركوا النفقة فيها فتهلكوا باستحقاقكم بترككم ذلك عذابي».

وترجيح الطبري رحمه الله حسن، ولكن يُعكر عليه اعتراض الصحابة على حمله على العموم، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس ذلك في القتال، إنما هو في النفقة أن تمُسك بيدك عن النفقة في سبيل الله، ولا تلق بيدك إلى التهكة[١] .

وكذلك اعترض على حملها على العموم الصحابي أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه حيث قال: «إنكم لتتأولون هذه الآية على غير التأويل، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار»[٢] .

فالجواب أن قول ابن عباس رضي الله عنهما يقابله اعتراض أبي أيوب رضي الله عنه، فحمله على العموم فيه إعمال للقولين: النفقة، والجهاد، والحافظ ابن كثير رحمه الله بيّن أن النفقة من الجهاد في

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٥٣٣).

(٢) رواه أبو داود (رقم ٢٥١٢).

سبيل الله، وأن ذم أبي أيوب رضي الله عنه يُحمل في حق من داوم على ترك الجهاد وركن للدنيا، قال رحمه الله[1] : «والإخبار عن ترك ذلك بأنه هلاك ودمار إن لزمه واعتاده»، وكذلك يكون هلكة من نكل عن الجهاد إذا تعيّن عليه.

ومما تعدد فيه سبب النزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩]، فمما قيل في سبب نزولها: أن النبي ﷺ قال ذات يوم: ليت شعري! أين أبواي؟ فنزلت ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [البقرة: ١١٩]، ويساعد على ذلك قراءة بعض أهل المدينة (ولا تَسأل)، جزماً بمعنى النهي، مفتوح التاء من (تَسْأل)، وبجزم اللام منها، فيكون المعنى: لا تسأل عنهم[2] .

وسبب النزول من جهة الرواية ضعيف، فإن في إسناده موسى ابن عبيدة وهو ضعيف جداً، وأعله الحافظ ابن كثير رحمه الله أيضاً بالإرسال[3] .

وقد اعترض على سبب النزول هذا من جهة المعنى ابن جرير الطبري رحمه الله، فقال[4] : «إن في استحالة الشك من الرسول ﷺ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٥٣٤).

(٢) جامع البيان (٢/٤٨٠ – ٤٨١).

(٣) تفسير القرآن العظيم(١/٤٠٥).

(٤) جامع البيان (٢/٤٨٢).

في أن أهل الشرك من أهل الجحيم، وأن أبويه كانا منهم - ما يدفع صحة ما قاله محمد بن كعب، إن كان الخبر عنه صحيحاً».

وقد أنكر الحافظ ابن كثير رحمه الله هذا الاعتراض ورده، حيث قال[1] : «وهذا الذي سلكه ها هنا فيه نظر، لاحتمال أن هذا كان في حال استغفاره لأبويه قبل أن يعلم أمرهما، فلما علم ذلك تبرأ منهما، وأخبر عنهما أنهما من أهل النار كما ثبت ذلك في الصحيح، ولهذا أشباه كثيرة ونظائر، ولا يلزم ما ذكر ابن جرير».

وممكن أن يقال إنه لم يكن أوحي إليه ﷺ أنه يؤول مصيرهما إلى النار لأنهما من أهل الفترة ويمتحنون في عرصات يوم القيامة، فلما أوحي إليه انتهى.

وقد سلك بعض العلماء مسلك تعدد نزول الآية حيث تعدد سببها وتعذر الجمع بغير ذلك، والله أعلم إن كان فعلاً نزلت الآية أكثر من مرة فمثل هذا يحتاج إلى دليل واضح صريح يمكن أن يستند إليه.

هذا كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كُسرت رباعيته يوم أحد، وشُجَّ في

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٠٥).

رأسه، فجعل يسلت الدَّم عنه، ويقول: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيَّهم ﷺ وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله؟**». فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨][(١)] .

وورد عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع من الركعة الأخيرة من الفجر يقول: «اللهم العن فلاناً وفلاناً، بعدما يقول: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨][(٢)] ، وفي رواية يدعو على صفوان ابن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام[(٣)] .

فهنا القول بأن الآية لها سببا نزول متوجه، قال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله[(٤)] : «القاعدة في أسباب النزول أنه إذا لم يمكن الترجيح، فلا مانع من أن يتعدد السبب، فيكون لنزول الآية سببان، الأول: إنكاره عليه الصلاة والسلام على هؤلاء

---

(١) رواه البخاري كتاب المغازي باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ص ٦٨٨، تعليقاً، ورواه مسلم كتاب الجهاد والسير باب غزو أُحد (ص ٧٩٨ - ٧٩٩ - رقم ٤٦٤٥).

(٢) رواه البخاري كتاب المغازي باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، (ص ٦٨٨ - رقم ٤٠٦٩).

(٣) رواه البخاري كتاب المغازي باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، (ص ٦٨٨ - رقم ٤٠٧٠).

(٤) تفسير سورة آل عمران (٢/١٤٤ - ١٤٥).

القوم، وقوله: «كيف يفلح»؟ استبعاده فلاحهم، والثاني: لعنه هؤلاء الأربعة، ولا محظور في ذلك، فإن الآية قد يكون لنزولها سببان».

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله (ت: ٨٥٢هـ)[١] : «نزلت الآية في الأمرين معاً، فيما وقع له من الأمر المذكور وفيما نشأ عنه من الدعاء عليهم، وذلك كله في أُحد».

وهناك سبب ثالث في نزول الآية في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: اللهم العن فلاناً وفلاناً - لأحياء من العرب - حتى أنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية[٢] .

ورواية مسلم فيها التصريح بلعن الأحياء من العرب، حيث جاء فيها: «اللهم! اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم كسني يوسف، اللهم! العن لحيان، ورعلا، وذكوان، وعُصيَّة»[٣] .

وهنا تعددت توجيهات العلماء لهذه الرواية لسبب النزول في

(١) فتح الباري (٨/٢٢٧).

(٢) رواه البخاري كتاب التفسير باب ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (ص ٧٧٧ - رقم ٤٥٦٠)، ومسلم كتاب المساجد باب استحباب القنوت في جميع الصلوات (ص ٢٧٢ - ٢٧٣ - رقم ١٥٤٠).

(٣) رواه مسلم كتاب المساجد باب استحباب القنوت في جميع الصلوات (ص ٢٧٢ - ٢٧٣ - رقم ١٥٤٠).

ضوء الروايات السابقة في غزوة أُحد، فالحافظ ابن حجر رحمه الله يرى أن هذه اللفظة مدرجة، فقال[١] : «ظهر لي علة الخبر وأن فيه إدراجاً، وأن قوله: «حتى أنزل الله»، منقطع من رواية الزهري عمن بلغه، بيّن ذلك مسلم في رواية يونس المذكورة، فقال هنا قال يعني الزهري، ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما نزلت، وهذا البلاغ لا يصح لما ذكرته».

وقال الحافظ رحمه الله أيضاً موجهاً هذه الرواية في ضوء الروايات الأخرى[٢] : «في هذا نظر، لأن ظاهر الآثار الماضية أن الآية نزلت أيام أُحد وقصة بئر معونة متراخية عن ذلك بمدة، لكن يمكن الجمع بأن نزولها تأخر حتى وقعت بئر معونة، فكان يجمع في الدعاء بين من شجّ وجهه بأُحد، ومن قتل أصحاب بئر معونة، فنزلت الآية في الفريقين جميعاً، فترك الدعاء على الجميع، وبقي بعد ذلك الدعاء للمستضعفين إلى أن خلصوا وهاجروا، وهذه أولى من دعوى النزول مرتين».

* * *

(١) فتح الباري (٨/٢٢٧).

(٢) العجاب في بيان الأسباب (٢/٧٥٠ - ٧٥١).

تعدد السبب وتكرر نزول الآية

الأصل نزول الآية أو السورة مرة واحدة، وقد يتعدد نزول الآية أحياناً، قال بدر الدين الزركشي رحمه الله (ت: ٧٩٤هـ)[١] : «قد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه وتذكيراً به عند حدوث سببه، خوف نسيانه، وهذا كما قيل في الفاتحة نزلت مرتين، مرة بمكة، وأخرى بالمدينة، وكما ثبت في الصحيحين عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ [هود: ١١٤]، فقال الرجل: إليَّ هذا؟ فقال: بل لجميع أمتي. فهذا كان في المدينة، والرجل قد ذكر الترمذي أو غيره، أنه أبو اليسر، وسورة هود مكية بالاتفاق، ولهذا أشكل على بعضهم هذا الحديث مع ما ذكرنا ولا إشكال، لأنها نزلت مرة بعد مرة.

ومثله ما في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ ﴾ [الإسراء: ٨٥]، أنها نزلت لما سأله اليهود عن الروح وهو في المدينة؟ ومعلوم أن هذه في سورة

---

(١) البرهان في علوم القرآن ص ٣٢ – ٣٣.

(سبحان)، وهي مكية بالاتفاق، فإن المشركين لما سألوه عن ذي القرنين، وعن أهل الكهف؟ قيل: ذلك بمكة، وأن اليهود أمروهم أن يسألوه عن ذلك، فأنزل الله الجواب كما قد بُسط في موضعه.

وكذلك ما ورد في ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، من أنها جواب للمشركين بمكة، وأنها جواب لأهل الكتاب بالمدينة.

وكذلك ما ورد في الصحيحين من حديث المسيب: لما حضرت أبا طالب الوفاة، وتلكأ عن الشهادة، فقال رسول الله ﷺ: «**والله لأستغفرن لك ما لم أنه**»، فأنزل الله ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، وهذه الآية نزلت في آخر الأمر بالاتفاق، وموت أبي طالب كان بمكة، فيمكن أنها نزلت مرة بعد أخيراً، وجُعلت أخيراً في «براءة» ».

على كل تعدد النزول قليل، والأكثر نزول الآية مرة واحدة، وكون النبي ﷺ يذكرها للصحابة لوجود مقتضى ذلك مما تطابق الآية سببه لا يلزم منه تعدد النزول.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله [١] : فإن الآية الجامعة العامة تنزل في أشياء كثيرة إما أن يراد به جميع تلك المعاني بإنزال واحد، وإما أن يتعدد الإنزال إما بتعدد عرض النبي ﷺ القرآن على جبريل عليه السلام أو غير ذلك، وفي كل مرة تنزل في شيء غير

(١) شرح العمدة كتاب الصلاة ص ٥٤٧.

الأول لصلاح لفظها لذلك كله، على أن قول الصحابة رضي الله عنهم نزلت الآية في ذلك قد لا يعنون به سبب النزول وإنما يعنون به أنه أريد ذلك المعنى منها وقصد بها وهذا كثير في كلامهم».

وقال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله[1] : «تكرر نزول الآية خلاف الأصل، فالأصل أن الآية إذا نزلت، نزلت مرة واحدة، فتكون الأسباب سابقة على نزول الآية، يعني معناه وُجد سبب وسبب وسبب، ثم أنزل الله الآية مبينة لحكم هذه الأمور، مع أنه نادر أن تنزل الآية مرتين، وهذا إن صحَّ».

وأما عن فوائد وحكم تعدد النزول، فقد قيل:

١ - تعظيماً لشأن الآية وتذكيراً بها عند حدوث سببها.

٢ - التذكير خشية النسيان.

٣ - التذكير بسبب النزول الأول[2] .

٤ - للموعظة[3] .

٥ - تنزل الآية أول مرة على حرف واحد، وتنزل ثانياً ببقية وجوهها للتخفيف كما سبق في الكلام على معنى نزول القرآن على سبعة أحرف، نحو: ملك ومالك، والسراط والصراط، ونحو ذلك[4] .

---

(١) شرح مقدمة التفسير ص ٥٠.

(٢) البرهان في علوم القرآن ص ٣٢ - ٣٣.

(٣) الإتقان في علوم القرآن (١/٧٧).

(٤) الإتقان في علوم القرآن (١/٧٨).



الباب الثالث عشر:

إحكام القــرآن

الفصل الأول
المحكم والمتشابه

المحكم والمتشابه

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت: ٧٢٨هـ)[١] : «إن [الإحكام] تارة يكون في التنزيل، فيكون في مقابلته ما يلقيه الشيطان، فالمحكم المنزّل من عند الله أحكمه الله، أي فصّله من الاشتباه بغيره، وفصّل منه ما ليس منه؛ فإن الإحكام هو الفصل والتمييز والفرق والتحديد الذي به يتحقق الشيء، ويحصل إتقانه؛ ولهذا دخل فيه معنى المنع كما دخل في الحد، فالمنع جزء معناه لا جميع معناه.

وتارة يكون «الإحكام» في إبقاء التنزيل عند من قابله بالنسخ الذي هو رفع ما شُرع وهو اصطلاحي، أو يقال وهو أشبه بقول السلف كانوا يسمون كل رفع نسخاً، سواء كان رفع حكم أو رفع دلالة ظاهرة، وإلقاء الشيطان في أمنيته قد يكون في نفس لفظ

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٧٤ - ٢٧٥).

المبلّغ، وقد يكون في سمع المبلغ، وقد يكون في فهمه، كما قال: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد: ١٧] الآية. ومعلوم أن من سمع النص الذي قد رفع حكمه أو دلالة له، فإنه يلقي الشيطان في تلك التلاوة اتباع ذلك المنسوخ فيحكم الله آياته بالناسخ الذي به يحصل رفع الحكم وبيان المراد، وعلى هذا التقدير فيصح أن يقال: المتشابه المنسوخ بهذا الاعتبار.

وتارة يكون «الإحكام» في التأويل والمعنى، وهو تمييز الحقيقة المقصودة من غيرها حتى لا تشتبه بغيرها.

وفي مقابلة المحكمات الآيات المتشابهات التي تشبه هذا، وتشبه هذا، فتكون محتملة للمعنيين.

قال أحمد بن حنبل رحمه الله «المحكم»، الذي ليس فيه اختلاف، والمتشابه الذي يكون في موضع كذا وفي موضع كذا.

ولم يقل في المتشابه لا يعلم تفسيره ومعناه إلا الله، وإنما قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهذا هو فصل الخطاب بين المتنازعين في هذا الموضع، فإن الله أخبر أنه لا يعلم تأويله إلَّا هو.

والوقف هنا على ما دلَّ عليه أدلة كثيرة، وعليه أصحاب رسول الله ﷺ وجمهور التابعين وجماهير الأمة.

ولكن لم ينف علمهم بمعناه وتفسيره، بل قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وهذا يعم الآيات المحكمات

والآيات المتشابهات، وما لا يعقل له معنى لا يتدبر، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، ولم يستثنِ شيئاً منه نهى عن تدبّره، فأما من تدبّر المحكم والمتشابه كما أمره الله وطلب فهمه ومعرفة معناه فلم يذمه الله، بل أمر بذلك ومدح عليه».

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾، فيه دليل واضح على أن ضلال أهل الزيغ والبدع في المتشابه سببه فساد بواطنهم من سوء القصد الذي هو طلب الفتنة، أو بسبب سلوك طريق غير هادي لرفع الاشتباه بسبب عدم رده إلى المحكم.

قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله (ت: ٤٨٩)[(١)] : «إن الذين في قلوبهم زيغ يغلون فيطلب التأويل للمتشابه، فيقعون على التأويل المظلم، فذلك ابتغاء الفتنة، لأن من غلا في الدين، وطلب تأويل ما لا يعلمه إلا الله، يقع في الفتنة، ويكون مفتوناً، وخير الدين: النمط الأوسط الذي ليس فيه غلو ولا تقصير».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله مبيناً سبب اشتباه الأدلة على أهل البدع[(٢)] : «١ - إما لقصور في العلم. ٢ - أو قصور في الفهم. ٣ - أو تقصير في التدبّر. ٤ - أو سوء في القصد».

---

(١) تفسير القرآن (١/ ٢٩٥).

(٢) تفسير سورة آل عمران (١/ ٣١).

واتباع المتشابه في آي القرآن هو أول ما وقع من الشر في هذه الأمة، وكانت بدايته في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث ظهر عبدالله بن صبيغ التميمي واتّبع المتشابه، وأخذ يخوض فيه.

وعظم اتباع المتشابه في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث صاروا مجموعات، وهؤلاء هم الخوارج، الذين فارقوا الجماعة، وأراقوا دماء المسلمين لاتباعهم المتشابه.

قال ابن عمر رضي الله عنهما في الخوارج: عمدوا إلى آيات في الكفار فجعلوها في المسلمين.

وابن عباس رضي الله عنهما لما ناظرهم أحالهم إلى ما يُوجب نزعهم عن هلكة المتشابه، حيث قال لهم: «أتيتكم من عند أصحاب رسول الله ﷺ وهم الذين نزل عليهم القرآن وهم أعلم بتأويله».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله[(١)]: «فإن الخوارج أول من تبع ما تشابه منه، وابتغوا بذلك الفتنة، فقتلوا من أهل الإسلام ما لا يحصى كثرة، وتجنبوا قتل أهل الشرك، وأخبارهم في ذلك شهيرة، ولذلك ورد في عدة أحاديث صحيحة أنهم شر الخلق والخليقة، وذكر الخوارج نبّه به الحديث المذكور على من ضاهاهم في اتباع المتشابه وابتغاء تأويله، فالآية شاملة لكل مبتدع سلك ذلك المسلك».

---

(١) العجاب في بيان الأسباب (٢/٦٦٢ - ٦٦٣).

وقد تكلم العلماء في حكمة وجود التشابه في القرآن والسُّنَّة، فقال العلامة أبو عبيد القاسم بن خلف الجبيري المالكي رحمه الله (ت: ٣٧٨هـ)[١]: «لو كانت جلية كلها لارتفع التنازع وعُدم الاختلاف، ولم يُلجأ إلى تدبُّر، ولا احتيج إلى اعتبار وتفكير، ولا وُجد شكٌّ ولا ظن، ولا جهل ولا حسبان، لأن العلم حينئذ يكون طبعاً.

ولو كانت كلها خفية لم يبق طريق إلى معرفة شيء منها، إذ الخفي لا يُعلم بنفسه، ولو عُلم بنفسه لكان جلياً».

وقال الخطابي رحمه الله[٢]: «لو زال الاختلاف بأن يُنص كل شيء باسمه تحليلاً وتحريماً لارتفع الامتحان، وعُدم الاجتهاد في طلب الحق، ولاستوى الناس في رتبة واحدة، ولبطلت فضيلة العلماء على غيرهم».

وقال موفق الدين أبو محمد ابن قدامة المقدسي رحمه الله[٣]: «إن الله تعالى علم لطفاً في تعبد العلماء بالاجتهاد وأمر بالتشمير في استنباط دواعي الاجتهاد؛ لـ ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] ».

---

(١) التوسط بين مالك وابن القاسم في المسائل التي اختلفا فيها من مسائل المدونة ص٢١٠.

(٢) أعلام الحديث (١/٢١٨).

(٣) روضة الناظر ص ٢٩٦ – ٢٩٧.

ووقوع الاشتباه في بعض النصوص لا ينافي البيان الذي هو صفة القرآن، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

ومن حكم الله في وجود المتشابه في كتابه هو اختبار إيمان العباد، هل يقفون عند أمر الله برد المتشابه إلى المحكم أو رده إلى عالمه ليزيل الاشتباه، أو سلوك سبيل المؤمنين بالإيمان به وقول كلٌ من عند ربنا، أو يخالفون أمر الله ويأتون نهيه ويتبعون المتشابه فيهلكون.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[1] : «الفائدة امتحان العباد بتأدبهم مع الله عزَّ وجل، هل يحاولون أن يصلوا إلى شيء لا تدركه عقولهم، أو يقفون على حدود ما تدركه عقولهم، لأن من الناس يذهب ويتجرأ على محاولة إدراك ما لا يصل إليه العقل، ومن الناس من يتأدب، فإذا وصل إلى ما لا يبلغه العقل وقف».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2] : «وبيان الأحكام يحصل تارة بالنص الجلي المؤكّد، وتارة بالنص الجلي المجرد، وتارة بالنص الذي قد يعرض لبعض الناس فيه شبهة بحسب مشيئة الله وحكمته.

---

(١) تفسير سورة آل عمران (١/ ٤٩).

(٢) منهاج السُّنَّة (٨/ ٥٧٥ - ٥٧٦).

وذلك كله داخل في البلاغ المبين، فإنه ليس من شرط البلاغ المبين أن لا يُشكل على أحد، فإن هذا لا ينضبط، وأذهان الناس وأهواؤهم متفاوتة تفاوتاً عظيماً، وفيهم من يبلغه العلم، وفيهم من لا يبلغه، إما لتفريطه أو عجزه».

ويُطلق المتشابه ويُراد به التشابه في اللفظ، قال العلامة الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي رحمه الله (ت: ٨٤٢هـ)(١) : «من أقسام المتشابه في القرآن، وهو التشابه في اللفظ، كأول آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفاتحة سورة آل عمران: ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١ - ٢].

وهذه الآية الشريفة أنزل الله ما يشابهها في سورتي البقرة والجمعة. قال الله عز وجل إخباراً عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقال تعالى في سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة: ٢]. فهذه الآية متشابهة من هذا الوجه، محكمة على الوجه الأول».

---

(١) مجالس في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾ ص ٩٠ - ٩١.

ومن معاني الإحكام في القرآن هو أن لفظه ومعناه وبلاغته في غاية الإحكام، قال القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله (ت: ٥٤٣هـ)[١] : «فأما كونه محكماً كله فبمعان كثيرة: منها اطراده في البلاغة، وانتظامه في سلك الفصاحة، واستواء أجزاء كلماته في أداء المعنى، من غير حشو يستغنى عنه، أو نقصان يخل به، واختصار القول الطويل الدال على المعنى الكثير.

قال الأصمعي: كنت في بعض أحياء العرب، فإذا بجارية صغيرة السن، وهي تقول:

قبلت محبوباً بغير حلة مثل الغزال قائماً في دلة

فقلت لها: ما أبلغ كلامك ! وأفصح مقالك !

قالت: أبلغ من ذلك من جمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين، وخبرين، وبشارتين، وذلك قوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧].

فقوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ ﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ خبران.

وقوله: ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ﴾، نهيان.

وقوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، بشارتان».

---

(١) قانون التأويل ص ٦٦٤.

قال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله مبيناً معنى المحكم[1]: «المحكم اتضح معناه وتبين، والمتشابه هو الذي يخفى معناه، فلا يعلمه الناس، وهذا إذا جمع بين المحكم والمتشابه، وأما إذا ذُكر المحكم مفرداً دون المتشابه؛ فمعناه المتقن الذي ليس فيه خلل: لا كذب في أخباره، ولا جَوْر في أحكامه، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقد ذكر الله الإحكام في القرآن دون المتشابه: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]، وإذا ذُكر المتشابه دون المحكم صار المعنى أنه يشبه بعضه بعضاً في جودته وكماله، ويُصدِّق بعضه بعضاً ولا يتناقض، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، والتشابه نوعان: تشابه نسبي، وتشابه مطلق.

والفرق بينهما: أن المطلق يخفى على كل أحد، والنسبي يخفى على أحد دون أحد، وبناء على هذا التقسيم ينبني الوقف في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، فعلى الوقف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يكون المراد بالمتشابه المتشابه المطلق، وعلى الوصل ﴿إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ يكون المراد بالمتشابه المتشابه النسبي، وللسلف في ذلك قولان:

القول الأول: الوقف على ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وعليه أكثر السلف، وعلى هذا، فالمراد بالمتشابه المطلق الذي لا يعلمه إلا الله، وذلك مثل

---

(١) القول المفيد على كتابة التوحيد (ص ٤٩٤ – ٤٩٥).

كيفية وحقائق صفات الله، وحقائق الله به من نعيم الجنة وعذاب النار، قال الله تعالى في نعيم الجنة: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧]، أي: لا تعلم حقائق ذلك، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء.

والقول الثاني: الوصل، فيقرأ: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾، وعلى هذا؛ فالمراد بالمتشابه التشابه النسبي، وهذا يعلمه الراسخون في العلم، ويكون عند غيرهم متشابهاً، ولهذا يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: «أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله»، ولم يقل هذا مدحاً لنفسه أو ثناء عليها، ولكن ليعلم الناس أنه ليس في كتاب الله شيء لا يعرف معناه؛ فالقرآن معانيه كلها بيّنة، لكن بعض القرآن يشتبه على ناس دون آخرين حتى العلماء الراسخون في العلم يختلفون في معنى القرآن، وهذا يدل على أنه خفي على بعضهم، والصواب بلا شك مع أحدهم إذا كان اختلافهم اختلاف تضاد لا تنوع، أما إذا كانت الآية تحتمل المعنيين جميعاً بلا منافاة ولا مرجح لأحدهما، فإنها تحمل عليهما جميعاً».

وبعض الناس جعل نصوص صفات الله من المتشابه، قال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله[١] : «اعلم أن كثيراً

(١) تفسير سورة آل عمران (١/ ٣٧).

من الناس الذين يتكلمون في العقائد فسّروا المتشابه بآيات الصفات، قالوا: إن المتشابهات هن آيات الصفات، ولكن لا شك أن تفسير المتشابهات بآيات الصفات على الإطلاق ليس بسديد، لأن آيات الصفات معلومة مجهولة؛ فهي من حيث المعنى معلومة، ولا يمكن أن يخاطبنا الله عزَّ وجل ويحدّثنا عن نفسه بأمر مجهول لا نستفيد منه، وليس هو بالنسبة إلينا إلا كنسبة الحروف الهجائية التي ليس فيها معنى، هذا غير ممكن إطلاقاً.

نعم، هي مجهولة من جهة أخرى، وهي الحقيقة والكيفية التي هي عليها، فهذا مجهول لنا، لا نعلم كيف يد الله، ولا ندرك حقيقتها، ولا نعلم وجه الله، ولا ندرك حقيقة علم الله عز وجل، ولا ندرك كل صفاته ولا ندرك حقائقها، لأن الله يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، فمن زعم أن آيات الصفات من المتشابه على سبيل الإطلاق فقد أخطأ، والواجب التفصيل، فنقول: إن أردت بكونها من المتشابه تشابه الحقيقة التي هي عليها فأنت مصيب، وإن أردت بالمتشابه تشابه المعنى وأن معناها مجهول لنا فأنت مخطيء غاية الخطأ».

فالزم أمر الله ونهيه، وقف عند المتشابه وقوف المؤمن بأنه من عند الله، فإن كنت من حملة العلم فرده إلى أم الكتاب، وإن كنت جاهلاً فرده إلى عالمه.

وإيّاك وشكوك أهل البدع وخواطر إبليس وشبهاته، وإذا ورد عليك شيء من ذلك، أو راودك بدعي عن جادة السلف فكن حاضر البال من أثر إمام دار الهجرة إمام أهل السُنَّة الإمام مالك رحمه الله، فإنه سأله رجل عن كيفية الاستواء؟ فقال رحمه الله: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أُراك إلا مبتدعاً؟![1] .

وهذا المنهج توارثه مالك عن سلف الأمة، ولزومه كما أنه مقتضى الإيمان، فإن فيه راحة البال.

قال العلامة محمد بن علي الشوكاني رحمه الله (ت: ١٢٥٠هـ)[2] : «وقد يغني هؤلاء وأمثالهم من المتكلمين المتكلفين، كلمتان من كتاب الله تعالى وصف بهما نفسه وأنزلهما على رسوله وهما: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فإن هاتين الكلمتين قد اشتملتا على فصل الخطاب، وتضمنتا بما يعين أولي الألباب، السالكين في تلك الشعاب. فالكلمة منها دلَّت دلالة بيِّنة على أن كل ما تكلم به البشر في ذات الله وصفاته على وجه التدقيق، ودعاوي التحقيق، فهو مشوب بشعبة من شعب الجهل مخلوط بخلوط هي منافية للعلم ومباينة له، فإن

---

(١) ذم التأويل لابن قدامة ص١٣ – رقم ١١.
(٢) التحف في مذاهب السلف ص ٩، ط. دار الكتب العلمية (١٣٤٨هـ).

الله سبحانه قد أخبرنا أنهم لا يحيطون به علماً، فمن زعم أن ذاته كذا، أو صفته كذا، فلا شك أن صحة ذلك متوقفة على الإحاطة، وقد نفيت عن كل فرد من الأفراد علماً.

فكل قول من أقوال المتكلمين صادر على جهل، إما من كل وجه، أو من بعض الوجوه، وما صدر عن جهل فهو مضاف إلى جهل، ولاسيما إذا كان في ذات الله وصفاته، فإن ذلك من المخاطرة في الدين ما لم يكن في غيره من المسائل، وهذا يعلمه كل ذي علم ويعرفه كل عارف، ولم يحط بفائدة هذه الآية ويقف عندها ويقتطف من ثمراتها إلا الممرون الصفات على ظاهرها المريحون أنفسهم من التكلفات، والتعسفات والتأويلات والتحريفات، وهم السلف الصالح».

* * *



الفصل الثاني
التشابه
في الحروف المقطعة



التشابه في الحروف المقطعة

كلام العلماء كثير في الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، فبعض العلماء يرى أن الحروف المقطعة الواردة في أوائل السور الله أعلم بمعناها، وأنه مما ينبغي أن لا يتكلف الخوض فيه، وأن يؤمن به كما جاء.

قال ابن عطية الأندلسي رحمه الله[١] : «قال الشعبي عامر ابن شراحيل وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين: هي سر الله في القرآن، وهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه، ولا يجب أن يتكلم فيها، ولكن يؤمن بها وتمر كما جاءت».

وقد اعترض على هذا القول العلامة أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي رحمه الله، فقال[٢] : «إن العرب تحديت بالقرآن وطلبت بمعارضته أو التسليم والانقياد، وبمعرفتهم أنه بلسانهم ومعروف تخاطبهم وعجزهم مع ذلك عنه قامت الحجة عليهم وعلى كافة الخلق، وإذا سلم هذا فكيف يرد في شيء منه خطابهم بما لا طريق لهم إلى فهمه؟

فلو كان هذا لتعلقوا به ووجدوا السبيل إلى التعلل في العجز عنه».

---

(١) المحرر الوجيز (١/ ٩٤).

(٢) ملاك التأويل (١/ ١٧٣).

والحروف المقطعة في قول آخر كل حرف منها يدل على معنى، قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله (ت: ٤٨٩هـ)[1]: «قال ابن عباس رضي الله عنهما: معنى قوله: (آلم): أنا الله أعلم، وكل حرف يدل على معنى، والألف دليل قوله: «أنا»، واللام دليل قوله: «الله»، والميم دليل قوله: «أعلم».

وكذا قال في أمثاله، فقال في (آلمص): معناه: أنا الله أعلم وأفضل، وفي (آلمر): أنا «الله» أعلم وأرى، وفي (آلر): أنا الله أرى.

قال الزجاج: هذا حسن، وبمثله قالت العرب في قولها، فإن العرب قد تأتي في كلامها بحرف وتريد به معنى، كما قال القائل:

قالت لها قفي فقالت قاف   لا تحسبي أنا نسينا الإيجاف

ومعنى قولها قاف، أي: وقفت، فدل الحرف على معنى، كذا هذا».

وهذا القول اعترض عليه العلامة صديق حسن خان رحمه الله، فقال[2]: «إن العرب لم يتكلموا بشيء من ذلك، وإذا سمعه السامع منهم كان معدوداً عنده من الرطانة، ولا ينافي ذلك أنهم قد يقتصرون على حرف أو حروف من الكلمة التي يريدون النطق بها، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن تقدمه ما يدل عليه ويفيد معناه، بحيث لا يلتبس على سامعه كمثل ما تقدم ذكره».

---

(١) تفسير القرآن (١/٤١).

(٢) فتح البيان (٤/٥٦ – ٥٧).

وحمل ابن جرير الطبري رحمه الله معنى الحروف المُقطعة على مجموع ما يكون في سورها من المعاني، فقال[1] : «قول الله جلَّ ثناؤه: (آلمٓ) و(آلر) و(آلمص)، وما أشبه ذلك من حروف المعجم التي هي فواتح أوائل السور، كلُّ حرف منها دال على معان شتَّى، شامل جميعها من أسماء الله عز وجل وصفاته ما قاله المفسرون من الأقوال التي ذكرناها عنهم، وهنَّ مع ذلك فواتح السور، كما قاله من قال ذلك، وليس كون ذلك من حروف أسماء الله جل ثناؤه وصفاته، بمانعها أن تكون للسور فواتح؛ لأن الله جلَّ ثناؤه قد افتتح كثيراً من سور القرآن بالحمد لنفسه والثناء عليها، وكثيراً منها بتمجيدها وتعظيمها، فغير مستحيل أن يبتدي بعض ذلك بالقَسَم بها.

فالتي ابتدئ أوائلها بحروف المعجم، أحد معاني أوائلها أنهنَّ فواتح ما افتتح بهن من سور القرآن، وهن مما أقسم بهن، لأن أحد معانيهنَّ أنهن من حروف أسماء الله تعالى ذكره وصفاته، على ما قدَّمْنا البيان عنها، ولا شكَّ في صحة معنى القسم بالله وأسمائه وصفاته. وهن من حروف حساب الجُمل، وهن للسور التي افتُتحت بهن شعار وأسماء، فذلك يحوي معاني جميع ما وصفنا مما بيَّنَّا من وجوه».

وهذا القول الذي اختاره الطبري فيه صعوبة، فأسماء الله

---

(١) جامع البيان (١/ ٢٢٤ – ٢٢٥).

أوصاف لذات الله تبارك وتعالى فكيف تكون حروفاً لحساب أبي جاد؟!!

وبعض العلماء يرى أن الحروف المقطعة كأنها أسماء سور، قال العلامة أحمد بن براهيم بن الزبير الغرناطي رحمه الله[1]: «إن وجه اختصاص كل سورة منها بما به اختصت من هذه الحروف حتى لم يكن ليرد (آلم) في موضع(آلر) ولا (حم) في موضع (طس)، ولا (نٓ) في موضع (قٓ) إلى سائرها، إن هذه الحروف لافتتاح السور بها ووقوعها مطالع لها كأنها أسماء لها، بل هي جارية مجرى الأسماء من غير فرق، وهذا إذا لم نقل بقول من جعلها أسماء سور».

وقال أيضاً[2] : «إن هذه السور إنما وُضع في أول كل سورة منها ما كثر ترداده فيما تركب من كلمها، ويوضح لك ما ذكرت أنك إذا نظرت سورة منها بما يماثلها في عدد كلمها وحروفها وجدت الحروف المفتتح بها تلك السورة إفراداً وتركيباً أكثر عدداً في كلمها منها في نظيرتها ومماثلتها في عدد كلمها وحروفها، فإن لم تجد سورة منها ما يماثلها في عدد كلمها ففي إطراد ذلك في المتماثلات مما يوجد له النظير ما يشعر بأن هذه لو وُجد مماثلها لجرى على ما ذكرت لك، وقد اطرد هذا في أكثرها فحق لكل سورة منها أن لا

---

(١) ملاك التأويل (١/ ١٧٤).

(٢) ملاك التأويل (١/ ١٧٦ – ١٧٧).

يناسبها غير الوارد فيها، فلو وقع في موضع (ق) من سورة (ق) (ن) من سورة ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾، وموضع (ن) (ق)، لم يمكن لعدم المناسبة المتأصل رعيها في كتاب الله تعالى، فإذا أخذت كل افتتاح منها معتبراً بما قدمته لك لم تجد: (كهيعص) يصح في موضع (حم عسق)، ولا العكس، ولا (حم) في موضع (طس)، ولا العكس، ولا (آلمر) في موضع (آلم)، ولا عكس ذلك، ولا (آلمر) في موضع آلمص) بجعل الصاد في موضع الراء، ولا العكس، فقد بان وجه اختصاص كل سورة بما به افتتحت، وأنه لا يناسب سورة منها ما افتتح غيرها».

وقد ظن ابن الزبير الغرناطي رحمه الله أنه لم يسبق إلى هذا التقرير، حيث قال[1] : «ما أذكره مما لم أر من تعرض له».

كذا ظن، وهذا القول مشهور ذكره، قال شيخ المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله (ت: ٣١٠هـ)[2] : «فأما الذين قالوا: (آلم) اسم من أسماء القرآن، فلقولهم ذلك وجهان: أحدهما: أن يكونوا أرادوا أن (آلم) اسم للقرآن، كما الفرقان اسم له، وإذا كان معنى قائل ذلك كذلك، كان تأويل قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ - ٢]، على معنى القسم، كأنه قال: والقرآن، هذا الكتاب لا ريب فيه.

(١) ملاك التأويل (١/ ١٧٣).

(٢) جامع البيان (١/ ٢١٣ - ٢١٤).

والآخر منهما: أن يكونوا أنه اسم من أسماء السورة تُعرف به، كما تُعرف سائر الأشياء التي هي لها أمارات تُعرف بها، فيفهم السامع من القائل يقول: قرأت اليوم (آلمص) و(نٓ)، أي السورة التي قرأها من سور القرآن، كما يَفْهم عنه إذا قال: لقيتُ اليوم عَمْراً وزيداً. وهما يزيد وعمرو عارفان من الذي لقى من الناس.

وإن أشكل معنى ذلك على امرئ، فقال: وكيف يجوز أن يكون ذلك كذلك، ونظائر (آلم) (آلر) في القرآن جماعةٌ من السور، وإنما تكون الأسماء أمارات إذا كانت مميّزة بين الأشخاص، فأما إذا كانت غير مميّزة فليست أمارات؟

قيل: إن الأسماء وإن كانت قد صارت لاشتراك كثير من الناس في الواحد منها، غير مميّزة إلا بمعان أُخَرَ معها، من ضمٍّ نسبة المُسمّى بها إليها، أو نعته أو وصفه بما يُفرِّق بينه وبين غيره من أشكالها، فإنها وضعت ابتداءً للتمييز لا شك، ثم احتيج عند الاشتراك إلى المعاني المُفرِّقة بين المسمَّى بها، فكذلك ذلك في أسماء السور، جُعل كل اسم – في قول قائل هذه المقالة – أمارةً للمسمَّى به من السور، فلما شارك المسمّى به فيه غيره من سور القرآن، احتاج المُخْبِرُ عن سورة منها أن يضم إلى اسمها المسمّى به من ذلك إلى ما يُفرِّق به السامع بين الخبر عنها وعن غيرها من نعتٍ وصفةٍ أو غير ذلك، فيقول المُخبر عن نفسه أنه تلا سورة البقرة، إذا سماها باسمها الذي هو (آلم): قرأت (آلم) البقرة. وفي آل عمران: قرأت (آلم) آل عمران».

وذهب الفراء وقطرب وأبو العباس ابن تيمية والحافظ المزي رحمهم الله جميعاً أن هذه الحروف هي التي يتركب منها كلام العرب، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، فحصل بذلك مقصود التحدي للعرب.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1] : «ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهو معلوم بالاستقراء، وهو الواقع في تسع وعشرين سورة».

ومن أجل هذا نجد أن الحروف المقطعة أكثر ورودها في السور المكية، قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله[2] : «إن الحروف المقطعة في القرآن المكي غالباً، والبقرة، وآل عمران مدنيتان، والغالب له الحكم».

وقد ذكر الشنقيطي رحمه الله مجموع الآيات التي تدل على ذلك، قال تعالى في البقرة: ﴿الٓمٓ﴾ [البقرة: ١]، وأتبع ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، وقال في آل عمران: ﴿الٓمٓ﴾ [آل عمران: ١]، وأتبع ذلك بقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/١٦١).

(٢) أضواء البيان (٢/٧).

عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران: ١ - ٣] الآيـة. وقـال فـي الأعـراف: ﴿الٓمٓصٓ﴾، ثـم قـال: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١ - ٢] الآيـة، وقـال في سورة يونس: ﴿الٓر﴾ ثم قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، وفـي هـود ﴿الٓر﴾ ثـم قـال: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، وقـال فـي يوسـف: ﴿الٓر﴾، ثـم قـال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]... وقال في سورة طه ﴿طه﴾ [طه: ١]، ثم قال: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ٢]...

وهكذا حتى انتهى بقولـه تعـالى فـي سـورة قٓ ﴿قٓ﴾ ثـم قـال: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١] الآية[١] .

ومما قيل في معنى الحروف المقطعة أنها ضـرب مـن الحسـاب، يُجعل فيه لكل حرف من الحروف الأبجديـة عـدد علـى نحـو مـا هـو معروف في حساب أبي جاد.

وهذا القول مستنده إسناد الكـذب حيـث ورد مـن روايـة الكلبـي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما[٢] .

قال البخاري قال لنا علي حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان قال: قال لي الكلبي قال لي أبو صالح كل شيء حدثتك فهو كذب[٣] .

---

(١) أضواء البيان (٦/٢ - ٧)، باختصار.

(٢) جامع البيان (١/٢٢١).

(٣) التاريخ الكبير (١/١٠١).

وقال أبو حاتم الرازي رحمه الله[1] : «الناس مجتمعون على ترك حديثه، لا يشتغل به ذاهب».

وفوق هذا فالكلبي منحرف في عقيدته، قال يزيد بن زريع: «رأيته يضرب على صدره، ويقول: أنا سبأي أنا سبأيّ!!».

وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس رضي الله عنهما، ولو صح السند فإن تفسير الحروف المقطعة بحسابي أبي جاد وقع من حيي ابن أخطب اليهودي، حيث قال هذا اليهودي لعنه الله في (آلم): الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة.

ثم قال اليهودي حيي بن أخطب: أفتدخلون في دين نبي إنما مدة ملكه وأُكُل أمته إحدى وسبعون سنة[2] .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[3] : «وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد، وأنه يُستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم! فقد ادّعى ما ليس له، وطارَ في غير مَطارِه».

فالكلام في الحروف المقطعة كثير، ولكن الأمر كما قال أبو حيان الأندلسي رحمه الله (ت: ٧٤٩هـ)[4] : «ليس يحصل منه كبير فائدة في علم التفسير، ولا يقوم على كثير من دعاويه برهان».

---

(١) الجرح والتعديل (٧/٢٧١).

(٢) تهذيب الكمال (٢٥/٢٤٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/١٦١).

(٤) البحر المحيط (١/٣٥).

صحيح كثير من تلك الأقوال ليس عليها برهان قوي تطمئن إليه النفس، لكن أقعد الأقوال وأقومها دليلاً هو قول قطرب واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهم الله.

قال العلامة تقي الدين الهلالي رحمه الله مرجحاً اختيار شيخ الإسلام[1] : «وهو رأي معقول والله أعلم».

وهو كذلك لكن يكدر عليه أنه في بعض المواضع ذُكرت الحروف المقطعة ولم يُذكر بعدها الانتصار للقرآن، الأول: في سورة الروم: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم: ١ - ٣].

وقد أجاب عن هذا الإشكال والدنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله: «إلا بعض السور القليلة لم يذكر فيها القرآن، لكن ذُكر ما كان من خصائص القرآن، فمثلاً قوله تعالى: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١]، ليس بعدها ذكر للقرآن، ولكن جاء في السورة خاصية من خصائص القرآن وهي ذكر قصص من كان قبلنا: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ٢].

كذلك في سورة الروم قال تعالى في أولها: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١ - ٢]، فهذا الموضع أيضاً ليس فيه ذكر للقرآن؛

---

(١) سبيل الرشاد (١/٥٣٣).

ولكن في السورة ذكر شيء من خصائص القرآن – وهو الإخبار عن المستقبل: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ [الروم: ٢ - ٤][1].

وكذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١ - ٢]، ليس فيها ذكر القرآن؛ ولكن فيها شيء من القصص الذي هو أحد خصائص القرآن: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣].

* * *

(١) تفسير سورة البقرة (١/ ٢٣ – ٢٤).

الفصل الثالث
الحقيقة والمجاز والتأويل



الحقيقة والمجاز والتأويل

موضوع الحقيقة والمجاز والتأويل من أدق المواضيع في علوم الشريعة عموماً، وعلوم القرآن خصوصاً، لأنه يتعلق بموضوع فهم القرآن والسُّنَّة.

فالحقيقة يُراد به لفظ القرآن ولفظ الرسول ﷺ بالمعنى الذي فهمه الصحابة رضي الله عنهم، لأنه هم بطانة النبي ﷺ وتلاميذه الذين أخذوا منه معاني النصوص، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «إن الله لما أنزل كتابه باللسان العربي، وجعل رسوله مبلّغاً عن الكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به، لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان، وصارت معرفته من الدين».

ففهم الصحابة رضي الله عنهم هو الحقيقة، والتأويلات التي هي تحريفات لمعاني نصوص القرآن والسُّنَّة والتي يُسمونها مجازاً، هي أهواء مبتدعة.

فالحقيقة التي أدركها الصحابة ولم يدركها دعاة المجاز والتأويل هي أن الصحابة حضروا التنزيل، وفهموا كلام الله

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٦٢.

ورسوله، وما خرج عليه كلامهم من الأسباب والمحامل التي لا تُدرك إلا بالحضور، مع ما خصَّهم الله به من الفهم الثاقب، كما قال الحافظ العلائي رحمه الله[1] .

فهذه الحقيقة لم يباشرها من ضاد الصحابة في فهمهم وخرج عن سبيلهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2] : «أحق الناس بالهدى الذين باشرهم النبي ﷺ بالخطاب من خواص أصحابه وعامتهم».

وقال العلامة عبدالرحمن المعلمي رحمه الله مبكتاً من تديّن بغير ظاهر الشريعة[3] : «إنه قد كان في أصحاب رسول الله ﷺ جماعة من أهل الذكاء والفطنة، وسلامة العقل يلازمون النبي ﷺ حضراً وسفراً، ويصدقونه في كل ما يقول، أفما كان ينبغي أن يبوح لهم بالحقيقة، ويأمرهم أن يبوحوا بها لمن وثقوا بذكائه وفطنته».

ومارس المبتدعة التضليل على خلق الله، وقالوا: التأويل ممدوح بدليل أن النبي ﷺ دعا لابن عباس رضي الله عنهما، وقال: «اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل»[4] .

وهذا عبث بدعي، وهو دال على أنهم محرّفون للكلم عن

---

(١) إجمال الإصابة في أقوال الصحابة ص ٦٤.

(٢) التسعينية (١/٢٠٨).

(٣) حقيقة التأويل ص ٦٣.

(٤) رواه البخاري كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما (ص٦٣١ – رقم ٣٧٥٦) .

مواضعه، يضعون كلام الله ورسوله في غير مواضعه، وينزلونه على كلامهم المخترع، فإن التأويل الذي دعا به النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما هو التفسير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «هؤلاء ظنوا أن التأويل المذكور في كلام الله تعالى هو «التأويل» المذكور في كلام المتأخرين، وغلطوا في ذلك. فإن لفظ [التأويل] يُراد به ثلاث معان:

[فالتأويل] في اصطلاح كثير من المتأخرين هو: صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن بذلك، فلا يكون معنى اللفظ الموافق لدلالة ظاهره تأويلاً على اصطلاح هؤلاء؛ وظنوا أن مراد الله تعالى بلفظ التأويل ذلك، وأن للنصوص تأويلاً يخالف مدلولها لا يعلمه إلا الله ولا يعلمه إلا المتأولون.

والمعنى الثاني: أن [التأويل] هو تفسير الكلام سواء وافق ظاهره أو لم يوافقه، وهذا هو [التأويل] في اصطلاح جمهور المفسرين وغيرهم.

والمعنى الثالث: أن [التأويل] هو الحقيقة التي يؤول الكلام إليها، وإن وافقت ظاهره، فتأويل ما أخبر الله به في الجنة من الأكل والشرب واللباس والنكاح وقيام الساعة وغير ذلك هو الحقائق الموجودة أنفسها، لا ما يتصور من معانيها في الأذهان، ويُعبر عنه

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٥ – ٣٦)، باختصار.

باللسان، وهذا هو «التأويل» في لغة القرآن، كما قال تعالى عن يوسف إنه قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وهذا التأويل هو الذي لا يعلمه إلا الله».

وقال أيضاً شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١) : «التأويل المردود: هو صرف الكلام عن ظاهره إلى ما يخالف ظاهره».

وبرهاننا واضح وبيّنتنا جليّة على اتباعنا للحق ولزومنا الحقيقة، والمبتدعة لا برهان لهم ولا نور، فتأويلاتهم تحريفات وأهواء مبتدعة.

فأهل السُّنَّة يسندون عقيدتهم إلى الصحابة، لذلك كتبهم المسندة في العقيدة غنية كثيرة، ليس لأحد من أهل البدع معشارها، من أمثلة ذلك: أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي، والحجة في بيان المحجة لأبي القاسم الأصبهاني، والإبانة لابن بطة، والشريعة للآجري، والسُّنَّة لابن أبي عاصم، والسُّنَّة لعبدالله ابن الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله، وغيرها كثير.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٩٦).

قال الأعمش رحمه الله[1] : «بيني وبين أصحاب محمد ﷺ ستر أرفعه، وأنظر إليهم».

وقال محمد بن سيرين رحمه الله[2] : «كانوا يقولون: إذا كان الرجل على الأثر فهو على الطريق».

وقال أبو المظفر السمعاني رحمه الله[3] : «والذي يزيد ما قلنا إيضاحاً أن النبي ﷺ حين سُئل عن الفرقة الناجية قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»، بمعنى: من كان على ما أنا عليه وأصحابي، فلا بد من تعرّف ما كان عليه رسول الله ﷺ، وليس طريق معرفته إلا النقل، فيجب الرجوع إلى ذلك».

وقال العلامة يحيى العمراني رحمه الله (ت: ٥٥٨هـ)[4] : «فكل مدّع للسُّنَّة يجب أن يُطالب بالنقل الصحيح بما يقوله، فإن أتى بذلك عُلم صدقه وقُبل قوله، وإن لم يتمكن من نقل ما يقوله عن السلف عُلم أنه محدث مبتدع زائغ لا يستحق أن يصغى إليه».

وادعاء المجاز في نصوص الصفات أو غيرها من النصوص وصرفها عن ظاهرها بدون دليل وبيان من الشارع ممتنع غاية

---

(١) شرف أصحاب الحديث ص ٦٩ - رقم ١٤٧.
(٢) الشريعة للآجري (١/١٣٢ - رقم ٣٢) بإسناد صحيح.
(٣) الانتصار لأصحاب الحديث ص ٤٢.
(٤) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار (١/١٠٩).

الامتناع، فإن هذا ينافي البلاغ الذي أُمر النبي ﷺ أن يبلّغه كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت: ٧٢٨هـ)[1] : «فإن القائل إذا قال: هذه النصوص أُريد بها خلاف ما يُفهم منها، أو خلاف ما دلَّت عليه، أو أنه لم يرد إثبات علو الله نفسه على خلقه، وإنما أريد بها علو المكانة ونحو ذلك، كما قد بسطنا الكلام على هذا في غير هذا الموضع. فيقال له: فكان يجب أن يبين للناس الحق الذي يجب التصديق به باطناً وظاهراً، بل ويبين لهم ما يدلهم على أن هذا الكلام لم يرد به مفهومه ومقتضاه، فإن غاية ما يقدر أنه تكلم بالمجاز المخالف للحقيقة، والباطن المخالف للظاهر. ومعلوم باتفاق العقلاء: أن المخاطب المبين إذا تكلم بمجاز فلا بد أن يقرن بخطابه ما يدل على إرادة المعنى المجازي؛ فإذا كان الرسول المبلغ المبين الذي بيَّن للناس ما نُزل إليهم يعلم أن المراد بالكلام خلاف مفهومه ومقتضاه، كان عليه أن يقرن بخطابه ما يصرف القلوب عن فهم المعنى الذي لم يرد؛ لاسيما إذا كان باطلاً لا يجوز اعتقاده في الله، فإن عليه أن ينهاهم عن أن يعتقدوا في الله ما لا يجوز اعتقاده إذا كان مخوفاً عليهم؛ ولو لم يخاطبهم بما يدل على ذلك، فكيف

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/١٦٧ – ١٦٨).

إذا كان خطابه هو الذي يدلهم على ذلك الاعتقاد الذي تقول النفاة: هو اعتقاد باطل؟».

وقال العلامة عبدالرحمن المعلمي رحمه الله[1] : «فقد تقرر في الأصول أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، والحاجة في النصوص الاعتقادية هي وقت الخطاب».

ومن يثبت المجاز صنفان: صنف يثبته في اللغة والقرآن، وصنف يثبته في اللغة دون القرآن.

ولو قُدّر وقوع المجاز في اللغة فإنه لا يلزم وقوعه في القرآن، فالبلاغيون يوردون الجد في قالب الهزل، كقول الشاعر:

إذا ما تميمي أتاك مفاخراً فقل عدِّ ذا كيف أكلك للضب

فإن قوله: كيف أكلك للضب، يظهر أنه هزل وهو يقصد به تعييرهم بأكلهم الضب، وهذا من البديع المعنوي، فهو بديع المعنى، مع أنه لا يجوز في القرآن لاستحالة الهزل فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ [الطارق: ١٣ - ١٤][2] .

وهذا المولود إذا ظهر منه التمييز سمع أبويه أو من يربيه ينطق باللفظ ويشير إلى المعنى فيفهم أن اللفظ متى أُطلق أريد به ذلك

---

(١) حقيقة التأويل ص ٥٧.

(٢) منع المجاز عن المنزل للتعبد والإعجاز، مطبوع مع أضواء البيان (٦/ ٣٩٥).

المعنى، ثم لا يزال يسمع لفظاً بعد لفظ، ويعقل معنى دون معنى على التدريج حتى يعرف لغة القوم الذين نشأ بينهم، ولا يفهم من الكلام إلا حقيقته[1] .

وهؤلاء الصحابة أفصح الخلق ومن نزل القرآن بلغتهم لم ينطق أحد منهم بالمجاز، كما لا يُعرف ذلك في اصطلاح المتقدمين من أئمة اللغة.

قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ)[2] : «وأهل اللغة لم يصرح أحد منهم بأن العرب قسّمت لغاتها إلى حقيقة ومجاز، ولا قال أحد من العرب قط: هذا اللفظ حقيقة وهذا مجاز، ولا يوجد في كلام من نقل لغتهم عنهم مشافهة ولا بواسطة ذلك، ولهذا لا يوجد في كلام الخليل وسيبويه والفراء وأبي عمرو ابن العلاء والأصمعي وأمثالهم، كما لم يوجد ذلك في كلام رجل واحد من الصحابة ولا من التابعين ولا تابعي التابعين ولا في كلام أحد من الأئمة الأربعة، وهذا الشافعي وكثرة مصنفاته ومباحثه مع محمد بن الحسن وغيره لا يوجد فيها ذكر المجاز البتة، وهذه رسالته التي هي كأصول الفقه لم ينطق فيها بالمجاز في موضع واحد، وكلام الأئمة مُدوّن بحروفه لم يحفظ عن أحد منهم تقسيم اللغة إلى حقيقة ومجاز، بل أول من

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٢/٧٩٦).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (٢/٦٩٢ – ٦٩٤)، ط. أضواء السلف.

عُرف عنه في الإسلام أنه نطق بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر ابن المثنى، فإنه صنّف في تفسير القرآن كتاباً مختصراً سمّاه: «مجاز القرآن»، وليس مراده به قسيم الحقيقة، فإنه تفسير لألفاظه بما هي موضوعة له، وإنما عنى بالمجاز ما يُعبر به عن اللفظ ويُفسّر به كما سمّى غيره كتابه «معاني القرآن»، أي ما يعني بألفاظه ويُراد بها، وكما يُسمي ابن جرير الطبري وغيره ذلك تأويلاً».

وقد وقع في كلام أحمد شيء من ذلك في الرد على الجهمية في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤]، وقال هذا من مجاز اللغة، ومراد أحمد أن هذا الاستعمال مما يجوز في اللغة، أي هو من جائز اللغة لا ممتنعها، فيجوز في اللغة أن يقول الواحد المعظم نفسه: نحن فعلنا كذا[1] ، وقد أخطأ عليه من نسبه إلى القول بالمجاز.

والذين قالوا بوقوع المجاز في القرآن استدلوا بقوله تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] ، وهذا لا مجاز فيه، فلا مانع من حمله على الحقيقة، لأن الله يعلم للجمادات ما لا نعلمه لها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقد ثبت في صحيح البخاري حنين الجذع الذي كان يخطب عليه ﷺ، وثبت في صحيح مسلم أنه ﷺ قال: «**إني أعرف حجراً كان يسلم عليّ في مكة**»، وأمثال هذا.

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٦٩٥).

والعرب تستعمل الإرادة عند الإطلاق في معناها المشهور، وتستعملها في الميل عند دلالة القرينة على ذلك، وكلا الاستعمالين حقيقة في محله، وكثيراً ما تستعمل العرب الإرادة في مشارفة الأمر، أي قرب وقوعه، كقرب الجدار من الانقضاض سمي إرادة، وكقول الراعي:

في مهمه قلقت به هاماتها   قلق الفؤوس إذا أردن نضولا

يعني بقوله: أردن تحركن مشرفات على النضول وهو السقوط[1] .

كذلك استدلوا بقوله تعالى: ﴿ وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢]، وهذا ليس بمجاز، فهو من باب حذف المضاف، وهو من أساليب اللغة، قال ابن مالك الأندلسي في ألفيته:

وما يلي المضاف يأتي خلفا   عنه في الإعراب إذا ما حذفا

فإطلاق القرية وإرادة أهلها من أساليب اللغة العربية[2] .

واستدلوا لدعواهم المجاز في القرآن بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، وهذا لا مجاز فيه، لأن العرب تطلق المثل وتريد به الذات، وهو حقيقة في محله، كقول العرب: مثلك لا يفعل

---

(١) منع المجاز عن المنزل للتعبدو الإعجاز، مطبوع مع أضواء البيان (٦/٤٠٢ - ٤٠٣).

(٢) منع المجاز عن المنزل للتعبد والإعجاز (٦/٤٠٣).

هذا، يعنون: لا ينبغي لك أن تفعل هذا، وفي القرآن قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ [الأحقاف: ١٠]، أي شهد على القرآن أنه حق. وقال تعالى أيضاً: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، يعني كمن هو في الظلمات. وكذلك قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٣٧][1].

ومما أدلى به القائلون بوقوع المجاز في القرآن قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]، وهذا ليس بمجاز، فالجناح هنا مستعمل في حقيقته، لأن الجناح يطلق لغة حقيقة على يد الإنسان وعضده وإبطه، قال تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢]، والخفض مستعمل في معناه الحقيقي الذي هو ضد الرفع، لأن مريد البطش يرفع جناحيه ومظهر الذل والتواضع يخفض جناحيه، وإضافة الجناح إلى الذل كالإضافة في قولك: حاتم الجود، فيكون المعنى: واخفض لهما الجناح الذل من الرحمة[2].

ومن أوضح البراهين على أن أهل البدع مبطلون في دعوى المجاز، وأنهم يتوصلون بدعواهم المبطلة تلك لمقاصد فاسدة

---

(١) منع المجاز عن المنزل للتعبد والإعجاز (٦/٤٠٣).
(٢) منع المجاز عن المنزل للتعبد والإعجاز (٦/٤٠٤)، باختصار.

وتعطيل الأدلة عن دلالتها الحقيقية، هو أنهم إذا ذكروا الكنايات لا يذكرون لازم معناها.

مثال ذلك: المحرّفة يقولون: المراد باليد النعمة والقدرة، كما تقول العرب: إن لك يداً عند فلان، يعني نعمة، فالجواب أن يد القدرة والنعمة لا يعرف استعمالها البتة إلا في حق من له يد حقيقية[1] ، وهم لا يثبتون اليد.

وهؤلاء المبطلون متناقضون ليس لهم قانون واضح في الحقيقة والمجاز، فتجدهم يقولون يد الله مجاز عن القدرة والنعمة والقوة، ولا يقولون مثل ذلك في سمع الله وبصره!!!

وهم مختلفون في ذلك أشد الاختلاف بحسب ما يتوهمون من تشبيه صفات الخالق بالمخلوق.

قال العلامة الحافظ محمد بن علي الكرجي رحمه الله[2] : «وليت شعري حيث ذهبوا باليد إلى القوة والنعمة فراراً من التشبيه بالمخلوقين هل يسلموا مما فروا منه؟ أو للمخلوقين قوة ونعمة، فإذا هم لم يخلصوا على أكثر من أن أجازوا تشبيهاً وردوا غيره، وكلاهما الجائز عندهم والمردود من صفات الخلق، وهذه غفلة متجاوزة أو عناد قبيح».

---

(١) مختصرا لصواعق المرسلة (٩٥٨/٣ – ٩٥٩).

(٢) نكت القرآن الدالة على البيان (٤١٩ – ٤٢٢).

إلى أن قال: «ما الذي جعل الوفاق الواقع من ولد آدم له من صفاته هو المنكر؟ والوفاق في كل هذه الأشياء محتملاً جائزاً عندهم؟ هل في ذلك إلا مضاهاة القرآن بالرد؛ إذ قد نطق بالسمع والبصر واليد والحب والغضب والمكر والسخط وأشباه ذلك.

وهلا نفوا الكيد والقوة وأشباهها عنه؟ إذ لولد آدم أيضاً كيد وقوة، وقد نطق القرآن بهما؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ﴾ [فصلت: ١٥]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥ - ١٦]، وقال في النساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]، وفي الشيطان: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، مع ما يطول الكتاب من مثل هذا.

فما بال بعض هذه الأشياء يكون تشبيهاً وبعضها غير تشبيه؟

وفاق بالاسم وليس المفرق بينهما أكثر من أن ما فيه جل وعز غير مخلوق، وما في الآدميين وسائر الخلق مخلوق».

والذي يقول للناس إن ألفاظ القرآن لا يُراد بها المعنى الظاهر، نقول له هذا داعية الفوضى، لأنه يؤدي إلى فساد الشريعة، حيث كلُّ واحد يقول إن بيان الشارع غير معلوم من لفظه، وأنا أبيّن ما لم يقله الله ورسوله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «والمتأول عليه وظيفتان: بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي ادّعاه، وبيان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنى الظاهر».

وقال ابن القيم رحمه الله[2] : «إن مدعي المجاز المعين يلزمه أمور:

أحدها: إقامة الدليل الصارف عن الحقيقة، إذ مدعيها معه الأصل والظاهر، ومخالفها مخالف لهما جميعاً.

وثانيها: بيان احتمال اللفظ لما ذكره من المجاز لغة، وإلا كان منشأ من عنده وضعاً جديداً.

وثالثها: احتمال ذلك المعنى في هذا السياق المعين، فليس كل ما احتمله اللفظ من حيث الجملة يحتمله هذا السياق الخاص.

ورابعها: بيان القرائن الدالة على المجاز الذي عيّنه بأنه المراد، إذ يستحيل أن يكون هذا هو المراد من غير قرينة في اللفظ تدل عليه البتة، وإذا طولبوا بهذه الأمور الأربعة يتبين عجزهم».

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٨٨).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (٣/٩٤٦ - ٩٤٧).

فدعاة المجاز والتأويل لا دليل معهم على ما صرفوا معاني الكتاب والسنة إلى غير ظاهرها، بل الأدلة شاهدة بفساد وإبطال تأويلاتهم كما أشرنا في بعض النصوص، قال الموفق أبو محمد ابن قدامة المقدسي رحمه الله (ت: ٦٢٠هـ)[١] : «إن تأويل هذه الصفات لا يخلو إما أن يكون علمه النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون وعلماء أصحابه أو لم يعلموه؟ فإن لم يعلموه فكيف يجوز أن يعلمه غيرهم، وهل يجوز أن يكون قد خبأ عنهم علماً وخبأ للمتكلمين لفضل عندهم؟!!

وإن كانوا قد علموه ووسعهم السكوت عنه وسعنا ما وسعهم، ولا وسَّع الله على من لم يسعه ما وسعهم، ولأن هذا التأويل لا يخلوا من أن يكون داخلاً في عقد الدين بحيث لا يكمل إلا به، أوليس بداخل؟

فمن ادّعى أنه داخل في عقد الدين لا يكمل إلا به، فيقال له: هل كان الله تعالى صادقاً في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] قبل التأويل؟ أو أنت الصادق في أنه كان ناقصاً حتى أكملته أنت؟

ولأنه إن كان داخلاً في عقد الدين ولم يقله النبي ﷺ ولا

(١) ذم التأويل ص ٤١.

أصحابه وجب أن يكونوا قد أخلوا ودينهم ناقص، ودين هذا المتأول كامل، ولا يقول هذا مسلم، ولأنه إن كان داخلاً في عقد الدين ولم يبلغه النبي ﷺ أمته فقد خانهم وكتم عنهم دينهم ولم يقبل أمر ربه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، ويكون النبي ﷺ ومن شهد له بالبلاغ غير صادق، وهذا كفر بالله تعالى ورسوله».

ومن له معرفة بمقالات الفرق، يعلم أنهم طبقات في التأويل المبتدع ليسوا سواءًا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١) : «إن التأويل الذي يدعيه هؤلاء ليس هو معنى القرآن، فإنهم حرَّفوا الكلم عن مواضعه، وصاروا مراتب: ما بين قرامطة وباطنية يتأولون الأخبار والأوامر، وما بين صابئة فلاسفة يتأولون عامة الأخبار عن الله وعن اليوم الآخر، حتى عن أكثر أحوال الأنبياء، وما بين جهمية ومعتزلة يتأولون بعض ما جاء في اليوم الآخر، وآخرون من أصناف الأمة، وإن كان تغلب عليهم السنة، فقد يتأولون أيضاً مواضع يكون تأويلهم من تحريف الكلم عن مواضعه».

وبعض أهل البدع يمارس تزييفاً وتدليساً قبيحاً، فيزعم أن تحريفاتهم هو من بلاغة القرآن، وهذا والله من أعظم الفرى، فبلاغة القرآن هو حلاوة لفظه المنزل، ومعناه هو مقتضى اللفظ، وهو بيان.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٨٧).

أما تـأويلات المبتـدعين فهـي تـحريـف للقـرآن، ولفـظ القـرآن والسنة يضاد تحريفاتهم، فبين مقتضى اللفظ وتحريف المبتدعين تضاد وتنافر.

فاللماس مثلاً في لغة القرآن كنى الله به عن الجماع، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن اللمس والمس والمباشرة الجماع، ولكن الله يُكني ما شاء بما شاء»[1].

وأما تفسير الاستواء بالاستيلاء، فهذا تحريف للقرآن، واللفظ لا يقتضيه أبداً، فقد سئل ابن الأعرابي: هل يصح أن يكون استوى بمعنى استولى؟ فقال: لا تعرف العرب ذلك.

والاستيلاء يتحقق معناه عند المنع من الشيء، فإذا وقع الظفر به قيل استولى عليه، فأي منع كان هناك حتى يوصف الله بالاستيلاء عليه[2]؟

ناهيك أن أبا الحسن الأشعري نفسه رحمه الله حكى إجماع أهل السنة على بطلان تفسير الاستواء بالاستيلاء.

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله[3]: «أما حمل اللفظ على غير ظاهره لا لدليل، فهذا لا يُسمى تأويلاً في الاصطلاح،

---

(١) رواه ابن المنذر في تفسيره (٢/٧٢٦ - رقم ١٨١٩).

(٢) انظر مختصر الصواعق المرسلة (ص ٣٥٣ - ٣٦٠، للوقوف على وجوه إبطال هذا التحريف.

(٣) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ص ٣٤ - ٣٥.

بل يُسمى لعباً، لأنه تلاعب بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ومن هذا تفسير غلاة الروافض قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗ﴾ [البقرة: ٦٧]، قالوا: عائشة رضي الله عنها.

ومن هذا النوع صرف آيات الصفات عن ظواهرها إلى محتملات ما أنزل الله بها من سلطان، كقولهم: «استوى» بمعنى «استولى»، فهذا لا يدخل في اسم التأويل، لأنه لا دليل عليه البتة، وإنما يُسمى في اصطلاح أهل الأصول: لعباً، لأنه تلاعب بكتاب الله جل وعلا من غير دليل ولا مستند».

فنصوص صفات الله حقيقة وليست مجازاً بإجماع السابقين، قال الأوزاعي رحمه الله[1] : «إذا بلغك عن رسول الله ﷺ حديث فلا تظنن غيره، فإن محمداً ﷺ كان مبلغاً عن ربه».

وقال سفيان بن عيينة رحمه الله[2] : «كل شيء وصف الله به نفسه في القرآن فقراءته تفسيره، لا كيف، ولا مثل».

وقال الحافظ أبو أحمد محمد بن علي الكرجي رحمه الله[3] : «كل صفة وصف الله بها نفسه، أو وصف بها نبيه ﷺ فهي صفة حقيقة لا مجازاً».

---

(١) أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/٤٧٨ – رقم ٧٣٤).
(٢) أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/٤٧٨ – رقم ٧٣٦).
(٣) السنة بواسطة تذكرة الحفاظ (٣/٩٣٩).

وقال قوام السنة أبو القاسم الأصبهاني رحمه الله[1]: «**فمذهب** السلف رحمة الله عليهم أجمعين إثباتها وإجراؤها على ظاهرها، ونفي الكيفية عنها، **فهذا إجماع معلوم متيقن عند جميع أهل السنة والحديث**».

وقال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله[2] : «**أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز**، إلا أنهم لا يكيفون شيئاً من ذلك، ولا يحدون فيه صفة محصورة، وأما أهل البدع والجهمية والمعتزلة كلها والخوارج، فكلهم ينكرها، ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة، ويزعمون أن من أقر بها مشبه، وهم عند من أثبتها نافون للمعبود».

والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله وسُنَّة رسوله، وهم أئمة الجماعة، فكلمة السلف قاطبة في أسماء الله وصفاته كما قال سفيان الثوري وأنس بن مالك والأوزاعي والليث بن سعد رحمهم الله جميعاً[3] : «أمروها كما جاءت»، وهذا يقتضي إبقاء دلالتها على ما هي عليه، فإنها جاءت ألفاظ دالةً على معاني.

---

(١) الحجة في بيان المحجة (١/ ١٧٤).

(٢) التمهيد (٧/ ١٤٥).

(٣) السنة للخلال (١/ ٢٥٩ – رقم ٣١٣)، الشريعة (٢/ ١٠٤ – رقم ٧٦٥)، الصفات للدارقطني ص ١٢٣ – رقم ٦٩، أصول اعتقاد أهل السنة (٣/ ٥٨٢ – رقم ٩٣٠)، وذم التأويل ص ٢٠ – رقم ٢٤).

الفصل الرابع
الناسخ والمنسوخ



الناسخ والمنسوخ

النسخ: لغة يُطلق على الإزالة فيُقال نسخت الشمس الظل، ويُطلق النسخ على النقل، فيُقال نسخت ما في الكتاب، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

والنسخ في اصطلاح السلف: يُطلق على تخصيص العام، وتقييد المطلق، والاستثناء[١].

وقال أبو الحسن السخاوي رحمه الله (ت: ٦٤١هـ) عن معنى النسخ في اصطلاح الصحابة[٢]: «كانوا يسمون ما يُغيّر الأحوال نسخاً».

وفي اصطلاح المتأخرين يُطلق على: رفع حكم شرعي بمثله متراخ عنه[٣].

وتضمن هذا التعريف شروط النسخ، وهي:

١ - تعذر الجمع بين النصين المتعارضين.

٢ - معرفة التاريخ والمتأخر.

---

(١) الاستقامة (١/٢٣)، وإعلام الموقعين (٢/٢٩٧)، والموافقات (٣/١٠٨).

(٢) جمال القراء وكمال الإقراء (١/٣٠٨).

(٣) شرح الطوفي على مختصر الروضة (٢/٢٥١)، والتحبير شرح التحرير (٦/٢٩٧١)، ورفع النقاب عن تنقيح الشهاب (٤/٤٣٩)، وإحكام الفصول في أحكام الأصول ص ٣٨٩، وتيسير الوصول إلى منهاج الأصول (٤/١٢٣)، وإرشاد الفحول ص ١٦١.

قال صاحب مراقي السعود:

والجمع واجب متى ما أمكنا   إلا فللأخير نسخ بُيِّنَا[(١)]

فالجمع بين النصوص واجب لأن فيه إعمالاً لكل الأدلة، وهذا هو الواجب، والنسخ إهمال لأحد الدليلين، ولا يُصار إليه إلا إذا تعذر الجمع.

قال ابن المنذر رحمه الله[(٢)]: «إذا أمكن لنا أن تكون الأخبار مختلفة، وأمكن استعمالها فاستعمالها أولى بنا أن نجعلها متضادة».

والنسخ يقع إلى أثقل، أو مساوٍ، أو أخف: والنسخ بأثقل قال به جمهور العلماء وخالف بعض الشافعية في ذلك[(٣)]، ومثاله: نسخ وجوب صيام عاشوراء بصوم رمضان، ونسخ التخيير بين صيام رمضان أو الإطعام إلى وجوب الصيام.

ومثال النسخ إلى مساو: نسخ استقبال بيت المقدس بوجوب استقبال الكعبة[(٤)].

ومثال النسخ إلى الأخف: التخفيف من وجوب مصابرة العدو من عشرة أضعاف إلى الضعف، قال تعالى: ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ

---

(١) مراقي السعود ص ٤١١، طبعة مكتبة ابن تيمية - الطبعة الأولى.

(٢) الأوسط (٢/ ٢٧١).

(٣) أصول الفقه لابن مفلح (٣/ ٦٧٢).

(٤) التحبير شرح التحرير (٦/ ٣٠٢١).

وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ ﴾ [الأنفال: ٦٦] (١).

والنسخ يقع في التلاوة والحكم جميعاً كما في قول عائشة رضي الله عنها: كان فيما أنزل الله تعالى: «عشر رضعات يحرمن»(٢)، ثم نُسخن بخمس(٣).

ويقع في الحكم دون التلاوة كما في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ [البقرة: ٢٤٠]، فهذه الآية بقي رسمها ونُسخ حكم عدة المتوفاة إلى أربعة أشهر وعشراً، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة: ٢٣٤](٤)، ويقع النسخ على التلاوة مع بقاء الحكم كما في نسخ رسم آية الرجم مع بقاء حكمها، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «كان فيما أُنزل آية الرجم فقرأناها وعقلناها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده»(٥).

---

(١) التحبير شرح التحرير (٦/٣٠٢١).

(٢) رواه مسلم كتاب النكاح، باب التحريم بخمس رضعات، (ص ٦١٧ - رقم ٣٥٩٧)، ط. دار السلام.

(٣) رفع النقاب عن تنقيح الشهاب (٤/٤٩٣)، وتيسير الوصول شرح منهاج الأصول (٤/١٦٧).

(٤) إحكام الفصول في أحكام الأصول ص ٤٠٤.

(٥) رواه البخاري (ص ١١٧٦ - رقم ٦٨٢٩)، ورواه مسلم (ص ٧٤٩ - رقم ٤٤١٨). ط. دار السلام.

والنسخ أنواع:

١ - **نسخ القرآن بالقرآن**: وهذا لا خلاف فيه[1]، لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ [النحل: ١٠١].

٢ - **نسخ القرآن بالسنة**: منعه بعض أهل العلم محتجين بقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ﴾ [البقرة: ١٠٦] ، قالوا: والسُّنَّة ليست بخير من القرآن[2].

وأجيب بأن السُّنَّة وحي من الله كالقرآن، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣] ، وأن السُّنَّة تُبين القرآن بنص القرآن كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]، والنسخ حقيقته بيان من الله[3].

ونسخ القرآن بالسُّنَّة جائز عقلاً، وهذا هو فهم الصحابة رضي الله عنهم، قال عمران بن حصين رضي الله عنه: «نزلت آية المتعة في كتاب الله تعالى ففعلناها مع رسول الله ﷺ، ولم ينزل قرآن يُحرمها، ولم ينه عنها حتى مات»[4] .

---

(١) إرشاد الفحول ص ١٦٧.

(٢) اللمع في أصول الفقه ص ١٢٩، إرشاد الفحول ص ١٦٨.

(٣) رفع النقاب عن تنقيح الشهاب (٤/٥١٦).

(٤) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب (فمن تمتع بالعمرة إلى الحج)، (ص ٧٦٧ - رقم ٤٥١٨)، ومسلم، كتاب الحج، باب جواز التمتع، (ص ٥٢١ - رقم ٢٩٨٠).

فآية المتعة هي قوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]

قال ابن الملقن رحمه الله[1]: «في الحديث إشارة إلى جواز نسخ القرآن بالسُّنَّة، إذ لو لم يكن كذلك لما كان لقوله: «ولم ينه عنها» فائدة».

ونسخ القرآن بمتواتر السُّنَّة أو آحادها، لا أعرف له مثالاً صحيحاً.

٣ - **نسخ السُّنَّة بالقرآن**: جائز وواقع شرعاً، فاستقبال بيت المقدس كان ثابتاً بالسُّنَّة المتواترة، ثم نُسخت بقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] ، وقيل هذا من بيان المجمل في قوله تعالى: ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢] [2].

وذكر العلماء له مثالاً آخر وهو تحريم الأكل والمباشرة بعد النوم في ليالي رمضان، ثبت بالسُّنَّة، ونُسخ بقوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧] [3].

---

(١) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٦/٢٦٧).

(٢) رفع النقاب عن تنقيح الشهاب (٤/٥١٠).

(٣) شرح مختصر الروضة (٢/٣١٦).

٤ - **نسخ السُّنَّة بالسُّنَّة:** أما نسخ آحاد السُّنَّة بمثلها فلا خلاف في جوازه[١]، وأما نسخ المتواتر بالآحاد فقد أثبته بعض أهل العلم وهو رواية عن أحمد[٢]، وذكروا مثاله قصة أهل قباء حيث استداروا لما أخبرهم رجل واحد بأن القبلة حُولت، واستقبال بيت المقدس كان قد ثبت بالسُّنَّة المتواترة، وأجيب بأن الرجل قال: إن رسول الله ﷺ أُنزل عليه قرآن البارحة[٣]، فالناسخ قرآن، والصحابي مبلغ للقرآن.

* * *

---

(١) إحكام الفصول في أحكام الأصول ص ٤٢٦، والبحر المحيط (٤/١٠٨).

(٢) البحر المحيط (٤/١٠٩)، وانظر رفع النقاب عن تنقيح الشهاب (٤/٥٠٥).

(٣) رواه البخاري كتاب الصلاة باب التوجه نحو القبلة حيث كان (ص ٧٠ - رقم ٣٩٩). ط. دار السلام.

فوائد وحكم النسخ

تكلم العلماء في حكم وفوائد النسخ، ومعرفته تزيد من فرح المؤمن بالصفة التي جاء بها كتاب ربنا، والتدرج الذي جرت به أحكام الله، خلافاً لليهود وبعض غلاة المبتدعة الذين أنكروه بدعوى البداء.

قال مجد الدين الفيروزآبادي رحمه الله (ت: ٨١٧هـ)[١] : «وأَمَّا الحكمة في النسخ فذكروا فيها وجوهاً:

أولها وأجلُّها: إظهار الربوبية، فإن النسخ يتحقق أن التصرُّف في الأعيان إنما هو له تعالى: يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

الثاني: بيان لكمال العبودية، كأنه منتظر لإشارة السيِّد، كيفما وردت وبأي وجه صدرت، وإنما يظهر طاعةُ العبيد بكمال الخضوع، والانقياد.

والثالث: امتحان الحرية، ليمتاز مَنْ المتمرِّد من المنقاد، وأهل الطَّاعة من أهل العناد، فالدار دار الامتحان، والذهب يُجَرَّب بالذوبان، والعبد الصالح بالابتلاء والهوان.

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (١/ ١٢٢).

الرابع: إظهار آثار كلفة الطاعة على قدر الطاقة، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

الخامس: التيسير، ورفع المشقة عن العباد، برعاية المصالح، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

السادس: نقل الضعفاء من درجة العسر إلى درجة اليسر ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ».

ومن فوائد وحكم النسخ مضاعفة ثواب وأجور العباد، وهذا واضح في النسخ من الأخف إلى الأثقل، وكذلك في نسخ الحكم وبقاء التلاوة، فبقاء الآية المنسوخة تتلى زيادة في الأجور، وطمأنينة في الإيمان، وانشراح صدر للأحكام. ومن حكم النسخ هو بلوغ وبيان كمال التشريع، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[١] : «إن الشرع يتطور حتى يبلغ الكمال، ولهذا لم تجب الصلاة إلا قبل الهجرة بنحو سنة أو ثلاث سنين أو خمس، المهم أنها ما وجبت من الأصل، وأول ما فرضت كانت ركعتين، ولما هاجر النبي ﷺ زيد في صلاة الحضر.

والزكاة وجبت في السنة الثانية، وقيل وجبت في مكة، ولكن في السنة الثانية بيّنت الأنواع والمقادير التي فيها الزكاة... إلخ،

---

(١) شرح الأصول من علم الأصول ص ٤٥٢ – ٤٥٤.

والصوم في السنة الثانية، والحج في السنة التاسعة، كل هذا من أجل أن يتطور التشريع حتى يبلغ الكمال.

والخمر – وهو من أبرز الأمثلة وأوضحها – له أربع مراحل:

مرحلة الإباحة، ومرحلة التعريض، ومرحلة التوقيت، ومرحلة التأبيد.

- **مرحلة الإباحة**: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ [النحل: ٦٧]، النخيل والأعناب التي يكون منها الخمر أباحها الله ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧].
- **مرحلة التعريض**: ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، هذه الآية بمجرد ما يقرؤها العاقل يقول: إن إثمهما أكبر من نفعهما، فيتركهما، لكنه يرى نفسه في حل لو فعلهما.
- **مرحلة التوقيت**، فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]، يستلزم النهي عن قربان الصلاة حال السكر، فلا يسكر الإنسان حين أوقات الصلاة، لأنه لو سكر لوقع فيما نهى الله عنه، إذن: هذا يخفف من شربها.
- **التأبيد**: بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]. فتدرج

في حكمها، لأن الناس لو صدموا من أول الأمر على أن يدعوا شرب الخمر الذي ألفوه، واشتهته أنفسهم؛ لصعب عليهم ذلك، وربما كان من بعضهم عدم امتثال».

ويدل لما ذكره شيخنا العثيمين رحمه الله ما قالته م المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «إنما نزل أول ما نزل من القرآن سورةٌ من المفصَّل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً»[1] .

فإن قلت: قد استقرت أحكام الشريعة، فكيف نستفيد من ذلك الآن؟

فالجواب أن للعلماء تطبيقات دقيقة في أمر توبة المضيّع للدين شيئاً فشيئاً، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2] : «إذا حصل من يقوم بالدين من العلماء أو الأمراء أو مجموعهما كان بيانه لما جاء به الرسول شيئاً فشيئاً بمنزلة بيان الرسول لما بعث به شيئاً فشيئاً، ومعلوم أن الرسول لا يبلّغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، ولم تأت الشريعة جملة، كما يقال: إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع.

فكذلك المجدد لدينه والمحيي لسنته، لا يبلغ إلا ما أمكن علمه

---

(١) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب تأليف القرآن (ص - رقم ٤٩٩٣).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/٥٩ – ٦٠).

والعمل به، كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يلقن جميع شرائعه، ويؤمر بها كلها.

وكذلك التائب من الذنوب، والمتعلم، والمسترشد، لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين ويُذكر له جميع العلم، فإنه لا يطيق ذلك».

* * *

النسخ لا يستلزم البداء

النسخ واقع شرعاً، وجائز عقلاً، ولا ينافي علم الله، وكيف يرد على الذهن شيء من ذلك والناسخ هو الله الذي أحاط بكل شيء علماً؟!

فالله عزَّ وجل لم يظهر له ما كان خافياً عليه، حاشا العليم الخبير، بل الله أمر بالأمر وهو عالم أنه يرفعه في وقت النسخ[1]. والعقل يقتضي ثبوت النسخ، فالله يعلم ما يكون مصلحةً لعباده في وقت دون وقت، ويريد أيضاً تحقيق مصلحة عباده عندما يأمرهم بأمر مطلق حتى يستعدوا له فيثابوا، ويمتنعوا، بسبب العزم عليه من معاص وشهوات ثم يخففه[2].

والإجماع منعقد على ثبوت النسخ، قال الموفق أبو محمد ابن قدامة المقدسي رحمه الله (ت: ٦٢٠هـ)[3]: «فقد أجمعت الأمة على أن شريعة محمد ﷺ قد نسخت ما خالفها من شرائع الأنبياء قبله».

وأنكرت اليهود النسخ، وأخذوا يستهزئون بالنبي ﷺ وأصحابه

(١) التبصرة في أصول الفقه ص ٢٥٣.
(٢) روضة الناظر ص ٦٩.
(٣) روضة الناظر ص ٦٩.

في استقبالهم الكعبة بعد أن كانوا يستقبلون بيت المقدس، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «وإن ذكروا حجة عقلية فهمت أيضاً مما في القرآن بردها إليه: مثل إنكارهم للنسخ بالعقل، حتى قالوا: لا ينسخ ما حرمه، ولا ينهى عما أمر به، فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ ﴾ ، قال البراء ابن عازب رضي الله عنه كما في الصحيحين: «هم اليهود»، فقال سبحانه: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢].

فذكر ما في النسخ من تعليق الأمر بالمشيئة الإلهية، ومن كون الأمر الثاني قد يكون أصلح وأنفع، فقوله: ﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢]، بيان للأصلح الأنفع، وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ رد للأمر إلى المشيئة.

وعلى بعض ما في الآية اعتماد جميع المتكلمين حيث قالوا: التكليف إما تابع لمحض المشيئة، كما يقوله قوم، أو تابع للمصلحة، كما يقوله قوم، وعلى التقديرين فهو جائز.

ثم إنه سبحانه بيّن وقوع النسخ بتحريم الحلال في التوراة، بأنه أحل لإسرائيل أشياء ثم حرّمها في التوراة، وأن هذا كان تحليلاً شرعياً بخطاب، لم يكونوا استباحوه بمجرد البقاء على الأصل،

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ١١٢ - ١١٣).

حتى لا يكون رفعه نسخاً، كما يدّعيه قوم منهم، وأمر بطلب التوراة في ذلك، وهكذا وجدناه فيها، كما حدثنا بذلك مسلمة أهل الكتاب في غير موضع».

وقد تكلم العلامة أبو جعفر النحاس رحمه الله (ت: ٣٣٨هـ) في الفرق بين النسخ والبداء، وجلّى ذلك بأتم بيان، فقال رحمه الله[1]: «الفرق بين النسخ والبداء: أن النسخ تحويل العباد من شيء قد كان حلالاً فيحرم، أو كان حراماً فيحلل، أو كان مطلقاً فيحظر، أو كان محظوراً فيطلق، أو كان مباحاً فيمنع، أو ممنوعاً فيباح، إرادة الصلاح للعباد.

وقد علم الله – جل وعز – العاقبة في ذلك، وعلم وقت الأمر به أنه سينسخه إلى ذلك وقت، فكان المطلق على الحقيقة غير المحظور. فالصلاة كانت إلى بيت المقدس إلى وقت بعينه، ثم حظرت فصيرت إلى الكعبة، وكذا قوله جل وعز: ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: ١٢]، قد علم الله جلَّ وعز أنه إلى وقت بعينه، ثم نسخه في ذلك الوقت، وكذا تحريم السبت كان في وقت بعينه على قوم، ثم نُسخ وأُمر قوم آخرون بإباحة العمل فيه، وكان الأول المنسوخ حكمة وصواباً، ثم نُسخ وأزيل بحكمة وصواب، كما تزال الحياة بالموت، وكما تُنقل الأشياء، فلذلك لم يقع النسخ في الأخبار، لما فيها من الصدق والكذب.

(١) الناسخ والمنسوخ (١/٤٤١ – ٤٤٣).

وأما البداء: فهو ترك ما عزم عليه، كقولك: امضِ إلى فلان اليوم، ثم تقول: لا تمض إليه، فيبدو لك عن القول الأول، وهذا يلحق البشر لنقصانهم.

وكذا إن قلت: ازرع كذا في هذه السنة، ثم قلت: لا تفعل، فهذا البداء. فإن قلت: يا فلان ازرع، فقد علم أنك تريد مرة واحدة، وكذا النسخ إذا أمر الله جل وعز بشيء في وقت نبي، أو في وقت يتوقع فيه نبي، فقد علم أنه حكمة وصواب إلى أن ينسخ.

وقد نقل من الجماعة، من لا يجوز عليهم الغلط نسخ شرائع الأنبياء من لدن آدم ﷺ إلى وقت نبينا ﷺ، وهم الذين نقلوا علامات الأنبياء.

وقد غلط جماعة في الفرق بين النسخ والبداء، كما غلطوا في تأويل أحاديث حملوها على النسخ، أو على غير معناها».

* * *

النسخ لا يقال بالظن

يجب على طالب العلم أن يتثبت كثيراً قبل أن يقضي بنسخ النصوص، فإذا وجد في كتاب ما حكى مؤلفه النسخ للنص القرآني فلا يبادر إلى قبول ذلك قبل أن يتحقق من صحة دعوى النسخ، وليقابل الأقوال كلها في المسألة، ثم بعد ذلك يقضي بما يقتضيه الراجح.

ولعلَّ أشهر الأمثلة على ذلك آية السيف حيث تجد كثيراً من الكتب تحكي نسخها لجملة كثيرة من النصوص، وإذا حققت الأمر تبين لك مجازفة إطلاق نسخها لكثير من النصوص.

قال علم الدين أبو الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله (ت: ٦٤٣هـ)[١] : «فقد جعلوا آية السيف ناسخة لمائة وأربع وعشرين آية، وليس ذلك يقين منهم، وإنما يظنون إذا سمعوا أمر الله سبحانه وتعالى لنبيه وللمؤمنين بالصبر وترك الاستعجال ظنوا أن ذلك منسوخ بآية القتال، وإنما يكون منسوخاً بآية القتال النهي عن القتال. وإنما كان النبي ﷺ يشكو إلى الله عز وجل ما يلاقيه من أذى المشركين فيأمره بالصبر، ويعده بالنصر، ويقصّ عليه أنباء

(١) جمال القراء وكمال الإقراء (١/٣٠٨).

الرسل وما صبروا عليه من الأذى في ذات الله عز وجل: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، ولم ينسخ بآية السيف شيء من ذلك، ولا يحل أن يقال بالظن: هذا ناسخ لكذا، ولا هذا منسوخ بكذا.

ولو كان هذا الناسخ والمنسوخ مقطوعاً به لم يقع فيه اختلاف، كيف وهذا يقول في الآية منسوخة، ويقول الآخر بل هي محكمة.

ثم إن رسول الله ﷺ لم يكن قادراً على القتال فكيف يُنهى عنه، وكيف نقول للعاجز عن القيام: لا تقم، وإنما هذا كالفقير يؤمر بالصبر على الفقر، فإذا استغنى وجبت عليه الزكاة، فوجوب الزكاة لم يعارض الصبر فيكون ناسخاً له، والنسخ إنما هو رفع حكم الخطاب الثابت بخطاب آت بعده لولاه لكان ثابتاً، وهذا واضح.

فإن قيل: فما تصنع فيما يروى عن السلف رضي الله عنهم كابن عباس رضي الله عنهما وغيره، فقد أطلقوا على ذلك النسخ؟ قلت: لم يريدوا بالنسخ ما حددناه به، إنما كانوا يسمّون ما يغيّر الأحوال نسخاً».

ومن ذلك أيضاً دعوى نسخ العقوبات المالية، وهذا غير صحيح، فإن النبي ﷺ أمر بكسر القدور التي طُبخت فيها لحوم الحمر الأهلية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «ومثل

---

(١) مجموع الفتاوى (/١١٠ – ١١٢).

هدمه لمسجد الضرار، ومثل تحريق موسى للعجل المتخذ إلهاً، ومثل تضعيفه ﷺ الغرم على من سرق من غير حرز، ومثل ما روي من إحراق متاع الغال، ومن حرمان القاتل سلبه لما اعتدى على الأمير.

ومثل أمر عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما بتحريق المكان الذي يباع فيه الخمر، ومثل أخذ شطر مال مانع الزكاة. ومثل تحريق عثمان بن عفان رضي الله عنه المصاحف المخالفة للإمام؛ وتحريق عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكتب الأوائل، وأمره بتحريق قصر سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الذي بناه لما أراد أن يحتجب عن الناس؛ فأرسل محمد بن مسلمة وأمره أن يحرقه عليه، فذهب فحرقه عليه.

وهذه القضايا كلها صحيحة معروفة عند أهل العلم بذلك، ونظائرها متعددة. ومن قال: إن العقوبات المالية منسوخة، **وأطلق ذلك عن أصحاب مالك وأحمد فقد غلط على مذهبهما**. ومن قاله مطلقاً من أي مذهب كان: فقد قال قولاً بلا دليل، ولم يجئ عن النبي ﷺ شيء قط يقتضي أنه حرّم جميع العقوبات المالية؛ بل أخذ الخلفاء الراشدين وأكابر الصحابة بذلك بعد موته دليل على أن ذلك محكم غير منسوخ. وعامة هذه الصور منصوصة عن أحمد ومالك وأصحابه، وبعضها قول عند الشافعي باعتبار ما بلغه من الحديث.

ومذهب مالك وأحمد وغيرهما: أن العقوبات المالية كالبدنية: تنقسم إلى ما يوافق الشرع؛ وإلى ما يخالفه، وليست العقوبة المالية منسوخة عندهما، **والمدّعون للنسخ ليس معهم حجة بالنسخ**؛ لا من كتاب ولا سُنَّة. وهذا شأن كثير ممن يخالف النصوص الصحيحة والسنة الثابتة بلا حجة؛ إلا مجرد دعوى النسخ؛ وإذا طولب بالناسخ لم يكن معه حجة لبعض النصوص توهمه ترك العمل؛ إلا أن مذهب طائفته ترك العمل بها إجماع، والإجماع دليل على النسخ، ولا ريب أنه إذا ثبت الإجماع كان ذلك دليلاً على أنه منسوخ، فإن الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولكن لا يعرف إجماع على ترك نص إلا وقد عُرف النص الناسخ له؛ ولهذا كان أكثر من يدّعي نسخ النصوص بما يدعيه من الإجماع إذا حقق الأمر عليه، لم يكن الإجماع الذي ادعاه صحيحاً؛ بل غايته أنه لم يعرف فيه نزاعاً، ثم من ذلك ما يكون أكثر أهل العلم على خلاف قول أصحابه، ولكن هو نفسه لم يعرف أقوال العلماء».

ومن ذلك دعوى منع قصر الصلاة إلا في الخوف لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ [النساء: ١٠١]، ويقابله من يدعي نسخ ذلك بقصر النبي ﷺ في السفر من غير خوف، قال العلامة أبو جعفر أحمد بن محمد

النحّاس (ت: ٣٣٨هـ)[(١)] : «وهذا غلط بيّن، لأنه ليس في الآية منع للقصر في الأمن، وإنما فيها إباحة القصر في الخوف فقط.

والجهات التي فيها عن العلماء المتقدمين منهن أن يكون معنى ﴿أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَوٰةِ﴾ أن تقصروا من حدودها في حال الخوف، وذلك ترك إقامة ركوعها وسجودها، وأداؤها كيف أمكن، مستقبل القبلة، ومستدبرها، وماشياً وراكباً في حال الحرب وهي حال الخوف، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩]، وهكذا يُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا قول[(٢)]، وهو اختيار محمد بن جرير، واستدل على صحته بأن بعده ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٠٣]، فإقامتها إتمام ركوعها وسجودها وسائر فرائضها، وترك إقامتها في غير الطمأنينة، هو ترك إقامة هذه الأشياء».

وكذلك دعوى نسخ النهي عن خطبة الرجل على خطبة أخيه، قال ابن القيم رحمه الله[(٣)] : «وذكر الطبري أن بعضهم قال: نهيه أن يخطب الرجل على خطبة أخيه منسوخ بخطبته ﷺ لأسامة فاطمة بنت قيس رضي الله عنهما، يعني بعد أن خطبها معاوية وأبو جهم

---

(١) الناسخ والمنسوخ (٢/٢٢٧ - ٢٢٨).

(٢) هكذا في النسخة المطبوعة.

(٣) تهذيب سنن أبي داود (٣/٢٥).

رضي الله عنهما، وهذا غلط، فإن فاطمة رضي الله عنها لم تركن إلى واحد منهما، وإنما جاءت مستشيرة للنبي ﷺ، فأشار عليها بما هو الأصلح لها، والأرضى لله ورسوله، ولم يخطبها لنفسه، ومورد النهي إنما هو خطبة الرجل لنفسه على خطبة أخيه، فأما إشارته على المرأة إذا استشارته بالكفء الصالح، فأين ذلك من الخطبة على خطبة أخيه؟

وقد تبيَّن غلط القائل، والحمد لله.

وأيضاً فإن هذا من الأحكام الممتنع نسخها، فإن صاحب الشرع علّله بالأخوة، وهي علة مطلوبة البقاء والدوام، لا يلحقها نسخ ولا إبطال».

* * *

التحرز من الغلط في اصطلاح النسخ

قد تقف خلال قراءتك لكتب التفسير على أكثر من رواية عن بعض الصحابة في الحكم على الآية بأنها منسوخة، فتقرأ عن صحابي واحد مثلاً أنها منسوخة، ورواية أخرى عنه أنها محكمة، فلا تتوهم المعارضة، وفهم اصطلاح السلف في النسخ يعصمك من الزلل.

المتأخرون يطلقون النسخ على رفع حكم شرعي بمثله متراخ عنه، أما المتقدمون فيطلقون النسخ على ما هو أعم من ذلك، فيطلقونه على تخصيص العام، وتقييد المطلق، والاستثناء، قال أبو الحسن السخاوي رحمه الله[1]: «كانوا يسمون ما يُغيّر الأحوال نسخاً».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «وأما تسمية المتأخرين تخصيصاً وتقييداً ونحو ذلك مما فيه صرف الظواهر، فهو داخل في مسمى النسخ عند المتقدمين».

مثال: قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠].

---

(١) جمال القراء (١/٣٠٨).

(٢) الاستقامة (١/٢٣).

فعن محمد بن سيرين رحمه الله قال: جلس ابن عباس رضي الله عنهما فقرأ سورة البقرة حتى أتى على هذه الآية: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾، فقال: نُسخت هذه الآية.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1]: «قال أبو مسلم الأصفهاني: إن هذه الآية غير منسوخة، إنما هي مفسرة بآية المواريث، ومعناه: كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث الوالدين والأقربين، من قوله: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١]، قال: وهو قول أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء، ومنهم من قال: إنها منسوخة فيمن يرث، ثابتة فيمن لا يرث، وهو مذهب ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن، ومسروق، وطاوس، والضحاك، ومسلم بن يسار، والعلاء بن زياد.

قلت: وبه قال أيضاً سعيد بن جبير، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان. ولكن على قول هؤلاء لا يسمى هذا نسخاً في اصطلاحنا المتأخر، لأن آية الميراث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية، لأن «الأقربين» أعم ممن يرث ومن لا يرث، فرُفع حكم من يرث بما عُين له، وبقي الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى».

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٩٧).

الباب الرابع عشر:

إعــراب القــرآن



إعراب القرآن

النبي ﷺحث" على إعراب القرآن وتجويد القراءة، فقال ﷺ: **«من قرأ حرفاً فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات»** (١).

وقد تكلم العلماء في إعراب القرآن، فقال الحافظ أبو عبدالله الحسين بن الحسن الحليمي رحمه الله (ت: ٤٠٣هـ) (٢): «ومعنى إعراب القرآن شيئان: أحدهما أن يحافظ على الحركات التي بها يتميز لسان العرب عن لسان العجم، لأن أكثر كلام العجم مبني على السكون وصلاً وقطعاً، ولا يتميز الفاعل من المفعول، والماضي من المستقبل باختلاف وحركات المقاطع.

وإنما هذا اللسان للعرب خاصة، فنهى الناس عن أن يقرؤوا القرآن تاركين الإعراب، فيكونوا قد شبهوه من هذا الوجه بالأعجمية.

والآخر: أن يحافظ على أعيان الحركات ولا يبدل شيئاً منها بغيره، لأن ذلك ربما أوقع في اللحن أو غيّر المعنى، وكان ابن عمر

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) المنهاج في شعب الإيمان (٢/٢٣٧).

رضي الله عنهما يضرب ولده على اللحن، وسمع عمر رضي الله عنه جماعة يقرأ بعضهم، فقال: «**اقرؤوا ولا تلحنوا**» ».

وكذلك تكلم العلماء في معنى «الحرف« المقصود بالحديث «من قرأ حرفاً فأعربه»، قال أبو جعفر محمد بن سعدان النحوي رحمه الله (ت: ٢٣١هـ) [(١)]: «إن العرب تسمي الكلمة المنظومة حرفاً، وتسمي القصيدة بأسرها كلمة، والحرف يقع على الحرف المقطوع من الحروف المعجمة، والحرف أيضاً المعنى والجهة كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ [الحج: ١١]».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله [(٢)]: «وقوله ﷺ من قرأ القرآن فأعربه فله بكل حرف عشر حسنات»، رواه الترمذي، وقال حديث حسن غريب، فالمراد بالحرف: الكلمة.

وقال أيضاً [(٣)]: «.. مما استعمل فيه لفظ «الكلمة» من الكتاب والسنة، بل وسائر كلام العرب، فإن ما يُراد به الجملة التامة، كما كانوا يستعملون الحرف في الاسم، فيقولون: هذا حرف غريب، أي لفظ الاسم غريب».

---

(١) المرشد الوجيز ص ٩٣.

(٢) الاختيارات ص ٨٠.

(٣) العبودية ص ١٧٠.

وقال أيضاً [1]: «وفي مراده بالحرف قولان: قيل هذا اللفظ المفرد، وقيل أراد ﷺ بالحرف الاسم، كما قال: ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

وقال العلامة علم الدين أبو الحسن السخاوي رحمه الله (ت: ٦٤٣هـ [2]: « [من قرأ القرآن فأعربه]، أي بيّنه».

فالمقصود بالإعراب هو تفهم المعنى، وإعراب الكلم بحسب أحواله عون على فهم المعنى، قال أبو عبدالله القرطبي رحمه الله[3]: «ومن كماله أن يعرف الإعراب والغريب، فذلك مما يسهل عليه معرفة ما يقرأ».

وبهذا يتبين حاجة المفسر إلى معرفة النحو، قال الخطيب البغدادي رحمه الله (ت: ٤٦٢هـ) [4]: «فيحتاج الناظر في علم القرآن، إلى حفظ الآثار، ودرس النحو، وعلم العربية واللغة، إذ كان الله تعالى إنما أنزله بلسان العرب، فقال ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]».

وإعراب الآية وفهمها متلازمان، قال جلال الدين السيوطي

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/١٠٣).

(٢) الوسيلة إلى كشف العقيلة ص ٢٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/٢١).

(٤) الفقيه والمتفقه (١/١٩٨).

رحمـه الله (ت: ٩١١هـ) [1]: «وعلـى النـاظر فـي كتـاب الله تعـالى الكاشف عن أسراره النظر في الكلمة وصيغتها ومحلها كسكونها مبتدأ أو خبراً، أو فاعلاً، أو مفعولاً، أو في مبادئ الكلام أو في جواب، إلى غير ذلك، ويجب عليه مراعاة أمور: أحدها: وهو أول واجب عليه أن يفهم معنى ما يريد أن يعربه مفرداً أو مركباً قبل الإعراب فإنه فرع المعنى، ولهذا لا يجوز إعراب فواتح السور إذا قلنا بأنها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.

وقالوا في توجيه نصب كلالة قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ [النساء: ١٢]، أنه يتوقف على المراد بها، فإن كان اسماً للميت فهو حال، ويورث خبر كان أو صفة، وكان تامة أو ناقصة، وكلالة خبر أو للورثة فهو على تقدير مضاف: أي ذا كلالة، وهو أيضاً حال أو خبر كما تقدم، أو للقرابة فهو مفعول لأجله».

وقال مكي بن أبي طالب رحمه الله (ت: ٤٣٧هـ) [2]: «بمعرفة حقائق الإعراب، تعرف أكثر المعاني، وينجلي الإشكال، وتظهر الفوائد، ويُفهم الخطاب، وتصح معرفة حقيقة المراد».

وبتغيير وجوه الإعراب دُست البدع، قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله (ت: ٧٩٢هـ) [3]: «ولقد قال بعضهم لأبي عمرو ابن

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/٣٨٢ – ٣٨٣).

(٢) مشكل إعراب القرآن ص ٢٧ – ٢٨.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (١/١٧٧).

العلاء، أحد القراء السبعة: أريد أن تقرأ: وكلّم الله موسى، بنصب اسم الله، ليكون موسى هو المتكلم، لا الله، فقال له أبو عمرو: هب أني قرأت هذه الآية كذا، فكيف تصنع بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فبُهت المعتزلي».

وكذلك وقعت استنباطات في غير مواقعها بسبب الخطأ في الإعراب، كاستدلال بعض أهل العلم بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، على أن تقوى الله مفتاح العلوم، فهذا غير متجه من دلالة هذه الآية، وإن كان المعنى ثابتاً بمقتضي أدلة أخرى، كقوله تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

قال أبو حيان الأندلسي رحمه الله [(١)]: «﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾، مستأنفة، لا موضع لها من الإعراب، وقيل هي في موضع نصب على الحال من الفاعل في «واتقوا»، تقديره: واتقوا الله مضموناً لكم التعليم والهداية.

وقال أبو البقاء: يجوز أن يكون حالاً مقدرة.

وهذا القول - أعني الحال - ضعيف جداً، لأن المضارع الواقع حالاً، لا يدخل عليه واو الحال إلا فيما شذ، ولا ينبغي أن يُحمل القرآن على الشذوذ».

---

(١) البحر المحيط (٢/٣٥٤).

وقال ابن القيم رحمه الله [1]: «وأما قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فليس من هذا الباب، بل هما جملتان مستقلتان، طلبية: وهي الأمر بالتقوى، وخبرية: وهي قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾، أي: لو أريد بها الجزاء لأتى بها مجزومة مجردة عن الواو، فكان يقول: (واتقوا الله يعلمكم)، أو: (إن تتقوا الله يعلمكم)، أو: (واتقوا الله يعلمكم)، كما قال: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩]، فتدبّره».

ومعرفة إعراب الآية عون على ترجيح المعاني المحتملة في الآية، مثاله: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فقد قيل في هاروت وماروت ثلاثة أقوال:

١ - أنهما ملكان.

٢ - رجلان صالحان.

٣ - قبيلان من الجن.

فبمعرفة الإعراب يترجح بعض الأقوال على بعض، فقد قيل إن هاروت وماروت بيان للملكين علمان لهما، وقيل بدل من الناس، وعليه فلا يكونان اسمين للملكين [2].

والمشكل بالنسبة لطالب العلم في إعراب كلمات وآيات القرآن وقوع الخلاف بين العلماء في إعراب كثير من ذلك، فعليه الترجيح

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٧٢).

(٢) جواهر الأفكار ومعادن الأسرار ص ٢٨٦.

بالأليق بمعاني القرآن.

مثال: قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فقد اختلف العلماء في تعيين (من) في الآية، قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله (ت: ٦٦١هـ) [(١)]: «اختلفوا في «مِنْ» ههنا، فقال ابن الأنباري: دخلت «مِنْ» للتجنيس لا للتبعيض، كما تقول: لبست الثياب من الخَزّ، والجباب من القَزّ.

فعلى هذا القول يكون قوله: ﴿أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ﴾، صفة للرسل كلهم، وإلى هذا ذهب ابن زيد، قال: لم يبعث الله تعالى رسولاً إلا كان من أولي العزم.

والأظهر عند أكثر المفسرين: أنها للتبعيض».

والرسل كلهم أولوا عزم في طاعة الله، لكن خصوصية وتمكن هذا الوصف في خمسة فضلاً من الله ومِنّة، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ.

لذلك قال تعالى في آدم عليه السلام: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمًا﴾ [طه: ١١٥].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله [(٢)]: «أي: ولقد وصينا ادم وأمرناه وعهدنا إليه عهداً ليقوم به، فالتزمه وأذعن له

---

(١) رموز الكنوز (٧/ ٢٤٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٩٦.

وانقاد وعزم على القيام به، ومع ذلك نسي ما أُمر به، وانتقضت عزيمته المحكمة، فجرى عليه ما جرى، فصار عبرة لذريته، وصارت طبائعهم مثل طبيعة آدم، ونسي فنسيت ذريته، وخطئ فخطئوا، ولم يثبت على العزم المؤكد وهم كذلك، وبادر بالتوبة من خطيئته، وأقر بها، واعترف فغفرت له، ومن يشابه أباه فما ظلم».

ومن ذلك اختلاف العلماء في «من» من قوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، على ثلاثة أقوال:

أحدها: إنها لبيان الجنس.

الثاني: أنها للتبعيض.

الثالث: أنها لابتداء الغاية [١].

قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥٢هـ) [٢]: «و«من» هنا لبيان الجنس لا للتبعيض، فإن القرآن كله شفاء، كما قال في الآية المتقدمة [٣]، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه وتعالى من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن».

ومن الاختلاف في الإعراب ما يحتمله المعنى، فمعرفة القولين والإدلاء بهما حسن، وليس هو من تشقيق الخلاف.

---

(١) الدر المصون (٤/٤١٦).

(٢) الجواب الكافي ص ١٥، ط. مكتبة المعارف.

(٣) هي قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

مثال: اختلاف العلماء في الاستثناء هل هو متصل أو منقطع في قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٠].

قال الشوكاني رحمه الله (ت:١٢٥٠هـ) [(١)]: «قال الزجاج: إنه استثناء منقطع: أي لكن الذين ظلموا منهم فإنهم يحتجون، ومعناه، إلا من ظلم باحتجاجه فيما قد وضح له، وقال الطبري: إن الاستثناء متصل، ونفى الله أن يكون لأحد حجة على النبي ﷺ وأصحابه في استقبالهم الكعبة، والمعنى: لا حجة لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة، حيث قالوا: ما ولاهم، وقالوا: إن محمدا تحير في دينه، وما توجه إلى قبلتنا إلا أنا أهدى منه، وغير ذلك من الأقوال التي لم تنبعث إلا من عابد وثن أو من يهودي أو منافق».

والحقيقة أن الآية محتملة للقولين، قال العلامة عبدالقادر ابن بدران الدمشقي الحنبلي رحمه الله[(٢)]: «يمكن أن يكون المراد بالحجة ما هو أعم من الدليل القطعي والظني، فيكون الاستثناء متصلاً، وحاصله: إن أريد بالحجة الدليل الصحيح فالاستثناء منقطع، لأنهم ليس لهم دليل صحيح، وإن أريد بها الاحتجاج

---

(١) فتح القدير (١/١٥٧).

(٢) جواهر الأفكار ومعادن الأسرار ص ٣٩٣.

والخصومة، فالاستثناء متصل، والاتصال هو الذي نختاره».

ومعرفة الإعراب عون على فهم تنوع القراءات في الآية الواحدة، مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، فقوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ﴾ قراءتها متنوعة، قال مكي بن أبي طالب رحمه الله (ت: ٤٣٧هـ) [١]: «من قرأ بالتاء ونصب «السبيل» جعل التاء علامة للخطاب والاستقبال، وأضمر اسم النبي ﷺ في الفعل.

ومن قرأ بالتاء ورفع «السبيل» جعل التاء علامة تأنيث واستقبال، ولا ضمير في الفعل، ورفع «السبيل» بفعله، وحكى سيبويه: استبان الشيءُ واستبنته أنا، فأمَّا من قرأ بالياء ورفع «السبيل» فإنه ذكّر «السبيل» لأنه يذكر ويؤنث، ورفعه بفعله، ومن قرأ بالياء ونصب «السبيل»، أضمر اسم النبي ﷺ في الفعل، وهو الفاعل، ونصب «السبيل» لأنه مفعول به، واللام في «ولتستبين» متعلقة بفعل محذوف تقديره: ولتستبين سبيل المجرمين فصلناها، وخص «سبيل المجرمين» للدلالة على «سبيل المؤمنين»، مثل: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، وقيل: «سبيل المؤمنين» مضمر، أي لتستبين سبيل هؤلاء من سبيل هؤلاء».

---

(١) مشكل إعراب القرآن ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

وبعض طلبة العلم في بداية قراءته لكتب التفسير قد يجد كلفة في فهم كلام أئمة اللغة وإعراب الآيات، وهذا أمر معلوم متوقع لمن لم يمارس هذا الفن، لكن مع القراءة المتأنية وسؤال المتخصصين في النحو تتيسر الأمور، ويدرك طالب العلم مهمات هذا الفن وما يفيده في علم التفسير شيئاً فشيئاً.

ومما يعين على ذلك هو أن لا يبدأ طالب العلم بقراءة الكتب المتمحضة في إعراب القرآن فقط، فإنه ربما يصيبه الملل ويجد المشقة فيترك هذا العلم جملة وتفصيلاً، وإنما يقرأ ما يشوقه للاستفادة من هذا العلم، فيقرأ الكتب التي تذكر الأحكام والعقائد والقصص ومعها فوائد النحو وبيان مؤداها في تبيين الأحكام وتبسيط المعنى وصيانة العقيدة. ومع الإصرار والتكرار يألف طالب العلم قراءة ما يفيد من أحكام الإعراب في فقه معاني الآيات واستنباط فوائدها.

وقراءة إعراب بعض السور عون على تفهم باقيه، فهذا ابن خالوية رحمه الله (ت: ٣٧٠) صنف مصنفاً في إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، وقال في فوائده [١]: «ليكون معونة على جميع ما يرد عليك من إعراب القرآن».

ومع هذا فينبغي تأمل ما يقرره النحويون في معاني الآيات مع أقوال المحققين من علماء الشريعة والتفسير، لأن للقرآن معاني

---

(١) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ١١.

معهودة في ألفاظه ترجح على التفسير اللغوي المحض.

مثال: قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]، فسّر بعض أئمة اللغة الهوى بنزول القرآن منجّماً، قال ابن خالويه رحمه الله (ت: ٣٧٠هـ) [١]: «كل شيء من قريب يُقال أهوى، وكل شيء بعيد يُقال هوى، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، لأنه من بعيد، أقسم الله تعالى بنجم القرآن أي بنزوله».

كذا قال رحمه الله، قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ) [٢]: «قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عكرمة: يعني: النجوم التي ترمي بها الشياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع، وهذا قول الحسن، وهو أظهر الأقوال، ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله سبحانه آية وحفظا للوحي من استراق الشياطين له على أن ما أتى به رسول الله ﷺ حق وصدق، لا سبيل للشيطان ولا طريق له إليه، بل قد أحرس بالنجم إذا هوى رصداً بين يدي الوحي، وحرسا له، وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور، وفي المقسم به دليل على المقسم عليه. وليس بالبيّن تسمية القرآن عند نزوله بالنجم إذا هوى، ولا تسمية نزوله هوياً، ولا عُهد في القرآن ذلك فيحمل هذا اللفظ

---

(١) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ١٧٦.

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص ٢١٧ – ٢١٨.

عليه».

فالذي لا بد أن ينتبه إليه طالب العلم رعاية المعنى المعهود لمعاني القرآن، قال ابن هشام رحمه الله [1]: «وقد زلت أقدام كثير من المعربين راعوا في الإعراب، ظاهر اللفظ ولم ينظروا في موجب المعنى، من ذلك قوله: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ [هود: ٨٧]، فإنه يتبادر إلى الذهن عطف (أن نفعل) على: (أن نترك)، وذلك باطل لأنه لم يأمرهم أن يفعلوا في أموالهم ما يشاءون، وإنما هو عطف على (ما)، فهو معمول للترك والمعنى: أن نترك أن نفعل، وموجب الوهم المذكور أن المعرب يرى أن والفعل مرتين وبينهما حرف العطف».

وقال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ) [2]: «إنه لا يجوز أن يُحمل كلام الله عز وجل ويُفسر بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام، ويكون به الكلام له معنى ما، فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن، فإنهم يفسرون الآية ويعربونها بما يحتمله تركيب تلك الجملة، ويُفهم من ذلك التركيب أي معنى اتفق، وهذا غلط فيه أكثر المعربين للقرآن، فإنهم يفسرون الآية ويعربونها بما يحتمله تركيب تلك الجملة، ويُفهم من ذلك التركيب

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٨٣).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٨٧٦ - ٨٧٧).

أي معنى اتفق، وهذا غلط عظيم يقطع السامع بأن مراد القرآن غيره، وإن احتمل ذلك التركيب هذا المعنى في سياق آخر وكلام آخر، فإنه لا يلزم أن يحتمله القرآن.

مثل قول بعضهم في قراءة من قرأ: ﴿وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، بالجر: إنه قسم.

ومثل قول بعضهم في قوله تعالى ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، إن المسجد مجرور بالعطف على الضمير المجرور في (به). ومثل قول بعضهم في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ﴾ [النساء: ١٦٢]، إن (المقيمين) مجرور بواو القسم.

ونظائر ذلك أضعاف أضعاف ما ذكرناه، وأوهى بكثير، بل **للقرآن عرف خاص ومعان معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها، ولا يجوز تفسيره بغير عرفه والمعهود من معانيه**، فإن نسبة معانيه إلى المعاني كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ، بل أعظم».

ولا يجوز حمل معاني القرآن على الوجوه المحتملة من الإعراب دون الاستظهار بما يفسر حقيقة اللفظ من مرجحات أخرى، فالقرآن يفسر القرآن، والسنة تفسر القرآن، وفهم الصحابة يفسر القرآن، وهكذا.

مثال: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ

﴿إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦]، فقوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾، ثبتت القراءة فيها بثلاث روايات [١].

١ - الرفع، قرأ به نافع، رواه عنه الوليد بن مسلم، وهي قراءة الأعمش والحسن.

٢ - النصب، روى أبو عبدالرحمن السلمي قال: قرأ علي الحسن أو الحسين فقرأ قوله (وأرجلَكم).

٣ - الخفض: قرأ بها أنس وعلقمة وأبو جعفر.

فلا يفهم من قراءة (الخفض) أن الرجل تمسح، فهذا الاحتمال النحوي مردود، لأمور:

١ - أن النبي ﷺ غسل وما مسح قط.

٢ - أن النبي ﷺ توعد بالنار لمن ترك إيعاب غسل الرجلين، فإنه رأى قوماً تلوح أعقابهم، فقال: ويل للأعقاب من النار.

٣ - قراءة النصب توجب العطف على الوجه واليدين، ودخل بينهما مسح الرأس، وإن لم تكن وظيفته كوظيفتهما، لأنه مفعول قبل الرجلين، لا بعدهما، فذكر لبيان الترتيب لا ليشتركا في صفة التطهير، وجاء الخفض ليبين أن الرجلين يمسحان حال الاختيار على حائل، وهما الخفان، بخلاف سائر الأعضاء، فعطف بالنصب مغسولاً على مغسول، وعطف بالخفض

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي(٢/ ٥٧٦ - ٥٧٧).

ممسوحاً على ممسوح، وصح المعنى فيه [1].

٤ – قراءة الخفض يمكن توجيهها بأن يقال: إن العطف يقع مرة على اللفظ المجاور، ومرة على المعنى المجاور، كقولهم: جحر ضب خرب، والخرب نعت الجحر.

٥ – قراءة الخفض لا يراد بها المسح فقط، وإنما يُراد بها المسح مع الغسل، يعني الدلك باليد أو غيرها.

٦ – المسح في قراءة الخفض يُراد به الغسل، قال أبو العباس القرطبي رحمه الله: فمن الفاشي المستعمل في أرض الحجاز أن يقولوا: تمسحنا للصلاة، أي: توضأنا.

٧ – ذهب بعض أهل العلم إلى أن قراءة الخفض منسوخة، قال القحطاني رحمه الله [2]:

لا تستمع قول الروافض إنهم	من رأيهم أن تُمسح الرجلان
يتأولون قراءة منسوخة	بقراءة وهما منزلتان
إحداهما نزلت لتنسخ أختها	لكن هما في المصحف مثبتتان

* * *

(١) المفهم (١/٤٩٧).

(٢) النونية ص ٣٢.

التحقق من طعون الأئمة في بعض بدعوى مخالفة اللغة

فإن طالب العلم يجد شناعات العلماء بعضهم على بعض لاعتقاد مخالفة اللغة، فلا تبادر إلى تلقي هذه الطعون بالقبول دون تحري وتثبت لما تقتضيه اللغة المعهودة من معاني القرآن.

ومقابلة أقوال العلماء، واستعراض جميعها ووزن النقد بميزان العدل عون على مراعاة أقدار العلماء دون خروج عن مقتضى اللغة ودلالة القرآن.

من ذلك قوله تعالى عن سفينة المساكين الذين يتكسبون في البحر: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، قال العلامة أبو محمد ابن عطية الأندلسي رحمه الله (ت: ٥٤٦هـ)[1]: «وقوله ﴿وَرَآءَهُم﴾، هو عندي على بابه، وذلك أن هذه الألفاظ إنما تجيء مراعاً بها الزمن، وذلك أن الحادث المقدم الوجود هو الأمام، وبين اليد: لما يأتي بعده في الزمن، والذي يأتي بعد: هو الوراء وهو ما خلف، وذلك بخلاف ما يظهر ببادي الرأي، وتأمل هذه الألفاظ في مواضعها حيث وردت تجدها تطّرد، فهذه الآية معناها: أن هؤلاء

---

(١) المحرر الوجيز (١٠/٤٣٦).

وعملهم، وسعيهم، يأتي بعده في الزمن غصب هذا الملك، ومن قرأ أمامهم، أراد في المكان، أي أنهم كانوا يسيرون إلى بلده، وقوله تعالى في التوراة والإنجيل إنها بين يدي القرآن، مطّرد على ما قلنا في الزمن، وقوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠] مطّرد كما قلنا مراعاة الزمن، وقول النبي ﷺ «**الصلاة أمامك**»، يريد: في المكان، وإلا فكونهم في ذلك الوقت كان أمام الصلاة في الزمن، وتأمل هذه المقالة فإنها مريحة من شغب هذه الألفاظ، ووقع لقتادة في كتاب الطبري [وكان وراءهم ملك]، قال قتادة: أمامهم، ألا ترى أنه يقول من ورائهم جهنم، وهي بين أيديهم.

وهذا القول غير مستقيم، وهذه هي العجمة التي كان الحسن ابن أبي الحسن يضج منها، قاله الزجاج، ويجوز إن كان رجوعهم في طريقهم على الغاصب، فكان وراءهم حقيقة».

فالطعن على قتادة رحمه الله، ورمي قوله بالعجمة لا يخلو من مجازفة وكيف يكون عجمة وقد قرأها ابن عباس رضي الله عنهما: «وكان وراءهم – وكان أمامهم»[(١)]، قال العلامة أبو بكر محمد ابن القاسم الأنباري رحمه الله[(٢)]: «ووراء من الأضداد، يُقال للرجل: وراءك، أي خلفك، ووراءك أي أمامك، قال الله عز وجل: ﴿مِّن

(١) رواه البخاري كتاب التفسير باب فلما بلغ مجمع بينهما (٨/٤١٢ – رقم ٤٧٢٦).

(٢) الأضداد ص ٦٨ – ٦٩، ط. حكومة الكويت – سنة ١٩٨٦م.

﴿وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، فمعناه (وكان أمامهم)، وقال الشاعر[١] :

ليس على طول الحياة نَدَمْ ... ومن وراء المرء ما يَعْلَمْ

أي من أمامه، وقال الآخر[٢] :

أَتَرْجو بنو مروان سمعي وطاعتي ... وقومي تميمٌ والفلاة ورائيا

أراد قدّامي، وقال الآخر[٣] :

أليس ورائي إن تراختْ منيتي ... لزوم العصا تُحنَى عليها الأصابعُ

وقال الآخر[٤] :

ليس ورائي أن أدِبَّ على العصا ... فيأمن أعدائي ويسأمني أهلي

والوراء ولد الولد، قال حيان بن أبجر: كنت عند ابن عباس رضي الله عنهما، فجاء رجل من هُذيل، فقال له: ما فعل فلان؟ لرجل منهم،فقال: مات وترك كذا وكذا من الولد، وثلاثة من الوراء، يريد من ولد الولد.

وحكى الفرّاءُ عن بعض المشيخة، قال: أقبل الشعبي ومعه ابن ابنٍ له، فقيل له: أهذا ابنك؟ فقال: هذا ابني من الوراء، يريد من ولد

---

(١) هو المرقش الأكبر.

(٢) هو سوار بن المضرب.

(٣) هو لبيد.

(٤) هو عروة بن الورد.

الولد. وقال الله عز وجل: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، يريد: من ولد ولده».

وقال أيضاً[1] : «وأنشد قطرب للنابغة:

حلفتُ فلم أَتْرُكْ لنفسك ريبةً　　وليس وراء الله للمرء مذهب

أراد: وليس قدّامه، ويقال: معناه وليس سواء الله، كما قال جلّ اسمه: ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ [البقرة: ٩١]، أي بما سواءه، ويقال للرجل إذا تكلم: ليس وراء هذا الكلام شيء، أي ليس يحسن سواءه، وأنشد قطرب أيضاً:

أتوعدني وراء بني رياحٍ　　كَذَبْتَ لتقصرنّ بذاك عني»

وقد يقع بعض الأئمة في تقريرات لغوية مرجوحة في بعض آي القرآن، فحينئذ ينبغي تبيين الصواب دون تهويل وشناعة خارجة عن رعاية أقدار الأئمة.

فقد قال الإمام الشافعي رحمه الله في معنى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ [النساء: ٣] أن لا يكثر عيالكم، وهو وإن حكاه الفراء عن الكسائي، وأن الكسائي قال: هي لغة فصيحة سمعتها من العرب، **إلا أن هذا التفسير مرجوح وضعيف في سياق الآية حيث قال الله عز** وجل: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ

---

(١) الأضداد ص ٧٠ – ٧١.

﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ [النساء: ٣]، لكن لا ينبغي التعرض بالاستهزاء للإمام الشافعي رحمه الله بصورة تحط من قدر إمامته عموماً ومعرفته باللغة خصوصاً، حيث شنّع عليه البعض، وقال مستهزئاً بتزكية العلماء للشافعي بأنه أفصح من نطق بالضاد: «فقد ذهبت الفصاحة، ولم تنفع الضاد المنطوق بها على الاختصاص»[1] .

وقد أفاض ابن القيم رحمه الله مبيناً أن المراد بقوله: ﴿أَلَّا تَعُولُواْ﴾، أي: تجوروا وتميلوا، من عدة وجوه[2]:

الأول : أنه المعروف في اللغة الذي لا يكاد يعرف سواه، ولا يعرف: عال يعول، إذا كثر عياله: إلا في حكاية الكسائي، وسائر أهل اللغة على خلافه.

الثاني : أن هذا مروي عن النبي ﷺ، ولو كان من الغرائب، فإنه يصلح للترجيح.

الثالث : أنه مروي عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم، ولم يعلم لهما مخالف من المفسرين، وقد قال الحاكم أبو عبدالله: تفسير الصحابة عندنا في حكم المرفوع.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (١/ ٣١٥).

(٢) بدائع التفسير (٢/ ٨ – ١٠).

الرابع : أن الأدلة التي ذكرناها على استحباب تزوج الولود، وإخبار النبي ﷺ أنه يكاثر بأمته الأمم يوم القيامة يرد هذا التفسير.

الخامس: أن سياق الآية إنما هو في نقلهم مما يخافون من الظلم والجور فيه إلى غيره، فإنه قال في أولها: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣]، فدلهم سبحانه على ما يتخلصون به من ظلم اليتامى، وهو نكاح ما طاب لهم من النساء البوالغ، وأباح لهم منهن أربعاً، ثم دلّهم على ما يتخلصون به من الجور والظلم في عدم التسوية بينهن، فقال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٣]، ثم أخبر سبحانه أن الواحدة وملك اليمين أدنى إلى عدم الميل والجور، وهذا صريح في المقصود.

السادس: أنه لا يلتئم قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾، في الأربع، فانكحوا واحدة أو تسرّوا بما شئتم بملك اليمين، فإن ذلك أقرب إلى أن تكثر عيالكم، بل هذا أجنبي من الأول، فتأمله.

السابع : أنه من الممتنع أن يقال لهم: إن خفتم ألا تعدلوا بين الأربع فلكم أن تتسروا بمائة سرية أو أكثر، فإنه أدنى ألا تكثر عيالكم.

الثامن : أن قولــــه: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾، تعليـــل لكــل واحــد مــن الحكمين المتقدمين، وهما نقلهم من نكاح اليتامى إلى نكاح النساء البوالغ، ومن نكاح الأربع إلى نكاح الواحدة أو ملك اليمين، ولا يليق تعليل ذلك بقلة العيال.

التاسع : أنه تعالى إذا ذكر حكماً منهياً عنه وعلل النهي، وأباح شيئاً وعلل عدمه بعلة، فلا بد أن تكون العلة مضادة لضد الحكم المعلل، وقد علل سبحانه وتعالى إباحة نكاح غير اليتـامى والاقتصار على الواحـدة أو ملـك اليمـين؛ بأنـه أقـرب إلـى عدم الجور، ومعلوم أن كثـرة العيـال لا تـضاد عـدم الحكـم المعلل، فلا يحسن التعليل به».

* * *

لا لحن في القرآن

القرآن كلام رب العالمين، تكفل الله بحفظه، وما تكفل الله بحفظه لن يضيع منه حرف، ولن يزاد فيه أدنى من حرف، ولا يكون فيه إلا ما تكلم به رب العالمين على الكمال الذي تكلم الله به ونزل به جبريل على رسول رب العالمين.

أما أثر يحيى بن يعمر أنه قال: قال عثمان رضي الله عنه: في القرآن لحن، وستقيمه العرب بألسنتها (1).

فهذا الأثر ضعيف السند، منكر المتن: أما ضعف سنده، فهو من رواية يحيى بن يعمر وعكرمة مولى ابن عباس ولم يسمعا من عثمان رضي الله عنه.

وأما نكارة متنه فمن وجوه:

الأول: أن الله نفى الريب عن كتابه، ووجود اللحن ريب في الكتاب وهذا لا يكون، فإنه تكذيب لخبر الله في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢].

الثاني: أن وجود اللحن المزعوم يكذبه قوله تعالى عن القرآن: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف: ١].

---

(1) رواه ابن أبي داود في المصاحف (١/ ٢٢٩ – رقم ١٠٧).

الثالث: أن عثمان رضي الله عنه لما أراد جمع المصحف اختار أفصح الصحابة وأشبههم لهجة بالنبي ﷺ، ليملي على زيد بن ثابت رضي الله عنه المصحف ويكتبه زيد رضي الله عنه(١).

الرابع: إجماع الصحابة على جمع المصحف، وإجماعهم حجة قاطعة، فهم أفصح الخلق.

الخامس: إنفاذ عثمان رضي الله عنه المصاحف إلى الأمصار، ومن في الأمصار ليسوا بأفصح من الصحابة الذين نزل عليهم القرآن، ليقيموه، فضلاً عن الخلل الذي يلحق الأعاجم من اللحن لو كان موجوداً.

السادس: هذا ينافي الحفظ الذي تكفل الله به للقرآن، كما قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، فمن أعظم ما يكون من حفظه حفظ ألفاظه عن اللحن.

السابع: لا يمكن لعثمان رضي الله عنه أن يجهل اللحن وهو الذي قرأه في ركعة.

الثامن: لا يمكن لزيد بن ثابت رضي الله عنه أن يجهل اللحن وهو الذي شهد العرضة الأخيرة مع النبي ﷺ.

---

(١) المصاحف لابن أبي داود (١/ ٢١٠)، (١/ ٢١١).

التاسع: إثبات الخطأ في المصحف عن علم من اتخاذ آيات الله هزوا يتورع عنه أقل الناس ديانة، فكيف بعثمان رضي الله عنه، فضلاً عن مجموع الصحابة.

العاشر: من أخطأ في لفظ القرآن لا يمكن لعثمان رضي الله عنه أن يقول له: (أحسنتم) كما جاء في الأثر، حاشاه من ذلك.

الحادي عشر: وجود الخطأ واللحن في اللفظ يجعل الناس في ريب من أصل الجمع، فيكون ذلك من أسباب الطعن في القرآن.

الثاني عشر: أن زيد بن ثابت رضي الله عنه كان يكتب الوحي للنبي ﷺ، ولهذا السبب اختاره الصدّيق وعثمان رضي الله عنهما، حيث قال له الصدّيق: «إنك كنت تكتب الوحي للنبي ﷺ»، فممارسته لكتابة المصحف يستحيل معها أن يجهل الفصيح الذي كان يكتبه للنبي ﷺ ويثبت اللحن من غيره.

ناهيك عن شدة تثبته في جمع المصحف.

الثالث عشر: أن الصحابة لم يختلفوا في شيء من القرآن مما جمعوه في مصحف عثمان أبداً، لا في لحن ولا غيره، إلا اختلافاً وحيداً في لفظة (التابوت) هكذا قال القرشيون، وقال زيد: (التابوه)، فرفعوا اختلافهم إلى عثمان رضي الله عنه، فقال: اكتبوه (التابوت)، فإنه نزل بلسان قريش[1].

---

(١) رواه الترمذي كتاب تفسير القرآن باب من سورة التوبة (ص ٧٠٠ – رقم ٣١٠٤).

الرابع عشر: أن قراءة القرآن كما أُنزل واجبة كل حين، لا تجوز القراءة باللحن لحين حصول التصويب، هذا لا يفعله الصحابة.

الخامس عشر: أن الصحابة رضي الله عنهم بعد الجمع العثماني للمصحف حرقوا سائر الصحف فهو إجماع على صحة المصحف الإمام.

قال أبو بكر ابن أبي داود السجستاني رحمه الله (ت: ٣١٦هـ) منكراً هذا الأثر [(١)]: «لو كان فيه لحن لا يجوز في كلام العرب جميعاً لما استجاز أن يبعث به إلى قوم يقرؤونه».

وقال العلامة أبو الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله (ت: ٦٤٣هـ) [(٢)]: «وهذا كله ضعيف، والإسناد مضطرب مختلط منقطع.

ولأن عثمان رضي الله عنه جعل للناس إماماً يقتدون به، فكيف يرى فيه لحناً ويتركه لتقيمه العرب بألسنتها؟!

وأيضاً، فإنه لم يكتب مصحفاً واحدا، إنما كتب سبعة، فكيف يصنع رواة هذه الآثار، أيقولون: إنه رأى اللحن في جميعها متفقة

---

(١) المصاحف (١/٢٢٨).

(٢) الوسيلة إلى كشف العقيلة ص ٣٦.

عليه، فتركه لتقيمه العرب بألسنتها، أو رأى ذلك في بعضها؟ فإن قالوا: رآه في بعض دون بعض، فقد اعترفوا بصحة البعض، ولم يذكر أحد من الناس أن اللحن كان في مصحف دون مصحف.

ولم تأت المصاحف قط مختلفة إلا فيما هو من وجوه القراءة، وليس ذلك بلحن.

وإن قالوا: رآه في جميعها، لم يصح أيضاً لما ذكرناه من مناقضة قصده في نصب إمام يقتدى به على هذه الحال.

وأيضاً، فإذا كان الذين تولَّوا جمعه وكتابته لم يقيموا ذلك وهم الخيار، فكيف يقيمه غيرهم؟».

وقال ابن الأنباري رحمه الله [1]: «الأحاديث المروية عن عثمان رضي الله عنه في ذلك لا تقوم بها حجة لأنها منقطعة غير متصلة، وما يشهد عقل بأن عثمان رضي الله عنه وهو إمام الأمة الذي هو إمام الناس في زمنه وقدوتهم يجمعهم على المصحف الذي هو الإمام فيتبين فيه خللاً ويشاهد في خطه زللاً فلا يصلحه، كلا والله، ما يتوهم عليه هذا ذو إنصاف وتمييز، ولا يعتقد أنه أخّر في الكتاب ليصلحه من بعده، وسبيل الجائين من بعده البناء على رسمه، والوقوف عن حكمه.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/٣٨٩ - ٣٩٠).

ومن زعم أن عثمان رضي الله عنه أراد بقوله (أرى فيه لحناً): أرى في خطه لحناً، إذا أقمناه بألسنتنا، كان لحن الخط غير مفسد، ولا محرف من جهة تحريف الألفاظ وإفساد الإعراب فقد أبطل ولم يصب، لأن الخط منبئ عن النطق، فمن لحن في كتبه فهو لاحن في نطقه، ولم يكن عثمان رضي الله عنه ليؤخر فساداً في هجاء ألفاظ القرآن من جهة كتب ولا نطق، ومعلوم أنه كان مواصلاً لدرس القرآن متقناً لألفاظه موافقاً على ما رسم في المصاحف المنفذة إلى الأمصار والنواحي».

* * *

ليس في القرآن شيء بغير العربية

الأدلة واضحة وصريحة في عربية القرآن، وتمحضه في ذلك، قال الإمام الشافعي رحمه الله (ت: ٢٠٤هـ)[١] : «وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي ﷺ، ولا يجوز – والله أعلم- أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد، بل كل لسان تبع للسانه، وكل أهل دين قبله فعليهم اتِّباع دينه، وقد بيَّن الله ذلك في غير آية من كتابه: قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وقال: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١ - ٣]، وقال: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨].

فأقام حجته بأن كتابه عربي، في كل آية ذكرناها، ثم أكَّد ذلك بأن نفى عنه – جل ثناؤه – كل لسان غير لسان العرب، في آيتين من كتابه: فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ

(١) الرسالة ص ٤٦ – ٤٧.

بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ [فصلت: ٤٤] ».

ومن الأدلة كذلك على تمحض القرآن في العربية، هو أن الله تعالى جعله معجزة شاهدة لنبيه عليه الصلاة والسلام ودلالة قاطعة لصدقه، وليتحدى العرب العرباء به، ويحاضر البلغاء والفصحاء والشعراء بآياته، فلو اشتمل على غير لغة العرب لم تكن له فائدة(١).

واختار ابن جرير الطبري رحمه الله (ت: ٣١٠هـ) أن ما وقع من الكلمات الأعجمية في القرآن هو مما توافقت فيه اللغات، حيث قال(٢) : «سبيل كل كلمة واسم اتفقت ألفاظ أجناس أمم فيها وفي معناها، ووُجد ذلك مستعملاً في كل جنس منها، استعمال سائر منطقهم، فسبيل إضافته إلى كل جنس منها سبيل ما وصفنا من الدرهم والدينار والدَّواة والقلم، التي اتفقت ألسن الفرس والعرب فيها بالألفاظ الواحدة، والمعنى الواحد، في أنه مستحق إضافته إلى كل جنس من تلك الأجناس باجتماع وافتراق. وذلك هو معنى قول من روينا عنه القول في الأحرف التي مضت في صدر هذا الباب، من نسبة بعضهم بعض ذلك إلى لسان الحبشة، ونسبة بعضهم بعض

---

(١) البرهان في علوم القرآن ص ٢٠١.
(٢) جامع البيان (١/ ١٦ - ١٧).

ذلك إلى لسان الفرس، ونسبة بعضهم بعض ذلك إلى لسان الروم، لأن من نسب شيئاً من ذلك إلى ما نسبه إليه، لم ينف - بنسبته إياه إلى ما نسبه إليه - أن يكون عربياً، ولا من قال منهم: هو عربي، نفى ذلك أن يكون مستحقاً النسبة إلى من هو من كلامه من سائر أجناس الأمم غيرها، وإنما يكون الإثبات دليلاً على النفي فيما لا يجوز اجتماعه من المعاني، كقول القائل: فلان قائم، فيكون بذلك من قوله دالاً على أنه غير قاعد، ونحو ذلك مما يمتنع اجتماعه لتنافيهما».

وقال الطبري رحمه الله أيضاً[1] : «إنه غير جائز أن يتوهم على ذي فطرة صحيحة مقرٍّ بكتاب الله، ممن قد قرأ القرآن، وعرف حدود الله، أن يعتقد أن بعض القرآن فارسي لا عربي، وبعضه نبطي لا عربي، وبعضه رومي لا عربي، وبعضه حبشي لا عربي، بعدما أخبر الله تعالى ذكره عنه أنه جعله قرآناً عربياً».

واختار جماعة من المحققين أن الألفاظ الأعجمية تستعرب باستعمال العرب لها.

قال أبو عبيدة القاسم بن سلام رحمه الله[2] : «هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل، فقال: أولئك على الأصل، ثم لفظت

(١) جامع البيان (١/١).

(٢) رموز الكنوز (٣/٢٦٨).

به العرب بألسنتها، فعرّبته فصار عربياً بتعريبه إياه، فهي عربية في هذه الحال، أعجمية في الأصل».

وقال ابن عطية الأندلسي رحمه الله[1] : «إن القرآن نزل بلسان عربي مبين، فليس فيه لفظة تخرج عن كلام العرب فلا تفهمها إلا من لسان آخر، فأما هذه الألفاظ وما جرى مجراها فإنه قد كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات، وبرحلتي قريش، فعلقت العرب بهذا كله ألفاظاً أعجمية غيّرت بعضها بالنقص من حروفها، وجرت إلى تخفيف ثقل العجمة، واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها حتى جرت مجرى العربي الصريح، ووقع بها البيان، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن».

وقال موفق الدين ابن قدامة المقدسي رحمه الله (ت:٦٢٠هـ)[2]: «.. تكون هذه الكلمات أصلها بغير العربية ثم عربتها العرب واستعملتها، فصارت من لسانها بتعريبها واستعمالها لها، وإن كان أصلها أعجمياً».

والعلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله رأى أن لا دليل لدعوى أن تلك الكلمات أصلها أعجمي، حيث قال[3] : «أظهر القولين عندي ما اختاره بعض أهل العلم، كابن جرير رحمه الله من

---

(١) المحرر الوجيز (١/٣٦ – ٣٧)، باختصار.

(٢) روضة الناظر ص ٦٤، ط – دار الكتاب العربي.

(٣) مذكرة في أصول الفقه ص ٦٢ – ٦٣.

أن القرآن ليس فيه لفظ من غير العربية، وأن بعض كلماته في النـادر لا مانع منه، والدليل على هذا القول أن دعـوى أن أصـله عجمـي ثـم عُرب، معارضة بمثلها، وهو إمكـان كـون أصـله عربيـاً ثـم عُجـم فـي اللغات الأخرى.

أمـا الأعـلام الأعجميـة فهـي فـي القـرآن بـلا خـلاف، لأن العَلَـم يُحكى بلفظه في جميع اللغات».

فالحاصـل أن الأسـماء الأعجميـة ذكرهـا لـيس مـن بـاب الكـلام المنزل بغير العربية، وإنما هو تعريف للعلم الـذي لا يُعـرف إلا بـه، فلا يكون في ذلك دليل على أن في القرآن شيئاً من غير العربية.

قال أبو عبدالله القرطبي رحمه الله [١] : «لا خلاف بين الأئمة أنه ليس في القرآن كلام مركب على أساليب غير العرب، وأن فيه أسماء أعلاماً لمن لسانه غير لسان العـرب؛ كإسـرائيل، وجبريـل، وعمـران، ونوح، ولوط».

ومن الأسماء الأعجمية في القرآن إلياسين، وجهنم، قال شـيخنا العلامـة محمـد الـصالح العثيمـين رحمـه الله[٢] : «العـرب إذا عربـت الاسم الأعجمي صار فيه شيء من التصرف، مثل جهنم يقـال أصـلها جهنام، وأصلها الفارسي كهنام».

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/٦٨).

(٢) تفسير سورة الصافات ص ٢٧٩.

وقد استقرأ بعض العلماء الألفاظ المعربة الموجودة في القرآن، وقد نظم السبكي منها سبعة وعشرين لفظاً، وذيّل عليها الحافظ أبو الفضل ابن حجر بأبيات فيها أربعة وعشرون لفظاً، وذيل على الذيل السيوطي فتمت أكثر من مائة لفظة.

فقال ابن السبكي[1] :

السلسبيل وطه كورت بيع ... روم وطوبى وسجيل وكافور
والزنجبيل ومشكاة سرادق مع ... إستبرق صلوات سندس طور
كذا قراطيس ربانيهم وغسا ... ق ثم دينار القسطاس مشهور
كذلك قسورة واليم ناشئة ... ويؤت كفلين مذكور ومسطور
له مقاليد فردوس يعد كذا ... فيما حكى ابن دريد منه تنور

وقال الحافظ ابن حجر:

وزدت يس والرحمٰن مع ملكو ... ت سنين شطر البيت مشهور
ثم الصراط ودرّيء يحور ومر ... جان اليم مع القنطار مذكور
وراعنا طفقا اهدنا ابلعي ووراء ... والأرائك والأكواب مأثور
هود وقسط وكفر زمرة سقر ... هون يصدون والمنساة مسطور
شهر مجوس وأقفال يهود حوا ... ريون كنز وسجين وتتبير
بعير آزر حوب وردة عرم ... إلّ ومن تحتها عبدت والصور

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/٢٩٧ – ٢٩٨).

ولينـة فومهـا راهـو واخلـد مـز | جـاة وسـيدها القيـوم موفـور
وقمـل ثـم أسـفار عنـي كتبـا | وسـجدا ثـم ربيـون تكثيـر
وحطة وطوى والـرس نـون كـذا | عـدن ومنفطـر الأسـباط مـذكور
مسك أباريق ياقوت رووا فهنـا | مـا فـات مـن عـدد الألفـاظ
وبعضهم عدّ الأولى مع بطائنها | والآخرة لمعاني الـضد مقـصور

وأنت إذا تأملت هذه الأبيات وجدت أن كثيراً من هـذه الألفـاظ لا يُسلم لهم دعوى أنها أعجمية، ومن أعظم ذلك الحـروف المقطعـة التـي تحـدى الله بهـا العـرب أن يـأتوا مـن هـذه الحـروف مـا يماثـل القرآن، كذلك ما ذكر فيها من الأعلام الأعجمية.

وأما الشوكاني رحمه الله (ت: ١٢٥٠هـ) فقد بالغ فـي الـرد علـى من أنكر وجود غير العربي فـي ألفـاظ القـرآن، وقـال[١] : «فلـم يـأت الأكثرون بشيء يصلح للاستدلال به في محل النزاع»، ثم قال مقـرراً وجـود الألفـاظ الأعجميـة فـي القـرآن[٢] : «ومـن أراد الوقـوف علـى الحقيقـة فليبحـث كتـب التفسير فـي مثـل: المـشكاة، والإسـتبرق، والسجيل، والقسطاس، والياقوت، وأباريق، والتنور».

وما ذكره الشوكاني رحمه الله فلا يُسلم له، فـإن كثيـراً ممـا ذكـره معروف مشهور مـن لغـات العـرب، مثـال ذلـك: «سـرادق» مـن قولـه

(١) إرشاد الفحول (١/١٥٢)، ط. دار الكتبي.
(٢) إرشاد الفحول (١/١٥٢).

تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله (ت: ٦٦١هـ)[1] : «قال اللغويون: السُّرادق: فارسي معرب، أصله بالفارسية: سرادار، وهو الدهليز.

قال ابن قتيبة: السُّرَادِق: الحجرة التي تكون حول الفسطاط، قال الزجاج: كل ما أحاط بشيء نحو الشقة في المِضْرَب، أو الحائط المشتمل على الشيء؛ سُرَادِق. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو حائط من نار.

وقيل: هو دخان يُحيط بالكفار يوم القيامة، وهو الظل ذو ثلاث شعب، المذكور في المرسلات».

و«مشكاة» من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ [النور: ٣٥]، كذلك معروفة في لغة العرب، وليست متمحضة في العجمة، قال الزجاج رحمه الله (ت:٣١١هـ)[2]: «(كمشكاة)، وهي الكوَّةُ، وقيل إنها بلغة الحبش، والمشكاة من كلام العرب، ومثلها - وإن كانت لغير الكُوَّة - الشَّكوَّة وهي معروفة، وهي الدقيق الصغير أو ما يُعْمل مثله».

---

(١) معاني القرآن وإعرابه (٤/٤٣).

(٢) رموز الكنوز (٤/٢٧٨ - ٢٧٩).

ومما قيل إنه بغير العربية اسم الجنة طوبى، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ [الرعد:٢٩]، قال مجاهد: هي اسم الجنة بالحبشية.

وهذا غير متعين، فليس هو القول الوحيد في معنى طوبى حتى يُقال إنه مما ورد بغير العربية، فإن الزجاج قال: طوبى: فعلى من الطيب، ومعناها: العيش الطيب لهم[١].

* * *

(١) تفسير القرآن للسمعاني (٣/٩٣).

الباب الخامس عشر:

الاعتقاد في القرآن

القرآن كلام الله

القرآن كلام رب العالمين، تكلم به سبحانه حقيقة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]].

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [الفتح: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ٦].

والأحاديث متواترة ناطقة بأن القرآن كلام الله، قال أمير المؤمنين في الحديث البخاري رحمه الله (ت: ٢٥٦هـ) [(١)]: «تواترت الأخبار عن النبي ﷺ أن القرآن كلام الله».

---

(١) خلق أفعال العباد ص ٦٧.

من ذلك قول النبي ﷺ: «**ألا رجل يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أُبلغ كلام ربي**»[(١)].

وهو كلمة إجماع، فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر في حضرة الصحابة: «إن هذا القرآن كلام الله»[(٢)].

قال قِوَامُ السنة أبو القاسم الأصبهاني (ت: ٥٣٥هـ)[(٣)]: «**فهو إجماع الصحابة، وإجماع التابعين بعدهم**».

وقالت عائشة رضي الله عنها[(٤)]: «لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى».

---

(١) رواه البخاري في خلق أفعال العباد (ص ٦٧ - رقم ٢٠٥) حدثنا محمد بن كثير ثنا إسرائيل عن عثمان بن المغيرة عن سالم بن الجعد عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: فذكره.

ورواه أحمد في المسند (٣/ ٣٩٠) ثنا أسود بن عامر أنا إسرائيل به.

ورواه أبو داود كتاب السنة باب في القرآن (٥/ ١٠٣ - رقم ٤٧٣٤) حدثنا محمد بن كثير به.

ورواه الترمذي كتاب فضائل القرآن باب (٥/ ١٨٤ - رقم ٢٩٢٥) من طريق البخاري به.

قال الذهبي في السيرة النبوية من تاريخ الإسلام ص ٢٨٢: «على شرط البخاري» ط. - عمر عبدالسلام تدمري.

(٢) الحجة في بيان المحجة (١/ ٣٣١).

(٣) الحجة في بيان المحجة (١/ ٣٣١).

(٤) رواه البخاري كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ (١٣/ ٤٦٥ - رقم ٧٥٠٠)، ورواه مسلم كتاب التوبة باب في حديث الإفك (٤/ ٢١٢٩ - رقم ٢٧٧٠).

والبخاري رحمه الله (ت: ٢٥٦هـ) لما ساق قول النبي ﷺ: «**منعوني أن أبلغ كلام ربي**»، أتبعه بذكر إجماع الصحابة والتابعين على أن القرآن كلام الله، فقال[1]: «فبيّن النبي ﷺ أن الإبلاغ منه، وأن كلام الله من ربه، **ولم يذكر عن أحد من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان خلاف ما وصفنا**».

كما أن البخاري رحمه الله (ت: ٢٥٦هـ) حكى إجماع العلماء بعد طبقة التابعين أيضاً، فقال[2]: «**ولم يكن بين أحد من أهل العلم في ذلك اختلاف** إلى زمن مالك، والثوري، وحماد بن زيد، وعلماء الأمصار، ثم بعدهم ابن عيينة في أهل الحجاز، ويحيى بن سعيد، وعبدالرحمن بن مهدي في محدثي أهل البصرة، وعبدالله بن إدريس وحفص بن غياث وأبو بكر ابن عياش ووكيع وذووهم ابن المبارك في متبعه، ويزيد بن هارون في الواسطيين، إلى عصر من أدركنا من أهل الحرمين مكة والمدينة، والعراقين، وأهل الشام، ومصر، ومحدثي أهل خُراسان منهم محمد بن يوسف في منتابيه، وأبو الوليد هشام بن عبدالملك في مجتبيه، وإسماعيل بن أبي أويس مع أهل المدينة، وأبو مسهر في الشاميين، ونعيم بن حماد مع المصريين، وأحمد بن حنبل مع أهل البصرة، والحميدي من قريش، ومن اتبع الرسول من المكيين، وإسحاق بن إبراهيم، وأبو عبيد في

---

(١) خلق أفعال العباد ص ٦٧.

(٢) خلق أفعال العباد ص ٦٩.

أهل اللغة، **وهؤلاء المعروفون بالعلم في عصرهم بلا اختلاف منهم أن القرآن كلام الله**».

وشاهد العقل والفطرة أيضاً يشهد للقرآن والسنة والإجماع من أن الله هو المتكلم حقيقة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(1): «فإن المستقر **في فطر الناس وعقولهم** ولغاتهم، **أن** المتكلم بالكلام لا بد أن يقوم به الكلام، فلا يكون متكلماً بشيء لم يقم به، بل هو قائم بغيره، كما لا يكون عالماً بعلم قائم بغيره، ولا حياً بحياة قائمةٍ بغيره، ولا مريداً بإرادة قائمةٍ بغيره، ولا محباً ومبغضاً ولا راضياً وساخطاً بحب وبغض ورضى وسخط قائمٍ بغيره، ولا متألماً ولا متنعماً وفرحاً وضاحكاً بتألم وتنعم وفرح وضحك قائم بغيره، **فكل ذلك عند الناس من العلوم الضرورية البدهية الفطرية التي لا ينازعهم فيها إلا من أحيلت فطرته**».

وكلمات الله نوعان: كونية، وشرعية، دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التحريم: ١٢].

فكلمات الله الكونية هي التي كوّن بها الكائنات فلا يخرج بر ولا فاجر من تكوينه ومشيئته وقدرته. قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأنعام: ١١٥].

(١) التسعينية (١/٢٩٦).

والكلمات الكونية هي التي استعاذ بها النبي ﷺ في قوله: «**أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر**»[1].

وأما كلمات الله الدينية فهي كتبه المنزلة وما فيها من أمره ونهيه[2].

والله عز وجل يتكلم بصوت وحرف إذا شاء، دل على ذلك القرآن والسنة والإجماع، قال الله عز وجل: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩]، وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥، ١٦]. فأفادتنا هذه الآيات أربعة أمور:

الأولى: أن المتكلم حقيقة هو الله، قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله راداً على برغوث وصحبه المبتدعين[3]: «قال الله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩] وتنكرون هذا؟! فتكون هذه الياء المذكورة ترد على غير الله، ويكون مخلوق يدعي الربوبية

---

(١) رواه مالك مرسلاً في الموطأ كتاب الشعر باب ما يؤمر به من التعوذ، ورواه أحمد (٤١٩/٣) من حديث عبدالرحمن بن خنبش.

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٧٠ - ٢٧١).

(٣) محنة الإمام أحمد بن حنبل لحنبل بن إسحاق بن حنبل ص ٥٢.

إلا هو عز وجل، وقال الله لموسى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ٢٠]».

وقال إمام الأئمة في زمانه محمد بن إسحاق بن خزيمة (ت:٣١١هـ)[1]: «فبيّن الله في الآي الثلاث بعض ما كلم الله به موسى مما لا يجوز أن يكون من ألفاظ ملك مُقَرَّب، ولا ملك غير مقرب، غير جائز أن يخاطب ملك مقرب موسى عليه السلام، فيقول: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠] أو يقول: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ [طه: ١٢]، قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، فأعلم الله في هذه الآية جل وعلا أن له كلمة يتكلم بها».

الثانية: أن الله يتكلم بحرف، وذلك واضح من كلام الله الذي كلَّم به موسى، وعقله موسى عليه السلام وسمعه، قال سبحانه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ ، فإن كلام الله هذا حروف.

الثالثة: أن الله يتكلم بصوت، وهذا واضح من قوله: (نودي)، وقوله: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]، وذلك أن النداء لا يكون إلا بصوت إجماعاً، قال أبو نصر السجزي رحمه الله (ت: ٤٤٤هـ)[2]: «والنداء عند العرب صوت لا غير».

---

(١) التوحيد (١/ ٣٣٤ - ٣٣٥).

(٢) الرد على من أنكر الحرف والصوت ص ١٦٧.

وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: ١٣]، قال أبو نصر السجزي رحمه الله (ت: ٤٤٤هـ) [١]: «والاستماع بين الخلق لا يقع إلا إلى صوت، وهو غير الإفهام، لأن الفهم يتأخر عن السمع».

وقال أيضاً [٢]: «والعقل لا يقتضي أن يسمع بشر مبقي على بنيته وعادته ما ليس بصوت».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله [٣]: «و«النداء» في لغة العرب هو صوت رفيع، لا يطلق النداء على ما ليس بصوت لا حقيقة ولا مجازاً».

وقال أيضاً [٤]: «وعُلم بإجماع الأمة ما استفاضت به السنن عن النبي ﷺ من تخصيص موسى بتكليم الله إيّاه، دل ذلك على أن الذي حصل له ليس من جنس الإلهامات وما يُدرك بالقلوب، وإنما هو كلام مسموع بالآذان، ولا يسمع بها إلا ما هو صوت».

الرابعة: أن الكلام يتعلق بمشيئة الله، فالله عز وجل يتكلم إذا شاء كيف شاء بما شاء، ولم يزل متكلماً.

---

(١) الرد على من أنكر الحرف والصوت ص ١١٤.

(٢) الرد على من أنكر الحرف والصوت ص ١١٥.

(٣) مجموع الفتاوى (٦/٥٣١).

(٤) مجموع الفتاوى (٦/٥٣٢).

ومقالات الفرق وانحرافها في القرآن، وصفة الكلام كلها تدور على هذه الأصول المقررة، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[(١)]: «وإن أقوال الناس في القرآن سبعة أقوال تدور على أصلين: **أحدهما**: هل قوله متعلق بقدرته ومشيئته أم لا؟.

والثاني: هل قوله وكلامه قائم بذاته ومتّصف به، أم هو خارج عن الذات ومنفصل عنه؟

فعن هذين الأصلين ينشأ اختلاف الناس في القرآن».

والسنة تعضد القرآن وتوافقه على أن الله يتكلم بحرف كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشرة أمثالها، لا أقول ألّم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»[(٢)].

وقال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: «**فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أوتيته**»[(٣)].

---

(١) توضيح الكافية الشافية ص ٣٣.

(٢) رواه الترمذي كتاب فضائل القرآن باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر (١٧٥/٥ - رقم ٢٩١٠).

وقال الترمذي: «ويروى هذا الحديث من غير هذا الوجه عن ابن مسعود، ورواه أبو الأحوص عن ابن مسعود رفعه بعضهم، ووقفه بعضهم عن ابن مسعود».

ورجح الحافظ ابن كثير في فضائل القرآن ص ٤٨ وقفه على ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها (١/ ٥٥٤ - رقم ٨٠٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قال أبو نصر السجزي رحمه الله (ت: ٤٤٤هـ)[١]: «فلما سمى سبحانه هذا القرآن العربي الفصل كلامه عُلم أن كلامه حروف، كيف وقد أكّد ذلك بذكر الحروف المقطعة في أوائل السور منه مثل: «ألم»، و«ألر»، و«كهيعص»، و«طه»، و«حم»، و«يس»، و«ص»، و«ق»، و«نون»».

وقال أيضاً[٢]: «والنبي ﷺ يقول: «**من قرأ سورة الإخلاص**» **ومن قرأ «آية الكرسي» ومن قرأ «حرفاً من القرآن»، فبيّن أن القرآن سور وآي وحروف**».

كما أنها دلّت على ما دلّ عليه القرآن من أن الله يتكلم بصوت، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: يا آدم! فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار**»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا تكلم الله تعالى بالوحي سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون فلا يزالون حتى يأتيهم جبريل عليه**

---

(١) الرد على من أنكر الحرف والصوت ص ١٥٤.

(٢) الرد على من أنكر الحرف والصوت ص ١٥٥.

(٣) رواه البخاري كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] ولم يقل ماذا خلق ربكم (١٣/٤٥٣ - رقم ٧٤٨٣) واللفظ له، ورواه مسلم كتاب الإيمان باب قوله: «يقول الله لآدم أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين» (١/٢٠١ - رقم ٣٧٩).

السلام، فإذا جاءهم جبريل فزّع عن قلوبهم، فيقولون يا جبريل: ماذا قال ربكم فيقول: «الحق وهو العلي الكبير»[1].

وعن عبدالله بن أنيس رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان»**[2].

قال ابن القيم رحمه الله[3]: «وفي هذا دليل على أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق، لأن صوت الله يسمع من بعد كما يسمع من قرب، وأن الملائكة يصعقون من صوته».

فالقول بأن الله يتكلم بصوت هو مقتضى النص والإجماع كما سبق.

---

(١) رواه البخاري كتاب التفسير سورة الحجر باب (إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) (٨/ ٣٨٠ - رقم ٤٧٠١).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٩٥) وعلقه البخاري كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: {ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له}، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ١٧٤) «إسناده صالح».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ويكفي رواية البخاري في صحيحه مستشهداً به، واحتج به في خلق أفعال العباد، ورواه أئمة الإسلام في كتب السنة، وما زال السلف يروونه، ولم يسمع عن أحد من أئمة السنة أنه أنكره حتى جاءت الجهمية فأنكروه،ومضى على آثارهم من اتبعهم في ذلك». بواسطة مختصر الصواعق (٢/ ٤٦٨).

وقال ابن القيم رحمه الله في مختصر الصواعق (٢/ ٤٦٧): «هذا حديث حسن جليل».

(٣) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٤٦٨ - ٤٦٩).

قال أبو نصر السجزي رحمه الله (ت: ٤٤٤هـ)[1]: «السلف كلهم كانوا قائلين بذلك، وإذا أوردنا فيه المسند وقول الصحابة من غير مخالفة وقعت بينهم في ذلك صار **كالإجماع**».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «**وليس من طوائف المسلمين من أنكر أن الله يتكلم بصوت إلا ابن كلاب ومن اتبعه**».

وقال أيضاً[3]: «قول القائل: إن الله لا يتكلم بصوت ونحو ذلك، كلام لم يقله أحد من سلف الأمة وأئمتها، وليس فيه حديث لا صحيح ولا ضعيف».

وأهل الملل موافقون للمسلمين في أن الله يتكلم بحرف وصوت، ولم يبق إلا الأشاعرة شاذون منفردون عن الخلق جميعاً.

قال أبو نصر السجزي رحمه الله (ت: ٤٤٤هـ)[4]: «واليهود والنصارى مقرون بأن لله كلاماً، ومختلفون في نفي الخلق عنه وإثباته كاختلاف المسلمين، ومجمعون على أن الكلام لا يكون إلا حرفاً وصوتاً».

والذي حمل أهل البدع على دفع هذه النصوص المثبتة للصوت والحرف هو توهمهم أن إثباتها يقتضي مخارج، وأنها تستلزم الحلق.

---

(١) الرد على من أنكر الحرف والصوت ص ١٦٩.

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٢٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٦/ ٥٣٠).

(٤) الرد على من أنكر الحرف والصوت ص ١٥٢.

وهذا إنما يقوله من امتلأ قلبه من رجس التجسيم، فيحمله ذلك على التحريف والرد للنصوص، فهم أولاً ظنوا وتوهموا أن الصوت والحرف كصوت وحرف المخلوق، لا يكون إلا من مخارج وحلق، فأفضى بهم إلى التعطيل والتحريف.

قال الإمام أحمد رحمه الله[1]: «وأما قولهم إن الكلام لا يكون إلا من جوف، وفم، وشفتين، ولسان، أليس قال الله للسموات والأرض ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، أتراها أنها قالت بجوف وفم، وشفتين، ولسان، وأدوات؟

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، أتراها أنها يُسبِّحن بجوف، وفم، ولسان، وشفتين؟

والجوارح إذا شهدت على الكافر فقالوا: ﴿لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]، أتراها أنها نطقت بجوف، وفم، وشفتين، ولسان؟ ولكن الله أنطقها كيف شاء.

وكذلك الله تكلم كيف شاء من غير أن يقول بجوف، ولا فم، ولا شفتين، ولا لسان».

وقال الحافظ عبدالغني المقدسي رحمه الله[2]: «وقول القائل بأن الحرف والصوت لا يكون إلا من مخارج باطل ومحال، قال الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، وكذلك

---

(١) الرد على الجهمية والزنادقة ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٤٩ - ١٥٠.

قال عز وجل إخباراً عن السماء والأرض أنهما ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، فصل القول من غير مخارج ولا أدوات.

وروي عن النبي ﷺ أنه كلمه الذراع المسمومة، وصحّ أنه سلَّم عليه الحجر، وسلّمت عليه الشجرة».

* * *

كلام الله غير مخلوق

صفة الكلام هي أول ما بدأ فيها الابتداع في صفات الله تبارك وتعالى، فإنه في أواخر الدولة الأموية، أطل الجعد بن درهم ببدعته في الصفات، وكان أول ما خاض فيه وأنكره صفة الكلام والمحبة.

وحقيقة القول بإنكار صفة الكلام أو القول بخلق القرآن هو هدم الدين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «والقول بأن كلام الله مخلوق منفصل عنه قول باطل، وهو شعار الجهمية، **وهو في الحقيقة تكذيب للرسل**».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً[2]: «**إن المقصود بقولهم: إن القرآن مخلوق، إن الله لا يكلم ولا يتكلم**، ولا قال ولا يقول، وبهذا تعطل سائر الصفات من العلم والسمع والبصر وسائر ما جاءت به الكتب الإلٰهية، **وفيه أيضاً قدح في نفس الرسالة**؛ فإن الرسل إنما جاءت بتبليغ كلام الله، فإذا قُدح في أن الله يتكلم كان ذلك قدحاً في

---

(١) الاستقامة (١/١٣٧).

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٢/٨١).

رسالة المرسلين، فعلموا أن في باطن ما جاؤا به قدح عظيم في كثير من أصلي الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله».

وتعلقت الجهمية والمعتزلة في فريتها بخلق القرآن بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، ولا متعلق لهم في ذلك، **لأن «كل» عمومها فيما سيقت له**، فمعنى الآية: الله خالق كل شيء مما هو مخلوق، وهذا نظير قوله تعالى عن ريح عاد ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥] يعني مما أراد الله تدميره، بدليل أن مساكنهم لم تدمرها الريح كما قال سبحانه: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وتعلقوا كذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، وتوهموا أن جعل بمعنى خلق، وهذا من نقص علمهم، فإن جعل بمعنى خلق إذا تعدت إلى مفعول واحد، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ فجعل هنا تعدت إلى مفعولين، الأول: الضمير «الهاء»، والثاني: قرآناً، وعربياً نعت. فصار معنى جعل «أنزل» كما قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ١٢].

وتعلق القائلون بخلق القرآن أيضاً بقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن

﴿ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، وقالوا محدث يعني مخلوق، فحملوا لغة القرآن على اصطلاح المتكلمين.

فالمراد بمحدث أنه آخر ما نزل وليس المراد بمحدث مَخْلُوقاً.

قال الإمام أحمد رحمه الله[١]: «فأوقع عليه الحدث عند إتيانه إيانا، وأنت تعلم أنه لا يأتينا بالأنباء إلا مبلغ ومذكر».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٢]: «وكان القرآن ينزل شيئاً فشيئاً، فما تقدم نزوله فهو متقدم على ما تأخر نزوله، وما تأخر نزوله محدث بالنسبة إلى ذلك المتقدم، ولهذا قال: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، فدل على أن الذكر منه مُحدَث ومنه ما ليس بمحدث».

فالمحدث من الذكر والتنزيل هو آخر ما نزل فهذا معناه في لغة القرآن والصحابة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما[٣]: «يا معشر المسلمين! كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء؟ وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم أحدث الأخبار بالله».

---

(١) الرد على الزنادقة والجهمية ص ٣١.

(٢) الصفدية (٢/ ٨٥).

(٣) رواه البخاري كتاب الشهادات باب لا يُسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها (٥/ ٢٩١ - رقم ٢٦٨٥).

وفارق محمد بن سعيد بن كلاب الجماعة في القرآن، وزعم أن القرآن حكاية عن كلام الله، ثم جاء تلميذه أبو الحسن الأشعري واستنكر الحكاية لأنها تقتضي أن تكون مثل المحكي، وليست الحروف مثل المعنى، فقال الأشعري هو عبارة عن معنى كلام الله ودلالة عليه، وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله هذا القول وبيَّن بطلانه من تسعين وجهاً في رسالته التسعينية[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «فإن ابن كُلاب قال: الحروف حكاية عن كلام الله، وليست من كلام الله، لأن الكلام لا بد أن يقوم بالمتكلم، والله يمتنع أن يقوم به حروف وأصوات، **فوافق الجهمية والمعتزلة في هذا النفي**، فجاء الأشعري بعده - وهو موافق لابن كلاب - على عامة أصوله فقال: الحكاية تقتضي أن تكون مثل المحكي، وليست الحروف مثل المعنى، بل هي عبارة عن المعنى ودلالة عليه، وهم وأتباعهم يقولون: إن تسمية ذلك كلاماً لله مجازٌ لا حقيقة».

وقد أغلظ العلماء القول فيمن زعم أن القرآن حكاية عن كلام الله.

---

(١) مطبوعة في ثلاث مجلدات بتحقيق د. محمد بن إبراهيم العجلان، الناشر: مكتبة المعارف - الرياض.

(٢) التسعينية (٢/٤٣٨).

قال أبو جعفر أحمد بن سنان الواسطي[1]: «من زعم أن القرآن شيئان، أو أن القرآن حكاية، فهو والله الذي لا إله إلا هو زنديق كافر بالله»[2].

وسبب إغلاظهم هذا، لأن القول بالحكاية أو المعنى حقيقته تؤول إلى قول الجهمية بنفي الكلام عن الله، وفي أنه مخلوق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[3]: «طائفة قالت: كلام الله ليس إلا مجرد معنى قائم بالنفس، وحروف القرآن ليست من كلام الله، ولا تكلم بها، ولا يتكلم الله بحرف ولا صوت، و(الٓمٓ) و(طسٓ) و(نٓ) وغير ذلك ليس من كلام الله الذي تكلم هو به، ولكن خلقها، ثم منهم من قال: خلقها في الهواء، ومنهم من قال: خلقها مكتوبة في اللوح المحفوظ، ومنهم من قال: جبريل هو الذي أحدثها، وصنّفها بإقدار الله له على ذلك، **وهؤلاء وافقوا الجهمية في نفيهم عن الله من الكلام ما نفته الجهمية، وفي أنهم جعلوا هذا مخلوقاً كما جعلته الجهمية مخلوقاً، ولكن فارقوهم في أنهم أثبتوا معنى القرآن غير مخلوق**، وقالوا: إن كلام الله اسم لما يقوم به ويتّصف به، لا لما

---

(١) أسنده الضياء المقدسي في اختصاص القرآن بعود إلى الرحيم الرحمن (رقم ١٦ - ص ٣٢)، وقال محققه الشيخ عبدالله الجديع وفقه الله: «سنده صحيح».

(٢) هذا الآن لا نجريه كحكم في آحاد القائلين به لجهلهم بلوازم هذا القول.

(٣) التسعينية (٢/٤٣٢ - ٤٣٣).

يخلقه في غيره، **وأطلقوا القول بأن القرآن غير مخلوق، وإن كانوا لا يريدون جميع المعنى الذي أراد السلف والأئمة والعامة**، بل بعضه، كما أن الجهمية تطلق القول بأن القرآن كلام الله، ولا يعنون به المعنى الذي يعنيه السلف والأئمة والعامة، لكن هؤلاء منعوا أن تكون هذه الحروف من كلام الله، والجهمية المحضة سموها كلام الله، لكن قالوا: هي مع ذلك مخلوقة، وأولئك لا يجعلون ما يسمونه كلام الله مخلوقاً، ومنهم من يُسمي كلام الله - أيضاً - على سبيل الاشتراك، وأكثرهم يقولون: نسميها بذلك مجازاً».

وقال والدنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله[1]:
«والفرق بين قول الأشاعرة وقول المعتزلة: قال المحققون إنه لا فرق، بل المعتزلة خير من الأشاعرة في هذا، فالمعتزلة يقولون: هذا القرآن الذي بين أيدينا كلام الله، والأشاعرة يقولون: عبارة عن كلام الله، وليس كلام الله. وقد اتفق الجميع على أن ما بين دفتي المصحف مخلوق، لكن المعتزلة قالوا: هذا كلام الله خلقه كما خلق السموات والأرض، والشمس والقمر والنجوم، وأضافها الله إلى نفسه إضافة تشريف كما أضاف المساجد إليه كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٤]، وكما أضاف الكعبة إليه، فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦]، وكما أضاف الناقة إليه،

(١) شرح الأربعين النووية ص ٢٥١.

فقال: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴾ [الشمس: ١٣].

وقال الأشاعرة: كلام الله هو المعنى القائم بنفسه وخلق أصواتاً سمعها جبريل عبارة عما في نفسه، وعلى هذا فالقرآن على مذهب الأشاعرة مخلوق، لكن قالوا: إنه عبارة عن كلام الله».

ونظراً لخطورة مقالة الأشعري في صفة الكلام، واشتباهها على من لم يعرف حقيقتها، وأنها تؤول إلى القول بخلق القرآن، وأن الأشعري بقي على قوله في الكلام النفسي، فقد أغلظ أئمة السنة القول فيه.

قال أبو نصر السجزي رحمه الله (ت: ٤٤٤هـ)[1]: «والمعتزلة مع سوء مذهبهم أقل ضرراً على عوام أهل السنة من هؤلاء، لأن المعتزلة قد أظهرت مذهبها ولم تستقف ولم تموه، بل قالت: إن الله بذاته في كل مكان، وإنه غير مرئي، وأنه لا سمع له ولا بصر، ولا علم، ولا قدرة ولا قوة، ولا إرادة، ولا كلام، ولا صفات مضافة إلى ذاته لازمة لها، بل هذه الأشياء أفعال له محدثة في غيره، وإن القرآن مخلوق، وإن من مات من غير توبة من أصحاب الكبائر خلد في النار مع الكفار، وإن الحوض والشفاعة والميزان لا أصل لها، وإن من زنا أو سرق أو ارتكب كبيرة خرج من الإيمان، ولم يدخل في

---

(١) الرد على من أنكر الحرف والصوت ص ١٧٧ - ١٧٨، وقد ذكر كلاماً أغلظ من هذا في ص ١١٠.

الكفر وسمي فاسقاً.

وإن الدار إذا لم يظهر فيها قولهم دار حرب، وأن من انتحل مذهب أهل الأثر واعتقد ما في الأحاديث على ظاهرها حشوي، وعند التحقيق كافر.

فعرف أكثر المسلمين مذهبهم وتجنّبوهم وعدوهم أعداء.

والكلابية والأشعرية قد أظهروا الرد على المعتزلة، والذب عن السنة وأهلها، وقالوا في القرآن وسائر الصفات ما ذكرنا بعضه، وقولهم في القرآن حيرة، يدعون قرآناً ليس بعربي، وأنه الصفة الأزلية، وأما هذا النظم العربي فمخلوق عندهم».

وقال الموفق أبو محمد المقدسي رحمه الله (ت: ٦٢٠هـ)[١]: «ومدار القوم على القول **بخلق القرآن ووفاق المعتزلة**، ولكن أحبّوا أن لا يُعلم بهم فارتكبوا مكابرة العيان، وجحد الحقائق، ومخالفة الإجماع، ونبذ الكتاب والسنة وراء ظهورهم، والقول بشيء لم يقله قبلهم مسلم ولا كافر».

وقال أيضاً[٢]: «**فقوله قول المعتزلة لا محالة**، إلا أنه يريد التلبيس، فيقول في الظاهر قولاً يوافق أهل الحق، ثم يُفسِّره بقول المعتزلة.

(١) حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة ص ٣٤.
(٢) حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة ص ٤٧.

فمن ذلك أنه يقول: القرآن مقروء، متلو، محفوظ، مكتوب، مسموع. ثم يقول: القرآن في نفس الباري قائم به، ليس هو سوراً ولا آيات، ولا حروفاً ولا كلمات.

فكيف يتصوّر إذاً قراءته وسماعه، وكتابته؟

ويقولون: إن موسى سمع كلام الله من الله، ثم يقولون: ليس بصوت.

ويقولون: إن القرآن مكتوب في المصاحف، ثم يقولون: ليس فيها إلا الحبر والورق».

ومن العلماء المعاصرين الذين بيّنوا أن الأشعري رحمه الله بقي على مقالته في القرآن العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله حيث قال[1]: «وإنما ثبت على قوله في الكلام النفسي، وبقي على مذهب ابن كلاب».

وكلام ابن سعدي هذا اشدد به يداك، لما هو معلوم عنه من الورع والديانة والعدل والإنصاف، والتثبت فيما يُنسب للأئمة.

ودعوى الأشاعرة أن كلام الله معنى قائم بالنفس تستلزم المحال وهو دليل الفساد، وهذا ما أَلْزَم به أبو نصر السجزي أحدَ الأشاعرة،

---

(١) توضيح الكافية الشافية ص ١٦٠.

حيث قال له: «ما تقول في موسى عليه السلام حيث كلَّمه الله؟ أفهم كلام الله مطلقاً أو مقيداً؟ فتلكأ الأشعري! فقال أبو نصر: إن قلت إنه عليه السلام فهم كلام الله مطلقاً اقتضى أن لا يكون لله كلام من الأزل إلى الأبد إلا وقد فهمه موسى، وهذا يؤول إلى الكفر، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ولو جاز ذلك لصار من فهم كلام الله عالماً بالغيب وبما في نفس الله تعالى، وقد نفى الله تعالى ذلك بما أخبر به عن عيسى عليه السلام أنه يقول: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وإذا لم يجز إطلاقه، وألجئت إلى أن تقول: «أفهمه الله ما شاء من كلامه» دخلت في التبعيض الذي هربت منه، وكفرت من قال به ويكون مخالفك أسعد منك، لأنه قال بما اقتضاه النص»[1].

ومما يتعلق بالاعتقاد في القرآن مسألة «اللفظ»، وقد خشي الأئمة من هذه المسألة، لأن حقيقتها تدور على مراد المتكلم بها، حيث يحتمل أن يتكلم باللفظ من يريد الملفوظ وهو كلام الله، ويحتمل أن يتكلم باللفظ من يريد فعل العبد، وقد صدرت عبارات الأئمة تبعاً لكل مراد، وإذا لم تفهم عبارات الأئمة على هذا الوجه اضطربت الأمور عند من لم يسبر غورها.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٢/٩٠ - ٩٢).

ومسألة اللفظ هي كما وصفها ابن البنا الحنبلي رحمه الله: «وهذه المسألة غامضة المعنى دقيقة الشبه، قد كدرت مذاهب جماعة»[1].

ولهذا من لم يسبر غور هذه المسألة، ولم يعرف على أي جهة خرجت أقوال الأئمة اضطربت عليه الأمور ووقع في الحيرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «**ومسألة اللفظ بالقرآن** قد اضطرب فيها أقوام لهم علم وفضل ودين وعقل،وجرت بسببها مخاصمات ومهاجرات بين أهل الحديث والسنة».

وهذا أبو علي الحسين الكرابيسي مع ذكائه وعلمه لم يتبين وجه زجر الإمام أحمد في مسألة اللفظ فاضطربت عليه الأمور، فلما بلغ أحمد أن الكرابيسي قال: لفظي بالقرآن مخلوق، قال أحمد: هذه بدعة، فرجع الكرابيسي وقال: تلفظك في القرآن يعني غير الملفوظ، وقال في أحمد: أي شيء نعمل بهذا الصبي؟ إن قلنا مخلوق: قال بدعة، وإن قلنا: غير مخلوق، قال بدعة[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[4]: «وكان أحمد وغيره من السلف ينكرون على من يقول: لفظي بالقرآن مخلوق أو غير

---

(١) المختار في أصول السنة ص ٧٤.

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/٣٣٣).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٢/٨١).

(٤) سؤالات أهل الرحبة ص ١٠٢ - ١٠٣ ،تحقيق: حسين بن عكاشة.

مخلوق، ويقولون: من قال: هو مخلوق فهو جهمي، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع، فإن اللفظ يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظاً، ويُراد باللفظ الملفوظ به، وهو نفس الحروف المنطوقة[1].

وأما أصوات العباد، ومداد المصاحف فلم يتوقف أحد من السلف في أن ذلك مخلوق، وقد نص أحمد على أن أصوات القارئ صوت العبد، وكذلك غير أحمد من الأئمة، وقال أحمد: من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، يريد به القرآن فهو جهمي.

والإنسان وجميع حركاته وأفعاله وأصواته مخلوقة، وجميع صفاته مخلوقة، فمن قال عن شيء من صفاته إنها غير مخلوقة أو قديمة فهو مخطئ ضال، ومن قال عن شيء من كلام الله أو صفاته إنه مخلوق فهو مخطئ ضال، وأما أصوات العباد بالقرآن والمداد الذي في المصحف فلم يكن أحد من السلف يتوقف في ذلك، بل كلهم متفقون على أن أصوات العباد مخلوقة، وكلام الله الذي كُتب بالمداد غير مخلوق، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩]».

وظهرت كذلك الواقفة الذين قالوا: نقول القرآن كلام الله ونسكت.

---

(١) لأن فَعْلاً يأتي بمعنى مفعول.

فجعل الإمام أحمد يُحذر من السكوت، ويبين أن هؤلاء شر من الجهمية، مع أنهم ساكتون ممسكون عن قول كلمة الكفر، وذلك لفراسة أحمد وخبرته بأغراض المبتدعة، ومعرفته بتلونهم وطرقهم في استدراج العامة إلى البدع من السكوت إلى ما يؤول بعد ذلك إلى القول بخلق القرآن.

قال أبو الحارث: سألت أبا عبدالله قلت: إن بعض الناس يقول: إن هؤلاء الواقفة هم شر من الجهمية. قال: هم أشد على الناس تزييناً من

الجهمية، هم يشككون الناس، وذلك أن الجهمية قد بان أمرهم، وهؤلاء إذا قالوا: إنا لا نتكلم، استمالوا العامة، إنما هذا يصير إلى قول الجهمية.

وسمعته يُسأل عمن قال: أقول القرآن كلام الله وأسكت. قال: لا، هذا شاك، لا، حتى يقول: غير مخلوق[1].

وبيّن أحمد رحمه الله وجه زجره عن السكوت، وقال: هذا يزعم أن الله لم يتكلم ولا يتكلم[2].

وقال أيضاً: هو ذا موضع السوء وقوفه، كيف لا يعلم إما حلال وإما حرام، إما هكذا وإما هكذا، قد نزّه الله عز وجل القرآن عن أن

---

(١) السنة للخلال (٥/١٣٥ - رقم ١٧٩٩).

(٢) السنة للخلال (٥/١٣٧ - رقم ١٨٠٢).

يكون مخلوقاً، وإنما يرجعون[1] هؤلاء إلى أن يقولوا إنه مخلوق، فاستحسنوا لأنفسهم فأظهروا الوقف[2].

وهذا الزجر عن السكوت لم ينفرد به أحمد، بل هو مما توافقت فيه أقوال أئمة السنة النجباء الذين تلمحوا مقاصد الساكتين.

قال إسحاق بن راهويه[3]: «من قال لا أقول القرآن مخلوق ولا غير مخلوق، فهو جهمي».

وقال أحمد بن صالح المصري[4]: «من يقول القرآن كلام الله، ولا يقول مخلوق ولا غير مخلوق هذا شاك».

وقال محمد بن مقاتل العباداني في الواقفة[5]: «هم عندي شر من الجهمية».

وقال عثمان بن أبي شيبة[6]: «هؤلاء الذين يقولون كلام الله ويسكتون شر من هؤلاء (يعني: ممن قال القرآن مخلوق)».

وأنكر الأئمة السكوت والوقف خصوصاً في زمانهم، لأن الناس خاضوا في بدعة خلق القرآن، فلم يجد الأئمة بُدّاً من الرد والتصريح بأنه كلام الله غير مخلوق، فمن سكت ووقف والناس إذ ذاك فريقان،

---

(١) جاء به على لغة: يتعاقبون فيكم ملائكة بالّليل.
(٢) السنة للخلال (٥/ ١٣٤ - رقم ١٧٩٧).
(٣) السنة للخلال (٥/ ١٣٧ - رقم ١٨٠٣).
(٤) السنة للخلال (٥/ ١٤١ - رقم ١٨١٠).
(٥) السنة للخلال (٥/ ١٤١ - رقم ١٨١١).
(٦) السنة للخلال (٥/ ١٤١ - رقم ١٨٠٩).

فريق ضلالة يقول بخلق القرآن، وفريق هدى يرد هذه البدعة، فسكوت الساكت حينئذ دليل الريب والتردد، فهو غير عالم بحقيقة الخلاف، فهو ممسك ساكت لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

ولهذا لَمَا سُئل أحمد: هل لهم رخصة أن يقول الرجل: القرآن كلام الله ثم يسكت؟ فقال: ولِمَ يسكت؟ لولا ما وقع فيه الناس كان يسعه السكوت، ولكن حيث تكلموا، لأي شيء لا يتكلمون؟![1].

وفسّر أبو عمرو الداني مراد أحمد، فقال[2]: «يريد أنه إنما يسكت لريبة».

وقال أبو بكر الآجري رحمه الله[3]: «فهؤلاء عند كثير من العلماء ممن رد على من قال بخلق القرآن، قالوا: هؤلاء الواقفة: مثل من قال: القرآن مخلوق وأشر، لأنهم شكوا في دينهم، ونعوذ بالله ممن يشك في كلام الرب: أنه غير مخلوق».

وقال القحطاني رحمه الله[4]:

والوقف في القرآن خُبث باطلٌ وخِداعُ كُلِّ مُذَبْذَبٍ حَيْرَان

قل: غَيْرُ مخلوقٍ كلامُ إلهِنا واعْجَل ولا تكُ في الإجابةِ وَانِ

* * *

(١) المسائل والرسائل (١/ ٢٥٢).

(٢) الرسالة الوافية ص ١٥٦.

(٣) الشريعة (١/ ٢٣٢).

(٤) النونية ص ١٤.

القرآن كلام الله
وجبريل ومحمد ﷺ مبلغون عن الله

أضيف القرآن إلى الرسول الملكي جبريل عليه السلام، والرسول البشري محمد ﷺ إضافة تبليغ وأداء، والقرآن كلام الله سبحانه هو الذي ابتدأ التكلم به، حظ محمد ﷺ وجبريل منه البلاغ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت: ٧٢٨هـ)[1] : «قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]، فهذا قد ذكره في موضعين، فقال في الحاقة ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠ - ٤٢]، فالرسول هنا محمد ﷺ، وقال في التكوير: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢٣]، فالرسول هنا جبريل، فأضافه إلى الرسول من البشر تارة، وإلى الرسول من الملائكة تارة، باسم الرسول، ولم يقل: إنه لقول ملك ولا نبي، لأن لفظ الرسول يبين أنه مبلغ عن غيره لا منشئ له من عنده: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/٢٦٥ - ٢٦٦).

ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، فكان قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، بمنزلة قوله لتبليغ رسول، أو مبلغ من رسول كريم، أو جاء به رسول كريم، أو مسموع عن رسول كريم؛ وليس معناه أنه أنشأه أو أحدثه، أو أنشأ شيئاً منه، أو أحدثه رسول كريم، إذ لو كان منشئاً لم يكن رسولاً فيما أنشأه وابتدأه، وإنما يكون رسولاً فيما بلغه وأدّاه، ومعلوم أن الضمير عائد إلى القرآن مطلقاً.

وأيضاً فلو كان أحد الرسولين أنشأ حروفه ونظمه امتنع أن يكون الرسول الآخر هو المنشئ المؤلف لها، فبطل أن تكون إضافته إلى الرسول لأجل إحداث لفظه ونظمه. ولو جاز أن تكون الإضافة هنا لأجل إحداث الرسول له أو لشيء منه جاز أن نقول إنه قول البشر».

وأزال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله التعارض المتوهم لدى البعض بين قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [الحاقة: ٤٠]، فقال[1] : «ليست إحدى الآيتين معارضة للأخرى بوجه من الوجوه، ولا في واحدة منهما حجة لقول باطل، وإن كان كل من الآيتين قد يحتج بها بعض الناس على قول باطل، وذلك أن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾،

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/٢٥٩ – ٢٦٠).

فيه دلالة على أنه يسمع كلام الله من التالي المبلغ، وأن ما يقرؤه المسلمون هو كلام الله، كما في حديث جابر في السنن: «**أن النبي ﷺ كان يعرض نفسه على الناس في الموقف، ويقول: ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي؟ فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي**»، وفي حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه لما خرج على المشركين فقرأ عليهم: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم: ١ - ٣]، قالوا له: هذا كلامك أم كلام صاحبك؟ فقال: ليس بكلامي ولا بكلام صاحبي، ولكنه كلام الله.

وقد قال تعالى: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ۝١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ۝١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ۝٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ١١ - ٢٥].

فمن قال: إن هذا القرآن قول البشر كان قوله مضاهياً لقول الوحيد الذي أصلاه الله سقر، ومن المعلوم لعامة العقلاء أن من بلّغ كلام غيره كالمبلغ لقول النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»، إذا سمعه الناس من المبلّغ، قالوا: هذا حديث

رسول الله ﷺ، وهذا كلام رسول الله ﷺ. ولو قال المبلغ هذا كلامي وقولي لكذّبه الناس لعلمهم بأن الكلام كلام لمن قاله مبتدئاً منشئاً، لا لمن أدّاه راوياً مبلغاً، فإذا كان مثل هذا معلوماً في تبليغ كلام المخلوق فكيف لا يعقل في تبليغ كلام الخالق الذي هو أولى أن لا يجعل كلاماً لغير الخالق جل وعلا؟!».

* * *

الفرق بين الحرف الذي تكلم الله به والحرف المكتوب في المصحف

القرآن كلام الله تكلم الله به حقيقة، فهو صفة قائمة بالله تبارك وتعالى، والقرآن الذي في مصاحفنا هو كلام الله، لأن الكلام كلام من قاله مبتدئاً، لا كلام من بلّغه مؤدياً، ولكن لا بد من التفريق بين مرتبة تكلم الله بالقرآن، وبين مرتبة كتابته في مصاحفنا، فنفرق بين الحرف الذي تكلم الله به، وبين الحرف المكتوب في المصحف، فكل مرتبة لها حكم يخصها، وصفة الله لم تحل بغيره.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت: ٧٢٨هـ) ناقلاً عن الإمام أحمد وأصحابه إنكارهم الشديد على من زعم أن المداد الذي في المصحف قديم[1] : «ما علمت أن عالماً يقول ذلك إلا ما يبلغنا عن بعض الجهّال: من الأكراد ونحوهم.

وقد ميّز الله في كتابه بين الكلام والمداد، فقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، فهذا خطأ من هذا الجانب، وكذلك من زعم أن

(١) مجموع الفتاوى (١٢/٢٣٨ – ٢٤١).

القرآن محفوظ في الصدور، كما أن الله معلوم بالقلوب، وأنه متلو بالألسن، كما أن الله مذكور بالألسن، وأنه مكتوب في المصحف، كما أن الله مكتوب. وجعل ثبوت القرآن في هذه المواضع؛ فهذا - أيضاً - مخطئ في ذلك، فإن الفرق بين ثبوت الأعيان في المصحف، وبين ثبوت الكلام فيها بيِّن واضح؛ فإن الموجودات لها أربع مراتب: مرتبة في الأعيان، ومرتبة في الأذهان، ومرتبة في اللسان، ومرتبة في البنان. فالعلم يطابق العين، واللفظ يطابق العلم، والخط يطابق اللفظ.

فإذا قيل: إن العين في كتاب الله كما في قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]، فقد علم أن الذي في الزبر إنما هو الخط المطابق للفظ المطابق للعلم، فبين الأعيان وبين المصحف مرتبتان، وهي اللفظ والخط، وأما الكلام نفسه فليس بينه وبين المصحف مرتبة، بل نفس الكلام يجعل في الكتاب، وإن كان بين الحرف الملفوظ والحرف المكتوب فرق من وجه آخر، إلا إذا أريد أن الذي في المصحف هو ذكره، والخبر عنه، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٧].

فالذي في زبر الأولين ليس هو نفس القرآن المنزل على محمد ﷺ، فإن هذا القرآن لم ينزل على أحد قبله ﷺ، ولكن في زبر

الأولين ذكر القرآن وخبره، كما فيها ذكر محمد ﷺ وخبره، كما أن أفعال العباد في الزبر كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]، فيجب الفرق بين كون هذه الأشياء في الزبر، وبين كون الكلام نفسه في الزبر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٨]، وقال تعالى: ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٢ - ٣].

فمن قال إن المداد قديم فقد أخطأ، ومن قال: ليس في المصحف كلام الله، وإنما فيه المداد الذي هو عبارة عن كلام الله فقد أخطأ؛ بل القرآن في المصحف كما أن سائر الكلام في الورق، كما أن الأمة مجمعة عليه، وكما هو في فطر المسلمين، فإن كل مرتبة لها حكم يخصها، وليس وجود الكلام في الكتاب كوجود الصفة في الموصوف، مثل وجود العلم والحياة في محلهما، حتى يقال: إن صفة الله حلت بغيره، أو فارقته، ولا الوجود فيه كالدليل المحض، مثل وجود العالم الدال على الباري تعالى، حتى يقال: ليس فيه إلا ما هو علامة على كلام الله عز وجل، بل هو قسم آخر؛ ومن لم يعط كل مرتبة مما يستعمل فيها أداة الظرف حقها، فيفرق بين وجود الجسم في الحيّز وفي المكان، ووجود العرض بالجسم، ووجود الصورة بالمرآة، ويفرق بين رؤية الشيء بالعين يقظة، وبين رؤيته بالقلب يقظة ومناماً، ونحو ذلك، وإلا اضطربت عليه الأمور.

وكذلك سؤال السائل عما في المصحف هل هو حادث أو قديم؟ سؤال مجمل، فإن لفظ القديم أولاً ليس مأثوراً عن السلف، وإنما الذي اتفقوا عليه أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وهو كلام الله حيث يتلى، وحيث كُتب، وهو قرآن واحد، وكلام واحد، وإن تنوعت الصور التي يتلى فيها ويكتب من أصوات العباد ومدادهم.

فإن الكلام كلام من قاله مبتدئاً، لا كلام من بلغه مؤدياً، فإذا سمعنا محدثاً يحدث بقول النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»، قلنا: هذا كلام رسول الله ﷺ لفظه ومعناه، مع علمنا أن الصوت صوت المبلّغ، لا صوت رسول الله ﷺ، وهكذا كل من بلّغ كلام غيره من نظم ونثر.

ونحن إذا قلنا: هذا كلام الله لما نسمعه من القارئ، ونرى في المصحف، فالإشارة إلى الكلام من حيث هو هو، مع قطع النظر عمّا اقترن به من البلاغ من صوت المبلغ، ومداد الكاتب».

وقال أيضاً[(١)] : «فبيَّن الإمام أحمد أن القائل إذا قال لما سمعه من المبلغين المؤدين: هذا كلام الله، فالإشارة إلى حقيقته التي تكلم الله بها، وإن كنا إنما سمعناها ببلاغ المبلغ وحركته وصوته؛ فإذا أشار إلى شيء من صفات المخلوق لفظه أو صوته أو فعله، وقال: هذا غير مخلوق، فقد ضلَّ وأخطأ. فالواجب أن يقال: القرآن كلام

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٤٢).

الله غير مخلوق. فالقرآن في المصاحف، كما أن سائر الكلام في الصحف، ولا يقال: إن شيئاً من المداد والورق غير مخلوق، بل كل ورق ومداد في العالم فهو مخلوق، ويقال أيضاً: القرآن الذي في المصحف كلام الله غير مخلوق، والقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله غير مخلوق».

* * *

كلام الله يتفاضل

النصوص صريحة في تفضيل كلام الله بعضه على بعض، فقد جاء أن سورة الفاتحة أعظم سورة في القرآن، وآية الكرسي أعظم آية فيه، وسورة قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن.

فالتفاضل باعتبار المتكلم به، وإلا فالمتكلم هو الله جل جلاله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «إن تفاضل القرآن وغيره من كلام الله ليس باعتبار نسبته إلى المتكلم، فإنه سبحانه واحد، ولكن باعتبار معانيه التي يتكلم بها، وباعتبار ألفاظه المبيّنة لمعانيه، والذي قد صح عن النبي ﷺ أنه فضّل من السور سورة الفاتحة وقال: «إنه لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها»، والأحكام الشرعية تدل على ذلك، وقد بسط الكلام على معانيها في غير هذا الموضع.

وفضّل من الآيات آية الكرسي، وقال في الحديث الصحيح لأبي بن كعب رضي الله عنه: «**أتدري أي آية في كتاب الله معك أعظم؟** قال: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم)، فضرب بيده في صدره، وقال: «**ليهنك العلم أبا المنذر!**».

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/١٢٩ - ١٣٠).

وليس في القرآن آية واحدة تضمنت ما تضمنته آية الكرسي، وإنما ذكر الله في أول سورة الحديد وآخر سورة الحشر عدة آيات لا آية واحدة».

أما معنى ثلث القرآن المقصود في فضل سورة الإخلاص، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «وقد بيّنا أن أحسن الوجوه أن معاني القرآن ثلاثة أنواع: توحيد، وقصص، وأحكام.

وهذه السورة صفة الرحمن فيها التوحيد وحده، وذلك لأن القرآن كلام الله، والكلام نوعان: إما إنشاء، وإما إخبار، والإخبار إما خبر عن الخالق، وإما خبر عن المخلوق.

فالإنشاء هو الأحكام كالأمر والنهي، والخبر عن المخلوق هو القصص. والخبر عن الخالق هو ذكر أسمائه وصفاته. وليس في القرآن سورة هي وصف الرحمن محضاً إلا هذه السورة».

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سرية، فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «**سلوه: لأي شيء يصنع ذلك**»، فسألوه، فقال: لأني أحب أن أقرأ بها. فقال رسول الله ﷺ: «**أخبروه أن الله يحبه**» ».

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/١٢٩ - ١٣٠).

ثم قال شيخ الإسلام رحمه الله[1]: «والذين أشكل عليهم هذا القول لهم مأخذان: أحدهما منع تفاضل كلام الله بعضه على بعض، وقد تبين ضعفه.

الثاني: اعتقادهم أن الأجر يتبع كثرة الحروف، فما كثرت حروفه من الكلام يكون أجره أعظم، قالوا: لأن النبي ﷺ قال: «**من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول (الٓمٓ) حرف؛ ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**». قال الترمذي: حديث صحيح، قالوا: ومعلوم أن ثلث القرآن حروفه أكثر بكثير فتكون حسناته أكثر.

فيقال لهم: هذا حق كما أخبر به النبي ﷺ، ولكن الحسنات فيها كبار وصغار، والنبي ﷺ مقصوده أن الله يعطي العبد بكل حسنة عشر أمثالها، كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فإذا قرأ حرفاً كان ذلك حسنة فيعطيه بقدر تلك الحسنة عشر مرات، لكن لم يقل: إن الحسنات في الحروف متماثلة، كما أن من تصدق بدينار يعطى بتلك الحسنة عشر أمثالها. والواحد من بعد السابقين الأولين لو أنفق مثل أُحُد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن النبي ﷺ، فهو إذا أنفق مدّاً كان له بهذه الحسنة عشر أمثالها.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/١٣٦ - ١٣٨).

ولكن لا تكون تلك الحسنة بقدر حسنة من أنفق مُدّاً من الصحابة السابقين، ونظائر هذا كثيرة.

فكذلك حروف القرآن تتفاضل لتفاضل المعاني وغير ذلك، فحروف الفاتحة له بكل حرف منها حسنة أعظم من حسنات حروف من ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١]، وإذا كان الشيء يعدل غيره، فعدل الشيء - بالفتح - هو مساويه، وإن كان من غير جنسه، كما قال تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]، والصيام ليس من جنس الطعام والجزاء، ولكنه يعادله في القدر.

وكذلك قوله ﷺ: «لا يقبل الله منه حرفاً ولا عدلاً»، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، أي فدية، والفدية ما يعدل بالمفدى وإن كان من غير جنسه: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، أي يجعلون له عدلاً، أي نداً في الإلهية، وإن كانوا يعلمون أنه ليس من جنس الرب سبحانه.

ولو كان لرجل أموال من أصناف متنوعة، ولآخر ذهب بقدر ذلك لكان مال هذا يعدل مال هذا، وإن لم يكن من جنسه، ولهذا قد يكون عند الرجل من الذهب وغيره من الأموال ما يعدل شيئاً عظيماً، وإذا احتاج إلى دواء أو مركب أو مسكن أو نحو ذلك ولم يكن قادراً على اشترائه لم تنفعه تلك الأموال العظيمة. وإن كان التوحيد أعظم

من ذلك، وإذا احتاج الإنسان إلى معرفة ما أمر به وما نهى عنه من الأفعال، أو احتاج إلى ما يؤمر به ويعتبر به من القصص والوعد والوعيد لم يسد غيره مسده، فلا يسد التوحيد مسد هذا، ولا تسد القصص مسد الأمر والنهي، ولا الأمر والنهي مسد القصص، بل كل ما أنزل الله ينتفع به الناس ويحتاجون إليه».

* * *

الباب السادس عشر:

المدخل
إلى التفسير



المدخل إلى التفسير

الأدلة على ترغيب الشارع في معرفة معاني القرآن وتدبر آياته كثيرة جداً، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، قال أبو عبدالله القرطبي رحمه الله(١): «في هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن».

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

قال ابن عطية الأندلسي رحمه الله(٢): «هذا أمر بالنظر والاستدلال».

وقال ابن القيم رحمه الله(٣): «ورأس مال الأمر وعموده في ذلك إنما هو: دوام التفكر، وتدبر آيات القرآن، بحيث يستولي على الفكر، ويشغل القلب، فإذا صارت معاني القرآن مكان الخواطر من قلبه وهي الغالبةُ عليه، بحيث يصير إليها مفزعه وملجؤه، تمكّن

---

(١) أحكام القرآن (١٥/ ١٩٢).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ١٨٧).

(٣) الرسالة التبوكية ص ٧٠.

حينئذ الإيمان من قلبه، وجلس على كرسيه، وصار له التصرفُ، وصار هو الآمر المطاع أمره، فحينئذ يستقيم له سيره، ويتضح له الطريق، وتراه ساكناً وهو يباري الريح: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]».

وقد بكّت الله اليهود لقراءتهم التوراة قراءة مجردة عن تدبر ما فيها من المعاني، فقال سبحانه ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: ٧٨].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله[١]: «لا يعلمون ما في الكتاب الذي أنزله الله ولا يدرون ما أودعه الله من حدوده وأحكامه وفرائضه، كهيئة البهائم».

وقال تعالى مبكّتاً كفار قريش ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[٢]: «أي: أفلا يتفكرون في القرآن ويتأملونه ويتدبرونه، أي: فإنهم لو تدبروه، لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر، ولكن المصيبة التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه، ودل هذا على أن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير ويعصم من كل شر، والذي منعهم من تدبره أن على قلوبهم أقفالها».

---

(١) جامع البيان (٢/١٥٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٤٦.

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله (ت: ٣١٠هـ)[١]: «والله جل ذكره يتعالى عن أن يخاطب خطاباً أو يُرسل رسالة لا توجب فائدة، لمن خُوطب أو أرسلت إليه لأن ذلك فينا من فعل أهل النقص والعبث، والله تعالى عن ذلك متعال، ولذلك قال جل ثناؤه في محكم تنزيله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]».

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**خيركم من تعلم القرآن وعلّمه**»[٢].

وهذا الحديث دال بلا ريب على أن تعليم القرآن أفضل الأعمال، ويدخل في ذلك دخولاً أولياً تفسير معاني القرآن، فإن تعليم القرآن عام لألفاظه ومعانيه، بل إن معانيه هي المقصود الأعظم.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[٣]: «وهذه من صفات المؤمنين المتبعين للرسل، وهم الكُمل في أنفسهم، المكملون لغيرهم، وذلك جمع بين النفع القاصر والمتعدي».

---

(١) جامع البيان (١/١١).

(٢) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب خيركم من تعلم القرآن وعلّمه (ص ٩٠١ - رقم ٥٠٢٧).

(٣) مقدمة التفسير (١/٦٧).

ودعا النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما أن يفقهه الله في الدين، ويعلمه التأويل[1].

وهذا غاية ما يكون في الدلالة على فضل التفسير إذ اختصه النبي ﷺ لابن عمه عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

وأما الآثار عن السلف فكثيرة جداً:

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «والذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه»[2].

وقال أبو عبدالرحمن السلمي رحمه الله: «حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن عثمان بن عفان وابن مسعود رضي الله عنهما وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل، قال: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً»[3].

---

(١) رواه البخاري كتاب العلم باب قول النبي ﷺ: «**اللهم علمه الكتاب**»، (ص ١٨ – رقم ٧٥).

(٢) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن باب القرّاء من أصحاب رسول الله ﷺ (ص ٨٩٧ – رقم ٥٠٠٢)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل عبدالله بن مسعود (ص ١٠٨٢ – رقم ٦٣٣٣).

(٣) معرفة القراء الكبار (١/٥٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «وأما التفسير الثابت عن الصحابة والتابعين فذلك إنما قبلوه لأنهم قد علموا أن الصحابة بلّغوا عن النبي ﷺ لفظ القرآن ومعانيه جميعاً، كما ثبت ذلك عنهم، مع أن هذا مما يُعلم بالضرورة من عادتهم».

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «لو أعيتني آية من كتاب الله ولم أجد أحداً يفتحها عليَّ إلا ببرك الغماد لرحلت إليه»[2].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لا خير في قراءة ليس فيها تدبر»[3].

وقال الحسن البصري رحمه الله: «ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيما أنزلت، وماذا عني بها»[4].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله معلقاً: «وما استثنى من ذلك متشابها ولا غيره»[5].

وقال الإمام أحمد رحمه الله[6]: «بمصر صحيفة في التفسير لعلي ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما لو رحل إليها ما كان كثيراً».

---

(١) السبعينية ص ٣٣٠ - ٣٣١.

(٢) معجم البلدان (١/ ٤٠٠).

(٣) عمدة القاري (١/ ٤٣٧).

(٤) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (٢/ ٣٠٥).

(٥) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٨٤).

(٦) فتح الباري (٨/ ٤٣٨).

وقال أبو حامد الإسفراييني رحمه الله: «لو رحل رجل إلى الصين حتى يُحصل له كتاب (التفسير) لمحمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً[1]».

والصحابة رضي الله عنهم أئمة التفسير علموا معاني القرآن كله إلا ما استأثر الله بعلمه، قال مجاهد رحمه الله[2]: «عرضت المصحف على ابن عباس رضي الله عنهما ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها».

وقال قتادة رحمه الله[3]: «ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً».

وقد وردت آثار عن السلف في التورع عن التفسير، فعن إبراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سُئل عن قوله: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني؟ إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[4]: «منقطع».

---

(١) طبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح (١/١٠٩).

(٢) جامع البيان (١/٨٥)، ونقل محققه عن الذهبي تصحيحه في تذكرة الحفاظ (٢/٧٠٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥/٢٧١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (١/١١).

وعن أنس رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ على المنبر ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه، فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر.

قال ابن كثير رحمه الله[1]: «هذا كله محمول على أنهما رضي الله عنهما إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب، وإلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يُجهل، لقوله: ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴾ [عبس: ٢٨ - ٣١].

وقال ابن أبي مليكة رحمه الله[2]: إن ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها.

وقال الإمام مالك رحمه الله[3]: «لو أن لي سلطاناً على من يُفسر القرآن لضربت عنقه».

فهذه الآثار كلها عن السلف في الزجر عن التفسير بالرأي، والقول بلا علم، لا مطلق التفسير.

قال أبو عيسى الترمذي رحمه الله[4]: «وهكذا رُوي عن بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أنهم شددوا في هذا، في

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ١٢).

(٢) رواه الطبري وصححه ابن كثير في تفسيره (١/ ١٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٨/ ٩٧).

(٤) جامع الترمذي ص ٦٦٣.

أن يُفسر القرآن بغير علم، وأما الذي روي عن مجاهد وقتادة وغيرهما من أهل العلم أنهم فسروا القرآن، فليس الظن بهم أنهم قالوا في القرآن أو فسروه بغير علم، أو من قبل أنفسهم، وقد رُوي ما يدل على ما قلنا، أنهم لم يقولوا من قبل أنفسهم بغير علم».

والآثار كثيرة في بيان توارث علم التفسير عن السابقين الأولين، قال أبو العالية رحمه الله[1]: «سألت أصحاب محمد ﷺ عن هذه الآية ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء: ١٧]، فقالوا لي: كل من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «يبين ذلك أن الصحابة والتابعين لم يمتنع أحد منهم عن تفسير آية من كتاب الله، ولا قال هذه من المتشابه الذي لا يُعلم معناه، ولا قال قط أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة المتبوعين: إن في القرآن آيات لا يعلم معناها ولا يفهمها رسول الله ﷺ ولا أهل العلم والإيمان جميعهم، وإنما قد ينفون علم بعض ذلك عن بعض الناس، وهذا لا ريب فيه».

وقال المروذي سمعت أبا عبدالله يقول لرجل: اقعد اقرأ، فجئته أنا بالمصحف فقعد، فقرأ عليه، فكان يمر بالآية فيقف أبو عبدالله،

---

(١) الإيمان الكبير لابن تيمية ص ١٨ - ١٩.

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٨٥).

فيقول له: ما تفسيرها؟ فيقول: لا أدري، فيفسرها لنا، فربما خنقته العبرة فيردها[1].

وقال البغوي رحمه الله (ت: ٥١٦هـ)[2]: «قد جاء الوعيد في حق من قال في القرآن برأيه، وذلك فيمن قال من قبل نفسه شيئاً من غير علم، فأما التأويل وهو صرف الآية إلى معنى محتمل، يوافق ما قبلها وما بعدها غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط فقد رُخص فيه لأهل العلم».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[3] : «الواجب على المسلم في تفسير القرآن أن يشعر نفسه حين يفسر القرآن بأنه مترجم عن الله تعالى، شاهد عليه بما أراد من كلامه فيكون معظماً لهذه الشهادة خائفاً من أن يقول على الله بلا علم، فيقع فيما حرَّم الله، فيخزى بذلك يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]».

---

(١) بدائع الفوائد (٣/١٦ – ١٧).

(٢) مقدمة معالم التنزيل (١/٣٥).

(٣) أصول التفسير، مطبوع مع تفسير الفاتحة والبقرة (١/٢٩).

وقال الحافظ النووي رحمه الله (ت: ٦٧٦هـ)[1]: «ويحرم تفسيره بغير علم، والكلام في معانيه لمن ليس من أهلها، والأحاديث في ذلك كثيرة، والإجماع منعقد عليه.

وأما تفسيره للعلماء فجائز حسن، **والإجماع منعقد عليه**، فمن كان أهلاً للتفسير جامعاً للأدوات التي يعرف بها معناه، يغلب على ظنه المراد فسره إن كان مما يدرك بالاجتهاد، كالمعاني والأحكام الخفية والجلية، والعموم والخصوص، والإعراب وغير ذلك، وإن كان مما لا يدرك بالاجتهاد، كالأمور التي طريقها النقل وتفسير الألفاظ اللغوية، فلا يجوز له الكلام فيه إلا بنقل صحيح من جهة المعتمدين من أهله، وأما من كان من ليس من أهله لكونه غير جامع لأدواته فحرام عليه التفسير، لكن له أن ينقل التفسير عن المعتمدين من أهله».



(١) التبيان في آداب حملة القرآن ص ١٦٨ - ١٦٩.

الفصل الأول
قواعد التفسير



قواعد التفسير

(١) لا تكابد العلم :

الإنسان لا يولد عالماً قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [النحل: ٧٨]، ولا بد أن يكون واضحاً في منهجية طالب العلم أنه لا يكون عالماً بين عشية وضحاها، قال الإمام مالك رحمه الله[١]: «إن كان الرجل ليختلف إلى الرجل ثلاثين عاماً يتعلم منه».

وانظر إلى القرآن نفسه كيف أنزله الله على رسوله في ثلاثة وعشرين عاماً، ولو شاء الله لأنزله مرة واحدة أو في عام، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله (ت: ١٣٧٦هـ)[٢]: «أي: وأنزلنا هذا القرآن مفَرَّقاً فارقاً بين الهدى والضلال، والحق والباطل، لتقرأه على الناس على مكث، أي: على مهل، ليتدبروه ويتفكروا في معانيه ويستخرجوا علومه، و«نزلناه تنزيلا» أي: شيئاً فشيئاً مفرّقاً في ثلاث وعشرين سنة».

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٢٦٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٣٨.

وهكـذا تلقـى الـصحابة معـاني القـرآن علـى مهـل، قـال أبوعبدالرحمن السلمي رحمه الله[1]: «أخذنا القرآن عن قوم أخبرونـا أنهم كانوا إذا تعلمـوا عـشر آيـات لـم يجاوزوهن إلى العـشر الأخـر حتى يعلموا ما فيهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به، وسيرث القـرآن بعدنا قوم يشربونه شُرب الماء لا يجاوز تراقيهم».

وهذه منهجية لابـد أن يرتـسمها طالـب فـي طلـب أنـواع العلـوم كلها، قال عمر بن عبدالواحد صاحب الأوزاعي: عرضـنا علـى مالـك «الموطأ» فـي أربعـين يومـاً، فقـال: «كتـاب ألّفتـه فـي أربعـين سـنة، أخذتموه في أربعين يوماً، قلما تفقهون فيه»[2].

وقال الزهري ليونس بن يزيد: يـا يـونس! لا تكابـد العلـم، فـإن العلم أودية، فأيها أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مـع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة، فإن من رام أخذه جملة ذهـب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الليالي والأيام[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٦٩).

(٢) التمهيد (١/ ٧٧).

(٣) الإلماع للقاضي عياض (٢٢٠).

(٢) حفظ القرآن:

عون على التفسير، لأن سوء الفهم يقع مع اجتزاء النصوص، وحافظ القرآن إذا جاء يفسر الآية فإنه يحفظ كل النصوص المكملة لمعناها، كذلك ينظر في معنى الآية في ضوء معنى القرآن كله، لأن معاني الشرع ومقاصده كلها تتعاضد وتتوافق.

عن سمير بن نهار قال: قال أبو هريرة رضي الله عنه: يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم، قلت: وما نصف يوم؟ قال: أوما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧][١].

وقال زكريا بن أبي زائدة رحمه الله: كان الشعبي يمرُّ بأبي صالح باذام مولى أم هانئ فيأخذ بأُذنه فيهزّها، ويقول: ويلك! تُفسِّر القرآن وأنت لا تحفظ القرآن[٢].

قال الشاطبي رحمه الله[٣]: «ومدار الغلط في هذا الفصل إنما هو على حرف واحد، وعدم ضم أطرافه بعضها إلى بعض، فإن مآخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هي على أن تؤخذ الشريعة كالصورة

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/٤٤٠).

(٢) ميزان الاعتدال (١/٢٩٦).

(٣) الاعتصام (٢/٥٠ – ٥١).

الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتَّبة عليها، وعامّها المرتب على خاصها،ومطلقها المحمول على مقيدها، ومجملها المفسر بمبينها، إلى ما سوى ذلك من مناحيها، فإذا حصل للناظر من جملتها حكم من الأحكام،فذلك هو الذي نطقت به حين استنطقت».

* * *

(٣) اجتناء العلم بزكاء النفس:

بذل كنوز العلم عموماً، وعلم التفسير خصوصاً سبب لنماء العلم وزيادته، فإن العلم يزكو، وقاعدة الشرع والفضل الإلهي ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

فلا تكن ممن يبخل بدرر الفوائد ويشح عن إفادتها لعموم الناس، فما هذه أخلاق النبلاء، وما قيمة العلم إذا كتمته؟

فكن طيب النفس ببذل الفوائد للناس، وتأسى بسلفك الصالح، قال ابن عباس رضي الله عنهما(١) : «إني لأمر بالآية من القرآن فأفهمها فأودُّ أن الناس كلهم فهموا منها ما أفهم».

فبعض طلبة العلم يغويه الشيطان ويجعله يتكتم فرائد الفوائد حُبّاً في التفرد عن عامة طلبة العلم، فهذا من تلبيس إبليس، وهو داخل في المباهاة المذمومة، وهو من أسباب الحرمان من بركة العلم.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله(٢) : «فأما حبُّ التفرد من الناس بفعل ديني أو دنيوي: فهو مذموم، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ

---

(١) فتح الباري لابن رجب (١/ ٤٦).

(٢) فتح الباري لابن رجب (١/ ٤٦).

﴿ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]، وقد قال علي رضي الله عنه وغيره: هو أن لا يُحبَّ أن يكون نعله خيراً من نعل غيره، ولا ثوبه خيراً من ثوبه.

وفي الحديث المشهور في «السنن»: «من تعلم العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه، فليتبوأ مقعده من النار» ».

ومن ينشر علمه وهو عالم بشرع الله لا شك أنه حاضر البال من قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فالعلم يزكو ببذله، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[1]: «والعجب! أن العلم كما قال القائل:

يزيد بكثرة الإنفاق منه ... وينقص إن به كفا شددتا

فكلما علّمت غيرك ازداد علمك، وكلما أمسكت العلم نقص علمك، والمال بالعكس، ولولا أن الله ينزل البركة فيمن تصدق حتى لا تنقصه الصدقة لانتهى المال عن قرب».

* * *

(١) تفسير سورة النساء (٢/ ٢١٤).

(٤) القرآن ميسر للفهم :

البعض ألقى في أسماع الناس صعوبة فهم معاني القرآن، وصار هذا اعتقاداً راسخاً في أذهان البعض ما أوجب لهم الانصراف عن الأسباب التي توجب لهم فهمه وطلب تفسيره.

قال العلامة الصنعاني رحمه الله[١]: «فليت شعري! ما الذي خصّ الكتاب والسُّنَّة بالمنع من معرفة معانيها؛ وفهم تراكيبها ومبانيها، والإعراض عن استخراج ما فيها، حتى جُعلت معانيها كالمقصورات في الخيام قد ضُربت دونها السجوف، ولم يبق لنا إليها إلا ترديد ألفاظها والحروف، وإن استنباط معانيها قد صار حجْراً محجوراً وحرماً محرّماً محصورا».

فهؤلاء الذين رسّخوا في أذهان الناس صعوبة فهم القرآن، هم في الحقيقة صادون عن شريعة الله، فمن استصعب شيئاً ترك طلبه إلا من شاء الله.

ومن اعتقد سهولة أمر ما سعى في تحصيله وطلبه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٢]: «وأما قوله إنه إذا لم يقف على المقصود مع معرفته بأن المتكلم بذلك أحكم الحاكمين فإنه يبقى قلبه ملتفتاً إليه أبداً، ومتفكراً فيه أبداً.

يقال: هذا صحيح إذا كان يرجو فهمه، وكان فهمه ممكناً عنده،

---

(١) إرشاد النقاد ص ٨٥.

(٢) تلبيس الجهمية (٨/٣٣٤).

أما إذا جزم بأن أحداً من الخلق لا يفهمه صار ذلك مأيوساً منه، فلا يلتفت قلبه إلى ما لا يطمع فيه، ولا يتفكر فيه، بل تبقى همته مصروفة إلى لفظه دون معناه، واللفظ تابع للمعنى، فإذا لم يكن ثمّ معنى يُطلب يبقى لفظ مجرد فأفضى به إلى ما يفسد القلب من التشدق والتفيهق وقسوة القلب وغفلته عن الله».

والحقيقة الواضحة هو سهولة فهم معاني القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٢].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[١]: «أي: سهَّلْنا لفظه، ويسَّرنا معناه لمن أراده ليتذكر الناس».

وقال ابن القيم رحمه الله[٢]: «ولا تجد كلاماً أحسن تفسيراً، ولا أتم من كلام الله سبحانه، ولهذا سماه الله بياناً، وأخبر أنه يسَّره للذكر، ويسَّر ألفاظه للحفظ، ومعانيه للفهم، وأوامره ونواهيه للامتثال».

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[٣]: «اعلم أن النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، تأتي مركبة صريحة في معانيها، لا تحتمل غيره بوجه، هذا حالها في نفسها، وقد اتفق على

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٢٦٤).

(٢) مختصر الصواعق (١/٥٧).

(٣) توضيح الكافية الشافية ص ٧٩ - ٨٠.

هذا جميع أئمة المسلمين، الذين عرفوا مقاصد الشرع في مصادره وموارده، وتمرَّنوا على ألفاظه ومعانيه، فكما لا يستريبون في نصوصه في الأحكام الفروعية، فلا يستريبون أيضاً في نصوصه في الأصول، بل يرون هذا النوع أكثر بياناً وأبلغ وضوحاً، لشدة الحاجة والضرورة إليه».

وتكلم أيضاً العلامة السعدي رحمه الله في أسباب استصعاب البعض لمعاني القرآن فقال[1]: «وذلك لعدم إقبالهم التام، واعتنائهم بكلام الشارع».

صحيح هناك بعض الآيات متشابهة المعنى، وبعض الآيات يدق فهم معناها إلا من العلماء، لكن الناس يتفاوتون في طلب ما يُشكل عليهم فهمه، فمنهم من همّته عليّة يستجمع همّته وفكره لطلب ذلك، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «ولهذا يفكر الإنسان فيما أشكل عليه، فتكون فكرته فيه سبباً لجمع همّته، وإقباله على الله تعالى وعلى عبادته، واشتغاله بذلك عما تهواه الأنفس ومن الأهواء الرديئة».

* * *

(١) توضيح الكافية الشافية ص ٨٠.

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٨/٣٣٦).

(٥) فهم بعض القرآن عون على فهم باقيه:

اطلب تفسير ما تحتاجه، وما تعتقد أنه أيسر عليك في الفهم، فإن فهم بعض القرآن عون على فهم باقيه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[١]: «إذا فهم بعض الحق وجد فيه حلاوة، وذلك يدعوه إلى طلب الباقي، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩]».

وهذا الذي قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حق، ويجده الإنسان في نفسه، سواء في حفظ القرآن أو تفسيره، أو طلب العلم عموماً، فحفظ بعض القرآن ومعرفة معانيه يورّث اعتقاداً راسخاً لصاحبه بإمكانية حفظ وفهم باقيه، وقد فعل، ووجد ذلك واقعاً، ولا يزال يطلب حفظ وفهم بقيته، ويجد في قلبه فرحاً وحلاوة ونوراً فيما حفظه وعلم معناه، فيكون ذلك سبباً آخر يزيد من أسباب طلبه حفظ القرآن وفهمه.

ومعلوم لدى الناس أن من شرع في الشيء ليس كمن لم يبدأ فيه، فاجمع همتك على حفظ القرآن وفهمه إن لم تبدأ بعد، وإن شرعت فأكمل الطريق، فستجد أنك معان على ذلك، يُيسّر الله لك أسباب ذلك لأن من أقبل على الله أقبل الله عليه، والله يقول: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٨/٣٣٦).

(٦) أنت المخاطب بهذا القرآن:

كل من وقف بين يدي ملك معظّم، لا شك أنه يُصغي بسمعه ويتدبر بعقله لكلام الملك على أكمل ما يكون، وهكذا الشأن ولله المثل الأعلى بالنسبة للقرآن، فهو خطاب الله لخلقه أجمعين، فالخلق كلهم مأمورون بتدبره طاعة لله وإجابة لداعيه، وكل ذلك يحصل مع حضور القلب وإصغاء السمع.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه[١]: «إذا قيل يا أيها الذين آمنوا فأرعها سمعك فإما خير تؤمر به أو شر تنهى عنه».

قال ابن القيم رحمه الله[٢]: «إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعك واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطابٌ منه لك على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتضٍ، ومحل قابل وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢). ط – مكتبة دار التراث – القاهرة.

(٢) الفوائد ص ١٣ – ١٤.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾، إشارة إلى ما تقدم من أول السورة - أي سورة قٓ - إلى هاهنا، وهذا هو المؤثر، وقوله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾، فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩ - ٧٠]، أي حي القلب.

وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾، أي وجّه سمعه وأصغى حاسَّة سمعه إلى ما يُقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، أي شاهد القلب حاضر غير غائب، قال ابن قتيبة رحمه الله: «استمع كتاب الله وهو شاهد الطلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله، **فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحي، ووُجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر**».

* * *

(٧) تفاضل الناس في الفهم وما ادّخر لك من الفضل:

الناس يتفاضلون في فهم القرآن، فهذا نبي الله سليمان عليه السلام امتدحه الله بخصوصية الفهم، فقال سبحانه: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وهذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه سُئل: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن[١] .

فهذا بيان واضح من علي بن أبي طالب رضي الله عنه في تفاضل الناس في فهم القرآن، وهذا يُدركه الناس إدراكاً بيّناً في اختلاف تعليقات الناس على آي القرآن واستنباطاتهم الفوائد منها.

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله[٢] : «في القرآن كل شيء، والناس إنما يأخذون بقدر استعداد أذهانهم، كل يغرف بحسب فهمه».

وانظر إلى فهم ابن عباس رضي الله عنهما وما حباه الله من حسن الفهم، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدني ابن عباس رضي الله عنهما، فقال له عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه: إن لنا

---

(١) رواه البخاري كتاب الديات باب العاقلة (ص ١١٩٠ – رقم ٦٩٠٣).

(٢) العذب النمير (١/ ١٩٣).

أبناء مثله، فقال: إنه من حيث تعلم، فسأل عمر رضي الله عنه ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ [النصر: ١]، فقال: أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه، فقال: ما أعلم منها إلا ما تعلم[١].

فاطلب العلم والتفسير، ولا تظن أن الأولين ما تركوا للآخرين شيئاً، بل قد أبقى الله لهم فضلاً، فإن النبي ﷺ في خطبته في حجة الوداع، قال: «ألا ليبلغ الشاهد الغائب، لعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه».

قال الحافظ أبو محمد عبدالله بن أبي جمرة الأندلسي رحمه الله (ت: ٦٩٩هـ)[٢] : «فجعل الرجاء في البعض من يبلغه في الواعي له، وذلك هو الخير كما جعل عدم الخير هو ترك الوعي في الأقل ممن سمعه، وجعل عليه السلام تفضيل من يوعاه في الأخذ وإن بعد على بعض من سمعه ولم يرعه هم الأقل».

* * *

(١) رواه البخاري كتاب المغازي باب مرض النبي ﷺ ووفاته (ص ٧٥٣ – رقم ٤٤٣٠).
(٢) بهجة النفوس (٤/ ١١٤)، ط – دار الجيل.

(٨) تهذيب الجوهر:

تدبّر كتاب الله يكون مع خشوع القلب وتهذيب النفس، والقلوب القاسية قسوة قلوبهم تمنعهم حسن تدبّر كتاب الله، فضلاً عن ملاحظة لطائف المعاني.

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

والقلوب القاسية إذا اجتمع معها بلادة الذهن تعطّلت عن الفهم والتدبّر، وتأمل هذا في فرق ما بين أمة محمد ﷺ وأمة موسى عليه السلام، فاليهود لما كانت أذهانهم بليدة وقلوبهم غليظة ناسبهم من معجزات نبيهم ما يناسب حالهم، قال شمس الدين الأصبهاني رحمه الله[١] : «أكثر معجزات موسى عليه السلام حسية تُدرك بالحس، لبلادة القوم الذين أُرسل إليهم، ولقلة بصيرتهم».

ودواء قسوة القلب ذكر الله، فهو أساس تهذيب الإنسان وحياة قلبه وإشراقه، ومادة معرفته.

قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ)[٢] : «إن في القلب قسوة لا يذيبها إلا ذكر الله تعالى، فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله تعالى.

وذكر حماد بن زيد عن المُعلَّى بن زياد أن رجلاً قال للحسن: يا أبا سعيد!! أشكو إليك قسوة قلبي.

---

(١) التيسير في قواعد علم التفسير ص ٢١٠ – ٢١٣.

(٢) الوابل الصيب ص ١٧١.

قال: أذبه بالذكر.

وهذا لأن القلب كلما اشتدت به القسوة، فإذا ذكر الله تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار، فما أذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله عز وجل».

وقد تكلم ابن القيم رحمه الله عن مطابقة اللفظ للمعنى، وغفلة القاسية قلوبهم عن هذه المطابقة لغلظ أطباعهم، فقال[1] :

«...كيف وضعوا للمعنى الثقيل الشديد هذه الحروف الشديدة، ووضعوا للمعنى الخفيف هذه الحروف الهوائية التي هي من أخف الحروف.

وهذا أكثر من أن يحاط به، وإن مد الله في العمر؛ وضعت فيه كتاباً مستقلاً - إن شاء الله تعالى - .

ومثل هذه المعاني يستدعي لطافة ذهن، ورقة طبع، ولا تتأتّى مع غلظ القلوب، والرضى بأوائل مسائل النحو والتصريف دون تأملها وتدبّرها، والنظر إلى حكمة الواضع، ومطالعة ما في هذه اللغة الباهرة من الأسرار التي تدق على أكثر العقول، وهذا باب ينبه الفاضل على ما وراءه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وانظر إلى تسميتهم الغليظ الجافي (العتل)، و(الجعظري)، و(الجواظ)، كيف تجد هذه الألفاظ تنادي على ما تحتها من المعاني».

---

(١) جلاء الأفهام ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٩) تفسير بلا تكلف:

المطّلِع على كتب التفسير يجد أنواعاً من التكلّف في ذكر أمور لا تعلق لها بمعاني الآيات، وفي بعضها تناسب متكلف غير مرضي عند أهل العلم، فالخوض في معاني الآيات بهذه الصورة المتكلفة غير محمود.

قال الشاطبي رحمه الله (ت: ٧٩٠هـ)(١) : «إن السلف الصالح من الصحابة والتابعين لم يخوضوا في هذه الأشياء التي ليس تحتها عمل، مع أنهم كانوا أعلم بمعنى العلم المطلوب؛ بل قد عدّ عمر رضي الله عنه ذلك في نحو: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، من التكلف الذي نُهي عنه، وتأديبه صبيغاً ظاهر فيما نحن فيه، مع أنه لم يُنكر عليه، ولم يفعلوا ذلك إلا لأن رسول الله ﷺ لم يخض في شيء من ذلك، ولو كان لنُقل، لكنه لم يُنقل فدلّ على عدمه».

وقال (٢) : «إن علم التفسير مطلوب فيما يتوقف عليه فهم المراد من الخطاب، فإذا كان المراد معلوماً، فالزيادة على ذلك تكلف، ويتبين ذلك في مسألة عمر رضي الله عنه، وذلك أنه لما قرأ ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾، توقف في معنى الأبّ، وهو معنى إفرادي لا يقدح

---

(١) الموافقات (١/٥٢).

(٢) الموافقات (١/٥٣ - ٥٤).

عدم العلم به في علم المعنى التركيبي في الآية؛ إذ هو مفهوم من حيث أخبر الله تعالى في شأن طعام الإنسان أنه أنزل من السماء ماء فأخرج به أصنافاً كثيرة مما هو من طعام الإنسان مباشرة، كالحب، والعنب، والزيتون، والنخل، ومما هو من طعامه بواسطة مما هو مرعى للأنعام على الجملة، فبقي التفصيل في كل فرد من تلك الأفراد فضلاً؛ فلا على الإنسان أن لا يعرفه، فمن هذا الوجه - والله أعلم - عدّ البحث عن معنى الأبّ من التكلف؛ وإلا فلو توقف على فهم المعنى التركيبي من جهته لما كان من التكلف، بل من المطلوب علمه، لقوله: ﴿لِيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩] ».

ومن أكثر ما وقع فيه التكلف في هذا العصر الاحتجاج بآيات القرآن على حقائق ونظريات الطبيعة، قال الشاطبي رحمه الله[١] : «فقد تكلف أهل العلوم الطبيعية وغيرها الاحتجاج على صحة الأخذ في علومهم بآيات من القرآن، وأحاديث عن النبي ﷺ».

وأقبح من ذلك وأخطر صياغة أدلة الشريعة وفق منطق الفلاسفة كما فعل الغزالي، قال الشاطبي رحمه الله[٢] : «إن قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾[الأعراف: ١٨٥]، لا يدخل فيه من وجوه الاعتبار علوم الفلسفة التي لا عهد للعرب

(١) الموافقات (١/ ٥٤).

(٢) الموافقات (١/ ٥٥ - ٥٦).

بها، ولا يليق بالأميين الذين بعث فيهم النبي الأمي ﷺ بملة سهلة سمحة؛ والفلسفة - على فرض أنها جائزة الطلب - صعبة المأخذ، وعرة المسلك، بعيدة الملتمس، لا يليق الخطاب بتعلمها كي تُتعرف آيات الله ودلائل توحيده للعرب الناشئين في محض الأمية، فكيف وهي مذمومة على ألسنة أهل الشريعة، منبّه على ذمها».

والفلاسفة عباد كواكب، قال العلامة عبدالقادر بن بدران الدمشقي رحمه الله[1]: «فمن أين لعباد الكواكب أن يهدونا وما كانوا مهتدين».

* * *

(١) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد ص ٤٣.

(١٠) احذر القواعد الباطلة:

كثير من الخلل الذي دخل في تفسير القرآن والسنة سببه تأصيلات باطلة وقواعد بدعية، وصار أهلها بسبب ذلك يُحرّفون معاني القرآن والسُّنَّة ويتأولونها لتتوافق وقواعدهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت: ٧٢٨هـ)(١) : «إنه ما زال في الأمة قديماً وحديثاً من يظهر له من آية أو حديث معنى، ويعتقد أن ذلك المعنى باطل، إما لمعارضته لما يرى أنه علمه، أو لمجرد عقله للأمور الموجودة، أو لما يرى أنه علمه لما عقله من كتاب الله، فيحتاج عند ذلك إمّا إلى ردّ الخبر، وإما إلى تأويله».

فالقواعد لا نغلو في إثباتها وإن كانت حقاً، ولا ننفيها، بل إن معرفتها من أسباب تقريب العلم وضبطه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(٢) : «وإذا كان أهل المذاهب جعلوا لهم قواعد يضبطون بها ما يحلُّ ويحرمُ، فالله ورسوله أقدر على ذلك، وقد قال النبي ﷺ: «**بُعثت بجوامع الكلم**»، فهو يأتي بالكلمة الجامعة، وهي قاعدة عامة وقضية كلية تجمع أنواعاً وأشخاصاً، كقوله لما سُئل عن أنواع الأشربة كالبتع والمزْر،

---

(١) جواب الاعتراضات المصرية على الفتوى الحموية ص ٥٦.

(٢) جامع المسائل المجموعة الثانية ص ٢٧٥ – ٢٧٦.

وكان قد أوتي جوامع الكلم، فقال: «**كل مسكر حرام**».

والكتاب والسنة مليئان من هذا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، إلى غير ذلك من النصوص».

فالواجب التمييز بين القواعد الصحيحة فيبنى عليها العلم، والقواعد الباطلة فترد ويلتفت عنها.

قال الشوكاني رحمه الله[1] : «وكثيراً ما تجد في علم الكلام الذي يسمونه «أصول الدِّين»، قاعدة قد تقررت بينهم واشتهرت، وتلقنها الآخر من الأول، وخطوها جسراً يدفعون بها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فإذا كشفت عنها وجدتها في الأصل كلمةً قالها بعض حكماء الكلام زاعماً أنه يقتضي ذلك العقل ويستحسنه، وليس إلا مجرد الدعوى على العقل، وهو عنه بريء، فإنه لم يقض بذلك العقل الذي خلقه الله في عباده، بل قضى به عقل قد تدنَّس بالبدع وتكدَّر بالتعصب، وابتلي بالجهل بما جاء به الشرع، وجاء بعده من هو أشد بلاءً منه، وأسخف عقلاً وأقل علماً، وأبعد عن

---

(١) أدب الطلب ص ٨٧.

الشرع، فجعل ذلك قاعدة عقلية ضرورية، فدفع بها جميع ما جاء عن الشارع، عرف هذا من عرفه وجهله من جهله».

فالحاصل أنه لا ينبغي لك التسليم لقبول كل تأصيل لمجرد أنه يُسمى «قاعدة»، بل واجبك التمييز بين القواعد الصحيحة والقواعد الباطلة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١) : «لمّا وقع في بعض القواعد اللفظية والعقلية نوع توسع – إما في التعبير وإما في الفهم – اقتضى ذلك خللاً إذا بنى على تلك القواعد المحتاجة إلى تتميم، فإذا كان للإنسان فهم صحيح ردَّ الأشياء إلى أصولها، وقرَّر النظر على معقولها، وبيَّن حكم تلك القواعد وما وقع فيها من تجوُّز أو توسُّع».

وحسبي هنا أن أحذّر من إحدى القواعد الكلية البدعية التي هي في حقيقتها من التقدم بين يدي الله ورسوله، قال الرازي(٢): «الاستدلال بالسمع مشروط بأن لا يعارضه قاطع عقلي، فإذا عارضه العقلي وجب تقديمه عليه!!».

وهذا التقديم العقلي ضلال، فالشرع حاكم والعقل محكوم، والعقل قد شهد بصحة الشرع وأنه أعلم منه، والمعلوم أن العقل

---

(١) جامع المسائل المجموعة الثالثة ص ٣١٩.

(٢) المطالب العالية بواسطة مجموع الفتاوى (١٣/ ١٣٩).

الصريح يوافق الشرع لا يخالفه، قال شيخ الإسلام ابـن تيميـة رحمـه الله[1]: «التعارض لا يقع إلا إذا كان ما سُمي معقولاً فاسداً، وهذا هو الغالب على كلام أهل البدع، أو أن يكون ما أضيف إلى الشرع لـيس منه: إما حديث موضوع وإما فهم فاسد من نص لا يدل عليه وإما نقل إجماع باطل».

* * *

(١) منهاج السنة (٥/١٤٢).

(١١) التفسير التفصيلي بعد التدبّر الإجمالي :

يحسن بطالب العلم أن يتدبّر معنى الآية أولاً بصفة إجمالية، وذلك من خلال معرفة مفردات ألفاظها، ومعنى مجموع الآية بصفة مجملة في ضوء سياق الآيات في وحدتها الموضوعية.

ثم بعد ذلك يعيد النظر والتأمل والتدبّر لمعنى الآية بصفة تفصيلية، فيسبر غورها، ويستنبط معانيها بكل ما تدل عليه الآية، متلمحاً دقيق الفوائد فضلاً عن جليلها، ويستخرج كنوزها، وما اشتملت عليه من أنواع الأحكام والتقريرات العقدية والإرشادات السلوكية.

وهذا المنهج ضرورة، وانظر مثلاً إلى فاتحة الكتاب فهي أم القرآن، ومعاني القرآن كلها ترجع إليها.

وكذلك ذكر الله أم الكتاب من الآيات البيّنات الواضحات التي يُرد إليها فهم متشابه القرآن، كل ذلك دال على ضرورة تطلب المعاني الكلية أولاً ثم استخراج ما يتفرع منها من دقيق المعاني.

قال العلامة أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي رحمه الله (ت: ٧٠٨هـ) [١]: «سورة أم القرآن قد ذكر الناس كيفية تضمنها

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ص ٨٣.

مجملاً لما تفصّل في الكتاب العزيز بجملته، وهو أوضح وجه في تقدمها سوره المكرمة».

وهذه طريقة القرآن في عموم سوره، وكثير من آياته ذات الوحدة الموضوعية الواحدة، يأتي مجملاً في تقرير المعاني ثم يأخذ في تفصيل تلك المعاني تفصيلاً يزيد المعنى وضوحاً وتقريراً، ومتمماً لكل ما أُجمل في المعاني العامة.

وفائدة ذلك التوطئة لإدراك المعاني المفصلة، لأنها ربما لو وردت من أول سياق لها مفصّلة من غير بيان إجمالي لها، قد يفوت على الخلق إدراك أكثر المعاني المفصّلة لهجومها عليه دفعة واحدة

* * *

(١٢) التحقق بمقاصد القرآن :

حاول ضبط معاني القرآن الكلية من خلال فهم معاني القرآن مجموعاً كأنه سورة واحدة، فإن من استقرأ كتاب الله بعلم قطع بمعرفة معاني الشرع الكلية. وهذا نافع جداً في تحرير المشتبه من الآيات، وفي الترجيح بمقاصد الشرع في بعض الأحكام، وفي ذكر شواهد الأدلة كلها وتعاضدها لآحاد المسائل.

ومن خلال استقراء معاني القرآن الكلية ترى تشابه أحكامه كلها، وجريان آحادها وفق مقاصد الشريعة بحيث تتعاضد آحاد الأحكام وتأتلف وتتوافق على المقاصد الكلية للشريعة.

قال الوالد العلامة صالح الفوزان حفظه الله[1]: «التوحيد هو الأصل الذي بُنيت عليه الملة الحنيفية، فالاهتمام به اهتمام بالأصل، وإذا تدبَّرنا القرآن الكريم وجدنا أنه بيَّن التوحيد بياناً كاملاً، حتى إنه لا تخلو سورة من سور القرآن إلا وفيها تناول التوحيد، وبيان له ونهي عن ضده.

وقد قرَّر الإمام ابن القيم رحمه الله أن القرآن كله في التوحيد، لأنه إما إخبارٌ عن الله وأسمائه وصفاته، وهذا التوحيد العلمي الذي هو توحيد الربوبية.

وإما أمر بعبادة الله وحده لا شريك له ونهي عن الشرك، وهذا

---

(١) دروس من القرآن الكريم ص ٥ – ٦.

هو التوحيد العملي الطلبي وهو توحيد الألوهية، وإما أمر بطاعة الله وطاعة رسوله ونهي عن معصية الله ومعصية رسوله ﷺ، وهذا من حقوق التوحيد ومكملاته».

وقال العز بن عبدالسلام رحمه الله (ت: ٦٦٠هـ)[1]: «ومن تتبع مقاصد الشرع في جلب المصالح ودرء المفاسد حصل له من مجموع ذلك اعتقاد أو عرفان بأن هذه المصلحة لا يجوز إهمالها، وأن هذه المفسدة لا يجوز قربانها، وإن لم يكن فيها نص ولا إجماع ولا قياس خاص، فإن فَهْمَ نفس الشرع يوجب ذلك.

ومَثَلُ ذلك أن من عاشر إنساناً من الفضلاء الحكماء العقلاء، وفهم ما يؤثره ويكرهه في كل وِرْدٍ وصَدْرٍ، ثم سنحت له مصلحة أو مفسدة، لم يعْرف قوله فيها، فإنه يَعْرفُ بمجموع ما عهده من طريقته وأَلِفَهُ من عادته أنه يُؤْثر تلك المصلحة، ويكره تلك المفسدة. ولو تتبعنا مقاصد ما في الكتاب والسُّنَّة لعلمنا أن الله أمر بكل خير، دِقِّهِ وجِلِّه، وزجر عن كل شر، دِقِّهِ وجِلِّهِ، فإن الخير يُعبَّر به عن جلب المصالح ودرء المفاسد، والشر يُعبَّر به عن جلب المفاسد ودرء المصالح، وقد قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

وهذا ظاهر في الخير الخالص والشر المحض، وإنما الإشكال

---

(١) قواعد الأحكام (٢/٣١٤ - ٣١٥).

إذا لم نفهم خيْر الخيرين وشر الشرين، أولم نعرف ترجُّح المصلحة على المفسدة، أو ترجُّح المفسدة على المصلحة، أو جهلنا المصلحة والمفسدة. ومن المصالح والمفاسد ما لا يعرفُه إلا كل ذي فهم سليم وطبْع مستقيم، يعرف بهما دِقَّ المصالح والمفاسد وجِلَّهما، وراجحهما من مرجوحهما، ويتفاوت الناس في ذلك على قدر تفاوتهم فيما ذكرته».

وقال العلامة محمد الطاهربن عاشور رحمه الله[1] : «إن القرآن أنزله الله تعالى كتاباً لصلاح أمر الناس كافة رحمةً لهم لتبليغهم مراد الله منهم، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية. فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر. وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولاً من الصلاح الفردي، إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، ومن شيء زائد على ذلك وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات ومواثبة القوى النفسانية، وهذا هو علم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية.

---

(١) التحرير والتنوير (١/٣٨ – ٣٩).

وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك، إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورَعْيُ المصالح الكلية الإسلامية، وحفظُ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع. فمراد الله من كتابه هو بيان تصاريف ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدين، وقد أودع ذلك في ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطاباً بيِّناً وتعبَّدنا بمعرفة مراده والاطلاع عليه، فقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]».

وقاعدة الشرع فيما يعتبر مصلحة أو مفسدة معلومة باستقراء ما أحله الله، وما حرَّمه، قال العز بن عبدالسلام رحمه الله (ت: ٦٦٠هـ)[1]: «ومعظم المفاسد والمصالح المعتبرة شرعاً واضحة لائحة لا تخفى على معظم الخلق. فإن العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى معلوم حسنه لكل إنسان، وكذلك الفحشاء والمنكر والبغي معلوم قبحه عند كل إنسان. وكذلك تحريم الدماء والأبضاع والأموال والأعراض، لا يخفى على أحد من أولي الألباب حسن تحريمه وقبح الإقدام عليه.

وإنما طال النزاع وكثر الخلاف فيما خفي من المصالح أو من المفاسد، والناس مختلفون في إدراكهما وفي إدراك راجحهما

(١) قواعد الأحكام (٢/١٩٤).

ومتساويهما على اختلاف فطنهم وقرائحهم، والله يؤتي فضله من يشاء».

والشريعة كلها موضوعة للاستمتاع بنعم الله وشكرها وأداء حقها عبودية الله، قال الشاطبي رحمه الله (ت: ٧٩٠هـ)[1]: «لمّا كانت الدنيا مخلوقة ليظهر فيها أثر القبضتين، ومبنية على بذل النعم للعباد لينالوها ويتمتعوا بها، وليشكروا الله عليها فيجازيهم في الدار الآخرة، حسبما بيّن لنا الكتاب والسنة، اقتضى ذلك أن تكون الشريعة التي عرّفتنا بهذين مبنية على بيان وجه الشكر في كل نعمة، وبيان وجه الاستمتاع بالنعم المبذولة مطلقاً.

وهذان القصدان أظهر في الشريعة من أن يستدل عليهما، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣]، وقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤]، وقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ﴾ [إبراهيم: ٧] الآية! والشكر هو صرف ما أُنعم عليك في مرضاة المنعم، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً**»».

---

(١) الموافقات (٢/٣٢١).

والمصالح بأنواعها العبادات منها أو المعاملات، الدنيوية والأخروية كلها يرتبط بعضها ببعض، قال العز بن عبدالسلام رحمه الله (ت:٦٦٠هـ)[1]: «واعلم أن مصالح الآخرة لا تتمُّ إلا بمعظم مصالح الدنيا، كالمآكل والمشارب والملابس والمناكح وكثير من المنافع، فلذلك انقسمت الشريعة إلى العبادات المحضة في جلب المصالح الأخروية، وإلى العبادات المتعلقة بمصالح الدنيا والآخرة، وإلى ما يغلب عليه مصالح الدنيا كالزكوات، وإلى ما يغلب عليه مصالح الأخرى كالصلوات. وكذلك انقسمت المعاملات إلى ما يغلب عليه مصالح الدنيا كالبياعات والإجارات، وإلى ما يغلب عليه مصالح الآخرة كالإجارة بالطاعات على الطاعات، وإلى ما تجتمع فيه المصلحتان: أما مصالح الأخرى فلباذليه، وأما مصالح الدنيا فلآخذيه وقابليه، وإلى ما يتخير باذلوه بين أن يجعلوه لدنياهم أو أخراهم، أو أن يُشركوا فيه بين دنياهم وأخراهم».

* * *

(١) قواعد الأحكام (٢/ ١٣٠).

(١٣) معرفة أسباب النزول :

ومن أسباب الوقوف على المعاني الصحيحة في التفسير: معرفة أسباب النزول، وهذا من آكد خصائص الصحابة الذين أُمرنا أن نوافقهم في علمهم ودينهم كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[١]: ومعرفة [سبب النزول] يعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، ولهذا كان أصح قولي الفقهاء أنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه وما هيجها وما أثارها».

وقال العلامة محمود الطناحي رحمه الله[٢]: «ويُلاحظ أن معظم وجوه الخطأ في تفسير القرآن الكريم تأتي من سرعة الاستشهاد بالآية القرآنية مقطوعة عن سياقها، منتزعة من أسباب نزولها، مع الغفلة عن وجه الإعراب فيها إلى أشياء أخرى».

وسبيل معرفة سبب النزول هو ما ذكره الصحابة ومن أخذ عنهم لأنهم هم الذين حضروا التنزيل، لذلك يُدخل العلماء قول الصحابي في سبب النزول في المرفوع حكماً.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٩).

(٢) مقالات العلامة الطناحي (٢/ ٦٣٦).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «وقد تنازع العلماء في قول الصاحب نزلت هذه الآية في كذا، هل يجري مجرى المسند كما يذكر السبب الذي أنزلت لأجله، أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند، فالبخاري يدخله في المسند وغيره لا يدخله في المسند، وأكثر المساند على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره، بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند».

قال الحافظ العلائي رحمه الله (ت: ٧٦١هـ) مبيناً خصوصية الصحابة في معرفة سبب النزول [2] : «إن الصحابة رضي الله عنهم حضروا التنزيل، وفهموا كلام الرسول ﷺ، واطلعوا على قرائن القضايا، وما خرج عليه الكلام من الأسباب والمحامل التي لا تُدرك إلا بالحضور وخصهم الله تعالى بالفهم الثاقب، وحدة القرائح، وحسن التصرف، لما جعل الله فيهم من الخشية والزهد والورع، إلى غير ذلك من المناقب الجليلة، فهم أعرف بالتأويل، وأعلم بالمقاصد».

وهذا ما أشار إليه ابن عباس رضي الله عنهما للخوارج لما انحرفوا في فهم قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤٠).

(٢) إجمال الإصابة في أقوال الصحابة ص ٦٤.

﴿ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، فقال لهم: «أتيتكم من عند صهر رسول الله ﷺ والسابقين الأول، وهم الذين نزل عليهم القرآن وهم أعلم بتأويله»[(١)].

وكم ضلت أفهام وزلت أقدام بسبب الجهل بأسباب النزول، وعدم تأمل معنى الآية في مجموع أحكام ومعاني الشريعة، واجتزاء الآية دون تبين معناها في ضوء كل النصوص المتعلقة بذات الموضوع، ولذلك أنكر أبو بكر الصديق رضي الله عنه هذا المنهج، فقال رضي الله عنه: أيها الناس إنكم لتقرؤن هذه الآية وتضعونها في غير مواضعها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ ﴾ [المائدة: ١٠٥]. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه**»[(٢)].

وقال ابن عمر رضي الله عنهما منكراً على الخوارج: «عمدوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها في المسلمين»[(٣)].

* * *

---

(١) المعرفة والتاريخ (١/٥٢٢ - ٥٢٤).

(٢) رواه أحمد (١/٥)، وأبو داود كتاب الملاحم باب خبر ابن الصائد (ص ٦٠٩ - رقم ٤٣٣٨)، والترمذي كتاب الفتن باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر (ص ٤٩٨ - رقم ٢١٦٨)، وقال الترمذي: حديث صحيح. وصححه ابن حبان (١/٢٦١ - رقم ٣٠٤).

(٣) رواه مسلم.

(١٤)صورة سبب النزول قطعية الدخول في عموم الآية:

صورة سبب النزول قطعية الدخول في عموم الآية، وهذا واضح لأن الآية إنما نزلت بسببها، وهذا لا يمنع أن يدخل في عموم الآية كل ما شمله عموم النص ما لم يقم دليل يمنع من ذلك.

قال السيوطي رحمه الله(١) : «فإن دخول صورة السبب قطعي، وإخراجها بالاجتهاد ممنوع، كما حكى الإجماع عليه القاضي أبو بكر في التقريب».

وتجد المفسرين يذكرون هذا الأمر في تنكيتهم على آيات القرآن، حتى لا يُجرّد اللفظ من آكد معانيه، من ذلك ما جاء في سورة النور من ذكر قصة الإفك، قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤]، قال الشوكاني رحمه الله(٢) : «لما فرغ سبحانه من بيان تلك الأحكام، شرع في وصف القرآن بصفات ثلاث:

الأولى: أنه آيات مبيّنات: أي واضحات في أنفسهن أو موضحات، فتدخل الآيات المذكورة في هذه الصورة دخولاً أولياً.

والصفة الثانية: كونه مثلاً من الذين خلوا من قبل هؤلاء: أي مثلاً كائناً من جهة أمثال الذين مضوا من القصص العجيبة،

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٦١).

(٢) فتح القدير ص ١٢٢٢ – ١٢٢٣.

والأمثال المضروبة لهم في الكتب السابقة، فإن العجب من قصة عائشة رضي الله عنها، هو كالعجب من قصة يوسف ومريم وما اتّهما به، ثم تبين بطلانه وبراءتهما سلام الله عليهما.

والصفة الثالثة: كونه موعظة ينتفع بها المتّقون خاصة، فيقتدون بما فيه من الأوامر، وينزجرون عمّا فيه من النواهي».

ومع وضوح هذا التأصيل، إلا أن البعض وقع في أغلاط في بعض معاني الآيات، بسبب غفلته أو تغافله عن هذا الأصل.

مثال: قول البعض: إن أزواجه ﷺ لا يدخلن في أهل بيته في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فإن قرينة السياق صريحة في دخولهن، لأن الله تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، ثم قال في نفس خطابه لهن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، ثم قال بعده: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٤] الآية. وقد أجمع جمهور علماء الأصول على أن صورة سبب النزول قطعية الدخول، فلا يصح إخراجها بمخصص[1].

---

(١) أضواء البيان (٤/٢٨٤).

وابن عباس رضي الله عنهما وهو من سادات آل البيت قال في الآية: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة.

وورَّث ابن عباس رضي الله عنهما ذلك لتلاميذه، وهو عندهم من العلم المقطوع به، حتى قال مولاه عكرمة رحمه الله: من شاء باهلته أنها نزلت في أزواج النبي ﷺ [1].

* * *

(١) فتح القدير ص ١٤٠٤.

(١٥) تجريد الأقوال الضعيفة وتمييزها وحصر الأقوال فقط في الصحيح:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[١]: «فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف أن تستبعد الأقوال في ذلك وأن ينبه على الصحيح منها، ويبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فيشتغل به عن الأهم.

فأما من حكى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص إذ قد يكون الصواب في الذي تركه، أو يحكي الخلاف ويُطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضاً، فإن صحّح غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذب، أو جاهلاً فقد أخطأ».

وهذه منهجية صحيحة لا تنحصر في علم التفسير، بل يجب إعمالها في العلوم كلها.

وقال العلامة أبو بكر ابن العربي رحمه الله[٢]: «وأكثر أقوال المفسرين أضغاث وآثار ضعاف».

وإن أردت أن تعرف معنى هذا فانظر إلي كثرة الأقوال الواردة في تفسير (الروح) حتى بلغت ثمانمائة وألف قول.

---

(١) أصول التفسير بشرح شيخنا العثيمين ص ١٣٤.
(٢) أحكام القرآن (١/٣٢٩).

قال العلامة القاسمي رحمه الله[1]: «إن الذين خاضوا في البحث عنها، أُثرت عنهم أقوال شتى، وقد أُفردت لذلك تآليف قديمة وحديثة، ونقدوها بمحك الكتاب والسنة، فنبذوا ما يخالفها وتمسكوا بما يوافقها».

وقال الشوكاني رحمه الله[2]: «فانظر إلى هذا الفضول الفارغ، والتعب العاطل عن النفع بعد أن علموا أن الله سبحانه قد استأثر بعلمه ولم يطلع عليه أنبياءه، ولا أذن لهم بالسؤال عنه ولا البحث عن حقيقته».

والشوكاني أيضاً رحمه الله حصر الأقوال المعتبرة في الفرق بين الفقير والمسكين، والتفت عما سوى ذلك، ثم قال[3]: «وقد اختلف أهل العلم في الفرق بين الفقير والمسكين على أقوال: فقال يعقوب ابن السكيت والقتيبي ويونس بن حبيب: إن الفقير أحسن حالاً من المسكين، قالوا: لأن الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه ويقيمه، والمسكين الذي لا شيء له، وذهب إلى هذا قوم من أهل الفقه منهم أبو حنيفة، وقال آخرون: بالعكس، فجعلوا المسكين أحسن حالاً من الفقير، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ [الكهف: ٧٩]، فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر، وربما ساوت جملة من

---

(١) محاسن التأويل (١٠/٣٩٨٤).

(٢) فتح القدير (٣/٢٥٤)، ط - دار الفكر.

(٣) فتح القدير (٢/٣٧٢).

المال، ويؤيده تعوذ النبي ﷺ من الفقر مع قوله «**اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً**»، وإلى هذا ذهب الأصمعي وغيره من أهل اللغة، وحكاه الطحاوي عن الكوفيين، وهو أحد قولي الشافعي وأكثر أصحابه، وقال قوم: إن الفقير والمسكين سواء، لا فرق بينهما، وهو أحد قولي الشافعي، وإليه ذهب ابن القاسم وسائر أصحاب مالك، وبه قال أبو يوسف.

وقال قوم: الفقير المحتاج المتعفف، والمسكين السائل، قاله الأزهري، واختاره ابن شعبان، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد قيل غير هذه الأقوال مما لا يأتي الاستكثار منه بفائدة يعتد بها».

* * *

(١٦) الاستظهار بكتب الإعراب واللغة خصوصاً في مواقع الإشكال:

فإن الإعراب الصحيح عون على الفهم الصحيح لآي القرآن.

وعن الحسن أنه قيل له: أرأيت الرجل يتعلم العربية ليقيم بها لسانه ويقيم بها منطقه؟ قال: نعم، فليتعلمها، فإن الرجل يقرأ بالآية فيعيا بوجهها، فيهلك[١].

قال الشاطبي رحمه الله: «وكثيراً ما يُوقع الجهل بكلام العرب في مخاز لا يرضى بها عاقل، أعاذنا الله من الجهل والعمل به بفضله.

فمثل هذه الاستدلالات لا يُعْبأ بها، وتسقط مكانة أصحابها، ولا يعد خلاف أمثالهم خلافاً»[٢].

مثال: قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾، إلى قوله ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ١٠٦ - ١٠٨].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله[٣]: «وارتفع الأوليان» بتقديرهما كأنما قيل: من الشاهدان؟ فأجيب: الأوليان، أو هما بدل

---

(١) الاعتصام (٢/ ٤٢).

(٢) الاعتصام (٢/ ٤١).

(٣) فتح الباري (٥/ ٤١٠).

من الضمير في «يقومان» أو من «آخران» ويجوز أن يرتفعا بـ «استحق»، أي من الذين استحق عليهم انتداب الأولين منهم للشهادة لاطلاعهم على حقيقة الحال، **ولهذا قال أبو إسحاق الزجاج: هذا الموضع من أصعب ما في القرآن إعراباً**، قال الشهاب السمين: ولقد صدق والله فيما قال».

ومع هذا فليكن طالب العلم على حذر من بعض ملاحظات اللغويين والنحويين فإن لهم اعتراضات غير مقبولة على بعض القراءات، والخلاف بين القراء وبعض اللغويين معلوم، قال محمد ابن عيسى الأصبهاني: «أصحاب النحو أعداء القرآن»[١].

قال أبو الحسن السخاوي رحمه الله (ت: ٦٤٣هـ) معلقاً[٢]: «يريد بهذا من أشرت إليه من جهلتهم المتوهمين أن القراء قرأوا من اختيارهم، فطعنوا عليهم، ونسبوا إلى قراءتهم الخطأ، وجاروا في الطعن عليهم، وقد تابعهم علي ذلك جماعة، فوقعوا في أئمة القرآن، كوقوع أبي حاتم السجستاني في حمزة، وابن قتيبة، وغيرهم ممن ليس بقاريء ولا نحوي، كالحكيم الترمذي وأضرابه.

والقراء اعتمادهم في قراءتهم على النقل، وهذا أصل بنفسه، فالقرآن نزل بلغة قريش.

---

(١) فتح الوصيد (١/ ١١٩).

(٢) فتح الوصيد (١/ ١١٩).

وقرأ الشعبي ﴿والله ربَّنا﴾، فقيل له: إن أصحاب العربية يقولون جميعاً ﴿والله ربِّنا﴾ جراً، فقال: هكذا أقرأنيها علقمة بن قيس»[١].

وقيل لطلحة بن مُصرِّف: «يا أبا عبدالله: إن بعض أصحاب النحو يقول في قراءتك لحن!

قال: ألحن كما لحن أصحابي أحبُّ إلي من أن أتابع هؤلاء».

وقال طلحة أيضاً: «إن كل شيء في القرآن مرتفع الواو إلا التي في البروج، وما أعرفها في العربية ولكني أتبع الأثر، يعني: (الوقود)»[٢].

وقال جرير بن عبدالحميد: «قرأ الأعمش علينا القرآن، فقال له حمزة: إن أصحاب العربية خطؤوك في حرفين، قال: وما هما؟ قال: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: ٢٢] و﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئْ﴾ [فاطر: ٤٣]، فقال الأعمش: «ما يدري أصحاب النحو أي شيء القرآن»[٣].

ومما أنكره النحويون قراءة (ليكة) وهي ثابتة، قال أبوعبيد القاسم بن سلام رحمه الله[٤]: «والذي عندي في ذلك، أني لا أحب مفارقة الخط في شيء من القرآن، إلا ما يخرج من كلام العرب،

---

(١) فتح الوصيد (١/١١٧).

(٢) فتح الوصيد (١/١١٨).

(٣) فتح الوصيد (١/١١٨).

(٤) بواسطة الوسيلة إلى كشف العقيلة ص ٣٢٢.

وهذا ليس بخارج من كلامها مع صحة المعنى في هذه الحروف، وذلك أنا وجدنا في بعض كتب التفسير، الفرق بين (الأيكة) و(ليكة)، فقيل (ليكة) اسم القرية التي كانوا فيها، و(الأيكة) البلاد كلها، فصار الفرق بينهما تشبيهاً بالفرق بين مكة وبكة، ثم رأيتهن مع هذا في الذي يُقال إنه الإمام مصحف عثمان رضي الله عنه مفترقات، فوجدت في الحجر، وقَ: «الأيكة»، ووجدت في الشعراء، وصَ: (ليكة)، ثم أجمعت عليها مصاحف الأمصار كلها بعد، فلا نعلمها اختلف فيها.

وقرأ أهل المدينة على هذا اللفظ الذي قصصناه، فأي حجة تلتمس أكثر من هذا، فهذا يقرأ على ما وجدنا مخطوطاً بين اللوحين».

فالمقصود أن بعض العلماء يخطئ في إنكار بعض القراءات لمقتضى ما يعتقدونه مخالفاً للغة العربية، وقد يكون الأمر بخلاف ما اعتقدوه.

مثال: قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩]، فقوله: ﴿عَقَّدتُّمُ﴾ فيها قراءتان، بالتشديد، وبالتخفيف.

وقد أنكر أبو عبيد القاسم بن سلام قراءة التشديد، لأنه يوهم أن الحنث لا يجب إلا بتكرير اليمين، لأن «فعّل» - في كلام العرب - لتكرير الفعل.

قال مكي بن أبي طالب رحمه الله: «وهذا الاعتراض لا يلزم، وإنما يكون التشديد للتكرير مع الواحد، أما مع الجميع فلا، لأنه قد تكرر لكل واحد يمين عقده، كقولك: «ذبَّحتُ الكباش»، فكذلك ﴿عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾، إنما وقع التكرير من أجل الجمع، ولو كانت الآية «عقدتم اليمين»، للزم ما قاله أبو عبيد، فالتشديد يكون للتكرير، إلا أن التكرير ينقسم قسمين:

- قسم يتكرر الفعل فيه على الواحد.
- وقسم يتكرر الفعل فيه على آحاد: مرة لكل واحد، وهو الذي في الآية»[1].

ونبّه كذلك العلماء على غلط بعض النحويين في تعسفهم في معاني بعض الآيات من أجل قاعدة نحوية.

مثال: قال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة: ١١٦]، قال ابن القيم رحمه الله [2]: «فهذا شرط دخل على ماضي اللفظ، وهو ماضي المعنى، قطعاً لأن المسيح إما أن يكون صدر هذا الكلام منه بعد رفعه إلى السماء، أو يكون حكاية ما يقوله يوم القيامة، وعلى التقريرين، فإنما تعلق الشرط وجزاؤه بالماضي.

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (٣/١٨٥٢ - ١٨٥٣).

(٢) بدائع الفوائد (١/٧٨ - ٧٩).

وغلط على الله من قال: إن هذا القول وقع منه في الدنيا قبل رفعه، والتقدير: إن أكن أقول هذا فإنك تعلمه، وهذا تحريف للآية، لأن هذا جواب، إنما صدر منه بعد سؤال الله له عن ذلك، والله لم يسأله وهو بين أظهر قومه، ولا اتخذوه، وأمه إلهين إلا بعد رفعه بمئات من السنين، فلا يجوز تحريف كلام الله انتصاراً لقاعدة نحوية، هدمُ مئة أمثالها أسهل من تحريف معنى الآية».

ومما استنكره النحاة قوله تعالى ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه: ٦٣]، قالوا: إن الاسم المثنى يعرب في حال النصب والخفض بالياء، وفي حال الرفع بالألف.

وكان أبو عمرو إماماً في العربية فقرأ: إن هذين لساحران، وهذا مما لا ينبغي الاعتراض به، فإن المسلمين كانوا يقرؤون سورة طه على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وهي من أول ما نزل من القرآن، قال ابن مسعود رضي الله عنه: بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، من العتاق الأول، وهن من تلادي، رواه البخاري عنه، وهي مكية باتفاق الناس.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «وحينئذ عُلم أن الصحابة إنما قرأوا كما علّمهم الرسول ﷺ، وكما هو لغة للعرب،

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٥٦).

ثم لغة قريش، فعلم أن هذه اللغة الفصيحة المعروفة عندهم في الأسماء المبهمة تقول: إن هذان، ومررت بهذان، تقولها في الرفع والنصب والخفض بالألف».

وقال حذاق النحاة كالفراء: ألف التثنية في «هذان» هي ألف هذا، والنون فرّقت بين الواحد والاثنين، كما فرّقت بين الواحد والجمع نون الذين[1].

وقيل إن لغة بني الحارث بن كعب يجعلون ألف الاثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «بنو الحارث ابن كعب هم أهل نجران، ولا ريب أن القرآن لم ينزل بهذه اللغة».

وما يُقال في الفقه وأصوله من تقديم الحقيقة الشرعية على الحقيقة اللغوية يُقال كذلك في التفسير، فإن معانيه المعهودة مقدمة على المعاني اللغوية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[3]: «إن أهل العلم بالكتاب والحديث قد نقلوا لغة الرسول ﷺ التي خاطبنا بها، ولم يحتج مع ذلك إلى نقل لغة أحد غير الرسول ﷺ، ولهذا لا يحتاج

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٢٥٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/٢٥١).

(٣) بيان تلبيس الجهمية (٨/٤٧٦).

علماء الدين إلى أهل اللغة في فهم القرآن والحديث إلا في مواضع يسيرة يحتاج بعضهم إليها كألفاظ غريب القرآن، والحديث والفقه، ومعانيها، فلا يحتاجون في ذلك إلى نقل أهل اللغة، وإن احتاج إلى ذلك بعضهم، أو ذكر ذلك على سبيل الاستشهاد والاعتبار، كما يقوى الدليل بالدليل، فكل ما احتاج المسلمون إلى نقله من لغة القرآن فهم يتبعون عندهم نقلاً معلوماً مقطوعاً به، إلا مواضع قليلة خفيت على بعضهم فصارت عنده مظنونة أو مجهولة».

* * *

(١٧) التمييز بين القراءات وكلمات الصحابة التفسيرية:

فطالب العلم يجد في كثير من الآيات قراءات متنوعة، وأحياناً يُذكر مع هذه الآيات كلمات تفسيرية للصحابة، فليتنبه طالب العلم إلى ذلك.

والتمييز بين القراءة وتفسير الصحابة يكون بمراجعة كتب القراءات، وكتب التفسير، فيتحقق طالب العلم من القراءات، ويميز بين تفسير الآية وقراءتها.

والأمثلة على ذلك كثيرة، فقد قرأ ابن عباس رضي الله عنهما: (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدّث)، في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾[الحج: ٥٢]، فأراد ابن عباس رضي الله عنهما بيان أن الشيطان لا سبيل له إلى عمر رضي الله عنه كالأنبياء لأنه مُحدّث ملهم للحق، ولأن النبي ﷺ قال فيه: «**ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً قط، إلا سلك فجاً غير فجك**»[١].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله (ت: ٨٥٢هـ)[٢]: «كأن ابن

(١) رواه البخاري كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ص - رقم ٣٦٨٣).

(٢) فتح الباري (٥١/٧).

عباس رضي الله عنهما زاد فيها [ولا مُحدّث]، أخرجه سفيان ابن عيينة في أواخر جامعه، وأخرجه عبد بن حميد من طريقه وإسناده إلى ابن عباس رضي الله عنهما صحيح، ولفظه عن عمرو بن دينار قال: [كان ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدّث]، والسبب في تخصيص عمر رضي الله عنه بالذكر لكثرة ما وقع له في زمن النبي ﷺ من الموافقات التي نزل القرآن مطابقاً لها».

ومن الأمثلة كذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما: (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج)، فقوله: (في مواسم الحج)، تفسير من ابن عباس رضي الله عنهما وليس قراءة[1].

* * *

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٥٥٤).

(١٨) تبيّن المحكم من المنسوخ من القراءات:

وهذا أمر مهم فإن كثيراً من الأحكام وقع فيها خلاف بين العلماء بسبب عمل بعض الفقهاء بقراءات منسوخة، مع ما قد يقع في بعض ذلك من خلاف في التمييز بين القراءة وتفسير الصحابي.

فقد ذهب جماعة من العلماء إلى اشتراط التتابع في الصيام في كفارة اليمين، لقراءة «فصيام ثلاثة أيام متتابعات».

قال موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي رحمه الله (ت: ٦٢٠هـ)[١] : «اشتراط التتابع في الصوم، ظاهر المذهب اشتراطه، كذلك قال إبراهيم النخعي، والثوري، وإسحاق، وأبو عبيد، وأبو ثور، وأصحاب الرأي. وروي ذلك عن علي رضي الله عنه، وبه قال عطاء، ومجاهد، وعكرمة. وحكى ابن أبي موسى عن أحمد رواية أخرى أنه يجوز تفريقها، وبه قال مالك، والشافعي في أحد قوليه؛ لأن الأمر بالصَّوْم مطلق، فلا يجوز تقييده إلا بدليل، ولأنه صيام أيام ثلاثة، فلم يجب التتابع فيه، كصيام المتمتع ثلاثة أيام في الحج.

ولنا أن في قراءة أبيٍّ، وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات». كذلك ذكره الإمام أحمد في «التفسير» عن جماعة، وهذا إن كان قرآنا، فهو حجة؛ لأنه كلام الله

---

(١) المغني (١٣/ ٥٢٨ – ٥٢٩).

الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإن لم يكن قرآناً، فهو رواية عن النبي ﷺ، إذ يحتمل أن يكونا سمعاه من النبي ﷺ تفسيراً فظنَّاه قرآنا، فثبتت له رتبة الخبر، ولا ينقص عن درجة تفسير النبي ﷺ للآية، وعلى كلا التقديرين فهو حجة يجب المصير إليه».

والصواب في هذه المسألة عدم اشتراط التتابع، لأن قراءة «متتابعات» منسوخة.

قالت عائشة رضي الله عنها: نزلت «فصيام ثلاثة أيام متتابعات»، ثم سقطت متتابعات[1] .

* * *

(١) رواه عبدالرزاق وصحح إسناده ابن حجر في موافقة الخبر (١/٥٢).

(١٩) القراءات الغير سبعية يحتج بها في الأحكام :

القراء السبعة: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، اشتهر أمرهم في المائة الثالثة لما اقتصر أبو بكر ابن مجاهد على قراءتهم.

وهؤلاء القراء أسانيدهم متصلة بالصحابة، قال الحافظ البغوي رحمه الله (ت: ٥١٦هـ)[١] : «والقراء المعروفون أسندوا قراءتهم إلى الصحابة، فعبدالله بن كثير، ونافع، أسندا إلى أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه، وعبدالله بن عامر أسند إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأسند عاصم إلى علي رضي الله عنه، وعبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وزيد رضي الله عنه، وأسند حمزة إلى عثمان وعلي رضي الله عنهما، وهؤلاء قرؤوا على النبي ﷺ، فثبت أن القرآن كان مجموعاً كله في صدور الرجال».

والاقتصار على القراء السبعة كان غرضه ضبط القراءة بقراءتهم لا تحريم قراءة غيرهم، قال مكي بن أبي طالب رحمه الله[٢] : «إن الرواة عن الأئمة من القراء كانوا في العصر الثاني والثالث كثيراً في العدد، كثيراً في الاختلاف، فأراد الناس في العصر الرابع أن يقتصروا من القراءات التي توافق المصحف على ما سهل حفظه، وتنضبط القراءة به».

---

(١) شرح السنة (٥١٨/٤).

(٢) المرشد الوجيز ص ١٥٦.

وليس معنى هذا أن سائر القراءات مهجورة، كلا، قال مكي رحمه الله[1] : «ولم تترك القراءة برواية غيرهم، واختيار من أتى بعدهم إلى الآن، فهذه قراءة يعقوب الحضرمي غير متروكة، وكذلك قراءة عاصم الجحدري، وقراءة أبي جعفر، وشيبة، إمامي نافع».

وبهذا يتبين أنه تجوز القراءة بغير قراءة السبعة إذا كانت ثابتة عن النبي ﷺ، قال ابن القيم رحمه الله[2]: «لا يجب على الإنسان التقيد بقراءة السبعة المشهورين باتفاق المسلمين، بل إذا وافقت رسم المصحف الإمام وصحّت في العربية وصحَّ سندها جازت القراءة بها، وصحت الصلاة بها اتفاقاً».

ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام وهو مما يحتاج معرفة حكمه المفسر والفقيه هو أنه في باب الاستدلال الفقهي إذا صحّت القراءة صحَّ الاستدلال بها على الحكم، لا يشترط أن تكون القراءة متواترة، وقد حكى الحافظ ابن عبد البر رحمه الله إجماع العلماء على ذلك[3] .

* * *

(١) المرشد الوجيز ص ١٥٧.
(٢) إعلام الموقعين ص ٩٣١ – ٩٣٢.
(٣) مجموع الفتاوى (٣٤/٤٢ – ٤٣).

(٢٠) التحقق من ثبوت القراءات وتحرير معانيها :

ليس كل ما يُذكر على أنه قراءة يكون صحيحاً، فلذلك لا بد من التحقق من ثبوت القراءة، ثم بعد ذلك يحتاج طالب العلم إلى تحرير معنى القراءة إذا كان في معناها خلاف بين الأئمة.

مثال (١): قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المؤمنون: ٧٢]، قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله[1] : «المراد بالخرج والخراج هنا: الأجر والجزاء.

وقرأ هذين الحرفين ابن عامر؛ ﴿خرجا فخرج ربك﴾، بإسكان الراء فيهما معاً، وحذف الألف فيهما، وقرأ حمزة والكسائي: خراجاً فخراج ربك بفتح الراء بعدها ألف فيهما معاً، وقرأ الباقون: خرجاً فخراج ربك بإسكان الراء، وحذف الألف في الأول، وفتح الراء وإثبات الألف في الثاني، والتحقيق: أن معنى الخرج والخراج واحد، وأنهما لغتان فصيحتان وقراءتان سبعيتان، خلافاً لمن زعم أن بين معناهما فرقاً زاعماً أن الخرج ما تبرعت به، والخراج: ما لزمك أداؤه، ومعنى الآية: لا يساعد على هذا الفرق كما ترى».

مثال (٢): قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]، فقد توهم عروة بن الزبير رضي الله عنه

---

(١) أضواء البيان (٥/٨٠٦).

عدم وجوب السعي بين الصفا والمروة، وأزالت خالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عنه هذا الإشكال بأنه لو كان المراد كما فهمه لكانت الآية (فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما)، ونفي الجناح في الآية جاء جواباً لسؤال الصحابة عما كانوا عليه قبل الإسلام من إهلالهم لمناة الطاغية عند الصفا.

وقد ذكر الطبري رحمه الله من جملة قراءات الآية (فلا جناح عليه أن لا يطوّف بهما).

وقد أجاب العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله عن هذه القراءة بعدة أجوبة:

١ - أن هذه القراءة لم تثبت قرآناً.

٢ - أنها مخالفة للقراءة المجمع عليها المتواترة، وما خالف المتواتر المجمع عليه إن لم يمكن الجمع بينهما فهو باطل، والنفي والإثبات لا يمكن الجمع بينهما لأنهما نقيضان.

٣ - ما ذكره ابن حجر في الفتح عن الطبري والطحاوي، من أن قراءة: ﴿أن لا يطوف بهما﴾ محمولة على القراءة المشهورة، و«لا» زائدة.

قال الشنقيطي رحمه الله في جواب الطبري والطحاوي: لا يخلو من تكلف[1] .

---

(١) أضواء البيان (٥/٢٤٨ - ٢٤٩).

(٢١) الالتفات إلى صُلب التفسير والالتفات عن فضوله.

فالفضلة الجهل بها لا يضر، والعلم بها لا ينفع، فهذا لا ينبغي أن يلتفت إليه طالب العلم، ولا أن يزاحم به وقته وجهده في طلب صلب العلم، فمراعاة الأولويات من سلامة المنهج في طلب العلم، أما من أحاط بصلب العلم، وأتقن التفسير، فلا حرج أحياناً، خصوصاً في وقت إجمام النفس أن يقرأ بعض هذه المباحث.

ومن اللطائف والعجائب في تعيين المهاجر في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، فقد ذكر الحكم بن أبان عن عكرمة رحمه الله قال: اسم الذي خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله (ضمرة بن العيص)، وقال أيضاً: طلبت اسمه أربع عشرة سنة حتى وقفت عليه[(١)].

ويدل لهذا التأصيل قوله تعالى في عدد أصحاب الكهف ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢]، قال شيخنا محمد بن العثيمين رحمه الله[(٢)]: «فسّره المؤلف رحمه الله - يعني شيخ الإسلام - بأن المعنى لا تجزء نفسك في التعمق والجدال في عدتهم لأنه لا طائل تحته، وهكذا يمر علينا أحياناً في الأحاديث إبهام الرجل صاحب

---

(١) عمدة القاري للعيني (١١/٣٣٦).

(٢) شرح مقدمة التفسير لابن تيمية ص ١٣٦ - ١٣٧.

القضية، حيث أحياناً يبهم، فيقال: قال الرجل، أو أتى الرجل، أو دخل أعرابي، أو ما أشبه ذلك، فتجد بعض الناس يتعب نفسه في تعيين ذلك الرجل مع أنه لا طائل تحت ذلك، فيشتغل بالمهم إن كان مهماً عن الأهم، والأولى لطالب العلم ألا يضيّع الوقت في مثل هذه الأمور التي فائدتها قليلة بالنسبة لغيرها، أو ربما أنها لا فائدة فيها إطلاقاً والحاصل أن أصحاب الكهف عدتهم سبعة ثامنهم كلبهم، وقد مرَّ علينا أنهم لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً.

ومثال ذلك الاختلاف في عصا موسى من أي شجرة كانت، وكذلك الاختلاف في الجزء الذي ضربوا به الميت القتيل، كل هذا لا طائل تحته ولا فائدة لنا».

ومن ذلك قوله تعالى عن ذي القرنين ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤ - ٨٥].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[(١)]: «أي: أعطاه الله من الأسباب الموصلة له لما وصل إليه ما به يستعين على قهر البلدان وسهولة الوصول إلى أقاصي العمران، وعمل بتلك الأسباب التي أعطاه الله إياها، أي: استعملها على وجهها، فليس كل من عنده شيء من الأسباب يسلكه، ولا كل أحد يكون قادراً على السبب، فإذا اجتمع القدرة على السبب الحقيقي والعمل به، حصل المقصود،

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٥٩.

وإن عدما أو أحدهما، لم يحصل، **وهذه الأسباب التي أعطاه الله إياها لم يخبرنا الله ولا رسوله بها، ولم تتناقلها الأخبار على وجه يفيد العلم، فلهذا لا يسعنا غير السكوت عنها** وعدم الالتفات لما يذكره النقلة للإسرائيليات ونحوها، ولكننا نعلم بالجملة أنها أسباب قوية كثيرة داخلية وخارجية بها صار له جند عظيم ذو عدد ونظام، وبه تمكّن من قهر الأعداء ومن تسهيل الوصول إلى مشارق الأرض ومغاربها وأنحائها».

وكذلك الشأن في تعيين مكان كهف الفتية المؤمنين، قال ابن عطية الأندلسي رحمه الله[1]: «وبالشام على ما سمعت من ناس كثير، كهف كان فيه موتى، يزعم مجاوروه أنهم أصحاب الكهف، وعليهم مسجد وبناء يسمى الرقيم، ومعهم كلب رمة، وبالأندلس في وجهة غرناطة بقرب قرية تسمى لوشة، كهف فيه موتى ومعهم كلب رمة وأكثرهم قد انجرد لحمه، وبعضهم متماسك، **وقد مضت القرون السالفة ولم نجد من علم شأنهم إشارة**، ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف، دخلت إليهم فرأيتهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة، وعليهم مسجد وقريب منهم بناء رومي يسمى الرقيم كأنه قصر محلق قد بقي بعض جدرانه وهو في فلاة من الأرض حزنة وبأعلى حضرة غرناطة مما يلي القبلة آثار مديونية قديمة رومية يقال لها مدينة دقيوس، وجدنا في آثارها غرائب في قبور ونحوها».

---

(١) المحرر الوجيز (١٠/٣٩١ – ٣٩٢).

(٢٢) مجانبة تفسير لا سلف له:

وهذا منهج واجب إعماله في علوم الشريعة كلها، فالتفسير شديد لابد فيه من الورع التام أن يُقال في كتاب الله بالرأي والأقوال المبتدعة.

فمثلاً قوله تعالى ﴿وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فقد قيل إنها على الندب، قال أبو جعفر النحاس رحمه الله (ت: ٣٣٨هـ) [١]: «وهذا القول لا يعرف أحد من المتقدمين قاله، وإذا تكلم أحد من المتأخرين في معنى آية من القرآن قد تقدم كلام المتقدمين فيها فخرج عن قولهم، لم يلتفت إلى قوله، ولم يعد خلافاً فبطل هذا».

وبهذا يتبين ضرورة أن يعتني طالب العلم بتفسير الصحابة، ومن أخذ عنهم من التابعين، وكلامهم كله مدون حفظه لنا أئمة التفسير والمصنفات، وساقوه بأسانيده، لكن الشأن في تمييز الصحيح من مروياتهم.

قال العلامة محمد بن سليمان الكافيجي رحمه الله[٢]: «إن صدر المفسرين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال ابن عباس رضي

---

(١) الناسخ والمنسوخ (٢/٣٢٨ - ٣٢٩).

(٢) التيسير في قواعد علم التفسير ص ٢٤٦ - ٢٥٤.

الله عنهما: ما أخذت من تفسير القرآن فهو عن علي بن أبي طالب، ويتلوه ابن عباس رضي الله عنهما، كفاه فضيلة أن رسول الله ﷺ قال فيه: «**اللهم فقهه في الدين**». وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (إن ابن عباس رضي الله عنهما كأنما ينظر إلى الغيب من وراء ستر رقيق)، ولهذا قالوا: (إن المحفوظ عن ابن عباس رضي الله عنهما أكثر من المحفوظ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه)، وكان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يقول: (نعم ترجمان القرآن عبدالله ابن عباس رضي الله عنهما)، ويتلوه عبدالله بن مسعود وأبي ابن كعب، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنهم أجمعين.

ثم إن جماعة من التابعين كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعلقمة تبعوا ابن عباس رضي الله عنهما، قرأ مجاهد على ابن عباس رضي الله عنهما قراءة فهم ووقوف عند كل آية، ويتلوهم عكرمة والضحاك، ثم حمل تفسير كتاب الله العزيز عدول كل خلف، وألّف الناس فيه كعبدالرزاق والمفضل، وعلي بن أبي طلحة وغيرهم.

ثم إن محمد بن جرير الطبري جمع على الناس أشتات التفسير، وقرّب البعيد منها، ومن المبرزين من المتأخرين أبو إسحاق الزجاج وأبو علي الفارسي، وأبو عباس المهدوي، وغيرهم، وكلهم متقن مأجور، جزاهم الله عن أهل العلم خيراً».

(٢٣) مجانبة الإسرائيليات:

فمما يتأكد على طالب العلم ومبتغي التفسير مجانبة الإسرائيليات ومحاذرة تفسير آيات الله بشيء من ذلك، والمسلمون ولله الحمد ليسوا بحاجة إلى شيء من ذلك أبداً، فالرسول عليه الصلاة والسلام بلّغ البلاغ المبين، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله عن كعب الأحبار وإسرائيلياته[١]: «وليس لهذه الأمة - والله أعلم - حاجة إلى حرف واحد مما عنده»، وكان عمر رضي الله عنه يزجر كعب الأحبار عن رواية الإسرائيليات أشد الزجر، وقال له[٢]: «لتتركن الأحاديث، أو لألحقنك بأرض القردة».

والذي ينبغي أن يعلمه طالب العلم أن الفضول هو الذي جلب الإسرائيليات لتفاسير بعض علمائنا، فتراهم يطلبون تبين ما أهمله الله في قرآننا، ولو وسعهم إهمال الشارع لها لأغناهم ذلك عن الإسرائيليات، لأن ما أهمله الشارع لا تزيد معرفته في الإيمان شيئاً.

ولهذا قال الحافظ ابن كثير رحمه الله معلقاً على قوله تعالى: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠] ما نصه[٣]: «اختلف المفسرون في هذه الأربعة، ما هي؟ وإن كان لا طائل تحت تعيينها، إذ لو كان في ذلك مُهتمّ لنص عليه القرآن».

---

(١) تفسير القرآن العظيم(٧/٣٢ - ٣٣).

(٢) البداية والنهاية (١١/٣٧١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/٦٩٣).

ومن أمثلة فضول بعض العلماء في طلب ما أعرض الله عن ذكره في القرآن هو طلب معرفة صفة مفاتيح كنوز قارون، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦].

فقد روى الأعمش عن خيثمة قال: وجدت في الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وَقْرُ ستين بغلاً، ما يزيد منها مفتاح على إصبع، لكل مفتاح منها كنز(١).

وهذا الفضول يُزاحم صُلب العلم فمالك وله، قال الإمام أحمد رحمه الله: (٢) «الاشتغال بهذه الأخبار القديمة يقطع عن العلم».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(٣): «هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذكر للاستشهاد لا للاعتقاد، فإنها على ثلاثة أقسام، أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح، والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه. والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني.

---

(١) رموز الكنوز (٥/٥٦٧).

(٢) الآداب الشرعية (٢/٩٧).

(٣) مقدمة في أصول التفسير ص ١٣٢ – ١٣٣ بشرح ابن عثيمين رحمه الله.

ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدتهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله تعالى لإبراهيم، وتعيين «البعض» الذي ضُرب به المقتول من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى إلى غير ذلك مما أبهم الله تعالى في القرآن مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا في دينهم، ولكن نقل الخلاف في ذلك جائز».

المهم أن الإسرائيليات كان يذكرها الأوائل من باب الفضلة، ولم يجعلوها أساساً في فهم معاني القرآن ولا بناء العقيدة، وإنما من باب الترخص في الحديث عنهم وفق قول النبي ﷺ: «**لا تُصَدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم**»[1] ، قال الحافظ ابن عبدالبر رحمه الله[2]: «ليس في الحديث عنهم ما يقدح في الشريعة ولا يوجب فيها حكماً، وقد كانت فيهم الأعاجيب، فهي التي يُحدث بها عنهم، **ولا شيء من أمور الديانة**».

وفوق هذا كان الصحابة يُمحّصون الإسرائيليات ويعرضونها على الكتاب والسنة فما خالفه ردوه (فماذا بعد الحق إلا الضلال)،

---

(١) رواه البخاري كتاب التفسير سورة البقرة باب (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا)، (ص٧٦٢ – رقم٤٤٨٥).

(٢) التمهيد (١/ ٤٣).

ومـا سـكت عنـه أجـروا فيـه قـول النبـي ﷺ: «**لا تـصدقوهم ولا تكذبوهم**»، وقد كان في عهد الصحابة عبدالله بن سلام رضي الله عنه أسلم بعد أن كان يهودياً، وكان يروي جملة من الإسرائيليات.

قال ابن القيم رحمه الله[1]: «وقد كان الصحابة يمتحنون ما ينقله ويزنونه بما يعرفون صحته فيعلمون صدقه».

ثم تغير الحال ودوّن المفسرون جملة من الإسرائيليات في كتبهم، وجاء من يُحسّن الظن بالمفسرين لا بالإسرائيليات فأخذ هذه الأخبار بدون تمحيص وراجت على من لا تحقيق عنده.

ومن أشهر الأمثلة على ذلك ما ألصقه اليهود بنبي الله داود عليه السلام من إفك لا تجوز روايته فضلاً عن تصديقه.

قال والدنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[2]: «اعلم أن قصة داود – عليه الصلاة والسلام – ورد فيها من الإسرائيليات ما ينزه عنه مثل داود عليه السلام، فقد ورد أنه عليه الصلاة والسلام كان عنده تسع وتسعون امرأة، وأن أحد جنوده كان عنده امرأة جميلة فأرادها داود عليه السلام، ولكنه رأى أنه لا يمكن أن يأخذها من هذا الجندي قهراً فأنفذه إلى جيش لقتال العدو لعله يُقتل فيأخذها داود عليه السلام، فهذه القصة لا تحصل من أي عاقل فضلاً عن مؤمن، فضلاً عن أحد الرسل عليهم الصلاة والسلام، ولكن هذه من دسائس

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص ١١٩.

(٢) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام (٤/ ١١٠ – ١١١).

اليهود لأنهم يقولون: لا نبي بعد موسى، ويجعلون داود وسليمان مَلِكَين، ولا يرون أنهما رسولان، فلهذا عندهم الآن ما يُسمى بـ «نجمة الملك داود»، ومعلوم أن الملك كل شيء يمكن أن يجوز عليه، فهم ألصقوا هذه التهمة العظيمة لنبي من أنبياء الله فحاشاه أن يقع منه ذلك، بل هذه لو وقعت من أدنى واحد من الناس نقول: إن هذا خلاف العقل، وخلاف الدين، لكن تلقاها الناس عن حُسن نية فصاروا يكتبونها عند تفسير هذه الآية الكريمة، والصواب بلا شك أنه ليس هذا سببها، وأنه لا يجوز أن نعتقد مثل هذا في أحد الأنبياء والرسل الكرام، وأن سبب القصة أن داود عليه السلام كما في القرآن دخل محرابه يعني محل عبادته، وأغلق بابه من أجل أن ينفرد بالتعبد لله – سبحانه وتعالى –، وكان رسولاً حكماً بين الناس لابد أن يتفرغ للحكم بينهم، فجاء هذان الخصمان فوجدا أن الباب مغلق وكانا في حاجة شديدة إلى أن يقضي بينهما، فتسوّرا المحراب، يعني: أنهما صعدا من السور على داود – عليه الصلاة والسلام – وهو في محرابه يتعبد لله، فلما تسورا المحراب فإن الطبيعة البشرية تقتضي أنه إذا تسور عليك في مكانك الخاص أحد من الناس فلابد أن تخاف، ولهذا قال تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ﴿٢١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ﴾ [ص:٢١– ٢٢]، وكأنهم جماعة لكنهم متخاصمون ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٍ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [ص:٢٢]، فسكن روعه، وطلبا منه أن يحكم بالحق بدون شطط».

ومن أسباب وقوع الإسرائيليات في التفاسير هو استئناس بعض المفسرين بالكتب السابقة في طلب ترجيح محتمل الدلالة عندهم من نصوص القرآن.

مثال: سأل قوم عيسى عليه السلام ربهم أن ينزل عليهم مائدة من السماء، وتكلم العلماء في المائدة هل أنزلها الله أم لا؟ وكان مما استعان به المفسرون على نفي نزولها، هو عدم ذكرها في الإنجيل، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1]: «وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى وليس هو في كتابهم، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما يتوفر الدواعي على نقله، وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً، ولا أقل من الآحاد، والله أعلم».

وتعقبه العلامة أحمد محمد شاكر رحمه الله فقال[2]: «ولا أدري كيف يظن ابن كثير رحمه الله هذا الظن الباطل؟! وإن كان قد استدرك بعد فرجّح القول الصحيح الذي يدل عليه صريح القرآن: أن المائدة نزلت عليهم.

فالاستناد إلى أن خبر المائدة ليس في كتب النصارى ولا يعرفونه - كلام متهافت[3] باطل، لأن القرآن جاء مهيمناً على الكتب السابقة، فما وافقه منها كان صحيحاً، وما خالف كان باطلاً، فأولى ألا يكون سكوتها عن شيء أمارة نفيه إذا ما أثبته القرآن.

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٢٣١).
(٢) عمدة التفسير (١/٧٥٧)، حاشية (٢).
(٣) ما كان يستحق ابن كثير رحمه الله هذه القسوة، ولكنها غيرة أحمد شاكر على السنة، رحمهما الله.

ومن زعم أن عدم ذكرها عندهم دليل على نفي وجودها، مع ذكرها في القرآن - فقد جعل هذه الكتب المحرّفة غير الثابتة هي المهيمنة على القرآن!! وحاشا لمسلم أن يزعم ذلك.

ثم ليس خبر المائدة وحده هو الثابت في القرآن غير المذكور عندهم: فإن خبر كلام عيسى في المهد ثابت في الكتاب العزيز بأصرح لفظ وأوضحه، ولا يعرفه النصارى في كتبهم وأخبارهم، مع توافر الدواعي على نقله، فكان ماذا؟ كان أن القرآن حق، وما خالفه باطل، دون تردد أو ريب».

* * *

(٢٤) اصرف همتك للعناية بتفسير أئمة الشأن:

لكل ميدان فرسانه، وصرف الهمة إلى معرفة كلام أئمة التفسير عون على إدراك الصواب، وهكذا تُورد الإبل.

فحبر القرآن وترجمانه هو عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وابن مسعود رضي الله عنه علم أصحاب محمد ﷺ أنه من أعلمهم بكتاب الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله [(١)]: «وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس رضي الله عنهما كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما، وغيرهم من أصحاب ابن عباس رضي الله عنهما كطاووس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير وأمثالهم، وكذلك أهل الكوفة من أصحاب عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، ومن ذلك ما تميزوا به على غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير، وأخذه عنه أيضاً ابنه عبدالرحمن وعبدالله بن وهب».

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله[(٢)] «إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها،

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ٧١ – ٧٣.

(٢) مقدمة تفسير القرآن العظيم (١/٧).

ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهم».

ثم قال[1]: «إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر، فإنه كان آية في التفسير.

وكسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين ومن بعدهم».

فعمدة التفسير الكتاب والسنة والصحابة: فلا بد لطالب العلم أن يكون مستند تفسيره لآي القرآن هو القرآن نفسه والسنة والصحابة، لأن القرآن بيان، فما أُطلق في موضع قُيِّد في موضع آخر، وما كان عاماً في آية تراه مخصصاً في آية أخرى، وما أُجمل بيانه في مكان ترى بيانه في مكان آخر، وهكذا السنة تبين القرآن كما بيّنت صفة الصلاة، وتضيف أحكاماً جديدة كما جاء فيها تحريم كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير.

والصحابة معدن العلم حضروا التنزيل وأزال عنهم النبي ﷺ إشكالات سوء الفهم لبعض الآيات، كما حصل لهم في قوله تعالى

---

(١) مقدمة تفسير القرآن العظيم (١/ ١٠)، باختصار.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، ولبعضهم في قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «أحسن طرق التفسير أن يُفسر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان فإنه قد فُسر في موضع آخر، وما اختُصر في مكان فقد بُسط في موضع آخر.

فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤]، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه**» يعني السنة، والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن، لا أنها تتلى كما يُتلى.

وقد استدل الإمام الشافعي وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضوع ذلك.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ١٢٧ – ١٢٨، بشرح شيخنا العثيمين رحمه الله.

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: بم تحكم؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي، قال: فضرب رسول الله ﷺ بصدره، وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله»، وهذا الحديث في المسانيد والسنن بإسناد جيد»[1].

وقال أبو جعفر ابن جرير الطبري رحمه الله (ت: ٣١٠ هـ)[2]: «أحق المفسرين بإصابة الحق في تأويل القرآن الذي إلى علم تأويله للعباد السبيل، أوضحهم حجة فيما تأوّل وفسّر، مما كان تأويله إلى رسول الله ﷺ دون سائر أمته، من أخبار رسول الله ﷺ الثابتة عنه».

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٣٠)، والدارمي (١/ ٦٠)، وأبو داود (رقم ٣٥٩٣)، والترمذي (رقم ١٣٢٨). والحديث صححه جماعات من كبار العلماء، قال ابن عبدالبر: «حديث معاذ صحيح مشهور». جامع بيان العلم ص ٣٨٨، وقال أبو المظفر السمعاني: «هذا نص ثابت تلقته الأمة بالقبول». قواطع الأدلة (٢/ ٩٤). وقال الخطيب البغدادي: «لما تلقته الكافة عن الكافة غنوا بصحته عندهم عن طلب الإسناد له» الفقيه والمتفقه (١/ ١٨٩ - ١٨٠)، وقال أبو الوليد الباجي: «تلقته الأئمة والعلماء في سائر الأعصار بالقبول والعمل بموجبه» إحكام الفصول ص ٥٨٠، وقال أبو الخطاب الكلوذاني: «تلقته الأمة بالقبول». التمهيد (٣/ ٩٤ - ١٩٥). وقال ابن قدامة: «تلقته الأمة بالقبول». روضة الناظر ص ٢٥٦، وقال أبو بكر ابن العربي: «والدين القول بصحته»، عارضة الأحوذي (٦/ ٧٢). وقال القاضي أبو يعلى: «هو خبر صحيح». العدة (٤/ ١٢٩٢)، وحسنه الذهبي في تلخيص العلل المتناهية ص ٢٦٩، وجوّده ابن كثير في مقدمة تفسيره (١/ ٣).

(٢) مقدمة جامع البيان (١/ ٨٨).

وقال ابن القيم رحمه الله مبيناً منزلة تفسير الصحابة[1]: «لا ريب أن أقوالهم في التفسير أصوب من أقوال من بعدهم، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن تفسيرهم في حكم المرفوع، قال أبو عبدالله الحاكم في مستدركه: وتفسير الصحابي عندنا في حكم المرفوع، ومراده أنه في حكمه في الاستدلال به والاحتجاج، لا أنه إذا قال الصحابي في الآية قولاً فلنا أن نقول هذا القول قول رسول الله ﷺ، أو قال رسول الله ﷺ بيّن لهم معاني القرآن وفسّره لهم كما وصفه تعالى بقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فبيّن لهم القرآن بياناً شافياً كافياً، وكان إذا أشكل على أحد منهم معنًى سأله عنه فأوضحه له، كما سأله الصّدّيق عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، ، فبيّن له المراد، وكما سأله الصحابة عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فبيّن لهم معناها، وكما سألته أم سلمة عن قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]، فبيّن لها أنه العرض، وكما سأله عمر رضي الله عنه عن الكلالة فأحاله على آية الصيف التي في آخر السورة، وهذا كثير جداً، فإذا نقلوا لنا تفسير القرآن فتارة ينقلونه عنه بلفظه، وتارة بمعناه، فيكون ما فسروه بألفاظهم من باب الرواية بالمعنى، كما يروون عنه السنة تارةً بلفظها، وتارّة بمعناها، وهذا أحسن الوجهين، والله أعلم.

---

(١) إعلام الموقعين ص ٨٦٥ – ٨٦٦.

فإن قيل: فنحن نجد لبعضهم أقوالاً في التفسير تخالف الأحاديث المرفوعة الصحاح، وهذا كثير كما فسّر ابن مسعود رضي الله عنه الدخان بأنه الأثر الذي حصل عن الجوع الشديد والقحط، وقد صح عن النبي ﷺ أنه دخان يأتي قبل يوم القيامة يكون من أشراط الساعة مع الدّابة والدّجال وطلوع الشمس من مغربها.

وفسّر عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦]، بأنها للبائنة والرّجعية، حتى قال: لا ندع كتاب ربنا لقول امرأة، مع أن السنة الصحيحة في البائن تخالف هذا التفسير، وفسّر علي بن أبي طالب رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، أنها عامة في الحامل والحائل، فقال: تعتد أبعد الأجلين، والسنة الصحيحة بخلافه.

وفسّر ابن مسعود رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]، بأن الصفة لنسائكم الأولى، والثانية؛ فلا تحرم أمّ المرأة حتى يدخل بها، والصحيح خلاف قوله، وأن أُمَّ المرأة تحرم بمجرد العقد على ابنتها، والصفة راجعة إلى قوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]، وهو قول جمهور الصحابة.

وفسّر ابن عباس رضي الله عنهما السّجلّ بأنه كاتب النبي ﷺ يسمّى السّجلّ، وذلك وهم، وإنما السّجلّ الصّحيفة المكتوبة، واللاّم مثلها في قوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، وفي قول الشاعر:

فخر صريعا لليدين وللفم

أي يطوي السّماء كما يطوي السّجلّ على ما فيه من الكتاب، وهذا كثير جداً، فكيف يكون تفسير الصحابي حجّة في حكم المرفوع؟ قيل: **الكلام في تفسيره كالكلام في فتواه سواء بسواء،** وصورة المسألة هنا كصورتها هناك سواء بسواء، وصورتها أن لا يكون في المسألة نصٌّ يخالفه، ويقول في الآية قولاً لا يخالفه فيه أحد من الصحابة، سواء علم اشتهاره أو لم يعلم، وما ذكر من هذه الأمثلة فقد فقد الأمران، وهو نظير ما روي عن بعضهم من الفتاوي التي تخالف النص وهم مختلفون فيها سواء.

فإن قيل: لو كان قوله حجّة بنفسه لما أخطأ، ولكان معصوماً؛ لتقوم الحجة بقوله، فإذا كان يفتي بالصواب تارة وبغيره أخرى، وكذلك تفسيره فمن أين لكم أن هذه الفتوى المعيّنة والتفسير المعيّن من قسم الصواب؟ إذ صورة المسألة أنه لم يقم على المسألة دليل غير قوله، وقوله ينقسم، فما الدّليل على أن هذا القول المعين من أحد القسمين ولابدّ؟ قيل: الأدلة المتقدمة تدلّ على انحصار الصواب في قوله في الصّورة المفروضة الواقعة، وهو أنه من الممتنع

أن يقولوا في كتاب الله الخطأ المحض ويمسك الباقون عن الصواب فلا يتكلمون به، وهذه الصورة المذكورة وأمثالها قد تكلّم فيها غيرهم بالصواب، والمحظور إنما هو خلوّ عصرهم عن ناطق بالصواب واشتماله على ناطق بغيره فقط، فهذا هو المحال. وبهذا خرج الجواب عن قولكم: لو كان قول الواحد منهم حجّةً لما جاز عليه الخطأ، فإن قوله لم يكن بمجرّده حجة، بل بما انضاف إليه مما تقدّم ذكره من القرائن.

فإن قيل: فبعض ما ذكرتم من الأدلة يقتضي أن التابعي إذا قال قولاً ولم يخالفه صحابي ولا تابعي أن يكون قوله حجة.

فالجواب: أن التابعين انتشروا انتشاراً لا ينضبط لكثرتهم، وانتشرت المسائل في عصرهم، فلا يكاد يغلب على الظن عدم المخالف لما أفتى به الواحد منهم، فإن فرض ذلك فقد اختلف السّلف في ذلك، فمنهم من يقول: يجب اتباع التابعي فيما أفتى به ولم يخالفه فيه صحابي ولا تابعي، وهذا قول بعض الحنابلة والشافعية.

وقد صرّح الشافعيّ في موضع بأنه قاله تقليداً لعطاء، وهذا من كمال علمه وفقهه رضي الله عنه، فإنه لم يجد في المسألة غير قول عطاء، فكان قوله عنده أقوى ما وجد في المسألة، وقال في موضع آخر: وهذا يخرج على معنى قول عطاء، والأكثرون يفرّقون بين الصحابي والتابعي، ولا يخفى ما بينهما من الفروق، على أن في

الاحتجاج بتفسير التابعي عن الإمام أحمد روايتين، ومن تأمل كتب الأئمة ومن بعدهم وجدها مشحونة بالاحتجاج بتفسير التابعي».

ومما ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام هو أنه قد يقع بين الكبيرين ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما اختلاف في تفسير بعض أي القرآن، فهذا قليل ولله الحمد، لأن مشكاة التلقي عندهما واحدة، ناهيك أن ما يُنقل في ذلك كثير منه أو كله اختلاف تنوع، وبعضه تفسير بضرب المثال، فيكون داخلاً في حقيقة القول العام.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦]، قال ابن مسعود رضي الله عنه: هو يوم بدر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي يوم القيامة، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1] : «الظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر بطشة أيضاً».

قال الشاطبي رحمه الله (ت: ٧٩٠ هـ)[2]: «يذكر في التفسير عن النبي ﷺ في ذلك شيء أو عن أحد من الصحابة أو غيرهم، ويكون ذلك المنقول بعض ما يشمله اللفظ، ثم يذكر غير ذلك القائل أشياء أخر مما يشمله اللفظ أيضاً، فينصّهما المفسرون على نصهما، فيظن أنه خلاف، كما نقلوا في المنّ أنه خبز رقاق، وقيل زنجبيل، وقيل الترنجبين، وقيل: شراب مزجوه بالماء، فهذا كله يشمله اللفظ، لأن الله منّ به عليهم، ولذلك جاء في الحديث: «الكمأة من المنّ الذي

(١) تفسير القرآن العظيم(٧/٢٥١).
(٢) الموافقات (٤/٢١٥).

أنزل الله على بني إسرائيل»، فيكون المن جملة نِعم ذكر الناس منها آحاداً. و(الثاني) أن يذكر في النقل أشياء تتفق في المعنى بحيث ترجع إلى معنى واحد، فيكون التفسير فيها على قول واحد، ويُوهم نقلها على اختلاف اللفظ أنه خلاف محقق، كما قالوا في السَّلوَى أنه طير يشبه السُّماني، وقيل: طير أحمر صفته كذا، وقيل: طير بالهند أكبر من العصفور، وكذلك قالوا في المن شيء يسقط على الشجر فيؤكل، وقيل: صمغة حلوة، وقيل: الترنجبين، وقيل: مثل رُبّ غليظ، وقيل: عسل جامد، فمثل هذا يصح حمله على الموافقة وهو الظاهر فيها».

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٩]، فأكثر المفسرين قالوا: إنه شجر الموز، قال ابن القيم رحمه الله[1]: «والظاهر أن من فسَّر الطَّلح المنضود بالموز، إنما أراد التمثيل به لحسن نضده، وإلا فالطلح في اللغة: هو الشجر العظام من شجر البوادي».

---

(١) حادي الأرواح (١/٣٤٧).

(٢٥) تأمل ما يقع في صيغ الخطاب من الالتفات :

وهو نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر[١]، وهو أنواع:

أ - الالتفات من التكلم إلى الخطاب. مثاله: قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢].

ب - الالتفات من التكلم إلى الغيبة. مثاله: قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ [الكوثر: ١ - ٢].

جـ - الالتفات من الخطاب إلى التكلم. مثاله: قوله تعالى: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾[طه:٧٢-٧٣].

د - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة. مثاله: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ [يونس: ٢٢].

هـ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم. مثاله: قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ [مريم: ٨٨ - ٨٩].

و - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب. مثاله: قوله تعالى: ﴿فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ﴾ [التوبة: ٣٥][٢].

---

(١) البرهان في علوم القرآن ص ٨٢٠.

(٢) البرهان في علوم القرآن ص ٨٢٠ – ٨٢٦.

وفوائد الالتفات العامة:

١ - استدرار السامع.

٢ - تجديد نشاط السامع.

٣ - دفع الملال عن السامع بدوام الأسلوب الواحد[١].

وكل التفات في موضعه من الآيات له فوائده الخاصة.

مثال: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢ - ٢٣].

فتأمل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ كيف ابتدأ الله خطابهم ثم التفت إلى الإخبار عنهم ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾، قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله[٢]: «عدول عن خطابهم إلى الإخبار عنهم، تذكيراً لغيرهم وتعجيباً له من مثل حالهم».

وقال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله[٣]: «ومن بديع الأسلوب في الآية أنها لما كانت بصدد ذكر النعمة جاءت بضمائر

(١) البرهان في علوم القرآن ص ٨٢٠.
(٢) رموز الكنوز (٣/٢٨).
(٣) التحرير والتنوير (١١/١٣٥).

الخطاب الصالحة لجميع السامعين، فلما تهيأت للانتقال إلى ذكر الضراء وقع الانتقال من ضمائر الخطاب إلى ضمير الغيبة لتلوين الأسلوب بما يخلصه إلى الإفضاء إلى ما يخص المشركين فقال: «وجرين بهم» على طريقة الالتفات، أي وجرين بكم. وهكذا أجريت الضمائر جامعة للفريقين إلى أن قال: «فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق»، فإن هذا ليس من شيم المؤمنين، فتمحض ضمير الغيبة هذا للمشركين، فقد أخرج من الخبر من عدا الذين يبغون في الأرض بغير الحق تعويلاً على القرينة لأن الذين يبغون في الأرض بغير الحق لا يشمل المسلمين.

وهذا ضرب من الالتفات لم ينبه عليه أهل المعاني، وهو كالتخصيص بطريق الرمز».

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢]، قال ضياء الدين ابن الأثير رحمه الله[1]: إنما صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم لأنه أبرز الكلام لهم في معرض المناصحة، وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويداريهم، لأن ذلك أدخل في إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه، وقد وضع: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ مكان قوله: «وما لكم لا تعبدون الذي فطركم»، ألا ترى إلى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، ولولا

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢/٧).

أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرني وإليه أرجع، وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾ [يس: ٢٥]، فانظر أيها المتأمل إلى هذه النكت الدقيقة التي تمر عليها في آيات القرآن الكريم وأنت تظن أنك فهمت فحواها واستنبطت رموزها».

* * *

(٢٦) استنباط الأحكام والفوائد من أحوال النظم القرآني :

ملاحظة أحوال نظم الآية يوقفك على جملة من الفوائد والأحكام، فمثلاً: استنبط العلماء وجوب ترتيب غسل أعضاء الوضوء من خلال نظم آية الوضوء، قال تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦].

فتأمل نظم الآية، كيف أدخل ممسوحاً بين مغسولات، وقطع النظير عن نظيره، والعرب لا تفعل مثل ذلك إلا لفائدة، ولا فائدة هنا سوى الترتيب.

قالوا: وذلك لأن نظم الكلام المطابق للحكم أن تعْطف المغسول بعضه على بعض، فتقول: اغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وأرجلكم إلى الكعبين، وامسحوا برؤوسكم. إذ ذلك عادة أهل اللغة في قولهم: رأيتُ الأمير ضرب زيداً وعَمْراً وخلع على بكرٍ. ولا يقولون: ضرب زيداً وخلع على بكرٍ وضرب عمراً، إلا أن يقصدوا حكاية الأفعال على ترتيب وجودها(١).

واستنبط العلماء كذلك عدم اشتراط استيعاب أصناف مصارف الزكاة الثمانية بالصدقة من نظم الآية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٣٣.

﴿ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ ﴾ [التوبة: ٦٠]، قال الحافظ محمد ابن علي الكرجي رحمه الله[1]: «دليل على أن هذه الأصناف مواضع للصدقات، لا أنهم مشتركون فيها حتى يكون توزيعها على جميعهم فرضاً لا يجزئ غيره، ألا تراه جل وتعالى يقول: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾، ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؟ فغيّر لفظ النسق على لام الفقراء، وليس يُعرف في معنى الاشتراك أن يقال: هذا لفلان وفلان، وفي كذا».

ومن أمثلة الاستفادة من نظم الآية في الأحكام قوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥۗ ﴾ [البقرة: ٢٢٩ - ٢٣٠].

فالضمير في قوله سبحانه ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ ﴾، أي إن طلقها مرة ثالثة فلا تحل له بعدها، وهو مفهوم من قوله: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ ﴾، فلا يكون عاماً في كل مطلق لما فيه من عود الضمير المطلق فيه إلى غير موجود في الكلام قبله، ولا قائل به، مع أن قوله: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ ﴾، جملة نكرة في سياق شرط ونفي، لكننا لا نقول إنها تفيد

(١) نكت القرآن (١/٥٤٣ - ٥٤٤).

العموم لأننا لو قلنا به لأفضى إلى إلغاء الرد في الطلاق، وهذا مناقض لدين الإسلام، ولا قائل به. فتعين أن يكون قوله: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ ﴾ إتماماً لما قبله متصلاً به، فيكون الضمير عائداً إلى قوله: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ ﴾، وهو في نظم الكلام متعين له شرعاً[1].

* * *

(١) سير الحاث إلى علم الطلاق الثلاث ص ٥٢ – ٥٣.

(٢٧) التأسيس أولى من التوكيد في اللفظ المحتمل معنيين :

اللفظ أحياناً يحتمل أكثر من معنى، ويتكرر وروده في الآية الواحدة، وأحياناً في آية أخرى مقاربة لها، فحمل اللفظ على التأسيس أولى من حمله على التوكيد، لأن التأسيس فيه زيادة معنى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «إن التأسيس أولى من التوكيد، وليس هذا من باب تعارض الدليلين، ولا من باب تقييد الكلام المطلق، وإنما هو من باب تفسير اللفظ الذي فيه احتمال المعنيين».

مثال (١) قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾، ثم قال سبحانه: ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فالأولى: الأمر بكتابة الدَّين المؤجل، والثانية: المبادرة إلى الكتابة بدون مماطلة، وليست تأكيداً للأولى.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[2]: «الحمل على التأسيس أولى، لأن فيه زيادة معنى، والتأسيس أولى من التوكيد».

مثال (٢): قوله تعالى: ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ ، هذا في الحدث الأصغر، وقوله: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣]، فهذا

(١) الفتاوى الكبرى (٤/ ٣١٢).
(٢) تفسير سورة البقرة (٣/ ٤٠٤).

الأولى حمل الملامسة فيه على الجماع لا على اللمس باليد ونحوه، لأن ذلك سيجعل الآية مقصورة على تكرار الحدث الأصغر فقط، لأن تأسيس معنى جديد أولى من التكرار والتوكيد، وحمل الآية على أكثر من معنى أولى من قصرها على معنى واحد بلا دليل[1].

واستدل جماعة من العلم على أن الأمر بالوضوء من النوم مذكور في القرآن من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٦].

قال ابن الفرس الأندلسي رحمه الله[2] : «المعنى إذا قمتم إلى الصلاة وقد نمتم، وهو قول زيد بن أسلم، وهو مذهب جميع أهل المدينة، وهذا القول أولى من الأول - من حدث -، لأن الإحداث مذكور بعد هذا، فأغنى ذلك عن ذكره هنا، وأما النوم فلم يقع له ذكر، وليس بحدث، وإنما هو سبب للحدث على الأصح في ذلك، فحمل الكلام على زيادة فائدة أولى من حمله على التكرار بغير فائدة».

---

(١) تفسير سورة النساء لشيخنا العثيمين (١/٣٤٨)، تفسير آيات الأحكام في سورة النساء للشيخ سليمان اللاحم (٢/٦٥٥ - ٦٥٦).

(٢) أحكام القرآن (٢/٣٥٥).

(٢٨) الترجيح بين المعاني المحتملة بمرجحات منفصلة من غير اللفظ والسياق:

معنى الآية يدل عليه لفظه وسياقه، وهذا هو الشأن في غالب النصوص، وتبقى بعض النصوص معانيها محتملة وليس ثَمَّ مُرجح واضح من لفظ الآية أو سياقها، فيحتاج الباحث إلى ترجيح معنى الآية أو حكمها بمرجحات منفصلة من غير اللفظ وسياقه.

مثال (١): أن شعيب صاحب مدين استأجر موسى ثماني سنين أو عشراً مهراً لتزويجه ابنته، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]، فليس في الآية مُرجح من لفظها أو سياقها يُعيّن أي الأجلين قضى موسى، ورجح المفسرون ذلك بمرجحات منفصلة.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[١]: «وقد دلَّ الدليل على أن موسى عليه السلام إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما، قال البخاري حدثنا محمد بن عبدالرحيم حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا مروان ابن شجاع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير. قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/٢٣١).

أقدم على حبر العرب فاسأله، فقدمت، فسألت ابن عباس رضي الله عنهما فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل».

هنا واضح أن الترجيح بمنفصل، وفي الغالب لن يُعدم المفسر ترجيحاً من اللفظ أو سياقه، وبعض النصوص يدق لفظ ترجيحها بحيث يعتقد البعض عدم وجود مُرجح من اللفظ ويجهد نفسه في طلب مرجحات منفصلة، وقد لا يتحصل له شيء من ذلك، فليس معنى هذا تعطل الدليل عن الترجيح، فالقرآن بيان، ولكنه يخفى ويدق على المفسرين، كُلٌّ بحسب ما يبصره من دلالة الدليل، وموجب ترجيحه.

مثال (٢): قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾ [الكهف: ١٢].

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله[١] : «لم يبين هنا شيئاً عن الحزبين المذكورين. وأكثر المفسرين على أن أحد الحزبين – هم أصحاب الكهف. والحزب الثاني – هم أهل المدينة الذين بُعث الفتية على عهدهم حين كان عندهم التاريخ بأمر الفتية. وقيل: هما حزبان من المؤمنين في زمن أصحاب الكهف. اختلفوا في مدة لبثهم، قاله الفراء، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الملوك

(١) أضواء البيان (٢/٣٤٣).

الذين تداولوا ملك المدينة حزب، وأصحاب الكهف حزب، إلى غير ذلك من الأقوال. والذي يدل عليه القرآن: أن الحزبين كليهما من أصحاب الكهف، وخير ما يفسر به القرآن القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: ١٩]. وكأن الذين قالوا: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول. ولقائل أن يقول: قوله عنهم ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾، يدل على أنهم لم يحصوا مدة لبثهم. والله تعالى أعلم.

وقد يجاب عن ذلك بأن رد العلم إلى الله لا ينافي العلم، بدليل أن الله أعلم نبيه بمدة لبثهم في قوله: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف: ٢٥] الآية، ثم أمره برد العلم إليه في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ﴾ [الكهف: ٢٦] الآية».

* * *

(٢٩) التفسير بالمقابل :

قد يختلف المفسرون في تعيين معاني بعض المفردات القرآنية، ويكون من أسباب تعيين المعنى الراجح التفسير بالمقابل، من ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴾ [النساء: ٧١].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[١] : «قوله ﴿ثُبَاتٍ﴾، أي: متفرقين، ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴾، أي: مجتمعين، والذي دلنا على أن ﴿ثُبَاتٍ﴾، بمعنى: متفرقين قوله: ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴾، حيث قوبلت بهذا، ومقابل الشيء يكون ضده في المعنى».

وقال شيخنا أيضاً رحمه الله[٢] : «وقد ذكرنا قاعدة مفيدة في هذا: أن الشيء قد يُعرف بمعرفة مقابله، وذكرنا أن منه قوله تعالى: ﴿ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴾ [النساء: ٧١] ».

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا ﴾ [النساء: ١٣٢ - ١٣٣].

---

(١) تفسير سورة النساء (١/٥١٦).

(٢) تفسير سورة النساء (١/٥٣٣).

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله[1] : «وقد عُلم من مقابلة قوله ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، بقوله: ﴿ءَاخَرِينَ﴾، أن المعنى بناس آخرين غير كافرين، على ما هو الشائع في الوصف بكلمة آخر أو أخرى، بعد ذكر مقابل للموصوف».

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (٥/٢١١).

(٣٠) تلمح التناسب والارتباط بين الألفاظ والمعاني معاً:

فإنه نافع جداً في تدبر الآيات، واستنباط معانيها وأحكامها وبلاغتها.

قال ابن القيم رحمه الله[١]: «اعلم أن الأصل هو المعنى المفرد، وأن يكون اللفظ الدال عليه مفرداً، لأن اللفظ قالب المعنى ولباسه يحتذي حذوه، والمناسبة الحقيقية ثابتة بين اللفظ والمعنى طولاً وقصراً، وخفة وثقلاً، وكثرة وقلة، وحركة وسكوناً، وشدة وليناً، فإن كان المعنى مفرداً أفردوا لفظه، وإن كان مركباً ركبوا اللفظ، ثم قال[٢]: «ومن هذا البابِّ ذكر الرياح في القرآن جمعاً ومفردة، فحيث كانت في سياق الرحمة أتت مجموعة، وحيث وقعت في سياق العذاب أتت مفردةً، وسرُّ ذلك: أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمهابّ والمنافع، وإذا هاجت منها ريح أنشأ لها ما يقابلها ما يكسر سَوْرتها ويصدم حِدَّتها، فينشأ من بينهما ريحٌ لطيفة تنفع الحيوان والنبات، فكل ريح منها في مقابلها ما يعدلها ويرد سَوْرتها، فكانت في الرحمة رياحاً. وأما في العذاب: فإنها تأتي من وجه واحد وصمام واحد، لا يقوم لها شيء ولا يعارضها غيرها، حتى تنتهي إلى حيث أُمرت، لا يرد سوْرتها ولا يكسرَ شرَّتها، فتمتثل ما أُمرت به

---

(١) بدائع الفوائد (١/١٨٩).

(٢) يستثنى من ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢].

وتصيب ما أُرسلت إليه، ولهذا وصف سبحانه الريح التي أرسلها على عاد بأنها عقيم، فقال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، وهي التي لا تُلْقِح ولا خير فيها، والتي تُعْقِم ما مَرَّت عليه.

ثم تأمل كيف اطرد هذا إلا في قوله تعالى في سورة يونس: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: ٢٢]، فذكر ريح الرحمة الطيبة بلفظ الإفراد، لأن تمام الرحمة هناك إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد تسيرها، فإذا اختلفت عليها الرياح وتصادمت وتقابلت، فهو سبب الهلاك، فالمطلوب هناك ريح واحدة لا رياح، وأكَّد هذا المعنى بوصفها بالطِّيْب دفعا لتوهُّم أن تكون ريحاً عاصفة، بل هي مما يُفرح بها لِطِيبها، فلينزِّه الفطن بصيرَته في هذه الرياض المونقة المعجبة التي ترقص القلوب لها فرحاً، ويغتذي بها عن الطعام والشراب، فالحمد لله الفتَّاح العليم».

* * *

(٣١) العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

وهذا واضح بيّن لأن القرآن أنزله الله للناس جميعاً.

مثال: قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله[١]: «يدخل في عمومه أيضاً أن من عليه دين لا يُطالب به مع إعساره، بل يُنظر إلى حال يساره»، ثم قال: «وعلى هذا جمهور العلماء **خلافاً لشريح في قوله: إن الآية مختصة بديون الربا في الجاهلية**».

بل نجد النبي ﷺ والصحابة من بعده يستعملون عموم اللفظ حيث يصلح وإن كان نازلاً في الكفار حيث يحتمل اللفظ المعنى، فالنبي ﷺ طرق فاطمة وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما ليلاً، فقال: ألا تصليان؟ فقال علي رضي الله عنه: إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إليّ شيئاً، ثم سمعته وهو مولّ يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤][٢].

والسلف نزّلوا كثيراً من النصوص في الكفار في أهل البدع كالخوارج لجامع الزيغ، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/٢٢٥).

(٢) رواه البخاري كتاب التهجد باب تحريض النبي عليه الصلاة والسلام على القيام (ص١٨٠ – رقم ١١٢٧)، ومسلم كتاب صلاة المسافرين باب الحث على صلاة الليل (ص ٣١٦ – رقم ١٨١٨).

[آل عمران: ٧]، قال الشاطبي رحمه الله[1]: «فسر سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في رواية سعيد بن منصور أن ذلك بسبب الزيغ الحاصل فيهم، وذلك قوله ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥]، وهو راجع إلى آية آل عمران في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ الآية [آل عمران: ٧]، فكأنه رضي الله عنه - أدخل الحرورية في الآيتين بالمعنى، وهو الزيغ في إحداهما، والأوصاف المذكورة في الأخرى، لأنها فيهم موجودة. فآية الوعد تشمل بلفظها، لأن اللفظ فيها يقتضي العموم لغة، وإن حملناها على الكفار خصوصاً، فهي تعطي أيضاً فيهم حكماً من جهة ترتيب الجزاء على الأوصاف المذكورة، حسبما هو مبيَّن في الأصول.

وكذلك آية الصف، لأنها خاصة بقوم موسى عليه السلام، ومن هنا كان رضي الله عنه سعد يسميهم الفاسقين - أعني: الحرورية، لأن معنى الآية واقع عليهم، وقد جاء فيها ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، ومن هنا يُفهم أنها لا تختصُّ من أهل البدع بالحرورية، بل تعمُّ كلَّ من اتَّصف بتلك الأوصاف التي أصلها الزيغ، وهو الميل عن الحق اتباعاً للهوى.

وإنما فسَّرها سعد رضي الله عنه بالحرورية، لأنه إنما سُئل عنهم، وإنما سُئل عنهم على الخصوص، والله أعلم، لأنهم أول من ابتدع في دين الله، فلا يقتضي ذلك تخصيصاً».

---

(١) الاعتصام (١/ ٩٢ - ٩٣).

فحيث يقتضي لفظ الآية معنى متحقق فيها فهو داخل في سببها على مقتضى اللفظ لا خصوص السبب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «وقولهم نزلت هذه الآية في كذا يراد به تارة أنه سبب النزول، ويُراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب كما تقول عنى بهذه الآية كذا».

لذلك يُنقل في سبب النزول أكثر من قول فإذا كان اللفظ يحتمله فلا بأس، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥].

فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم حال وقاعهم، فأنزل الله هذه الآية[2].

فهذا سبب النزول في الصحابة، وورد سبب نزول آخر في الكفار، قال أبو بكر محمد بن عزيز السجستاني: إن قوماً من المشركين كانوا قد قالوا فيما بينهم: أرأيتم لو أغقلنا أبوابنا وأرخينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وثنينا صدورنا على عداوة محمد ﷺ، كيف يعلم بنا؟ فأنبأ الله عز وجل عمّا كتموه فقال: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ [هود: ٥] الآية[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٣٣٩).

(٢) رواه البخاري كتاب التفسير باب سورة هود (ص ٨٠٥ – ٤٦٨١).

(٣) دَرْجُ الدرر في تفسير الآي والسُّوَر (٣/٩٦٤).

ومما ينبغي التنبيه عليه هو أن أسباب النزول وقع فيها غلط كثير، وهذا الغلط يُعرف تارة من جهة الإسناد، وتارة من جهة المتن، وتارة منهما. مثال: قال تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس: ٩٤].

قال ابن زيد: هو عبدالله بن سلام.

قال ابن القيم رحمه الله[1]: «وأين كان عبدالله بن سلام وقت نزول هذه الآية؟! فإن السورة مكية، وابن سلام إذ ذاك على دين قومه، وكيف يؤمر رسول الله ﷺ أن يستشهد على منكري نبوته بأتباعه؟».

على كل حال المقصود التثبت من أسباب النزول فإن كثيراً مما يروى في ذلك ضعيف، قال العلامة عبدالقادر بن بدران الدمشقي رحمه الله (ت: ١٣٤٦هـ)[2]: «وأكثر ما يذكرونه في أسباب النزول متعارض، وضعيف الإسناد، فلا ينبغي أن يقبل منه إلا ما صح، وقد صنّف الواحدي وغيره في ذلك كتباً لا يعول على ما ذكروه فيها إلا على الصحيح منه».

---

(١) أحكام أهل الذمة (١/ ١٣).

(٢) جواهر الأفكار ومعادن الأسرار ص ٣٢٤.

(٣٢) ملاحظة تغيير بناء الكلمة:

فتلمح ذلك يوقفك على لطائف من الفوائد، وأحياناً يكون ذلك مرجحاً في بعض الأحكام.

وقد وقع في مجلس بين ابن خَالَوَيْه وأبي عليّ الفارسي في هذه المسألة بحضرة سيف الدَّولة، وذلك أنه سُئل ابن خالويه في قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، لِمَ جاءت الواحدة بواو، والأخرى بغير واو؟ فقال ابن خَالَوَيْه: هذه واو الثمانية؛ لأن العرب لا تعطف الثمانية إلا بالواو. فقال سيف الدولة لأبي علي: أحقاً ما يقول؟ فقال أبو علي: لا، وإنما أقول: إن قوله في أبواب النار: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، أبواب النار مغلقة، فكان مجيئهم شرْطا في فتحها؛ لأن قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ فيه معنى الشّرط، وأمّا قوله: «وفُتِحَتْ» في أبواب الجنّة، فهذه واو الحال، كأنه قال: وفُتِّحت أبوابها، أي وهذه حالها مفتَّحة الأبواب[1].

وأما مثال ما تغير فيه بناء الكلمة وكان برهاناً في ترجيح بعض الأحكام، هو أن الحائض إذا انقطع دم حيضها فهذا وحده لا يبيح جماعها لزوجها، فلابد أن تغتسل لأن قوله «فإذا تطهَّرْن» المشددة قدر زائد على «حتى يطهرن»، وهذا القدر الزائد هو الغسل.

---

(١) المسالك في شرح موطأ مالك (٤/٢٤٦).

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال أبو عبدالله القرطبي رحمه الله[1]: «إن الله سبحانه علّق الحكم فيها على شرطين: أحدهما انقطاع الدم، وهو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾. والثاني: الاغتسال بالماء، وهو قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أي يفعلن الغسل بالماء».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «وإنما ذكر الله غايتين على قراءة الجمهور، لأن قوله (حتى يطهرن) غاية التحريم الحاصل بالحيض، وهو تحريم لا يزول بالاغتسال ولا غيره، فهذا التحريم يزول بانقطاع الدم، ثم يبقى الوطء بعد ذلك جائزاً بشرط الاغتسال».

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (٣/٨٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٢١/٦٢٥).

(٣٣) جبر نقص السليقة العربية بالقراءة:

ألسنتنا اليوم ليست كألسنة السابقين، فلذلك نقص فهمنا لمعاني القرآن تبعاً لهذا النقص.

وحسبي هنا أن أضرب مثالاً يتبين من خلاله فرق ما بين إدراكنا لمعاني الآيات ودلالات ألفاظها وما بين الأولين.

فبعض الأعراب أرسل ابناً له، حين سمع بمبعث النبي ﷺ يسمع ما يقول، فجاء والنبي ﷺ يقرأ: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: ١]، فرجع إلى أبيه، فقال: ما سمعته يقول يا بني؟ فقال: سمعته: يُقسم على ربه بخيل تضبح خواصرها، فتقدح الحصا بسنابكها، فتغير على الأحياء غلساً، فتثير قَسْطَلَ القتام، فتتوسط بالفارس الجمع، وغضون القصة: إن الإنسان لربه لمعاند، فقال: هذا الكلام بعينه يا بني، قال: بل معناه[١].

فنقص السليقة نجبر بعضه بقراءة كتب التفسير واللغة، قال العلامة مبارك الميلي رحمه الله[٢]: «ولعل هنالك من يستصعب هذه الطريق بأن طباعنا العربية قد حالت، وسلائقنا في ذوق الكلام العربي قد فسدت، فأنى لنا بفهم كلام ربنا؟ فنقول له: إن من عانى غموض المتون وتعقيد المختصرات يستسهل القرآن الذي يسَّره الله للذكر، ويجد في تعلم اللغة وعلومها ما يرد عليه سليقة سلفه أو يكسبه إياها إن لم يكن عربي الأصل، ونقص السليقة المكتسبة يجبره ما كتبه أئمة التفسير».

---

(١) رموز الكنوز (٨/٧١٣).

(٢) الشرك ومظاهره ص ٥٦ – ٥٧.

(٣٤) ملاحظة تنوع أسماء الإشارة في الخطاب القرآني: فإنه يوقفك على فوائد بلاغية عظيمة.

مثال (١): في القرآن تجد استعمال اسم الإشارة في جهنم بـ (هذه) كما في قوله تعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [يس: ٦٣]، وفي الجنة تجد الخطاب القرآني جاء باستعمال اسم الإشارة (تلك) كما في قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢]، ولهذا التنوع في استعمال أسماء الإشارة نكتة بلاغية، قال ابن خالويه رحمه الله (ت: ٣٧٠هـ)[١]: «إنما أشار إلى الجنة بإشارة البعيد، فقال: «وتلك»، وأشار إلى جهنم في قوله «هذه» جهنم بإشارة القريب لتأكيد التخويف من جهنم، لأن الله عز وجل قد يتفضل على عباده فيدخلهم الجنة بغير عمل كالأطفال والمجانين، ولا يعذب أحداً منهم إلا على ذنب اكتسبه، فحذرهم الله عز وجل في النار وقرَّب الإشارة إليها، أكثر مما شوقهم إلى الجنة، فجعل جهنم كأنه يُنظر إليها كالحاضرة، تخويفاً منها».

مثال (٢): قوله تعالى عن القرآن ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ ﴾ [البقرة: ٢]، قال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله[٢]: «أشار إليه بأداة البعيد، لعلوّ منزلته؛ لأنه أشرف كتاب، وأعظم كتاب».

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (١٠/ ٦٧٠٢).

(٢) تفسير سورة البقرة (١/ ٢٥).

(٣٥) استظهار معنى الآية بسائر القراءات فيها:

فيحصل من ضم قراءات الآية الواحدة بعضها إلى بعض ضبط المعنى ودفع الإيهامات وزيادة الفوائد، ما لا يحصل بقراءة الآية بقراءة واحدة.

مثال (١): قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله (ت: ٦٦١ هـ)[1] «﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ﴾، قال البخاري في صحيحه: قرأ عمر رضي الله عنه: «فامضوا»، قلت: وهي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه، وكان يقول: لو قرأتها «فاسعوا» لسعيت حتى يسقط ردائي. والمراد بالسعي: المشي».

مثال (٢): قوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢] فالنبي ﷺ لا يأمر ربه وهو عبد من عبيده، وإنما يمتثل أمر ربه له، يوضح ذلك ضم القراءات بعضها إلى بعض، قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله[2]: «قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة

---

(١) رموز الكنوز (٨/١٢٣).

(٢) أضواء البيان (٣/١٦٩).

غير حفص عن عاصم (قل ربِّ) بضم القاف وسكون اللام بصيغة الأمر. وقرأ حفص وحده (قالَ) بفتح القاف واللام بينهما ألف بصيغة الماضي. وقراءة الجمهور تدل على أنه ﷺ أمر أن يقول ذلك. وقراءة حفص تدل على أنه امتثل الأمر بالفعل».

مثال (٣): قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: ٩٣].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[1]: «﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ فيها قراءتان: ﴿لَّا يَكَادُونَ يُفْقِهُون قَوْلًا﴾ و﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾، والفرق بينهما ظاهر: لا (يُفقهون) يعني هم، لا (يَفْقهون) أي: غيرهم، يعني هم لا يعرفون لغة الناس، والناس لا يعرفون لغتهم، هذه فائدة القراءتين، وكلتاهما صحيحة، وكل واحدة تحمل معنىً غير معنى القراءة الأخرى، لكن بازدواجهما نعرف أن هؤلاء القوم لا يعرفون لغة الناس، والناس لا يعرفون لغتهم».

---

(١) تفسير سورة الكهف ص ١٣٠ - ١٣١.

(٣٦) ملاحظة تراكيب الحروف في الجمل:

فالقرآن غاية في البيان، ووضع حروفه في الجمل له دلالات مهمة، وتلمح ذلك يوقفك على نكت جميلة ومعاني بديعة.

مثال (١): قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، قال العلامة نجم الدين الطوفي رحمه الله[1]: «فعلى للاستعلاء، وفي للظرفية، فشبّه المهدى بالمستعلي؛ لاستعلائه حالاً ومآلاً، والضال بالمغمور المغموس في ظلمة، أو المظروف في الجبّة.

ولهذا قال بنو يعقوب له ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، وكذلك حيث أضيف الهدى إلى أربابه في القرآن منكراً، كان بعلى، نحو: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥] ».

مثال (٢): قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٦٠]، قال الطوفي رحمه الله[2]: «أضاف الصدقة إلى هؤلاء باللام، وإلى الأربعة بعدهم بـ «في»،

---

(١) الإكسير في علم التفسير ص ٢٤٢ – ٢٤٣.

(٢) الإكسير في علم التفسير ص ٢٤٣.

حيث قال: ﴿وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة: ٦٠]؛ تنبيهاً على أن هؤلاء أثبت وأرسخ في استحقاق الصدقة؛ لدلالة (في) على الثبوت الوعائي، والاستقرار الظرفي، وتكرير (في) في قوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تنبيه على رجحانه وقوته، فينبغي تحري مثل هذه النكت».

* * *

(٣٧) زيادة المبنى زيادة في المعنى:

ملاحظة تغير أوزان الألفاظ، يوقفك على فوائد متجددة في كل لفظة وقعت فيها زيادة في بنائها.

قال بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي رحمه الله (ت: ٧٩٤هـ)[١]: «اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان، ثم نقل إلى وزن آخر أعلى منه فلا بد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً؛ لأن الألفاظ أدلة على المعاني، فإذا زيدت في الألفاظ وجب زيادة المعاني ضرورة. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢]، فهو أبلغ من قادر لدلالته على أنه قادر متمكن القدرة، لا يرد شيء عن اقتضاء قدرته ويسمى هذا: قوة اللفظ لقوة المعنى.

وكقوله تعالى: ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ [مريم: ٦٥] فإنه أبلغ من الأمر بالصبر من «اصبر».

وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، لأنه لما كانت السيئة ثقيلة وفيها تكلف زيد في لفظ فعلها.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٧]؛ فإنه أبلغ من «يتصارخون».

وقوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ [الشعراء: ٩٤]؛ ولم يقل: «وكبوا»،

---

(١) البرهان في علوم القرآن ص ٦٤٢ – ٦٤٣، ط. دار الحديث – القاهرة.

قال الزمخشري: والكبكبة تكرير الكب جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب كبة مرة بعد أخرى، حتى يستقر في قعرها؛ اللهم أجرنا منها يا خير مستجار».

والزيادة في الألفاظ لا توجب زيادة في المعاني، إلا إذا تضمَّنت معنى الفعلية، لأن الأسماء التي لا معنى للفعل فيها إذا زيدت استحال معناها، ألا ترى أنا لو نقلنا لفظة «عذب»، وهي ثلاثية إلى الرباعي، فقلنا: عَذْيَب، على وزن جعفر؛ لاستحال معناها، ولم يكن لها معنى، كما نبَّه على ذلك ضياء الدين ابن الأثير رحمه الله.

* * *

(٣٨) ملاحظة خواتيم الآيات:

فإن ذلك يوقفك على جملة من الأحكام والمعاني والفوائد، ذلك أن خاتمة الآية تدل على الآية وتبين معانيها وأحكامها.

مثال (١): قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، فقد سمع بعض الأعراب قارئاً يقرأها: «والله غفور رحيم»، فقال: ليس هذا كلام الله، فقيل: أتكذّب بالقرآن؟ فقال: لا، ولكن لا يحسن هذا، فرجع القارئ إلى خطئه، فقال: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فقال: صدقت.

قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ)[1]: «وإذا تأملت ختم الآيات بالأسماء والصفات وجدت كلامه مختتماً بذكر الصفة التي يقتضيها ذلك المقام، حتى كأنها ذُكرت دليلاً عليه وموجبةً له.

وهذا كقوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]؛ أي فإن مغفرتك لهم مصدرٌ عن عزة هي كمال القدرة لا عن عجز وجهل.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، في عدة مواضع من القرآن، يذكر ذلك عقيب ذكره الأجرام العلوية وما تضمنه من

(١) شفاء العليل ص ٣٣٧، ط. دار الكتب العلمية، ط. الأولى (١٤٠٧هـ).

فلق الإصباح، وجعل الليل مسكناً، وإجراء الشمس والقمر بحساب لا يعدوانه، وتزيين السماء الدنيا بالنجوم وحراستها؛ وأخبر أن هذا التقدير المحكم المتقن صادر عن عزته وعلمه، ليس أمراً اتفاقياً لا يُمدح به فاعله ولا يثنى عليه به كسائر الأمور الاتفاقية، ومن هذا ختمه سبحانه قصص الأنبياء وأممهم في سورة الشعراء عقيب كل قصة: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٩]، فإن ما حكم به لرسله وأتباعهم ولأعدائهم صادر عن عزة ورحمة، فوضع الرحمة في محلها وانتقم من أعدائه بعزته، ونجَّى رسله وأتباعهم برحمته، والحكمة الحاصلة من ذلك أمر مطلوب مقصود، وهي غاية الفعل لا أنها أمر اتفاقي».

مثال (٢): ما ذكره الله من أحوال من خلط عمل صالحاً وآخر سيئاً، وختم الآية باسم الغفور الرحيم فهو دال على أن الله سيغفر لهم، قال تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٢].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[١]: «فهذه الآية دالة على أن المخلط المعترف النادم الذي لم يتب توبة نصوحاً، أنه تحت الخوف والرجاء، وهو إلى السلامة أقرب».

ويرجح ذلك أيضاً قوله تعالى في أهل الأعراف وهم قوم

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٩٠.

استوت حسناتهم وسيئاتهم: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٦].

قال الحسن البصري رحمه الله[١]: «والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم».

وقال العلامة السعدي رحمه الله[٢]: «ومن ألطف مقامات الرجاء: أنه يذكر أسباب الرحمة، وأسباب العقوبة، ثم يختمها بما يدل على الرحمة، مثل قوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، وقوله: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴾[الأحزاب: ٧٣]، وذلك يدل على أن رحمته سبقت غضبه وغلبته، وصار لها الظهور، وإليها ينتهي كل من وُجد فيه أدنى سبب من أسباب الرحمة؛ ولهذا يخرج من النار من كان في قلبه أدنى حبة خردل من الإيمان».

مثال (٣): ختم آية الدين بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ص ٥٣).

(٢) القواعد الحسان ص ٥٥.

قال الطوفي رحمه الله[1]: «إنما فصلها بذكر العلم؛ لأنه بيَّن في الآية أحكام الدَّين والتجارة والإشهاد في البيع وغير ذلك، وأيضاً فإنها خاتمة أحكام السورة، وقد نص فيها علوماً كثيرة، فلما انتهى ذلك، أمرهم بتقواهم، والتزام ما حدَّ لهم، ثم كأنه عرض لهم بالامتنان عليهم بالتعلم، ثم أخبرهم بأنه «بكل شيء عليم»؛ ليكونوا على ثقة مما علمهم؛ لكمال علمه؛ لأن المتعلم أوثق بكلام العالم المتقن منه بكلام من لا يعلم إتقانه، وإحاطته بالعلم».

* * *

(١) الإكسير في قواعد التفسير ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

(٣٩) تلمح المعنى المناسب لاختلاف أحوال الكلام:

فالكلام في آيات القرآن له خصوصية واضحة من حيث الوضع، والتقديم والتأخير، والخصوص والعموم، والاختصار والإطناب، فهذه فيها معان مقصودة لم تذكر عبثاً، فتلمح ذلك يوقفك على جمل من الفوائد النفيسة.

قال الطوفي رحمه الله [١]: «لا شك في ورود الكلام قرآناً كان أو غيره على أنحاء مختلفة، وأحوال متفاوتة، تارة في الوضع، وتارة في العموم والخصوص، وآونة في الزيادة والنقص، ومرة في الإطناب والاختصار، وغير ذلك من الأحوال، فإذا وجدنا شيئاً من ذلك، نظرنا فيه، فمتى وجدنا معنى مناسباً يصلح أن يكون علة ومقتضياً له وجب إضافته إليه متحداً كان ذلك المناسب، أو متعدداً، وإنما قلنا ذلك؛ لأن نسبة الكلام المجرد إلى أحواله المعتورة عليه من تقديم وتأخير وزيادة ونقص، وعموم وخصوص، وإيجاز وإطناب مستوية، فلو لم يكن اختصاصه ببعض هذه الأحوال دون بعض في بعض الأماكن، لمقتض وموجب، لكان عبثاً، وترجيحاً من غير مرجح، وهو محال.

ومثال ذلك: قوله تعالى حيث بشّر زكريا بيحيى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ

---

(١) الإكسير في علم التفسير ص ٣٩ – ٤٠.

﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠]، وحيث بشَّر مريم بعيسى: ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٧]، والخلق أخص من الفعل، إذ كل خلق فعل، وليس كل فعل خلقاً، وحينئذ فلولا مقتض مناسب خصص أحد الوضعين بالآخر، لكان التخصيص ترجيحاً من غير مرجح.

والذي قلته: إن تقرير هذا المقتضي المناسب هو أن قصة مريم في عيسى أخص من قصة زكريا في ولادته يحيى، وبيانه: أن قصتيهما اشتركتا في كونهما عجبا؛ لأن حصول الولد للشيخ الكبير الذي بلغ من الكبر عتياً من امرأة عاقر، والبكر البتول من غير أن يمسها بشر، كلاهما على خلاف العادة وهو عجب، لكن قصة مريم أعجب وأخص من وجوه:

أحدها: أن كل مولود من غير أب عجب، وليس كل عجب مولوداً من غير أب.

الثاني: أن الولادة بغير أب معجز، وليس ولادة الشيخ والعجوز العقيم معجزاً؛ لأن ذلك قد وُجد في حق إبراهيم وسارة، ولم يُعد معجزاً، أقصى ما في الباب أنه كرامة، لكن درجة الكرامة دون درجة المعجز بالضرورة، ولئن سُلم أن ولادة العقيم معجز، لكن في بعض الصور، لا في كلها، بخلاف الولادة بغير أب، فإنه معجز في كل صورة.

الثالث: أن كل معجز عجب خارق للعادة، وليس كل عجب خارق للعادة معجزاً، وإذا تقرر بما ذكرته أن قصة مريم أخص، كان ذلك مقتضى مناسباً؛ لاختصاصها بالخلق الذي هو من الفعل أخص، وما أظن عاقلاً يفهم هذا البحث ويتصوره يشك في حسنه، وفي شرف هذا العلم الذي استمد منه».

* * *

(٤٠) الاستفادة من استعارة وكنايات الألفاظ في فهم المعاني واستنباط الأحكام:

الاستعارة وضع الكلمة موضع غيرها، قال تعالى في شأن الكافر: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦]، وقد ذكر العلماء أقوالاً في معناها: شنشينه شيناً باقياً، وقال آخرون: سنسمُ على أنفه، وقال بعضهم: سنسمه سمة أهل النار، أي: سنسوِّد وجهه، لأن الخرطوم وإن كان خُصَّ بالسمة، فإنه في مذهب الوجه، لأن بعض الوجه يؤدي عن بعض، والعرب تقول: والله لأسمنَّك وسْماً لا يفارقك، يريدون الأنف، وقد ذكر هذه الأقوال كلها ابن جرير الطبري رحمه الله[1]، مع ما حكاه من وقوعه حقاً من خطم بعض الكفار بالسيف يوم بدر، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[2]: «حكى ذلك كله أبو جعفر ابن جرير، ومال إلى أنه لا مانع من اجتماع الجميع عليه في الدنيا والآخرة، وهو مُتّجه».

على كل حال الآية على ظاهرها رغم جمال بلاغتها، فيقال إنه وضع الأنف موضع الوجه لأنه منه، والوجه جعل الله عليه أمارات الإيمان والكفر، والصلاح والفساد، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ

---

(١) جامع البيان (٢٣/١٧٠ - ١٧١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/١٩٥).

﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٦ - ٢٧].

ومن أمثلة الكنايات، التكنية عن الجماع باللمس، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

قال سعيد بن جبير رحمه الله: كنا في حجرة ابن عباس رضي الله عنهما، ومعنا عطاء بن أبي رباح، ونفر من العرب، وعبيد ابن عمير، ونفر من الموالي، فتذاكرنا اللماس، فقلت أنا وعطاء: اللمس باليد، فقال عبيد بن عمير والعرب: هو الجماع، فقلت: إن عندكم من هذا لفصل قريب، فدخلت على ابن عباس رضي الله عنهما – وهو قاعد على سرير – فقال لي: مهيم؟ فقلت: تذاكرنا اللمس، فقال بعضنا: هو اللمس باليد، وقال بعضنا: هو الجماع، قال: من قال: هو الجماع؟ قلت: العرب، قال: فمن قال: هو اللمس باليد؟ قلت: الموالي، قال: فمن أي الفريقين كنت؟ قلت: مع الموالي، فضحك، وقال: غُلبت الموالي، غُلبت الموالي، ثم قال: إن اللمس، والمس، والمباشرة: الجماع، ولكن الله يكني ما شاء بما شاء[1] .

(١) تفسير ابن المنذر (٢/٧٢٦ – رقم ١٨١٩).

ومما يلتحق بذلك المعاريض التي ذكرها الله في كتابه عن أنبيائه، فإبراهيم عليه السلام كسَّر أصنام المشركين، ولما اتهمه المشركون بذلك: ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٢]، قال لهم عليه السلام: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله[١] : «نسب إبراهيم عليه السلام الفعل الصادر عنه إلى الصنم؛ ليبلغ مقصوده من إلزامهم الحجة، وتبكيتهم عند ظهور عجز آلهتهم.

فإن قيل: هل يُعدُّ مثل هذا كذباً؟

قلتُ: كلا، بل هو من معاريض الكلام، أي: إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا».

ومن ذلك قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أيضاً: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ [الصافات: ٨٨ - ٨٩]، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[٢] : «إبراهيم عليه الصلاة والسلام نظر نظرة في النجوم، أي: نظر إليها، وإنما فعل ذلك، لأن قومه كانوا يعبدون النجوم، ويضعون لها الهياكل في الأرض، وأصل العبادة للنجوم، فنظر في هذه النجوم، فلما نظر قال: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ ﴾، وإنما

(١) رموز الكنوز (٤/ ٦٣٠ - ٦٣١).

(٢) تفسير سورة الصافات ص ١٩٩.

نظر فيها وهو لا يعتقد - عليه الصلاة والسلام - من باب التورية، فكما تكون التورية بالقول تكون التورية بالفعل.

فالتورية بالقول كثيرة معروفة، التورية بالفعل: أن يري الإنسان غيره أنه يرى شيئاً وهو لا يريده، أو أنه معرضاً عن شيء وهو قد وضع باله عليه».



(٤١) حمل ألفاظ القرآن على المعهود من كلام العرب:

لأن القرآن نزل بلغتهم، قال العلامة ابن الزبير الغرناطي رحمه الله[١]: «إنما خُوطبنا على أحوالنا، وبما نتعاهده ونتعارفه من المعاني والصفات».

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١]: تينكم الذي تأكلون، وزيتكم الذي تعصرون[٢].

وفي قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧]، قال ابن عطية الأندلسي رحمه الله[٣]: «الذرة نملة صغيرة حمراء رقيقة لا يرجح لها ميزان، ويُقال إنها تجري إذا مضى لها حول، وقد تؤول ذلك في قول امرئ القيس:

من القاصرات الطرف لو دب محول

من الذر فوق الأتب منها لا شرا».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[٤]: «﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، يعني وزن ذرة فإنه سيراه، سواء من الخير، أو من الشر

(١) ملاك التأويل (١/٦٢٨).

(٢) التبيان في تفسير غريب القرآن ص ٣٤٧.

(٣) المحرر الوجيز (١٦/٣٥١).

(٤) تفسير جزء عم ص ٢٨٧.

﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ يعني: وزن ذرة، والمراد بالذرة: صغار النمل كما هو معروف، وليس المراد بالذرة: الذرة المتعارف عليها اليوم كما ادّعاه بعضهم، لأن هذه الذرة المتعارف عليها اليوم ليست معروفة في ذلك الوقت، والله عز وجل لا يخاطب الناس إلا بما يفهمون، وإنما ذكر الذرة لأنها مضرب المثل في القلة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ [النساء: ٤٠]، ومن المعلوم أن من عمل ولو أدنى من الذرة فإنه سوف يجده، لكن لما كانت الذرة مضرب المثل في القلة قال الله تعالى ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧] ».

* * *

(٤٢) لا يحمل القرآن على الأقوال الضعيفة في النحو :

القرآن كلام رب العالمين، فيجب أن يتجنب فيه الأمور البعيدة والأوجه الضعيفة في الإعراب، ويجب أن يحمل على القوي الفصيح[١] .

قال السيوطي رحمه الله[٢] : «أما التنزيل فلا يجوز أن يخرج إلا على ما يغلب على الظن إرادته، فإن لم يغلب شيء فليذكر الأوجه المحتملة من غير تعسف» .

مثال: قوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]، حمل الشافعية [الباء] في الآية على التبعيض، وهذا ضعيف في مذاهب النحويين.

قال ابن الفرس الأندلسي رحمه الله[٣] : «أكثر أسباب الخلاف في هذه المسألة دخول «الباء» في قوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ . والقول فيها عند أصحاب مالك على وجهين، أحدهما: أنها زائدة مؤكدة، فالمعنى: امسحوا رؤوسكم، فيجب المسح لجميع الرأس على نص الآية. وقال بعضهم: إن [الباء] على بابها للإلصاق، ليست بزائدة. والمعنى على ثبوت [الباء] و سقوطها سواء، وذلك يوجب عموم المسح، وهذا الوجه أحسن لأن زيادة [الباء] في هذا

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٨٤).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣٨٤).

(٣) أحكام القرآن (٢/ ٣٦٩ - ٣٧٠).

الموضع غير معروف في كلام العرب. والذين ذهبوا إلى جواز مسح البعض، قال أكثرهم: إن [الباء] للتبعيض فيقتضي مسح بعض الرأس، وهذا قول ضعيف عند أهل العربية، وقد ردّه ابن جني في [سر الصناعة]، وبيّن فساده غير أنه أراد قائل هذا [الباء] بمعنى [من]، فكأنه قال: [امسحوا من رؤوسكم]، فهذا قول ضعيف أيضاً، لأنه إخراج [للباء] عن بابها، وإنما يجوز على مذهب بعض الكوفيين».

وقال برهان الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي رحمه الله (ت: ٨٨٤هـ)(١): «وأما دعوى أن [الباء] إذا وليت فعلاً متعدياً أفادت التبعيض في مجرورها لغة فغير مسلم دفعاً للاشتراك، ولإنكار الأئمة.

قال أبو بكر: سألت ابن دريد وابن عرفة عن الباء تبعض؟ فقالا: لا نعرفه في اللغة.

وقال ابن برهان: من زعم أن الباء تبعّض، فقد جاء عن أهل اللغة بما لا يعرفونه، وقوله:  ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، وقول الشاعر: «شربن بماء البحر»، فمن باب التضمين، كأنه قيل: تروى».

* * *

(١) المبدع في شرح المقنع (١/١٢٧).

(٤٣) استخلص الأحكام من الأخبار :

كلام الله في القرآن ينقسم إلى قسمين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[١]: «المقسّمون للكلام من أهل النظر والنحو والبيان ذكروا أن الكلام نوعان: خبر وإنشاء، والخبر دائر بين النفي والإثبات، والإنشاء: أمر، أو نهي، أو إباحة».

ومع هذا فينبغي لطالب العلم أن ينتبه للأخبار المضمّنة معنى الأمر، وما يكون فيها من أحكام، فمن بلاغة القرآن ذكر بعض الأوامر بصفة الخبر مبالغة في الإلزام بهذا الأمر.

مثال: قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[٢]: «من فوائد الآية: وجوب اعتداد المطلقة بثلاث حيض؛ لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾؛ وهي جملة خبرية بمعنى الأمر؛ قال البلاغيون: إذا جاء الأمر بصيغة الخبر كان ذلك توكيداً له؛ كأنه أمر واقع صح أن يُخبر عنه».

مثال (٢) قال تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

---

(١) الرسالة التدمرية ص ٤، ط – السادسة.

(٢) تفسير سورة البقرة (١٠١/٣).

قال ابن الفرس الأندلسي رحمه الله[1]: «قوله: ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾: خبر معناه الأمر».

مثال (٣): قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، فهذا خبر عن مكة أنها موضع قيام معاش الناس، فهذا يؤخذ منه تحريم التعرض للناس بالأذى، وتغلظ ذلك في الحرم.

قال أبو عبدالله القرطبي رحمه الله[2]: «قال العلماء: والحكمة في جعل الله تعالى هذه الأشياء قياماً للناس، أن الله سبحانه خلق الخلق على سليقة الآدمية من التحاسد والتنافس والتقاطع والتدابر، والسلب والغارة والقتل والثأر، فلم يكن بدّ في الحكمة الإلهية، والمشيئة الأوّلية من كافّ يدوم معه الحال، ووازع يُحمد معه المآل، قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فأمرهم الله سبحانه بالخلافة، وجعل أمورهم إلى واحد يزَعُهم عن التنازع، ويحملهم على التآلف من التقاطع، ويردّ الظالم عن المظلوم، ويقرر كلّ يد على ما تستولي عليه.

---

(١) أحكام القرآن (١/ ٣٣٧).

(٢) أحكام القرآن (٦/ ٣٢٥).

روى ابن القاسم قال حدثنا مالك أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يقول: ما يَزَع الإمام أكثر مما يزع القرآن، ذكره أبو عمر رحمه الله.

وجَوْر السلطان عاماً واحداً أقل أذاية من كون الناس فوضى لحظة واحدة، فأنشأ الله سبحانه الخليفة لهذه الفائدة، لتجري على رأيه الأمور، ويكفّ الله به عادية الجمهور؛ فعظّم الله سبحانه في قلوبهم البيت الحرام، وأوقع في نفوسهم هيبته، وعظّم بينهم حرمته، فكان من لجأ إليه معصوماً به، وكان من اضطهد محمياً بالكون فيه».

* * *

(٤٤) اللفظ المطلق لا يجوز تقييده بدون قيد الشارع :

اللفظ المطلق في الشريعة لا يجوز تقييده بدون قيد الشارع، لأن الشارع له غرض ظاهر في الإطلاق، منها التوسعة على المكلفين، فالتقييد حقيقته إضافة معنى زائد إلى مسمى المطلق، وهذا لا يجوز إذا لم يأت من الشارع.

قال الشاطبي رحمه الله: «إن الأمر إذا تعلق بالمأمور المتبوع من حيث الإطلاق، ولم يرد عليه أمر آخر يقتضي بعض الصفات أو الكيفيات التوابع، فقد عرفنا من قصد الشارع أن المشروع عمل مطلق، لا يختص في مدلول اللفظ بوجه دون وجه، ولا وصف دون وصف، فالمخصص له بوجه دون وجه أو وصف دون وصف لم يوقعه على مقتضى الإطلاق، فافتقر إلى دليل على ذلك القيد، أو صار مخالفاً لمقصود الشارع».

و قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والواجب أن يُطلق ما أطلقه صاحب الشرع، ويقيّد ما قيده».

وقال العلامة عبدالحميد بن باديس رحمه الله[1]: «إن ما ورد من العبادة مقيداً بقيد يلتزم قيده، وما ورد منها مطلقاً يلتزم إطلاقه، فالآتي بالعبادة المقيدة دون قيدها مخالف لأمر الشرع ووضعه.

---

(١) آثار ابن باديس (٢/٢٦٦).

والآتي بالعبادة المطلقة ملتزماً فيه ما جعله بالتزامه كالقيد مخالف كذلك لأمر الشرع ووضعه، وهو أصل في جميع العبادات».

ومما يلحق بهذا القيود الأغلبية فإنها غير معتبرة، مثاله: قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٣]، فهذا قيد أغلبي لا يقيد الحكم، فالربيبة تحرم مطلقاً سواء كانت في حجر زوج الأم أم لم تكن.

ومن الأمثلة للقيود الغير معتبرة ولم يرد بها التقييد قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فكل من جعل مع الله إلهاً آخر فإنه لا برهان له.

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[1]: «وإنما قيّدها الله بهذا القيد بياناً لشناعة الشرك والمشرك».

* * *

---

(١) القواعد الحسان ص ٧٠.

(٤٥) تقييد اللفظ بملحقاته من وصف أو شرط أو استثناء:

وكما أن اللفظ المطلق في الشريعة لا يجوز تقييده بدون قيد الشارع، فكذلك ما ورد في كلام الشارع من تقييد اللفظ بوصف أو شرط أو استثناء وجب اعتباره، قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله[١]: «إن الصفة نطق عن صاحب الشرع، تكلف ذكره، فلا يجوز أن يخلو عن فائدة، لأن طلب الفوائد من كلام صاحب الشرع واجب ما أمكن، ولا يجوز استعمال طريق تؤدي إلى إلغاء كلامه، وإخلائه عن الفائدة».

وأحوال المطلق مع المقيد أربعة:

١ - الأولى: أن يتحد المطلق والمقيد في السبب والحكم جميعاً: قال أبو الفتح البغدادي رحمه الله[٢]: «في هذه الصورة يُحمل المطلق على المقيد إجماعاً، لأن السبب واحد والحكم واحد والصورة واحدة».

كاشتراط الولي في النكاح، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

قال ابن قدامة[٣]: «أن يكونا في حكم واحد كقوله عليه السلام: «**لا نكاح إلا بولي**»، وقال: «**لا نكاح إلا بولي مرشد وشاهدي عدل**»، فيجب حمل المطلق على المقيد».

---

(١) قواطع الأدلة (١/٢٤٦).

(٢) الوصول إلى الأصول (١/٢٨٦ - ٢٨٧).

(٣) روضة الناظر ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

٢ - أن يختلف السبب والحكم جميعاً: مثل ما ورد من تقييد الصيام بالتتابع في كفارة القتل، وإطلاق الإطعام في الظهار، قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله[1]: «لم يُحمل أحدهما على الآخر، بل يعتبر كل واحد منهما بنفسه، لأنهما لا يشتركان في لفظ ولا معنى». وقال أبو علي الرجراجي رحمه الله[2]: «الذي اختلف حكمه وسببه لا يُحمل فيه المطلق على المقيد إجماعاً، إذ لا موجب لرد أحد الدليلين إلى الآخر لاختلاف الأحكام والأسباب».

٣ - أن يتحد المطلق والمقيد في الحكم ويختلفان في السبب، فلا يُحمل المطلق على المقيد وهو رواية عن أحمد وقول جلِّ الحنفية والمالكية وبعض الشافعية، لأن الأصل في اختلاف الأسباب اختلاف الأحكام كما قال القرافي رحمه الله[3].

٤ - أن يتحد المطلق والمقيد في السبب، ويختلفا في الحكم، قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله[4]: «إن المطلق ضد المقيد، فيكون في حمل المطلق على المقيد نسخ المطلق، لا نسخ الحكم رفعه».

---

(١) قواطع الأدلة (١/٢٢٨).
(٢) رفع النقاب (٤/٢٤٧).
(٣) شرح تنقيح الفصول ص ٢٦٦.
(٤) قواطع الأدلة (١/٢٣٠).

وقال ابن قدامة رحمه الله[1]: «أن يختلف الحكم فلا يحمل المطلق على المقيد سواء اختلف السبب أو اتفق كخصال الكفارة إذا قيّد الصيام بالتتابع وأُطلق الإطعام، لأن القياس من شرطه: اتحاد الحكم، والحكم ها هنا مختلف».

وأبو عبدالله المازري رحمه الله يرى عدم إطلاق القول بتقييد المطلق أو عدم تقييده في حال اختلاف السبب واتحاد الحكم، أو اتفاق السبب مع اختلاف الحكم، وأنه تختلف المسائل بحسب كل مسألة، حيث قال[2]: «وهي الموازنة بين التقييد والإطلاق، فأيهما رجح في مسالك الظنون قضى به وغلب على صاحبه، فقد تضعف دلالة الإطلاق، وتقوى دلالة التقييد على الإشعار باشتراط الصفة التي قيّد بها، وقد يكون الأمر بالعكس».

* * *

---

(١) روضة الناظر ص ٢٦٧.

(٢) إيضاح المحصول من برهان الأصول ص ٣٢٧.

(٤٦) الزيادة على النص ليست نسخاً:

هذه مسألة دقيقة في استنباط الأحكام من القرآن، فالقرآن كله بيان، فما أُجمل في موضع تجده مفصلاً في آخر، وكذلك تقيد النصوص بعض ما أُطلق في غيرها، ويُزاد في الأحكام على أصل ما قررته الشريعة، كإضافة التغريب إلى الجلد في حد الزنا، فهذا كله داخل في بيان المجمل، وتقييد المطلق، وتخصيص العام، وليس بنسخ كما يقول به الحنفية.

قال العلامة أبو المظفر السمعاني رحمه الله (ت: ٤٨٩هـ)[1]: «ونقول في تقييد الرقبة بالإيمان هو تخصيص، لأن الرقبة عامة في كل ما يسمى رقبة، فإذا أخرجنا عتق الكافرة من الخطاب كان تخصيصاً محضاً، وإذا عُرف وجه الكلام في هاتين الصورتين ظهر في سائر الصور ولم يثبت النسخ الذي ادّعوه في صورة ما، وإنما نهاية ما في الباب أن يكون ضم حكمه إلى حكم في بعض المواضع مثل التغريب مع الجلد وزيادة العشرين على الثمانين في حد القذف لو قُدر ورود الشرع بها، وكذلك إيجاب النية في الوضوء، وإيجاب الترتيب وإثبات الحجة بالشاهد واليمين، وكذلك إيجاب قراءة الفاتحة، والأولى أن يقال إن خبر الفاتحة بيان لقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]، أو يكون تخصيصاً للعموم مثل

---

(١) قواطع الأدلة (١/ ٤٤٥).

تقييد الرقبة بوصف الإيمان في كفارة الظهار وكفارة اليمين، ويمكن دعوى التخصيص أيضاً بإثبات النية والترتيب».

وقال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله[1] : «الزيادة على النص لا تكون ناسخة له على التحقيق؛ إلا إن كانت مثبتة شيئاً قد نفاه النص أو نافية شيئاً أثبته النص، أما إذا كانت زيادة شيء سكت عنه النص السابق، ولم يتعرض لنفيه، ولا لإثباته، فالزيادة حينئذ إنما هي رافعة للبراءة الأصلية المعروفة في الأصول بالإباحة العقلية، وهي بعينها استصحاب العدم الأصلي، حتى يرد دليل ناقل عنه، ورفع البراءة الأصلية ليس بنسخ، وإنما النسخ رفع حكم شرعي كان ثابتاً بدليل شرعي».

والقول بأن الزيادة على النص نسخ يُعطّل كثيراً من الأحكام ويضاد شرع الله، قال ابن القيم رحمه الله منتقداً تأصيل الحنفية في ذلك[2]: «وكيف يمكن أحداً من أهل العلم أن لا يقبل حديثاً زائداً على كتاب الله، فلا يقبل حديث تحريم المرأة على عمتها، ولا على خالتها، ولا حديث التحريم بالرضاعة لكل ما يحرم من النسب، ولا حديث خيار الشرط، ولا أحاديث الشفعة، ولا حديث الرهن في الحضر مع أنه زائد على ما في القرآن، ولا حديث ميراث الجدة، ولا

---

(١) أضواء البيان (٤/٣٣).

(٢) إعلام الموقعين (٢/٢٨٩).

حديث تخيير الأمة إذا أعتقت تحت زوجها، ولا حديث منع الحائض من الصوم والصلاة، ولا حديث وجوب الكفارة على من جامع في نهار رمضان، ولا أحاديث إحداد المتوفى عنها زوجها مع زيادتها على ما في القرآن من العدة، فهلا قلتم: إنها نسخ للقرآن وهو لا يُنسخ بالسنة! وكيف أوجبتم الوتر مع زيادة محضة على القرآن بخبر مختلف فيه؟».

* * *

(٤٧) العمومات لا تُخصص بالتوهمات :

العموم إذا لم يقم دليل صحيح الثبوت صريح الدلالة على تخصيصه فلا يجوز لنا أن نخصصه بالتوهمات والتخرصات، بل الواجب أن يبقى عمومه محكماً.

قال العلامة أبو المظفر السمعاني رحمه الله[١]: «لا يجوز حمل الخاطر على استخراج التأويلات المستكرهة للأخبار، وينبغي للعالم الورع أن يتجنب ذلك ويحترز عنه غاية الاحتراز، لأن الكلام على كلام الشارع صعب، والزلل فيه يكثر، وقد ورد في الخبر: يحمل هذا العلم من كل خلف عدولهم.

وقال في وصفهم: ينفون عنه تأويل الجاهلين، والله العاصم بمنّه، والمرشد إلى الصواب بفضله وعونه، ونسأله تعالى أن لا يجعلنا من هؤلاء القوم، فقد بيّن النبي ﷺ أن الجهل يحمل الإنسان على التأويلات المستكرهة، وذكر أن العدول من علماء الأمة ينفون ذلك، وذكر أيضاً أنهم ينفون تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وإلى الله الملاذ، وبه المعاذ من وساوس النفس وخواطر السوء، فما ضل من ضل، ولا هلك من هلك إلا بأمثال ذلك، والله المستعان».

ومن أمثلة ذلك التخرص بالأوهام في شأن حياة الخضر عليه

(١) قواطع الأدلة في الأصول (١/٤١٤).

السلام، فالنصوص من القرآن والسنة صريحة في وفاته، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1]: «فالخضر إن كان نبياً أو ولياً، فقد دخل في هذا الميثاق، فلو كان حياً في زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه، يؤمن بما أنزل الله عليه، وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه، لأنه إن كان ولياً فالصدِّيق أفضل منه، وإن كان نبياً فموسى عليه السلام أفضل منه.

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني**»، وهذا الذي يُقطع به ويُعلم من الدين علم الضرورة، وقد دلَّت عليه هذه الآية الكريمة: أن الأنبياء كلهم لو فرض أنهم أحياء مكلفون في زمن رسول الله ﷺ، لكانوا كلهم أتباعاً له، وتحت أوامره وفي عموم شرعه. كما أنه صلوات الله وسلامه عليه لما اجتمع بهم ليلة الإسراء رفع فوقهم كلهم. ولما هبطوا معه إلى بيت المقدس وحانت الصلاة

---

(١) قصص الأنبياء من «البداية والنهاية» ص ٤٣٢ – ٤٣٥، باختصار.

أمره جبريل عن أمر الله أن يؤمهم، فصلى بهم في محل ولايتهم ودار إقامتهم، فدلَّ على أنه الإمام الأعظم، والرسول الخاتم المبجّل المقدّم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

فإذا عُلم هذا - وهو معلوم عند كل مؤمن - علم أنه لو كان الخضر حياً كان من جملة أمة محمد ﷺ، وممن يقتدي بشرعه لا يسعه إلا ذلك.

هذا عيسى ابن مريم عليه السلام إذا نزل في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة، لا يخرج منها ولا يحيد عنها، وهو أحد أولي العزم الخمسة المرسلين وخاتم أنبياء بني إسرائيل، والمعلوم أن الخضر لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن النفس إليه أنه اجتمع برسول الله ﷺ في يوم واحد، ولم يشهد معه قتالاً في مشهد من المشاهد.

فإن قيل: إنه كان حاضراً في هذه المواطن كلها، ولكن لم يكن أحد يراه؟

فالجواب: أن الأصل عدم هذا الاحتمال البعيد الذي يلزم منه تخصيص العموميات بمجرد التوهمات. ثم ما الحامل على هذا الاختفاء؟ وظهوره أعظم لأجره وأعلى في مرتبته وأظهر لمعجزته؟ ثم لو كان باقياً بعده، لكان تبليغه عن رسول الله ﷺ الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، وإنكاره لما وقع من الأحاديث المكذوبة،

والروايات المقلوبة والآراء البدعية والأهواء العصبية، وقتاله مع المسلمين في غزواتهم وشهوده جمعهم وجماعاتهم، ونفعه إياهم ودفعه الضرر عنهم ممن سواهم، وتسديده العلماء والحكام، وتقريره الأدلة والأحكام، أفضل مما يقال عنه من كنونه في الأمصار، وجَوْبه الفيافي والأقطار. واجتماعه بعباد لا يعرف أحوال كثير منهم، وجعله لهم كالنقيب المترجم عنهم. وهذا الذي ذكرناه لا يتوقف أحد فيه بعد التفهيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ صلى ليلة العشاء ثم قال: «**أرأيتم ليلتكم هذه؟ فإنه إلى مائة سنة لا يبقى ممن هو على وجه الأرض اليوم أحد**». وفي رواية «عين تطرف». قال ابن عمر رضي الله عنهما: فوهل الناس من مقالة رسول الله ﷺ هذه، أراد انخرام قرنه.

قال ابن الجوزي: فهذا الحديث يقطع دابر دعوى حياة الخضر.

قالوا: فالخضر إن لم يكن قد أدرك زمان رسول الله ﷺ كما هو المظنون الذي يترقى في القوة إلى القطع، فلا إشكال، وإن كان قد أدرك زمانه، فهذا الحديث يقتضي أنه لم يعش بعده مائة سنة، فيكون الآن مفقوداً لا موجوداً، لأنه داخل في هذا العموم، والأصل عدم المخصص له حتى يثبت بدليل صحيح يجب قبوله».

* * *

(٤٨) تمرين الذهن على استنباط فوائد الآيات :

لا يجمد ذهنك على أخذ معاني القرآن بمجرد التلقين، فالله عز وجل أمر عباده بالازدياد من العلم، فقال سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

والذهن متى ألف الجمود أصابته البلادة، وحُرِم التفقه في الدين، وهذا من الحرمان، ومن بخس العقل حقه، فإن الله امتنّ علينا بنعمة العقل لنتدبّر آياته، ولنُعمل الذهن في استنباط فوائده، فتعطيل العقل عن هذا الخير باختيارنا قد يدخل في معنى الإعراض عن تدبّر القرآن.

فتعطيل الذهن عن ملاحظة معاني وفوائد القرآن تجعله لا يبصر كنوزه، قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ)(١) : «قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [قَ: ٣٧]، فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى، وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها، فإنه سبحانه أمر عباده أن يتدبروا آياته المسموعة والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن كان له قلب، فإن من عدم القلب الواعي عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه، ولو مرَّت

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٦٩).

به كل آية، ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم ومرورها على من لا بصر له، فإذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات فإنه يراها».

وطالب العلم بمشافهة العلماء وإصغاء السمع لشروحاتهم وتقريراتهم واستنباطاتهم، مع ممارسة قراءة الكتب التي فيها نكت بديعة يتمرن ذهنه على الاستنباط والإفادات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإن النظر في العلوم الدقيقة يفتق الذهن ويدرّبه ويقويه على العلم، فيصير مثل كثرة الرمي بالنشاب وركوب الخيل تعين على قوة الرمي والركوب، وإن لم يكن ذلك وقت قتال، وهذا مقصد حسن»[١].

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[٢]: «فإن تمرين الذهن على التدبّر والتفكر، وتقليب الأمور على كل وجه ممكن، مما يُرقِّي الذهن وينمّيه، ويُوَسّع دائرة المعارف، وعدم ذلك أو قلته مما يُضعف القريحة ويخمد الفكر، ويحدث البلادة».

* * *

(١) الرد على المنطقيين ص ٢٥٥.

(٢) الرياض الناضرة ص ٦٨.

(٤٩) طرق معرفة الأقوال الضعيفة للمفسرين :

كُتب التفسير مليئة بالتفسيرات الضعيفة والتأويلات الباطلة، فمنها ما يُعلم خطأه من جهة النقل لعدم ثبوت تفسيره عن النبي ﷺ من أحاديث موضوعة وضعيفة، وآثار مكذوبة وواهية، فالعلم بطرق تمييز المرويات عون على التحقق من حقيقة ما جمعته كتب التفسير.

ومن طرق العلم بالأقوال الضعيفة معرفة مصادرها، فمنها إسرائيليات، ومنها منقولات عن أساطين المبتدعة أو عمن أخذ عنهم.

ومن طرق العلم بالأقوال الضعيفة منافرة تلك الأقوال للمعهود من معاني القرآن.

ومن أعظم الأدلة على معرفة الضعيف من أقوال المفسرين هو مخالفة أقوالهم لظاهر القرآن، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[١] : «الواجب على المؤمن أن يتبع ظاهر القرآن، لأن هذا هو الطريق في كل شيء، كما في أسماء الله وصفاته نتبع ظاهر القرآن، وكما في الأحكام الشرعية نتبع ظاهر القرآن.

إذا في الأمور الكونية نتبع ظاهر القرآن، لأن ظاهر القرآن صدر من الخالق العليم، فهو أعلم من خلقه بخلقه، قال الله تعالى: ﴿مَّآ

---

(١) تفسير سورة «صٓ» ص ١٥٨.

﴿ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف: ٥١]، فإذا كان هذا صادراً من رب العالمين، يجب علينا أن نصدِّقه».

ومن أعظم الأدلة على معرفة الضعيف من أقوال المفسرين معرفة مداخلها، فالأقوال الضعيفة لم يأت أهلها الأمر من بابه، فلم يفسروا القرآن بالقرآن، ولا فسروه بالسُّنَّة، ولا بأقوال الصحابة، بل اتبعوا أهوائهم، فمنهم من فسّره بمعقول غير صريح، ومنهم من فسّره برأي كاسد، وذوق فاسد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «والمقصود هنا التنبيه على مثار الاختلاف في التفسير، وأن من أعظم أسبابه البدع الباطلة التي دعت أهلها إلى أن حرّفوا الكلم عن مواضعه، وفسّروا كلام الله ورسوله بغير ما أريد به وتأوّلوه على غير تأويله، فمن أصول العلم بذلك أن يعلم الإنسان القول الذي خالفوه وأنه الحق، وأن يعرف أن تفسير السلف يخالف تفسيرهم، وأن يعرف أن تفسيرهم محدث مبتدع، ثم أن يعرف بالطرق المفصلة فساد تفسيرهم بما نصبه الله من الأدلة على بيان الحق».

ويقول ابن جرير الطبري رحمه الله (ت: ٣١٠هـ) مبيناً طرق معرفة الصواب من أقوال المفسرين[2] : «فأحق المفسرين بإصابة الحق في تأويل القرآن الذي إلى علم تأويله للعباد السبيل،

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ٣٨.

(٢) جامع البيان (١/٨٨ – ٨٩).

أوضحهم حُجَّة فيما تأوّل وفسَّر، مما كان تأويله إلى رسول الله ﷺ دون سائر أمته، من أخبار رسول الله ﷺ الثابتة عنه، إما من جهة النقل المستفيض فيما وُجد فيه من ذلك عنه النقل المستفيض، وإما من جهة نقل العدول الأثبات، فيما لم يكن عنه فيه النقل المستفيض، أو من جهة الدلالة المنصوبة على صحته، وأوضحهم برهاناً فيما ترجم وبيَّن من ذلك مما كان مُدْركاً علمه من جهة اللسان، إما بالشواهد من أشعارهم السائرة، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة، كائناً من كان ذلك المتأول والمُفسِّر، بعد ألا يكون خارجاً تأويله وتفسيره ما تأوَّل وفسَّر من ذلك عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة، والخلف من التابعين وعلماء الأمة».

وطريقة المحققين كشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الاستدلال بكل ما يمكن من المرجحات على الأقوال الضعيفة، من:

١ - دلالة اللفظ.
٢ - دلالة السياق.
٣ - عدم اشتهاره عن السلف.
٤ - سبب النزول.
٥ - أدلة أخرى ذات صلة بالموضوع.

مثال: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٢]، فقد ظن بعض الناس أن الذين أخبر عنهم في الآية بالنجاة والسعادة ليسوا إلا ممن بُعث محمد ﷺ إليهم، لم يخبر فيها بحال من كان موجوداً قبل مبعثه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله منتقداً هذا القول ومبيناً مرجحات ضعفه[1]: «غلطوا فيها في الفهم، ثم افترقوا على أقوال متناقضة تخالف لفظ الآية ومعناها.

والصواب هو القول الآخر، وأن الآية عامة تتناول من اتصف بما ذكر فيها قبل مبعث الرسول ﷺ، وهو الذي يدل عليه لفظ الآية، ويعرف به معناها من غير تناقض، ويعرف به قدرها، ويظهر به مناسبتها لما قبلها وما بعدها، وهذا هو القول المعروف عن السلف وجمهورهم، وعليه يدل ما ذكروه من سبب نزول الآية.

فقد روى ابن أبي حاتم وغيره بالأسانيد الثابتة عن سفيان ابن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: قال سلمان رضي الله عنه: سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم، فذكر من صلاتهم وعبادتهم، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾، ولم يذكر في هذا أن النبي ﷺ قال فيهم أولاً: «إنهم من أهل النار»، كما رُوي ذلك بأسانيد ضعيفة. وهذا هو الصحيح.

كما رُوي في صحيح مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**». فدلَّ على أنه حين بعثه الله كان في الأرض بقايا من أهل الكتاب لم يمقتهم الله. وأيضاً: فالنبي ﷺ

---

(١) تفسير آيات أُشكلت (١/٢٤٢ – ٢٤٥).

لم يكن ليجيب بما لا علم عنده، وما كان علم بأن هؤلاء من أهل النار، فكيف يجيب بذلك أولاً؟!».

وأهل الكتاب الممدوحون في الآية هم الموحدون، ليسوا أهل التثليث، ولا ممن كفر بمحمد أو أحد من النبيين عليهم السلام، ولا ممن تدين بالمبدّل والمحرّف من التوراة والإنجيل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «وأما اليهودية والنصرانية المتضمنة للمنسوخ المبدّل وهي التي عليها اليهود والنصارى الذين كذبوا محمداً ﷺ فهذه ليست دين أحد من الأنبياء، لا موسى ولا عيسى ولا غيرهما. فإذا قال أهل الكتاب للمسلمين: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾، فقد أمرهم الله أن يقولوا: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥]، فلا يجوز لنا اتباع ما اختص به أهل التوراة والإنجيل من الشرع المنسوخ، فكيف بالمبدل؟ بل نتبع ملة إبراهيم – وهي عبادة الله وحده بما أمر به – وهي التي كان عليها موسى وعيسى عليهما السلام، لكن كان لهم شرع اختصوا به دون إبراهيم، وكان من الدين في حق أولئك الذين أمروا به خاصة، وإبراهيم ومن كان قبله لم يؤمروا به، وكذلك محمد ﷺ ومن آمن به لم يؤمروا بتلك الآثار والأغلال، بل رُفعت عنهم كما كانت مرفوعة عن

---

[1] تفسير آيات أشكلت (١/٢٨١ – ٢٨٥).

إبـراهيم، ولهـذا قـال ﷺ: «**بُعثـت بالحنيفيـة الـسمحة**»، وقـال: «**لا رهبانية في الإسلام**»، وقال: «**إيّاكم والغلو في الدين فإنما أهلك مـن كان قبلكم الغلو في الدين**»، ولما رأى بيد عمر بـن الخطـاب رضـي الله عنه ورقة من التوراة قال: «**والذي نفسي بيده لو كان موسى عليـه السلام حيّاً، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم**».

ورُوي عنه أيضاً: «**لو كان موسى وعيـسى عليهمـا الـسلام حيـين ما وسعهما إلا اتباعي**». فقد تبيَّن أن اليهود والنصارى فـيهم سـعيد؛ وهم المتبعون شرع التوراة والإنجيل قبـل النـسخ والتبـديل، وفـيهم من هو مستحق للعـذاب، ومـع هـذا نحـن منهيـون أن نتبـع اليهوديـة والنصرانية مطلقاً. فإن ما اختص به السعداء منهم قد نُـسخ، وأمـا مـا اختص به الأشقياء فهو مبدّل أو منسوخ تمسكوا به بعد النسخ، ومـا كـان مـشروعاً كـان داخـلاً فـي مـسمى الإسـلام والحنيفيـة لمـا كـان مشروعاً، فلما نُسخ لم يبق داخلاً في الإسلام ولا فـي الحنيفيـة ملـة إبراهيم، والمُبَدَّل بطريق الأولى».

* * *

(٥٠) حمل اللفظ على كل ما يحتمله اللفظ من معانيه الدالة عليه:

هذا الواجب ما لم يمنع ذلك مانع من دليل في النص نفسه، أو نص آخر، لأن كلمات القرآن جوامع.

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله: «لمّا كان القرآن نازلاً من المحيط علمه بكل شيء، كان ما تسمح تراكيبه الجارية على فصيح استعمال الكلام البليغ باحتماله من المعاني المألوفة للعرب في أمثال تلك التراكيب، مظنوناً بأنه مراد لمنزله، ما لم يمنع من ذلك مانع صريح أو غالب من دلالة شرعية أو لغوية أو توقيفية.

وقد جعل الله القرآن كتاب الأمة كلها وفيه هديها، ودعاهم إلى تدبره وبذل الجهد في استخراج معانيه».

وقال[(١)]: «ويدل لتأصيلنا هذا ما وقع إلينا من تفسيرات مروية عن النبي ﷺ لآيات، فنرى منها ما نوقن بأنه ليس هو المعنى الأسبق من التركيب؛ ولكنا بالتأمل نعلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام ما أراد بتفسيره إلا إيقاظ الأذهان إلى أخذ أقصى المعاني من ألفاظ القرآن، مثال ذلك ما رواه أبو سعيد بن المُعَلَّى قال: دعاني رسول الله وأنا في الصلاة فلم أجبه، فلما فرغت أقبلت إليه، فقال: «ما منعك أن تجيبني؟ فقلت: يا رسول الله كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٩٤ - ٩٥).

[الأنفال: ٢٤] فلا شك أن المعنى المسوقة فيه الآية هو الاستجابة بمعنى الامتثال، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢]، وأن المراد من الدعوة الهداية، كقوله: ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقد تعلق فعل ﴿دَعَاكُمْ﴾ بقوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي لما فيه صلاحكم، غير أن لفظ الاستجابة لما كان صالحاً للحمل على المعنى الحقيقي أيضاً وهو إجابة النداء حَمَل النبي ﷺ الآية على ذلك في المقام الصالح له، بقطع النظر عن المتعلق، وهو قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] ».

مثال (٢) : قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[1]: «يحتمل أن يكون المراد بذلك المقام المعروف الذي قد جعل الآن مقابل باب الكعبة، وأن المراد بهذا ركعتا الطواف، يستحب أن تكونا خلف مقام إبراهيم، وعليه جمهور المفسرين، ويحتمل أن يكون المقام مفرداً مضافاً فيعم جميع مقامات إبراهيم في الحج، وهي المشاعر كلها من الطواف والسعي والوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمار والنحر وغير ذلك من أفعال الحج، فيكون معنى قوله: «مصلى» أي معبداً، أي اقتدوا به في شعائر الحج، ولعل هذا المعنى أولى لدخول المعنى الأول فيه واحتمال اللفظ له».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٠.

(٥١) الغوص على الدرر:

بعد أن يستظهر طالب العلم معاني القرآن عموماً يحتاج إلى تكرار تأمل الآيات ليتبين الفوائد المهمة، ويغوص على الدرر البهية.

وهذه الدرر كيف يمكن الغوص عليها؟

فالجواب:

(أ) : **نقول إنها منح إلهية من ربنا الوهاب**، قال ابن القيم رحمه الله[١] «صحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد».

(ب) : **الابتهال إلى الله تعالى**، فإن النبي ﷺ دعا لابن عباس رضي الله عنهما بقوله: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»[٢].

فأجاب الله هذا الدعاء وصار ابن عباس رضي الله عنهما ترجمان القرآن، قال الحسن: وكان يقوم على المنبر فيقرأ البقرة وآل عمران، فيفسرهما آية آية [٣].

وقال أبو وائل رحمه الله[٤]: «خطبنا ابن عباس رضي الله عنهما،وهو أمير على الموسم، فافتتح سورة النور، فجعل يقرأ،

---

(١) إعلام الموقعين (١/٨٧).

(٢) رواه البخاري كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما (ص٦٣١ – رقم ٣٧٥٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (٣/٣٤٤).

(٤) سير أعلام النبلاء (٣/٣٥١).

ويُفسِّر، فجعلت أقول: ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثل هذا، لو سمعته فارس، والروم، والترك لأسلمت».

وقال ابن رُشيق المغربي: قال لي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مئة تفسير، ثم أسأل الله الفهم، وأقول: يا معلم إبراهيم، ويذكر قصة معاذ بن جبل رضي الله عنه وقوله لمالك بن يخامر لما بكى عند موته، وقال: أنا لا أبكي على دنيا كنت أصيبها منك، ولكن أبكي على العلم والإيمان اللذين كنت أتعلمهما منك، فقال: إن العلم والإيمان مكانهما، من ابتغاهما وجدهما، فاطلب العلم عند أربعة وسمّاهم، فقال: عند أبي الدرداء، وعبدالله بن مسعود، وسلمان الفارسي، وعبدالله بن سلام رضي الله عنهم، فإن أعياك العلم عند هؤلاء، فليس هو في الأرض، فاطلبه من معلّم إبراهيم».

(ج) : **أن اختصاص البعض باستخراج الدرر هو تبع لتفاضل الناس في الفهم**، وبهذا اختص سليمان بزيادة فهم دون داود عليهما السلام، قال تعالى ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩] .

وقال النبي ﷺ: «**فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه**»[2]. ولما سُئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هل عندكم

---

(١) الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٨٣.

(٢) رواه البخاري، كتاب العلم باب قول النبي ﷺ: «رب مبلغ أوعى من سامع» (ص١٦ – رقم ٦٧)، ومسلم كتاب القسامة باب تغليظ تحريم الدماء (ص٧٤٣ – رقم ٤٣٨٣).

شيء من الوحي مما ليس في القرآن؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبَرأ النسمة، إلا فهما يعطيه الله رجلاً في القرآن»[1].

وإن شئت أن تقف على حقيقة هذا التفاضل، فهذا أبو إسماعيل الهروي رحمه الله عقد ستين وثلاثمائة مجلس في تفسير آية واحدة هي قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨][2].

وهذا الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي رحمه الله فسّر قوله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] في مجلد ضخم مليء بالدرر والفوائد[3].

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله جلس في تفسير سورة نوح عدة سنين أيام الجمع[4].

ومن قبلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً في فاتحة الكتاب من تفسيرها»[5].

---

(١) رواه البخاري، كتاب الديات باب العاقلة (ص١١٩٠ – رقم ٦٩٠٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٨/٥٣٨).

(٣) مطبوع بواسطة مؤسسة الريان، ط. أولى – ١٤٢١هـ، في٥٤٩ صفحة.

(٤) الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية ص ٤٦٥.

(٥) المقامة الحصيبية ص ٢٥٩.

(د): تكرار تأمل النصوص عون على التقاط الدرر والغوص عليها:

وهذا واضح بداهة فمن يمر بالآية سريعاً، أو يستنبط فوائد الآية من أول تأمل ليس كمن يكرر النظر بتدبر.

ولا أدل على أن تكرار قراءة الآية بتدبر عون على فهم العلم من أمر النبي ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتكرار النظر والتدبر لآية الكلالة لما سأله عمر رضي الله عنه عنها.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة، حتى طعن بأصبعه في صدري، وقال: «**يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء**»(١).

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله(٢): «أرشده النبي ﷺ إلى تفهمها، فإن فيها كفاية».

فأحاله النبي ﷺ على الآية لما فيها من البيان(٣).

قال ضياء الدين ابن الأثير رحمه الله(٤) : «اعلم أن المتصدي لحل معاني القرآن يحتاج إلى كثرة الدرس، فإنه كلما ديم على درسه ظهر من معانيه ما لم يظهر من قبل، وهذا شيء جربته وخبرته، فإني كنت آخذ سورة من السور وأتلوها، وكلما مرَّ بي معنى أثبته في ورقة مفردة، حتى أنتهي إلى آخرها، ثم آخذ في حل تلك المعاني التي أثبتها واحداً بعد واحد، ولا أقنع بذلك حتى أعاود تلك

---

(١) رواه مسلم كتاب الفرائض باب ميراث الكلالة (ص ٧٠٦ – رقم ٤١٥٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/٤٨٤).

(٣) شرح السنة (٨/٣٣٩).

(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١/١٢٧).

السورة، وأفعل مثل ما فعلته أولاً، وكلما صقلْتها التلاوة مرة بعد مرة ظهر لي في كل مرة من المعاني ما لم يظهر لي في المرة التي قبلها».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «والإنسان يقرأ السورة مرات، حتى سورة الفاتحة، ويظهر له في أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك، حتى كأنها تلك الساعة نزلت، فيؤمن بتلك المعاني ويزداد علمه وعمله، **وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبر، بخلاف من قرأ مع الغفلة**، ثم كلما فعل شيئاً مما أُمر به، استحضر أنه أُمر به فصدق الأمر، فحصل له في تلك الساعة من التصديق في قلبه ما كان غافلاً عنه وإن لم يكن مكذباً».

(هـ) : محاولة تأمل ما يمكن استخراجه من الفوائد من خلال ضم نص إلى آخر يُكمّل معناه وفوائده، قال ابن القيم رحمه الله[2] : «المقصود تفاوت الناس في مراتب الفهم في النصوص، وإن منهم من يفهم من الآية حكماً أو حكمين، ومنهم من يفهم عشرة أحكام أو أكثر من ذلك.

ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرد اللفظ دون سياقه ودون إيمائه وإشارته، وتنبيهه واعتباره، **وأخص من هذا وألطف ضمه إلى نص آخر متعلق به فيفهم من اقترانه به قدراً زائداً على ذلك اللفظ بمفرده.**

وهذا باب عجيب من فهم القرآن: **لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم**، فإن الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلقه به، كما فهم

(١) الإيمان ص ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٢) إعلام الموقعين باختصار الشنقيطي في أضواء البيان (٤/٧٢١).

ابن عباس رضي الله عنهما من قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، مع قوله: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، أن المرأة قد تلد لستة أشهر».

وكذلك تأمل اقتران الألفاظ - بعضها ببعض فإن لها معان مقصودة، مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١): «فتأمل أسرار القرآن وحكمته في اقتران الخيفة بالذكر، والخفية بالدعاء، مع دلالته على اقتران الخفية بالدعاء والخيفة بالذكر أيضاً، وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء، لأن الدعاء مبني عليه، فإن الداعي ما لم يطمع في سؤاله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه، إذ طلب ما لا طمع له فيه ممتنع، وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه، فذكر في كل آية ما هو اللائق بها من الخوف والطمع، فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما في الصدور».

وبعض العلماء أحياناً يذكر نفائس ما تلمحه من معاني أي القرآن ثم يبين أن هذه لا ينتبه لها إلا غواص لتمرين الأذهان على دقيق المعاني.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٢١ - ٢٢).

قال تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله (ت: ٦٦١هـ)[1]: «فإن قيل: لم عدل عن اسمه العلم، وهو محمد، أو صفته العالية، وهي الرسول، ولم يضفه إلى نفسه، فلم يقل، ما بمحمد، ما برسولي من جنَّة، وإنما أضافه إليهم باسم الصحبة، فقال: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾؟

قلت: ليُبقي عليهم قبيح ما أقدموا عليه من نسبتهم الجنون إلى من صاحبوه دهراً طويلاً ولازموه عمراً مديداً، وعلموا ما طُبع عليه من الأخلاق الكريمة والأوصاف الجميلة، والفطرة السليمة، وخلّوه من النقائص الظاهرة والباطنة، فأفاد قوله: «ما بصاحبهم»، ذمّهم على كذبهم وظلمهم بنسبتهم الجنون إلى من صحبوه، وعرفوا راجح عقله، **وتذكيرهم باسم الصحبة ما يجب للصاحب على صاحبه من المعاضدة والمناصرة**، وترقيقهم عليه، وتهييج طباعهم على الإحسان إليه، وهذا من الرموز التي لا يهتدي لها إلا غوّاص على معاني كتاب الله تعالى، بحّاث عن غوامضه وأسراره».

ومن أمثلة الدرر القرآنية التي التقطها أهل العلم، ما ذكره طاووس عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: صلاة الضحى في

(١) رموز الكنوز (٢/٣٢٩ - ٣٣٠).

القرآن، ولكن لا يغوص عليها إلا غائص، ثم قرأ (يُسبحن بالعشي والإشراق)[1].

فالمقصود مما سبق أن تكون لمّاحاً مستكشفاً لدقائق معاني الألفاظ: اقرأ ألفاظ آي القرآن بتدبر تام وتلمح شديد لدقائق معاني الألفاظ، فإن ذلك يأخذ بيديك إلى كنوز عظيمة، وفوائد دقيقة، وأحكام محررة، ومعاني جميلة.

ولعلي أشير إلى بعض ما أجراه الله من فضله على من سبق من علماء الأمة، رزقنا الله حسن تدبر آياته.

١ - قوله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] فموسى عليه السلام لم يقصد إلى قتل القبطي، فما وقع من موسى عليه السلام عن غير قصد، يدل لذلك لفظة (وكزه)، قال الشوكاني رحمه الله[2] : «لا شك أن الأنبياء معصومون عن الكبائر، والقتل الواقع منه لم يكن عن عمد، فليس بكبيرة، ولأن الوكزة في الغالب لا تقتل».

٢ - قوله تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨].

---

(١) رواه عبدالرزاق (٧٩/٣).

(٢) فتح القدير (١٦٤/٤).

فتأمل قوله تعالى (نفشت)، قال أبو المظفر السمعاني رحمه الله[1]: «النفش هو الرعي ليلاً، والهمل هو الرعي نهاراً»، ثم انظر كيف فرّع الحكم بضمان ما أفسدته الماشية من هذه اللفظة، حيث قال[2]: «وأما حكم هذه المسألة في شريعتنا: فاعلم أن ما أفسدت الماشية بالليل عندنا مضمون على صاحبها، وما أفسدت بالنهار فلا ضمان».

٣ - نبي الله سليمان عليه السلام تبسّم ضاحكاً من كلام النملة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ [النمل: ١٨ - ١٩].

قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله (ت: ٦٦١ هـ)[3]: «قال بعض العلماء: الآية من عجائب القرآن؛ لأنها بلفظة «يا»: نادتْ، «أيها»: نبّهت، «النمل»: عيّنت، «ادخلوا»: أمرت، «مساكنكم»: نَصّتْ، «لا يحطمنكم»: حذّرت، «سليمان»: خصّت، و«جنوده»: عمّت، «وهم لا يشعرون»: عذرت».

وقد كان شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله لمّاحاً فَطِناً ذكِياً لم تر العيون مثله في العصر الحديث في استنباطاته

(١) تفسير القرآن (٣/٣٩٤).

(٢) تفسير القرآن (٣/٣٩٥).

(٣) رموز الكنوز (٥/٤٤٨ - ٤٤٩).

وتلمّحه لدقيق معاني الكتاب والسنة، فللّه دره من عالم جهبذ ذكي نجيب. ومن أمثلة استنباطاته لما قريء عليه حديث أمر النبي ﷺ بكسر القدور التي طُبخت بها لحوم الحمر الأهلية ثم تعليق الصحابة بقولهم: «أو تُغْسل»، فقال عليه السلام: «أو تُغْسل». رواه البخاري، قال رحمه الله: «فيه دليل على جواز الشفاعة في التعزيزات دون الحدود».

فرحمك الله يا أبا عبدالله وغفر لك ولوالديك ومشايخك ورفع درجتك في المهديين آمين.

* * *

(٥٢) القرآن سورة واحدة:

صحيح أن القرآن نزل مفرقاً حسب الحوادث إلا أن معانيه كلها واحدة، ترجع إلى المعنى الذي من أجله أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وهو تحقيق التوحيد وتجريد العمل لله وحده لا شريك له، وعمارة الأرض بالعبودية لله، وتحقيق العدل.

من أجل هذا كتب العلماء في مقاصد الشريعة، والعلماء النبهاء أرشدوا إلى ذلك ليتأمل طالب العلم معنى الآية مضموماً إلى مجموع آيات وسور القرآن.

قال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ)[١] : «فإن السورة كالقصة الواحدة»، والقرآن كله كالسورة الواحدة، لذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. وما يذكره العلماء من أسباب النزول وبيان مفردات الآيات، لا يريدون به فهم الآية مجردة عن سياقها وعن ضمها إلى مجموع آي وسور القرآن.

قال العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله[٢] : «ومن عجيب شأن رواة أسباب النزول أنهم يمزقون الطائفة الملتئمة من الكلام الإلهي ويجعلون القرآن عضين متفرقة، بما يفككون الآيات ويفصلون

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٦٥٢).
(٢) تفسير المنار (٢/ ١١).

بعضها من بعض، وبما يفصلون بين الجمل الموثقة في الآية الواحدة، فيجعلون لكل جملة سبباً مستقلاً كما يجعلون لكل آية من الآيات الواردة في مسألة واحدة سبباً مستقلاً».

ثم قال في سياق كلامه على آيات نسخ استقبال بيت المقدس في الصلاة إلى الكعبة[1] : «انظر هذه الآيات تجد إعجازها في بلاغة الأسلوب أن مهّدت للأمر بتحويل القبلة ما يشعر به في ضمن حكاية شبهة المعترضين التي ستقع منهم، وبتوهين هذه الشبهة بإسنادها إلى السفهاء من الناس وإيرادها مجملة، وبوصلها بالدليل على فسادها، وبذكر هداية الصراط المستقيم الذي لا التواء فيه ولا اعوجاج، ولا تفريط عند سالكيه ولا إفراط، وبذكر مكانة هذه الأمة بدينها، واعتدالها في جميع أمرها، وبيان الحكمة في جعل القبلة الأولى ثم التحويل عنها، وبالتلطف في الإخبار عما سيكون من ارتداد بعض من يدّعون الإيمان عن دينهم افتتاناً بالتحويل وجهلاً بالأمر، إذ أورد الخبر في سياق بيان الحكمة حتى لا يعظم وقعه على النبي ﷺ والمؤمنين، وببيان أن المسألة كبيرة على غير المنعم عليهم بالهداية الإلهية التي سبق ذكرها، وهي الإيمان الكامل بمعرفة دلائل المسائل وحكم الأحكام، ثم بتبشير المؤمنين المهتدين الثابتين على اتباع الرسول ﷺ بإثابة الله إياهم برأفته ورحمته،

---

(١) تفسير المنار (٢/١١).

وفضله وإحسانه، وبعد هذا كله أمر أمراً صريحاً كما سيأتي في تفسير بقية الآيات، أفيصح في مثل هذا السياق الموثق بعض جمله وآياته ببعض أن تفك وُثقُه ويجعل نتفاً نتفاً، ويقال إن كل جملة منه نزلت لحادثة حدثت، أو كلمة قيلت».

* * *

(٥٣) اجتهد في معرفة معاني القرآن:

فالبعض كسول لا يُحصل الأسباب التي تمكّنه من معرفة معاني كتاب الله، وهذا جهل ونقص وتفريط وتضييع.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «لو أعيتني آية من كتاب الله فلم أجد أحداً يفتحها عليَّ إلا رجل ببرك الغماد لرحلت إليه»[١].

ويقول ابن مسعود رضي الله عنهما[٢]: «لو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه».

وقال أبو عبدالرحمن السلمي رحمه الله[٣]: حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن عثمان بن عفان وابن مسعود رضي الله عنهما وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعملوا ما فيها من العلم والعمل، قال: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً».

وقال مجاهد[٤]: «عرضت المصحف على ابن عباس رضي الله عنهما ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها».

---

(١) معجم البلدان (١/ ٤٠٠)، وبِرك الغِماد: موضع باليمن.

(٢) رواه البخاري (ص ٨٩٦ – رقم ٥٠٠٠)، ومسلم (ص١٠٨٢ – رقم ٦٣٣٢).

(٣) تفسير ابن كثير (١/٨).

(٤) جامع البيان (١/ ٨٥)، وحسنه الذهبي في تذكرة الحفاظ (٢/٧٠٦).

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله[1] : «بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً».

وقال أبو حامد الإسفراييني رحمه الله[2] : «لو رحل رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب التفسير لمحمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً».

* * *

(١) فتح الباري (٨/٤٣٨).

(٢) طبقات الفقهاء الشافعية لابن الصلاح (١/١٠٩).

(٥٤) كتب غريب الألفاظ وحدها لا تكفي:

يكتفي البعض في فهم كتاب الله بشراء مختصر صغير في غريب ألفاظ ومفردات القرآن، ويظن أنه بمجرد هذا يحصل له معرفة معنى القرآن وآياته. وهذا نقص وجهل وتضييع، فبمجرد قراءة غريب ألفاظ القرآن لا يتبين معاني كثير من الآيات، فمثلاً: إذا جاء الطالب إلى قوله تعالى في شأن الكفار في يوم القيامة ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، ماذا يفيده إذا عرف أن الهواء في اللغة: المجوف الخالي الذي لم تشغله الأجرام، لا شيء.

فإذا جالس العلماء وشافههم، أو قرأ كتب التفسير إذا كان يملك آلة ذلك، قالوا له: المعنى: أن قلوبهم خالية عن العقل والفهم لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهش، وجعلها نفس الهوى مبالغة، ومنه قيل للأحمق والجبان قلبه هواء: أي لا رأي فيه ولا قوة؛ وقيل: معنى الآية أنها خرجت قلوبهم عن مواضعها فصارت في الحناجر، وقيل المعنى: إن أفئدة الكفار في الدنيا خالية عن الخير؛ وقيل المعنى: وأفئدتهم ذات هواء، ومما يقارب معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: ١٠]، أي خالياً من كل شيء إلا من همّ موسى[١] .

---

(١) فتح القدير ص ٩١٥.

(٥٥) ملاحظة التناسب بين فواتح السور وخواتمها:

فإن ملاحظة ذلك يوقفك على فهم مجموع السورة، وتحقق معاني مفردات آياتها ضمن معنى السورة الكلي، وهذا فيما كان مجموع آيات السورة وفق نزولها الزمني، أو ترتيبها التوقيفي الذي صنعه الصحابة بأمر النبي ﷺ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت: ٧٢٨هـ)[١] : «فواتح السور تناسب خواتمها، وذلك تناسب مضمون، كما أن «البقرة» افتتحت بذكر الكتاب وأنه هدى للمتقين، وذكر في ذلك الإيمان بما أُنزل إلينا، وما أُنزل على من قبلنا، ووُسطت بمثل ذلك، وختمت بمثل ذلك، قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ ...﴾ [البقرة: ٢٨٥]، إلى آخر السورة، وكان في «البقرة» مخاطبة لجميع الخلق حتى يدخل فيه من لم يؤمن بالرسل عموماً، ومن أقر بهم خصوصاً، وللمؤمنين بالجميع خصوص الخصوص؛ ففيها خطاب الأصناف الثلاثة.

وأما «آل عمران»، فافتتحها سبحانه بذكر وحدانيته رداً على المشركين من النصارى وغيرهم، وذكر تنزيل الكتاب، وذكر ضلال

---

(١) اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية للحافظ ابن عبدالهادي، مجموع رسائل ابن عبدالهادي ص ١٩٧ – ١٩٨.

من اتبع المتشابه، ووسّطها بمثل ذلك، وختمها بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] ».

وقال أيضاً في مثال آخر[١] : «وأما «سورة المائدة» فإنها سورة العقود - وهي العهود والمواثيق - التي يعقدها بنو آدم بينهم وبين ربهم، ويعقدها بعضهم لبعض، مثل عقد الإيمان وعقد الأيمان، فأمر الله بالوفاء بالعهود، والوفاء بالعهود من صفات الصادقين دون الكاذبين، وختم السورة بما يناسب ما فيها، فقال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المائدة: ١١٩]، الآية. فالموفون بالعقود صادقون؛ فنفعهم الصدق بالوفاء يوم القيامة بما وعدهم من الكرامة، ثم تكلم سبحانه وتعالى على الوفاء بالعهد.

وقال: وهذه سورة «المائدة» للمؤمنين أمرهم فيها بالوفاء بالعقود، وذكَّرهم فيها بنعمته، كما قال تعالى لبني إسرائيل: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[البقرة: ٤٠]، فذكر النعم التي توجب الشكر، والوفاء بالعقود يحتاج إلى الصبر، ولا بد أن يكون صباراً أو شكوراً؛ كما قال في أثناء السورة بعد آية

---

(١) اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية للحافظ ابن عبدالهادي، مجموع رسائل ابن عبدالهادي ص ١٩٩ - ٢٠٠.

الطهارة: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: ٧].

فلما كان هذا فاتحة السورة كان من مضمونها الشريعة والمنهاج التي جعلها لأهل القرآن، فبيّن لهم من تفصيل أمره ونهيه الذي جعل الله لهم شرعة ومنهاجاً في هذه السورة ما وجب عليهم الوفاء به؛ لأجل إيمانهم الذي هو عقد يوجب عليهم طاعة الله ورسله واتّباع كتابه، ولهذا رُوي عن النبي ﷺ: «**إن سورة المائدة آخر القرآن نزولاً، فأحلوا حلالها، وحرموا حرامها**»، وعن أبي ميسرة: «إن فيها بضع عشرة شريعة ليست في غيرها» ».

* * *

(٥٦) ضع الآيات مواضعها :

من أسباب انحراف أهل البدع في فهم القرآن وضع الآيات في غير مواضعها، وهذا الزلل لما ظهرت أوائله في عهد الصحابة أنكروه، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه[١] : «إنما هذا القرآن كلام، فضعوه على مواضعه، ولا تتبعوا فيه أهواءكم».

قال الشاطبي رحمه الله شارحاً[٢] : «أي: فضعوه على مواضع الكلام، ولا تُخرجوه عن ذلك؛ فإنه خروج عن طريقه المستقيم إلى اتِّباع الهوى».

وقال ابن عمر رضي الله عنهما في الخوارج[٣]: «عمدوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها في المسلمين».

وقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه: أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك الله عز وجل أن يُعمَّهم بعقابه**»[٤].

---

(١) الاعتصام (٢/٤١).

(٢) الاعتصام (٢/٤١).

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه أحمد (١/٥)، وأبو داود (ص – رقم ٤٣٣٨)، والترمذي (ص – رقم ٢١٦٨)، وصححه ابن حبان.

وقال أبو العالية: كنا عند عبدالله بن مسعود رضي الله عنه جلوساً، فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه، فقال رجل من جلساء عبدالله: ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر؟

فقال آخر إلى جنبه: عليك بنفسك، فإن الله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ الآية، قال: فسمعها ابن مسعود رضي الله عنه، فقال: مَهْ: لم يجئ تأويل هذه بعد، إن القرآن أنزل حيث أُنزل، ومنه آي قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن، ومنه آي قد وقع تأويلهن بعد اليوم، ومنه آي يقع تأويلهن عند الساعة على ما ذكر من الساعة، ومنه آي يقع تأويلهن يوم الحساب على ما ذُكر من الحساب والجنة والنار. فما دامت قلوبكم واحدة، وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعاً، ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا وانهوا، فإذا اختلفت القلوب والأهواء، وأُلبستم شيعاً، وذاق بعضكم بأس بعض فامرؤ ونفسه، عند ذلك جاءنا تأويل الآية[1] .

وقال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله معيّناً صواب تفسير أبي بكر الصديق رضي الله عنه[2] : «ومن التعاون على البر والتقوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو كان للناس ترك

---

(١) جامع البيان (٩/٤٧).

(٢) جامع البيان (٩/٥٤ - ٥٥).

ذلك لم يكن للأمر به معنى إلا في الحال التي رخَّص فيه رسول الله ﷺ، وهي حال العجز عن القيام به بالجوارح الظاهرة، فيكون مرخَّصاً له تركه، إذا قام حينئذ بأداء فرض الله عليه في ذلك بقلبه».

وكذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، يستعملها المتتبعون للرخص في ركوب المحرمات، قال الحافظ محمد بن علي الكرجي رحمه الله[1]: «وأرى كثيراً من الناس يحملون هذا الخبر غير محله، ويتناولونه على غير جهته، فيرون أن الرخص المذكورة عن أهل العلم داخلة في الخبر وليس كذلك، لأن رسول الله ﷺ أضاف الرخص إلى الله جل وعز فقال: [إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه]، ورخصه غير رخص غيره، إذ لا يمكن إضافتها إليه، إلا ما بيَّن منها في كتابه، أو شهد بها جماعة الأمة عليها، أو أضيف بظاهر خبر الثقات إليه، ورخص العلماء محتاجة إلى حجج تشهد بصحتها، فمن سمى رخص العلماء رخصة فقد افترى على الله الكذب، وإن أمكن أن تكون في أنفسها حقاً».

وليس معنى أن تكون في أنفسها حقاً هو تحريم الحلال أو تحليل الحرام، هذا غير مراد قطعاً من كلام الكرجي رحمه الله، وإلا ما أنكره في أول كلامه، ورخص العلماء تكون حقاً بشروطها

(١) نكت القرآن الدالة على البيان (٢/ ٥٠٠ – ٥٠١).

الشرعية، وقد زجر الصحابة والأخيار عن المغالطة في الرخص حتى لا يركب الناس المحظورات ويضيّعوا المأمورات بالمغالطات، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لو أرخصنا لهم في هذا لأوشك أحدهم إذا وجد البرد أن يتيمم»، فالتيمم رخصة إذا خاف المسلم الضرر، لكن ليس كل برد رخصة.

* * *

(٥٧)آيات القرآن وفقه الواقع:

القرآن هدى ونور، يستضيء به المؤمنون في عقائدهم وأخلاقهم ومعاملاتهم، وتتجدد للمؤمنين حوادث يحتاجون معها إلى الرجوع إلى كتاب ربهم ليسلكوا طرق الهداية والسلامة.

وهذا شأن الصحابة والتابعين، وعموم سلف الأمة، جعلوا حياتهم وفق أمر الله وحكمه وشرعه، وتديّنوا بخطاب القرآن لهم، وجعلوا نصوصه عياراً على الحق والخلق، واستضاءوا بآياته في النوازل التي عرضت لهم، فسعدوا وسلموا ووُفقوا وهُدوا إلى الأقوم.

والناس في زماننا هذا طرفان ووسط، طرف جاف يفسر معاني القرآن تفسيراً يتعلق ببيان مفرداته، وتراكيب ألفاظه في جمله، مبرزاً واضح عقائده وأحكامه، معرضاً عن معاني القرآن في تقويم المسلمين في أحوالهم المعاصرة، كأن القرآن أُنزل في قوم قد مضوا، ناسياً أنه خطاب الله لخلقه إلى يوم الدين.

ويقابله صنف غال في إنزال الآيات في واقعنا على جهة التكفير للمسلمين وسوء الظن بهم، كسيد قطب في نعته لمجتمعات المسلمين بالجاهلية.

وقد كان سلفنا الصالح يُعملون نصوص القرآن في النوازل التي تنزل فيهم، فهذا الزبير رضي الله عنه لمّا رأى يوم الجمل ما رأى،

قال: ما علمت أن هذه الآية نزلت فينا أصحاب رسول الله ﷺ حتى كان هذا اليوم. ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥][1] .

ومن أمثلة الوسطية في إنزال الآيات في الواقع إنزالاً صحيحاً يتفق مع الواقع ويتطابق مع دلالات الآيات ما أشار إليه بعض السلف في شأن إسلام سحرة فرعون لما شاهدوا معجزات موسى عليه السلام: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠].

قال الحسن البصري رحمه الله[2] : «عجباً لقوم كافرين سحرة من أشد الناس كفراً، رسخ الإيمان في قلوبهم حين قالوا ما قالوا، ولم يبالوا بعذاب فرعون، وترى الرجل من هؤلاء يصحب الإيمان ستين سنة، ثم يبيعه بثمن يسير».

ومن تلك التطبيقات الجميلة لآيات القرآن في واقعنا تعليق العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله على قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]، حيث قال[3] : «نرى المساجد التي تحت ولايتهم - الكفار - وسيطرتهم عامرة، وأهلها آمنون مطمئنون، مع قدرة ولا تهم من الكفار على هدمها، والله أخبر أنه

---

(١) تفسير السمعاني (٢/٢٥٨).

(٢) تفسير القرآن للسمعاني (٣٤٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٢٧ - ٦٢٨.

لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لهُدمت هذه المعابد، ونحن لا نشاهد دفعاً؟

أجيب بأن جواب هذا السؤال والاستشكال داخل في عموم الآية وفرد من أفرادها، فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها، وأنها تعتبر كل أمة وجنس تحت ولايتها، وداخل في حكمها، تعتبره عضواً من أعضاء المملكة وجزءًا من أجزاء الحكومة، سواء كانت تلك الأمة مقتدرةً بعددها أو عُددها أو مالها أو علمها أو خدمتها، فتراعي الحكومات مصالح ذلك الشعب الدينيَّة والدنيويَّة، وتخشى إن لم تفعل ذلك أن يختل نظامها وتفقد بعض أركانها، فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم، خصوصاً المساجد، فإنها ولله الحمد في غاية الانتظام، حتى في عواصم الدول الكبار، وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة، نظراً لخواطر رعاياهم المسلمين، مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصارى، الذي أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامة، فتبقى الحكومة المسلمة التي لا تقدرُ تدافع عن نفسها سالمة من كثير ضررهم، لقيام الحسد عندهم، فلا يقدر أحدهم أن يمدَّ يده عليها، خوفاً من احتمائها بالآخر، مع أن الله تعالى لا بدَّ أن يُري عباده من نصر الإسلام والمسلمين ما قد وعد به في كتابه، وقد ظهرت ولله الحمد أسبابه بشعور المسلمين بضرورة رجوعهم إلى دينهم، والشعور مبدأ العمل، فنحمده ونسأله أن يُتمَّ نعمته».

ومن التطبيقات الجميلة أيضاً في إنزال آيات القرآن على واقع المسلمين لإصلاح أحوالهم ما ذكره العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله وهو يتحدث عن مشاكل المسلمين في الوقت الحاضر[1]:

«المشكلة الأولى: هي ضعف المسلمين في أقطار الدنيا في العدد والعُدد عن مقاومة الكفار، وقد هدى القرآن العظيم إلى حل هذه المشكلة بأقوم الطرق وأعدلها: فبيّن أن علاج الضعف عن مقاومة الكفار إنما هو بصدق التوجه إلى الله تعالى، وقوة الإيمان به والتوكل عليه، لأن الله قوي عزيز، قاهر لكل شيء، فمن كان من حزبه على الحقيقة لا يمكن أن يغلبه الكفار، ولو بلغوا من القوة ما بلغوا.

فمن الأدلة المبينة لذلك أن الكفار لما ضربوا على المسلمين ذلك الحصار العسكري العظيم في غزوة الأحزاب المذكور في قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١١]، كان علاج ذلك هو ما ذكرنا؛ فانظر شدة هذا الحصار العسكري وقوة أثره في المسلمين، مع أن جميع أهل الأرض في ذلك الوقت مقاطعوهم سياسة واقتصاداً؛ فإذا عرفت ذلك فاعلم أن العلاج الذي قابلوا به هذا الأمر

---

(١) أضواء البيان (٣/٤١٢ - ٤١٤).

العظيم وحلوا به هذه المشكلة العظمى هو ما بيَّنه جل وعلا في سورة الأحزاب بقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

فهذا الإيمان الكامل، وهذا التسليم العظيم لله جل وعلا، ثقةً بـه وتوكلاً عليه هو سبب حل هذه المشكلة العظمى.

وقد صرَّح نتيجة هذا العلاج بقوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥ - ٢٧].

وهذا الذي نصرهم الله به على عدوهم ما كانوا يظنونه، ولا يحسبون أنهم ينصرون به وهو الملائكة والريح، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ﴾ [الأحزاب: ٩]، ولما علم جل وعلا من أهل بيعة الرضوان الإخلاص الكامل، ونوه عن إخلاصهم بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١٨]، أي من الإيمان والإخلاص كان من نتائج ذلك ما ذكره الله جل وعلا في قوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ

تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴾ [الفتح: ٢١] فصرح جل وعلا في هذه الآية بأنهم لم يقدروا عليها، وأن الله جل وعلا أحاط بها فأقدرهم عليها، وذلك من نتائج قوة إيمانهم وشدة إخلاصهم.

فدلت الآية على أن الإخلاص لله وقوة الإيمان به، هو السبب لقدرة الضعيف على القوي وغلبته له: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ [الفتح: ٢١] فعل في سياق النفي، والفعل في سياق النفي من صيغ العموم على التحقيق».

وقال الشنقيطي رحمه الله أيضاً: «فقوله: ﴿لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ في معنى لا قدرة لكم عليها، وهذا يعم سلب جميع أنواع القدرة، لأن النكرة في سياق النفي تدل على عموم السلب وشموله لجميع الأفراد الداخلة تحت العنوان، كما هو معروف في محله.

وبهذا تعلم أن جميع أنواع القدرة عليها مسلوب عنهم، ولكن الله جل وعلا أحاط بها فأقدرهم عليها، لما علم من الإيمان والإخلاص في قلوبهم ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣]».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[1] : «لو أن الأمة الإسلامية عندها تأخر في السلاح وفي العَدَد والعُدد أيضاً، والأمم ضدها أقوى منها سلاحاً وأكثر عدداً، فليس من المستحسن أن

---

(١) تفسير سورة النساء (٢/ ١٠٠).

نقاتل، ولهذا لم يوجب الله القتال على الأمة الإسلامية إلا حين كانت مستعدة وقادرة، وأمر بالاستعداد فقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وأما قوله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فإن هذه المسألة خاصة في بدر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦]، فأجاز للناس أن يفروا من عدوهم إذا كانوا أكثر من مثليهم».

ومن جميل تطبيقات آيات القرآن على فقه الواقع، ما علّقه الشنقيطي رحمه الله على قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ [الفرقان: ٦٧]، حيث قال[1] : «ولا شك أنه يلزم المسلمين في أقطار الدنيا التعاون على اقتصاد يجيزه خالق السموات والأرض، على لسان رسوله ﷺ، ويكون كفيلاً بمعرفة طرق تحصيل المال بالأوجه الشرعية، وصرفه في مصارفه المنتجة الجائزة شرعاً لأن الاقتصاد الموجود الآن في أقطار الدنيا لا يبيحه الشرع الكريم، لأن الذين نظموا طرقه ليسوا بمسلمين، فمعاملات البنوك والشركات لا تجد شيئاً منها يجوز شرعاً[2] ، لأنها إما مشتملة على زيادات ربوية، أو على غرر، لا تجوز معه المعاملة كأنواع التأمين المتعارفة

(١) أضواء البيان (١٧٩/٤)، ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٢) في الغالب.

عند الشركات اليوم في أقطار الدنيا[١] ، فإنك لا تكاد تجد شيئاً منها سالماً من الغرر، وتحريم الغرر ثابت عن النبي ﷺ، ومن المعلوم أن من يدعي إباحة أنواع التأمين المعروفة عند الشركات من المعاصرين أنه مخطئ في ذلك، ولأنه لا دليل معه، بل الأدلة الصحيحة على خلاف ما يقول، والعلم عند الله».

ومما هو قريب من فقه الواقع وملحق به استعمال آيات القرآن في فنون كلامنا وكتاباتنا، قال ضياء الدين ابن الأثير رحمه الله[٢]: «إنه إذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المُودعة في تأليف القرآن اتخذه بحْراً يستخرج منه الدرر والجواهر ويودعها مطاوي كلامه».

وعلى هذا عمل المسلمين عموماً، والعلماء خصوصاً، لا يكاد يخلو لهم كتاب ولا خطاب إلا وهو مُضمّن آيات من القرآن.

* * *

(١) ومع ظهور التأمين التكافلي والتعاوني، فقد كان يفتي شيخنا العثيمين رحمه الله بتحريمه.

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١/ ٤٧).

(٥٨) مُلّح التفسير:

مُلح التفسير هو أنه ينقدح في ذهن المفسر معنى يستحسنه للآية وليس فيه دليل صريح يُعيّن المعنى الذي ذكره، فيذكره فيستحسنه الناس أو يذكرونه على أنه من مُلّح التفسير.

مثال: قال الشاطبي رحمه الله[1]: «حدثني الشيخ الفقيه القاضي أبو عبدالله المقري رحمه الله تعالى، قال: سُئل أبو العباس ابن البناء رحمه الله تعالى، وكان رجلاً صالحاً، في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه: ٦٣]، لِمَ لَمْ يعمل «إن» في «هذان»؟ فقال: لما لم يؤثِّر القول في المقول لم يؤثِّر العامل في المعمول، فقال له: يا سيدي هذا لا ينهض جواباً، فإنه لا يلزم من بطلان قولهم بطلان عمل (إنّ)، فقال له: إن هذا الجواب نوَّارة لا تحتمل أن تُحكّ بين الأكتف».

ومن ذلك ما رواه عبدالرزاق في المصنف بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دعا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصحاب رسول الله ﷺ: فسألهم عن ليلة القدر فأجمعوا على أنها في العشر الأواخر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فقلت لعمر رضي

---

(١) الإفادات والإنشادات بواسطة مقدمة تحقيق القواعد للمقري (١/ ٦٤)، وهو في الموافقات(١/ ٨٥).

الله عنه: إني لأعلم أو أظن أي ليلة هي؟ قال عمر رضي الله عنه: أي ليلة هي؟ فقلت: سابعة تمضى أو سابعة تبقى من العشر الأواخر، فقال: من أين علمت ذلك؟ قلت: خلق الله سبع سموات، وسبعة أرضين، وسبعة أيام، والدهر يدور في سبع، والإنسان خُلق من سبع، ويأكل من سبع، ويسجد على سبع، والطواف والجمار وأشياء ذكرها، فقال عمر رضي الله عنه: لقد فطنت لأمر ما فطنا له.

قال أبو محمد ابن عطية الأندلسي رحمه الله: «هذا من مُلح التفسير وليس من متعين العلم»[(1)].

ومن ذلك ما استحسنه القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله من تقرير أن البسملة ليست آية من الفاتحة لوقوع الاختلاف فيها، حيث قال[(2)]: «ويكفيك أنها ليست بقرآن للاختلاف فيها، والقرآن لا يختلف فيه».

وقد يعارض العلماء ما يستحسنه البعض من مُلّح التفسير، فهذا أبو عمرو الداني قال في معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام: «**نزل القرآن بالتفخيم**» أي: بالغلظة والشدة على المشركين، كما قال من قائل: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، فاعترضه

---

(١) بواسطة طرح التثريب (٤/١٥٥).
(٢) أحكام القرآن (١/٢).

أبو الحسن السخاوي رحمه الله (ت: ٦٤٣ هـ) بقوله[1]: «هذا القول في تفسير الخبر بعيد، لأنه إن كان معنى التفخيم الشدّة، فقد نزل بالرحمة والرأفة، قال الله عز وجل: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال عز وجل ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ﴾ [الزخرف: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٣]، وإنما يقال منطق فخم: إذا كان جزل الألفاظ».

* * *

(١) جمال القراء وكمال الإقراء (٢/٥٠٤ - ٥٠٥).

الفصل الثاني
تمييز مرويات التفسير



تمييز مرويات أئمة التفسير

فبعد أن أرشدنا إلى ضرورة العناية بتفسير أئمة الشأن، فهنا لا بد من التنبيه إلى ضرورة تمييز المرويات عنهم، فيُفرّق بين ما يُروى عنهم وما يصح عنهم.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله[1]: «ثلاثة كتب ليس لها أصول: المغازي، والملاحم، والتفسير».

قال أبو بكر الخطيب البغدادي رحمه الله (ت: ٤٦٣ هـ) مبيناً معنى عبارة الإمام أحمد[2]: «هذا الكلام محمول على وجه، وهو أن المراد به كتبٌ مخصوصة في هذه المعاني الثلاثة غير مُعْتمد عليها، ولا موثوق بصحتها، لسوء أحوال مصنِّفيها، وعدم عدالة ناقليها، وزيادات القُصّاص فيها».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[3]: «وفي التفسير من الموضوعات قطعة كبيرة مثل الحديث الذي يرويه الثعلبي والواحدي والزمخشري في فضائل سور القرآن سورة سورة فإنه

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/١٦٢).

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/١٦٢).

(٣) مقدمة في أصول التفسير ص٩١، بشرح شيخنا ابن عثيمين رحمه الله.

موضوع باتفاق أهل العلم.

والثعلبي هو في نفسه كان فيه خير ودين، ولكنه كان حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع.

والواحدي صاحبه كان أبصر منه بالعربية والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة».

وحسبي هنا أن أستعرض أشهر أسانيد المرويات عن أئمة التفسير عن الصحابة ومن دونهم.

*** عبدالله بن عباس رضي الله عنهما:**

(١) بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عنه:

- بشر بن عمارة ضعيف.
- والضحاك لم يسمع من ابن عباس[١].

(٢) جويبر عن الضحاك عنه:

- جويبر ضعيف جداً.
- الضحاك لم يسمع من ابن عباس[٢].

(٣) الحجاج عن الحكم عن مقسم عنه:

- الحجاج هو ابن أرطاة فيه ضعف، والحكم لم يسمع من مقسم إلا خمسة أحاديث:

---

(١) وقد ضعفه ابن كثير في تفسيره (١/ ١٤).

(٢) وهذا الإسناد عدّه الذهبي في الموقظة ص ٣٥ من الأسانيد المطروحة.

- (حديث الوتر، حديث عزيمة الطلاق، حديث قنوت عمر في الفجر، حديث جزاء المحرم الذي أصاب صيداً، وحديث الحائض)[1].

(٤) الكلبي عن أبي صالح عنه:

- هذا إسناد كذب.
- قال الكلبي: كل ما حدثتكم عن أبي صالح عن ابن عباس فهو كذب.
- وقال الإمام أحمد: تفسير الكلبي كذب من أوله إلى آخره، لا يحل النظر فيه[2].

(٥) الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عنه:

- منهال عن سعيد عن ابن عباس على شرط البخاري.
- والأعمش من رجال الصحيحين[3].

(٦) جرير بن عبدالحميد عن عطاء عن سعيد عنه:

- سعيد هو ابن جبير وعطاء هو ابن السائب وجرير ممن روي عن عطاء بعد الاختلاط[4]. فهذا إسناد لا تقوم به حجة.

---

(١) ولتفصيل ذلك ينظر علل الإمام أحمد (١/٢١٧)، تاريخ الفسوى (٢/٥٨٢) وجامع الترمذي (٢/٤٠٦)

(٢) المقصد الأرشد لإبراهيم بن محمد بن عبدالله ابن محمد بن مفلح في ترجمة عبدالصمد بن الفضل (٢/١٧٥)

(٣) وقد صحح هذا الإسناد ابن كثير نفسه في تفسيره (١/٥٧٥).

(٤) (أسئلة ابن الجنيد لابن معين رقم ٨٣٧)

(٧) يزيد النحوي عن عكرمة عنه:

- إسناد صحيح[١].

(٨) داود بن أبي هند عن عكرمة عنه:

- جوّد إسناده ابن كثير[٢].

(٩) عتاب بن بشير عن خصيف عن سعيد بن جبير عنه:

- خصيف متكلم فيه وقد حسّن حديثه الذهبي في سير أعلام النبلاء وقد صحح هذا الإسناد ابن كثير[٣].

(١٠) شعبة عن أبي هارون الغنوي عن عكرمة عنه:

- هذا إسناد رجاله معروفون، وأبو هارون الغنوى روى له البخاري في صحيحه في موضع واحد[٤]. وقد صحح هذا الإسناد ابن كثير.

(١١) ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن حجاج عن ابن أبي ملكية عنه:

- ضعيف من أجل حجاج وهو ابن أرطاة.

---

(١) كما قال الترمذي في جامعة (رقم ١٣٩١) وصححه ابن القطان كما في نصب الراية (٤/ ٣٧٢) وصححه ابن كثير في تفسيره (١/ ٥٧٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٨٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٥٧٧).

(٤) تفسيره (١/ ٥٧٧).

(١٢) محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عنه:

- داود بن الحصين ثقة إلا في عكرمة، وهذا إسناد قال عنه الترمذي: لا بأس به[١].

وهذا يردّ أحياناً من رواية داود بن الحصين عن مجاهد عن ابن عباس.

(١٣) محمد بن إسحاق حدّثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة (أو سعيد بن جبير) عنه:

- محمد بن أبي محمد ذكره ابن حبان في ثقاته والرجل فيه جهالة.

(١٤) علي بن أبي طلحة عنه:

- علي بن أبي طلحة لم يسمع من ابن عباس، لكن ما يذكره عن ابن عباس إنما هو صحيفة كما قال الإمام أحمد فيما نقله عنه ابن حجر[٢]. ولذلك فقد صححها ابن حجر.

(١٥) حفص بن عمر العدني حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عنه:

- إسناده ضعيف من أجل حفص بن عمر العدني[٣].

---

(١) جامع الترمذي (٣/٤٤٨).

(٢) الفتح (١٣/٢٧١).

(٣) فائدة: قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٥/٢٥٧): وتفسير ابن عطية عن ابن عباس ليس بثابت عن ابن عباس

*** عبدالله بن مسعود رضي الله عنه:**

(١) الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عنه:

- هذا من أسانيد الصحيحين.

(٢) زبيد عن مرة عنه:

- زبيد هو اليامي، ومرة هو ابن شراحيل الهمداني المعروف بـ «الطيب» وهذا من أسانيد مسلم، وقد صححه ابن كثير[١].

(٣) شعبة (وأحياناً سفيان) عن عاصم بن أبي النجود عن زر ابن حبيش عنه:

- رجاله رجال الصحيحين عدا عاصم فإنه صدوق.

(٤) الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عنه:

- أبو الضحى هو مسلم بن صبيح، ومسروق هو ابن الأجدع أبو عائشة، وهذا من أسانيد الصحيحين.

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير (١/٣٨٧).

* مجموعة من الصحابة والتابعين:

(١) ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث أن دراجاً أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رضي الله عنه:

- أبو الهيثم هو سليمان بن عمرو العتواري ثقة، وأما دراج ففي حديثه عن أبي الهيثم ضعف وجاءت روايات من قبله منكرة لا سيما ما كان من روايته عن أبي الهيثم.

قال ابن كثير في تفسيره: «وكثيراً ما يأتي بهذا الإسناد تفاسير فيها نكارة فلا يغتر بها فإن السند ضعيف».

(٢) أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي ابن كعب رضي الله عنه:

- إسناد حسن على ما قيل في أبي جعفر الرازي، فقد وثقه الأكابر كابن معين وعلي بن المديني، وقال عنه أبو حاتم «ثقة صدوق»، وأما قول النسائي عنه «ليس بالقوي» فهو ليس بجرح مفسد فإن مراده أنه ليس بالحفظ والإتقان كشعبة وسفيان وحماد بن زيد لا أنه لا يحتج به، فإن ذلك يعبر عنه في الغالب بقولهم: «ليس بقوي» وهذا فرق مهم تنبه إليه قد أشار إليه الحافظ الذهبي[١].

---

(١) الموقظة ص: ٨٢.

(٣) ابن جرير عن ابن المثنى عن محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير:

- قال ابن كثير: إسناد صحيح[١].

(٤) سنيد عن حجاج عن ابن جريج عن مجاهد:

- سنيد هو ابن داود المصيصي واسمه الحسين وسنيد لقب، فيه ضعف لا سيما في روايته عن حجاج وهو ابن محمد المصيصي الأعور الثقة.
- قال أحمد عنه: كان يقول حدثنا ابن جريج وإنما قرأ على ابن جريج، ثم ترك ذلك فكان يقول قال ابن جريج وكان صحيح الأخذ.
- وقال أحمد أيضاً: «سمع التفسير من ابن جريج إملاءً»[٢].

* * *

(١) تفسير ابن كثير (١/٤٧٧).

(٢) تهذيب التهذيب (٢/٢٠٥).

* السدي (الكبير):

(١) إسماعيل بن عبدالرحمن السدي.

- قال الخليلي رحمه الله[١]: وتفسير إسماعيل بن عبدالرحمن السدي فإنما يسنده بأسانيد إلى عبدالله بن مسعود وابن عباس[٢].
- وروى عن السدي الأئمة مثل الثوري وشعبة لكن التفسير الذي جمعه رواه عن أسباط بن نصر، وأسباط لم يتفقوا عليه غير أن أمثل التفاسير تفسير السدي.
- وفي سير أعلام النبلاء[٣] :

«قال عبدالله بن حبيب بن أبي ثابت سمعت الشعبي وقيل له: إن إسماعيل السدي قد أعطي حظاً من علم فقال: إن إسماعيل قد أعطي حظاً من الجهل بالقرآن.

قلت (يعني الذهبي): ما أحد إلا وما جهل من علم القرآن أكثر مما علم، وقد قال إسماعيل بن أبي خالد: كان السدي أعلم بالقرآن من الشعبي رحمهما الله. وقال سلم ابن عبدالرحمن شيخ لشريك: مر إبراهيم النخعي بالسدي وهو يفسر، فقال: إنه ليفسر تفسير القوم».

---

(١) الإرشاد (١/٣٩٧).

(٢) من هذه الأسانيد ما أورده ابن كثير في تفسيره (١/٧٦): وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود.

(٣) السير (٥/٢٦٥).

تنبيه: تفسير السدي يقع فيه أحياناً إسرائيليات، قال الحافظ ابن كثير بعد سياقه له مع متنه[1]:

«فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدي ويقع فيه إسرائيليات كثيرة فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة والله أعلم، والحاكم يروي في مستدركه بهذا الإسناد بعينه أشياء ويقول على شرط البخاري».

- **تنبيه:**

هناك سدي آخر غير السدي الكبير اسمه محمد بن مروان الكوفي وهو متهم بالكذب لم يخرّج له أحد من أصحاب الكتب الستة، أما الكبير فقد روى له مسلم والأربعة ووثقه أحمد بن حنبل، وقال عنه القطان: لا بأس به. ويفرّق بينهما من خلال الطبقة، فإن إسماعيل بن عبدالرحمن يروي عن أنس بن مالك وابن عباس وأبي عبدالرحمن السلمي، أما محمد بن مروان فإنه يروي عن الأعمش والكلبي صاحب التفسير ويحي بن سعيد الأنصاري.

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٧٦ - ٧٧)،

مقاتل بن سليمان البلخي:

- قال الخليلي رحمه الله [(١)]:

«فمقاتل في نفسه ضعفوه وقد أدرك الكبار من التابعين، والشافعي أشار إلى أن تفسيره صالح».

- قال ابن المبارك: «ما أحسن تفسيره لو كان ثقة»[(٢)] .

- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(٣)]:

«وقد قال الشافعي: من أراد التفسير فهو عيال على مقاتل ومن أراد الفقه فهو عيال على أبي حنيفة». ثم قال شيخ الإسلام: «ومقاتل بن سليمان وإن لم يكن ممن يحتج به في الحديث - بخلاف مقاتل بن حيان فإنه ثقة - لكن لا ريب في علمه بالتفسير وغيره واطلاعه».

وقال أحمد بن محمد بن هانيء الطائي[(٤)]: سألت أحمد ابن حنبل عن مقاتل بن سليمان؟ قال: ما رأيت أحداً أعلم بالتفسير من مقاتل».

* * *

(١) الإرشاد (١/ ٣٩٨).

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٠١).

(٣) منهاج السنة (٢/ ٦١٩).

(٤) المقصد الأرشد (١/ ١٦٢).

* عبدالله بن أبي نجيح: الإمام الثقة المفسر:

- قال علي بن المديني: أما التفسير فهو فيه ثقة يعلمه[1].

وقال يحيى القطان لم يسمع ابن أبي نجيح من مجاهد التفسير كله يدور على القاسم بن أبي بزة[2].

قال الذهبي بعد سياقه هذه الحكاية:

«هو من أخص الناس بمجاهد»[3].

- وقال وكيع: كان سفيان يصحح تفسير ابن أبي نجيح»[4].

* * *

(١) سير أعلام النبلاء (٦/١٢٦).

(٢) تاريخ البخاري الكبير (٥/٢٣٣).

(٣) سير أعلام النبلاء (٦/١٢٦).

(٤) الجرح والتعديل (٥/٢٠٣).

الفصل الثالث
أسباب وقوع الخطأ
في التفسير مجملاً



أولاً : الأحاديث الضعيفة

تكلم العلماء في الأمور التي دخل فيها النقص في التفاسير، وجماعها بصفة مجملة يرجع إلى رواية الأحاديث الضعيفة، وشحن كتب التفسير بالإسرائيليات، والتفسير بالرأي. قال أبو حيان الأندلسي رحمه الله[1] : «ذكروا ما لا يصح من أسباب نزول، وأحاديث في الفضائل، وحكايات لا تناسب، وتواريخ إسرائيلية، ولا ينبغي ذكر هذا في علم التفسير».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2] : «وفي «التفسير» من هذه الموضوعات قطعة كبيرة، مثل الحديث الذي يرويه الثعلبي والواحدي والزمخشري في فضائل القرآن سورة سورة فإنه موضوع باتفاق أهل العلم. و«الثعلبي»، هو في نفسه كان فيه خير ودين، وكان حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع، و«الواحدي»، صاحبه كان أبصر منه بالعربية؛ لكن هو أبعد عن السلامة واتباع السلف، والبغوي تفسيره مختصر

---

(١) البحر المحيط (١/٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٣٥٤).

من الثعلبي لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة.

والموضوعات في كتب التفسير كثيرة، مثل الأحاديث الكثيرة الصريحة في الجهر بالبسملة، وحديث علي رضي الله عنه الطويل في تصدقه بخاتمه في الصلاة، فإنه موضوع باتفاق أهل العلم، ومثل ما روي في قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، أنه علي رضي الله عنه، ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢]، أذنك يا علي».

وقال أيضاً[١] : «وهذه الكتب التي يسميها كثير من الناس «كتب التفسير»، فيها كثير من التفسير منقولات عن السلف مكذوبة عليهم، وقول على الله ورسوله ﷺ بالرأي المجرد».

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله[٢] : «ومن التفاسير الواهية لوهاء رواتها: التفسير الذي جمعه موسى بن عبدالرحمن الثقفي الصنعاني، وهو قدر مجلدين يسنده إلى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد نسب ابن حبان موسى هذا إلى وضع الحديث، ورواه عن موسى عبدالغني بن سعيد الثقفي وهو ضعيف.

وقد يوجد كثير من أسباب النزول في كتاب المغازي، فما كان

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٨٨ - ٣٨٩).

(٢) العجاب في بيان الأسباب (١/ ٢٠٣).

منها من رواية معتمر بن سليمان عن أبيه، أو من رواية إسماعيل ابن إبراهيم بن عقبة، عن عمه موسى بن عقبة، فهو أصلح مما فيها من كتاب محمد بن إسحاق، وما كان من رواية ابن إسحاق أمثل مما فيها من رواية الواقدي.

وإنما قدمت هذه المقدمة ليسهل الوقوف على أوصافهم لمن تصدى للتفسير، فيقبل من كان أهلاً للقبول، ويرد من عداه».

وقال العلامة صديق حسن خان رحمه الله في بيان ما وقع في بعض كتب التفسير من رواية الضعاف والموضوعات[1] : «وأما أحاديث فضائل القرآن سورة سورة فلا خلاف بين من يعرف الحديث أنها موضوعة مكذوبة، وقد أقرَّ به واضعها أخزاه الله بأنه الواضع لها، وليس بعد الإقرار شيء، ولا اغترار بمثل ذكر الزمخشري لها في آخر كل سورة، فإنه وإن كان إمام اللغة والآلات على اختلاف أنواعها، فلا يفرق في الحديث بين أصح الصحيح وأكذب الكذب، ولا يقدح ذلك في علمه الذي بلغ فيه غاية التحقيق[2]، ولكل علم رجال، وقد وزّع الله سبحانه الفضائل بين عباده، والزمخشري نقل هذه الأحاديث عن تفسير الثعلبي، وهو مثله في عدم المعرفة بعلم السُّنَّة».

---

(١) فتح البيان (١/٢٣).

(٢) في البلاغة، أما العقيدة والفقه والحديث فلا تحقيق.

وقال العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله[1] : «وأما الروايات المأثورة عن النبي ﷺ وأصحابه وعلماء التابعين في التفسير فمنها ما هو ضروري أيضاً، لأن ما صحَّ من المرفوع لا يقدم عليه شيء، ويليه ما صحَّ من علماء الصحابة مما يتعلَّق بالمعاني اللغوية أو عمل عصرهم، والصحيح من هذا وذاك قليل، وأكثر التفسير المأثور قد سرى إلى الرواة من زنادقة اليهود والفرس ومسلمة أهل الكتاب، كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله، وجل ذلك في قصص الرسل مع أقوامهم، وما يتعلق بكتبهم ومعجزاتهم، وفي تاريخ غيرهم كأصحاب الكهف، ومدينة إرم ذات العماد، وسحر بابل، وعوج ابن عنق، وفي أمور الغيب من أشراط الساعة وقيامتها وما يكون فيها وبعدها، وجل ذلك خرافات ومفتريات».

من أجل ذلك حض شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على التفاسير المحررة، فقال[2] : «فليراجع كتب (التفسير)، التي يحرر فيها النقل، مثل تفسير محمد بن جرير الطبري، الذي ينقل فيه كلام السلف بالإسناد، - وليعرض عن تفسير مقاتل، والكلبي - ، وقبله تفسير بقي بن مخلد الأندلسي، وعبدالرحمن بن إبراهيم دحيم الشامي، وعبد بن حميد الكشي وغيرهم، إن لم يصعد إلى تفسير

(١) تفسير المنار (١/ ٧ - ٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٣٨٩).

الإمـام إسـحاق بـن راهويـة، وتفـسير الإمـام أحمـد بـن حنبـل[1]، وغيرهما من الأئمة، الذين هم أعلم أهل الأرض بالتفاسير الصحيحة عن النبي ﷺ، وآثار الصحابة والتابعين كما هم أعلم الناس بحديث النبي ﷺ، وآثار الصحابة والتابعين في الأصول والفروع، وغير ذلك من العلوم».

* * *

---

(١) تفسير الإمام أحمد رحمه الله أنكر وجوده الحافظ الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء (١١/٣٢٨)، وأثبته غيره وقد نقل عنه ابن قدامة المقدسي حيث قال في المغني (١٣/٥٢٩). «في قراءة أُبَيٍّ، وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما: [فصيام ثلاثة أيام متتابعات]، كذلك ذكره الإمام أحمد في [التفسير] عن جماعة». وتحدث عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله واصفاً محتواه بأنه تفسير أثري كتفسير عبدالرزاق، ووكيع، وعبد بن حميد. مقدمة في أصول التفسير ص٣٢، ط مكتبة الحياة. وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله واصفاً تفسير الإمام أحمد: «وهو محتو على كلام الصحابة والتابعين في التفسير. وتفسيره من جنس التفاسير المنقولة عن السلف: من تفاسير شيوخه، كعبدالرزاق، ووكيع، وآدم بن أبي إياس وغيرهم. ومن تفاسير أقرانه كإسحاق وغيره، وممن بعده ممن هو على منواله كالنسائي، وابن ماجة، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، وغيرهم من أهل الحديث» جامع رسائل ابن رجب (٢/٦٢٩). وقد نقل عن الإمام أحمد في تفسيره ابن القيم رحمه الله في كتابه «الكلام على مسألة السماع» ص ٣١٥، أنه قال في معنى قوله ﷺ: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن»: «يحسنه بصوته ما استطاع». ط. دار العاصمة، ط. الأولى (١٤٠٩هـ).

ثانياً: الإسرائيليات

المفسرون شحنوا كتبهم بالإسرائيليات، طلباً لبيان ما أجمل في القرآن، ووقع بسبب ذلك شر عظيم، من إيراد الباطل، ومن القول على الله بغير علم، ومن تكذيب النبيين، ومن إشغال المسلمين بما لا ينفعهم في دينهم، وتشويه جمال قرآنهم.

وإن شئت أن تقف على جناية الإسرائيليات على تفسير القرآن، فقف على شيء مما ورد من ذلك في تفاسير بعض الآيات، فإنك تجد العجب العُجاب، وإنك لتستغرب من دخول هذه الإسرائيليات إلى تفاسيرنا، ففضولنا هو الذي جلب لنا هذا.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره بعض المفسرين من صفة دخول إبليس الجنة.

قال العلامة عبدالقادر بن بدران الدمشقي رحمه الله[1] : «ولأكثر المفسرين في هذا المقام مقالات اقتبسوها عن أهل الكتاب، وأكثرها من كلام وهب بن منبه اليماني، والسدي، وأضرابهما، والغالب أنها تأتي مرفوعة إلى ابن عباس رضي الله عنهما، على أن روايتها لا

(١) جواهر الأفكار ومعادن الأسرار ص ١٧٩.

تصح أصلاً، ولا تنطبق على معاني كتاب الله تعالى، فيجب إطراحها وعدم اعتبارها، ولنذكر نموذجاً منها ليعلم الباقي: وهو أن القصاص يروون عن وهب بن منبه، والسدي عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أنه لما أراد إبليس أن يدخل الجنة منعته الخزنة، فأتى الحية وهي دابة لها أربع قوائم كأنها البختية، وهي كأحسن الدواب، بعدما عرض نفسه على سائر الحيوانات فما قبله واحد منها، فابتلعته الحية وأدخلته خفية من الخزنة، فلما دخلت الحية الجنة خرج إبليس واشتغل بالوسوسة، فلا جرم لعنت الحية، وسقطت قوائمها، وصارت تمشي على بطنها، وجعل رزقها في التراب، وصارت عدواً لبني آدم».

ومن الإسرائيليات المشوهة لمعاني القرآن، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٦ - ٧٨].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله (ت: ٧٧٤هـ)[١] : «قال بعضهم: إن قارون كان يعلم الاسم الأعظم، فدعا الله به، فتموّل بسببه».

وقال رحمه الله مبيناً فساد هذا القول[٢] : «الاسم الأعظم لا يصعد الدعاء به من كافر به، وقارون كان كافراً في الباطن منافقاً في الظاهر».

وهذا تحرير واضح، فالله عزَّ وجل لا يجيب دعاء قارون باسم الله الأعظم، والله يتوعده بالهلاك.

ثم ذكر ابن كثير رحمه الله تفسير السلف الصحيح للآية، فقال[٣] : «وقد أجاد في تفسير هذه الآية عبدالرحمن بن زيد ابن أسلم، فإنه قال في قوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾، قال: لولا رضا الله عني، ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال، وقرأ: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾».

ومن ذلك ما أورده العلماء من الإسرائيليات في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٥٥).

(٢) قصص الأنبياء ص ٣٩١، منتزع من البداية والنهاية.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٢٥٥).

ونقل بعضهم أن الشيطان تمثَّل بصورة سليمان عليه السلام حتى يلتبس أمره عند الناس ويعتقدون أن ذلك المتصور هو النبي، قال أبو حيان الأندلسي رحمه الله[1] : «ولو أمكن وجود هذا لم يوثق بإرسال نبي، وإنما هذه مقالة السوفسطائية نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها».

وقال في بقية الأقوال التي هي من جنس هذا القول[2] : «نقل المفسرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالاً يجب براءة الأنبياء منها، يوقف عليها في كتبهم، وهي مما لا يحل نقلها، وإنما هي من أوضاع اليهود والزنادقة».

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في شأن القصص الواردة فيما فُتن به سليمان عليه السلام، والجسد الذي ألقي على كرسيه: «وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف، كسعيد ابن المسيب، وزيد بن أسلم، وجماعة آخرين، وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب»[3] .

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله (ت: ١٣٩٣هـ)[4]: «فما يذكره المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ

---

(١) البحر المحيط (٣٩٧/٧).

(٢) البحر المحيط (٣٩٧/٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦٩/٧).

(٤) أضواء البيان (٣٧٣/٢).

﴿فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ الآية، من قصة الشيطان الذي أخذ الخاتم وجلس على كرسي سليمان، وطرد سليمان عن ملكه، حتى وجد الخاتم في بطن السمكة التي أعطاها له من كان يعمل عنده بأجر مطروداً عن ملكه، إلى آخر القصة - لا يخفى أنه باطل لا أصل له، وأنه لا يليق بمقام النبوة، فهي من الإسرائيليات التي لا يخفى أنها باطلة».

* * *

التحقق من الإسرائيليات

الإسرائيليات أصناف، منها ما يأخذه العلماء من كتب أهل الكتاب، فهذا مجرد نسبته إلى كتبهم يوجب عند المسلم تيقظاً وتثبتاً يوجب معه عدم المبادرة إلى قبوله، وعرضه على الكتاب والسُّنَّة، فإن شهد له شرعنا بالاعتبار فمعناه مقبول، وإن شهد شرعنا برده رددناه.

وهنا ملحظ مهم جداً أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تمييز المنقولات، وهو أن أئمة الحديث لا يحتجون بالمرسل الذي سقط راوٍ فيه من دون الصحابي، فكيف بآلاف السنين في رواية الإسرائيليات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «فكيف بما ينقله كعب الأحبار وأمثاله عن الأنبياء؟ وبيّن كعب، وبين النبي الذي ينقل عنه ألف سنة، وأكثر وأقل، وهو لم يسند ذلك عن ثقة بعد ثقة، بل غايته أن ينقل عن بعض الكتب التي كتبها شيوخ اليهود، وقد أخبر الله بتبديلهم وتحريفهم، فكيف يحل للمسلم أن يصدق شيئاً من ذلك، بمجرد هذا النقل؟

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٥٠ – ٣٥١).

بل الواجب أن لا يصدق ذلك، ولا يكذبه أيضاً إلا بدليل يدل على كذبه، وهكذا أمرنا النبي ﷺ.

وفي هذه الإسرائيليات، مما هو كذب على الأنبياء، أو ما هو منسوخ في شريعتنا مما لا يعلمه إلا الله».

ولذلك كان الصحابة يمحّصون الأخبار التي يحكيها عبدالله ابن سلام وغيره، قال ابن القيم رحمه الله[1] : «وقد كان الصحابة يمتحنون ما ينقله ويزنونه بما يعرفون صحته فيعلمون صدقه».

وهنا لا بد من التنبيه على أمور فيما يتعلق بمرويات بعض الصحابة والتابعين لأخبار أهل الكتاب:

الأول: أن رجوعهم إليها ليس رجوع متلقي لها بالقبول، وإنما هو فضول نظر في ضوء الثابت من شريعة الإسلام، وذلك أن صحف أهل الكتاب أو ما اصطُلح عليه تغليباً بـ «الإسرائيليات»، مرتبتها الشكوك، كما قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[2] .

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما نسخ كتاباً من التوراة بالعربية زجره النبي ﷺ وقال له: «**لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تُكذبوا بحق، أو**

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص ١١٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٦.

تصدقوا بباطل، والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني»[1].

وعمر رضي الله عنه نفسه اتّعظ بموعظة النبي ﷺ وزجر كعب الأحبار، وقال له: «لتتركنَّ الأحاديث، أو لألحقنك بأرض القردة»[2].

وكذلك الحبر ابن عباس رضي الله عنهما حيث قال: «يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدثُ الأخبار بالله، محضاً لم يُشَبْ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدّلوا من كتب الله وغيّروا، فكتبوا بأيديهم، قالوا: هو من عند الله، ليشتروا بذلك ثمناً قليلاً»[3] .

الثاني: أن من وقع منه ذلك إنما هو من علماء أهل الكتاب

---

(١) رواه أحمد (٣/٣٨٧)، والدارمي (١/١١٥)، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله ص ٣٣٩ كلهم من طريق مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبدالله أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: فذكره.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (١٣/٣٣٤): «رجاله موثقون إلا أن في مجالد ضعفاً، وأخرج البزار أيضاً من طريق عبدالله بن ثابت الأنصاري أن عمر رضي الله عنه نسخ صحيفة من التوراة فقال رسول الله ﷺ: **«لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء»**، وفي سنده جابر الجعفي، وهو ضعيف».

(٢) البداية والنهاية (١١/٣٧١).

(٣) رواه البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبي ﷺ: **«لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء»** (ص ١٢٦٦- رقم ٧٣٦٣).

الذين أسلموا، كعبدالله بن سلام رضي الله عنه، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه[1] ، وأشباههم الذين كان لهم نوع تصرف في تلك الصحف من باب التحديث والرواية فقط، دون الإيمان إلا بشيء صدقه القرآن، وذلك داخل في جملة قول النبي ﷺ: «**لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم**»[2] .

قال العلامة عبدالرحمن المعلمي رحمه الله[3] : «وإنما كان كعب وغيره يحكون تنبؤات عما يستقبل من الأمور، فيعلم الصدق أو الكذب بوقوعها وعدمه، والظاهر أنه كان عند كعب صحف فيها تنبؤات مجملة، وكانت له مهارة خاصة في تفسيرها».

فالحاصل أن الصحابة كانوا عدولاً منصفين حتى في الحكم على أهل الكتاب وصحفهم، فلذلك وقعت منهم الرواية والسماع الذي لم يُنه عنه، ولم يقع منهم التلقي على أنها صحف محفوظة غير منسوخة، أو أنها تضيف جديداً لاعتقاداتهم وأعمالهم وعباداتهم.

---

(١) عبدالله بن سلام رضي الله عنه صحابي جليل، ووهب بن منبه وُلد في الإسلام سنة ٣٤هـ، وأدرك بعض الصحابة، وأما كعب فأسلم في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير سورة البقرة باب (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا) (ص ٧٦٢- رقم ٤٤٨٥).

(٣) الأنوار الكاشفة ص ١٢٧.

ولهذا قال الحافظ ابن عبدالبر رحمه الله (ت: ٤٦٣هـ)[١] : «ليس في الحديث عنهم ما يقدح في الشريعة ولا يوجب فيها حكماً، وقد كانت فيهم الأعاجيب، فهي التي يُحدث بها عنهم، لا شيء من أمور الديانة».

وقال المعلمي رحمه الله معلقاً على حديث أبي هريرة رضي الله عنه المرفوع[٢]: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»، : «فلم ينه عن السماع والاستماع، وإنما نهى عن التصديق والتكذيب، ولا ريب أن المنهي عنه هو التصديق المبتني على حسن الظن بصحفهم، والتكذيب المبني على غير حجة».

الثالث: قد جاء النهي عن التحديث عن أهل الكتاب عن بعض الصحابة، مراعاة لقاعدة سد الذرائع مع ما سبق من بيان الدليل على جواز التحديث عن بني إسرائيل.

أما الأمر الأكثر دقة وهو الأكثر قبولاً لدى الناس هو ما يذكره الصحابي أو التابعي من قول أهل الكتاب من غير إشارة لأخذه عنهم، فيتوهم القارئ أنه من قول الصحابي فيتلقاه بالقبول.

ومن هنا ذكر العلماء شروط الأخذ بقول الصحابي، قال الحافظ

---

(١) التمهيد (١/٤٣).

(٢) الأنوار الكاشفة ص ١٢٢ – ١٢٣.

ابن حجر رحمه الله (ت: ٨٥٢) في تفسير الصحابي[١] : «إذا فسر آية تتعلق بحكم شرعي فيحتمل أن يكون ذلك مستفاداً عن النبي ﷺ وعن القواعد، فلا يجزم برفعه، وكذا إذا فُسر مفرداً، فهذا نقل عن اللسان خاصة فلا يجزم برفعه، وهذا التحرير الذي حررناه هو معتمد خلق كثير من كبار الأئمة كصاحبي الصحيح والإمام الشافعي وأبي جعفر الطبري وأبي جعفر الطحاوي وأبي بكر ابن مردويه في تفسيره المسند والبيهقي وابن عبدالبر في آخرين.

إلا أنه يستثنى من ذلك ما كان المفسر له من الصحابة رضي الله تعالى عنهم من عُرف بالنظر في الإسرائيليات، كمسلمة أهل الكتاب مثل عبدالله بن سلام وغيره. وكعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فإنه حصل له في وقعة اليرموك كتب كثيرة من كتب أهل الكتاب، فكان يخبر بما فيها من الأمور المغيبة حتى كان بعض أصحابه ربما قال له: حدثنا عن النبي ﷺ ولا تحدثنا عن الصحيفة، فمثل هذا لا يكون حكم ما يخبر به من الأمور التي قدمنا ذكرها[٢] الرفع، لقوة الاحتمال».

---

(١) النكت على كتاب ابن الصلاح (٢/ ٥٣٢ - ٥٣٣).

(٢) كالإخبار عن الأمور الماضية من بدء الخلق، وقصص الأنبياء، وكالملاحم، والفتن، والبعث، وصفة الجنة والنار، والإخبار عن عمل يحصل به ثواب مخصوص أو عقاب مخصوص. النكت (٢/ ٥٣١).

الرابع : النظر في الإسرائيليات تركه أولى، لأنه من باب الفضول، وأما من نظر فيها وهو مُضيِّع للأصول غير مُحصَّن بشريعة الإسلام، فهذا حرام عليه.

قال الإمام أحمد رحمه الله[1] : «الاشتغال بهذه الأخبار القديمة يقطع العلم».

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله عن إسرائيليات كعب الأحبار[2] : «وليس لهذه الأمة – والله أعلم – حاجة إلى حرف واحد مما عنده».

* * *

(١) الآداب الشرعية (٢/ ٩٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٢ – ٣٣).

ليس بنا حاجة ولا ضرورة إلى الإسرائيليات

عندنا من ينتسب إلى العلم ويزعم أننا في ضرورة للإسرائيليات لتفسير بعض آيات القرآن، كذا زعم!!!

وهذا إنما تفوه به لنقص علمه، ولطلبه معرفة ما طوي علمه مما لا يلحقنا نقص بجهله، أو مما معرفته معلومة بمفهوم ألفاظ الآيات، فغاب علمه لقلة فهمه، فأخذ يفرج بها مضايق نقصه بالإسرائيليات، أو ممن ضعفت حرمة الإتباع في نفسه وألّف رؤية الإسرائيليات في كتب بعض المفسرين، فلكثرة ورودها على قلبه وذهنه هانت عليه حرمة القرآن وسار على إلف من سبقه بهذا النقص.

والمعظم لحرمة كتاب الله يُجله عن أن يفسره بالإسرائيليات.

وكل مسلم يعرف بداهة أن كتاب الله تام البيان لا يحتاج إلى الاستظهار بمعرفته بالإسرائيليات، والكتب المحرفة، قال الخطابي رحمه الله[1] : «إن الله تعالى أنزل كتابه تبياناً لكل شيء، وقال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فأخبر سبحانه أنه لم يغادر شيئاً من أمر الدين لم يتضمن بيانه الكتاب، إلا أن البيان على

(١) معالم السنن (١/ ١٢ - ١٣).

ضربين: بيان جلي تناوله الذكر نصاً، وبيان خفي اشتمل عليه معنى التلاوة ضمناً، فما كان من هذا الضرب كان تفصيل بيانه موكولاً إلى النبي ﷺ، وهو معنى قوله سبحانه: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، فمن جمع بين الكتاب والسُّنَّة فقد استوفى وجهي البيان».

فالشبهة التي يوردها البعض مدّعياً الحاجة إلى الإسرائيليات لبيان ما أُجمل أو أُبْهِم في القرآن، في الحقيقة هو دال على مضادتهم للقرآن، لأن الله عزَّ وجل له حكمة في طوي علم هذه الأمور عنا، فليس فيه فائدة حقيقية في دين الناس، فالتكلف في طلب علم ما طوى الله علمه عنا، لا يزيد في الإيمان شيئاً إن لم ينقصه لمضادة الله في أمره، وفيه تضييع للوقت بما لا فائدة فيه، ولا تطمئن النفوس إلى صدق ما في الإسرائيليات من أخبار، وما هكذا تُقام حقائق القرآن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١) : «ما لا طريق لنا إلى الجزم بالصدق منه عامته مما لا فائدة فيه، فالكلام فيه من فضول الكلام.

وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته فإن الله نصب على الحق فيه دليلاً، فمثال ما لا يفيد ولا دليل عليه على الصحيح منه

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤٤ – ٣٤٥).

اختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف، وفي البعض الذي ضرب به موسى من البقرة، وفي مقدار سفينة نوح، وما كان خشبها، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر ونحو ذلك، فهذه الأمور طريق العلم بها النقل، فما كان من هذا منقولاً صحيحاً عن النبي ﷺ كاسم صاحب موسى أنه الخضر، فهذا معلوم، وما لم يكن كذلك بل كان مما يؤخذ عن أهل الكتاب كالمنقول عن كعب ووهب ومحمد ابن إسحاق وغيرهم ممن يأخذ عن أهل الكتاب، فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا حدَّثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه**» ».

وعمل الصحابة واضح في عدم حاجتنا إلى الإسرائيليات، إلا من باب إقامة الحجة عليهم مما في كتبهم مما لم يصبه التحريف بالبشارة بنبينا ﷺ ووجوب إتباعه، وإثبات توافق الشرائع من ذلك، أما أن نعرف بيان آيات القرآن، فالقرآن تام البيان.

ومنهج الصحابة في ذلك واضح، قال التابعي أبو العالية رحمه الله: لما افتتحنا تستر وجدنا في مال بيت الهرمزان سريراً، عليه رجل ميّت، عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف، فحملناه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل من العرب قرأه، قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا.

قال خالد بن دينار لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيركم وأموركم ولحون كلامكم، وما هو كائن بعد، قلت: فما صنعتم بالرجل؟

قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان بالليل دفنَّاه، وسوَّينا القبور كلها، لنعمِّيه على الناس فلا ينبشونه.

قلت: فما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حُبست عنهم، برزوا بسريره فيمطرون.

قلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يُقال له: دانيال، قلت: منذ كم وجدتموه قد مات؟ قال: منذ ثلثمائة سنة، قلت: ما تغيَّر منه شيء؟ قال: لا، إلا شعرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع[1] .

فكما أن الصحابة عمّوا قبر دانيال، كذلك أبادوا كتاب دانيال فلم يتداولوه ولم يحتجوا به ولم يتدينوا بما فيه، ولم يفسروا به كلام ربهم المنزل في القرآن، ولم ينقلوه للأمة ولم يورثوها إياه، فليس له ذكر أبداً.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٢/٣٧٧): إسناد صحيح.

ثالثاً: التفسير بالرأي

تفسير نصوص الكتاب والسُّنَّة بالرأي حرام وجرم عظيم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال[١] : «**من قال في القرآن برأيه، أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار**».

وكره الصحابة أن يقولوا في القرآن برأيهم، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه[٢] : «أي أرض تقلني؟ وأي سماء تظلني؟ إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم».

وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، قال: ما الأب؟ قال: إن هذا لهو التكلف، فما عليك ألا تدريه[٣] .

---

(١) رواه الترمذي كتاب تفسير القرآن باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه (ص ٦٦٣ - ٢٩٥٠). والنسائي في السنن الكبرى (٢/١٢٥٤ - رقم ٨٠٣١).

(٢) رواه الطبري في جامع البيان (١/٧٢).

(٣) رواه البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة باب ما يكره من كثرة السؤال ومن تكلف ما لا يعنيه (ص ١٢٥٤ - رقم ٧٢٩٣).

وقال ابن أبي مليكة رحمه الله: إن ابن عباس رضي الله عنهما سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها[1] .

وقال يزيد بن أبي يزيد: كنا نسأل سعيد بن المسيب رحمه الله عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت، كأن لم يسمع[2] .

وقال إبراهيم النخعي رحمه الله: كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه[3] .

وقال الشعبي رحمه الله: والله ما من آية إلا وقد سألت عنها، ولكنها الرواية عن الله[4] .

وقال عبيد الله بن عمر رحمه الله: لقد أدركت فقهاء المدينة، وإنهم ليعظِّمون القول في التفسير، منهم: سالم بن عبدالله، والقاسم ابن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع[5] .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله (ت: ٧٧٤هـ)[6] : «فهذه الآثار

---

(١) رواه الطبري في جامع البيان (١/٨٠)، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «إسناده صحيح». تفسير القرآن (١/١٢).

(٢) رواه الطبري في جامع البيان (١/٨٠ - ٨١).

(٣) تفسير ابن كثير (١/١٣).

(٤) رواه الطبري في جامع البيان (١/٨١).

(٥) رواه الطبري في جامع البيان (١/٧٩).

(٦) تفسير القرآن العظيم (١/١٣ - ١٤).

الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً، فلا حرج عليه؛ ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ولما جاء في الحديث المروي من طرق: «**من سئل عن علم فكتمه، أُلجم يوم القيامة بلجام من نار**» ».

ولا يجوز لأحد أن يترخص بحديث معاذ رضي الله عنه لما بعثه النبي ﷺ وقال له: «**بم تقضي؟ قال أقضي بكتاب الله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ؟ قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ؟ قال: أجتهد رأيي، قال: فضرب رسول الله ﷺ على صدري، وقال: الحمد لله الذي وفق رسول الله ﷺ لما يُرضي رسول الله**» (١) .

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٣٠)، والدارمي (١/ ٦٠)، وأبو داود (رقم ٣٥٩٣)، والترمذي (رقم ١٣٢٨). والحديث صححه جماعات من كبار العلماء، قال ابن عبدالبر: «حديث معاذ صحيح مشهور». جامع بيان العلم ص ٣٨٨، وقال أبو المظفر السمعاني: «هذا نص ثابت تلقته الأمة بالقبول». قواطع الأدلة (٢/ ٩٤). وقال الخطيب البغدادي: «لما تلقته الكافة عن الكافة غنوا بصحته عندهم عن طلب الإسناد له» الفقيه والمتفقه =

فليس معنى هذا الحديث القول بالرأي المحض الذي لا تدل عليه عمومات النصوص ومعانيها ومقاصدها، فإن هذا من القول على الله بغير علم، وإنما المقصود الرد إلى قواعد الشريعة العامة ومعانيها، وذلك لإحاطتها وشمولها للبيان، كما قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

قال الحافظ ابن عبد البر رحمه الله (ت: ٤٦٣هـ)[١] : «إن الاجتهاد لا يكون إلا على أصول يُضاف إليها التحليل والتحريم، وأنه لا يجتهد إلا عالم بها، ومن أُشكل عليه شيء لزمه الوقوف ولم يجز له أن يحيل على الله قولاً في دينه لا نظير له من أصل، ولا هو في معنى أصل، **وهذا الذي لا خلاف فيه بين أئمة الأمصار قديماً وحديثاً**».

وقال الحافظ البغوي رحمه الله (ت: ٥١٦هـ)[٢] : «قوله: [أجتهد

= (١/١٨٩ - ١٨٠)، وقال أبو الوليد الباجي: «تلقته الأئمة والعلماء في سائر الأعصار بالقبول والعمل بموجبه» إحكام الفصول ص ٥٨٠، وقال أبو الخطاب الكلوذاني: «تلقته الأمة بالقبول». التمهيد (٣/٩٤ - ١٩٥). وقال ابن قدامة: «تلقته الأمة بالقبول». روضة الناظر ص ٢٥٦، وقال أبو بكر ابن العربي: «والدين القول بصحته»، عارضة الأحوذي (٦/٧٢). وقال القاضي أبو يعلى: «هو خبر صحيح». العدة (٤/١٢٩٢)، وحسنه الذهبي في تلخيص العلل المتناهية ص ٢٦٩، وجوده شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (١٣/٣٦٤)، وكذلك ابن كثير في مقدمة تفسيره (١/٣).

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/٨٤٨).

(٢) شرح السنة (١٠/١١٧).

رأيي]، لم يُرد به الرأي الذي يسنح له من قبل نفسه، أو يخطر بباله على غير أصل من كتاب أو سنة، بل أراد به ردّ القضية إلى معنى الكتاب والسنة من طريق القياس».

فأئمة الهدى كلهم يُحذّرون من القول في كتاب الله بالرأي والجهل، وأما ما يُنقل عن السلف كمجاهد وقتادة فهو مما توارثوا علمه عن الصحابة، فقد عرض مجاهد المصحف على ابن عباس رضي الله عنهما يسأله عن آية آية، وقال قتادة رحمه الله[1] : «ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً»، فتفسير السلف مسموع عن السابقين على المعهود من معاني الشرع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2] : «وأما الذي روي عن مجاهد وقتادة وغيرهما من أهل العلم أنهم فسروا القرآن فليس الظن بهم أنهم قالوا في القرآن وفسروه بغير علم أو من قبل أنفسهم، وقد روي عنهم ما يدل على ما قلنا أنهم لم يقولوا من قبل أنفسهم بغير علم، فمن قال في القرآن برأيه فقد تكلّف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر؛ لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ، والله أعلم».

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/٢٧١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٣٧١).

والقول بالرأي يتغلظ بحسب نوعه، فقد يتضاعف جرمه لتعدد جناية صاحب الرأي على النص، فهو أنواع:

الأول: تفسير النص ببادئ الرأي الذي يظنه المتكلم بدون تحقق من صوابه أنه معنى الآية، فهذا أنواع:

أ - أن يكون من جاهل، فهذا هو القول على الله بغير علم، قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف: ٣٣].

ب - أن يكون من عالم، عنده آلة العلم، فهذا له حالان:

الحال الأولى: أن يوافق الحق، فهذا داخل في عموم قول النبي ﷺ: «**من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ**»[(١)] .

قال الحافظ ابن كثير رحمه (ت: ٧٧٤هـ)[(٢)] : «لأنه قد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أُمر به، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين

(١) رواه أبو داود كتاب العلم باب الكلام في كتاب الله بلا علم (ص ٥٢٤ - رقم ٣٦٥٢)، والترمذي كتاب تفسير القرآن باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه (ص ٦٦٣ - رقم ٢٩٥٢) من حديث جندب بن عبدالله رضي الله عنه، والنسائي في السنن الكبرى (٢/١٢٥٤ - رقم ٨٠٣٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/١١).

الناس على جهل فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر، لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ».

الحال الثانية: أن لا يوافق الحق، فهذا مقدار ما يلحقه من الإثم تحديده عسر يخف ويتغلظ بمقدار ما بذل فيه الوسع لموافقة الحق وإتيان الأمر من بابه.

أما النوع الثاني، فهو أغلظها، وهو أن ينشئ صاحب الهوى للآية تأويلاً يدّعي أنه هو معنى الآية، قال ابن القيم رحمه الله (ت:٧٥١هـ)[١] : «وكثير من هؤلاء يُنشئ للّفظ معنى، ثم يدّعي إرادة ذلك المعنى بلفظ النص، من غير نظر منه إلى استعمال ذلك اللفظ في المعنى الذي عَيَّنه، أو احتمال اللغة له. ومعلوم أن هذا يتضمن الشهادة على الله تعالى ورسوله ﷺ بأن مراده من كلامه كيت وكيت، فإن لم يكن ذلك معلوماً بوضع اللفظ لذلك المعنى، أو عُرْفِ الشارع ﷺ، أو عادته المطردة أو الغالبة باستعمال ذلك اللفظ في هذا المعنى، أو تفسيره له به، وإلا كانت شهادة باطلة، وأدنى أحوالها أن تكون شهادة بلا علم».

وقال ابن الأنباري رحمه الله[٢] : «حمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأي معنيٌّ به الهوى؛ من قال في القرآن قولاً

---

(١) الوابل الصيب ص ٦٢ – ٦٣.

(٢) الفقيه والمتفقه (١/ ٢٠٠).

يوافق هواه، لم يأخذه عن أئمة السلف، فأصاب فقد أخطأ، لحُكمه على القرآن بما لا يُعرف أصله، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيه».

وبيّن أبو عبدالله القرطبي رحمه الله أن النهي عن القول في القرآن بالرأي محمول على أمرين:

الأول: أن يكون له في الشيء رأي، وإليه ميل من طبعه وهواه؛ فيتأوّل القرآن على وفق رأيه وهواه، ليحتج على تصحيح غرضه.

الثاني: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير؛ فمن لم يُحكِم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل في زمرة من فسَّر القرآن بالرأي[1] .

فواضح أن من جملة التفسير بالرأي وهو من أسباب الغلط تفسير اللفظ بمجرد ما يفهمه الشخص من لغة العرب مقطوعاً عن بيان الشارع، وما توارثه حملة الشريعة من الصحابة والتابعين.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٤).

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله[1] : «فإن النبي ﷺ قد يتكلم بكلام من كلام العرب يستعمله في معنى هو أخص من استعمال العرب أو أعمُّ منه، ويتلقى ذلك عنه حملة شريعته من الصحابة، ثم يتلقاه عنهم التابعون، ويتلقاه عنهم أئمة العلماء؛ فلا يجوز تفسير ما ورد في الحديث المرفوع إلا بما قاله هؤلاء أئمة العلماء الذين تلقوا العلم عمن قبلهم، **ولا يجوز الإعراض عن ذلك والاعتماد على تفسير من يفسِّرُ ذلك اللفظ بمجرد ما يفهمه من لغة العرب.**

وهذا أمر مهم جداً، ومن أهمله وقع في تحريف كثير من نصوص السُّنَّة[2] ، وحملها على غير محاملها».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مبيناً الجهة التي دخل فيها الزلل في التفسير ومعاني القرآن[3] : «إحداهما: قوم اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها، والثانية: قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب، من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن، والمنزل عليه والمخاطب به.

---

(١) فتح الباري (٢/٣٩٩).

(٢) وكذلك القرآن.

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/٣٥٥ - ٣٥٧).

فالأولون راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان.

والآخرون راعوا مجرد اللفظ، وما يجوز عندهم أن يريد به العربي، من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به ولسياق الكلام. ثم هؤلاء كثيراً ما يغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة، كما يغلط في ذلك الذين قبلهم، كما أن الأولين كثيراً ما يغلطون في صحة المعنى الذي فسروا به القرآن، كما يغلط في ذلك الآخرون، وإن كان نظر الأولين إلى المعنى أسبق، ونظر الآخرين إلى اللفظ أسبق.

والأولون «صنفان»: تارة يسلبون لفظ القرآن ما دلَّ عليه وأُريد به، وتارة يحملونه على ما لم يدل عليه ولم يرد به، وفي كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنى باطلاً، فيكون خطؤهم في الدليل والمدلول، وقد يكون حقاً فيكون خطؤهم في الدليل لا في المدلول.

وهذا كما أنه وقع في تفسير القرآن، فإنه وقع أيضاً في تفسير الحديث، فالذين أخطأوا في الدليل والمدلول - مثل طوائف من أهل البدع - اعتقدوا مذهباً يخالف الحق الذي عليه الأمة الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة، كسلف الأمة وأئمتها، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم، تارة يستدلون بآيات على مذهبهم ولا

دلالة فيها، وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يُحرّفون به الكلم عن مواضعه، ومن هؤلاء فرق الخوارج، والروافض، والجهمية، والمعتزلة، والقدرية، والمرجئة، وغيرهم.

وهذا كالمعتزلة مثلاً فإنهم من أعظم الناس كلاماً وجدالاً، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم؛ مثل تفسير عبدالرحمن ابن كيسان الأصم، شيخ إبراهيم بن إسماعيل بن علية الذي كان يناظر الشافعي، ومثل كتاب أبي علي الجبائي، والتفسير الكبير للقاضي عبدالجبار بن أحمد الهمداني، ولعلي بن عيسى الرماني، والكشاف لأبي القاسم الزمخشري، فهؤلاء وأمثالهم اعتقدوا مذاهب المعتزلة».

إلى أن قال[1] : «**والمقصود أن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه**، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم، وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة، وذلك من جهتين: تارة من العلم بفساد قولهم، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن، إما دليلاً على قولهم أو جواباً على المعارض لهم.

ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحاً، ويدس البدع في كلامه، وأكثر الناس لا يعلمون كصاحب الكشاف ونحوه، حتى إنه

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ٣٥ – ٣٧.

يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله.

وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر في كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التي يعلم أو يعتقد فسادها ولا يهتدي لذلك.

ثم إنه لسبب تطرف هؤلاء وضلالهم دخلت الرافضة الإمامية، ثم الفلاسفة، ثم القرامطة وغيرهم فيما هو أبلغ من ذلك، وتفاقم الأمر في الفلاسفة والقرامطة والرافضة، فإنهم فسروا القرآن بأنواع لا يقضي العالم منها عجبه، فتفسير الرافضة كقولهم: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، هما أبو بكر وعمر، و﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، أي بين أبي بكر وعلي رضي الله عنهما في الخلافة، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]، هي عائشة رضي الله عنها، و﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٢]، طلحة والزبير رضي الله عنهما، و﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٩]، علي وفاطمة رضي الله عنهما، و﴿ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، الحسن والحسين، ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، في علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١ - ٢]، علي بن أبي طالب رضي الله عنه، و﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]، هو

علي رضي الله عنه، ويذكرون الحديث الموضوع بإجماع أهل العلم وهو تصدق بخاتمه في الصلاة، وكذلك قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة: ١٥٧]، نزلت في علي رضي الله عنه لما أصيب بحمزة.

ومما يقارب هذا من بعض الوجوه ما يذكره كثير من المفسرين في مثل قوله: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: ١٧]، أن الصابرين رسول الله، والصادقين أبو بكر رضي الله عنه ، والقانتين عمر رضي الله عنه ، والمنفقين عثمان رضي الله عنه ، والمستغفرين علي رضي الله عنه، وفي مثله قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾، أبو بكر رضي الله عنه، ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾، عمر رضي الله عنه، ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾، عثمان رضي الله عنه، ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ [الفتح: ٢٩]، علي رضي الله عنه.

وأعجب من ذلك قول بعضهم: ﴿وَٱلتِّينِ﴾، أبو بكر رضي الله عنه، ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾، عمر رضي الله عنه، ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾، عثمان رضي الله عنه، ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾، علي رضي الله عنه، وأمثال هذه الخرافات التي تتضمن تارة تفسير اللفظ بما لا يدل عليه بحال، فإن هذه الألفاظ لا تدل على هؤلاء الأشخاص، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ [الفتح: ٢٩]، كل ذلك نعت للذين معه، وهي التي يسميها النحاة خبراً بعد خبر.

والمقصود هنا أنها كلها صفات لموصوف واحد وهم الذين معه، ولا يجوز أن يكون كل منها مراداً به شخص واحد، وتتضمن تارة جعل اللفظ المطلق العام منحصراً في شخص واحد كقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المائدة: ٥٥]، أُريد بها علي رضي الله عنه وحده، وقول بعضهم: أن قوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٣]، أُريد بها أبو بكر رضي الله عنه وحده، وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ [الحديد: ١٠]، أُريد بها أبو بكر رضي الله عنه وحده، ونحو ذلك».

* * *



ثانياً: أسباب وقوع الخطأ في التفسير مفصلاً

بعد أن ذكرنا أسباب وقوع الخطأ في التفسير بصفة مجملة، لا بد هنا من الإشارة إلى الأسباب التفصيلية لأخطاء المفسرين وكتب التفسير أنواع، منها ما يجمع كل ما قيل في تفسير الآية، ويخلط المعاني الصحيحة بالفاسدة دون أن ينبه إلى الصواب من الخطأ، ومنهم من ينبه.

ومن كتب التفسير ما هو نقي لا يذكر إلا الصحيح من أقوال المفسرين كتفسير الطبري وابن كثير والبغوي والشنقيطي والعثيمين وابن سعدي رحمهم الله، وما يذكرونه أحياناً من الأقوال الضعيفة إنما هو من باب التحذير منها لاشتهارها في كتب المفسرين.

ومن الأسباب الأخرى لوقوع الخطأ في التفسير غير الأسباب المجملة، ما يلي:

(١) توارد المفسرين في نقل خطأ من تقدمهم دون تمحيص:

قال الحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي في شأن ما تداوله المفسرون في قصة زواج النبي ﷺ من زينب رضي الله عنها: «وقد تسامح المفسرون هنا، وتبع آخرهم أولهم في نقل ما كان الواجب تركه»[1].

---

(١) ملاك التأويل (٢/٩٥١).

وقال الشوكاني رحمه الله[1]: «كثيراً ما يقع لأهل العلم الوهم الباطل، ثم يبني عليه ما هو أبطل منه، وينقله عنه من يهاب الرد عليه، فيحرر في كتب التفسير ونحوها من زائف الأقوال، وباطل الآراء، ما يضحك منه تارة، ويُبكى منه أخرى».

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله (ت: ١٣٧٦هـ)[2]: «وهذه التفاسير التي توجد وتشتهر بها أقوال لا يُعرف غيرها، تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجردة، ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة، وتطبيقها على الأقوال ثم لا تزال تتناقل، وينقلها المتأخر مسلماً للمتقدم، حتى يظن أنها الحق، فيقع من الأقوال الردية في التفاسير ما يقع».

(٢) البدع والذنوب:

قال تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩]، قال ابن القيم رحمه الله[3]: «دلّت الآية – بإشارتها وإيمائها – على أنه لا يُدْرِك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلوب الملوّثة بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه، وأن يفهمه كما ينبغي.

---

(١) النّشر الفوائد سورة العصر ص ٧٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٠٣.

(٣) التبيان في أيمان القرآن ص ٣٤٠ - ٣٤٢.

قال البخاري في «صحيحه» في هذه الآية: «لا يجد طعمه إلا من آمن به».

وهذا أيضاً من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذُّ به وبقراءته وفهمه وتدبُّره إلا من شهد أنه كلام الله، تكلَّم به حقاً، وأنزله على رسوله وحياً، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرجٌ منه بوجه من الوجوه.

فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففي قلبه منه أعظم حرج، ومن لم يؤمن بأن الله سبحانه تكلَّم به حقاً، وليس مخلوقاً من جملة مخلوقاته، ففي قلبه منه حرج.

ومن قال: إن له تأويلاً لا نفهمه، ولا نعلمه، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه، ففي قلبه حرج منه.

ومن سلَّط عليه آراء الآرائيين، وهذيان المتكلمين، وسفسطة المتسفسطين، وخيالات المتصوِّفين، ففي قلبه منه حرج.

ومن جعله تابعاً لنحلته ومذهبه، وقول من قلَّده دينه، يُنزِّلُه على أقواله، ويتكلَّف حمله عليها، ففي قلبه منه حرج.

ومن لم يُحكِّمه ظاهراً وباطناً في أصول الدين وفروعه، ويُسلِّم وينقاد لحكمه أياً كان، ففي قلبه منه حرج.

ومن لم يأتمر بأوامره، وينزجر عن زواجره، ويُصدِّق جميع أخباره، ويُحكِّم أمره ونهيه وخبره، ويَرُدَّ له كلَّ أمر ونهي وخبر خالفه، ففي قلبه منه حرج.

وكل هؤلاء لا تمسُّ قلوبهم معانيه، ولا يفهمونه كما ينبغي أن يُفهم، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم.

وأنت إذا تأملت قوله تعالى ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩]، وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ، وإيمائه، وإشارته، وتنبيهه، وقياس الشيء على نظيره، واعتباره بمُشَاكِلِه، وتأملت المشابهة التي عقدها الله سبحانه وربطها بين الظاهر والباطن فهمت هذه المعاني كلها من الآية».

(٣) هجوم المفسر إلى النصوص، وله فيها هوى:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[١]: «روى إبراهيم ابن يعقوب الجوزجاني وقد ذكره الطلمكني - حدثنا يزيد بن عبد ربه ثنا بقية ثنا عتبة بن أبي حكيم ثني عمارة بن راشد الكناني عن زياد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: يقرأ القرآن رجلان: فرجل له فيه هوى ونية، يفليه فلي الرأس، يلتمس أن يجد فيه أمراً يخرج به على الناس أولئك شرار أمتهم، أولئك يعمي الله عليهم سبل الهدى، ورجل يقرؤه ليس فيه هوى ولا نية يفليه فلي الرأس فما تبين له منه عمل به، وما اشتبه عليه وكله إلى الله، ليتفقهن فيه فقهاً ما فقهه قوم قط، حتى لو أن أحدهم مكث عشرين سنة، فليبعثن الله له من يبين له الآية التي أشكلت عليه، أو يفهمه إياها من قبل نفسه.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٩٤ - ٣٩٥).

قال بقية: أشهدني ابن عيينة حديث عتبة هذا.

فهذا معاذ يذم من اتبع المتشابه لقصد الفتنة، وأما من قصده الفقه فقد أخبر أن الله لابد أن يفقهه بفهمه المتشابه فقهاً ما فقهه قوم قط، قالوا: والدليل على ذلك أن الصحابة كانوا إذا عرض لأحدهم شبهة في آية أو حديث سأل عن ذلك، كما سأله عمر رضي الله عنه، فقال: ألم تكن تحدثنا أنّا نأتي البيت ونطوف به؟ وسأله أيضاً عمر رضي الله عنه: ما بالنا نقصر الصلاة، وقد أمنا؟ ولما نزل قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شق عليهم، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه حتى بيّن لهم، ولما نزل قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، شق عليهم حتى بيّن لهم الحكمة في ذلك، ولما قال النبي ﷺ: «**من نوقش الحساب عُذب**»، قالت عائشة رضي الله عنها: «ألم يقل الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧ - ٨] ؟ قال: إنما ذلك العرض».

(٤) انصراف الهمة لإقامة الحروف دون معرفة معانيه:

فالبعض حظه من القرآن إقامة حروفه لا يعير المعاني اهتمامه، حتى إنه يمر بآيات عظيمة المعاني لا ترى لها أثراً فيه، ولا وعظاً ولا خبراً ولا حكماً.

وهذا سببه ضعف الهمة وضعف الإيمان، وإلا فالمقصود الأعظم هو تدبر القرآن والعمل به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظ، فالقرآن أولى بذلك».

وقال ابن القيم رحمه الله[2]: «وتعلم القرآن وتعليمه يتناول تعلم حروفه وتعليمها وتعلم معانيه وتعليمها، وهو أشرف قسمي علمه وتعليمه، فإن المعنى هو المقصود واللفظ وسيلة إليه، فلعلم المعنى وتعليمه تعلم الغاية وتعليمها، وتعلم اللفظ المجرد وتعليمه تعلم الوسائل وتعليمها، وبينهما كما بين الغايات والوسائل».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[3]: «... ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن، إما بالوسوسة في خروج حروفه، وترقيقها، وتفخيمها، وإمالتها، والنطق بالمد الطويل، والقصير، والمتوسط، وغير ذلك. فإن هذا حائل للقلوب قاطع لها عن فهم مراد الرب من كلامه، وكذلك شغل النطق بـ ﴿أأنذرتهم﴾، وضم الميم من ﴿عليهم﴾ ووصلها بالواو، وكسر الهاء أو ضمها ونحو ذلك، وكذلك مراعاة النغم، وتحسين الصوت.

وكذلك تتبع وجوه الإعراب واستخراج التأويلات المستكرهة، التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٢).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٧٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٠ – ٥١).

وكـذلك صـرف الـذهن إلـى حكايـة أقـوال النـاس، ونتـائج أفكارهم».

وقال العلامة محمد جمال الدين القاسمي رحمه الله مبيناً أحـوال الناس بالنسبة لمعرفة معاني القرآن[1]: «أين من يفقه هذا ممن يقـف مع ألفاظها وهم عن آياتها معرضون؟ ولا عجب فإن نفوس الأسـافل تأخذ الحكمة فترجعها من أفق سمائها إلى أرض ضعتها، كما يـصير الماء في شجرة الحنظل مُرّاً. فيقـصدها هـذا للنغمـات، وذلـك لقـصة بـسيطة، وآخـر تـسلية وتـضييعاً للـزمن، وآخـر يقـف عنـد الألفـاظ وإعرابها وصرفها وبلاغتها، ولكن هذا أرقى مما قبله - فقد سار في الطريق وهي الألفاظ، ولكن هيهات أن يصل للمقصود والثمرات إلا إذا أعدَّ تلك القواعد مقدمة للمقصود وبحث فيه!

وآخرون يسمعون الآيات فيعرضونها على التاريخ، والمؤرخـون مختلفون كما قدمنا.

وما مثل هـؤلاء في سيرهم إلا كمثل رجل أوتـي آلـة بخاريـة ليسقي بها الحرث من النهر، فجلس بجانبها وترك استعمالها، وأخذ يتفكر: مـن أيـن هـذا الحديـد؟ ولـم يجلـب المـاء؟ وإلـى أي مـسافة يرتفع؟ ومـا العلـة فيـه؟ ومـن أيـن يـأتي الفحـم الحجـري، وفـي أي الطريق يسير إلى أن يصل إلينا؟

فيمر عليه شهر وشهران فيذبل زرعه وتبور أرضه!

---

(١) محاسن التأويل (٩/ ٣٦٣١).

ذلك مثل من يقرأ القرآن ويجعل جل عنايته تطبيقه على كلام المؤرخين أو قواعد النحويين أو الصرفيين وعلماء البلاغة فحسب!

اللهم إلا قدراً يسيراً للفهم! وهذا - لعمر الله - انتكاس على الرأس، واتخاذ الوسيلة مقصداً، كمثل من أراد الحج فجعل همته إعداد الذخائر سنين، فاختطفته المنون، وفارق الحياة، ولم يحج! ذلك مثلهم».

(٥) تفسير القرآن بالنظرة العجلى:

صحيح إن ابن عباس رضي الله عنهما قال[١]: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله».

لكن ألسنة الناس اليوم أصابتها العجمة، فهذا مما يوجب عدم المجازفة بحمل معاني القرآن على أول معنى ينقدح في الذهن دون طلب تفسير السابقين الأولين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٢]: «انقسمت بلاد العرب قسمين: منها ما غلب على أهله لسان العرب حتى لا يعرف عامتهم غيره، أو يعرفونه وغيره، مع ما دخل في لسان العرب من اللحن، وهذه غالب مساكن الشام، والعراق، ومصر، والأندلس، ونحو ذلك، وأظن أرض فارس وخراسان كانت هكذا قديماً».

---

(١) تفسير القرآن لابن كثير (١/ ١٤).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٥٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «فلما طال الزمان خفي على كثير من الناس ما كان ظاهراً لهم، ودق على كثير من الناس ما كان جلياً لهم، فكثر من المتأخرين مخالفة الكتاب والسنة ما لم يكن مثل هذا في السلف».

وقال والدنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[2]: «فبعض الناس يأخذ القرآن والحديث يفسره بحسب ما يقتضيه ذلك اللفظ الظاهر بقطع النظر عن المتكلم به والمخاطب والمنزل عليه وقرائن الأحوال، وهذا خطأ».

وقال ابن القيم رحمه الله[3]: «وكثير من هؤلاء يُنْشيء للفظ معنى، ثم يدَّعي إرادة ذلك المعنى بلفظ النص، من غير نظر منه إلى استعمال ذلك اللفظ في المعنى الذي عَيَّنه، أو احتمال اللغة له.

ومعلوم أن هذا يتضمن الشهادة على الله تعالى ورسوله ﷺ بأن مراده من كلامه كيت وكيت، فإن لم يكن ذلك معلوماً بوضع اللفظ لذلك المعنى، أو عُرْف الشارع ﷺ، أو عادته المطردة أو الغالبة باستعمال ذلك اللفظ في هذا المعنى، أو تفسيره له به، وإلا كانت شهادة باطلة، وأدنى أحوالها أن تكون شهادة بلا علم».

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٦٥).
(٢) شرح مقدمة التفسير لابن تيمية ص ٩٦.
(٣) الوابل الصيب ص ٦٢ – ٦٣.

وقال العلامة محمود الطناحي رحمه الله[1]: «إن بعض خطباء الجمعة في زمننا، وكذلك بعض المتحدثين في إذاعة القرآن الكريم يتساهلون كثيراً، ويجترئون على تفسير كلام الله عز وجل، بما تميله عليهم النظرة العجلى، وكثيراً ما ينساقون وراء خداع الألفاظ، وتوجيه المعاني وفق ما هو متعارف بين الناس الآن من الدلالات الخاطئة».

قال جبير بن نفير رحمه الله: كنت في حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ، وإني لأصغرُ القوم، فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقلت أنا: أليس الله يقول في كتابه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة: ١٠٥]. فأقبلوا عليَّ بلسان واحد، وقالوا: أتنزع آيةً من القرآن لا تعرفها، ولا تدري ما تأويلها؟ حتى تمنَّيت أني لم أكن تكلَّمتُ، ثم أقبلوا يتحدثون، فلما حضر قيامهم، قالوا: إنك غلام حدَثُ السنِّ، وإنك نزعتَ بآية لا تدري ما هي، وعسى أن تدرك ذلك الزمان، إذا رأيت شُحّاً مطاعا، وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه، فعليك بنفسك، لا يضرُّك من ضلَّ إذا اهتديت[2].

وقد بيّن الطبري رحمه الله أن المعنى الظاهر بأول نظرة غير مقصود حيث قال[3]: «ولو كان للناس تركُ ذلك لم يكنْ للأمر به

(١) مقالات العلامة محمود الطناحي (٢/٦٣٧).

(٢) جامع البيان(٩/٤٦).

(٣) جامع البيان (٩/٥٤ – ٥٥).

معنىً إلا في الحال التي رخَّص فيه رسول الله ﷺ ترك ذلك، وهي حال العجز عن القيام به بالجوارح الظاهرة، فيكون مرخَّصاً له تركه، إذا قام حينئذ بأداء فرض الله عليه في ذلك بقلبه».

ولهذا كان الصحابة ينبهون إلى المعاني المقصودة حيث يوجد في اللفظ ما قد يتوهم غير المعنى المقصود، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، قال البراء رضي الله عنه: «تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية»[١].

قال أبو جعفر النحاس رحمه الله[٢]: «فمن الناس من يتوهم أنه يُعْنى بهذا فتح مكة وذلك غلط، والذي عليه الصحابة والتابعون غيره، حتى كأنه إجماع».

وقال ابن شهاب رحمه الله[٣]: «لم يكن في الإسلام فتح أعظم منه، كانت الحرب قد حجزت بين الناس، فلا يتكلم أحد، وإنما كان القتال، فلما كانت الحديبية والصلح وضعت الحرب، وأمن الناس فتلاقوا، فلم يُكلم أحد بعَقْد الإسلام إلا دخل فيه، فلقد دخل فيه تلك السنين مثل من كان قبل ذلك أو أكثر».

---

(١) رواه البخاري (رقم ٤١٥٠).
(٢) الناسخ والمنسوخ (١٤/٣).
(٣) الناسخ والمنسوخ (١٧/٣).

قال أبو جعفر النحاس: وهذا قول حسن بيِّن[1].

وقد وقعت جنايات عظيمة في التفسير لترك الذهن يذهب في أوهام أول معنى يمليه الخاطر دون إمعان النظر وطلب تفسير أهل التحقيق.

مثال: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2]: «ومن قال من الجهال: إن «نصوح» اسم رجل كان على عهد النبي ﷺ أمر الناس أن يتوبوا كتوبته: فهذا رجل مفتر كذاب، جاهل بالحديث والتفسير، جاهل باللغة ومعاني القرآن؛ فإن هذا امرؤ لم يخلقه الله تعالى، ولا كان في المتقدمين أحد اسمه «نصوح»، ولا ذكر هذه القصة أحد من أهل العلم، ولو كان كما زعم الجاهل لقيل: توبوا إلى الله توبة نصوح، وإنما قال: «توبة نصوحا»، والنصوح هو التائب».

ولذلك انتبه لمعاني الألفاظ، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ [النجم: ٤٩]، فبالسماع لا ينصرف ذهنك إلى الشعر المنظوم، بل هو كوكب، قال العلامة أبو المظفر السمعاني رحمه الله[3]: «في التفسير: أنه كان رجل من خزاعة خالف دين آبائه وعبد الشعر العَبُور، وهو

---

(١) الناسخ والمنسوخ (٣/١٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/٥٩).

(٣) تفسير القرآن (٥/٣٠٢).

كوكب خلف الجوزاء تسمى المرزم، وهما الشعريان: إحداهما: الغميصاء، والأخرى العبور، فالغميصاء في المجرة، والعبور خلف الجوزاء، وتُسمى كلب الجوزاء، وكان ذلك الرجل يعبد الشعرى، ويقول: إنها تقطع الفلك عرضاً دون سائر الكواكب، فإنها تقطع أطوالاً، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وذكر أنه خالق الشعرى التي تعبدونها، وعن بعضهم: أنها الزهرة، وهذا مخالف لظاهر الآية».

وكذلك قوله تعالى عن الكافرين: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، فلا ينصرف ذهنك إلى المعنى المتداول عند العامة لـ «قطنا»، فهذا ليس من معهود لغة القرآن، إنما المراد به العذاب الذي توعدتهم به رسلهم يستعجلونه[1].

وهنا سؤال يفرض نفسه، هل «النعجة» في قصة الخصمين مع داود عليه السلام على الحقيقة أم هو مثل ضُرب للمرأة؟!!

قال تعالى ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢١ - ٢٣].

---

(١) تفسير سورة «ص» لشيخنا العثيمين رحمه الله ص ٧٧.

فعامة المفسرين خصوصاً اللغويين يذكرون أنه أريد به المرأة، قال العلامة عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١ هـ)[١]: « ﴿نَعْجَةً﴾، وهي الأنثى من الضأن والبقر، أو البقر الوحش، والشاة الحبلى، وجمعها نعاج، وهذا مثل ضرباه للنساء».

وقال ابن عطية الأندلسي رحمه الله (ت: ٥٤٦هـ) [٢]: «النعجة في هذه الآية، عبر بها عن المرأة، والنعجة في كلام العرب تقع على أنثى بقر الوحش، وعلى أنثى الضأن، وتعبر العرب بها عن المرأة، وكذلك بالشاة، قال الأعشى:

فرميت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالها

أراد عن امرأته، وفي قراءة ابن مسعود: وتسعون نعجة أنثى».

وشيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله اعترض على ذلك، وقال[٣]: «الأصل أن النعجة أنثى الغنم، أنثى الشياه وليست هي المرأة، فإذا كان هذا هو الأصل فمن ادّعى أن المراد بالنعجة هنا المرأة فعليه الدليل، لأن كل من ادّعى خلاف الأصل فعليه الدليل، فالنعجة ليست هي المرأة، في هذه الآية، بل هي واحدة الضأن».

(١) دَرْجُ الدُّرَر في تفسير الآي والسور (٤/ ٤٨٠).

(٢) المحرر الوجيز (١٤/ ٢٣).

(٣) تفسير سورة «صٓ» ص ١٠٤.

(٦) توهم ما يشبه مدلول الآية أنه تعيين المراد:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «وبعض الناس فسر (ذات العماد) بدمشق لما فيها من العمد، ومعلوم أن هذا باطل، فإن عاداً لم يكونوا بالشام، بل باليمن، وهوداً إنما أرسل إليهم، فقد قال تعالى: ﴿بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٦ - ٧]، قد نقلوا هذا في كتب التفسير عن عكرمة، وابن المسيب، وعن القرطبي أنها: الإسكندرية، فإنها كثيرة العمد - أيضاً - فهذا قد اشتبه على طائفة من العلماء مع أنه من الآيات المحكمات، فإنه - تعالى - قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٦ - ٧]، وقد ذكر الله - تعالى - عاداً في موضع آخر، وأنه أرسل إليهم هوداً، وأنه أنذر قومه بالأحقاف، أحقاف الرمل، وهذا كله مما عُلم بالتواتر أنه كان باليمن، وقد صار مثل هذا يجعل أحد الأقوال في تفسير الآية، مع أن الذين قالوه من علماء السلف، قد يكونون (أرادوا التمثيل)، وأن دمشق، والإسكندرية ذات عماد ليعرف (معنى) ذات العماد، وإلا فلا يخفى على أدنى طلبة العلم أن عاداً كانوا باليمن، وهذا كما روي عن حفصة في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢]، أنها المدينة، وهي جعلت المعنى موجوداً فيها، وكذلك قالت طائفة من

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٨/٣٥٩ - ٣٦٢).

العلماء في قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ [الأحقاف: ١٠]، ونحو ذلك أنه عبدالله بن سلام، أو هو، ونحوه ممن أسلم بالمدينة، وهذا مما أحكمه الله، فإن هذه الآية نزلت بمكة قبل أن يُعرف ابن سلام فضلاً عن أن يسلم، ولأنه قال على مثله، وأراد شهادة أهل الكتاب على مثل القرآن، وهو شهادتهم بما تواتر عنهم، من أن الرسل كانوا رجالاً، وأنهم دعوا إلى التوحيد، وأخبروا بالمعاد، فإن المشركين كانوا ينازعون في هذا وهذا وأهل الكتاب ينقلون بالتواتر عن الرسل المتقدمين ما يصدق محمداً ويكذب المشركين».

(٧) تفسير ألفاظ القرآن بغير معانيه المعهودة في القرآن:

قال ابن القيم رحمه الله[1]: «وينبغي أن يتفطن ها هنا لأمر لابد منه، وهو أنه لا يجوز أن يحمل كلام الله عز وجل ويفسر بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام ويكون الكلام به له معنى ما، فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن، فإنهم يفسرون الآية ويعربونها بما يحتمله تركيب تلك الجملة ويفهم من ذلك التركيب أي معنى اتفق، وهذا غلط عظيم يقطع السامع بأن مراد القرآن غيره، وإن احتمل ذلك التركيب هذا المعنى في سياق آخر وكلام آخر، فإنه لا يلزم أن يحتمله القرآن، مثل قول

(١) بدائع التفسير (٢/٢٤٨ – ٢٤٩).

بعضهم في قراءة من قرأ ﴿وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١]، بالجر: إنه قسم. ومثل قول بعضهم في قوله تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، أن المسجد مجرور بالعطف على الضمير المجرور في به، ومثل قول بعضهم في قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ [النساء: ١٦٢]، أن المقيمين مجرور بواو القسم.

ونظائر ذلك أضعاف أضعاف ما ذكرنا وأوهى بكثير، **بل للقرآن عرف خاص ومعان معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها ولا يجوز تفسيره بغير عرفه والمعهود من معانيه فإن نسبة معانيه إلى المعاني كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ بل أعظم، فكما أن ألفاظه ملوك الألفاظ وأجلها وأفصحها ولها من الفصاحة أعلى مراتبها التي يعجز عنها قدر العالمين، فكذلك معانيه أجل المعاني وأعظمها وأفخمها، فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي لا تليق به**، فلا يجوز حمله على المعاني القاصرة بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي.

فتدبّر هذه القاعدة ولتكن منك على بال فإنك تنتفع بها في معرفة ضعف كثير من أقوال المفسرين وزيفها، وتقطع أنها ليست مراد المتكلم تعالى بكلامه».

مثال: قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة: ٤]، فإنه يُنسب إلى بعض أهل الظاهر أنه ذهب إلى قصر إباحة الصيد

بالكلاب فقط، قال الحافظ محمد بن علي الكرجي رحمه الله مبيناً كيف دخل عليه الوهم[1]: «وهذا قول يستغني سامعه بقبحه عن استماع نقضه، ودال على تزييف قول هذا الرجل دون سائر ما حكي عنه، فإن من خفي عليه أن قوله: (مُكَلِّبين) هو من نعت المعلمين لا من نعت الجوارح جدير أن لا يعد في عداد العلماء والمميزين من الفهماء.

والقرآن فيه اختصار شديد فكأنه - والله أعلم - وما علمتم من الجوارح مكلبين لها، ولو لم يدل عليه إلاّ كسر اللام لوجب أن يعلم أنهم متخذوها ضارية بالتعليم لها لتكلب على الصيد لا أنهم جاعلوها كلاباً، وقد خلقها الله كذلك، وسميت كلاّبا قبل تعليمهم، مع أن مكلبين لو كانت مفتوحة اللام أيضاً ما جاز أن نخص بها الكلاب دون سائر الجوارح، إذ جميعها يستكلب على الصيد استكلاباً واحداً، وإن كان بعضها أقوى عليه من بعض.

والاستكلاب في لغة العرب: التوثب على الشيء والتسرع إليه، فهو واقع على كل من كان هذا منه.

ألا ترى أن رسول الله ﷺ أباح للمحرم قتل الكلب العقور؟ فهل يجوز لأحد أن يقول: إن المحرم محظور عليه قتل الأسد، والدب، والذئب، والنمر وأشباه ذلك؟ لأن قول رسول الله ﷺ لا يقع إلا على الكلاب المنفردة بهذا الاسم دون من يستحقه من السباع بما فيه من

(١) نكت القرآن الدالة على البيان (١/ ٢٩٥ - ٢٩٩).

معنى الاستكلاب، ويقولون: استكلب فلان على كذا إذا أكثر فعله ولم ينكر عليه، ولم يزل الناس من لدن رسول الله ﷺ إلى اليوم في الشرق والغرب يعلّمون الفهودة، والصقورة، والبزاة، والشواهين، والبواشق، وغيرها ويصيدون بها، علماً منهم بأنها مستكلبة على ما ترسل عليه من أنواع الصيد لا ينكره منكر ولا يعيبه عائب ولا ينهى عنه عالم إلا شيء ذكر عن طاووس، ما أحسبه ثبت عنه، والإجماع عند هذا الرجل من أكبر الحجج.

وذكر غير واحد في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله: إنا نصيد بهذه الكلاب والطير؟

وسألت النبي ﷺ عن قتل البازي فقال: «كل» ».

ومن أمثلة ما وقع فيه الخطأ في التفسير بسبب الخطأ في تفسير اللفظ بغير معناه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: ٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «أي: لا تجوروا في القسم، هكذا قال السلف وجمهور العلماء، وظنّ طائفة من العلماء أن المراد أن لا نكثر عيالكم، وقالوا: هذا يدل على وجوب نفقة الزوجة، وغلّط أكثر العلماء من قال ذلك لفظاً ومعنى، أما اللفظ

---

(١) الفتاوى الكبرى (٤/١٥٢ - ١٥٣).

فلأنه يقال عال يعول إذا جار، وعال يعيل إذا افتقر وأعال، يعيل إذا كثر عياله، وهو سبحانه قال: ﴿تَعُولُوا﴾، ولم يقل «تعيلوا»، وأما المعنى فإن كثرة النفقة والعيال يحصل بالتسري، كما يحصل بالزوجات، ومع هذا فقد أباح مما ملكت اليمين ما شاء الإنسان بغير عدد لأن المملوكات لا يجب لهن قسم، ولا يستحققن على الرجل وطئاً، ولهذا يملك من لا يحل له وطئها كأم امرأته وبنتها وأخته وابنته من الرضاع، ولو كان عنينا أو موالياً لم يجب أن يزال ملكه عنها، والزوجات عليه أن يعدل بينهن في القسم».

(٨) حمل ألفاظ القرآن على عرف الناس الخاص:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[١] : «وبسبب هذا الاشتراك الحادث غلط كثير من الناس في فهم الخطاب بلفظ «السعي» من هذا الباب، فإنه في الأصل عام في كل ذهاب ومضي، وهو السعي المأمور به في القرآن، وقد يخص أحد النوعين باسم المشي، فيبقى لفظ السعي مختصاً بالنوع الآخر، وهذا هو السعي الذي نهى عنه النبي ﷺ حيث قال: «**إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأْتوها وأنتم تمشون**»، وقد روي أن عمر رضي الله عنه كان يقرأ: (فامضوا)، ويقول: لو قرأتها «فاسعوا» لعدوت حتى يكون كذا، وهذا إن صحَّ عنه فيكون قد اعتقد أن لفظ السعي هو الخاص».

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/٢٦١).

مثال آخر: قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [المجادلة: ٢ - ٣].

فقد وقع غلط في تفسير «العود» في الآية، فقد فسّر ابن قتيبة رحمه الله العود بالعود إلى ما كانوا عليه في الجاهلية من نفس الظهار.

ووجهه عند ابن قتيبة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «وإنما تأويل الآية أن أهل الجاهلية كانوا يطلّقون بالظهار، فجعل الله حكم الظهار في الإسلام خلاف حكمه عندهم في الجاهلية، وأنزل قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ يريد في الجاهلية ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ في الإسلام، أي يعودون لما كانوا يقولونه من هذا الكلام، وهذا كما قد قيل في الصيد: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ﴾ أي في الجاهلية، ﴿وَمَنۡ عَادَ﴾ أي في الإسلام ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ﴾ [المائدة: ٩٥].

قلت: وهذا قول ضعيف، فإنه قال: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾، فلا بد من عوْدٍ بعد الظهار، والعود إلى ما كانوا عليه في الجاهلية هو نفس الظهار.

---

(١) جامع المسائل المجموعة الأولى ص ٣٩٥ – ٣٩٦.

وأيضاً فأوّل ظهار كان في الإسلام أنزل الله فيه هذه الآية، ولم يكونوا بعدُ قد نُهوا عن الظهار حتى يقال: إنه كان عائداً إلى ما نُهوا عنه.

وأيضاً فليس من شرط ثبوت الظهار أن يكون قد تظاهر من امرأته في الجاهلية، ولو كان ما ذكروه صحيحاً لم يثبت إلّا فيمن تظاهر منها في الجاهلية، ثم عاد إلى ذلك في الإسلام، وهذا معلوم البطلان باتفاق المسلمين.

وأيضاً فأوس بن الصامت لم يكن قد تظاهر من امرأته قبل ذلك، ولو كان قد تظاهر منها لكان ذلك طلاقاً عندهم.

وأيضاً فالنبي ﷺ لم يسأله هل تظاهرت منها قبل هذا. وأيضاً هو لم يقل: «والذين تظاهروا منكم» بصيغة الماضي، بل قال: «يظاهرون»، وهذا يتناول الحالف بالاتفاق».

ثم قال شيخ الإسلام رحمه الله[1] : «والذي عليه عامة السلف والفقهاء أن العود هو الوطء أو العزم عليه، وجمهور السلف قالوا: هو الوطء، كذلك قال طاوس والحسن والزهري وقتادة، وهو قول أحمد وغيره. وقالت طائفة: هو العزم على الوطء، كما يحكى عن أبي حنيفة ومالك وطائفة من أصحاب أحمد.

وسبب النزاع في ذلك أنّ عليه إخراج الكفارة قبل الوطء بنص القرآن، قال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة: ٣].

---

(١) جامع المسائل المجموعة الأولى ص ٣٩٧ – ٣٩٨.

وأما قول من قال: هو تكرير لفظ الظهار، فهو من أضعف الأقوال أيضاً، فإن ذلك مخالف لأصول الشرع، إذ كان القول المحرم تحرم منه المرة الواحدة والمرتان والثلاث، وكلّما كرّره كان أعظم إثماً».

وقال شيخ الإسلام أيضاً[1] : «فهؤلاء غلطوا في فهم القرآن واللغة التي بها نزل القرآن، ولهذا قال الزجاج: هذا قول من لا يدري اللغة. ومثل هذا يقع كثيراً ممن يدّعي التمسُّك بظاهر القرآن والحديث، وقد غلط في ذلك، ليس ما ادعاه هو الظاهر الذي دلَّ عليه اللفظ.

ولفظ الإعادة والعود حيث استعمل لا بد أن يكون بينه وبين الابتداء نوع فرق، حتى يتميز المُعاد من المبتدأ، فأما إذا كان هو إيَّاه من كل وجه فهذا لا يقال فيه: إنه أعاده، ولا عاد إليه.

وقد يقال لمن فعل فعلاً وقطعه لتعب أو شغل ونحو ذلك: عُدْ إلى ما كنت، وعُدْ إلى حالك، لأن الأول حصل عقبه فتور تميَّز به عن الثاني، فلو وصل الثاني بالأول لم يُقَل: إنه عاد. فإذا قال: أنت عليَّ كظهر أمّي، أو قال: والله لا أطأك، والله لا أطأك، لم يُقلْ: إن قول الثاني عودٌ إلى الأول، بل هو تكرير محض.

وأيضاً فالذي قالوه لو كان صحيحاً محتملاً إنما يجب الجزم به إذا كانت «ما» مصدرية، أي ثم يعودون إلى قولهم، وليس في الآية

(١) جامع المسائل المجموعة الأولى ص ٤٠٠ – ٤٠٦.

ما يوجب ذلك، بل يجوز أن تكون ما موصولة، أي إلى الذي قالوه، وهذا أظهر، فإن كونها موصولة أكثر في الكلام، ولفظ العود يُستعمل في مثلِ هذا، كقوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٨].

وهذا منشأ غلط طائفة من الناس في الآية، فإنهم ظنّوا أن ما مصدرية، وأن المعنى: ثم يعودون لقولهم، ولم يفهموا معنى كونها موصولة.

ثم هؤلاء الذين ظنُّوا أنها مصدرية، قالوا أقوالاً كلها باطلة، فقال داود ومن وافقه: إن العود تكرير القول. وهذا القول لا يُعرف عن أحد قبلهم، وقيل: إنه مروي عن بكير بن الأشج.

وقال طائفة من أهل العربية ما قاله ابن قتيبة من أن قوله: يتظاهرون في الجاهلية، ثم يعودون إليه في الإسلام، وهو قول فاسد أيضاً.

وقال أبو علي الفارسي قولاً ثالثاً، قال: ليس الأمر كما ادّعاه من قال بتكرير اللفظ، لأن العود قد يكون إلى شيء لم يكن الإنسان عليه، وقيل: سُمِّيت الآخرة معاداً، ولم يكن فيها أحدٌ ثم عاد إليها.

وقال الهذلي:

وعاد الفتى كالطفل ليس بقائل   سوى الحقِّ شيئاً واستراح

وهذا أيضاً ضعيف من وجوه:

أحدها: أن لفظ العود لا بُدَّ أن يتضمن رجوعاً عن شيء أو إلى شيء، فقوله: «وعاد الفتى كالطفل»، وقوله:

.... فعادا بعدُ أبوالا

وفي الحديث: «**تعاد روحها**»، وهو رجوع عن حالٍ كانوا عليها إلى حال أخرى. فأما الأمر المبتدأ إذا فعله الإنسان فلا يقال: إنه عاد إليه.

وأيضاً فما ذكروه إنما هو في لفظ العود مجرداً، فإذا قيل: عاد إلى كذا، ورجع إليه، وعاد فيه، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٨]، وقال أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠].

وقال النبي : «**العائد في هبته كالعائد في قيئه**». فهذا ونحوه إنما يُعرف إذا عاد إلى مثل ما كان عليه أولاً. والمعاد سُمِّي معاداً لأن الله يعيد الخلق فيه بالنشأة الثانية، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وأيضاً فإنهم يعودون إلى ربّهم، كما يقال: إنهم يرجعون إليه ويُردّون إليه، كما قد بُسط هذا في غير هذا الموضع.

وأيضاً فهبْ أن لفظ العود لا يقتضي ذلك، فلا بدّ من تفسير قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ [المجادلة: ٣]. وأبو علي لم يذكر معنى الكلام.

وقد قيل فيها قول رابع وخامس على أصل من يقول: إنها مصدرية، قال الزجاج: المعنى ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا. فجعل اللامَ لامَ كيْ، لم يجعلها مُعدِّية ليعودون.

وأضعف منه قول من يقول: هو محمول على التقديم والتأخير، والمعنى: والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون، أي يعودون إلى ما كانوا عليه من الجماع، فتحرير رقبة من أجل ما قالوا.

وهذا فاسد من وجوه:

أحدها: أنه لم يقل: «فلما قالوا تحرير رقبة» أو «تحرير رقبة لِمَا قالوا»، بل قال: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المجادلة: ٣]. ولا يجوز أن يقال: «لما قالوا فتحرير رقبة»، فإن الفاء هي جواب الشرط، والشرط هو ما في الاسم الموصول من معنى الشرط، والاسم الموصول أو النكرة الموصوفة – إذا كان في الصلة أو الصفة معنى الشرط – دخلت الفاء في خبر المبتدأ، كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، ومثله قوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، وقوله: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ [النساء: ١٦]، ولو دخلت «إنّ» على المبتدأ ففيه نزاع، والقرآن قد جاء بالفاء في قوله:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]، فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المجادلة: ٣]، بمنزلة قوله: «من تظاهر ثمّ عاد فعليه تحرير رقبة». ولا يجوز أن يقال: «لما عادَ فعليه تحرير رقبة».

وأيضاً فتحرير الرقبة لم يجب لمجرّد العود، بل الموجب له الظهار، والعَود شرط، أو الموجب مجموعهما، فقولهم: إن الرقبة إنما وجبت لأجل العود فقط غلط.

وقول الزجاج: ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا، فاسد أيضاً، فإنهم إذا عادوا مع الظهار وجبت الكفارة، وإن لم يعودوا لأجل ما قالوا.

وأيضاً فهم لا يعودون لأجل ما قالوا، بل يعودون لرغبتهم في المرأة لا للقول، بل القول مانع من العود، فكيف يُجعل علة له وداعياً إليه.

وهذه كلها أقوال من لم يفهم الآية ولا حُكمَ الشرع، بل ظنُّوا أن «ما» مصدرية، ولم يفهموا المعنى إذا كانت موصولة.

وفيها قول سادس، وهو أنها مصدرية، لكن المصدر بمعنى المفعول، ذكره المهدوي وغيره.

والصواب أنها موصولة، كما اتفق على ذلك سلف الأمة وأئمتها، وكما في نظائرها من القرآن، ولبطلان معنى المصدرية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾

[المجادلة: ٨]، وقال تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقد أطلق العود في قوله: ﴿وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وفي قوله: ﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ﴾ [الأنفال: ١٩]، وفي قوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]، والذي قالوه هو المقول، كما في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ﴾ [النساء: ٨١]، فإنهم بيّتوا غير الذي أمرهم به وقالوا فيه طاعة، وهو غير المقول، ليس المراد أنهم بيّتوا لفظاً غير اللفظ الذي لفظتْ به، فإن هذا لا يضرّ إذا كان المعنى موافقاً لما قاله.

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢ - ٣]، فقوله: ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ هو مفعول القول، وهو المقول، وهم قالوا: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لفعلناه، فكان إخبارهم عن أنفسهم أنهم إذا علموا الأحب فعلوه، ووعدهم بذلك، والمقول هو فعلهم للأحب، وهو الموعود به المخبر عنه، فلامَهم على أن قالوا مقولاً هو موعودٌ مُخْبرٌ به ولم يفعلوه، وكان الفعل نفسه هو المقول، فالمقول هو المخبر عنه إن كان القول خبراً، والمأمور به والمنهي عنه إن كان القول أمراً أو نهياً، فإذا قال: لا أفعل، ثم فعل، فقد عاد لما قال، وإذا قال لأفعلنَّ، ولم يفعل، فلم يفعل ما قال.

وهذا هو المعنى المفهوم في مثل هذا اللفظ عند عامة الناس الخاصّة والعامّة، بل وفي سائر اللغات، فإذا قيل: فلان قد حلفَ أن لا يكلّم فلاناً، أو قال: لا أكلمه، ثم عاد إلى ما قال، فهموا منه أنه عاد إلى أن يكلّمه، لم يفهموا أن ما مصدرية».

(٩) توهم التلازم بين الترتيب الذكري والترتيب الحكمي :

مثاله: قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ [النساء: ١٢]، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه[(١)] : «إنكم تقرؤون ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾، وإن رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية».

وليت الزلل اقتصر على آية أو آيتين، بل تكلف بعض المفسرين والتزم ترتيب سور وآي القرآن على أنه ترتيب نزوله، ووقع في شطط عظيم جرّه إلى الجرأة على آي القرآن ومحاولة تطويع معانيها وأحكامها وفق الترتيب الذكري في المصحف.

قال العلامة الشوكاني رحمه الله (ت: ١٢٥٠هـ)[(٢)] : «اعلم أن كثيراً من المفسرين جاءوا بعلم متكلف، وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا

---

(١) رواه الترمذي كتاب الفرائض باب من الأم والأب (ص٤٨١ – رقم ٢٠٩٤)، وإسناده ضعيف من أجل الحارث الأعور، لكن الإجماع قائم على ذلك، قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٢/٢٢٨): «أجمع العلماء أن الدَّين مقدم على الوصية».

(٢) فتح القدير (٧٢ – ٧٣)، ط. دار الفكر – ١٤٠٣هـ.

أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرب سبحانه، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره، ومن تقدّمه حسبما ذكر في خطبته، وإن هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن ما زال ينزل مفرّقاً على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ نزول الوحي على رسول الله ﷺ إلى أن قبضه الله عزّ وجل إليه، وكل عاقل فضلاً عن عالم لا يشك أن هذه الحوادث المقتضية نزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها، بل قد تكون متناقضة كتحريم أمر كان حلالاً، وتحليل أمر كان حراماً، وإثبات أمر لشخص أو أشخاص يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله، وتارة يكون الكلام مع المسلمين، وتارة مع الكافرين، وتارة مع من مضى، وتارة مع من حضر، وحيناً في عداة، وحيناً في معاملة، ووقتاً في ترغيب، ووقتاً في ترهيب، وآونة في نذارة، وطوراً في أمر دنيا، وطوراً في أمر آخرة، ومرة في تكاليف آتية. ومرة في أقاصيص ماضية، وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف، ومتباينة هذا التباين الذي لا يتيسر معه الائتلاف، فالقرآن النازل فيها هو باعتباره نفسه مختلف كاختلافها، فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضب والنون، والماء والنار، والملاح والحادي.

وهل هذا إلا من فتح باب الشك وتوسيع دائرة الريب على من في قلبه مرض، أو كان مرضه مجرد الجهل والقصور، فإنه إذا وجد أهل العلم يتكلمون في التناسب بين جميع آي القرآن ويفردون ذلك بالتصنيف، تقرر عنده أن هذا أمر لا بد منه، وأنه لا يكون القرآن بليغاً معجزاً إلا إذا ظهر الوجه المقتضي للمناسبة، وتبين الأمر الموجب للارتباط، فإن وجد الاختلاف بين الآيات فرجع إلى ما قاله المتكلمون في ذلك، فوجده تكلفاً محضاً، وتعسفاً بيّناً انقدح في قلبه ما كان عنه في عافية وسلامة، هذا على فرض أن نزول القرآن كان مترتباً على هذا الترتيب الكائن في المصحف؛ فكيف وكل من له أدنى علم بالكتاب، وأيسر حظ من معرفته يعلم علماً يقيناً أنه لم يكن كذلك، ومن شك في هذا وإن لم يكن مما يشك فيه أهل العلم رجع إلى كلام أهل العلم العارفين بأسباب النزول، المطلعين على حوادثي النبوة، فإنه ينثلج صدره، ويزول عنه الريب، بالنظر في سورة من السور المتوسطة، فضلاً عن المطوّلة لأنه لا محالة يجدها مشتملة على آيات نزلت في حوادث مختلفة، وأوقات متباينة لا مطابقة بين أسبابها وما نزل فيها في الترتيب، بل يكفي المقصر أن يعلم أن أول ما نزل – اقرأ باسم ربك الذي خلق – وبعده – يا أيها المدثر – يا أيها المزمل – وينظر أين موضع هذه الآيات والسور في ترتيب المصحف؟ وإذا كان الأمر هكذا، فأي معنى لطلب المناسبة بين آيات نعلم قطعاً أنه قد تقدّم في ترتيب

المصحف ما أنزله الله متأخراً، وتأخر ما أنزله الله متقدماً، فإن هذا عمل لا يرجع إلى ترتيب نزول القرآن، بل إلى ما وقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدّى لذلك من الصحابة، وما أقل نفع مثل هذا وأنزر ثمرته، وأحقر فائدته، بل هو عند من يفهم ما يقول وما يقال له من تضييع الأوقات وإنفاق الساعات في أمر لا يعود بنفع على فاعله ولا على من يقف عليه من الناس، وأنت تعلم أنه لو تصدى رجل من أهل العلم للمناسبة بين ما قاله رجل من البلغاء من خطبه ورسائله وإنشاءاته، أو إلى ما قاله شاعر من الشعراء من القصائد التي تكون تارة مدحاً وأخرى هجاء، وحيناً نسيباً، وحيناً رثاء، وغير ذلك من الأنواع المتخالفة، فعمد هذا المتصدي إلى ذلك المجموع فناسب بين فقره ومقاطعه، ثم تكلف تكلفاً آخر فناسب بين الخطبة التي خطبها في الجهاد، والخطبة التي خطبها في الحج، والخطبة التي خطبها في النكاح ونحو ذلك، وناسب بين الإنشاء الكائن في العزاء والإنشاء الكائن في الهناء وما يشابه ذلك، لعدّ هذا المتصدي لمثل هذا مصاباً في عقله متلاعباً بأوقاته عابثاً بعمره الذي هو رأس ماله، وإذا كان مثل هذا بهذه المنزلة، وهو ركوب الأحموقة في كلام البشر، فكيف تراه يكون في كلام الله سبحانه الذي أعجزت بلاغته بلغاء العرب، وأبكمت فصاحته فصحاء عدنان وقحطان. وقد علم كل مقصر وكامل أن الله سبحانه وصف هذا القرآن بأنه عربي، وأنزله بلغة العرب، وسلك فيه مسالكهم في الكلام، وجرى به

مجاريهم في الخطاب. وقد علمنا أن خطيبهم كان يقوم المقام الواحد فيأتي بفنون متحالفة، وطرائق متباينة فضلاً عن المقامين، فضلاً عن المقامات، فضلاً عن جميع ما قاله ما دام حياً، وكذلك شاعرهم. ولنكتف بهذا التنبيه على هذه المفسدة التي تعثّر في ساحاتها كثير من المحققين، وإنما ذكرنا هذا البحث في هذا الموطن لأن الكلام هنا قد انتقل مع بني إسرائيل بعد أن كان قبله مع أبي البشر آدم عليه السلام، فإذا قال متكلف: كيف ناسب هذا ما قبله؟ قلنا: لا كيف:

فدع عنك نهباً صيح في حجراته   وهات حديثاً ما حديث الرواحل»

وما قاله الشوكاني رحمه الله في أكثره صحيح، إلا أنه أسرف في الإنكار، فالآية الواحدة في تقديم بعض مفرداتها على بعض فيه فوائد عظيمة[1] ، كما أن بعض الآيات ترتيبها وفق وقت نزولها كآيات سورة براءة والأحزاب ونحوها، فإنكار الكل خطأ، والتعسف في التزام ترتيب الكل خطأ، والحق وسط بين طرفين.

كما أن الصحابة في ترتيبهم المصحف راعوا توافق المعنى، قال العلامة أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي رحمه الله (ت: ٧٠٨هـ): «ومن ظن ممن اعتمد القول بأن ترتيب السور اجتهاد من الصحابة؛ أنهم لم يراعوا في ذلك التناسب والاشتباه، فقد

---

(١) انظر بدائع الفوائد (١/ ١٠٧ - ١٢٣).

سقطت مخاطبته، وإلا فما المراعى، وترتيب النزول غير ملحوظ في ذلك بالقطع؟

بل هذا معلوم في ترتيب آي القرآن الواقع ترتيبها بأمره ﷺ وتوقيفه بغير خلاف.

ألا ترى أن سورة البقرة من المدني وقد تقدمت سور القرآن بتوقيفه ﷺ في الصحيح المقطوع به، وتقدم المدني على المكي في ترتيب السور والآي كثير جداً، فإذا سقط تعلق المكان بترتيب النزول لم يبق إلا رعي التناسب والاشتباه، وارتباط النظائر والأشباه.

وتدبر بعقلك وضوح ذلك في عدة سور كالأنفال وبراءة، والطلاق والتحريم، والتكوير والانفطار، والضحى وألم نشرح، والفيل وقريش، والمعوّذتين، إلى غير هذه السور مما لا يتوقف في وضوحه من له أدنى نظر».

وحشد الغرناطي رحمه الله في كتابه «البرهان في تناسب سور القرآن»، أدلة كثيرة على اعتبار المعنى في ترتيب السور، منها: حديث: «اقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران». رواه مسلم. وحديث: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران»، وأن النبي ﷺ صلى بالسبع الطوال في ركعة،

وأنه كان يجمع المفصل في ركعة، وقال ابن مسعود رضي الله عنه في بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي - أول ما نزل -، فذكر نسقاً كما استقر ترتيبها، والنبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفّيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: قل هو الله أحد، وقل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس[1].

(١٠) حمل العام المراد به الخصوص على عمومه:

وهو أن ترد الكلمة عامة يُراد بها الخصوص، كما تدل عليه القرائن اللفظية في الآية ومعاني الشريعة المعهودة، فيأتي البعض فيحملها على المعنى العام.

وقد وقع بسبب هذا النوع أقبح أنواع الغلط ومنها بدعة التكفير بالكبيرة.

مثال: قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨١].

فـــ «السيئة» هنا هي الشرك كما فسرها ابن عباس وأبو هريرة رضي الله عنهما، وعكرمة، وأبو وائل، وأبو العالية، ومجاهد،

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ص ٨٢.

وقتادة، ومقاتل، وعطاء، والضحاك، والربيع بن أنس رحمهم الله جميعاً.

ومجاهد عنه رواية أخرى أنها الذنوب تحيط بالقلب كلما عمل ذنباً ارتفعت حتى تغشى القلب.

ووجهها أبو علي الفارسي رحمه الله: أن المعنى:أحاطت بحسنته خطيئته، أي أحبطتها من حيث أن المحيط أكثر من المحاط به[1].

ومجاهد قطعاً لا يقول إنهم لا يخرجون من النار، لا بشفاعة ولا غيرها[2].

وأما الخوارج فحملوا «السيئة» على عمومها والعياذ بالله وكفّروا بالكبيرة، وغلاتهم يكفرون بالصغيرة، وهذا لا شك أنه باطل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[3] : «على تفسير الأكثرين: فالسيئة: الشرك، وهذا أظهر الأقوال، لأنه سبحانه غاير بين لفظ المكسوب، والمحيط. فقال:﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١]، فلو كان المراد بهذا لم يغاير بين اللفظين، فعلم أن المراد بالسيئة: الشرك، والمشرك له خطايا أخر

---

(١) تفسير آيات أشكلت (١/٣٨٥).
(٢) تفسير آيات أشكلت (١/٣٧٨).
(٣) تفسير آيات أشكلت (١/٣٨٨).

غير الشرك، فذكر أن خطاياه أحاطت به، فلم يتب منها. وعلى هذا فيكون الخلود في الآية خلود الكفار، ولهذا قابله بخلود المؤمنين، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨٢]، وأيضاً فقوله: «سيئة» نكرة، وليس المراد جنس السيئات بالاتفاق، فلو كسب شيئاً من السيئات الصغائر ومات مُصرّاً على ذلك مع إيمانه وكثرة حسناته لم يستحق هذا الوعيد بالكتاب والسُّنَّة والإجماع».

وأيضاً فلفظ [1] : « «السيئة» قد جاء في غير موضع وأريد به الشرك». وقال: «فالسيئة» هي في نفسها قبيحة خبيثة، وهي تسوء صاحبها أي: تضره، كما أن الحسنة تسر وتحسن صاحبها، والذي هو سيئةً مطلقاً لا تمحوه حسنته هو الكفر، فكان وصف السوء لازماً له، أي: هو في نفسه سيئ ويسوء صاحبه، وأما ما دون الكفر فقد يغفر لصاحبه فلا يسوؤه.

ولما قال: ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾ دلَّ على أن السيئة ساءته ودخلت في الخطايا التي أحاطت به، فلا يمكنه الخروج منها لا بحسنات أخر ولا بغيرها، فإن الكفر لا يقابله شيء من الحسنات إلا التوبة منه بالإيمان».

---

(١) تفسير آيات أشكلت (١/٣٨٩ – ٣٩٠).

(١١) التزام أصول عقلية فاسدة وإعمالها في نصوص القرآن: وهذه طريقة المتكلمين من المفسرين كالأشاعرة والمعتزلة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[١] : «يجب الرجوع في أصول الدين إلى الكتاب والسُّنَّة، كما بيَّنته من أن الكتاب بيّن الأدلة العقلية التي بها تعرف المطالب الإلهية، وبين ما يدل على صدق الرسول ﷺ في كل ما يقوله هو - يظهر الحق بأدلته السمعية والعقلية.

وبيّن أن لفظ «العقل والسمع»، والآخر يبين خطأه فيما قاله ويدعي العقل أيضاً، ويذكر أشياء أُخر تكون أيضاً خطأ، كما قد بُسط في مواضع».

ثم قال[٢] : «ثم هؤلاء قد يذكرون أدلة يجعلونها أدلة القرآن ولا تكون هي إياها، كما فعل الأشعري في «اللمع» وغيره، حيث احتج بخلق الإنسان وذكر قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨ - ٥٩]، لكن هو يظن أن النطفة فيها جواهر باقية، وأن نقلها في الأعراض يدل على حدوثها، فاستدل على حدوث جواهر النطفة.

وليست هذه طريقة القرآن، ولا جمهور العقلاء، بل يعرفون أن

(١) مجموع الفتاوى (١٦/٤٦٩ - ٤٧٠).
(٢) مجموع الفتاوى (١٦/٤٧٠ - ٤٧١).

النطفة حادثة بعد أن لم تكن، مستحيلة عن دم الإنسان، وهي مستحيلة إلى المضغة، وأن الله يخلق هذا الجوهر الثاني من المادة الأولى بالاستحالة ويعدم المادة الأولى - لا تبقى جواهرها بأعيانها دائماً».

* * *


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

الفصل الرابع
كتب التفسير


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

المنهجية الصحيحة لقراءات كتب التفسير

المنهجية الصحيحة لطالب العلم الاعتناء بحفظ القرآن أولاً، فإنه من أجل الطاعات، وهو عون على ضبط التفسير، وإدراك معاني الآية مضموماً إلى معاني القرآن كاملاً.

كما ننصح طالب العلم بقراءة المختصرات في علوم القرآن وقواعد التفسير، من ذلك أصول في التفسير لشيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله[1] ، ومقدمة في أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بشرح شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[2] ، والقواعد الحسان لتفسير القرآن للعلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله.

ومن الكتب المتوسطة الحجم في علوم القرآن النافعة «المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز» للعلامة أبي شامة عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي رحمه الله[3].

---

(١) مطبوع في رسالة مستقلة بإشراف مؤسسة الشيخ، ومطبوع بين يدي مشروع شيخنا بتفسير القرآن قبل تفسير سورة الفاتحة.

(٢) مطبوع بتحقيق د. عبدالله الطيار وفقه الله.

(٣) مطبوع بتحقيق: د. طيار آلتي قولاج، ط. دار وقف الديانة التركي.

ومن المطولات الغزيرة في علوم القرآن «البرهان في علوم القرآن»[1] تأليف: بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، وكتاب الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين عبدالرحمن السيوطي، وقد قام بتهذيبه د. محمد بن عمر بازمول[2] .

بعد ذلك ننصح طالب العلم بقراءة المختصرات في تفسير القرآن، فالمبتدئ لا يمكنه أن يهجم أولاً على المطولات فهذا يُوّعر عليه الطريق، ويطّول عليه الوقت ولم يستظهر بعد معاني عامة كتاب الله، كما أن المبتدئ علومه لا تسعفه في فهم دقائق كتب المطولات.

قال العلامة ابن أبي العز الحنفي رحمه الله[3] : «فالواجب على من طلب العلم النافع أن يحفظ كتاب الله ويتدبره، وكذلك من السنة ما تيسر له، ويطّلع منها ويتروى، ويأخذ معه من اللغة والنحو ما يصلح به كلامه، ويستعين به على فهم الكتاب والسنة، وكلام السلف الصالح في معانيها، ثم ينظر في كلام عامة العلماء الصحابة، ثم من بعدهم ما تيسر له من ذلك من غير تخصيص».

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[4] : «أما العلم النافع؛ فهو العلم المُزكي للقلوب والأرواح، المثمر لسعادة الدارين،

(١) مطبوع بتحقيق: أبي الفضل الدمياطي، ط. دار الحديث – القاهرة.
(٢) الناشر: دار الهجرة للنشر والتوزيع – الثقبة.
(٣) الإتباع ص ٣٣.
(٤) بهجة قلوب الأبرار ص ٤٤ – ٤٥.

وهو ما جاء به الرسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث وتفسير وفقه، وما يعين على ذلك من علوم العربية بحسب حالة الوقت والموضع الذي فيه الإنسان، وتعيين ذلك يختلف باختلاف الأحوال.

والحالة التقريبية أن يجتهد طالب العلم في حفظ مختصر من مختصرات الفن الذي يشتغل فيه، فإن تعذر أو تعسر عليه حفظه لفظاً؛ فليكرره كثيراً متدبراً لمعانيه، حتى ترسخ معانيه في قلبه، ثم تكون باقي كتب هذا الفن كالتفسير والتوضيح والتفريع لذلك الأصل الذي عرفه وأدركه، فإن الإنسان إذا حفظ الأصول وصار له ملكة تامة في معرفتها؛ هانت عليه كتب الفن كلها: صغارها وكبارها، ومن ضيّع الأصول حُرم الوصول.

فمن حرص على هذا الذي ذكرناه، واستعان بالله، أعانه الله، وبارك في علمه وطريقه الذي سلكه.

ومن سلك في طلب العلم غير هذه الطريقة النافعة؛ فاتت عليه الأوقات، ولم يدرك إلا العناء كما هو معروف بالتجربة والواقع يشهد به، فإن يسر الله له معلماً يُحسن طريقة التعليم ومسالك التفهيم؛ تم له السبب الموصل إلى العلم».

* * *

أنواع كتب التفسير

كتب التفسير كثيرة متنوعة، منها المطولات ومنها المختصرات ومنها ما بين ذلك.

وهي مختلفة كذلك في عنايتها بمعاني القرآن، فمنها ما اقتصر على إعراب لفظه فقط، ومنهم ما اقتصر على معرفة معاني القرآن بالمأثور فقط، ومنها ما فسر القرآن بمقتضى اللفظ ومعرفته بأحكام الشريعة ومقاصدها، ومنها ما جمع بين علمي الرواية والدراية للوقوف على معاني القرآن.

وبعض كتب التفسير لها خصوصية عناية ورعاية لبعض أنواع المعاني، فمنها ما كان له خصوصية بعلم القراءات، ومنها ما له خصوصية باللغة، ومنها ما له خصوصية بالأحكام، ومنها ما جمع أكثر ذلك وإن تميز ببعض تلك العلوم.

قال الطوفي رحمه الله[1] : «غالب التفاسير المتأخرة يقتصر من هذه العلوم على اللفظي، ومن المعنوي على الأقاصيص والفقه، ويتفاوت بعضها على بعض في هذه العلوم قلة وكثرة.

---

(١) الإكسير في علم التفسير ص ٢٥ – ٢٦.

ومنهم من يقتصر على الأحاديث المتعلقة بأسباب النزول والتفسير ونحوها من النقليات: كعبد بن حميد، وعبدالرزاق، ونحوها من مفسري المتقدمين.

ومنهم من يقتصر على الأحكام اللغوية من إعراب وتصريف ونحوهما، وشيء من علم المعاني؛ كالزجاج، والفراء، والزمخشري.

ومنهم من استوفى كثيراً من علومه، كابن الجوزي، والرسعني.

وأجمع ما رأيته من التفاسير لغالب علم التفسير كتاب القرطبي».

وقال بدر الدين الزركشي رحمه الله (ت: ٧٩٤هـ)[١] : «إن محمد بن جرير جمع على الناس أشتات التفاسير، وقرّب البعيد، وكذلك عبدالرحمن بن أبي حاتم الرازي»[٢] .

وقال جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي رحمه الله (ت: ٩١١ هـ) في المصنفات في التفسير بعد طبقة التابعين[٣] : «بعد هذه الطبقة أُلفت تفاسير تجمع أقوال الصحابة والتابعين

(١) البرهان في علوم القرآن ص ٤٢٢، وكلامه جاء في سياق نقله عن ابن عدي الكلام على محمد بن السائب الكلبي.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم تفسير بالأثر فقط، بينما تفسير الطبري يشرح الآثار ويوضح معانيها ويرجح بينها.

(٣) الإتقان في علوم القرآن (٢/٤١٨ – ٤٢٠).

كتفسير سفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح، وشعبة بن الحجاج، ويزيد بن هارون، وعبدالرزاق، وآدم بن أبي إياس، وإسحاق ابن راهوية، وروح بن عبادة، وعبد بن حميد، وسعيد، وأبي بكر ابن أبي شيبة، وآخرين.

وبعدهم ابن جرير الطبري وكتابه أجلّ التفاسير وأعظمها، ثم ابن أبي حاتم، وابن ماجة، والحاكم، وابن مردوية، وأبو الشيخ أبو حيان، وابن المنذر، في آخرين، وكلها مسندة إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم، وليس فيها غير ذلك إلا ابن جرير، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض، والإعراب والاستنباط، فهو يفوقها بذلك.

ثم ألّف في التفسير خلائق فاختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال تترى، فدخل من هنا الدخيل والتبس الصحيح بالعليل، ثم صار كل من يسنح له قول يورده، ومن يخطر بباله شيء يعتمده، ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده ظاناً أن له أصلاً، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح ومن يرجع إليهم في التفسير، حتى رأيت من حكى في تفسير قوله تعالى ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧]، نحو عشرة أقوال، وتفسيرها باليهود والنصارى هو الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم وجميع الصحابة والتابعين وأتباعهم، حتى قال ابن أبي حاتم: لا أعلم في ذلك اختلافاً بين المفسرين.

ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا في علوم، فكان كل منهم يقتصر في تفسيره على الفن الذي يغلب عليه، فالنحوي تراه ليس له همّ إلا الإعراب، وتكثير الأوجه المحتملة فيه، ونقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته كالزجاج والواحدي في البسيط، وأبي حيان في البحر والنهر.

والإخباري ليس له شغل إلا القصص واستيفائها، والإخبار عمن سلف سواء كانت صحيحة أو باطلة كالثعلبي.

والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه من باب الطهارة إلى أمهات الأولاد، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية، والجواب عن أدلة المخالفين كالقرطبي.

وصاحب العلوم العقلية خصوصاً الإمام فخر الدين قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها، وخرج من شيء إلى شيء حتى يقضي الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية.

قال أبو حيان في البحر: جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك قال بعض العلماء: فيه كل شيء إلا التفسير.

والمبتدع ليس له قصد إلا تعريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد، بحيث أنه متى لاح له شاردة من بعيد اقتنصها، أو وجد موضعاً له فيه أدنى مجال سارع إليه».

اختصار كتب التفسير

تكلم العلماء وطلبة العلم والمشايخ الذين بذلوا جهوداً كبيرة في تقريب معاني القرآن وتفسيره للقراء في الأسباب الباعثة لقيامهم باختصار كتب التفسير، فقال العلامة أحمد محمد شاكر رحمه الله[1]: «إن القارئ المتوسط الذي يريد أن يصل إلى المقصد الأول من التفسير، وهو فهم الآيات الكريمة على معناها الصحيح، الذي يؤيده الكتاب والسنة الصحيحة يجد أمامه بحراً خِضَمّاً لا يكاد يدرك ساحله من الأسانيد والآثار والأقوال، ودقائق العلم في تخريج الأحاديث ونقد الرجال، مما يجب معه أن نمهّد الطريق لهذا القارئ المتوسط، ونيسّر له السبيل، فنضع بين يديه مقاصد هذا التفسير العظيم قريبةً صافية، يفهم منها القرآن فهماً صحيحاً، لا يخوض معه عُباب الأبحاث الفنية الدقيقة في تخريج الأحاديث ونقد الرجال، ولا يطغى عليه اختلاف ألفاظ المفسرين من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وهي في الأكثر الأغلب ترجع إلى معنى واحد في تفسير الآيات».

وقال أيضاً رحمه الله[2] : «وأنا بفطرتي العملية، وبما خبرتُ من

(١) عمدة التفسير (١/٧).

(٢) عمدة التفسير (١/١٢).

شأن الكتب ونفائس التراث الإسلامي العظيم أكره اختصار الكتب أو أيَّ تصرف فيها، ولكني لمستُ الحاجة الماسة والضرورة الملحة لتقريب التفسير للمتوسطين من المثقفين، الذين لم يُمارسوا دقائق العلم، ولم يتَّصلوا باصطلاحات العلماء الأئمة في الفنون، ولطلاَّب العلوم الإسلامية في شتى أنحاء العالم الإسلامي، فرأيت أن لابدَّ مما ليس منه بُدٌّ».

وقال الدكتور عبدالله الزيد جزاه الله خيراً مبيناً سبب اختصاره تفسير البغوي[1] : «وقد ظهر لي من خلال عملي حاجة الناس إلى تفسير مختصر يجمع بين علمي الرواية والدراية، يكون في متناول الكل، يتميز بخلوه من المخالفات الشرعية والعقدية، وذلك لأن الوقت في هذا العصر أصبح قليلاً جداً بسبب تزاحم المعلومات في كل العلوم، فرأيت من المناسب اختيار تفسير مختصر يلبي حاجة من أراد الاطلاع على معاني كلام الله سبحانه وتعالى».

وأما مختصر محمد علي الصابوني على تفسير ابن كثير فغرضه يختلف تماماً، فإنه حاول أن يُلصق مذهب الأشاعرة بالحافظ ابن كثير رحمه الله من خلال مغالطاته في تصرفه في كلام ابن كثير بدعوى الاختصار.

---

(١) مقدمة مختصر البغوي ص ٩.

قال العلامة بكر أبو زيد رحمه الله(١): «هذا المسكين لا ترقى حاله إلى درجة الاشتغال بنقده، وقد بيّنت أمثلة من اختلاف أمانته، وكثرة تحريفاته في [«التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير]، وفي مواضع أخرى من الطبعة الثانية. وقد كشفه العلماء بنحو ثلاثين رداً جميعها مطبوعة وحسبنا الله ونعم الوكيل».

* * *



(١) تحريف النصوص من مآخذ أهل الأهواء في الاستدلال ص ١٧٦.

أخصر المختصرات

* **تيسير اللطيف المنّان في خلاصة تفسير القرآن**: هذا الكتاب من بدائع مصنفات العلامة عبدالرحمن الناصر السعدي رحمه الله، فهو كما سماه «خلاصة تفسير القرآن»، ولم يجر في مصنفه هذا على الطريقة المشهورة من اختصار أقوال المفسرين في الآية الواحدة من فاتحته إلى خاتمته، وإنما هو خلاصة استقرائية لمعاني القرآن، وموارده في العقيدة، والأحكام، والأخلاق، وقصص النبيين وسيرهم.

فهو أقرب ما يكون إلى مقاصد القرآن وتقريراته وقواعده الكلية وأحكامه الجامعة، وأصول الإيمان وأركانه.

* **زبدة التفسير**[1]: مؤلفه هو العلامة الأصولي د. محمد ابن سليمان الأشقر رحمه الله، وكتابه هذا اختصر فيه كتاب الإمام الشوكاني «فتح القدير الجامع بين فنّي الدراية والرواية من علم التفسير»، فأجاد في اختصاره، وهذا من أنفع المختصرات، إذ اعتنى مؤلفه ببيان معنى كل آية في أخصر وأيسر عبارة على الصحيح من أقوال المفسرين. وكل غامض من ألفاظ الآيات فإنك تجد بيانه في

---

(١) النسخة الشرعية للكتاب، إصدار: دار النفائس – عمّان، حيث طبع بهامش مصحف المدينة النبوية.

هـذا المختـصر، وقـد عـمّ الانتفـاع بهـذا المختـصر، ولا يكـاد يخلـو مسجد منه، فجزاه الله خيراً وعفا عنه ورحمه الله[1].

* **وجه النهار الكاشف عن معاني كلام الواحد القهار**[2] : مؤلفـه هو د. عبدالعزيز بن علي الحربي، أستاذ التفسير بجامعـة أم القـرى، وهو لطيف الحجم يقع في ثمان وسبعين وأربعمائـة صـفحة، سـلس العبارة، قريب المأخذ والفهم، فيه لطائف ومُلَح.

يقول د. عبدالعزيز الحربي مبيناً منهجـه الخـاص الـذي ارتـسمه في مصنفه: «نحـوت منحـى آخـر: جمعـت فيـه بـين تفـسير مفـردات القرآن، وبين جُمَلِهِ الغريبة التي يُشكل تركيبهـا أو معناهـا الجمْلـيُّ، أو ضمائرها، أو صيَغَها، وحلّيتُه بفوائد، ونكات، واستنباطات؛ ممـا قرأتـه، واطّلعـتُ عليـه فـي كتـب التفسير، وغيرهـا مـن كتـب الفقـه والأصول والمعارف، ومما سمعته من أهل العلـم، وممـا فـتح الله بـه عليَّ».

* * *

---

(١) والـشيخ رحمـه الله علومـه نافعـة، ومـن أنفـع كتبـه «أفعـال النبـي ﷺ ودلالتهـا علـى الأحكام الشرعية»، وانتقده العلماء في تعرضه للصحابي الجليل أبـي بكـرة رضـي الله عنه وصحيح البخاري.

(٢) الناشر: دار ابن حزم – بيروت.

المختصرات

* **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان**[1]: مؤلفه العلامة المجدد عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله، العلامة المتفنن، كتابه مختصر في بيان الراجح في تفسير الآية، لكنه أحياناً يُعلّق تعليقات نافعة مطولة اقتضاها استنباط فوائد الآيات، تجاوز في بعض الأحيان الخمسين فائدة كما في آية الطهارة من سورة المائدة، وله تعليقات تربوية في كثير من الآيات تدل على ربانيته كعالم موجه.

ومن له معرفة بتعليقات السعدي رحمه الله على بعض الآيات فيما يتعلق بفقه الواقع يدرك حقيقة ما منحه الله من الفراسة وقراءة مجريات الأحداث واستشراف المستقبل مما يدل على أنه سبق عصره، فرحمه الله رحمة واسعة وغفر له ولوالديه ولمشايخه أجمعين، وكتب العلامة السعدي رحمه الله كلها نافعة خلية من حشو الكلام، قريبة المأخذ والفهم، جامعة لمقاصد الشريعة وبيان أسرارها في آحاد نصوصها.

وتفسير السعدي من التفاسير النقية الموافقة لاعتقاد السلف، الخلية من البدع والضلالات والإسرائيليات.

---

(١) مطبوع بعناية فواز الصميل، الناشر: دار ابن الجوزي.

* **نيل المرام من تفسير آيات الأحكام**[1] : مؤلفه هو العلامة محمد صدّيق حسن خان رحمه الله، وهو كتاب مختصر في شرح آيات الأحكام واستنباط الأحكام منها، لم يلتفت فيه لما يعلم معناه ضرورة من لفظه، ولا لما لم يدل على حكمه دليل قاطع، فجاء مختصراً وجيزاً، قال العلامة محمد صدّيق حسن خان رحمه الله[2] : «لم آخذ فيها من الأقوال المختلفة إلا الأرجح، ومن الدلائل المتنوعة إلا الأصح الأصرح، ولعمري لا يوجد قط تفسير موجز بهذا النمط».

* **الدر النثير في اختصار تفسير ابن كثير**[3] : تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله اعتنى به طلبة العلم والعلماء في عصرنا الحديث عناية شديدة سواء في تحقيقه ونشره، أو اختصاره، أو تدريسه. وما ذاك إلا لأن تفسير ابن كثير رحمه الله من أنقى التفاسير خلي من البدع، محرّر في الأحاديث والآثار التي انتخبها مع بيان ترجيح الصحيح من الأقوال في أكثر الأحيان.

والمختصرات له كثيرة، إلا أن بعضها قد طوّل وهو يختصر وإن أتى بتعليقات نافعة، وكأنه نسي مقصود الاختصار.

ومن المختصرات الغير مطوّلة «الدر النثير»، حيث بذل فيه أخونا الشيخ د. محمد بن موسى آل نصر وفقه الله جهداً طيباً في

---

(١) الناشر: جامعة تعليم الإسلام – فيصل آباد – باكستان.

(٢) مقدمة نيل المرام ص ٢.

(٣) الناشر: غراس للنشر والتوزيع – الكويت.

تجريد الأقوال والأخبار الضعيفة، وقرّبه في ٩٢٩ صفحة، وحلاّه بتخريجات محدّث العصر العلامة محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله.

* **عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير**: اختصار وتحقيق العلامة أحمد محمد شاكر.

لا يمكن لأحد وهو يتحدث عن مختصرات التفسير أن ينسى عمدة التفسير للعلامة أحمد شاكر، لأنه أسبق الناس إلى ذلك، واختصاره نقي محرر، ولجهوده العظيمة في التحقيق العلمي عموماً، وفي التفسير خصوصاً[(١)]. وسبب خروج هذا المختصر هو قيام العلامة أحمد شاكر رحمه الله بتحقيق الأصل لإخراجه في طبعة سليمة من الأغلاط، وتقريب الأصل للقارئ المتوسط في مختصر مفيد، حيث قال رحمه الله مبيناً ذلك[(٢)]: «وقد بدا لي أن أقوم

(١) وسبقه في ذلك الوقت كان إيذاناً لدعوة تجديدية إصلاحية علمية، سلفية الاعتقاد والاستدلال، استفاد منها جيلنا المعاصر كله.
ولو كانت له من الإمكانيات المادية والعلمية ما لبعض المؤسسات البحثية المعاصرة لرأى الناس عجباً.
ومع قلة الإمكانيات في عصر أحمد شاكر إلا أن إنتاجه العلمي يفوق ما لأولئك المترفين في عصرنا الحديث، وذلك لإخلاصه كما أحسب ولعلو همته.
فقد سبق أحمد شاكر رحمه الله إلى تحقيق صحيح ابن حبان وأخرج منه مجلداً، وجامع الترمذي وأخرج منه مجلدين، ومسند أحمد **في ثمان وعشرين مجلداً بلغ فيه** إلى مسند أبي هريرة رضي الله، وتفسير الطبري بمعاونة أخيه العلامة محمود محمد شاكر رحمه الله، بلغا فيه إلى سورة إبراهيم، والعقيدة الطحاوية، وقواعد الأصول لعبدالمؤمن البغدادي، وغيره.

(٢) عمدة التفسير (١/٧).

بالعملين: نشر هذا التفسير في طبعة علمية محققة متقنة، وإخراج مختصر منه للقارئ المتوسط يحفظ عليه مقاصده - إن شاء الله ذلك ويسَّره ووفقني له».

أما عن منهجه في مختصره، فقد حرص على حفظ آراء ابن كثير وترجيحاته في تفسير الآيات، وحفظ أصالة النهج السلفي الذي سار عليه ابن كثير من تفسير القرآن بالقرآن، والسنة، وآثار الصحابة.

ساق أحمد شاكر أحاديث الأصل بدون أسانيد قاصداً الاختصار بحذف المكرر، وحذف الأسانيد، منتخباً أصح الروايات التي ساقها ابن كثير.

حذف أحمد شاكر الإسرائيليات، والفروع الفقهية، والمناقشات اللغوية واللفظية مما لا يتصل اتصالاً وثيقاً بالآية[1].

وأحمد شاكر صحيح أنه قصد الاختصار إلا أنه في مواضع من آيات الكتاب العزيز أفاض بتعليقاته الخاصة النافعة، هيّجها باعث بيان الحق، ونصرة السُّنَّة، ووقوع الآيات في قلبه موقعها، فلم يتعامل مع التفسير تعاملاً جافاً مقتصراً على جهد الاختصار، بل عاش مع القرآن تدبّراً، واسترشاداً بآياته لتوجيه الأمة الإسلامية لأسباب نهضتها.

ولأحمد شاكر رحمه الله استدراكات حديثية مع ابن كثير، وله تعقيبات مهمة على بعض الآثار التي يذكرها ابن كثير في تفسير الآيات، كالكلام في نزول المائدة التي سألها أهل الكتاب.

---

(١) عمدة التفسير (١/ ٨ - ١٣).

وتحقيق العلامة أحمد شاكر رحمه الله لتفسير الطبري أفاده في اختصاره لتفسير ابن كثير، فكان رحمه الله يغرف من معين غني بآثار السلف في معاني الآيات[1] .

ولم يقتصر جهد أحمد شاكر على الاختصار أو التعليقات الحديثية، بل له إضافات وتتمات في صلب التفسير والقراءات وعلوم القرآن [2] .

* **مختصر تفسير البغوي**[3] : للدكتور عبدالله بن أحمد الزيد اختصر فيه «معالم التنزيل» لمحي السنة الحسين بن مسعود البغوي رحمه الله (ت: ٥١٦ هـ)، وهذا المختصر علمي نافع جداً، كأنما تقرأ الأصل، إذ حرص فيه الدكتور عبدالله الزيد على الإلتزام بلفظ البغوي رحمه الله، وضمّن الزيد هذا المختصر جملة من الآثار والنقول عن السلف التي أضافت للمختصر قيمة مهمة قرّبته جداً من مقاصد الأصل.

---

(١) انظر مثلاً حاشية (١) من (١٣٦/٢)، في الكلام على الصلاة الوسطى حيث أفادنا أن الطبري روى في ذلك ١١٣ خبراً ما بين مرفوع وموقوف ومقطوع.

(٢) فابن كثير في قوله تعالى: ﴿ كُونُوا رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩]، ذكر أنه قرئ (تُعلِّمُون) بالتشديد من التعليم، ولم يذكر من قرأ بذلك، وذكر أحمد شاكر أنها قراءة ابن عامر وعاصم والكسائي. عمدة التفسير (٢٧٠/٢)، حاشية (٢).

(٣) الناشر: دار السلام – الرياض، يقع في ١٠٤٠ صفحة.

وقد امتدح العلامة صالح الفوزان حفظه الله هذا المختصر، وقال فيه[1] : «وجدته عملاً جيداً، ومنهجاً سديداً».

* **نكت القرآن الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام:** مؤلفه هو العلامة الحافظ محمد بن علي الكرجي[2] رحمه الله، توفي قريباً من سنة ستين وثلاثمائة للهجرة.

حدَّث عن أبيه، وعن محمد بن العباس الأحزم، ومحمد ابن إبراهيم الطيالسي،والحسن بن يزيد الدَّقاق، وغيرهم.

حدَّث عنه ابناه عليٌّ وأبو الفرج عمَّار،وأبو المنصور مظفرُ ابن محمد البروجردي، وغيرهم.

قال الصفدي عنه[3] : «أحد الأئمة، له تصانيف منها: كتاب ثواب الأعمال، وكتاب عقاب الأعمال، وشرح السنة، وتأديب الأئمة، توفي سنة ستين وثلاث مائة أو ما قبلها».

وقال الحافظ الذهبي[4] : «الإمام العالم الحافظ».

وقال فيه السيوطي[5]: «الحافظ الإمام».

---

(١) مقدمة المختصر ص ٧.

(٢) الكرج مدينة بين همذان وأصبهان، في نصف الطريق.

(٣) الوافي بالوفيات (٤/١١٤).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٦/٢١٣)، وتاريخ الإسلام (حوادث ٣٥١ - ٣٨٠هـ)، ط. عمر عبدالسلام تدمري.

(٥) طبقات الحفاظ ص ٣٨٠.

هذا التفسير يصح أن نسميه «المنتخب من تعليقات الحافظ محمد الكرجي على آي القرآن»، وقد أشار إلى ما يقارب هذا الاسم المؤلف نفسه رحمه الله حيث سمَّى كتابه «نكت القرآن الدالة على البيان»، فهو يدل على أنه ينتخب النكت على آي القرآن، ولا يفسر القرآن آية آية.

فالكرجي رحمه الله لم يعلق على كل آية، كما لم يقصد إلى تفسير كل لفظة من كل آية، وإنما ينتخب بعض الآيات ويذكر فوائدها.

وطريقته في التعليق فريدة لا تشبه المألوف والمعتاد من طريقة المفسرين، فطريقته أنه يذكر الآية ثم يعنون للفائدة والنكتة المراد ذكرها في ضوء الآية، ثم يفيض بذكر الفوائد.

والكرجي قصد في نكته الاختصار وإلا لو قصد استيعاب ما يمكن تعليقه لكان تفسيره في مجلدات كثيرة. وما أثبته في نكته مع اختصاره غاية في البيان، فقد اهتدى لعيون الكلام، ونكت الأجوبة، والمثبت في هذا المختصر دال على إمامته.

والكرجي رحمه الله لمّا تكلم على أن العمل من الإيمان قال[1]: «ولولا أن هذا الكتاب مقتصر به على النكت غير مقصود به الإتيان

(١) نكت القرآن الدالة على البيان (١/١٤٣).

على نهاية التلخيص؛ لشرحناه بأكثر من هذا الشرح، وذكرنا جميع الآيات الدالة على تسمية العمل إيماناً، وسنلوح منها على تأليف السور في أماكنها جملاً يستغني بها الغائص على النكت على إطالة شرحنا في كتابنا المجرد فيه إن شاء الله».

وتعليقاته متنوعة فكثيراً ما يذكر التعليقات العقدية والفقهية، وأحياناً التعليقات الأصولية.

إلا أن عنايته بالتعليقات العقدية أكثر، وهي لب الكتاب وأساسه، وهذا واضح لا يكاد يخفى على من قرأ هذا الكتاب.

وهو واضح جداً من مقدمته التي كتبها بين يدي نكته، حيث قال عن نكته: «إذ هي بحمد الله شافية ملخصة كافية، فمن أضرب عن اللجاج، وقصد واضح المنهاج عرف بها ما أشكل من خدع أهل التمويه، ومن يقصد اللدد والتشبيه، فإن أكثر من ضل منهم ضل بتركه تميز كتاب ربه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، واقتصاره على مخاريق أهل الكلام، وما وشّوه به من رائق النظام الذي لا يفيد محصولاً، ولا يشيد معقولاً»[1].

أولا يفكر أن الله قد عبد بهذا الدين قبل أن يخلق أبا الهذيل، وأتباعه، والنَّظام وأشياعه، وكانت حجته على عباده واضحة بكتابه.

---

(١) مقدمة نكت القرآن الدالة على البيان (١/٧٨ – ٨١).

ويعوّلون عليه، ويدعون من خالفهم إليه متبعين فيه قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]...».

والنكتة الواحدة من تعليقات الكرجي تختلف طولاً وقصراً حسب مقتضيات البيان، فأحياناً نكتته يسيرة كما في بيان حكم القرعة[١]، وأحياناً يفيض إفاضة كبيرة غرضه تقرير الحق بأدلته وإزالة المعارضات، كما في تمييزه بين بعض الذنوب المكفرة وغير المكفرة[٢]، وكما في قبول توبة القاتل عمداً[٣]، وكذلك في كلامه عن إشاعة عورات المسلمين ومعاصيهم[٤].

كذلك الشأن في تعليقه على مجموع السورة، فأحياناً ينتخب آيات قليلة جداً حسب ما تقتضيه أولويات النكت، وكذلك ما يقتضيه إبداء تنكيت جديد لم يسبق له ذكر من قبل، وكذلك ما تقتضيه مقاصد السورة نفسها، ومراعاة طولها وصغرها، إلى غير ذلك من المرجحات لدى الكرجي. ففي سورة لقمان مثلاً انتخب ست آيات فقط، ومجموع تعليقه عليها لا يتجاوز ثمان صفحات[٥]،

---

(١) نكت القرآن الدالة على البيان (١/ ٢١٠).
(٢) نكت القرآن الدالة على البيان (٢/ ٥٧ – ٦٧).
(٣) نكت القرآن الدالة على البيان (٢/ ١٣٧ – ١٤٤).
(٤) نكت القرآن الدالة على البيان (٢/ ١٤٥ – ١٥٩).
(٥) نكت القرآن الدالة على البيان (٣/ ٦٢٤ – ٦٣٢).

وكذلك الشأن في سورة السجدة علّق على ست آيات لا غير في سبع صفحات[١] .

وفي سورة الأحزاب علَّق على سبع وثلاثين آية في ثلاث وأربعين صفحة بما يتناسب وطول السورة وما فيها من مسائل كثيرة خصوصاً في الأحكام[٢] ، وإذا قارنا تعليقه على سورة المائدة وجدناه دون تعليقه على سورة الأحزاب، إذ علّق في المائدة على سبع عشرة آية في اثنين وأربعين صفحة[٣] ، مع أن مجموع آيات سورة المائدة عشرون ومائة، بينما الأحزاب ثلاث وسبعون، فيظهر من ذلك أن ثمة ترجيحات أخرى لدى الكرجي فيما ينتخب تعليقه، والله أعلم إن كان بعض ذلك يرجع إلى نشاطه وظروف وقته حين تعليقه.

ومن الملاحظ أيضاً أنه انتخب التعليق على ثلاث آيات من سورة الرحمن[٤] التي مجموع آياتها ثمان وسبعون، بينما تعليقه على الأحزاب التي دونها في مجموع الآيات، أكثر بكثير[٥] . وإذا قارنا تعليقه على الرحمن بسورة لقمان التي تنقصها بأكثر من

(١) نكت القرآن الدالة على البيان (٣/٦٣٣ – ٦٤٠).
(٢) نكت القرآن الدالة على البيان (٣/٦٤١ – ٦٨٤).
(٣) نكت القرآن الدالة على البيان (١/٢٨٧ – ٣٢٩).
(٤) نكت القرآن الدالة على البيان (٤/٢١٠ – ٢١١).
(٥) الأحزاب أقل بخمس آيات.

النصف وجدنا تعليقه على لقمان أكثر، فالأمر لا يضطرد دائماً أن يكون تعليقه على السور الطوال أكثر مما دونها.

نكت القرآن للكرجي رحمه الله من نفائس تفسير السلف، قوي العبارة في تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة، يوعب في ذكر أدلة الاعتقاد، وله ملكة قوية أثرية وعقلية في نقض شبهات المبتدعة، مع صياغة سهلة قريبة الفهم بعيدة عن تكلف المتكلمين وزكورة المتفلسفين، انظر مثال ذلك إثبات صفة اليدين لله عز وجل[1] .

ومع ما اختُص به الكرجي من قوة في العقيدة، نجده نحريراً في الأحكام، متيقظاً لألفاظ القرآن الدالة على الأحكام، متنبهاً لعللها، عارفاً بخلاف العلماء، مع تنبيهه للراجح من المرجوح من الأقوال، بالأدلة والترجيحات المعلومة، لا يتجاوز مواقع اتفاق العلماء وإجماعاتهم.

انظر إلى تعليقه على حكم الصيد بالفهود، والصقور، والشواهين، وبيانه خطأ من حرَّم الصيد بغير الكلب توهماً منه أن (مكلبين) في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ [المائدة:٤]، هو من نعت المعلمين لا من نعت الجوارح[2] .

ومن نماذج يقظته لدلالة الآيات على الأحكام استدلاله بقوله

(١) نكت القرآن الدالة على البيان (١/ ٤١٩ – ٤٢٢).
(٢) انظر نكت القرآن الدالة على البيان (١/ ٢٩٥ – ٣٠٠).

تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥]، حيث استنبط منه تحريم البيع مع الصبيان، حيث قال[1] : «وفي نهيه عن إتيائهم المال توكيد لحظر الشري والبيع مع الصبيان، من أجل أن من لم يجز إيتاؤه مالاً بلا عوض فهو بعوض أشد حظراً لعجزه عن معرفة ما يدخل عليه من الغبن والتضييع».

ومن نفائس تعليقاته قوته في توجيه مختلف الأدلة وتأليف معناها والجمع بينها جمعاً جارياً على المعهود من معاني الشريعة، كما فعل في الجمع بين ذكر النبي ﷺ «التسبيت» علامةً للخوارج، وبين عدم استباحة النبي ﷺ قتل الخوارج لمجرد «التسبيت»[2] .

وكذلك فعل في الجمع بين الروايات المتعارضة في تجديد النبي ﷺ نكاح أبي العاص رضي الله عنه بابنته زينب، وما ورد من ردها عليه بالنكاح الأول[3] .

ومن أجمل ما يميّز تفسير الكرجي رحمه الله هو أنه تفسير محقق، لا يسرد الأقوال سرداً هكذا دون تمييز الصواب من الخطأ منها، وكذلك يُحرّر الأقوال تبعاً لقواعد الرد والقبول العلمية دون أن يغلبه ما يعلمه من إمامة القائل، فيتلمح مقوله بالأدلة العلمية التي يُعملها مع الجميع.

---

(١) نكت القرآن الدالة على البيان (١/ ٢٤٠).

(٢) نكت القرآن الدالة على البيان (٤/ ١٦٥ - ١٧٠).

(٣) نكت القرآن الدالة على البيان (٤/ ٢٦٦ - ٢٧٣).

مثال: قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ [فاطر: ٣٢ - ٣٣]. قال الحافظ محمد بن علي الكرجي رحمه الله[١] : «بشارة كبيرة لهذه الأمة، إذ قد وُعدوا على اختلاف أحوالهم من الظلم والقصد والمسابقة معاً بالجنة.

وكان قتادة والحسن يقولان: الظالم لنفسه هو المنافق، ولا أدري ما وجهه؟ فإن المنافق لا حظَّ له في الجنة، ولا يكون مصطفى، والله جل وعلا - بدأ الآية بذكر المصطفين، ثم قال: (فمنهم)، فالهاء والميم راجعتان على المصطفين لا محالة، والثلاثة الأنواع كلهم مصطفون في حكم الآية، وظاهر التلاوة، وقد قال: ﴿ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ [فاطر: ٣٣]، فكيف يكون الظالم مع هذا منافقاً؟ والمنافق مخذول لا مصطفى، وموعده النار بل أسفل دركها».

❊ ❊ ❊

---

(١) نكت القرآن الدالة على البيان (٣/٧٠٥ - ٧٠٧).

التفاسير المتوسطة

بعد المختصرات يجد طالب العلم إلماماً بمجمل تفسير الآيات، يحتاج معه إلى زيادة تحرير معاني بعض الآيات، والوقوف على تفصيل جملة من الأحكام، وبيان جميل معاني الآيات، فيقف على ذلك في الشروحات التي فيها إفاضة أكثر.

ومن التفاسير المتوسطة: رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز[1] : مؤلفه هو الحافظ عبد الرزاق بن رزق الله الرسعني الحنبلي رحمه الله (ت: ٦٦١ هـ)، أخذ عن الموفق ابن قدامة المقدسي، وأبي العباس عبدالواحد بن أحمد البخاري، وعبدالقادر ابن عبدالله الرهاوي رحمهم الله، وعز الدين علي بن محمد ابن الأثير الجزري، وغيرهم.

ومن أشهر تلاميذه ابن دقيق العيد، والدمياطي، والبندنيجي، وغيرهم.

قال عنه الذهبي: «الإمام المحدث الرحّال، الحافظ المفسر عالم الجزيرة، وكان إماماً متقناً ذا فنون وأدب».

وقال فيه الحافظ ابن كثير رحمه الله: «المحدث المفسر، سمع الكثير وحدّث، وكان من الفضلاء والأدباء».

---

(١) مطبوع في ٨ مجلدات بتحقيق أ. د. عبدالملك الدهيش.

وقال عنه ابن الجزري رحمه الله: «الإمام العلامة المحدث المفسر، المقرئ، شيخ ديار بكر والجزيرة»[1].

وهذا الكتاب ظهر فيه تبحر الحافظ الرسعني وتفننه في العلوم، فتجده يسند الأحاديث في أحيان كثيرة، ويحكم على الأحاديث تصحيحاً وتضعيفاً أحياناً أخرى، ويذكر المعاني البيانية والفوائد اللغوية، ويستدرك على الزمخشري، ويثبت عقيدة أهل السنة في تقريراته. وله تعليقات فقهية نافعة ولا غرابة في ذلك فشيخه هو الموفق ابن قدامة، قال ابن بدران رحمه الله[2]: «رموز الكنوز تفسير جليل، يذكر فيه المؤلف أحاديث يرويها بالسند، ويناقش الزمخشري، في كشافه، ويذكر فروع الفقه على الخلاف بدون دليل، وبالجملة هو تفسير مفيد جداً لمن طالعه».

وجزء من الكتاب مفقود، حيث بدأ بالآية الثالثة عشر من سورة آل عمران.

* **فتح الرحمن في تفسير القرآن**[3]: مؤلفه هو الإمام القاضي مجير الدين ابن محمد العليمي المقدسي الحنبلي (ت: ٩٢٧ هـ).

---

(١) انظر ترجمته في تحقيق أ. د. الدهيش جزاه الله خيراً على إخراج هذا الكنز.

(٢) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ص ٤١٥، بواسطة مقدمة المحقق أ. د. الدهيش.

(٣) من إصدارات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية القطرية، مطبوع في سبع مجلدات بتحقيق: نور الدين طالب.

ولد بالرملة بفلسطين سنة (٨٠٧ هـ)، وولي قضاءها سنة ٨٣٨هـ، وأخذ العلم عن كمال الدين محمد بن محمد المقدسي، وبدر الدين محمد بن محمد السعدي، وعبدالله بن محمد ابن اسماعيل القرمشندي سبط الحافظ أبي سعيد العلائي، وغيرهم، وله إجازة من الحافظ السخاوي رحمه الله.

قال فيه الحافظ السخاوي رحمه الله: «أمثل قضاة القدس، حسن السيرة، له شهرة بالفضل والإقبال على التاريخ مع خط حسن ونظم».

وقال الغزي: «الإمام العلامة المسند المؤرخ الفقيه المتفنن في سائر العلوم»[١] .

قال في وصف الكتاب العلامة عبدالقادر بن بدران الحنبلي رحمه الله[٢] : «يفسر تفسيراً متوسطاً، ويذكر القراءات، وإذا جاءت مسألة فرعية، ذكر أقوال الأئمة الأربعة فيها، وفيه فوائد لطيفة».

وتكلم القاضي مجير الدين العليمي رحمه الله عن منهجه في تفسيره، فقال[٣] : «يتضمن نبذة من تفسير القرآن العظيم، وتأويل ما فيه من الآيات والذكر الحكيم.

---

(١) بواسطة مقدمة المحقق نور الدين طالب.
(٢) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد لابن بدران ص ٤٧٦، بواسطة مقدمة المحقق.
(٣) فتح الرحمن (١/٣ – ٥) باختصار.

اعتمدت في نقله على كتب أئمة الإسلام، وانتقيته من فوائد العلماء الأعلام. وذكرت فيه خلاف القراء العشرة المشهورين الذين تواترت قراءتهم، واشتهرت روايتهم من طرق الرواة الثقات، والأئمة الأثبات.

وإذا كان في الآية الشريفة حكم متفق عليه، أو مختلف فيه بين الأئمة الأربعة، وهم: أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد - رضي الله عنهم - ذكرته ملخصاً، ولم ألتزم استيعاب الأحكام، بل أذكر المهم حسب الإمكان، ولم أتعرَّض لاختيار غيرهم من الأئمة المتقدمين، وحيث أقول في الحكم: بالاتفاق، فالمراد: اتفاق الأربعة المشار إليهم.

وربما ذكرت مذاهبهم في شيء من أصول الدين والفقه على سبيل الاختصار في محل يناسبه».

والعليمي يصدّر كلامه على كل سورة بتمييزها كونها مكية أو مدنية، ويذكر مجموع عدد حروفها وكلماتها. مقتصد في ذكر معنى الآية، وما يحتاج إلى بيان إعرابها، ونادر التنكيت الأصولي، يسرد الأحاديث سرداً غير مسندة ولا معزوة.

* **تفسير القرآن**: مؤلفه أبو المظفر منصور بن محمد ابن عبدالجبار السمعاني رحمه الله (ت: ٤٨٩هـ).

أخذ عن أبي علي الشافعي، وأبي القاسم الزنجاني، والكراعي، وغيرهم.

وحَدَّث عنه: أولاده، وعمر السرخسي، وإسماعيل التيمي، وأبو نصر الغازي، وغيرهم.

قال فيه حفيده أبو سعد السمعاني رحمه الله[1] : «جدنا الإمام أبو المظفر منصور بن محمد بن عبدالجبار السَّمْعاني، إمام عصره بلا مدافعة، وعديم النظير في فنه، ولا أقدر على أن أصف بعض مناقبه، ومن طالع تصانيفه وأنصف، عرف محلَّه من العلم.

صنّف التفسير الحسن المليح الذي استحسنه كلُّ من طالعه، وأملى المجالس في الحديث، وتكلم على كل حديث بكلام مفيد، وصنّف التصانيف في الحديث، مثل «منهاج أهل السنة»، و«الانتصار»، و«الرد على القدرية»، وغيرها.

وصنّف في أصول الفقه القواطع، وهو يغني عمّا صُنف في ذلك الفن، وفي الخلاف «البرهان» وهو مشتمل على قريب من ألف مسألة خلافية، و«الأوساط» و«المختصر» الذي سار في الآفاق والأقطار الملقَّب بالاصطلام».

وقال إمام الحرمين رحمه الله[2] : «لو كان الفقه ثوباً طاوياً لكان أبو المظفر السمعاني طرازه».

وقال أبو النضر الغامي رحمه الله[3] : «توحّد عن أقرانه بالعلم والزهد في الدنيا والإتقان في الرواية والتجرُّد من الدنيا».

---

(١) الأنساب (٧/١٣٩).

(٢) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (١/٢٧٤).

(٣) شذرات الذهب (٣/٣٩٤).

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1] : «كانت له يد طولى في فنون كثيرة».

وقال ابن العماد الحنبلي رحمه الله[2] : «وله تفسير جيّد حسن».

وهو تفسير مليح، حوى تفسيراً مجملاً للآيات، وتفصيلاً في بعض القصص والأخبار، وتعليقاً مهما في مسائل الاعتقاد التي كثر فيها خطأ أهل البدع والضلال.

وله عناية بذكر كلام أئمة اللغة في معاني المفردات، وتحرير للقراءات واضح جداً، بحيث يجد الطالب في هذا التفسير أكثر بغيته من كل أنواع العلوم المتعلقة بالآيات بأيسر طريق وأقربه.

وواضح من عمل المصنف أنه قصد الاختصار، وإلا لو أعطى العنان لقلمه كما فعل في الاصطلام، وفي القواطع في أصول الفقه، لرأينا عجباً.

* **أحكام القرآن** [3] : مؤلفه: أبو محمد عبدالمنعم ابن عبدالرحيم المعروف بابن الفرس الأندلسي (ت: ٥٩٧هـ) رحمه الله.

نشأ في بيت علم فهو وأبوه وجده علماء فقهاء لهم رواية ودراية.

---

(١) البداية والنهاية (١٥٩/١٦).

(٢) شذرات الذهب (٣٩٣/٣).

(٣) الناشر: دار ابن حزم – بيروت، تحقيق: د. طه بن علي بوسريح، في ثلاث مجلدات.

أخذ العلم عن أبي بكر ابن العربي، وأبي طاهر السلفي، وأبي عبدالله المازري، رحمهم الله وغيرهم.

ومن تلاميذه: أبو محمد القرطبي، وأبو محمد ابن عطية، وأبو الحسن علي بن محمد الغافقي، وغيرهم.

قال فيه التجيبي: «رأيت من حفظه وذكائه، وتفننه في العلوم ما عجبت منه».

وقال عنه ابن الأبّار: «كان له تحقق بالعلوم على تفاريقها، وأخذ في كل فن منها، وله تقدم في حفظ الفقه وبصر بالمسائل، مع المشاركة في صناعة الحديث والعكوف عليها».

وقال الذهبي رحمه الله: «الشيخ الإمام، شيخ المالكية بغرناطة في زمانه».

وأما بالنسبة لثناء الأئمة على مؤلفه «أحكام القرآن»، فقد قال ابن الزّبير: «كتاب الأحكام ألَّفه وهو ابن خمسة وعشرين عاماً، فاستوفى ووفّى».

وقال ابن الأبّار: «جليل الفائدة من أحسن ما وُضع في ذلك»[1].

وقد أفصح ابن الفرس الأندلسي رحمه الله عن منهجه في كتابه، حيث قال[2] : «اقتصرت منها على ما هو أظهر تعلقاً، وأبين استنباطاً، ليكون مسباراً لغيرها ودليلاً على مأخذ سواها.

---

(١) من مقدمة المحقق.

(٢) أحكام القرآن (١/ ٣٤ - ٣٥) باختصار.

وما عرض من اختلاف لأهل العلم في شيء من ذلك ذكرته ليعرف الناظر في كتابي ما اتُفق عليه من الأحكام، وما اختُلف فيه.

ورأيت أن أذكر مع ذلك ناسخ القرآن ومنسوخه، لتكمل به الفائدة، وتتم به للمتفقه العائدة».

وابن الفرسي الأندلسي رحمه الله وإن كان مالكي المذهب إلا أنه أبرز الأقوال المشهورة في أحكامه، وهو كثير النقل عن أبي حنيفة، و الشافعي، وأحمد بن حنبل، والأوزاعي. وكتابه مليء بالدرر وله نقولات عن أئمة الشأن كالطبري وغيره.

والكتاب مليء بالفوائد الأصولية والقواعد الفقهية، عظيم الفوائد، ينقل فيه أقوال الصحابة والتابعين ولا يقتصر على أقوال الأئمة المتبوعين.

* **تفسير القرآن العظيم**: مؤلفه هو أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي رحمه الله (ت: ٧٧٤هـ).

مات والده وله سبع سنوات، تفقه بالبرهان الفزاري، والكمال ابن قاضي شهبة، ثم صاهر الحافظ المزي وتزوج بابنته، وسمع عليه أكثر مصنفاته، وصحب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وأكثر الأخذ عنه.

قال ابن حبيب فيه: «انتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير»[1] .

وقال عنه الحافظ ابن حجر رحمه الله[2] : «كان كثير الاستحضار، قليل النسيان، جيد الفهم».

وقال عنه تلميذه ابن حجي رحمه الله[3] : «أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث وأعرفهم بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وما أعرف أني اجتمعت به على كثرة ترددي إليه إلا واستفدت منه».

وقال عنه الحافظ السخاوي رحمه الله[4] : «الحافظ العمدة المؤرخ المفسر، صاحب [التفسير] و[البداية والنهاية] وغيرهما مما لكلِّه النهاية، وسارت في حياته في البلاد، وانتفع بها الناس بعد وفاته.

كان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، أثنى عليه الأئمة».

وقال الحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله[5] : «له [التفسير] الذي لم يؤلف على نمطه مثله».

---

(١) إنباء الغمر بأنباء العمر (١/٤٦).
(٢) إنباء الغمر بأنباء العمر (١/٤٦).
(٣) شذرات الذهب (٦/٢٣٢).
(٤) الذيل التام على دول الإسلام ص ٢٥٩.
(٥) طبقات الحفاظ ص ٥٣٤.

وطريقة ابن كثير رحمه الله في تفسيره طريقة سلفية أثرية، يذكر تعليقاً يسيراً لمعنى الآية ثم يسوق الآيات والأحاديث المرفوعة وآثار الصحابة والتابعين، وأئمة التفسير المشهورين من بعدهم مع تمييز الروايات في أكثرها والحكم عليها، ثم يُتبع ذلك كله بخلاصة تفسير الآية، ويُحرر فقه الأحكام، ويقرر العقيدة الصحيحة، ويحيل فيما يختصره إلى بعض مصنفاته الأخرى كالأحكام الكبير وغيره.

تفسير ابن كثير درة التفاسير السلفية النقية، ارتضاه المسلمون كلهم في مشارق الأرض ومغاربها، وطرح الله له القبول فلا يضاهيه كتاب آخر في حجمه ، ومن أسباب ذلك إخلاصه، والله أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وميراثاً.

قال العلامة أحمد محمد شاكر رحمه الله[١] : «إن تفسير الحافظ ابن كثير أحسن التفاسير التي رأينا وأجودها وأدقها، بعد تفسير إمام المفسرين أبي جعفر الطبري.

ولسنا نوازن بينهما وبين أي تفسير آخر مما بأيدينا، فما رأينا مثلهما ولا ما يقاربهما.

وقد حرص الحافظ ابن كثير رحمه الله على أن يفسر القرآن بالقرآن أولاً، ما وجد إلى ذلك سبيلاً، ثم بالسنة الصحيحة التي هي بيانٌ لكتاب الله، ثم يذكر كثيراً من أقوال السلف في تفسير الآي.

---

(١) مقدمة عمدة التفسير (١/ ٥ – ٦).

وإنه ليذكر الأحاديث في أكثر المواضع بأسانيدها من دواوين السنة ومصادرها، وكثيراً ما يذكر تعليل الضعيف منها، ولكنه يحرص أشد الحرص على أن يذكر الأحاديث الصحيحة، وإن ذكر معها الضعاف.

فكتابه بجانب أنه تفسير للقرآن معلمٌ ومرشدٌ لطالب الحديث، يعرف به كيف ينقد الأسانيد والمتون، وكيف يُميّز الصحيح من غيره. فهو في هذا المعنى تعليمي عظيم، ونفعه جليل كثير».

وقد تكلم البعض عن تفسير ابن كثير رحمه الله وبالغ في اتهامه بكثرة رواية الإسرائيليات، وهذه مبالغة وتهويل غير دقيق، قال العلامة محمد تقي الدين الهلالي رحمه الله بعد أن ساق جملة من نقد ابن كثير رحمه الله للإسرائيليات[1] : «أفبعد هذا يُتَّهم ابن كثير رحمه الله بالغفلة وحشو كتابه بالإسرائيليات والحكايات الخيالية؟ اللهم لا، إنه بريء من ذلك».

فالإسرائيليات إذا كانت فاشية في كتب التفسير معتمد كثير من المؤلفين في تعيين بعض ما هو مبهم في قرآننا، وجاء حافظ نحرير كابن كثير رحمه الله وأوردها ونقدها حتى لا يغتر بها الناس، فهذا مما يُمدح به.

---

(١) سبيل الرشاد (٢/١٢٦).

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله مبيناً موقف العلماء من الإسرائيليات[1] : «ومنهم من ذكر كثيراً منها، وتعقب البعض مما ذكره بالتضعيف أو الإنكار مثل ابن كثير».

* **معالم التنزيل**: مؤلفه محيي السُّنَّة أبو محمد الحسين ابن مسعود الفراء البغوي (ت: ٥١٦هـ).

سمع من القاضي حسين بن محمد المروزي، وعبدالواحد المَليحي، وعلي بن يوسف الجويني، وأبي الحسن الداوودي، ويعقوب الصيرفي، وأبي الفضل الحنفي، وغيرهم. روى عنه: أبو منصور العُطاردي، وأبو الفتوح الطائي، وأبو عبدالله الزاغولي، وأهل مرو.

قال عنه الحافظ الذهبي رحمه الله [2] : «يُلقَّب بمحيي السُّنَّة وبرُكن الدين، وكان سيداً إماماً، عالماً علَّامة، زاهداً قانعاً باليسير، كان يأكل الخبز وحده، فعُذل في ذلك، فصار يأتدم بزيت، وكان أبوه يعمل الفراء ويبيعها، بُورك له في تصانيفه، ورُزق فيها القبول التام، لحسن قصده، وصِدق نيته، وتنافس العلماء في تحصيلها، وكان لا يلقي الدرس إلا على طهارة، وكان مقتصداً في لباسه، له ثوب خام، وعمامة صغيرة على منهاج السلف حالاً وعقداً، وله القدم الراسخ في التفسير، والباع المديد في الفقه».

---

(١) أصول في التفسير ص ٦٣، ط. دار ابن الجوزي.

(٢) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٤١).

وقال فيه الحافظ ابن كثير رحمه الله[1] : «كان علامة زمانه، وكان ديِّناً ورعاً زاهداً عابداً صالحاً».

وقال السبكي[2] : «قَلَّ أن رأيناه يختار شيئاً إلا وإذا بحث عنه إلا وُجد أقوى من غيره، هذا مع اختصار كلامه، وهو يدل على نبل كبير، وهو حري بذلك فإنه جامع لعلوم القرآن والسُّنَّة والفقه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[3]: «وأما التفاسير الثلاثة المسؤول عنها فأسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفة [البغوي]، لكنه مختصر من تفسير [الثعلبي]، وحذف منه الأحاديث الموضوعة، والبدع التي فيه، وحذف أشياء غير ذلك».

وقد تحدث عن منهج البغوي في تفسيره مختصره د. عبدالله الزيد جزاه الله خيراً، حيث قال[4] : «تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنة، ثم بأقوال الصحابة، ثم بأقوال التابعين.

وسلك البغوي رحمه الله مسلكاً متوسطاً بلفظ موجز وسهل بعيداً عن الاستطراد والحشو، وما ذكره من الأحاديث النبوية الشريفة فغالبها يسوقها بأسانيدها التي اشترط فيها الصحة أو الحسن.

---

(١) البداية والنهاية (١٦/ ٢٦٢).
(٢) تكملة شرح المهذب بواسطة طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (١/ ٢٨١).
(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٨٦).
(٤) مقدمة مختصر تفسير البغوي ص ١٠.

وما ذكره عن الصحابة والتابعين فغالباً يذكره بلا إسناد، وذلك لأنه ذكر في مقدمته إسناده إلى كل من يروي عنهم.

يذكر أقوال السلف في تفسير الآية ولا يرجح بعضها على بعض في كثير من الأحيان إشارة منه رحمه الله إلى أن معنى الآية قد يحتمل جميع المعاني أو أكثرها، وهذه ميزة تميَّز بها تفسير البغوي قلَّما توجد في غيره.

يتحاشى ذكر المسائل الكلامية ويكتفي بإيراد منهج السلف فيها.

يذكر البغوي بعض الأخبار الإسرائيلية عند تفسير بعض الآيات التي تحكي قصص أهل الكتاب، وهو مقل منها بالنسبة لغيره من المفسرين. يذكر بعض الأحكام الفقهية والقراءات المشهورة، وأسباب النزول في تفسيره».

* **زاد المسير في علم التفسير**: مؤلفه أبو الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي رحمه الله (ت: ٥٩٧هـ).

سمع من أبي الحسن ابن الزاغوني، وأبي غالب ابن البناء، وأبي سعد أحمد بن محمد البغدادي الحافظ، وغيرهم.

وحدّث عنه: أولاده، والحافظ عبدالغني، وموفق الدين ابن قدامة، والضياء، وابن عبد الدائم، وغيرهم.

من ذرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه، متفنن، أُلين له الكلام في الوعظ، فجاءت عباراته بالغة فائقة الرونق.

قال فيه أبو عبدالله ابن الدبيثي[1] : «إليه انتهت معرفة الحديث وعلومه، والوقوف على صحيحه من سقيمه، وكان من أحسن الناس كلاماً، وأتمّهم نظاماً وأعذبهم لساناً، وأجودهم بياناً».

وقال عنه الموفّق عبداللطيف[2] : «كان في التفسير من الأعيان، وفي الحديث من الحُفَّاظ».

مصنفاته كثيرة بلغ مجموعها مئتان ونيف وخمسون كتاباً[3] ، وبسبب إكثاره وعدم مراجعة ما كتب وقع في أوهام كثيرة، قال الموفَّق عبداللطيف: «كان كثير الغلط فيما يُصنِّفه، فإنه كان يفرغ من الكتاب، ولا يعتبره»[4] .

وعلَّق على ذلك الحافظ الذهبي رحمه الله فقال[5] : «هكذا هو له أوهام وألوان من ترك المراجعة، وأخذ العلم من صحف، وصنّف شيئاً لو عاش عمراً ثانياً، لما لحقَ أن يُحرِّره ويُتقنه».

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/٣٧٣).
(٢) سير أعلام النبلاء (٢١/٣٧٧).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢١/٣٧٠).
(٤) سير أعلام النبلاء (٢١/٣٧٨).
(٥) سير أعلام النبلاء (٢١/٣٧٨).

وقال ابن الأخضر: «إنما يتتبع على من قلَّ غلطه، فأما هذا فأوهامه كثيرة»[1].

وانتقده أعلام أهل السُّنَّة لمخالفاته في العقيدة، قال موفق الدين أبو محمد ابن قدامة المقدسي رحمه الله[2] : «كان حافظاً للحديث، إلا أننا لم نرض تصانيفه في السنة، ولا طريقته فيها».

وانتقد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ابن الجوزي في عقيدته، وعاب عليه تأويلاته، حيث قال[3] : «.. من يذهب منهم إلى التأويل كابن عقيل وابن الجوزي وغيرهما، يجعلون هذه - التأويلات - عمدتهم؛ حتى يذكرها أبو الفرج ابن الجوزي في تفسيره، ولا يذكر من كلام أحمد والسلف ما يناقضها».

وقال في شأن تأويلاته الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله (ت: ٧٩٥هـ)[4] : «نقم جماعة من مشايخ أصحابنا وأئمتهم من المقادسة والعلثيين من ميله إلى التأويل في بعض كلامه، واشتد نكرهم عليه في ذلك. ولا ريب أن كلامه في ذلك مضطرب مختلف، وهو إن كان مطلعاً على الأحاديث والآثار في هذا الباب، فلم يكن خبيراً بحل شبه المتكلمين، وبيان فسادها.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/٣٨٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢١/٣٨١).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/٤٠٠).

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة (١/٤١٤).

وكان معظماً لأبي الوفاء ابن عقيل، يتابعه في أكثر ما يجد في كلامه[1] ، وإن كان قد رد عليه في بعض المسائل، وكان ابن عقيل بارعاً في الكلام، ولم يكن تام الخبرة بالحديث والآثار، فلهذا يضطرب في هذا الباب، وتتلون فيه آراؤه، وأبو الفرج تابع له في هذا التلون».

ومن أسباب وقوع ابن الجوزي في التأويلات أخذه عن أبي الحسن ابن الزاغوني، والله يغفر له.

وأما بالنسبة للسبب الباعث لتأليف تفسيره، فقد قال ابن الجوزي نفسه رحمه الله[2] : «إني نظرت في جملة من كتب التفسير، فوجدتها بين كبير قد يئس الحافظ منه، وصغير لا يستفاد كل المقصود منه، والمتوسط منها قليل الفوائد، عديم الترتيب، وربما

---

(١) وقع ابن عقيل الحنبلي رحمه الله في مخالفات وتناقضات في العقيدة، قال فيه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما [ابن عقيل] فإذا انحرف وقع في كلامه مادة قوية معتزلية في الصفات، والقدر، وكرامات الأولياء، بحيث يكون الأشعري أحسن قولاً منه، وأقرب إلى السنة». مجموع الفتاوى (٦/٥٣).
وقال فيه أيضاً: «فـ[ابن عقيل] إنما وقع في كلامه المادة المعتزلية بسبب شيخه أبي علي ابن الوليد، وأبي القاسم ابن التبان المعتزليين؛ ولهذا له في كتابه «إثبات التنزيه» وفي غيره كلام يضاهي كلام المريسي ونحوه، لكن له في الإثبات كلام كثير حسن وعليه استقر أمره في كتاب «الإرشاد» مع أنه قد يزيد في الإثبات، لكن مع هذا فمذهبه في الصفات قريب من مذهب قدماء الأشعرية والكلابية في أنه يقر ما دل عليه القرآن والخبر المتواتر، ويتأول غيره». مجموع الفتاوى (٦/٥٤).

(٢) زاد المسير (١/٣).

أهمل فيه المشكل، وشرح غير الغريب، فأتيتك بهذا المختصر اليسير، منطوياً على العلم الغزير».

وقال أيضاً[1] : «فرب تفسير أخل فيه بعلم الناسخ والمنسوخ، أو ببعضه، فإن وُجد فيه لم يوجد أسباب النزول، أو أكثرها، فإن وُجد لم يُوجد بيان المكي من المدني، وإن وُجد ذلك لم توجد الإشارة إلى حكم الآية، فإن وُجد لم يوجد جواب إشكال يقع في الآية، إلى ذلك من الفنون المطلوبة.

وقد أدرجت في هذا الكتاب من هذه الفنون المذكورة مع ما لم أذكره مما لا يستغني التفسير عنه ما أرجو الغناء بهذا الكتاب عن أكثر ما يجانسه».

وتفسير ابن الجوزي رحمه الله يستوعب في الغالب الأقوال المشهورة في تفسير الآية، إلا أنه في كثير من الأحيان لا يُحرّر الصواب، ولا ينبه ما كان من الأقوال في معنى الآخر.

له عناية واضحة بالقراءات، ويذكر أحياناً ما يعتقده من خطأ في القراءات. يذكر فضائل كل سورة حيث يوجد، وأسباب نزول الآيات، ثم يتبع ذلك بذكر معانيها. له عناية فائقة بالنقل عن أهل اللغة كابن قتيبة، والفراء، والزجاج، وابن الأنباري، وأبي الحسن الأخفش.

---

(١) زاد المسير (١/٧ – ٨).

تفسيره أَلَـمَّ بـبعض الإسـرائيليات، ولـم يخـلُ مـن واهيـات المرويات.

يذكر الأحاديث والآثار مجردةً عن أسانيدها، وفي أكثر الأحيان لا يـذكر مـن روى هـذه الأحاديـث ولا يعزوهـا إلـى دواويـن الـسنة المشهورة مع أنه من أئمة الحديث.

له عناية كبيـرة واضـحة فـي النقـل عـن القاضـي أبـي يعلى دون سائر فقهاء الحنابلة. تفسيره نـدر مـن الإلماحـات ومـن الإبـداع فـي الاستنباطات، إلا أنه يريح الطالب في معرفة أقوال المفسرين حيث يجمعها لك، إلا أنه لا يُحرر الأقوال.

* **الهداية في بلوغ النهاية**: مؤلفه هو العلامة المقرئ أبـو محمـد مكي بن أبي طالب القيسي القرطبي رحمه الله (٣٥٥ – ٤٣٧هـ).

أخذ عن: ابن أبي زيد، وأبي الحسن القابسي، وأبي الطّيِّب ابـن غلبون، وغيرهم.

وأخذ عنه: عبدالله بن سهل، ومحمد بن أحمد بن مُطَرّف، وأبـو الوليد الباجي، وغيرهم.

فـنحن أمـام إمـام متخـصص فـي علـوم القـرآن والتفـسير، ومـن مصنفاته في ذلـك سـوى الهدايـة: التبـصرة فـي القـراءات فـي خمـسة أجزاء، والمأثور عن مالك في أحكام القـرآن وتفـسيره عـشرة أجـزاء، ومشكل المعاني والتفسير خمسة عشر جزءاً[١].

---

(١) شذرات الذهب (٣/٢٦١).

وله الإيجاز في ناسخ القرآن ومنسوخه، والإيضاح في الناسخ والمنسوخ، والتذكرة في اختلاف القراء، والإبانة عن معاني القراءات، الموجز في القراءات، والرعاية في تجويد القرآن وتحقيق لفظ التلاوة، وإعراب القرآن، وغيرها[1] .

قال عنه ياقوت الحموي رحمه الله[2] : «كان إماماً عالماً بوجوه القراءات متبحراً في علوم القرآن والعربية فقيهاً أديباً متفنناً».

وقال فيه الحافظ الذهبي رحمه الله[3] : «كان من أوعية العلم مع الدّين والسكينة والفهم».

وقال ابن العماد الحنبلي رحمه الله[4] : «من أهل التبحر في العلم خصوصاً القرآن».

وهذا التفسير له قيمة عظيمة لعدة أمور:

أولاً : تقدَّم مكي بن أبي طالب رحمه الله (٣٥٥ - ٤٣٧هـ).

ثانياً : إمامة مكي بن أبي طالب رحمه الله، فهو إمام من أئمة القراءات، وعارف باللغة نحوي لغوي.

---

(١) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (٦/ ٢٧١٤).

(٢) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (٦/ ٢٧١٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٩١).

(٤) شذرات الذهب (٣/ ٢٦٠).

ثالثاً : صياغته لمعاني القرآن بعبارات جامعة تغني عن التطويل، ويذكر معاني مفردات الألفاظ في الآية، ثم معنى الآية كاملاً، ويذكر مقاصد السورة وأمهات معانيها أحياناً، يفسر القرآن بالقرآن، والسُّنَّة وآثار الصحابة ومقتضى ألفاظ الآية.

ولم يتوسع في التعليق على الأحكام، لأنه أفرد لذلك مصنفاً خاصاً.

سلك سبيل الاختصار في الإعراب، وأحال من أراد التوسع إلى كتابه «مشكل الإعراب» كما نص على ذلك[1] .

وذكر أنه لا يطيل إلا إذا وقع الإعراب على النادر[2] .

يذكر الأحاديث مجردة عن الأسانيد ومجردة عن العزو لدواوين السُّنَّة ومجردة عن حكمه عليها.

تفسيره مقتصد من غير إخلال ولا إطالة، ولم يطل في التعليق لاكتفائه بسائر مصنفاته في علوم القرآن، والإحالة عليها حيث يقتضي ذلك.

يؤخذ على المؤلف أنه يحكى أقوال المبتدعة أحياناً ولا يبين مخالفتها للعقيدة والسُّنَّة.

وتفسير مكي بن أبي طالب رحمه الله صحيح أنه مقتصد في تعليقه، إلا أنه أحياناً يفيض إفاضة بالغة نافعة، فانظر مثلاً كيف

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (١/ ١١٤).

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية (١/ ١٢٩).

تكلم على «صار وأخواتها» في تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣][1].

وكذلك في الأحكام انظر كيف أفاض في أحكام الديات عند تعليقه على آية القصاص: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، فتجد إفاضته جاوزت ما هو مذكور في بعض كتب الأحكام، وكثير من كتب التفسير العامة[2].

وفي القصص يفيض أحياناً إفاضة فوق المعهود من الاقتصاد في تفسيره، كما فعل في قصة ذي القرنين في تعليقه على قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣][3]، فقد استوعب كل ما قيل تقريباً في تعيين ذي القرنين، وإن كان يؤخذ عليه إيراد جملة من الإسرائيليات في كثير من القصص والمبهمات التي لا طائل من وراء تعيينها.

وأحياناً وإن اقتصد فإنه يزيل الإشكالات خصوصاً اللغوية، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]، حيث بيَّن أن «أم» لا تكون إلا بين شيئين متقاربين في المدح أو في الذم، ولا قرب بين الكافر والمؤمن في مدح ولا ذم،

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (٧٤٩٢٦ – ٤٩٢٧).

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية (٣/١٧٣٥ – ١٧٦١).

(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/٤٤٤٥ – ٤٤٤٩).

فالذم كله للكافر، والمدح كله للمؤمن، وأن الآية جاءت نقيضاً لدعوى الكفار أن فيهم خيراً وفضلاً[1] .

وكذلك الحال بالنسبة لاقتصاده في الأحكام، اقتصاد نافع جداً، محيط بالأقوال ومذاهب العلماء، كما في تعليقه على قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، في حكم ذبائح أهل الكتاب والمجوس[2] .

وكذلك في توضيحه لمعنى الكلالة[3] في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً﴾ [النساء: ١٢].

والشيء الملاحظ في منهج مكي بن أبي طالب رحمه الله في «الهداية إلى بلوغ النهاية» في أحيان كثيرة سرد أقوال العلماء في المسألة سرداً مجرداً عن التحقيق، وترجيح الراجح، حتى في الأشياء التي يتقنها، فمثلاً سرد اختلاف العلماء في سجدة التلاوة في قوله تعالى: ﴿ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧][4] .

وأحياناً يذكر الأقوال في المسألة ويحرّر المسألة، ويذكر الراجح ويبيّن المآخذ على الأقوال المرجوحة وأسباب ضعفها، كما في قوله

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (١٠/٦٥٣٢).

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية (٣/١٦٠٥ - ١٦٠٨).

(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية (٢/١٢٤٦ - ١٢٤٧).

(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية (٧/٤٩٣٦).

تعــالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩]، حيث ذكر أن (عقدتم) فيها قراءتان، بالتشديد والتخفيف، وذكر أن أبا عبيدة رحمه الله أنكر قراءة التشديد، وبيَّن ثبوت القراءة بها، وبيّن ضعف قول أبي عبيدة رحمه الله(١) .

وكذلك فعل في تعليقه على تعيين سؤال الله للنبيين يوم القيامة عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]، فذكر الأقوال في ذلك(٢) ، وذكر ما اعتُرض على بعض الأقوال الضعيفة، وفي خاتمة تعليقه رجّح أن السؤال عام(٣) .

ونجده في باب العقيدة يُلزم القارئ بوضوح وصراحة إتباع عقيدة أهل السنة والجماعة، ويحذر مما خالفها من عقائد المبتدعة، كما في تعليقه على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨]، حيث قال بعد أن ذكر طبقات الناس في الآخرة(٤) : «هذا مذهب أهل السنة والجماعة فاعرفه واعتقده، ولا تُعرج عنه!».

ويلاحظ عليه أحياناً أنه يورد أقوال المبتدعة ويذكر شبهاتهم ويرد على الشبهة رداً مجملاً، لا يحصل معه اليقين بزوال الشبهة من

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (٣/١٨٥٢ - ١٨٥٣).
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية (٣/١٩٢٢ - ١٩٢٤).
(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية (٣/١٩٢٤).
(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية (١٠/٦٥٣٧).

ذهن من وردت على خاطره من القراء، كما فعل مع شبهة المعتزلة في الاحتجاج بالقدر في تعليقه على قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨][1] .

وكذلك فعل عند تعليقه على قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، فقد ذكر قول من أوّله وحرّفه إلى معنى القوة والنعمة، ولم يرد هذا التأويل، مع أنه قرر في كلامه كذلك وجوب وصف الله بما وصف به نفسه، وأعجب من ذلك أنه إمام في اللغة تأوّل لمن فسّر (يد الله) بالقوة بأنه كقوله تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥]، أي أصحاب القوة والبصائر في الدين[2] ، وهذا خلط غريب صدوره من إمام في اللغة كمكي بن أبي طالب رحمه الله.

وفي مواضع أخرى يذكر أقوال المبتدعة مع أقوال أهل السنة، ويُرجّح قول أهل السنة ويبين أنه أحسن الأقوال، فعند قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ذكر أن استوى بمعنى علا وارتفع، وذكر قول من قال إنه: استولى، ثم قال: «وأحسن الأقوال في هذه «علا»[3].

وضروري هنا أن نستحضر أن مكي بن أبي طالب من تلاميذ أبي محمد بن أبي زيد القيرواني - الملقب بمالك الأصغر، كذلك

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (٣/٢٢٣٤).
(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية (٣/١٨٠٠ - ١٨٠١).
(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية (٧/٤٦١٠).

من قرأ تفسير مكي بن أبي طالب رحمه الله يجده كثير النقل عن الطبري عموماً إلا من كلامه في العقيدة، فإنه لا يعرج عليه ولا يستشهد به لرد مقالات المبتدعة.

ومكي يذكر أحياناً أقوالاً غير مرضية، وينسبها إلى أهل السنة والجماعة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، حيث قال[1] : «وقيل: معنى ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: يملكها، لا مدعي لملكها ذلك اليوم غيره، كما تقول: هذا في قبضتي، وقال المبرد: بيمينه: بقوته، وهذا القول هو قول علماء أهل السنة».

كلا والله هذا تأويل وتحريف، فاليمين يد الله وكلتا يدي ربنا يمين، على ما يليق بالله عز وجل من غير تمثيل ولا تعطيل.

* **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:** مؤلفه هو أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي رحمه الله (ت: ٥٤٦هـ). حدَّث عن الحافظ أبي علي الغساني، ومحمد بن الفرج مولى ابن الطَّلَّاع، وأبي الحسين يحيى بن أبي يزيد المقرئ ابن البيان، وغيرهم.

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (١٠/٦٣٧٦).

وحدَّث عنه أولاده، وأبو القاسم ابن حُبيش الحافظ، وأبو محمد ابن عبيدالله ، وعبد المنعم ابن الفرس، وآخرون.

قال عنه الحافظ خلف بن بشكوال: «كان واسع المعرفة، قوي الأدب، متفنناً في العلوم، أخذ الناس عنه».

وقال فيه الحافظ الذهبي رحمه الله: «كان إماماً في الفقه، وفي التفسير، وفي العربية، قوي المشاركة، ذكياً فطناً مدركاً، من أوعية العلم»[1] .

كتابه من أبدع كتب التفسير، يذكر دقائق معاني مفردات الآية، ومعناها الكلي، كثير الفوائد اللغوية، وله عناية بمذاهب الفقهاء، وترجيح بين الأقوال، نادر الحشو إلا ما كان من بعض التوسع في القصص، فكل كلمة في هذا التفسير مفيدة. له عناية بالقراءات، وذكر فوائدها، دقيق النقد لأقوال العلماء، محرر جداً للناسخ والمنسوخ، وله تنكيت أصولي واضح.

نقوله عن الصحابة والتابعين نقل مجرد عن الأسانيد، وله نقد واضح لها من جهة المعنى، نقده للمعتزلة والمرجئة والخوارج واضح، ولا يظهر له نقد أبداً للأشاعرة والماتريدية، والله أعلم.

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وذكر أنه برزخ بين المعتزلة وأهل السنة، حيث قال رحمه الله[2] : «تفسير [ابن عطية]

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/٥٨٧ – ٥٨٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٣٦١).

وأمثاله أتبع للسنة والجماعة وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل، فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير [محمد بن جرير الطبري]، وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدراً، **ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين، وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم،** وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة؛ لكن ينبغي أن يُعطى كل ذي حق حقه، ويعرف أن هذا من جملة التفسير على المذهب.

فإن الصحابة والتابعين والأئمة إذا كان لهم في تفسير الآية قول، وجاء قوم فسروا الآية بقول آخر لأجل مذهب اعتقدوه، وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة والتابعين لهم بإحسان صاروا مشاركين للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا».

على كل حال ليتحفظ طالب العلم من المسائل التي انتقدها العلماء على ابن عطية رحمه الله في العقيدة وليستفد من بقية تعليقاته، قال أبو حيان الأندلسي رحمه الله ممتدحاً ابن عطية رحمه الله[1] : «أجل من صنّف في علم التفسير، وأفضل من تعرض للتنقيح فيه والتحرير».

---

(١) مقدمة البحر المحيط (١/ ٩).

* **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية**: مؤلفه: هو العلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني رحمه الله (١١٧٣هـ - ١٢٥٠هـ)، أحد أذكياء ونجباء العلماء المتأخرين بالقطر اليماني، ضرب من كل علم بسهم، وكتب في كل فن، ومصنفاته كثيرة جداً. من أنفعها: شرح الصدور في تحريم رفع القبور،وأدب الطلب، ونيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، وفتح القدير في تفسير القرآن.

أخذ عن: والده، والعلامة أحمد بن محمد الحرازي، والقاضي عبدالرحمن بن حسن الأكوع، والعلامة عبدالله النِّهمي، والعلامة أحمد بن عامر الحدائي، وغيرهم.

وأخذ عنه: أحمد الضمدي، وأحمد بن ناصر الكبسي، وأحمد ابن حسين الصنعاني، وغيرهم.

ارتسم الشوكاني رحمه الله منهجاً واضحاً واحداً في تعليقه على جميع آيات القرآن، حيث التزم شرحاً متوسطاً لجميع آي القرآن[١]، يذكر فيه معاني ما يحتاج بيانه من مفردات الكلمة ثم يذكر معنى الآية دراية، وما اشتملت عليه من تقريرات وفوائد، فإذا انتهى من ذلك كله، أورد توثيق كل ما ذكره من أسباب نزول الآية ومعناها وما

---

(١) إلا مواقع يسيرة لها أسباب أوجبت الإسهاب كزيادة توضيح ودفع إشكال أو زيادة بيان، أو تصحيح خطأ متوارث تداوله عند المفسرين، أو معالجة أمر واقع كالتقليد والاختلاف والبدع، انظر تعليقه على الآية (١٤٥) من سورة البقرة، وانظر تعليقه على التناسب بين الآيات والسور الآية (٤٠) من سورة البقرة، وتعليقه على الآية (٢٦) من سورة الجن.

قيل فيها بالروايات المرفوعة عن النبي ﷺ والآثار الموقوفة عن الصحابة رضي الله عنهم، والمقطوعة عن التابعين، فلذلك تفسيره مطابق لاسمه، جامع بين فني الرواية والدراية.

وعنايته في تفسيره بالناسخ والمنسوخ للآيات واضح كعنايته بأسباب النزول، وإن كان في بعض الأحيان يحكي ما قيل في ذلك دون ترجيح.

عنايته واضحة بذكر كل معاني الآية وحملها على العموم حيث يقتضي لفظ الآية ذلك[1]، ومع تحققه بذلك لم يقع في التكلف المذموم الذي وقع فيه البعض حيث أدخل في تفسيره ما لا علاقة له بمعنى الآية.

ومن أوضح وأبرز ملامح هذا التفسير عنايته بكلام اللغويين والنحويين وذكر أقوالهم وبحث خلافهم وتحريره في الغالب، وترجيح الراجح في ذلك[2].

وله عناية واضحة بإبراز بلاغة الآيات وما اشتملت عليه من تشبيه واستعارة وكنايات.

ولم يعلق على كل آية لها دلالة أصولية، مكتفياً بالإحالة إلى كتب الأصول.

---

(١) انظر على سبيل المثال تعليقه على الآية (٤١) من سورة الروم.

(٢) انظر تعليقه على الآية (٤٩) من سورة الروم.

وله اهتمام صريح في ذكر قراءات الآيات ومن قرأ بها، وأثرها في زيادة البيان، وما يقع بسبب اختلاف القراءات أحياناً اختلاف الأحكام والمعاني[1].

كما أنه أحاط آيات الأحكام بتعليقات تناسب دلالة الآيات على الأحكام دون الإخلال بتوسطه الذي ارتسمه لنفسه في تفسيره كله. وفي العقيدة حرص على تقرير عقيدة السلف، وإن كان أحياناً يخلط مع قولهم قول غيرهم من أهل البدع بدون أن يرد عليهم[2].

وله عناية واضحة في توجيه الآيات بما يدفع عنها توهم الخلاف والتعارض، وكذلك ما قد يظنه البعض مخالفاً للسنة.

حذّر في تفسيره كثيراً من الرأي وبيّن في مواضع خلو بعض التفاسير من الدليل وأنه محض الرأي، وكان شديد النقد للإسرائيليات، ويبين زيف تلك الإسرائيليات بما فيها من التناقض ومخالفة المنقول والمعقول.

استفاد كثيراً من كتب من تقدمه ونقل عنهم في مواضع كثيرة كابن جرير الطبري، والقرطبي، وابن عطية الأندلسي.

الحاصل أن تفسير الشوكاني وإن كان متوسط الحجم، إلا أنه كثير الفوائد والدرر ، وسبب ذلك يرجع إلى قوة الشوكاني رحمه الله في علوم الآلة والوسائل وتحققه بعلم المقاصد.

---

(١) انظر تعليقه على الآية (١٦) من سورة طه، وتعليقه على الآية (٢٤) من سورة الحج.
(٢) انظر تعليقه على الآية (٥٤) من سورة الأعراف.

* **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**: مؤلفه العلامة الإمام محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي.

وُلِدَ رحمه الله عام ١٣٠٥هـ بموريتانيا، حفظ القرآن في بيت أخواله وعمره عشر سنوات، وتعلم رسم المصحف العثماني بعد ذلك، ودرس بعض المختصرات في فقه مالك، ودرس الأدب على زوجة خاله، وعنها أخذ مبادئ النحو كالآجرومية، والسيرة النبوية.

وتمّم تلقيه بقية العلوم على مشاهير علماء موريتانيا، منهم: الشيخ أحمد الأفرم، والشيخ الفقيه محمد النعمة بن زيدان، والعلامة المتجر أحمد فال بن آده، وغيرهم.

ولفرط ذكائه أدرك بعض العلوم بخاصة نفسه كالمنطق، وآداب البحث والمناظرة.

خرج من موريتانيا سنة ١٣٦٧هـ قاصداً الشقيقة السعودية لأداء فريضة الحج، وبعد فراغه من مناسك الحج التقى ببعض المسؤولين عن الدعوة إلى الله في المدينة، وعن شؤون المسجد النبوي فاستقر عزمه على الاستيطان بالمدينة النبوية. وكان في استقراره في المدينة النبوية وتدريسه بالمسجد النبوي خير كثير، وذاعت علومه واستفاد منه عموم المسلمين، والحمد لله رب العالمين[١].

---

(١) ترجم له تلميذه الشيخ عطية سالم رحمه الله في مقدمته لكتاب شيخه «رحلة إلى بيت الله الحرام».

والعلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله فرحه بتدريس التفسير أعظم فرح عنده، لأنه من أهل القرآن أهل الله وخاصته، وكان رحمه الله يقول[1] : «ليس من عمل أعظم من تفسير كتاب الله في مسجد رسول الله ﷺ».

«أضواء البيان» درة التفاسير المعاصرة، قرة عين طلبة العلم، كأنما مصنِّفه أحد أبرز العلماء السابقين.

عقيدته سلفية أضواءها في تفسيره واضحة البيان، وكل من قرأ التفسير علم متانة ما فيه من بيان لغوي وبلاغي، وأما تحريره للأحكام وبيان المذاهب وتحقيق الراجح فإمامته واضحة، يقرر ذلك وفق تأصيل أصولي بالغ، وتقعيد فقهي محرر ماتع، وإن شئت أن تعرف ذلك فانظر إلى المجلد الخامس فكاد يكون كله في أحكام الحج في غوص على كل مسائل الحج دقيقها وجليلها كاد يكون غاية النهاية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومن عجائب الأمور أنه انتهى في تفسيره إلى سورة المجادلة عند قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، فلله الأمر من قبل ومن بعد.

أما منهجه في التفسير سواء ما ألقاه من دروس في المسجد النبوي أو ما دوَّنه في كتابه «الدرة» أضواء البيان، فقد تحدث عن

---

(١) رحلة إلى بيت الله الحرام ص ٢٣، ط. دار الشروق – جدة.

ذلك تلميذه فضيلة الشيخ عطية سالم رحمه الله[1] : «كان المنهج أولاً بيان المفردات ثم الإعراب والتصريف ثم البلاغة مع إيراد الشواهد على ما يورده.

ثم يأتي إلى الأحكام إن كان موضوع الآية فقهاً، فيستقصي باستنتاج الحكم، وبيان الأقوال والترجيح لما يظهر له، ويدعم ذلك بالأصول وبيان القرآن وعلوم القرآن من عام وخاص، ومطلق ومقيد، وناسخ ومنسوخ، وأسباب نزول، وغير ذلك.

وإذا كانت الآية في قصص أظهر العبر من القصة وبيّن تاريخها، وقد يربط الحاضر بالماضي».

وقال أيضاً عنه تلميذه النجيب عطية سالم رحمه الله[2] : «ومن تسليط أضواء البيان على تفسير القرآن بالقرآن رسم فيه المنهج السليم لتفسير القرآن الكريم، تفسير كلام الله بعضه ببعض، وأبان أحكامه وحكمه، وفتح كنوزه وأطلع نفائسه ونشر درره على طلبة العلم».

فالشنقيطي رحمه الله أحيا في الأمة الاتباع وركز في نفوس قرائه نزعة الاستدلال بالكتاب والسنة وتحري الدليل، وفق معرفة مقاصد الشريعة وقواعدها الكلية، قال الشيخ عطية سالم رحمه الله عن شيخه

---

(١) رحلة إلى بيت الله الحرام ص ٢٥، ط. دار الشروق – جدة.

(٢) رحلة إلى بيت الله الحرام ص ٣٣.

المجدد محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله[1] : «فمما أحيا من العلوم علم الأصول الذي هو أصل الاستدلال والاستنباط، والاجتهاد والترجيح، وعمدة المجتهد وعماده، وبجهله لا يحق الاجتهاد ويجب التقليد المحض كما يقولون: جهلة الأصول عوام العلماء، ففتح أبوابه وسهَّل صعابه وأوضح قواعده، وقرّب تناوله تسهيلاً لأخذ الأحكام من مصادرها ورد الفروع إلى أصولها».

* تفسير القرآن: مؤلفه والدنا العلامة محمد الصالح العثيمين رحمه الله (ت: ١٤٢١هـ).

أخذ العلم عن العلامة عبدالرحمن الناصر السعدي رحمه الله، وأكثر من ملازمته، والعلامة محمد الأمين الشنقيطي، والإمام عبدالعزيز بن عبدالله بن باز، والشيخ عبدالعزيز المطوع، وغيرهم رحمهم الله.

أخذ عنه عدد لا يحصيهم إلا الله، من داخل المملكة وخارجها، وكتبه هي معتمد عامة طلبة العلم في هذا الزمان، ودارت فتيا الأنام على قوله.

لم يقصد التأليف في التفسير، فالمطبوع من تفسيره هو ما دوّنه طلابه من دروسه في التفسير في الجامع الكبير بعنيزة، ومع هذا فإن

---

(١) رحلة إلى بيت الله الحرام ص ٣٣.

فوائده فاقت كثيراً من المصنفات المطبوعة ممن قصد أصحابها التأليف.

يذكر معنى الآية ويشرح غريب ألفاظها ويذكر كل ما يتعلق بالآية من أحكام فقهية، وتقريرات عقدية، وفوائد سلوكية تربوية، ثم يذكر فوائد الآية بحسب ما يظهر له حال إلقاء الدرس، وهي درر نفيسة عظيمة الفائدة، أفاض بها بما حباه الله من ذهن متوقد، وذكاء فارط، وما اجتناه من قوة لغوية، وتحقق فقهي، وتمكّن عقدي، ونبوغ أصولي، وتضلع بالقواعد الفقهية، وإحاطة بمقاصد الشريعة، ويُخيل إليَّ أن بعض درره منح إلهية ومنن ربانية، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وتفسير شيخنا العلامة العثيمين رحمه الله فيه تفصيل لأحوال المسلمين ومشكلات العالم الإسلامي وفقه واقعه، وفيه تقريرات واضحة البيان لمعالجة هذه المشكلات بوسطية دون غلو المكفرين ولا تفريط المضيعين.

تفسير العثيمين رحمه الله يمكننا أن نسميه التفسير المحرّر، لأنه يذكر أقوال المفسرين وينقد ضعيفها ويبين أسباب ووجوه ضعفها، ويذكر ما كان منها في معنى الآخر.

التزم شيخنا منهجية واضحة فلم يخض فيما أمسك عن بيانه القرآن، وهذا منهج قرآني لأنه لم يتكلم به، وهذا من أسباب نقاوة تفسيره وسلامته تماماً من الإسرائيليات، وإذا ذكر طرفاً من ذلك فإنه

يذكره ليبين بطلانه، ويحذر من الإغراق في تتبع ما لا ينفع من هذه المسائل.

وللشيخ رحمه الله استنباطات ذكية وتعليقات جليّة في مسائل الطبيعة والفلك كالكلام في كروية الأرض والوصول إلى القمر، وغير ذلك مما يدل على سعة أفقه وتمام فهمه لكتاب الله تعالى.

وكان رحمه الله وسطياً في كلامه على معاني الآيات فيما يتعلق بالإعجاز العلمي، فكان يحذر من المجازفة في تقديم النظريات على حقائق القرآن، ويحذر من المبالغة في حمل الحوادث الكونية على الآيات حيث لا تحتمل، كما أنه لا يهدر هذه الاستدلالات حيث يحتملها اللفظ المطابق الواقع.

ومن السمات الواضحة في تفسير شيخنا حمله اللفظ على كل معانيه حيث يحتمله اللفظ.

المطبوع من تفسير شيخنا رحمه الله: تفسير سورة البقرة في ثلاثة أجزاء، وتفسير سورة آل عمران في مجلدين، وتفسير سورة النساء في مجلدين، وتفسير سورة الكهف في مجلد، وتفسير سورة الصافات في مجلد، وتفسير سورة صَ في مجلد، وتفسير الحجرات إلى الحديد في مجلد، وتفسير جزء عم في مجلد، يسر الله إخراج البقية.

وطُبع له أحكام من القرآن في مجلدين.

* * *

المطولات في التفسير

* **جامع البيان عن تأويل القرآن:** مؤلفه هو الإمام العلم المجتهد شيخ المفسرين وإمامهم محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري رحمه الله (ت: ٣١٠ هـ). سمع من إسماعيل بن موسى السدي، وهناد بن السَّري، ويعقوب الدورقي، وعمرو بن علي الفلاس، وإبراهيم بن سعيد الجوهري، وغيرهم. حدَّث عنه: أبو القاسم الطبراني، وأبو أحمد ابن عدي، والقاضي أبو محمد بن زَبْر، وآخرون.

سأله يوماً سائل عن نسبه، فقال: محمد بن جرير، فقال السائل: زدنا في النسب. فأنشده لرؤبة[١] :

قد رفع العجَّاجُ ذكري فادعني   باسمي إذا الأنساب طالت يكفني

قال فيه الخطيب البغدادي رحمه الله[٢] : «كان أحد أئمة العلماء يُحكم بقوله، ويُرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن،

---

(١) معجم الأدباء (٦/٢٤٤٥).

(٢) تاريخ بغداد (٢/١٦٣).

عالماً بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من الخالفين في الأحكام، ومسائل الحلال والحرام، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم».

وقال عنه أبو علي الأهوازي المقرئ رحمه الله[1] : «كان أبو جعفر الطبري عالماً بالفقه والحديث والتفاسير والنحو واللغة والعروض، له في جميع ذلك تصانيف فاق بها على سائر المصنفين، وله في القراءات كتاب جليل كبير رأيته في ثماني عشرة مجلدة».

وقال أيضاً في الطبري[2] : «ولم يكن منتصباً للإقراء ولا قرأ عليه أحد إلا آحاد الناس».

وقال عنه الحافظ الذهبي رحمه الله[3]: «كان من أفراد الدهر علماً، وذكاءً، وكثرة تصانيف، قلَّ أن ترى العيون مثله».

هذا التفسير تحفة الإسلام، والثناء عليه والإشادة بغزارة فوائده وتحرير علومه كلمة إجماع.

فابن خزيمة رحمه الله لما قرأ تفسير الطبري رحمه الله كله قال[4] : «ما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير».

---

(١) تحفة الأريب في معرفة الأديب (٦/٢٤٤٤).
(٢) معجم الأدباء (٦/٢٤٤٤).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٤/٢٦٧).
(٤) البداية والنهاية (١٤/٨٤٧).

وقال الخطيب البغدادي رحمه الله[1] : «له كتاب في التفسير لم يصنف أحد مثله».

وقال أبو حامد أحمد بن أبي طاهر الإسفراييني رحمه الله[2] : «لو سافر رجل إلى الصين حتى يُحصِّل تفسير محمد بن جرير لم يكن كثيراً».

وقال القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله في التفاسير[3]: «تفسير القرآن أمر لا يُطاق، وما تعرض له أحد فاستقل به خلا محمد بن جرير، فإنه قرأه وأتمه، ومن جاء بعد ذلك فهو عيال عليه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[4]: «تفسير محمد ابن جرير الطبري وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدراً».

وقال أيضاً[5]: «وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين، كمقاتل بن بكير، والكلبي».

---

(١) تاريخ بغداد (٢/١٦٣).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٤/٢٧٢).
(٣) القبس في شرح الموطأ (٣/١٠٤٧).
(٤) مجموع الفتاوى (١٣/٣٦١).
(٥) مجموع الفتاوى (١٣/٣٨٥).

وقال جلال الدين السيوطي رحمه الله (ت: ٩١١هـ) [١] : «كتابه أجل التفاسير وأعظمها». وقال أيضاً[٢]: «أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف في التفسير مثله».

ورغم ما حواه تفسير الطبري من إفاضة عجيبة في تفسير آي القرآن، فإنه لو تُرك وهمّته ونشاطه لكان تفسيره فوق ما هو مسطور.

قال أبو القاسم ابن عقيل الورّاق: إن أبا جعفر الطبري رحمه الله قال لأصحابه: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحو ثلاثين ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه! فقال: إنا لله!

ماتت الهمم.

فاختصر ذلك في نحو ثلاثة آلاف ورقة، ولمَّا أن أراد أن يُملي التفسير قال لهم نحواً من ذلك، ثم أملاه على نحو من قدر التاريخ[٣] .

ومن أسباب توفيق الله للطبري في مصنفاته عموماً ومصنف التفسير خصوصاً هو استخارته قبل تصنيفه وسؤاله الله العون على تأليفه، فأجاب الله دعوته وطرح الله البركة في المصنف الذي لا يضاهيه أي تفسير.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٤١٨).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٤٢٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٧٤ – ٢٧٥).

قال هارون بن عبدالعزيز رحمه الله: قال أبو جعفر رحمه الله[1] : «استخرت الله وسألته العون على ما نويت من تصنيف التفسير قبل أن أعمله ثلاث سنين، فأعانني».

والطبري رحمه الله اصطفاه الله، وكل علم أراد تعلمه فإنه أدركه في عشية وضحاها، فمن مثله؟!

قال هارون بن عبدالعزيز، قال أبو جعفر: لما دخلت مصر لم يبق أحد من أهل العلم إلا لقيني وامتحنني في العلم الذي يتحقق به، فجاءني يوماً رجل فسألني عن شيء من العروض، ولم أكن نشطت له قبل ذلك، فقلت له: عليَّ قول ألا أتكلم اليوم في شيء من العروض، فإذا كان في غد فصِرْ إليَّ، وطلبت من صديق لي العروض للخليل بن أحمد فجاء به، فنظرت فيه ليلتي، فأمسيت غير عروضي، وأصبحت عروضياً[2] .

لذلك حُقَّ لأبي محمد الفرغاني رحمه الله أن يقول[3] : «من كتب محمد بن جرير كتاب: «التفسير» الذي لو ادعى عالمٌ أن يصنِّف منه عشرة كُتب، كل كتاب منها يحتوي على علم مفرد مستقصى لفعل».

وكتاب التفسير للطبري ابتدأه بخطبة ورسالة في التفسير تدل على ما خصَّ الله به القرآن العزيز من البلاغة والإعجاز والفصاحة التي فاق بها سائر الكلام، ثم ذكر من مقدمات الكلام في التفسير،

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٧٤).
(٢) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (٦/ ٢٤٤٩).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٧٣).

وفي وجوه تأويل القرآن وما يعلم تأويله، وما ورد في جواز تفسيره، وما حظر من ذلك، والكلام في قول النبي ﷺ أنزل القرآن على سبعة أحرف، وبأي الألسنة نزل، والرد على من قال إن فيه أشياء من غير الكلام العربي، وتفسير أسماء القرآن والسور، وغير ذلك مما قدمه، ثم تلاه بتأويل القرآن حرفاً حرفاً، فذكر أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من تابعي التابعين وكلام أهل الإعراب من الكوفيين والبصريين، وجملاً من القراءات، واختلاف القراءة فيما فيه من المصادر واللغات والجمع والتثنية، والكلام في ناسخه ومنسوخه، وأحكام القرآن والخلاف فيه والردّ عليهم من كلام أهل النظر فيها، تكلم فيه بعض أهل البدع، والرد عليهم على مذاهب أهل الإثبات ومبتغي السنن، إلى آخر القرآن[1] .

* **تفسير القرآن العظيم مسنداً عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين**: مؤلفه هو الحافظ عبدالرحمن بن محمد بن إدريس الرازي المشهور بابن أبي حاتم رحمه الله (٢٤٠ - ٣٢٧هـ). سمع من: أبي سعيد الأشج، والحسن بن عرفة، ويونس بن عبد الأعلى، ومحمد بن عبدالملك بن زنجويه، وغيرهم.

سمع منه: ابن عدي، والقاضي يوسف الميانجي، وأبو أحمد الحاكم، وإبراهيم النصْر آباذي، وغيرهم.

عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي رحمه الله ترعرع في كنف حفاظ الإسلام وأئمة النقد والجرح والتعديل، قال أبو بكر محمد

(١) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (٦/٢٤٥٣).

ابن عبد الله البغدادي رحمه الله[1] : «كان من منة الله على عبد الرحمن أنه وُلد بين قماطر العلم والروايات، وتربى بالمذاكرات بين أبيه وأبي زرعة، فكانا يزقان كما يزق الفرخ الصغير، ويعنيان به فاجتمع له مع جوهر نفسه كثرة عنايتهما، ثم تمت النعمة برحلته مع أبيه فأدرك الإسناد وثقات الشيوخ بالحجاز والعراق والشام والثغور، وسمع بـ «أنبجانة» حتى عرف الصحيح من السقيم، وترعرع في ذلك، ثم كانت رحلته الثانية بنفسه بعد تمكن معرفته يعرف له ذلك ويقدم لحسن فهمه وديانته وقديم سلفه».

وكان مع علمه ناسكاً عابداً تقياً رحمه الله، قال عنه والده أبو حاتم الرازي رحمه الله[2] : «ومن يقوى على عبادة عبدالرحمن، لا أعرف لعبدالرحمن ذنباً».

وقال فيه أبو الحسن علي الرَّازي[3] : «كان عبدالرحمن بن أبي حاتم مقبلاً على العبادة من صغره، والسهر بالليل، والذكر ولزوم الطهارة، فكساه الله بهاءً ونوراً، فكان يُسَرُّ به من نظر إليه».

وقال عنه الحافظ أبو الفضل صالح بن أحمدالهمذاني[4] : «كان إمام زمانه، ونسيج وحده، وواحد عصره، فما خلَّف بعده مثله معرفةً وصيانة، وورعاً، وديانة، ولقد كان من هذا الأمر بسبيل».

---

(١) سير السلف الصالحين (٤/١٢٣٣).

(٢) سير السلف الصالحين (٤/١٢٣٢).

(٣) سير السلف الصالحين (٤/١٢٣٢).

(٤) طبقات علماء الحديث لابن عبدالهادي (٣/٢٠).

وقد أثنى على تفسير ابن أبي حاتم الرازي الإمام المفسر الحافظ ابن كثير رحمه الله حيث قال[1] : «وله التفسير الحافل الذي اشتمل على النقل الكامل، الذي يُرْبى فيه على تفسير ابن جرير وغيره من المفسرين».

وقال الحافظ الذهبي رحمه الله[2] : «وله تفسير كبير في عدة مجلدات، عامته آثار بأسانيده من أحسن التفاسير».

هذا التفسير «نقاوة» التفاسير المسندة، إذ تحرى فيه مؤلفه أن يورد في تفسير الآيات أصح ما فيها من الأحاديث عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين.

وقد ذكر ذلك ابن أبي حاتم نفسه في مقدمة تفسيره حيث قال[3] : «سألني جماعة من إخواني إخراج تفسير القرآن مختصراً بأصح الأسانيد، وحذف الطرق، والشواهد والحروف والروايات، وتنزيل السور.

وأن نقصد لإخراج التفسير مجرداً دون غيره، متقص تفسير الآي حتى لا نترك حرفاً من القرآن يوجد له تفسير إلا أخرج ذلك. فأجبتهم إلى ملتمسهم وبالله التوفيق، وإياه نستعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) البداية والنهاية (١٥/ ١١٣).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٦٤).
(٣) مقدمة تفسير القرآن (١/ ٩).

فتحريت إخراج ذلك بأصح الأخبار إسناداً وأشبعها متناً، فإذا وجدت التفسير عن رسول الله ﷺ لم أذكر معه أحداً من الصحابة ممن أتى بمثل ذلك، وإذا وجدته عن الصحابة فإن كانوا متفقين ذكرته عن أعلاهم درجة بأصح الإسناد، وسميت موافقيهم بحذف الإسناد، وإن كانوا مختلفين ذكرت اختلافهم، وذكرت لكل واحد منهم إسناداً، وسميت موافقيهم بحذف الأسانيد، فإن لم أجد عن الصحابة ووجدته عن التابعين عملت فيما أجد عنهم ما ذكرته من المثال في الصحابة، وكذا أجعل المثال في أتباع التابعين وأتباعهم».

وقد أثنى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على ما انتخبه ابن أبي حاتم في تفسيره من أصح ما يكون في تفسير القرآن بالمأثور، حيث قال[1] : «وابن أبي حاتم قد ذكر في أول كتابه في التفسير أنه طلب منه إخراج تفسير القرآن مختصراً بأصح الأسانيد وأنه تحرى إخراجه بأصح الأخبار إسناداً وأشبعها متناً».

وابن أبي حاتم الرازي رحمه الله التزم المنهج الذي رسمه في مقدمة تفسيره، فتفسيره مأثور محض، إلا أنه أحياناً خشية الإطالة يسند الأثر عن الصحابي في تفسير الآية، ثم يذكر تعليقاً كل أو أكثر من قال بقول الصحابي، ويشير أحياناً بالوفاق في تفسير الآية إذا لم يوجد خلاف بين السلف في تفسير الآية.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٣).

فهـذا التفـسير هـو أنفـع التفاسـير بالمـأثور مطلقـاً، فتفـسير عبدالرزاق الآثار فيه محدودة جداً، وتفسير ابن المنذر المطبـوع منـه قطعة يسيرة، والدر المنثور للسيوطي مع الأسف بدون أسـانيد، فقـد جرّد فيه السيوطي أسانيد كنوز التفسير بالمأثور التي صنع منها مادة كتابه، وبهذا يتبين إفراط الشوكاني في الثنـاء عليـه، حيـث قـال[1] : «اعلم أن تفسير السيوطي المسمى «بالدر المنثـور» قـد اشـتمل علـى غالب ما في تفاسير الـسلف مـن التفاسـير المرفوعـة إلـى النبـي ﷺ، وتفاسير الصحابة، ومن بعدهم، وما فاته إلا القليل النادر».

ولـو أبقـى الـسيوطي رحمـه الله الأسـانيد لـصدق عليـه كـلام الشوكاني رحمه الله، لاسيما وأنـه قـد تحـصَّل لـه مـن كنـوز التفـسير بالمأثور ما هو في عـداد المفقـود اليـوم، ولـو أبقـى الأسـانيد لحفـظ للأمة أسباب الحكم على الأحاديث والآثار التي جمعها، ولكان ممن عمل على حفظ السنة التي توارث فعلهـا علمـاء الـسنة ببيـان مخـرج الأحاديث والآثار، ولوفّر الوقت والعناء لمن رام جمع مأثور الـسلف فـي تفـسير آي القـرآن. وصـنيعه هـذا كـان يحتمـل منـه فـي بعـض مصنفاته الأخرى لقصد الاختصار، أما في كتـاب جمـع فيـه فـأوعى، فتلك غفلة حرمت الأمة الإسلامية مـن حقيقـة الاسـتفادة مـن جهـده، والله يغفر له.

---

(١) مقدمة فتح القدير (١٣/١).

على كل حال كتب التفسير بالمأثور وإن تفاوتت حسب جمعها للأحاديث والآثار المسندة في تفسير آي القرآن، وجودة تلك الأحاديث والآثار، فإن الجامع الواضح الذي يجمع هذا النوع من التفاسير قلة الخطأ فيها مقارنة بالتفاسير الاستدلالية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «وأما النوع الثاني من مستندي الاختلاف وهو ما يُعلم بالاستدلال لا بالنقل، فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان؛ فإن التفاسير التي يُذكر فيها كلام هؤلاء صرفاً لا يكاد يوجد فيها شيء من هاتين الجهتين، مثل تفسير عبدالرزاق، ووكيع، وعبد بن حميد، وعبدالرحمن بن إبراهيم دحيم، ومثل تفسير الإمام أحمد، وإسحاق بن راهوية، وبقي بن مخلد، وأبي بكر ابن المنذر، وسفيان بن عيينة، وسنيد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي سعيد الأشج، وأبي عبدالله ابن ماجة، وابن مردوية».

* **الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمّنه من السنة وآي القرآن**: مؤلفه هو العلامة محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرْح القرطبي الأندلسي.

سمع من أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي، وأبي علي الحسن ابن محمد البكري، وأبي الحسن علي بن محمد اليحصبي، وغيرهم.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٥٥).

مصنفاته نافعة جداً، المطبوع منها: «التذكرة بأمور الآخرة»، و«الجامع لأحكام القرآن»، وهو موسوعة في التفسير والأحكام.

تفسير القرطبي جليل القدر عظيم الفائدة، جمع مصنفه فنون العلم وأودعه في تعليقه على الآيات، وأوعب في ذكر فقه الأحكام المستفادة من الآيات بتفصيل تام، وذكر مذاهب الأولين الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من الأئمة.

له تقريرات نافعة، وتحريرات راجحة، سهل العبارة غزير الفوائد والاستنباطات.

قال ابن فرحون المالكي رحمه الله[1] : «جمع في تفسير القرآن كتاباً كبيراً في اثني عشر مجلداً سمّاه كتاب «جامع أحكام القرآن والمبيِّن لما تضمنه من السنة وآي القرآن»، وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعاً، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن، واستنباط الأدلة، وذكر القراءات والإعراب، والناسخ والمنسوخ».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2] : «وتفسير القرطبي خير منه- الزمخشري - بكثير، وأقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسنة، وأبعد عن البدع، وإن كان كل من هذه الكتب لا بد أن

---

(١) الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب (٢/٣٠٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٣٨٧ - ٣٨٨).

يشتمل على ما ينقد[1]، لكن يجب العدل بينها، وإعطاء كل ذي حق حقه».

وقال الطوفي رحمه الله[2]: «وأجمع ما رأيته من التفاسير لغالب علم التفسير كتاب القرطبي».

وقال ابن العماد الحنبلي رحمه الله[3]: «التفسير الجامع لأحكام القرآن الحاكي مذاهب السلف كلها، وما أكثر فوائده».

وهذا التفسير كاسمه «الجامع» جمع أنواع المعاني والبيان في تفسير كلام المنان، وبذل غاية الجهد في بيان ما فيه من الأحكام، ومع هذا فإن مصنِّفه يرى موسوعته وجامعه «تعليقاً وجيزاً»، فهذا غاية في التواضع وهضم النفس.

قال أبو عبدالله القرطبي رحمه الله[4]: «فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع، الذي استقل بالسُّنَّة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض؛ رأيت أن أشتغل به مدى عمري، وأستفرغ فيه مُنّتي[5]، بأن أكتب فيه تعليقاً وجيزاً، يتضمن نُكتًا من

---

(١) وقد أبان عن بعض ذلك الشيخ المغراوي في كتابه «المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات».

(٢) الإكسير في علم التفسير ص ٢٦.

(٣) شذرات الذهب (٥/٣٣٥).

(٤) مقدمة الجامع لأحكام القرآن (١/٣).

(٥) المُنة بالضم: القوة.

التفسير واللغات، والإعراب والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدةً لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات؛ جامعاً بين معانيهما، ومبيِّناً ما أُشكل منهما، بأقاويل السلف، ومن تبعهم من الخلف».

وتكلم كذلك رحمه الله عن شرطه في كتابه، فقال[1] : «وشرطي في هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنِّفيها؛ فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله، وكثيراً ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهماً، لا يعرف من أخرجه إلا من اطّلع على كتب الحديث، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائراً، لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم، فلا يقبل منه الاحتجاج به، ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى من خرّجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام. ونحن نشير إلى جُمل من ذلك في هذا الكتاب، والله الموفق للصواب.

وأضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بُدّ منه ولا غنى عنه للتبيين؛ واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام، بمسائل تُسفر عن معناها، وتُرشد الطالب إلى مقتضاها؛ فضمّنت كل آية تتضمن حكماً أو حكمين فما زاد، مسائل تبين فيها

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/٣).

ما تحتوي عليه من أسباب النزول والتفسير الغريب والحكم، فإن لم تتضمن حُكماً ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل، هكذا إلى آخر الكتاب».

والقرطبي رحمه الله بدأ تفسيره بمقدمة عن علوم القرآن وشيء من أصول الفقه، ضمّنها السبب الباعث له على كتابة تفسيره، ثم ذكر فصولاً مهمة في فضائل القرآن وصفة تلاوته والتغني به، والتحذير من الرياء، وصفة حامل القرآن، ووجوب فقه معانيه، وفضل تفسير القرآن، والكلام في تعظيم القرآن، والتحذير من التفسير بالرأي.

وكذلك تكلم في معنى تبيين السنة للقرآن، ومعنى نزول القرآن على سبعة أحرف، وعن جمع القرآن، وترتيب سوره وآياته، وهل ورد في القرآن ألفاظ معرّبة، وتكلم كذلك في إعجاز القرآن.

* **التحرير والتنوير**: مؤلفه هو العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله، وُلِدَ رحمه الله سنة ١٢٩٦هـ، وهو من أسرة علمية، وأخذ العلم عن جماعة من المشايخ والعلماء كالشيخ سالم أبي حاجب، وعمر بن الشيخ، ومحمد النجار، والشيخ محمد النخلي، وغيرهم.

ومن أشهر تلاميذه: الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور، والشيخ محمد الشاذلي النيفر، والشيخ محمد الحبيب بن الخوجة، وغيرهم.

ولي مشيخة جامع الزيتونة، وكان قاضياً في المجلس الشرعي، ثم عُيّن مفتياً.

محمد الطاهر بن عاشور عالم أصولي لغوي مفسر، تضلعه بهذه العلوم أورثه نبوغاً في الفقه، وتحققاً بمقاصد الشريعة.

والميزة الواضحة لابن عاشور هو أنه مضى في تفسير القرآن كله من فاتحته إلى خاتمته بنفس النشاط، فلم يفتر عزمه، وجادت قريحته في التنكيت على الآيات، وغاص في التقاط دررها، فأبانها وأبرز معانيها، وأحاط جميع ذلك بصياغة سلسلة مشوقة.

التحرير والتنوير يشبه إلى حد كبير المحرر الوجيز لابن عطية، يذكر مفردات الآية ويوضح معنى الآية في ضوء سياقها، ويتكلم على أحكامها وفوائدها، مع عناية واضحة بالقراءات وأثرها في أحكام الآية.

محمد الطاهر بن عاشور تفسيره وما علّقه على موطأ مالك وما حرره في مقاصد الشريعة شاهد بإمامته.

محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله من أبرز علماء المغرب العربي، ومن طبقته في المغرب العربي علامة الجزائر عبدالحميد ابن باديس وتلميذه النحرير محمد البشير الإبراهيمي رحمهما الله، وكلهم أئمة في التفسير، إلا أن ابن عاشور دوّن تفسيره كاملاً، بينما ابن باديس والإبراهيمي دُوّن بعض تفسيرهم.

وتميّز الجزائريان ابن باديس والإبراهيمي رحمهما الله بعقيدتهما السلفية، بينما نجد ابن عاشور قد ألمَّ بعقيدة الأشاعرة[1].

ومع هذا فإنه يستفاد من التفسير بما فيه من الفوائد النفيسة ويتحرز من خطئه في العقيدة.

وقد امتدح العلامة محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله ابن عاشور، فقال[2] : «هو إمام متبحر في العلوم الإسلامية، مستقل في الاستدلال لها، واسع الثراء من كنوزها، فسيح الذرع بتحمّلها، نافذ البصيرة في معقولها، وافر الاطلاع على المنقول منها».

ويقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور مبيناً عمله في تفسيره[3]: «اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال، واهتممت أيضاً ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض، وهو منزع جليل قد عنى به فخر الدين الرازي، وألّف فيه برهان الدين البقاعي كتابه المسمى «نظم الدرر في تناسب الآي والسور»، إلا أنهما لم يأتيا في كثير من الآي بما فيه مقنع، فلم تزل أنظار المتأملين لفصل القول تتطلع، أما البحث

---

(١) المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات (٢/٣٥٧).
(٢) آثار البشير الإبراهيمي (٣/٥٤٩).
(٣) مقدمة التحرير والتنوير (١/٨).

عن تناسب مواقع السور بعضها إثر بعض، فلا أراه حقاً على المفسر.

ولم أغادر سورة إلا بيَّنت ما أُحيط به من أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصوراً على بيان مفرداته، ومعاني جمله، كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه، وتحجب عنه روائع جماله».

كما أبان رحمه الله عن تمييزه للمنقولات في التفسير، وتحريره للآراء وقبول صحيحها ورد سقيمها، فقال منتقداً ما وقع في كتب التفسير من ذلك سرداً مجرداً دون تمييز[١] : «النقل ولو كان ضعيفاً أو كاذباً، ويتقون الرأي ولو كان صواباً حقيقياً».

وذكر أيضاً ابن عاشور رحمه الله تميّزه في تفسيره وإضافته حيث قال[٢] : «وقد ميّزت ما يفتح الله لي من فهم في معاني كتابه وما أجلبه من المسائل العلمية، مما لا يذكره المفسرون».

* **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: مؤلفه هو علامة العراق شهاب الدين محمود بن عبدالله الألوسي (١٢١٧هـ - ١٢٧٠هـ).

(١) أليس الصبح بقريب ص ١٨٦، بواسطة مقدمة «مقاصد الشريعة» لمحققه الشيخ محمد الطاهر الميساوي ص ٦٥ - ٦٦.

(٢) مقدمة التحرير والتنوير (١/٧).

نسبته إلى قرية «ألوس»، وهي جزيرة تقع في منتصف نهر الفرات بين الشام وبغداد.

وهو من السادة الأشراف ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه.

أخذ العلم عن والده، والشيخ علي السويدي، والشيخ خالد النقشبندي، وغيرهم.

تقلَّد افتاء الحنفية أيام الدولة العثمانية سنة ١٢٤٨هـ، وشرع في كتابة تفسيره في ١٦ شعبان ١٢٥٢هـ، وأتمه في الرابع من ربيع الآخرة ١٢٦٧هـ.

تسلسل العلم في ذريته، فابنه نعمان علامة معلوم، وحفيده علامة تدرج من الصوفية إلى السلفية، وللحفيد عناية واضحة برسائل أئمة الدعوة النجدية، فقد شرح «مسائل الجاهلية» للإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، وأتم ما شرع فيه العلامة عبداللطيف بن عبدالرحمن آل الشيخ، في الرد على المبتدع داود ابن سليمان بن جرجيس في كتابه الموسوم بـ «فتح المنّان تتمة منهاج التأسيس»، وله مجلد لطيف في تاريخ نجد.

«روح المعاني»، له عناية بذكر أقوال العلماء مع مناقشة لتلك الأقوال، وإتقان الألوسي لأصول الفقه أمكنه من تحرير آيات الأحكام، ومناقشة خلاف الأصوليين في تطبيقهم القواعد على آحاد المسائل. شديد العناية بذكر مخارج الأحاديث والآثار ومواضعها في

دواوين السُّنَّة، إلا أنه يسوقها مجرّدة عن الأسانيد، ولا يحكم عليها إلا في النادر.

هذا التفسير جامع، فقد أتى على كل ما يخطر في البال من معاني الآيات وأحكامها وبلاغتها، فهو يوفر عليك عناء البحث والنظر في عشرات التفاسير لإدراك ذلك.

له عناية واضحة بذكر أسباب النزول، وبيان الناسخ والمنسوخ، وتحرير ذلك.

كثير النقل عن أئمة اللغة، وعنايته شديدة بذكر القراءات، وما يقع في بعضها من الاعتراضات، ودفع الاعتراضات عنها وتوجيهها. تمكّنه من علوم اللغة ظهر أثره واضحاً في تفسيره، حيث أفاض في بيان معاني الألفاظ وتصرف دلالاتها وإبراز بلاغتها. شديد الانتباه والتنكيت لمعاني التقديم والتأخير لكلمات القرآن، والانتقال والالتفات في الكلام، ورعايته واضحة للإعراب وبيان ما يتفرع عنه من بيان وعلاقة بمعاني الآيات.

أبدع في بيان جمال الآيات، وحلاوة ألفاظها، وجزالة معانيها، وكنوز بلاغتها، من ذلك بيانه لبلاغة القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩]، حيث بيّن أنها أبلغ مما جاء في الكتب السماوية السابقة، وما جرى على ألسنة الناس «القتل أنفى للقتل»، حيث قال[1] : «وفضل هذا الكلام عليه من وجوه:

---

(١) روح المعاني (٢/٦١٣).

الأول : قلة الحروف، فإن الملفوظ هنا عشرة أحرف – إذا لم يعتبر التنوين حرفاً على حدة – وهناك أربعة عشر حرفاً.

الثاني : الاطراد، إذ في كل – قصاص حياة – وليس كل قتل أنفى للقتل – فإن القتل ظلماً أدعى للقتل.

الثالث : ما في تنوين (حياة) من النوعية أو التعظيم.

الرابع : صنعة الطباق بين – القصاص والحياة – فإن القصاص تفويت – الحياة – فهو مقابلها.

الخامس: النص على ما هو المطلوب بالذات – أعني الحياة – فإن نفي – القتل – إنما يطلب لها لا لذاته.

السادس: الغرابة من حيث جعل الشيء فيه حاصلاً في ضده، ومن جهة أن المظروف إذا حواه الظرف صانه عن التفرق، فكان القصاص فيما نحن فيه يحمي الحياة من الآفات.

السابع : الخلوّ عن التكرار مع التقارب، فإنه لا يخلو عن استبشاع، ولا يعد رد العجز على الصدر حتى يكون محسناً.

الثامن : عذوبة اللفظ وسلاسته حيث لم يكن فيه ما في قولهم من توالي الأسباب الخفية إذ ليس في قولهم: حرفان متحركان على التوالي إلا في موضع واحد، ولا شك أنه ينقص من سلاسة اللفظ وجريانه على اللسان، وأيضاً الخروج من – الفاء إلى اللام – أعدل من الخروج من – اللام إلى الهمزة

لبعد الهمزة من اللام -، وكذلك الخروج من - الصاد إلى الحاء - أعدل من الخروج من - اللام إلى الهمزة - لبعد الهمزة من اللام، وكذلك الخروج من - الصاد إلى الحاء - أعدل من الخروج من - الألف إلى اللام -.

التاسع : عدم الاحتياج إلى الحيثية، وقولهم: يحتاج إليها.

العاشر : تعريف القصاص بلام الجنس الدالة على حقيقة هذا الحكم المشتملة على - الضرب والجرح والقتل - وغير ذلك، وقولهم لا يشمله.

الحادي عشر: خلوه من أفعل الموهم أن في الترك نفياً للقتل أيضاً.

الثاني عشر: اشتماله على ما يصلح للقتال وهو - الحياة - بخلاف قولهم، فإنه يشتمل على نفي اكتنفه قتلان، وإنه لمما يليق بهم.

الثالث عشر: خلوّه عما يوهمه ظاهر قولهم من كون الشيء سبباً لانتفاء نفسه - وهو محال إلى غير ذلك - فسبحان من علت كلمته، وبهرت آيته».

والألوسي رحمه الله في مقدمة تفسيره تكلم عن القرآن وصفة الكلام لله تعالى، وقرر مذهب الأشاعرة لكن بصياغة أخرى، وانتصر لهم ورجّح اختيار الجويني، ورأى أن ما انتُقد على الأشاعرة إنما يتوجه إذا قُصد بالحكاية أو العبارة المعنى القائم بالنفس دون

مدلول اللفظ، حيث قال[1] : «إذا أمعنت النظر رأيت ذلك حجة له - للأشعري - حيث بيّن أن الله تعالى لا يتكلم بالوحي لفظاً حقيقياً إلا على ما طبق في علمه، وكلما كان كذلك كان الكلام اللفظي صورة من صور الكلام النفسي، ودليلاً من أدلة ثبوتها».

من أجل هذا شن الغارة على أئمة السُّنَّة بجسارة ومخيلة غير محمودتين، فقال[2] : «ما حققناه اندفع عنه كل إشكال في هذا الباب، وأرى أن تشنيع ابن تيمية وابن القيم وابن قدامة وابن قاضي الجبل والطوفي وأبي نصر وأمثالهم صرير باب، أو طنين ذباب[3]، وهم وإن كانوا فضلاء محققين وأجلاء مدققين لكنهم كثيراً ما انحرفت أفكارهم واختلطت أنظارهم فوقعوا في علماء الأمة وأكابر الأئمة، وبالغوا في التعنيف والتشنيع وتجاوزوا في التسخيف والتفظيع، ولولا الخروج عن الصدد لوفيتهم الكيل صاعاً بصاع، ولتقدمت إليهم بما قدموا باعاً بباع، ولعلمتهم كيف يكون الهجاء بحروف الهجاء، ولعرفتهم إلام ينتهي المراء بلا مراء».

---

(١) روح المعاني (١/٢١).

(٢) روح المعاني (١/٢٦).

(٣) أفيقال في نصرة ابن قدامة وشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهم الله للسنة صرير باب، أو طنين ذباب؟!!!
أيقال لأئمة السُّنَّة الأعلام ذباب؟!!
أتدري فيمن تتكلم؟!!
ثم انظر إلى استخفاف الألوسي بعلومهم حيث يريد أن يُعلّمهم الهجاء!!!

وابن قدامة، وشيخ الإسلام وابن القيم، وابن قاضي الجبل فوق هذه الجعجعة الباطلة، وتقريراتهم ما هي إلا إجماع السابقين.

على كل حال الإنصاف زين، فالألوسي في مواضع أخرى من تفسيره رد على الأشاعرة في الأسباب[1] ، وكسب العبد[2] ، وأحال إلى ما كان عليه آخر قولي أبي الحسن الأشعري في الإبانة[3] مما يوافق الجماعة.

وفي نصوص الصفات خلط عقيدة السلف بعبارات التفويض وإشارات الصوفية[4] .

وله جرأة عموماً في بعض تقريراته الاعتقادية حيث انتصر لنبوة مريم عليها السلام[5] .

وهو شديد التأثر والإعجاب بالصوفية، كثير النقل عنهم والرد على من يرد باطلهم، واستعمل التفسير الإشاري بنوعيه المحمود والمذموم، وفي المذموم أدلى بإشارات غلاة الصوفية وأساطينهم كابن الفارض والشعراني، وغيرهم[6] .

---

(١) روح المعاني (١/٢٥٦).

(٢) روح المعاني (٩/٢٤٦).

(٣) روح المعاني (٤/٣١٠).

(٤) روح المعاني (٣/١١٩).

(٥) روح المعاني (٣/٢٠٥).

(٦) روح المعاني (٤/٥٦٩).

وأحياناً أخرى ينقل كلام الصوفية ولا يسميهم، ويكتفي بإبهامهم حيث يقول: «قال بعض العارفين»[1] .

ويقرر في مواضع من تفسيره وجوب لزوم عقيدة السلف[2] ، وينتقد بشدة عقيدة المعتزلة، وهو كثير النقل عن الزمخشري والنقد له، لدرجة إشارته إلى تحريم بعض العلماء إقراء «الكشاف»[3] .

نقد مذهب الشيعة، وبيّن مفارقتهم لاعتقاد آل البيت المتقدمين[4] .

* **محاسن التأويل** : مؤلفه هو علامة الشام محمد جمال الدين ابن محمد سعيد القاسمي (١٢٨٣ - ١٣٣٢هـ).

أخذ عن جماعة من العلماء والمشايخ منهم الشيخ عبدالرحمن ابن علي بن شهاب المصري، والشيخ رشيد قزيها المعروف بابن سنان، وخالد الأزهري، والشيخ سليم العطار، وبكري العطار، وغيرهم.

ومن أشهر تلاميذه محمد بهجة البيطار، حامد التقي، توفيق البزرة، محمد جميل الشطي، وحسين الجارودي، وأحمد الجبان، وغيرهم.

---

(١) روح المعاني (٧٤/٩).
(٢) روح المعاني (٦٨/٣).
(٣) روح المعاني (١٤٨/١٠).
(٤) روح المعاني (١٦٤/٣)، (٤٠٧/١٠).

قال فيه الأمير شكيب أرسلان رحمه الله[1] : «قسم الله له من اكتناه أسرار الشرع ما لم يقسمه إلا للكبار الأئمة وأحبار الأمة، والله تعالى ينفع المسلمين بآثاره».

وقال فيه العلامة عبد الحي الكتاني رحمه الله[2] : «العلامة المحدّث الأصولي النظّار».

وقال فيه العلامة محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله[3] : «قرأت للقاسمي عدة كتب عرفت منها قيمته ومنزلته».

وقال أيضاً عنه في رحلته لدمشق[4] : «إن نسيت فلن أنسى ساعات كنت قضيتها في مكتبة آل القاسمي ممتعاً عيني وذهني في مخطوطات جمال الدّين، ومسودات مباحثه في التفسير والحديث».

وقال عنه العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله[5] : «كان يتحرى مذهب السلف في الدين وينصره في دروسه ومصنفاته».

اشتغل القاسمي في تأليف تفسيره عام ١٣١٧هـ وأتمه في رمضان سنة ١٣٢٧هـ، ثم أعاد فيه النظر، وخصص لمراجعته ليلتين في الأسبوع حتى أنجزه عام ١٣٢٩هـ[6] .

---

(١) قواعد التحديث ص ٨، بواسطة جمال الدين القاسمي ص ٢٤٠.
(٢) فهرس الفهارس (١/ ٤٧٧).
(٣) آثار الإبراهيمي (٣/ ٥٦٥).
(٤) آثار الإبراهيمي (٣/ ٥٦٦).
(٥) جمال الدين القاسمي ص ٢٤٥.
(٦) جمال الدين القاسمي لنزار أباظة ص ٢٧٦.

وكان القاسمي رحمه الله أولاً صوفياً نقشبندياً ثم منَّ الله عليه بمعرفة الشرع بأدلته الأصلية من الكتاب والسُّنَّة، وأخذ يدعو إلى تحرير أذهان المسلمين وعلومهم من البدع والخرافات.

ولذلك قال العلامة محمد رشيد رضا رحمه الله ذاباً عن القاسمي ما انتُقد عليه في بعض مصنفاته[1] : «يمكنني أن أقول: إن الرجل كان من خيار مصلحي المسلمين في هذا العصر وإن لم يدخل كل ما كتبه في باب الإصلاح الذي يفهمه قراء المنار، فمسمى الإصلاح ومفهومه واسع، وهو يختلف باختلاف الزمان والمكان والسن والعشراء والأقران والتلاميذ والمريدين وغيرهم من المخاطبين.

والمصلح لا يخلق مصلحاً بالفعل، بل يخلق كغيره لا يعلم شيئاً، ويكون الاستعداد للإصلاح فيه كامناً، ثم تظهره التربية والتعليم وما يتجدد المرة بعد المرة له من العبرة والتأثير.

فهل يطلب ممن عاش خمسين، ترك فيها من هذه الكتب والرسائل نحواً من سبعين أن يكون جميع ما كتبه أو شرحه إصلاحاً في الدنيا والدين، مرضياً عند الكهول المجربين والشيوخ المحنكين».

على كل حال دخول القاسمي في الصوفية أولاً أفاده معرفة طرائقهم وبدعهم على التفصيل فنقدهم نقداً تفصيلياً، والعبرة

---

(١) المنار بواسطة «جمال الدين القاسمي» ص ٢٤٣.

بالخواتيم، وكتب القاسمي رحمه الله نافعة جداً، والحق أدلته تنادي عليه بالصحة، والقاسمي نفسه قال[1] : «كل مؤلف لي قبل ١٣٢٠، فلي فيه وقفة».

افتتح القاسمي رحمه الله تفسيره بمقدمة حافلة ماتعة مهمة في قواعد التفسير وعلوم القرآن[2] .

وذكر رحمه الله في مقدمة تفسيره أنه ألَّف تفسيره بعد تصفحه ما قُدر له من تفاسير السابقين، وما صرفه من عمره في الكشف عن حقائقه، فمحاسن التأويل: أودعه ما صفا من التحقيقات، وأوشّحه بمباحث هي المهمات، وأوضح فيه خزائن الأسرار، وأنقد فيه نتائج الأفكار، وساق فيه فوائد التقطها من تفاسير السلف الغابر، وفوائد عثر عليها في غضون الدفاتر، وفوائد استنبطها بفكره»[3] .

ثم بيّن رحمه الله أن تفسيره ما هو إلا شذرة من معانيه، إذ لا قدرة لأحد على استيفاء جميع ما اشتمل عليه الكتاب، وكلٌّ يغرف بحسب علمه ومنة الله عليه[4] .

أطال النفس في تفسير الآيات، وأحياناً يختصر من غير إخلال، ويطيل فوق المعتاد من غير إملال لضرورة رفع إشكال أو تحرير مقال.

---

(١) جمال الدين القاسمي ص ٢٤١.

(٢) في خمسين وثلاثمائة صفحة استوعبت المجلد الأول كله.

(٣) مقدمة محاسن التأويل (١/٥).

(٤) مقدمة محاسن التأويل (١/٥).

له عناية بأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وقراءات الآيات، وتحرير للخلافات اللغوية، وله التفاتات بلاغية، وإفادات أصولية، وتوضيحات فقهية. وله عناية بالغة جداً بكلام شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله، والطبري، وابن كثير.

وينقل أحياناً عن الرازي، والراغب الأصفهاني، والحرالي، والقاشاني، مع نقد بعضهم أحياناً، مع إفادة من نقولات عن غيرهم كالبيضاوي، والسيوطي، والبقاعي، والفراء، والطيبي، والكيا الهراسي، وصديق حسن خان.

شديد المعرفة بأحوال وعقائد أهل الكتاب، لذلك دوّن تعليقات مهمة جداً في الآيات الواردة فيهم.

كما استلهم من كلمات الله أسباب نهضة الأمة واستعادة مجدها، فقال رحمه الله[1] : «أصبح المسلمون في القرون الأخيرة بما لهم حجة على دينهم أمام عدوهم، ولا مسترد لقوتهم، ومستعاد لمجدهم إلا بالرجوع إلى أصل كتابهم والعمل بآدابهم والمحافظة على أحكامه ونبذ ما أُلصق به مما يُحرف كلمته، ويجافي حقيقته».

محاسن التأويل كتاب جامع نافع محرر، يجمع لطالب العلم شتات التفاسير، فيقرب مجموع ما قيل في تفسير كل آية، وهو جيد في عرضه للأقوال ونقدها، والتنكيت على معاني الآي، وكان علامة الكويت الشيخ محمد السليمان الجراح رحمه الله يمتدح «محاسن التأويل» كثيراً.

---

(١) محاسن التأويل (١٦/٥٧٦٧).

التفاسير المبتدعة والمخلطة

يجب على طالب العلم أن يتحرى كتب التفسير النقية في عقيدتها ومروياتها، فيحاذر تفاسير المبتدعة، والكتب التي سوّدت معاني الآيات بالأحاديث والآثار الضعيفة والواهية، والإسرائيليات.

قال عبدالملك الميموني سمعت أحمد بن حنبل رحمه الله يقول[1] : «ثلاثة كتب ليس لها أصول: المغازي، والملاحم، والتفسير».

قال الخطيب البغدادي رحمه الله مفسراً عبارة الإمام أحمد رحمه الله[2] : «هذا الكلام محمول على وجه، وهو أن المراد به كتب مخصوصة في هذه المعاني الثلاثة غير معتمد عليها، ولا موثوق بصحتها، لسوء أحوال مصنِّفيها، وعدم عدالة ناقليها، وزيادات القُصّاص فيها».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[3] : المنقولات التي يحتاج إليها في الدين قد نصب الله الأدلة على بيان ما فيها من صحيح وغيره، ومعلوم أن المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ١٦٢ - رقم ١٤٩٣).
(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ١٦٢).
(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤٦).

المغازي والملاحم؛ ولذا قال الإمام أحمد رحمه الله: ثلاثة أمور ليس لها إسناد: التفسير، والملاحم، والمغازي، ويروى ليس لها أصل أي إسناد، لأن الغالب عليها المراسيل».

فمما ينبغي ملاحظته أن الخلاف في التفسير عند الأولين قليل، فعمد بعض المفسرين إلى حشد كل ما قيل في تفسير الآيات، من أقوال صحيحة وضعيفة، ولم يميّزوا في الغالب بين ما يثبت وما لا يثبت، ولم ينبهوا على الصحيح من الأقوال من ضعيفها، فصار حشدهم هذا إلى التعمية أقرب منه إلى البيان، يجد غير المتبحر كلفة ومشقة في الاهتداء إلى الصواب في تفسير الآية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «الخلاف بين السلف في التفسير قليل، وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله محذراً من التفاسير المبتدعة[2] : «إن من فسر القرآن أو الحديث، وتأوّله على غير التفسير المعروف عن الصحابة والتابعين فهو مفتر على الله، ملحد في آيات الله، محرف للكلم عن مواضعه، وهذا فتح لباب الزندقة والإلحاد، وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين الإسلام».

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٤٣).

وقال الشاطبي رحمه الله[1] : «فحقٌّ ما حُكي عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: «إنما هذا القرآن كلام الله، فضعوه على مواضعه، ولا تتبعوا فيه أهواءكم»، أي فضعوه على مواضع الكلام، ولا تُخرجوه عن ذلك، فإنه خروج عن طريقه المستقيم إلى اتِّباع الهوى».

بعض المفسرين يحشر أقوال المبتدعة مع أقوال أهل السنة في تفسير القرآن دون بيان خطأ الأقوال المبتدعة، فهذا شر ومن أسباب ترويج البدع، ويعظم الشر والإثم إذا تعمد ذلك.

قال الشيخ تقي الدين ابن الصلاح رحمه الله[2] : «هذا الماوردي عفا الله عنه يُتَّهم بالاعتزال، وقد كنت لا أحقِّقُ ذلك عليه، وأتأول له، وأعتذر عنه، في كونه يُورد في «تفسيره» في الآيات التي يختلفُ فيها تفسير أهل السنة، وتفسير المعتزلة، وجوهاً يسردها، يمزج فيها أقاويلهم، **من غير تعرض منه لبيان ما هو الحق منها**، فأقول: لعلَّ قصده إيراد كل ما قيل من حق وباطل، ولهذا يورد من أقاويل المشبهة أشياء مثل هذا الإيراد، حتى وجدته يختار في بعض المواضع قول المعتزلة وما بنوه على أصولهم الفاسدة، ومن ذلك مصيره في سورة الأعراف إلى أن الله سبحانه وتعالى لا يشاء عبادة الأوثان.

---

(١) الاعتصام (٢/ ٤١).

(٢) طبقات الفقهاء الشافعية تهذيب النووي وتنقيح المزي (٢/ ٦٣٨ - ٦٣٩).

وقال في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، في قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا﴾؛ وجهان: أحدهما معناه: حكمنا بأنهم أعداء، والثاني: تركناهم على العداوة، فلم نمنعهم منها.

وتفسيره عظيم الضرر؛ لكونه مشحوناً بكثير من تأويلات أهل الباطل، وتلبيساً، على وجه لا يفطن لتمييزها غير أهل العلم والتحقيق، مع أنه تأليف رجل لا يتظاهر بالانتساب إلى المعتزلة حتى يُحذر، وهو يجتهد في كتمان موافقته لهم فيما هو لهم فيه موافق، ثم ليس هو معتزلياً مطلقاً؛ فإنه لا يوافقهم في جميع أصولهم، مثل خلق القرآن على ما دل عليه «تفسيره» في قوله عز وجل: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، وغير ذلك.

ويوافقهم في القدر، وهي البليَّة التي غلبت على البصريين، وعيبوا بها قديماً، وقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. يعني: بحكم سابق، وهو نحو ما تقدم، والله أعلم».

وأخطر من ذلك كله من يورد شبه المبتدعة المتكلمين على أقوى ما يكون، وجواب أهل الحق على أضعف ما يكون، وهذا ما فعله الفخر الرازي في تفسيره «مفاتح الغيب».

قال الطوفي رحمه الله[1] : «كتاب مفاتح الغيب، ولعمري كم فيه من زلة وعيب، وحكى لي الشيخ شرف الدين اليصني المالكي: أن شيخه الإمام الفاضل سراج الدين المغربي السرمساحي المالكي صنَّف كتاب «المآخذ على مفاتح الغيب»، وبيّن ما فيه من البهرج والزيف في نحو مجلدين، وكان ينقم عليه كثيراً، خصوصاً إيراده شبه المخالفين في المذهب والدين، على غاية ما يكون من القوة، وإيراد جواب أهل الحق منها على غاية ما يكون من الدهاء.

ولعمري إن هذا لدأبه في غالب كتبه الكلامية والمكية، كالأربعين، والمحصل، والنهاية، والمعالم، والمباحث المشرقية، ونحوها.

وبعض الناس يتهمه في هذا وينسبه إلى أنه ينصر بهذا الطريق ما يعتقده ولا يجسر على التصريح به.

ولعمري إن ذا ممكن، لكنه خلاف ظاهر حاله، فإنه ما كان يخاف من قول يذهب إليه، أو اختيار ينصره، ولهذا تناقضت آراؤه في سائر كتبه، وإنما سببه عندي أنه كان شديد الاشتياق إلى الوقوف على الحق، كما صرح به في وصيته التي أملاها عند موته، فلهذا كان يستفرغ وسعه، ويكد قريحته في تقرير شبه الخصوم، حتى لا يبقى لهم بعد ذلك مقال، فتضعف قريحته عن جوابها على

---

(١) الإكسير في علم التفسير ص ٢٦ – ٢٧.

الوجه؛ لاستفراغه قوتها في تقرير الشبه، ونحن نعلم بالنفسية الوجدانية أن أحدنا إذا استفرغ قوة بدنه في شغل من الأشغال ضعف عن شغل آخر، وقوى النفس على وزان قوى البدن غالباً، وقد ذكر في مقدمة كتاب «نهاية العقول» ما يدل على صحة ما أقول؛ لأنه التزم فيه أن يقرر مذهب كل خصم، لو أراد ذلك الخصم تقريره، لما أمكنه الزيادة عليه أو أوفى بذلك».

وموارد الرازي في تفسيره الاعتزالية شاهدة على أن تفسيره بدعي، قال الشاطبي رحمه الله[1]: «حدثني الأستاذ أبو علي الزواوي عن شيخه الأستاذ الشهير أبي عبدالله المسيفّر أنه قال: إن تفسير ابن الخطيب احتوى على أربعة علوم نقلها من أربعة كتب، مؤلفوها كلهم معتزلة.

فأصول الدين نقلها من كتاب الدلائل لأبي الحسين، وأصول الفقه نقلها من كتاب المعتمد لأبي الحسين أيضاً، وهو أحد نظار المعتزلة؛ وهو الذي كان يقول فيه بعض الشيوخ: إذا خالف أبو الحسين البصري في مسألة صعب الرد عليه فيها.

قال: والتفسير من كتاب القاضي عبدالجبار[2]، والعربية والبيان من الكشاف للزمخشري».

---

(١) الإفادات والإنشادات ص ١٠٠ – ١٠١.

(٢) تفسيره للقرآن اسمه «المحيط».

ومن التفاسير المبتدعة الكشاف للزمخشري، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] : «وأما الزمخشري فتفسيره محشو بالبدعة، وعلى طريقة المعتزلة من إنكار الصفات والرؤية والقول بخلق القرآن، وأنكر أن الله مريد للكائنات وخالق لأفعال العباد، وغير ذلك من أصول المعتزلة.

وأصولهم خمسة يسمونها التوحيد، ومعناه عندهم يتضمن نفي الصفات، والعدل وعندهم يتضمن التكذيب بالقدر، والمنزلة بين المنزلتين وهي عندهم أن الفاسق لا يسمى مؤمناً بوجه من الوجوه، وإنفاذ الوعيد وهو عندهم أن فساق الملة مخلدون في النار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو عندهم يتضمن جواز الخروج على الأئمة».

وقال البلقيني رحمه الله[2] : «استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقيش من قوله تعالى في تفسير ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وأي فوز أعظم من دخول الجنة، أشار به إلى عدم الرؤية، والملحد[3] فلا تسأل عن كفره وإلحاده في

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٣٨٦ - ٣٨٧)، باختصار.

(٢) بواسطة الإتقان في علوم القرآن (١/٤٢٠).

(٣) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في الزمخشري: «صاحب [الكشاف] في التفسير، و[المفصَّل] في النحو، وغير ذلك من المصنفات المفيدة، وقد سمع الحديث، وطاف البلاد في طلب العلم، وجاور بمكة مدّة، وكان يُظهر مذهب الاعتزال، ويُصرِّح بذلك في تفسيره، ويناظر عليه». البداية والنهاية (١٦/٣٣٥)، وقال الذهبي رحمه الله: «كان داعية إلى الاعتزال، الله يسامحه». سير أعلام النبلاء (٢٠/١٥٦).

آيات الله وافترائه على الله ما لم يقله كقول بعضهم في ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]: ما على العباد أضرّ من ربهم».

ومن التفاسير المبتدعة التي ينبغي الحذر منها تفاسير الصوفية، قال بدر الدين الزركشي رحمه الله (ت: ٧٩٤هـ)[1] : «فأما كلام الصوفية في تفسير القرآن، فقيل ليس تفسيراً، وإنما هي معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة كقول بعضهم في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، إن المراد النفس، فأمرنا بقتال من يلينا لأنها أقرب شيء إلينا وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه.

قال ابن الصلاح في فتاويه: وقد وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدي أنه صنّف أبو عبدالرحمن السلمي حقائق التفسير، فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر.

قال ابن الصلاح: وأنا أقول: الظن بمن يوثق به إذا قال شيئاً من أمثال ذلك أنه لم يذكره تفسيراً، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة في القرآن العظيم، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية، وإنما ذلك منهم ذكر لينظر ما ورد به القرآن، فإن النظير يُذكر بالنظير، فمن ذلك مثال النفس في الآية المذكور، فكأنه قال: أمرنا بقتال النفس ومن يلينا من الكفار، ومع ذلك فيا ليتهم لم يتساهلوا في مثل ذلك، لما فيه من الإبهام والالتباس!».

---

(١) البرهان في علوم القرآن ص ٤٢٩ – ٤٣٠.

ومن التفاسير المبتدعة تفاسير الباطنية، وبداية لا بد أن نشير إلى أن الباطنية لفظ مجمل قد يستعمله البعض في معنى سائغ، وقد يقع في الواقع على التلاعب بآيات الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1] «وأما ما يروى عن بعضهم من الكلام المجمل مثل قول بعضهم: لو شئت لأوقرت من تفسير فاتحة الكتاب إلخ، فهذا إذا صح عمن نُقل عنه كعلي رضي الله عنه وغيره لم يكن فيه دلالة على الباطن المخالف للظاهر؛ بل يكون هذا من الباطن الصحيح الموافق للظاهر الصحيح، وقد تقدم أن الباطن إذا أريد به ما لا يخالف الظاهر المعلوم فقد يكون حقاً، وقد يكون باطلاً، ولكن ينبغي أن يعرف أنه قد كُذب على علي رضي الله عنه وأهل بيته، لاسيما على جعفر الصادق ما لم يكذب على غيره من الصحابة، حتى إن الإسماعيلية والنصيرية يضيفون مذهبهم إليه، وكذلك المعتزلة».

وقد تكلم العلماء في شروط التفسير الإشاري أو الباطني – إن صح التعبير عنه بذلك –.

فقال ابن القيم رحمه الله (ت: ٧٥١هـ): «التفسير على الإشارة والقياس: وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم، وهذا لا بأس به بأربعة شرائط:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٤٤).

١ – أن لا يناقض معنى الآية.
٢ – وأن يكون معنى صحيحاً في نفسه.
٣ – وأن يكون في اللفظ إشعار به.
٤ – وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم، فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطاً حسناً[1]».

والغالب على المنقولات في تفسير الباطنية الكذب، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[2] : «والموضوعات في كتب التفسير كثيرة مثل الأحاديث الكثيرة الصريحة في الجهر بالبسملة، وحديث علي رضي الله عنه الطويل في تصدقه بخاتمه في الصلاة، فإنه موضوع باتفاق أهل العلم، ومثل ما روي في قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، أنه علي ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢]، أذنك يا علي».

وقال القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله (ت: ٥٤٣هـ)[3] : «وأما علم الباطن فقد ضلت فيه الأمم فأوغدوا في هذا الباب وأوعدوا، حتى كفرت منهم طائفة لا يحكى قولها الآن لسخافته، وتسورت عليه أخرى، وادعى كل واحد منهم أن علمه في كتاب الله، ليحرص عليه من يطلبه».

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ص ٩٠.
(٢) مجموع الفتاوى (١٣ / ٣٥٤).
(٣) قانون التأويل ص ٥١٨.

قال القاسمي رحمه الله[1]: «قال الشاطبي رحمه الله في الموافقات: «من الناس من زعم أن للقرآن ظاهراً وباطناً، وربما نقلوا في ذلك بعض الأحاديث والآثار، فعن الحسن مما أرسله عن النبي ﷺ أنه قال: ما أنزل الله آية إلا ولها ظهر وبطن، بمعنى ظاهر وباطن، وكل حرف حد، وكل حد مطلع. وفُسر بأن الظهر والظاهر هو ظاهر التلاوة، والباطن هو الفهم عن الله لمراده، لأن الله تعالى قال: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]. والمعنى لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب، ولم يرد أنهم لا يفهمون نفس الكلام. كيف وهو منزل بلسانهم؟

ولكن لم يحظوا بفهم مراد الله من الكلام، وكان هذا هو معنى ما روي عن علي رضي الله عنه أنه سُئل: هل عندكم كتاب؟ فقال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة. الحديث، وإليه يرجع تفسير الحسن للحديث إذ قال: الظهر هو الظاهر والباطن هو السر.

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فظاهر المعنى شيء، وهم عارفون به لأنهم عرب، والمراد شيء آخر وهو الذي لا شك فيه أنه من عند الله. وإذا حصل التدبر لم يوجد في القرآن اختلاف البتة.

---

(١) محاسن التأويل (١/٥١ - ٥٣).

فهذا الوجه الذي من جهته يفهم الاتفاق، وينزاح الاختلاف هو الباطن المشار إليه[1] .

ولما قالوا في الحسنة: هذا من عند الله، وفي السيئة: هذا من عند رسول الله، بيّن لهم أن كلاً من عند الله بقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ...﴾ الآية [النساء: ٧٩]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، فالتدبر إنما يكون لمن التفت إلى المقاصد، وذلك ظاهر أنهم أعرضوا عن مقاصد القرآن فلم يحصل منهم تدبر.

قال بعضهم: الكلام في القرآن على ضربين: أحدهما يكون برواية، فليس يعتبر فيها إلا النقل، والآخر يقع بفهم، فليس يكون إلا بلسان من الحق إظهار حكمة عن لسان العبد، وهذا الكلام يشير إلى معنى كلام علي رضي الله عنه.

وحاصل هذا الكلام أن المراد بالظاهر هو المفهوم العربيّ،

---

(١) هذا يُسمى رد المتشابه للمحكم، ورد الجزئيات إلى الكليات حيث تتوافق الشريعة، ولا يُسمى باطناً، فمعاني الشريعة كلها ظاهرة معلومة، وإنما يتفاضل الناس في فهم دقيق العلم، ومن خفي عليه العلم فهو ظاهر في حق العلماء، ولا نسميه باطناً في حق الجاهل، بل نسميه «بيان» كما سمى ووصف الله القرآن بذلك، وهؤلاء الجهّال لو صرفوا عنايتهم لتدبر معاني القرآن لسهل عليهم لأن الله يقول: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ١٧].

والباطن هو مراد الله تعالى من كلامه وخطابه[1]، فإن كان مراد من أطلق هذه العبارة ما فسّر، فصحيح، ولا نزاع فيه، وإن أرادوا غير ذلك فهو إثبات أمر زائد على ما كان معلوماً عند الصحابة ومن بعدهم، فلا بد من دليل قطعي يثبت هذه الدعوى، لأنها أصل يحكم به على تفسير الكتاب، فلا يكون ظنياً، وما استدل به إنما غايته إذا صح سنده أن ينتظم في سلك المراسيل.

وإذا تقرر هذا فليرجع إلى بيانهما على التفسير المذكور بحول الله.

وله أمثلة تبين معناه بإطلاق، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان عمر رضي الله عنه يدخلني مع أصحاب النبي ﷺ، فقال له عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه: أتدخله ولنا بنون مثله؟ فقال له عمر رضي الله عنه: إنه من حيث تعلم، فسألني عن هذه الآية: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ [النصر: ١]، فقلت: إنما هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه، وقرأ السورة إلى آخرها، فقال عمر رضي الله عنه: والله ما أعلم منها إلا ما تعلم.

فظاهر هذه السورة أن الله أمر نبيه ﷺ أن يسبح بحمد الله ويستغفره إذ نصره الله وفتح عليه، وباطنها[2] أن الله نعى إليه نفسه.

---

(١) هذا من باب تقديم المعاني المعهودة للقرآن على المعاني اللغوية، ولا يسمى «باطنية»، كالصلاة معناها اللغوي الدعاء، ومعناها القرآني العبادة المفتتحة بالتكبير المختتمة بالتسليم.

(٢) صوابه «ومفهومها»، فهو دليل الخطاب.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣]، فرح الصحابة، وبكى عمر رضي الله عنه، وقال: ما بعد الكمال إلا النقصان»[١] .

ثم نقل القاسمي رحمه الله عن الشاطبي شروط تفسير الباطن أحدهما: أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب ويجري على المقاصد العربية، والثاني: أن يكون له شاهد نصّاً أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض.

ثم قال الشاطبي رحمه الله[٢] : «وبهذين الشرطين يتبين صحة ما تقدم إنه الباطن، لأنهما موفران فيه، بخلاف ما فسر به الباطنية، فإنه ليس من علم الباطن، كما أنه ليس من علم الظاهر، فقد قالوا في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ [النمل: ١٦]، أنه الإمام ورث النبي ﷺ علمه، وقالوا في الجنابة: إن معناها مبادرة المستجيب بإفشاء السر إليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق. ومعنى الغسل تجديد العهد على من فعل ذلك...».

ومن تفاسير الأشاعرة تفسير القرآن للعلامة عز الدين عبدالعزيز ابن عبدالسلام السلمي الدمشقي رحمه الله (ت: ٦٦٠هـ)، والعز ابن عبدالسلام رحمه الله نحرير في الفقه وقواعده، إلا أنه أشعري

---

(١) أراد عمر رضي الله عنه بالنقصان التغير والفتن التي تقع بعد النبي ﷺ ولم يرد الشريعة، فشرع الله في نفسه كامل.

(٢) محاسن التأويل (١/٦٧).

العقيدة. وهذا واضح في تفسيره وفي كتابه «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز».

فقد قال رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، «استواؤه على العرش، وهو مجاز عن استيلاءه على ملكه وتدبيره إياه، قال الشاعر: قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق»[(١)] . وقال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤][(٢)] : «استوى أمره على العرش، قاله الحسن، أو استولى».

وهذا الذي نقله عن الحسن غير مسند، وإجماع السلف منعقد على أن الله استوى على العرش بمعنى علا وارتفع على العرش، قال الدارمي رحمه الله[(٣)] : «قد اتفقت الكلمة من المسلمين أن الله فوق عرشه فوق سماواته».

وسئل ابن الأعرابي: هل يصح أن يكون استوى بمعنى استولى؟ فقال: لا تعرف العرب ذلك.

وقال أبو عمر الطلمنكي رحمه الله[(٤)] : «أجمع أهل السنة على أن الله تعالى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز».

---

(١) الإيجاز في بعض أنواع المجاز ص ١١٠، ط. دار البشائر.
(٢) تفسير القرآن اختصار النكت للماوردي ص ١٧٢.
(٣) الأربعون في صفات رب العالمين ص ٤٣.
(٤) مختصر الصواعق المرسلة ص ٣٥٧.

والله أخبرنا عن استواؤه على العرش بعد خلق السموات والأرض بلفظة (ثم)، التي حقيقتها الترتيب والمهلة، ولو كان معناه القدرة على العرش والاستيلاء عليه لم يتأخر ذلك إلى ما بعد خلق السموات والأرض، فإن العرش كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام، فكيف يجوز أن يكون غير قادر ولا مستول على العرش إلى أن خلق السموات والأرض[1].

وأبو الحسن الأشعري رحمه الله ذكر أن أهل السنة والحديث يقولون إن الله استوى على العرش، والمعتزلة يقولون: استولى على العرش[2]، وبهذا تتبين أيها القارئ أن الأشاعرة من فروع المعتزلة.

وكذلك قال العز بن عبدالسلام في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧][3]: «[قبضته] أي: هي في مقدوره، كالذي يقبض القابض عليه في قبضته، [بيمينه]، بقوته، لأن اليمين القوة».

وهذا تأويل غير صحيح أبداً، يرده قول النبي ﷺ: «**يقبض الله**

---

(١) وانظر بقية وجوه الرد في شرح اعتقاد أئمة الحديث ص ١٨٣ - ١٨٨، لمقيده.

(٢) مقالات الإسلاميين ص ٢١١، ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٣) تفسير القرآن ص ٤٩٢.

سمواته بيده، والأرض باليد الأخرى، ثم يهزهن ثم يقول: أنا الملك»[1] .

فالقبض حقيقي، والله عز وجل له يدان حقيقيتان لا تماثل أيدي المخلوقين، قال النبي ﷺ : «**وكلتا يديه يمين**»[2] .

قال ابن القيم رحمه الله[3] : «فهنا هز وقبض وذكر يدين وطي وقبض وإمساك، فيصير المجموع حقيقة هذا في الفعل وهذا في الصفة».

وفي قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، قال العز بن عبدالسلام: «ناظرة: تنظر إليه في القيامة أو إلى ثوابه قاله ابن عمر ومجاهد، أو تنظر أمر ربها»[4] .

هكذا ذكر الأقوال كلها على سبيل الشك لا الجزم، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[5] : «وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح، من طرق متواترة لا يمكن دفعها ولا منعها».

---

(١) رواه البخاري كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] (١٣/٣٩٣ - رقم ٧٤١٢)، ومسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٤/٢١٤٨ - رقم ٢٧٨٨).

(٢) رواه مسلم كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل (٤/١٤٥٨ - رقم ١٨٢٧).

(٣) انتظر تفصيل ذلك مختصر الصواعق المرسلة ص ٣٧٠ - ٣٨٦.

(٤) تفسير القرآن ص ٦٢٦.

(٥) تفسير القرآن العظيم (٨/٢٧٩).

وقال ابن كثير أيضاً رحمه الله[1] : «وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام، وهداة الأنام».

وأما مجاهد رحمه الله فقد فسّر الزيادة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، بالرؤية[2] ، فحينئذ معنى كلام مجاهد رحمه الله أن النظر لله حقيقة هو من الثواب المنتظر في الآخرة كما وجهه عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله[3] .

* **في ظلال القرآن**: مؤلفه هو سيد قطب رحمه الله، وهو من خريجي دار العلوم، كان قريباً من جمال عبدالناصر بعد قيام الثورة، واقترب بعد ذلك من الإخوان المسلمين، ثم اندمج مع الإخوان وصار رئيساً لقسم نشر الدعوة، وكتاباته بعد ذلك صارت أساساً في فكر الحزب[4].

مصنفاته كثيرة، منها «في ظلال القرآن».

هذا الكتاب وسائر كتب سيد قطب خصوصاً «معالم في الطريق» استقطب كثيراً من الشباب، ويرجع ذلك إلى دور أتباع حزبه «الإخوان المسلمين» في تعميم منهجهم من خلال الحث على قراءة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٨٠).

(٢) البداية والنهاية (٢٠/ ٣٦٣).

(٣) الرد على الجهمية ص ٦٧.

(٤) ابن القرية للقرضاوي (١/ ٤٣٠ – ٤٣١).

كتبه، ولوجود تعاطف مجموعة من الشباب مع سيد قطب رحمه الله لأنه قُتل مشنوقاً.

كتابه صياغته أدبية أكثر منها شرعية، له عناية فائقة في محاولة تشبيه خصومات الكفار مع أنبيائهم بخصومات الإسلاميين مع ولاتنا، ويجنح كثيراً في أحكامه على المجتمعات الإسلامية ويصفها بالجاهلية، وكلها عنده في رتبة واحدة سواء.

له تقريرات علمية في بعض المواضع، لكنها لا تخلو من بدع وأصول استدلال غير صحيحة، مع ما اشتملت عليه من تضعيف لأحاديث صحيحة وتصحيح لأحاديث ضعيفة.

انتقد سيد قطب رحمه الله ثلة من علماء مصر في وقته خصوصاً لطعونه في الصحابة رضي الله عنهم، وعاند ومضى في طعونه وأخطاءه.

من أولئك الذين ناصحوه وردوا عليه العلامة محمود محمد شاكر، محب الدين الخطيب، عبدالسلام هارون، وغيرهم.

يقول د. يوسف القرضاوي عما وقع في كتب سيد قطب من طعون في صحابة رسول الله ﷺ [1] : «فقد قسا الأستاذ سيد رحمه الله في نقده لبعض مواقف سيدنا عثمان الخليفة الثالث في الإسلام، كما قسا على بني أمية بصفة عامة، وخصوصاً في الطبعة الأولى للكتاب.

---

(١) ابن القرية (١/٤٣١ - ٤٣٢).

وهذا ما أغضب العالم الشاعر الأديب المحقق الأستاذ محمود محمد شاكر، فكتب نقداً مرّاً، بل هجوماً عنيفاً على الكتاب في عدة مقالات نشرتها مجلة «المسلمون»، التي كان يصدرها الأستاذ سعيد رمضان، تحت عناوين مختلفة، أذكر منها «حكم بلا بيّنة»، و«ألسنة المفترين»، و«تاريخ بلا إيمان»، و«لا تسبوا أصحابي».

وسيد قطب في تقريراته العقدية في تعليقه على آيات الله خالف أصول أهل السنة وخرج عن إجماعهم، مثال ذلك في سورة الفلق زعم أن أحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في أمر العقيدة[1] .

وقد حكى إجماع الصحابة على قبول خبر الآحاد الحافظ ابن عبد البر رحمه الله[2] ، وكذلك حكى إجماع التابعين الخطيب البغدادي رحمه الله[3] ، وقال الحافظ النووي رحمه الله[4] : «أجمع من يُعتد به على الاحتجاج بخبر الواحد ووجوب العمل به، ودلائله من فعل رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين وسائر الصحابة ومن بعدهم أكثر من أن يحصر».

فرد خبر الآحاد في العقيدة من طرائق المبتدعة، قال أبو المظفر

---

(١) المورد الزلال في التنبيه على أخطاء الظلال ص ٣٢٤.

(٢) التمهيد (٨/ ٣٧٠ - ٣٧١).

(٣) الكفاية في معرفة أصول الرواية (١/ ١٢٩).

(٤) شرح صحيح مسلم (١٤/ ١٣١).

السمعاني رحمه الله: «قولهم: إن أخبار الآحاد لا تُقبل فيما طريقه العلم، وهذا رأس شغب المبتدعة في رد الأخبار»[١].

وكذلك خرج عن اعتقاد أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته، حيث قال في سورة الزمر معلقاً على قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]: «كل ما يرد في القرآن وفي الحديث من هذه الصور والمشاهد، إنما هو تقريب للحقائق التي لا يملك البشر إدراكها بغير أن توضع لهم في تعبير يدركونه، وفي صورة يتصورونها، ومنه هذا التصوير لجانب من حقيقة القدرة المطلقة التي لا تتقيد بشكل، ولا تتحيز في حيز، ولا تتحدد بحدود»[٢] .

فهذا تأصيل بدعي فيه تعطيل لنصوص الصفات عن حقيقتها.

قال الأوزاعي رحمه الله[٣] : «كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالى ذكره فوق سماواته، ونؤمن بما وردت السنة به من صفاته».

وقال أبو القاسم الأصبهاني رحمه الله[٤] : «فمذهب السلف رحمة الله عليهم أجمعين إثباتها وإجراؤها على ظاهرها، ونفي الكيفية عنها، فهذا إجماع معلوم متيقن عند جميع أهل السنة».

---

(١) الحجة في بيان المحجة (٢/٢١٥).

(٢) المورد الزلال ص ١٨٧ .

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي ص ٥١٥.

(٤) الحجة في بيان المحجة (١/١٧٤).

وقال الحافظ ابن عبدالبر رحمه الله[1] : «أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز».

وسيد قطب رحمه الله لم يكن يحسن التمييز بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، حيث قال في تعليقه على سورة هود[2] : «فقضية الإلهية لم تكن محل خلاف، إنما قضية الربوبية هي التي كانت تواجهها الرسالات، وهي التي كانت تواجهها الرسالة الأخيرة، إنها قضية الدينونة لله وحده بلا شريك والخضوع لله وحده بلا منازع».

وهذا خلط عجيب، فمشركو قريش كانوا مقرين بتوحيد الربوبية كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، والشرك الذي بُلوا به هو شرك الألوهية كما قال تعالى عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

كما أنه تجوّز كثيراً في اصطلاحات غير صحيحة ممكن يتولد منها بدع عظيمة كتسميته الزكاة ضريبة اجتماعية[3] ، وهذا خطأ، فتشبيهها بمكوس البشر خطأ، وهذا قد يُشعر من يعتقد ذلك أنه يُخرجها مغرماً والعياذ بالله.

---

(١) التمهيد (١٤٥/٧).

(٢) المورد الزلال ص ٩٥.

(٣) المورد الزلال ص ١٧.

ومن ذلك تسميته بلاغة القرآن بالإيقاع الموسيقي[1] ، وهذا خطأ محض، فكلام الله يصان عن تشبيهه بالموسيقى وإيقاعه التي هي مزمار الشيطان.

وهذا غيض من فيض من ملاحظات كثيرة دوّنها المحدِّث عبدالله الدويش رحمه الله بلغ مجموعها تسع وسبعون ومائة ملاحظة.

ولذلك تكلم العلماء رحمهم الله في كتاب سيد قطب رحمه الله هذا، حيث قال العلامة عبدالعزيز بن باز رحمه الله[2] : «إنه مسكين ضايع في التفسير». وقال والدنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[3]: «تفسير سيد قطب رحمه الله فيه طوام».

سيد قطب في «الظلال» جعل الصراع بين الكفرة المكذبين للرسل كصراع دعاة الحركة للولاة جميعاً، بدون تفريق، وهذا غلو أورده الزلل في معالجة منكر الولاة، فالحكمة في معالجة المنكرات هو قاعدة الشرع فلا يجوز أن يخلف المنكر منكر أعظم منه. وسيد قطب لم يقسو على الصحابة والولاة فقط، بل جاوز ذلك إلى الحكم على المجتمعات الإسلامية بالجاهلية.

---

(١) المورد الزلال ص ٢٩٥.

(٢) براءة علماء الأمة من تزكية أهل البدعة والمذمة ص ٢٨.

(٣) براءة علماء الأمة من تزكية أهل البدعة والمذمة ص ٤٣.

والملاحظ أن سيد قطب عمم حكمه على المجتمعات الإسلامية ونعتها جميعاً بالجاهلية في وقت كانت في غالبها في غاية النقاء والصلاح خصوصاً جزيرة العرب.

ومع الأسف الشديد البعض عوضاً عن الانتصار للحق غلبه حب سيد قطب فأوقعه في ورطات التأويل لسيد في مسائل عظيمة كالتكفير.

وبسبب هذا التأويل والدفاع عن سيد قطب فيما أخطأ فيه تشبث الشباب بكتابات سيد قطب وتقريراته التكفيرية.

قال الأمين العام لجماعة الإخوان المسلمين بمصر د. محمود عزت[1] : «ففي عام ٢٠٠٥م أثيرت قضية كتابات سيد قطب سواء من خلال بعض التصريحات لعدد من الإخوان أو في المقالات التي كان يكتبها عدد آخر بل وحتى من مذكرات شخصية من عدد من الإخوان، فيها أن هنالك كلاماً للأستاذ سيد يكفّر فيه المجتمع باعتباره مجتمعاً جاهلياً، وأن هذا الكلام كان له تأثير على جماعات أخرى غير الإخوان أدت إلى انتهاجها منهج العنف، وعندما ناقش مكتب الإرشاد هذه القضية قرر إحالتها لقسم التربية، حيث إنه القسم المهتم بفكر الجماعة، وللإخوان الذين عاصروا سيد قطب، وخاصة الذين تعاملوا معه بشكل مباشر، وبعد دراسة مستفيضة للموضوع وافق مكتب الإرشاد وأعلن المرشد العام محمد مهدي

---

(١) صحيفة الوطن الكويتية تاريخ ٢١ شوال ١٤٢٨هـ.

عاكف موقف الجماعة، حيث قال: إن كلام سيد قطب لم يخرج عن فكر الإخوان».

وممن مضى على سيرة الإخوان المسلمين في نفي التكفير عن سيد قطب د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق، حيث قال[1] : «ولكن كلاً من أبي الأعلى وسيداً ومحمد قطب لا يقصدون بالوصف بالجاهلية تكفير المجتمعات».

ولا أدري كيف يتم علاج التطرف والتكفير ونحن نحميه وننفيه عمن هو غال جداً فيه؟!

وهذه نقولات موثقة أسوقها كبرهان على أن سيد قطب من غلاة التكفيريين، قال علي العشماوي[2] : «جاءني أحد الإخوان وقال لي إنه سوف يرفض أكل ذبيحة المسلمين الموجودة حالياً، فذهبت إلى سيد قطب وسألته عن ذلك، فقال: دعهم يأكلوها ويعتبرونها ذبيحة أهل الكتاب، فعلى الأقل المسلمون اليوم هم أهل كتاب»!!!

وهذا التكفير الصريح لآحاد المسلمين فضلاً عن ولاتهم آثاره مدمرة لدرجة يصعب تصورها، فقد طال التكفير الذي صنعه وبذره سيد قطب آباء وأمهات أتباع سيد قطب.

---

(١) الغلو في الدين ص ٣٢٨، ط. مؤسسة الرسالة، ط. الأولى.

(٢) التاريخ السري لجماعة الإخوان المسلمين ص ٨٠.

قال المستشار سالم البهنساوي رحمه الله[1] : «ولقد أكدت لي السيدة الفاضلة زينب الغزالي أنه في يوليو ١٩٦٥م قبل اعتقال الأستاذ سيد قطب، سألته عما ورد في الظلال وفي المعالم من عبارات **يتمسك بها بعض الشباب في تكفير آبائهم وأمهاتهم**، فأكد لها أنه لا يتعرض للأحكام الشرعية، فهذه يختص بها الفقهاء».

وهذا عجيب من سيد، إصرار على التكفير، مع أن الذي بذل النصيحة ناصح مشفق من حزبه الأخت زينب الغزالي.

وسيد قطب يقول إنه «لا يتعرض للأحكام»، وهذا أعجب من تكفيره، فقوله: «المسلمون اليوم هم أهل كتاب»، أليس حكماً؟!! بل هو حكم مغلظ!!

ويقول د. يوسف القرضاوي عن عقيدة التكفير لدى سيد قطب[2]: «في هذه المرحلة ظهرت كتب سيد قطب التي تمثل المرحلة الأخيرة من تفكيره الذي ينضح بتكفير المجتمع،...، وإعلان الجهاد الهجومي على الناس كافة».

ومنشأ جماعات التكفير في العصر الحديث هم الإخوان

---

(١) فكر سيد قطب في ميزان الشرع ص ٨٦، الناشر: دار الوفاء – المنصورة، الطبعة الأولى – ٢٠٠٠م.

(٢) أولويات الحركة الإسلامية ص ١١٠.

المسلمون، وكتابات سيد قطب هي الأساس في ذلك، وهذا باعتراف بعض المحبين لسيد قطب، يقول الشيخ جعفر إدريس مبيناً أثر كلمات سيد قطب ومفرداته التكفيرية في نشأة جماعات التكفير[1] :

«كلماته إذا أخذناها على ظاهرها تدل على ما قلت، وأهم من ذلك أن الناس فهموا من هذه الكلمات هذه المعاني التي ننتقدها، وفهموها على غير تواطأ بينهم، فقامت عندنا جماعات في مصر، وفي اليمن من غير اتصال بينهم ولا تعارف، وكان الجامع بينهم هذا الكتاب – معالم في الطريق – ».

* * *

(١) ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر ص ٥٥٧.

الخاتمة

تلك هي بعض فضائل القرآن وأوصافه ذكرتها تشويقاً وترغيباً لحفظ كتاب الله، وذكرت أنواع إعجازه، وحقيقة بلاغته في حدود ما ذكره العلماء، وإلا فإن حلاوة ألفاظه وبلاغة معانيه تقصر العبارات عن إبانة كل ما فيها من جمال لفظي وإحكام معنوي.

كما بيّنت آداب وأحكام تلاوة القرآن وتجويد قراءته، وتجويد العمل به، فالعمل به واتخاذه منهج حياة هو المقصود الأعظم لتلاوة القرآن.

وأشرت إلى أسباب تدبّر القرآن، ومهّدت بذكر قواعد تفسير القرآن، والجهات التي دخل منها الغلط في التفسير، وختمت بالتعريف بأهم كتب التفسير، مع بيان أوضح خصائص تلك الكتب، ونصحت ببيان التفاسير النقية، وحذّرت من التفاسير البدعية.

فأقبل يا باغي الخير إلى فلاحك وسعادتك ونجاتك، وبادر إلى نفع نفسك، فاحفظ كتاب الله، واجعل قلبك يُشرق بنور الوحي، وبادر إلى طلب معانيه بأخذ التفسير عن أهله، وقراءة كتب التفسير النقية الخلية من البدع والضلالات، فخيركم من تعلّم القرآن وعلّمه.

والحمد لله رب العالمين


تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقـدمـــة	٥
الباب الأول: فضائل القرآن وأوصافه	٩
الفصل الأول: فضائل القرآن وأوصافه	١١
الفــرح بالقــرآن	٦٢
حفاوة السماء والأرض لنزول القرآن	٦٨
منّة الله على خلقه في إنزال القرآن	٧٣
الفصل الثاني: وعـــظ القرآن	٧٧
القرآن يوقظ التدبر في آيات غفلنا عن تلمح معانيها	٩١
الفصل الثالث: تعظيم القــرآن	١٠٥
أخذ الأجرة على تعليم القرآن	١٢٣
الباب الثاني: عـلوم القــرآن	١٣١
علوم القرآن آكد العلوم	١٣٣
القرآن تبيان لكل شيء	١٣٥
عـــلوم القـــرآن	١٤١

الباب الثالث: نزول القرآن ١٥١

نزول القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ١٥٣

الحكمة في نزول القرآن جملة إلى السماء الدنيا ١٥٦

القرآن لم ينزل على النبي ﷺ من اللوح المحفوظ ١٥٨

الحكمة في نزول القرآن مفرقاً ١٦٢

تاريخ ابتداء نزول القرآن ١٦٧

أول وآخر ما نزل ١٦٩

نزول القرآن على سبعة أحرف ١٧٣

الحكمة في نزول القرآن على سبعة أحرف ١٨٤

وجوه الاختلاف الجائز في القراءات ١٨٧

الباب الرابع: جمع القرآن ١٨٩

جمع الصدور ١٩١

العرضة الأخيرة ١٩٨

كتابة القرآن في العهد النبوي ٢٠٢

جمع القرآن في عهد الصدّيق رضي الله عنه ٢٠٥

الجمع العثماني ٢٠٩

الفرق بين جمع أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما ٢١٦

الجمع العلوي ٢١٩

جمع النَّظم ٢٢٣

الباب الخامس: القصص في القرآن ٢٣١

الفصل الأول: العبرة من قصص القرآن ٢٣٣

قصص القرآن ٢٣٥

العبرة من قصص النبيين: ٢٤٠
(١) تسلية النبي ﷺ ٢٤٥
(٢) تأسي المؤمنين بالمرسلين ٢٤٧
(٣) طلب مقاربة الكمال في تدرج الأحوال ٢٤٩
(٤) الدلالة على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ ٢٥١
(٥) إلزام الحجة أهل الكتاب ٢٥٥
(٦) التحقق بنصر الله لأنبيائه وأوليائه ٢٥٨
(٧) بيان لطف الله فيما يبتلي به أنبياءه وأولياءه ٢٦١
(٨) إبراز جميل أخلاق النبيين ٢٦٤
(٩) الاستفادة من أحكام الأنبياء السابقين ٢٧١
(١٠) بيان سُنَّة الله في النبيين بحصول الكرامات ووقوع المعجزات ٢٧٦
الفصل الثاني: أمهات ما اتفقت عليه قصص النبيين ٢٨٩
أمهات ما اتفقت عليه قصص النبيين ٢٩١
أولاً: توحيد الله ٢٩١
ثانياً: بشرية الرسل جميعاً ٢٩٣
ثالثاً: إقامة الدين والتحذير من الفرقة ٢٩٧
رابعاً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٢٩٨
خامساً: المنهج الدعوي ٢٩٩
الفصل الثالث: الخارج عن العادة من قصص النبيين ٣٠٣
أولاً : رفع العذاب عن قوم يونس بعد معاينته ٣٠٥

ثانياً: تغير سُنَّة الله في استئصال الأمم المكذبة

بعد هلاك فرعون : ٣٠٩

ثالثاً: بكاء يعقوب على يوسف عليهما السلام لا ينافي صبره ٣١٠

الفصل الرابع: قصص غير النبيين ٣١٣

قصص غير النبيين في القـرآن ٣١٥

الباب السادس: أدعية القرآن ٣٢١

فاتحة الكتاب أنفع وأوجب الأدعية ٣٣٠

الباب السابع: أمثال القـرآن ٣٣٥

مثل الإيمان ٣٤٠

مثل: الحق والباطل ٣٤١

مثل: الحياة الدنيا ٣٤٢

مثل: حياة القلوب بالوحي بحياة الأرض بالمطر النافع ٣٤٧

الباب الثامن: إعجاز القرآن وبلاغته ٣٥١

الفصل الأول: إعجـاز القـرآن ٣٥٣

معجزة فيها ألوف المعجزات ٣٥٥

إعجاز القرآن بأمّية المنزل عليه ٣٥٨

إعجاز القرآن بعلومه الكونيّة ٣٦٧

إعجاز القرآن بإخباره عن المغيبات ٣٨٣

إعجاز القرآن التشريعي ٣٨٧

الفصل الثاني: بلاغة القرآن ٣٩٥

أساس البلاغة ٣٩٧

الباب التاسع: آداب وأحكام التلاوة والتجويد وحفظ القرآن ٤٢٣
القرآن والسورة والآية ٤٢٥
القرآن عز الأمة وسبب رفعتها ٤٢٩
المزاحمة بين قراءة القرآن وفعل سائر الطاعات ٤٣٢
المفاضلة بين قراءة القرآن نظراً أو حفظاً ٤٤٠
الترسل والإسراع في القراءة ٤٤٤
قراءة القرآن في البيوت ٤٤٨
رقة الطباع وأثرها في تجويد القراءة ٤٥٠
اللحن حده وأنواعه ٤٥٢
تجويد القراءة ٤٥٥
تغني وتجويد في غير تكلف ٤٥٨
ثمرات التجويد ٤٦٠
الوقف والابتداء في القراءة ٤٦٢
تعليم الصبيان القرآن ٤٦٣
خشوع في غير تمايل ولا سقوط ٤٦٨
طلب سماع القرآن من الغير ٤٧٦
الاستعاذة للقراءة ٤٧٨
التكبير بعد قراءة سورة الضحى ٤٨١
تكرار الآية للتدبّر ٤٨٣
التباكي لقراءة القرآن ٤٨٥
تدبّر القرآن ٤٨٨
تجويد العمل ٤٩٢
منّة الصحابة على الأمة في حفظ القرآن ٥٠٩

آي القرآن كلها ثابتة بالتواتر ٥١٢
القراء السبعة أسانيدهم متصلة بالصحابة ٥١٤
الأسباب المعينة على حفظ القرآن ٥١٩
حفظ القرآن وتعاهده من التفلت ٥٢٣
تنكيس سور وآيات وحروف القرآن ٥٢٥
الدعاء مستجاب عند ختم القرآن ٥٣١
الجمع بين السور في القراءة ٥٣٥
عدّ آي السور وكلماتها وحروفها ٥٤٠
تحزيب القرآن ٥٤٣
التحزيب المقترح لحفظ القرآن ٥٤٧
الخلط بين القراءات ٥٤٩
قراءة القرآن في أقل من ثلاث ٥٥١
المواضع التي يكره فيها قراءة القرآن ٥٥٥
تسمية السور ٥٥٧
ترجمة القرآن ٥٦٣

الباب العاشر: سجدات القرآن ٥٦٧
سجدات القرآن ٥٦٩
عدد سجدات القرآن ٥٧٧
سورة الحج فيها سجدتان ٥٨٣
السجدة في سورة صَ ٥٨٦
السجدة في المفصل ٥٩٠
اشتراط الوضوء لسجود التلاوة ٥٩٥

صفة سجود التلاوة ٦٠٠
ما يقال في سجود القرآن ٦٠٣
المستمع له حكم الناطق في سجود التلاوة ٦٠٦
إذا كانت السجدة آخر السورة ٦١٢

الباب الحادي عشر: قرآننا والكتب السماوية ٦١٥
الشرائع والرسالات السابقة توطئة لشريعة الإسلام ٦١٧
قرآننا أكمل الكتب السماوية ٦٢٠
قرآننا أحسن قصصاً ٦٢٢
قرآننا أيسر حفظاً ٦٢٧
قرآننا أكمل تشريعاً ٦٣٠
قرآننا محفوظ وكتبهم مبدّلة محرّفة ٦٣٣
قرآننا لكل الخليقة ٦٣٧
قرآننا مهيمن وناسخ للكتب السماوية قبله ٦٤٣

الباب الثاني عشر: مواقع وأسباب النزول ٦٤٩

الفصل الأول: المكي والمدني ٦٥١

الفصل الثاني: أسباب النزول ٦٦١
نزول القرآن ابتدائي وسببي ٦٦٣
صيغ أسباب النزول ٦٦٥
فوائد معرفة أسباب النزول ٦٦٦
تعدد أسباب النزول ٦٦٨
تعدد السبب وتكرر نزول الآية ٦٧٩

الباب الثالث عشر: إحكام القرآن ٦٨٣
الفصل الأول: المحكم والمتشابه ٦٨٥
الفصل الثاني: التشابه في الحروف المقطعة ٧٠١
الفصل الثالث: الحقيقة والمجاز والتأويل ٧١٥
الفصل الرابع الناسخ والمنسوخ ٧٣٧
فوائد وحكم النسخ ٧٤٥
النسخ لا يستلزم البداء ٧٥٠
النسخ لا يقال بالظن ٧٥٤
التحرز من الغلط في اصطلاح النسخ ٧٦٠
الباب الرابع عشر: إعراب القرآن ٧٦٣
التحقق من طعون الأئمة في بعض بدعوى مخالفة اللغة ٧٨١
لا لحن في القرآن ٧٨٨
ليس في القرآن شيء بغير العربية ٧٩٤
الباب الخامس عشر: الاعتقاد في القرآن ٨٠٣
القرآن كلام الله ٨٠٥
كلام الله غير مخلوق ٨١٨
القرآن كلام الله وجبريل ومحمد ﷺ مبلغون عن الله ٨٣٣
الفرق بين الحرف الذي تكلم الله به والحرف المكتوب
في المصحف ٨٣٧
كلام الله يتفاضل ٨٤٢

الباب السادس عشر: المدخل إلى التفسير ٨٤٧

الفصل الأول: قواعد التفسير ٨٥٩

(١) لا تكابد العلم ٨٦١

(٢) حفظ القرآن ٨٦٣

(٣) اجتناء العلم بزكاء النفس ٨٦٥

(٤) القرآن ميسر للفهم ٨٦٧

(٥) فهم بعض القرآن عون على فهم باقيه ٨٧٠

(٦) أنت المخاطب بهذا القرآن ٨٧١

(٧) تفاضل الناس في الفهم وما ادّخر لك من الفضل ٨٧٣

(٨) تهذيب الجوهر ٨٧٥

(٩) تفسير بلا تكلف ٨٧٧

(١٠) احذر القواعد الباطلة ٨٨٠

(١١) التفسير التفصيلي بعد التدبّر الإجمالي ٨٨٤

(١٢) التحقق بمقاصد القرآن ٨٨٦

(١٣) معرفة أسباب النزول ٨٩٢

(١٤) صورة سبب النزول قطعية الدخول في عموم الآية ٨٩٥

(١٥) تجريد الأقوال الضعيفة وتمييزها وحصر الأقوال فقط في الصحيح ٨٩٨

(١٦) الاستظهار بكتب الإعراب واللغة خصوصاً في مواقع الإشكال ٩٠١

(١٧) التمييز بين القراءات وكلمات الصحابة التفسيرية ٩٠٩

(١٨) تبيّن المحكم من المنسوخ من القراءات ٩١١

(١٩) القراءات الغير سبعية يحتج بها في الأحكام	٩١٣
(٢٠) التحقق من ثبوت القراءات وتحرير معانيها	٩١٥
(٢١) الالتفات إلى صُلب التفسير والالتفات عن فضوله.	٩١٧
(٢٢) مجانبة تفسير لا سلف له	٩٢٠
(٢٣) مجانبة الإسرائيليات	٩٢٢
(٢٤) اصرف همتك للعناية بتفسير أئمة الشأن	٩٢٩
(٢٥) تأمل ما يقع في صيغ الخطاب من الالتفات	٩٣٩
(٢٦) استنباط الأحكام والفوائد من أحوال النظم القرآني	٩٤٣
(٢٧) التأسيس أولى من التوكيد في اللفظ المحتمل معنيين	٩٤٦
(٢٨) الترجيح بين المعاني المحتملة بمرجحات منفصلة من غير اللفظ والسياق	٩٤٨
(٢٩) التفسير بالمقابل	٩٥١
(٣٠) تلمح التناسب والارتباط بين الألفاظ والمعاني معاً	٩٥٣
(٣١) العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب	٩٥٥
(٣٢) ملاحظة تغيير بناء الكلمة	٩٥٩
(٣٣) جبر نقص السليقة العربية بالقراءة:	٩٦١
(٣٤) ملاحظة تنوع أسماء الإشارة في الخطاب القرآني	٩٦٢
(٣٥) استظهار معنى الآية بسائر القراءات فيها	٩٦٣
(٣٦) ملاحظة تراكيب الحروف في الجمل	٩٦٥
(٣٧) زيادة المبنى زيادة في المعنى	٩٦٧
(٣٨) ملاحظة خواتيم الآيات	٩٦٩
(٣٩) تلمح المعنى المناسب لاختلاف أحوال الكلام	٩٧٣

(٤٠) الاستفادة من استعارة وكنايات الألفاظ في فهم المعاني واستنباط الأحكام ٩٧٦
(٤١) حمل ألفاظ القرآن على المعهود من كلام العرب ٩٨٠
(٤٢) لا يحمل القرآن على الأقوال الضعيفة في النحو ٩٨٢
(٤٤) اللفظ المطلق لا يجوز تقييده بدون قيد الشارع ٩٨٧
(٤٥) تقييد اللفظ بملحقاته من وصف أو شرط أو استثناء ٩٨٩
(٤٦) الزيادة على النص ليست نسخاً ٩٩٢
(٥١) الغوص على الدرر ١٠٠٩
(٥٢) القرآن سورة واحدة ١٠١٩
(٥٣) اجتهد في معرفة معاني القرآن ١٠٢٢
(٥٤) كتب غريب الألفاظ وحدها لا تكفي ١٠٢٤
(٥٥) ملاحظة التناسب بين فواتح السور وخواتمها ١٠٢٥
(٥٦) ضع الآيات مواضعها ١٠٢٨
(٥٧) آيات القرآن وفقه الواقع ١٠٣٢
مُلّح التفسير ١٠٤٠
الفصل الثاني: تمييز مرويات التفسير ١٠٤٣
الفصل الثالث: أسباب وقوع الخطأ في التفسير ١٠٥٧
أولاً : أسباب وقوع الخطأ في التفسير مجملاً ١٠٥٧
أولاً: الأحاديث الضعيفة ١٠٥٩
ثانياً: الإسرائيليات ١٠٦٤
التحقق من الإسرائيليات ١٠٦٩
ليس بنا حاجة ولا ضرورة إلى الإسرائيليات ١٠٧٦

ثالثاً : التفسير بالرأي ١٠٨٠
ثانياً: أسباب وقوع الخطأ في التفسير مفصلاً ١٠٩٥
(١) توارد المفسرين في نقل خطأ من تقدمهم دون تمحيص ١٠٩٥
(٢) البدع والذنوب ١٠٩٦
(٣) هجوم المفسر إلى النصوص وله فيها هوى ١٠٩٨
(٤) انصراف الهمة لإقامة الحروف دون معرفة معانيها ١٠٩٩
(٥) تفسير القرآن بالنظرة العجلى ١١٠٢
(٦) توهم ما يشبه مدلول الآية أنه تعيين المراد ١١٠٩
(٧) تفسير ألفاظ القرآن بغير معانيه المعهودة في القرآن ١١١٠
(٨) حمل ألفاظ القرآن على عرف الناس الخاص ١١١٤
(٩) توهم التلازم بين الترتيب الذكري والترتيب الحكمي ١١٢٣
(١٠) حمل العام المراد به الخصوص على عمومه ١١٢٩
(١١) التزام أصول عقلية فاسدة وإعمالها في نصوص القرآن ١١٣٢
الفصل الرابع: كتب التفسير ١١٣٥
المنهجية الصحيحة لقراءة كتب التفسير ١١٣٧
أنواع كتب التفسير ١١٤٠
اختصار كتب التفسير ١١٤٤
أخصر المختصرات في التفسير ١١٤٧
* تيسير اللطيف المنّان ١١٤٧
* زبدة التفسير ١١٤٧
* وجه النهار الكاشف عن معاني كلام الواحد القهار ١١٤٨
المختصرات في التفسير ١١٤٩

* تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان ١١٤٩
* نيل المرام من تفسير آيات الأحكام ١١٥٠
* الدر النثير في اختصار تفسير ابن كثير ١١٥٠
* عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير ١١٥١
* مختصر تفسير البغوي ١١٥٣
* نكت القرآن الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام ١١٥٤
التفاسير المتوسطة ١١٦٢
* رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز ١١٦٢
* فتح الرحمن في تفسير القرآن ١١٦٣
* تفسير القرآن للسمعاني ١١٦٥
* أحكام القرآن لابن الفرس الأندلسي ١١٦٧
* تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١١٦٩
* معالم التنزيل ١١٧٣
* زاد المسير في علم التفسير ١١٧٥
* الهداية في بلوغ النهاية ١١٨٠
* المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١١٨٧
* فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية ١١٩٠
* أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١١٩٣
* تفسير القرآن للعلامة العثيمين ١١٩٦
المطولات في التفسير ١١٩٩
* جامع البيان عن تأويل القرآن ١١٩٩
* تفسير القرآن لابن أبي حاتم ١٢٠٤

* الجامع لأحكام القرآن ١٢٠٩
* التحرير والتنوير ١٢١٣
* روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٢١٦
* محاسن التأويل ١٢٢٣
التفاسير المبتدعة والمخلّطة ١٢٢٨
* تفسير الماوردي ١٢٣٠
* مفاتح الغيب ١٢٣٣
* الكشاف ١٢٣٣
* تفاسير الصوفية ١٢٣٥
* حقائق التفسير ١٢٣٥
* التفاسير الباطنية ١٢٣٦
* شروط التفسير الإشاري ١٢٣٦
* تفسير القرآن للعز بن عبدالسلام ١٢٤١
* في ظلال القرآن ١٢٤٥